



عَبَّة الشَّافِيَّة

رواية روكامبول

المجلد الاول

يحتوي هذا المجلد على :

الارث الخفي

التوبة الكاذبة

الفادة الاسبانية

انتقام باكارا

الارث الخفي

رواية فرعك مبولك

ترجمة الكاتب البليغ الأستاذ

طانيوس عبده

الجزء الاول

الارث الخفي

المكتبة الثقافية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٩٨٠

الارث الخفي

المقدمة

- ١ -

كان نابوليون الأول عائداً من مدينة موسكو بعدما نشبت فيها نار الروسيين وقد غرق نصف معسكره العظيم في مياه نهر برزينا الثلجية . وكان السيل عرماً والرياح زعزعة تهب من جهة الشمال والأفق ممتماً متلبداً بالقيوم السوداء والبرد قارصاً فكانت تلك الجنود التي القت الرعب في قلوب أوروبا المتحدة ، تقاوم بقوة اليأس جواذب النعاس المميت وتدافع بمعامل الانفة ألم الجوع القاتل ، وكان بعض المشاة ينازعون العقبان جنث الخيول ومنهم من كان يغلبه النوم فيرقد رقدة لا انتباه بعدها ، وهم مع كل ذلك يلجأون إلى الفرار من حين إلى حين خشية مدافع الروسيين ومطاردة القوزاق . وان بين أولئك المنكودين ثلاثة فرسان قد أورا إلى غابة صغيرة وجعلوا يجردون الثلوج عن أغصان العليق ثم أحرقوها وقعدوا حولها يصطاون .

وكان أحدهم في الخامسة والثلاثين من عمره مرتدياً بلباس تدل على أن له في الجيش رتبة أميرالاي وهو فوق الرتبة في الرجال أزرق العينين قد ارتسمت على محياه النبيل علائم الشجاعة والصبر وهو ملقى بين رفيقيه وقد تكسرت

ذراعه واثخن بالجراح .

وكان الثاني قائد مائة وهو في مقتبل الشباب أسمر لون الوجه ذو
مضطرب لا يستقر وقد جلس إلى جنب رئيسه يعينه "على الاصطلاء و
الاضطراب ظاهرة على وجهه العبوس .

أما الثالث فكان من جنود الحرس وقد طار فؤاده شعاعاً لجراح مولاه
جالساً بقربه ودموع الحمو تنهمل من عينيه فكان إذا سمع دوي مدافع أو
يوقع حوافر ينهض نهضة الليث ويسير باحثاً عن جهة المطاردين ثم يعود
مولاه فيغسل جراحه الشخصية بمنهل الدموع .

وكان الظلام قد أقبل وأخذ ضباب الشفق المقيم يمزج الأرض بالسماء
الأميرالاي إلى قائد المئة وقال له : ما ترتأي يا فيليبون أنقيم الليلة في هذا الم
فلم يدع الجندي مجالاً للقائد وأجاب بحماسة : مولاي ، أن الب
قارص وليس من الحكمة أن نبني في هذه الغابة فان القوزاق قريبون منا .
فجعل الأميرالاي ينظر اليهما ثم سأل فيليبون ثانية عن رأيه فأجاب
أصاب بستيان فيما ارتآه من رجوب الرحيل لأننا إذا اختفينا في هذا الم
الخطر فلا نفيق ، ومتى خمدت النار نموت من البرد ، وفوق ذلك فان
مدافع الروسيين يندرتا بقربهم منا فلا نجاة لنا إلا بالفرار .

فتنهده الأميرالاي وقال : يا للشقاء ويا للعار ، انهرب من وجه فرقنا
القوزاق ، وما يتحدث الناس عنا ومن عرف ما لنا من الاقدام ، ولكن
من يستطيع أن يغلب الطبيعة ، ومن يطيق ثماتاً أمام هذا البرد الهائل ؟
كيف أقدر على الرحيل وقد وهنت قواي لفرط ما نزل من دماي ؟
دعوني أموت قرب هذه النار فان رجلي قد ضعفنا عن حملي .

قال هذا وقد صاح صيحة الألم وانطرح أمام النار وهو على وشك الموت
فتشارر رفيقاه بالنظر ثم همس القائد بأذن الجندي وقال إذا تركته
ينام فلا نعود نقوى على إيقاظه

فقال الجندي على أذنه وقال : لا بأس من رقاذه ساعة فاني أحمله فائماً على كتفي .
فأصغى القائد قليلاً ثم قال : أن الروسيين على مسافة ثلاثة فراسخ منا فليمن إذا شاء ونحن نسهر بقربه .

وقد سمع الأميرالاي هذه العبارة فمد يده إلى فيليبون وقال له أني أسديك أيها الصديق الحميم جميل الشكر لما تظهره نحوي من الرأفة والبر بي واني أهنيك لثباتك أمام البرد الهائل فلو لم تكن أشجع مني وأصبر لكنت على ما تراني عليه الآن من الوهن وضعف العزيمة .

فأجابه القائد قائلاً : اني أقاسي من البرد نفس ما تقاسيه غير انك مشغول بالجراح وأنا لم ينزف مني قطرة دم وهذا هو السبب فيما اهتمت به نفسك من الوهن وضعف العزيمة .

فشكره الأميرالاي وقال له : لصنع اليّ فاني أشعر بدنو الأجل وأحب أن أحدثك بأمر أرجو ألا يثقل عليك سماعه أن لي من العمر خمسة وثلاثين عاماً وقد دخلت في سلك الجندية في السادسة عشرة من عمري وارتقيت إلى رتبة أميرالاي ولي من العمر ثلاثون عاماً ، أريد بذلك انه كان لي شيء من الشجاعة والصبر تدرجت بهما في سلم المعالي وكدت أبلغ بهما منتهى آمالي ، وهما صفتان ما نزلتا بنفس امرئ إلا رفعتها من دركات المحول إلى أقصى درجات التقدم وكأني بهما الآن وقد سالتنا مع دمائي النازفة من جراحي وحل مكانها هذا البرد القارص الذي لا يحتمل وطالما خضت المعامع واستهدفت لسهام الخطوب وعرضت نفساً رخصت في حب الوطن إلى الأخطار ، فاني أذكر معركة دفنت بها يوماً كاملاً تحت جثث القتلى ، ويوماً افتحمت صفوف الأعداء في حصار ساراكوس في اسبانيا وفي صدري رصاصتان وأخرى في واركرام ثبتت على ظهر الجواد إلى نهاية القتال ، وقد جرحت فخذي إحدى الحراب وتراني الآن أشبه بالأموات جسماً بغير روح، جباناً يهرب من مطاردة القوزاق كل ذلك مما

أقاسي من البرد لا مما نزع من الدماء .
 فقال له القائد بلهجة المعزي : صبراً أيها الصديق فسنداد هذه البلاد
 المصقعة إلى بلاد تسطع بها أشعة الشمس فيخرج الأسد من عرينه .
 فتنهد الأمير الاني وقال : واشدة شوقي إلى الأوطان وواأسفاه فاني سأموت
 قبل أن أرى بلاددي . ثم تبسم ابتسام القناط وقال وهو يدفع جواذب النعاس
 القاتل : لا ، لا يجب أن أنام فإن علي أن افكر بامرأتي وولدي قبل ذلك
 فاصفيا إلي انكما يا صاحبي ستميشان بعدي وسيطبع تذكاري ودادي أثراً
 في قلوبكما فأعيراني السمع فهذا آخر ما أحدثكما به . ثم مديده إلى فيليبيون
 وقال : انني تركت أيها الصديق في فرنسا وطني المحبوب امرأة في مقبيل
 الشباب وطفلاً صغيراً ، وعن قريب ستصبح تلك المرأة أرملة وذلك الطفل
 يتيماً .. لا تقطع علي حديثي أيها الصديق فاني أتمنى لنفسني ما تتمناه لي من
 العيش لأشاهد امرأتي وولدي ولكن قلبي يحدثني بقرب الوفاة وأن تلك الأرملة
 وذلك اليتيم يحتاجان إلى نصير أمين .

فرجع بستيان على ركبتيه واستشهد السماء بيديه وهو يقول : اني سأبذل
 حياتي ودمي قطرة قطرة في خدمة امرأتك وولديك اذا أصابك الدهر بمكرهه .
 فشكره الأمير الاني وكان اسمه ارمان دي كركاز ثم حول نظره إلى القائد
 فقال : وأنت .. أنت أيها الأخ الشفيق والصديق الصدوق ..

وكان هذه الكلمات قد فعلت بالقائد فعل الكهرباء بالاجسام فاضطرب
 عند سماعها كاضطراب الريشة في مهب الريح . ولكن ذلك مر بأسرع من
 التصور فلم يلبث أن عاد إلى ما كان عليه من الكدر ، واقترب من ارمان
 مصغياً اليه فقال ارمان أنت يا خير من عرفته في أيامي انك ستكون سند
 تلك الأرملة ووالد ذلك الطفل الصغير

فاحمر وجه القائد وبرقت اسمة وجهه غير ان ارمان لم ينتبه الى ذلك
 فمضى في حديثه يقول :

— اني لا أجهل سابق غرامك بامرأتي منذ كانت تدعى باسم ذويها وأذك
تذكر يوم خلعت قلمينا بأدائها وراحنا على حبها كيف تركنا لها الخيار في
انتخاب أحدنا بعلا لها ، فكانت يومئذ أوفر منك حظاً واختارتي لها قريناً
برضاك فلم يكن ذلك ليقطع صلوات المودة بيننا بل استحسنت في أثره علائق
الوئام واستوثقت عرى الأخاء مما دعاني الى شكرك في حينه شكر محب
عرف سر الولاء ودعا لك الله في صلواته إذ كنت السبب في ما وصل اليه
من ذلك الهناء ..

والآن فان ذلك الزوج الرؤوف سيزج في ظلمات الأبدية وسيغادر تلك
المرأة أرملة لا نصير لها الاك ، ولا رجاء لها سواك ، فأنت ستكون بعدي
زوج تلك الأرملة لتكون أباً لذلك اليتيم .

نعم انك ستزوجه من بعدي وهذه وصيتي الأخيرة كتبتهما عند نشوب
هذه الحرب ، وقد تركت لك بها نصف ثروتي ، أما الآن فانك ستقتسمها مع
امرأتي وولدي لأنني أثق بك وباخلاصك ، ولا ريب عندي بأنك ستنفذ ارادة
محبتي الأخيرة . قال ذلك ومد يده السليمة إلى جيب صدرته فأخذ منها
غلافاً ضخماً واعطاه لفيليبون

فاصفر وجه القائد وأخذ الغلاف بيد ترتجف وهو يقول كن مطمئناً أيها
الصديق فسا تمثل لأمرك اذا اصبت بمكرهه ، ولكنك ستبرأ من جراحك
وستعيش لامرأتك التي طمعت على قلبي خير أثر من الاحترام .

فتبسم ارمان تبسم القناط الواثق بدنو الأجل ولم ينبس ببنت شفة بل تأوه
واطمق عينيه وقد غلبه النعاس . فقال فيليبون لبستيان : لندعه ينام بضع
ساعات نتناوب بها السهر عليه ، ثم اضجعهما بقرب النار وعطياه بما كان عليها
من الثياب فلم تمر دقيقة حتى سمع غطيطة .

فجلس بستيان بقرب رأسه وجعل يزيد الضرم كلما اخذت النار او كادت
وهو يحاذر من وقوع الشرر عليه ويكاد يذوب حزواً على مولاه .

اما فيليبون فكان غارقاً في لجج التصورات ملقياً بنظره إلى الأرض وهو ينكتها بحسامه الطويل، وكان يقطع تصوراته من حين إلى حين ناظراً إلى ارمان نظرة احتقار وانتقام، وإلى بستيان نظرة حذر وتحسب. ولا بد لنا في سياق هذا الحديث من الالمح إلى ماضي هذا الرجل الذي كان يحبه ارمان محبة اخاء، ويشق به ثقة عمياء، وهو لو مثلت صورة اللؤم لما مثلت بغير رسمه. نقول: انه كان فاسد الاخلاق كثير اللين والمكر وهو في الأصل من رعاع الطليان تطوع في الجيش الفرنسي فلم تكن اصحابه على فقره المدقع الا من اصحاب الملايين.

ولم يمض عليه زم يسير حتى ارتقى إلى رتبة قائد لفرط تحيله ولاحتياج الجيش إلى قواد لا بأسه واقدامه، فانه كان يستر جنبه ومكره ببراقع من الرثاء.

وقد ارتبط مع ارمان منذ خمس عشرة سنة برابط متين من الوداد حتى أصبحا لا يفترقان. وقد لقيا منذ ثلاثة أعوام مرت على المعركة التي نحن بصددتها السيدة هيلانة ديران، ابنة احد كبار القواد وكانت بارعة في الجمال فعلق بها الأثنان، اما هي فاختارت ارمان بعلاها على ما ذكرناه آنفاً فثارت الغيرة بفيليبون واضرر الشر لرفيقه كاتماً احقاده مترقباً فرص الانتقام حتى انه اطلق عليه الرصاص في مواقع كثيرة فلم يصبه بأذى ولم يوفق لقتله وهو في كل ذلك يظهر له التودد وتزيد احقاده بازدياد محبة ارمان له شأن من طبع على الحسة والدناءة.

والآن فقد وجد ضالته المنشودة وتيسر له ما كان يحلم به، من الانتقام فنظر إلى بستيان الساهر على مولاه بجنود والدة وقال بنفسه: ان هذا الجندي يشغل علي ويحبط مساعي.. قال ذلك وانتصب على قدميه وذهب إلى جواده.

فسأله بستيان: ماذا تفعل؟

- أريد أن امتحن غدارتي فاني أخشى ان تكون قد ترطبت من البرد.
وعند ذلك اخذ مسدساً وامتحنه امام الجندي الذي كان يرافقه فسكون

وارتياح ، ثم اخذ مسدساً ثانياً فامتنحنه كما امتحن الأول وبعد ان وثق منها
صوب احدهما على الجندي وقال : اتعلم يا بستيان ان لي مهارة شديدة باطلاق
الرصاص ؟

-- هذا لا ريب فيه ايها القائد .

انعلم اني اصبت يوماً قلب عدو لي بمبارزة على بعد ثلاثين خطوة ؟

-- ذلك ممكن .

ولقد فعلت اعظم من ذلك فاني كنت اراهن على ان اصيب إحدى عيني
خصمي وكنت اربح دائماً .. ولكني اؤثر دائماً اصابة القلب فان ذلك يقتل
الخصم على الفور ؟

فرجع بستيان منزعجاً الى الوراء لما رآه بصوب المسدس اليه وقال بلهجة
الرعب ماذا تفعل ؟

فأجابه ببرود : اني اصوب الى القلب فاني لا اريد لك العذاب .

وللحال اطلق عليه المسدس فصاح ذلك الخادم الأمين من الألم وسقط على
الأرض مخضماً بدسائه .

وقد دوت الغابة بصوت البارود واستيقظ ارمان بالرغم عن نعاسه الشديد
فنظر الى ما حوله نظرة الرعب والقلق ورأى ذلك الجندي المسكين ساقطاً على
الأرض ينظر اليه نظره المودع الأسف ويده على قلبه المطمون .

ثم نظر الى فيليبون فرأى الزبد على شذقيه وملامح الانتقام الوحشي
ظاهر بين عينيه فنسى جراحه المؤلمة وجلس مسرعاً وهو يحاول الوقوف ،
ولكن فيليبون لم يمهله بل وثب عليه وثوب النمر المفترس والقاه على الأرض
فوضع إحدى ركبتيه على صدره المثخن بالجراح وضغط عليه ضغطاً شديداً
وهو يقول : تباً لك ايها القرد الأبله فلقد وثقت بي في حين كان يجب ان تحذر
مني كما تحذر من الد أعدائك .. انت يا من سلبني المرأة التي كانت مطمح امالي،
تلك التي لم أحب ولن أحب سواها في هذا العالم ، طب نفسك فساتزوج

بأمرأتك وسأتمتع بأموالك على ما أوصيت . والآن فلم يعد لك إلا دقيقة واحدة للحياة ، إذ لا فائدة لي من حياتك فلتمت لأحيى بعدك .
فاجتهد ارمان ان يتخلص مجذوباً بميل حفظ الحياة فعاجله فيليبون باطا الرصاص فسقط ارمان وهو يقول : يا ايها النذل . . وكانت هذه آخر كلمة قد
أما فيليبون فغادر ارمان وقد سال نخاعه على يده الأثيمة وبستييان و غارق بدمائه ولم يطلع على ذنبه غير الله .
مضى على تلك الموقعة الهائلة والجرم الفظيع أربع سنوات أصبح غصونها ذلك القائد الوحشي أميرالايًا وزوجاً لأرملة ذلك النبيل أرم دي كركاز .

وكان فيليبون يصيف مع امرأته وابنها في قصر له في كرلوفات وه من أحسن قرى بريطانيا وكان هذا القصر من قبل لعائلة أرمان دي كركاز فانتقل بعضه بالارث الى ارملة وبعضه بالوصية الى ذلك الغادر ، وهو وا عند حدود فيتر على شاطئ البحر ، تحيط به من أكثر جهاته غابات كثيرة الأشجار

- ٢ -

وكان ظاهر القصر يدل على قدمه ، وهو محاط بسور تدل آثاره أنه م عهد الصليبيين ومزدان من الداخل بأجمل التصاوير التاريخية وقد جاء اليه فيليبون مع امرأته في أواخر ابريل عام ١٨٣٦ ، ومعها ولدتهما الذي كان يدعى أرمان باسم أبيه القليل ، فكان قد حصل على لقب كونت عندهما خدمت نا الثورة فكان يعيش عيشة العزلة والانفراد مع تلك المرأة التعيسة التي أصبحت بعدما علمت بوفاة زوجها ارمان ، شاحبة اللون ساهية الطرف لمخيلة الأعصاب

بعد ان كانت من أجل نساء عصرها كما شهد لها بذلك كل من كان يراها في بلاط نابليون العظيم .

فبينما كانت يوماً منذ أربعة أعوام جالسة في منزلها تنتظر عودة زوجها بلاء الجزع وتتسلى على فراقه المؤلم بداعبة ولدها الصغير دخل عليها فيليبون وهو بملابس الحداد .

ولا بد لنا أن نذكر ان هيلانة كانت تكره هذا الرجل كرهاً شديداً ، وتؤنب زوجها لمولاته وتحذره منه غير ان أرمان كان طاهر القلب صافي السريرة فلم يعر امرأته اذناً صاغية ولم يرعها سمعاً ، واستمر على مودة صديقه فكان ذلك يزيد هيلانة نفوراً من هذا الرجل وبغضاً له حتى انها كانت تتشاغل عندما يزورهم أو تتأرض كي لا تجتمع به ولا تراه .

فلما رآته داخلاً عليها بملابس الحداد وهيئته تنذر بالمصائب وقفت منزعجة وقد ارتعدت فرائصها من الخوف فدنا منها وأخذ يدها بين يديه وهو يتكلم بالبكاء وقال : لا حيلة لنا يا سيدي بقضاء الله فلقد فجعت بزوجك وفجعت بخير صديق لي فلنستوف البكاء اذ نحن في المصائب سواء .

ولم يمر على ذلك بضعة أيام حتى علمت الأرملة بوصية زوجها القائلة بوجوب زواجها بعده بفيليبون غير ان كره الأرملة لفيليبون كان شديداً فعمست في بادئ الأمر ارادة زوجها ورفضت الزواج بصديقه الخائن

أما القائد فانه أظهر انذهاله لوصية صديقه وانه غير أهل لها وكان واسع الصدر كثير الصبر شديد اللين فتوسل الى الأرملة ان تقبله كصديق لها ولطفها فقبلته ، وبقي بقرها ثلاثة أعوام يتظاهر بالحشمة والوقار ، ثم جعل يستعطفها بلاء التودد والحنان الى ان أخذت تراجع نفسها في سابق حكمها عليه ، وكانت قد سمت رتبته في البلاط الامبراطوري واملت لولدها خيراً بواسطته لما رأت من علو منزلته واستحالة اخلاقه فرضيت عنه بعض الرضى وركنت اليه بعض الركون فاغتنم تلك الفرصة وجعل يزيد من تذله وتصيبه

وما زال بها الى ان رضيت به بعلاً واشهر قرانها .
ولكنها لم تلبث بعد ذلك القران التمس ان عادت الى سابق كرهها له
ونفورها منه لما رآته من شرهاته وقسوته التي كانت كامنة في صدره كموت
النار ولما كان يظهر في الانتقام من تلك الأرملة الضعيفة فرجعت إلى عزلتها
فراراً من ذلك المفترس الذي كان يسم لها امام الناس ابتسام الحب والاحترام
ويبلوها بأشد العذاب عند اختلاهما

وكان لا يشغل ناله إلا بما يستطيع أن يسعى به إلى تلك المرأة التي لم تحبه
غير يوم واحد ولا يهتم إلا بما يسهل له سبل الانتقام منها وهي لم تسعى اليه قط
بحياتها إلى أن علم يوماً أنها علقت بولد منه فوجد ضالته المنيعة وأملت عليه
قريحته الجهنمية هذا التصور الفظيع (إذا مات ابنها فان ابني يريث جميع هذه
الثروة العظيمة وحده ولا أسهل من اعدام طفل لم يبلغ أربعة أعوام) ومن
ذلك الحين أخذ يترقب الفرس للوصول إلى هذه الغاية الهائلة .

ولقد سبق لنا القول أن قصر كرلوفان كان قائماً على شاطئ البحر وكان
به سطح يحيط به رواق ضيق كان يلعب عليه أرمان عندما تتحول عنه أشعة
الشمس .

وكانت أمه كثيرة الخشوع شديدة الرغبة في الصلاة إذ كانت تجدها خير
تعزية على أحزانها فتركت يوماً يلعب وحده على السطح وولجت غرفتها فبحثت
أمام صليب من العاج واستغرقت في صلاتها فلم تفرغ منها إلا وقد غربت الشمس
وسار الظلام فانتبهت مرعوبة لهدير الأمواج وأول ما خطر على بالها ولدها
الذي لم تره بقرها .

وكان الجو قد أتم وثارت الرياح وأدهمت السماء فلعلمت الرعود واندفع
السيل كأفواه القرب فهاجت الأنواء حق كاد صوت الأمواج يزيد على قصف
الرعود فخرجت تبعد عن ولدها وهي تضطرب كالصفيحة بلله القطر فلم
تكذب تبلغ الباب حق لقت زوجها داخلاً بلباس الصيد وعليه ملامح الرعب

فارتفعت الرؤياه وانقبضت نفسها لمنظره فلم تستنطع كتمان اضطرابها وسألته عن ولدها سؤال قلق وارتياح فاجابها ببرود أني عجببت لبعده عنك ولو لم تسبقيني بالسؤال عنه لكنت سبقتك اليه .

فاختلج فؤاد تلك الأم التعميسة وفتحت نافذة في الغرفة تطل على السطح ونادت بصوت متقطع أرمان فلم تسمع لصوتها صدى ولم تجبها غير الرياح الشائرة

وكان على الطاولة في الغرفة مصباح ضعيف يضيء بأشعته المضطربة جوانب الغرفة فنظرت إلى فيليبون وإذا بعلائم الخوف مرتسمة على وجهه وعيناه تضطربان اضطراب الأثيم الخائف فأحسست بالخيانة وصرخت به تقول : ولدي قل لي ما صنعت بولدي .

أما فيليبون فإنه تجلد جهده الطاقة وقال : اني لم أر ولدك ولم أدخل القصر إلا الآن .

فلم يزد لها جوابه غير ريبة وخرجت من الغرفة هائجة تصيح أرمان أرمان ولكن صوتها لم يسمعه غير ذلك البحر الهائج .

٣ -

كان فيليبون قد عاد من الصيد ودخل القصر منذ حين دون أن يلتبه اليه أحد من الخدم فسار اتفاقاً إلى السطح الذي كان يلعب الطفل عليه .

وكان الظلام قد أقبل فلم يسر بضع خطوات حتى عثرت رجله بالعويصة الطفل وهي فرس صغير من الخشب فتتحقق منها وجود الولد لانه لا يفارق العويصة وبينما هو يبيحث عنه إذ سمع غطيطة خفيفاً فسار اليه فرأى الطفل قائماً بقرب حصانه الخشبي وقد تعب من اللعب .

وكان فيليبون قد صرف جميع ساعات النهار في العزلة يجهد الفكرة

لتمكنه من حيلة يلقي بها الطفل في شرك الموت طمعاً بأمواله وتشفياً من
فلم يمتد إلى سبيل ولم يفتح له باب فلما رآه راقداً على السطح أيقن بالفوز و
بأمنيته فاخذ الطفل بين يديه ونظر إلى الجهات الأربع نظرة السارق
رقيباً ثم اتى به إلى البحر ووقف في الرواق يراقب سقوطه بعينين تتوقدا
بنار ذلك القلب الفظ الأثيم فهوى الطفل إلى البحر واحتجب عن مرآ
الأمواج فكان كفنه الأبيض ذلك المعجاج المتلاطم .

ثم وقف بعد ذلك يتسم ابتسام المنتصر وهو يقول في نفسه : قد بلغ
أردت فإن تلك الثروة العظيمة ستكون لابني من بعدي ولا دليل على جرمي ،
فإن ما يتبادر إلى الذهن هو ان الولد قد هوى إلى البحر من نفسه ولا بد
في ذلك ولم يرني احد عند دخولي فلا خوف عليّ من التهمة . ثم لث بر
سأهي الطرف بغير حراك إلى ان عاد اليه هدمه وسكونه فدخل إلى
امراته وكان ما كان من محادثتهما .

أما امرأته فكانت قد اقلقت بصياحها الفصير وساكنيه فشغلوا جميع
البحث عن ارمان ، يحولون من مكان إلى آخر ، وهي تبكي بكاء الحنساء وتندب
ولدها بصوت متقطع يذيب قلب الجماد كل ذلك وفيليبون يسير في اثر
وهو يتكلف الحزن ويتظاهر بالقلق ، وما زالوا كذلك إلى أن عاد اليهم
الخدم وبيده قبعة الطفل والعوبته ، فلما رأهما فيليبون اظهر الاضطراب و
والأسفاه اني أخشى ان يكون قد سقط إلى البحر ، فوهت قوى امرأته لح
من هذا القول وسقطت على كرسيها وهي توشك ان يغمر عليها من الاشفا
فبينما الخدم يحيطون بها وفيليبون يحاول ان يطمئنها ويسكن روعها ، اذ د
رجل غريب ووقف في الباب ينظر إلى فيليبون نظرة العظمة والاحتقار ،
يكذ فيليبون يتبين وجهه حتى رجع وجلاً إلى الوراء منذعراً ، كأن الصا
قد انقضت عليه واتكأ على الحائط كأن رجله قد ضعفتا عن حمله .

- ٤ -

أما ذلك الرجل الذي ظهر على باب الغرفة وراع منظره فيليبون فقد كان يناهز الأربعين من العمر مرتدياً برداء أزرق طويل عليه إشارة حمراء كما كانت تلبس الجنود في ذلك العصر وكان عالي القامة عليه ملامح الشهامة ، وقد اصفر وجهه من الغيظ عندما أبصر بفيليبون فرماه بنظرة احتقار خرجت من عينيه كالسهم المارق الى فؤاده ثم تقدم اليه وصرخ به يقول :

- أيها القاتل .

فاندعر فيليبون وقال بصوت متقطع: من الذي أرى .. بستيان ؟ أذا يوم النشور ، أبعث من في القبور ؟

فقطع بستيان عليه الكلام وقال : نعم أنا هو بستيان ، أنا هو ذلك الرجل الذي ظننت انك قتلتته وهو لا يزال حياً يرزق . نعم أنا هو ذلك الجندي الأمين الذي أطلقت عليه غدارتك فأغمي عليه لفرط ما نزع من دمائه ، ثم أفاق فوجد نفسه قرب مولاه القتل ، نعم أنا ذلك الخادم المطيع الذي مكث في أسر الروميين أربعة أعوام فعاد الآن يسألك عن دم مولاه الذي هدرته غدراً وعدواناً ..

ثم نظر الى الكونتيسة وقال : سيدتي .. ان هذا هو الذي قتل الولد كما قتل أباه ..

ولقد تعجز الأقلام وينحبس اللسان عن وصف ما كان من الكونتيسة بعد أن تبينت لها تلك الخيانة ، وعلمت بقتل زوجها وابنها ، فزارت كاللبوة التي فقدت أشبالها وانقضت على فيليبون انقضاض الكواسر ، تحاول تمزيقه باظافرها وهي تصيح به : أيها القاتل .. ان النطع ينتظرك وسأقودك إلى الجلال بيدي .

فكان فيليبون يهرب من وجهها وقد شعر بدنو الأجل وهي تجهد في أثره
فبينما هي هاجمة عليه إذ وقفت متكئة على كرسي وصاحت صيحة
أضلت صوابها .
ذلك أن الخواص فاجأها وأحست بأن ذلك الرجل يتحرك بأحشائها فسقط
على الأرض واهية القوى بغير حراك وكان مخاضها علة نجاة ذلك الرجل الذ
عزمت ان تقوده الى النطم . ذلك الخائن القاتل الذي لم ينقذه من انتقامها مو
ولده الذي كان يشفع به في أحشائها .

- ٥ -

مضى على تلك الحوادث الهائلة أربعة وعشرون عاماً ، نعود بعدها إ
قص ما ستقفون عليه من حوادث ، كان بدؤها في أواخر أكتوبر .
عام ١٨٤٠ .

كان في إحدى ليالي هذا الشهر رجل يحكم عليه من لباسه انه فرنسي الأصل
قطع نهر التيبر وسار الى ترستافر ماشياً مشية الفاكه المتأني .

وكان في عنفوان الشباب له من العمر ثمانية وعشرون عاماً جميل الهيئة حس
الوجه أسود العينين ذو جبين متجمد يدل على شدة معاناة ذلك الشاب لمتاعه
الحياة لندور الغضون في جباهه الشبان .

وكان يسير الهويناء في طريق ضيق إلى ان بلغ منزل قائم عند منتصف
ذلك الطريق تعرض على جدران الدوالي الايرلندية ، وقد تهدلت أغصانها
واختبأت عناقيدها الذهبية تحت الأوراق ، وكانت جميع نوافذ المنزل مغلقة
والسكوت سائداً شاملاً والنسيم بليلاً لطيفاً والقمر تتأوج أشعته فوق الدوالي فما
يسمع إلا حفيف الأوراق وتلمل العناقيد .

فوقف الشاب عندما بلغ الباب وفتحه بفتاح صغير كان في جيبه فولج منه الى دهليز ضيق الى أن وصل الى سلم طويلة من الممر كان في أسفلها غرفة فدخلها وقد استاء إذ لم ير بها أحداً فصعد السلم بمنتهى السرعة والقلق الى أن بلغ الى غرفة فوقف أمامها يلهث من التعب وطرق الباب فسمع صوتاً لطيفاً من الداخل قال له : أدخل .

فدخل ورأى صاحبة هذا الصوت مضطجعة على مقعد في تلك الغرفة المفروشة باجمل الأثاث .

وكانت الصبية على غاية من الجمال تكاد تبلغ العشرين من العمر ، فمد رأتها نهضت مسرعة وهرعت اليه تقول ببشاشة وارتياح: لقد طال غيابك يا أرمان فاني انتظرك منذ حين .

فاعتذر لها ارمان وقال : اني كنت قادماً اليك منذ ساعة فأعماقتني زيارة رجل طلب إلي ان أنقش له تمثالاً فكان ما كان من أمر عاقتي ، ولكن ما لي أراك شاحبة اللون وعليك ملامح التأثر الشديد ؟

فاضطربت الفتاة وقالت : أنت ترد ذلك ؟

فأجابها وقد أخذ يدها بين يديه وجلس على المقعد بقربها : نعم يا حبيبتي مررتا ويسوءني جداً أن أراك دائماً قلقة البال ساهية الطرف واجفسة القلب ، من يخاف أمراً ، ولقد رأيتك اليوم على ازدياد فهل تريدني أن تطلعي علي كنه أمرك ؟

فأجابت الفتاة : نعم يا ارمان انك مصيب بظنك فلقد خفت اليوم كثيراً ولذلك أنتظرك على جمر

— من خفت ومن تخافين وكيف تخافين وأنا بقربك ؟

فأسكتته الفتاة وقالت : إصنع إلي يا ارمان واعمل برأيي ، فانه يجب أن نغادر رومة فانك ظننت اني هنا بأمن من مطاردي وتوهمت انه لا يهتدي إلي بهذا الشارع المنفرد ، ولكن ظنونك قد خابت ، فانه قد علم بوجودي

برومة كما علم بذلك بفيلورانس ، ويجب أن نخرج من هذه المدينة العظمى كما
خرجنا من تلك .

وبينما كانت تتكلم اعترها اصفار شديد ، فسألها أرمان : أين هي
فورترينا الخادمة ؟

— إني أرسلتها كي تدعوك فربما تكون قد سارت بطريق آخر غير الطريق
التي أتيت منها .

— ربما ولكنني موجس ريبة من تلك المرأة التي أقمته في خدمتك وأمرتها
ألا تفارقك على الإطلاق .

— لا تظن سوءاً فهي تؤثر الموت على خيانتك .

فنهض أرمان وجعل يمشي في الغرفة بخطوات غير موزونة تدل على قلقه
وارتيابه ثم نظر إليها وقال : ولكن ما الذي دعاك الى طلب الرحيل ؟
- قد رأيته .

من ؟

هو ..

ثم قامت الى النافذة وأشارت باصبعها إلى باب على قارعة الطريق وقالت :
أمس رأيته بعد ذهابك من عندي واقفاً على هذا الباب وهو ينظر إلى منزلي بعين
يتطير منها الشرر وما كنت أضأت المصباح في منزلي ولكن القمر كان مضيئاً
فما وقع نظري عليه حتى صرخت من الرعب وأغشي علي .

وكأنها رأته إذ كانت تقص حكايته فعاد إليها اضطرابها إلى حد خشي
عليها من الاغواء ، فأخذها أرمان بين يديه وأجلسها على المقعد ثم جثا
أمامها على ركبتيه وقال أتريدين أيتها الحبيبة أن تصغي إلي . أتريدين أن
تتكلمي علي كما يتكلم المؤمن على الله وأن تثقي بي كما يثق الولد بابيه ؟

فتمهدت مرثا وقالت : نعم أيها الحبيب قل ما تشاء فليس لي سواك في هذا
العالم ، فانك عضدي ونصيري وأبي وأمي فعليك معتمدي وفي كل حال وعليك

اتسكالي بعد الله

ثم أنهضته وأجلسه بقربها ، فأخذ يدها بين يديه وقال إني لقيمتك منذ ستة أشهر جاثية عند منتصف الليل على باب الكنيسة باكية قانطة وعيناك مرتفعتان إلى الأفق ، فخلت اني أنظر ملاكاً هبط من السماء وكنت تكين وتبتهلين إلى الله ان يغفر لك فدوت منك وكلمتك بصوت لا أعلم في ذلك الحين إذا كان وجد طريقاً إلى قلبك الطاهر ولكني أذكر انك نهضت في الحال واتكأت على ذراعي فتبعتني .

وقد كنت على ثقة مني فأنقذتك من الموت وقد كنت تطلبينه ، وعوضتك عن اليأس بالأمل فكنت حينئذ من أسعد الناس وانت فقد برئت بعض البرء مما كنت تقاسيه ، اليس كذلك ؟

قالت : نعم يا ارمان فانك شريف واني أحبك .

فتنهذ ارمان وقال وأسفاه ما انا إلا نقاش بسيط ليس لي اسم ولا لقب ولا موطن ، فلقد وجدت في البحر ولي من العمر خمسة أعوام وأنا معلق بما لا أعلم أصادم الأمواج بالرغم عن حداثتي ولاني وإن أكن مثرياً فان صناعتي كافية للقيام باودي وأودك وسأجعلك امرأتى بأقرب حين ولكن لكي أحملك ألا يجب أن أعرف اسم عدرك وأطلع على سره ؟ من هو هذا الرجل الذي يطاردك وكيف لا تخبريني عنه ، ألا تظنين بي الكفاءة لمحايتك منه ؟

فأطرقت مرتاً الى الأرض وقد احمر خداهما من الخجل ثم جعلت تحتلج وقد تبدلت تلك الحمرة باصفرار شديد كمدب اضطر الى قرار يخاف منه ، فقال لها ارمان بصوت محب حنون خرج من صدره كمن يحشش للبكاء حبيبة قلبي ، لا تكتمني عني أمراً مهما كان من أمر ماضي حياتك فان ذلك لا يؤثر شيئاً على حيي لك الذي لا تضمه قوة في هذا العالم

فرفعت عند ذلك رأسها وقالت وأسفاه إذا لم يكن الحب ذنباً فلا أخجل لماضي حياتي . نعم لقد أحببت حباً نقياً طاهراً رجلاً فاسد الأخلاق

لثيم دني الطبع خدعت به وخلته شريفاً ولا جرم فقد كان لي من العمر سبب
عشرة سنة فاستهواني وسرقني من بيت أبي ولكن شهد الله اني ما لبثت أن
عرفت ما انطوى عليه من الحسة واللؤم حتى هجرته وهربت منه .

فوقب أرمان متأثراً وقال : قسماً بحك اني سأقتل هذا التعيس
فأجلسته مرثا وقالت : لصغ ايها الحبيب فاني سأقص لك أمري مع هذا
الفاجر .

فجلس ارمان وعادت هي إلى حديثها فقالت :

- إني ولدت في بلوا من أب تاجر غني وأم من الشرفاء وقد ماتت أمي وأنا
في العاشرة من عمري فبعث بي أبي الى الدير وحين بلغت السابعة عشرة خرجت
من الدير فلقيت ذلك الرجل الهائل

وكان أبي قد ترك التجارة وانسحب من الأشغال بثروة عظيمة فمذ خرجت
من الدير ترك مدينة بلوا وذهب بي الى أرض جميلة له في أورليان وهي تبعد بضعة
فراسخ عن بلوا .

وكان على بعد ساعة من منزلنا قصر جميل لضابط ايطالي الأصل فرنسي التبعة
كان يدعى الكونت فيليبون .

وكان هذا الكونت يصرف مدة الصيف في هذا القصر مع إمرأته وابنه
الفيكونت أندريا ، أكبر مجرم ظهر على وجه الأرض من أيام آدم وحواء .

أما الكونت فانه كان رجلاً حاد المراج شرس الأخلاق بعكس إمرأته التي
كادت مثال اللطف والدعة والذي ظهر لي انه كان يسيء اليها إساءة شديدة
أثرت شر تأثير على مزاجها اللطيف فان رائيتها كان يظنها في الثمانين من عمرها
مع أنها لم تبلغ الخمسين .

وكانت علائق الوداد بين الكونت وبين أبي متينة فذهب بي يوماً إلى
قصره حيث عرفت الكونتسة التي أحبتني بخنان وإشفاق فصرت ازورها في
كل يوم وهي تزدد نحولاً ، ولكنها كانت تتمزى بقربي منها بعض العزاء .

فما مضى على ذلك شهر حتى تبيننت انها عاثشة مع زوجها كغريبين في هذا القصر ، وعرفت ابنها الفيكونت اندريا فتبين لي ايضاً انه لا يحب امه على الاطلاق .

لم تزل تلك المرأة الفاضلة تزيدها العزلة وهنأ والأحزان ذبولاً حتى دنت ساعتها الأخيرة وأحسست بالنزع الشديد في ليلة برد هوائها وأظلم جوها وهي تقاسي ألم النزع وحدها لأن زوجها وابنها كانا في الصيد .

فبعثت تدعوني اليها فأتيت على الفور ورأيتها مسجاة على فراشها تختلج والكاهن بقرها يصلي صلاة الموت وبعض الخدم ركع يبكون .

وكانت تبسح عنباً بنظرها الملتهب عن ابنها ، ففاضت روحها الطاهرة في الساعة العاشرة وكانت آخر ما قالت (اندريا يا ايها الابن العقوق) وأذكر إني سمعت خادماً طاعناً في السن قال بصوت منخفض (ان الفيكونت هو الذي قتل أمه) .

وبعد موتها بيومين عاد الكونت وابنه إلى القصر ، وكان الفيكونت يكاد لا يفارق منزلنا فلم يرض على هذا الائتلاف ثلاثة أشهر حتى استعصنا باللسان عن العين في نقل أحاديث قلوبنا ، ولا أعلم كيف دخل حبه الى قلبي ولا كيف فتنت به بعد ان علمت انه كان السبب في موت أمه بل أعلم انه مرت بنا ساعة آمننت به كما تؤمن الملائكة بالله فاستسلمت اليه وضحيت وأسفاه نفساً زكية على هيكلك ذلك الحب العاسد ..

وبما كان يقوله لي بعد ذلك مرثا اني أقسم لك بما تريدن من الايمان اني سأزوج بك .. كنت عندما الح عليه بوفاء وعوده كان يتعمل برفض ابيه لما بين عائلتي من التفاوت في الغنى ويقول ان ذلك لا يكون قبل وفاة ابي وقد اتخذ من هذا الحاجز حجة على وجوب هربنا فقال لي يوماً ألا تذهبن معي الى ايطاليا فأزوج بك فيها ؟
وأبوك ؟

- إنه يفضب حيناً ثم لا يلبث ان يرضى

- وأبي ؟

- سندعوه الينا .

- إذا فلنخبره بما عزمنا عليه فهو لا يرفض اذا اعترفت له بما كان بيننا ،
ولئن يكون معنا أجدر بنا وأشرف لنا من ان نكون وحدنا .

فأطرق برهة وقد ظهرت عليه علائم الارتباك ثم قال : ذلك لا يكون ابداً
وعلينا بذلك الاقرار خطر شديد فان أباك شديد المحافظة على الشرف فلا آمن
عليك منه إذا اعترفت له بما كان وإذا صفح عنك فهو لا يشترك معنا بخداع
أبي ولكن متى علم الاثنان بارتباطنا الشرعي وعلم أبي ان لا حل لذلك العقد فهو
يصفح عني لأني وحيدته كما تعلمين وله بي مبرة وإشفاق .

وكان ذلك جل ما تتوق اليه نفسي وانا اعتقد به الصلاح والافراط في حبي
فقبلت بما اقترحه علي وكتبت إلى أبي كتاباً كادت تمحو سطوره دموعي ثم
سرت مع من عشقته نفسي في ليلة حالكة الأديم تسكاد تكون اشد سواداً من
حظي فبلغنا مدينة ليلان بعد ٨ ايام .

فاستأجر منزلاً رحباً وتعرف بأشراف ميلان الذين كان يقدمني اليهم كأمراًته
فعاش فيها عيشة بذخ واسراف كانت أعظم وسيلة لتقربه من اشراف تلك المدينة
وحسن علائقه مع أعيانها

وكنت دائماً الح عليه ان يكتب الى أبي ويدعوه إلى الحجى الينا فمكثت
يماطلي في ذلك إلى ان قال لي يوماً قد وصلني كتاب من أبيك وأبي يدلان على
سخطهما علينا فلا استطيع الآن ان اكتب الى أبيك في هذا الشأن ولنصبر إلى
ان تهدأ ثورة غضبهما

فامتثلت لما امر وصبرت كما صبر اما مسألة الزواج فكان يتجنب المباحثة
فيها الى ان اعياني الأمر فكتبت الى أبي رسائل جمّة لم تصله واحدة منها لأن
اندريا كان يأخذها من الخادم كما علمت ذلك بعد حين .

ثم اني الحجت عليه يوماً في طلب القران فأخرج من جيبه كتاباً واعطاني إياه وهو يقول : ان ابي قد طمن في السن ، وهو سيموت عن قريب ، فأتزوج بك

اما الكتاب فكان من ابيه وهذا مفاده :

(إنك مخطيء يا بني باساءتك الى تلك الصبية وإغرائها على الفرار معك ، ولكنني اؤمل ان لا تقتربن بها فان بين نسبكما ودرجتكما بوناً عظيماً ، وفوق ذلك فاني توفقت ووجدت لك عروساً موافقة فأسرع بالعودة ودع تلك الفتاة تعود الى منزل ابيها) .

فسقط الكتاب من يدي مما نالني من الضعف ، وقلت له : على ماذا عولت ؟

- على ان ننتظر .

- ماذا ننتظر ؟

- موت ابي ، فاني اعرف طباعه فاذا عصيت له امرأ فهو يحرمي من إرثه لا محالة .

ثم تركني وانصرف ضاحكاً كأن لم يكن شيء .

ومن ذلك اليوم ابتدأت ان اعلم انه يريد ان يتخذني خليله له لا خليله ، فأصببت بحمى ضعفت حواسي اياماً طويلة ، ثم نكحت من دائي فذهبت من يوم برثي الى كاهن واعترفت له بجميع ما كان فأملني بعفو الله عني وامرني ان اعادر هذا الرجل وان اعود الى ابي فخرجت من حضرته وقد عزمتم على ان امتثل لأمره وذهبت الى منزله فأخبرته باعترافي الى الكاهن وبعزمي على الرحيل فلم يحفل بطلبني وقال لي ببرود : إلى أين ؟

فأنست من سؤاله عدم الاهتمام وثارت بي الأنفة والأبوة فقلت بعظمة وكبرياء : إني سأذهب الى بيت ابي .

فتصنع الاضطراب وقال : ابوك ؟

قلت نعم ابي وهو سيفصح عني ويغفر لي ذنبي لا ريب متى علم كنه
كان خداعك لي .

فتنهذ وقال بصوت الحزين الاسف : وأسفاه اني أكنتم عنك من زمن طوي
أمراً لم أكن أجسر على إطلاعك عليه لرقه عواطفك ولخوفي عليك من تأثب
الأحزان ولكني لا أجد الآن بداً من ايقافك على ما كنت أكره ان اوقفه
عليه لأنك عزمت عزماً ثابتاً على فراقى .

ثم أخذ من جيبه كتاباً عليه إطار أسود وقدمه لي فأغمي علي بعد ان
اطلعت عليه وكان هذا الكتاب وأسفاه ينمى أبي الذي مات من الحزن لأجل
والذي لم يقتله سواي .

قالت هذا واتكأت على صدر ارمان تبكي بكاء مؤلماً فجعل يعزيها ويلاطفم
الى ان هدأت ثورة أحزانها فعادت الى تنمة حديثها فقالت :

قلت لك ان أبي قد مات ولم يكن لي سواه في هذا العالم ، فمذ رأيتني
فريدة شريدة لا ملجأ لي ولا نصير غير اندريا الذي كان حبه لا يزال متمكن
من قلبي رجعت عن سابق عزمي وعولت على البقاء معه وانا أرجو ان يرق
لمصابي ويفي بوعوده لي فصرفت الشهور الأولى من حداثي وهو يتودد إلي ويعاملني
بلطف وحنان ولكنه لم يلبث بعد حين ان غلبه الطبع وعاد الى معاملتي كخليفة
فقطعت كل رجاء وعلمت اني كتبت أمالي على صفحات الماء

وربما كان يحبني ، ولكن حبه لي كان أشبه بحبه لكلبه او لخصانه او
لمتاع يملكه ، ثم أدركه الملل فجعل حبه يتلاشى شيئاً فشيئاً إلى ان زال تماماً
وقام مقامه الجفاء والقسوة .

ولا بد انك تستغرب بقائني على حبه بعد ما ظهر لي من قسوته وبعد ما تيقنته
من جفائه فاني كنت معه على حد قول الشاعر :

أدعوه الى هجرة قلبي فيتبعني حق اذا قلت هذا صادق نزاع
ولكنه كان يزني جفاء في كل يوم ، وآخر ما كان منه انه علق ببائعة زهر

لقيها على باب أحد المراسح فشنت قلبه وانقطع اليها حتى سئمت الحياة وعزمت
عزماً ثابتاً على الهرب ولكن كيف أفر وإلى أين ؟ .

٦

ولا بد لي قبل ان أذكر لك أمر فراري ان أوضح لك شيئاً عن أخلاق
هذا الرجل وشراسته ، فمن ذلك انه اختصم يوماً مع ضابط نمساوي فآل بينهما
الأمر إلى المباراة .

وكان من شروط المباراة ان يكون لكل من المتبارزين الحق بالاطلاق على
خصمه متى شاء فأطلق الضابط أولاً فلم يصبه فصرخت الشهود باندريا كي يطلق
النار ولكنه لم يصنع اليهم بل تقدم الى خصمه وقد أيقن من فراغ غدارته حتى
صار منه على قيد خطوة فوقف الضابط مكتوف اليدين باسم الثغر ولكن
ذلك اللثيم لم يتأثر لتلك البسالة بل تقدم منه ايضاً الى ان وضع غدارته بصدوره
وقال : إنك لا تزال بريءان الشباب رسيكون حزن امك عليك شديداً .
ثم قهقه ضاحكاً وأطلق عليه الرصاص فسقط المسكين يخبط بدمائه .

وقد كان مولعاً بالقمار وفاتحاً منزله للمتقمارين فكان كثير التوفيق يربح في
كل يوم أرباحاً عظيمة ولكن حظ المقامر لا يدوم ولا يثبت على حال .
وقد اتفق يوماً انه خسر مبالغ طائلة أربت على كل ما ربحه فانصرف جميع
المدعويين ولم يبق منهم إلا البارون سبولتي وهو كثير العناد في اللعب شديد الحظ
فيه فأقام يلعب وحده مع أندريا .

وكان اندريا قد امتقع وجهه وأخذ العرق البارد يتصبب من جبينه لفرط
ما خسر في تلك الليلة المشؤمة فكان يلعب بمحبة ويأس بعكس البارون الذي
كان يلعب بمنتهى البرود كمن هو واثق من حظه .

وكان قد ذهب اكثر الليل فلم يبق أمام اندريا سوى ورقة واحدة باله
فرنك فخسر ولما لم يعد لديه شيء وأحس بعزم البارون على الانصراف قال له
أيها البارون ان الدراهم قد نفذت مني ولكن أبي وافر الغنى واني اريد أن
تلاعبني على الشرف بمائة الف ريال فقط .

فتملأ البارون ولكنه خشي ان يسيء اليه برفضه بعد كل ما كسب من
فقبل بذلك على شرط ان يلعب دوراً واحداً بلعبة (الكاراتيه) فبهرت أسر
اندريا بأشعة الأمل وأخذ الورق وقدمه لخصمه .

واني لم اجد اشد هولاً من هذا اللعب ولا اعظم خطراً على اندريا من خسارة
فيه فان شرفه كان متعلقاً على الخسارة او الربح لأنه كان على ثقة من ان أباه
يمده بشيء وإذا خسر ولم يدفعه في اليوم الثاني حسب القواعد المقررة في المقامر
فانه يخسر شرفه وتسقط حرمة عند أشرف ميلان

فأخذ البارون الورق وخلطه جيداً ثم شرعاً في اللعب فربح اندريا
مرتين اربعة أعداد ولم يبق عليه إلا عدد واحد ليربح فخسر ذلك العدد
وربح في الدور الثاني أيضاً فتساويا في الأعداد وأصبح كلاهما في حاجة إلى
عدد واحد ، ولكن الأرجحية كانت للبارون لأن الورق كان بيده ، فنظ
اليه اندريا نظرة النمر المفترس وقال ألا تريد ان نوقف اللعب ونؤج
الى القد .

— لا حاجة الى ذلك .

ثم خلط الورق وأعطاه وبعد ذلك رمى ورقة الى الأرض فكانت (الروا
وعده واحد في قاعدة هذه اللعبة فربح البارون ونهض يقول : انك مديون
ايها الفيكونت بمائة الف ريال

فقال اندريا بصوت متهدج من اليأس لنلعب ايضاً ايها البارون فاذا
كثير الغنى

- لم تسبق لي عادة ايها الصديق ان لعب مرتين على الشرف وفوق ذلك

فان الصباح قد طلع وانا في حاجة الى النوم .
فسكت اندريا وكأن الصاعقة انقضت على رأسه ، ثم جعل ينظر يجمود
الى البارون وهو يجمع ذهبه وأوراقه ، وأنا اراقبه حتى خشيت عليه من
تأثيرات اليأس .

وبينا انا انظر اليه فاكرة في مصيره وأكاد أذو - إشفاقاً عليه إذ رأيت
عينيه قد برقتا بأشعة من الأمل واستحالت هيئته بغتة من القنوط الى البشر
فاعتذر إلي لكونه اضطرني الى كثرة السهر وقام يشيع البارون .

وكان جميع الخدم نياماً وانا وحدي ساهرة وقد نالني من اليأس لحسارته
نفس ما ناله . فلم يمض خمس دقائق حتى عاد الى المنزل وعيناه تقدرحان بشهر
الغيظ فرأيت باحدى يديه خنجرأ مصبوغاً بالدماء وباليد الثانية محفظة وبها
جميع ما كسبه البارون تلك الليلة الهائلة ، فصرخت من الرعب وهربت من
ذلك المنزل التعميس بغير ان يراني فعثرت وانا أعدو في الحديقة بحثة البارون
القتيل فزادني ذلك رعباً على رعبي وأسرعت في العدو وانا لا أعلم اين اسير الى
ان بلغت للكنيسة التي رأيتني منطرحاً على بابها وكان ما كان من أمر إنقاذك
إياي ومسيرى معك .

فقال ارمان: قد علمت الآن ذلك السر في يأسك أيها الملاك المعبود وعلمت
لماذا تلحين في طلب الفرار .

- كلا فانك لم تعلم بعد كل شيء فان هذا الشقي قد علم باقامتنا في فلورانس
وبعث إلي بهذه الرسالة الوجيزة وهي : (إرجعي إلي حالاً وإلا فان عاشقك
الجديد مقتول لا محالة) ، يريد به انت . فهل علمت الآن السبب الذي
دعوتك لأجله الى مغادرة فلورانس لأننا لو بقينا فيها لكان قتلك فهو ذو
قلب لا يعرف الرحمة ، والآن فانه يجب علينا ان نترك رومة أيضاً لأنه عالم
بوجودنا فيها

ثم طوقته بذراعيها وقالت له بخنان . لنهرب ايها الحبيب .. لنفر من

ذلك القاتل .

— كلا لا نفارق ابداً رومة وإذا جسر على الدخول الى هذا المنزل ، فاني اريك كيف اقتله

فاختلجت مرثا كالورقة تحركها رياح الخريف وجعلت تنظر الى ارمان نظرة ذهول فأخذ ساعته من جيبه ونظر فيها ثم قال : إني ذاهب الآن لقضاء بعض المهام وسأعود اليك بعد ساعة فأسهر على عتبة بابك والويل لذلك الشقي اذا جسر على الدنو من هذا المكان .

قال ذلك وخرج عاجلاً وجهته نهر التيبر وفيما هو خارج لقي الخادمة مرثى وهي عجوز كهلة أقامها في خدمتها لحراستها ، فقال لها : أسرعى الى سيدتك واقفلي الباب جيداً ولا تفتحي لأحد على الاطلاق فان معي مفتاحاً .
فانحنيت الخادمة وذهبت ولكنها لم تكذب تبلغ المنزل حتى سمعت صفيراً سرياً فولجت الباب وبدلاً من ان تقفله كما أمرها مولاه تتركته مفتوحاً .

وكانت تلك الليلة حالكة الظلام والشارع خاوياً خالياً من المارة فلما دوى ذلك الصفيير ظهر على اثره رجل كان يمشي الهوينى الى ان بلغ المنزل ففتح الباب ونادى بصوت منخفض « فلورينا » فأجابت الخادمة : ها أنا .
— وما انا قد أتيت .

على الرحب والسعة فانه قد ذهب ولكنه سيرجع .
— لا بأس فان الوقت فسيح لدينا وقد هيأت العربى فلم يبق علينا إلا العمل .
ثم اخذ كيساً من جيبه واعطاه إياها على سبيل المكافأة فشكرت فضله ودعت بالتوفيق ثم تركت المنزل وهربت .

أما هو فانه صعد السلم الى غرفة مرثا فطرق الباب ثلاثاً ولبت ينتظر بسكينة ان يؤذن له بالدخول .

فاضطربت مرثا إذ علمت ان الطارق لا يمكن ان يكون ارمان لأنه لم يحن وقت إيايه ولا الخادمة لأنها اعتادت أن تدخل بغير استئذان وفيما هي مضطربة

حائرة لا تعلم ما تعمل إذ فتح الباب ودخل ذلك الرجل فصرخت صراخ القناط
ورجعت الى الوراء كأنها رأت الشيطان بصورة ذلك الانسان
أما هو فلم يبال بهذا الاضطراب ولم يكثر بما لقيه من اندعارها بل انه
خلع رداءه وتقدم منها فقال : هذا أنا .

فقالت بصوت مخنق : أندريا !

- نعم اندريا فما الموجب لعجبك .

فرجعت ايضاً الى الوراء منذرة ولم تحر جواباً فدنا منها وقال لها بهود :
ايتها الحبيبة انك هربت مني بسبب بسيط دلني على ضعف قلبك وشدة طيشك
وكان يجب ان تعلمي انك اذا تركت الفيكونت اندريا فهو لا يتركك لأنك
تعلمين انه من الذين لا يدعون خليلتهم تفر منهم الى رجل عامل لا ثروة عنده
ولا رزق له إلا من شغل يديه .

وكان أندريا في الخامسة والعشرين من عمره أشقر الشعر ربعة القامة جميل
الطلعة قوي الاعصاب فدنا منها وهي منطرحة على المقعد بين حية وميتة وقال
لها بلطف هيا بنا ايتها الحبيبة فإني لا تعلمين إنني لا ازال على ما كنت عليه
من حبك .

ثم أخذ بيدها فنفرت وأفلتت منه وهي تصيح به : اذهب من هنا .

فقال لها بصوت المتهمك : إن ذهابي لا بد منه ولكننا نذهب سواء لأنني ما
أتيت إلا لأجلك وقد شئت لك قصراً في نابولي فإني نأبلي فإني نأبلي فإني نأبلي
ونعيم الحياة .

فرجعت مرتاً منذرة الى ان لصقت بالحائط وقالت : كلا ذلك لا يكون
فاذهب عني لأنني أبغضك .

ذلك ممكن ولكنني أحبك فالبسني شيئاً يقيك البرد ، وهلمي بنا فإن
الوقت ضيق .

ولما رأى منها ذلك النفور وأيقن أنها لا يمكن ان تتبعه عن رضى أقبل

عليها وحاول ان يحملها بين ذراعيه ويفر بها فصرخت تستغيث ، إلى يا أهل
النجدة ، إلى يا أهل المروءة ، إلى يا أهل العرض !

فلم يجبها غير الصدى ، أما اندريا فإنه حملها بين يديه ومشى بها الى الباب
وفيا هو يسير بها وهي تستغيث ولا يجيب إذ سمعت وقع اقدام سريعة على
السلم وكأنها علمت ان تلك الخطوات هي خطوات ارمان ، فصرخت بذلك
الصوت الذي تستغيث به النساء في موقف الخطر : إلى يا ارمان .

فألقاها أندريا على مقعد في ساحة الدار وتأهب للقاء عدوه الألد .
أما مرثا فانها لم تنقطع عن الصراخ ولم تكف عن الاستغاثة حتى بلغ صوتها
الى مسمع ارمان فهرول اليها كالنمر المفترس .

وقابله أندريا على الباب فصرخ به ارمان : إلى الورا ايها المختلس .
فأجابه اندريا بمثل هذا الشتم ثم حرما خنجرهما والتحجم بينهما القتال فلم ير
أشد هولاً من هذه الساعة

أما مرثا فانها لم تر شيئاً من هذه المعركة الهائلة لأنها أغمي عليها ووقعت
قرب المقعد الذي كانت عليه جثة باردة بغير حراك ، فلم ينتبهها اليها وشغلا
عنها بما هما فيه وكذلك الجيران والمارة فانهم كانوا يسمعون صراخ المتقاتلين
ولا يبالون شأن سكان إيطاليا في ذلك الزمن لكثرة تعدد مثل هذه الحوادث ،
ويقولون ليس من الحكمة أن نتدخل في شؤون الغير

ومر عليهما ساعة وهما في أشد قتال حتى سالت الدماء من جسدتهما وصبغت
ثيابهما بلون الارجوان فكانا إذا تعباً من الصدام يفترقان برهة وهما يلهمشان
لخفوق قلوبهما وكلاهما ينظر إلى الآخر بعين الأفعى ثم ينقضان على بعضهما
انقضاض الكواسر ، وما زالوا يتراوحيان بين النصر والفشل إلى أن لاحت
فرصة لأندريا فطعن خصمه بخنجره طعنة وقعت في عنقه فسقط على الأرض
لايعي ، وهكذا انتصر أندريا على أرمان وأسرع إلى مرثا وهو مخضب بالدماء
فحملها بين يديه وخرج بها مسرعاً فرحاً وهو يقول : ظفرت بها وهي لي ..

- ٧ -

يوجد في باريس شارع عظيم بالقرب من مونمارتر يدعى شارع بريدأ يجتمع فيه الناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم مختصة بآرباب الحرف وبعض الممولين وكان يحبي به في أكثر الأحياء ليالي رقص عمومية يحضرها من يشاء بازياء مختلفة وبراقع على الوجوه يراد بها التستر والخفاء جرياً على عاداتهم في مثل هذه الحفلات .

وقد غص في أحد الليالي منزل أحد المصورين بالناس من مدعو وطفيلي فدار الرقص والتفت الخصور وترنحت القدود على أطيّب الألمان .

وان بين أولئك المدعوين شاباً مرتدياً بملابس سوداء ، وعلى وجهه برقع كان ينظر إلى تلك الحفلة نظرة الازدراء وهو واقف على شرفة تطل على الطريق ، لاه عن الرقص وبهجة ذلك المجلس بتأملات عميقة ، وتصورات كان يحسبها التأثير فيخرجها صوتاً متقطعاً ، بحيث لو دنا منه رقيب لسمع كل ما يقول .

وكان ينظر إلى منازل باريس وقصورها الباذخة بملء السويداء وهو يقول بصوت منخفض

« هكذا تمر الحياة وتسير بنا الأيام وكلنا نسعى وراء السعادة ونجد في أثر النعيم ولا ينال من ذلك ارباً ولا تقضى له لبانة . . أرقصوا أيها المغترون فانكم لا تزالون في عنفوان الشباب ونضارة العمر ولم تصلوا بعد إلى متاعب الحياة . إفرحوا واضحكوا فإنكم لا تهتمون بغير أنفسكم وأعينكم غافلة عن إخوانكم الذين يتعذبون ويبكون .

« يا مدينة باريز العظمى ويا ملكة العواصم ويا أم البلاد فيك اجتمع النعيم والهناء وبساحتك استقر البؤس والشقاء . هنا النعيم طالع وهناك البؤس نحيم

وأمامي الحظ مقيم وورائي الكد عامل وعن يميني أغاني السعداء وابتسام المحبين
وأحلام الآمال الذهبية وعن يساري بكاء المشكودين وشقاء الأرامل والأيتام
وأنين الموجه ودموع ابن السبيل .

« هنا ضجيج مركبات الموسرين وهناك عويل المظلومين وصوت سياط
الجائرين وقلقلة مفاتيح السارقين . أيتها المدينة العظمى لقد حوت وحدك من
الفضائل والذائل أكثر مما حوته جميع ممالك الدنيا . يا بابل القديمة ويا مسرح
الوقائع الهائلة لقد عجزت شرائعك عن معاقبة الجانين وعجز أولو البرفك عن
اغاثة المساكين فلا عوقب المسيء ولا كوفيء المحسن فمن لك برجل موسر طاهر
الأخلاق يغفل يد الظالم ويحبر قلب البائس ويرثي لدمع الأرملة ويحن لشقاء
اليتيم . أواه ومن لي بالمال ؟ فلو كنت مثرياً لكنت ذلك الرجل » .

وقال ذلك ثم تنهد تنهداً طويلاً وحاول الدخول إلى ساحة الرقص فاعترضه
أحد الرقاصين وكان متستراً بثوب أيكوسي وقال بلمهجة سخرية ، عفواً يا
سيدني فاني أرى تشابهاً بين أخلاقك وثوبك المقيم

فلم يكذ يسمع الشاب صوت الايكوسي حتى اختلج فؤاده واضطرب
ووقف مصفياً إلى حديث الايكوسي وقد تبين له انه سمع هذا الصوت في
موقف شديد فقال الايكوسي : يخال لي إنني سمعتك تحدث نفسك بأحاديث
جليلة الفائدة .

— ربما .

— ألم تقل فيما كنت تحدث به نفسك انك لو كان لك مال لكنت
ذلك الرجل ؟

— نعم يوجد مهمة عظيمة لا يستطيع أن يتولاها في هذه المدينة الرحبة
إلا من كان كثير المال .

— أنا لها فان أبي أصبح على أهبة الموت وسيدع لي بعد موته دخلاً سنوياً
يزيد على المليون .

. أنت ؟

- نعم أنا .

-- إذا أنظر إلى هذه المدينة التي بلغت إلى أضعاف ما بلغتة بابل من العظمة . أظن اليها تر الذنوب تحتك بالفضائل وأصوات الضحك تقترن بأناث البكاء وأغاني الحب تمزج بدموع اليأس والقتال السفاك . يمشي على الأرض التي يمشي عليها الورع الشهيد ، ألا نطن أن الرجل الحاذق الموسر يقدر أن يفرق بين هذه الأضداد .

فنظر اليه الايكوسي وقال له بصوت الهازي : لقد أصبت فيما تقول فان من كان مثرياً في هذه المدينة يعمل بها ما لا تقوى على عمله الأبالسة فان بها كثيراً من النساء تغري وكثيراً من البنات تباع وتشترى ولا أسهل على صاحب الثروة من أن يغري الفتاة التي تشتغل الليل والنهار لكسب درهم تنفقه على طعامها إذا أراحها من عناء هذه الأشغال بما ينفق عليها من المال ولا أقرب اليه من إفساد ذلك الشاب الذي يعيش من عرق الكد والعمل أن يشتريه بالذهب الوضاح والمرء ميال إلى الراحة مفطور على الكسل . هذا الذي أفهمه من هذه المهمة وهذا ما كنت أجريه بفضل أموالى لو لم أكن في غنى عنه بما هو موفور لدي من أسبابه .

وكان هذا الرجل مرتدياً بثوب يمثل دون جوان ، وهو رجل شهير بالفساد ، فأتم حديثه يقول ولا جرم إذا كنت أصرف اهتمامي إلى مثل هذه الشؤون فأني أمثل دور صاحب هذا الثوب التي لا تجهل سيرته فلا فضيلة عندي إلا ما تمنقدونه رذيلة ولا خيانة إلا ما تتوهمونه شرفاً وصدقاً فان الملاذ خلقت لي فوجب علي أن أتمتع بها وأسعى وراءها وما الشرف والمروءة والفضائل غير احادبث أوهام . قال هذا وهو يضحك ضحك الساخر ثم أزاح البرقع عن وجهه فرجع ذلك الشاب منزعجاً إلى وراء وصاح قائلاً ، أندريا !

فقال الفيكونت وكان هو اندريا بعينه ، نعم أنا هو فهل تعرفني ؟

- ربما .
- إذن أزح البرقع عن وجهك عسى أن أعرف من أنت كما عرفت من أنا .
- لم يحن الوقت بعد وستعرفني عند العشاء .
- لماذا ؟
- ستعلم ذلك فيما بعد .
- ثم تركه ودخل الى قاعة الرقص فتبعه أندريا وهو يقول : عجباً يخال لي اني سمعت هذا الصوت ولا أذكر أين .
- وبعد ذلك بهنيئة جلس جميع الحضور على المائدة ورفعوا البراقع عن وجوههم حسب العادة المألوفة عندهم فلم يبق منهم واقفاً ومستتراً غير ذلك الرجل الذي كان يحدث اندريا على الشرفة
- فاستغرب الجميع وقوفه وتستره وقالت إحدى النساء : نحن على المائدة الآن فاجلس واازح البرقع .
- لم يحن الوقت يا سيدتي فاني آليت على نفسي ان لا أعلمكم بنفسي قبل ان أقص عليكم حديثاً محزوناً مؤثراً .
- أقص أحاديث الحزن في مثل هذا المقام ؟
- ولكنه حديث غرام .
- إذا كان حديثك عن الحب فلا بأس ، فان حديث الغرام شائق كيف كان .
- ولكنه محزن يا سيدتي واني أخشى ان لا يقع منكن موقع القبول او يكون له عليكم تأثير .
- فصرخ الجميع قائلين : لا بأس ، قل .
- فاستراحوا السمسم وقال :
- « أنا صاحب هذه السيرة التي سأقصها عليكم ، وقد جرت تلك الحادثة لي منذ سنين عندما كنت في ربيع شبابي ونضارة عمري ، ذلك أن من الشبان

من يعيش كثيراً من النساء فيتنصبى الواحدة حتى تحسبه أسير غرامها ، ويميم بالثانية حتى تحاله قتيل هواها ، يحن الى هذه فتظنه وقع في شرك حبها ، ويتشوق الى تلك فلا تشك ان الوجد قد ملك قياده وصيره لها عبداً ، أما أنا فاني لم أحب إلا امرأة واحدة حباً طاهراً مقدساً ، وكانت أول مرة دخل فيها الحب الى قلبي فلم أكن احبها حباً بل أعبدتها عبادة .

وكانت معرفتي بها اني رأيتها في إحدى الليالي المظلمة راکعة على عتبة باب الكنيسة تبكي وتستغفر الله عما جنته باستسلامها الى شاب عشقته فخاها وهربت إذ تبين لها انه مجرم لص سفاك .

فارتجف اندريا عند سماعه هذا الكلام اما الشاب فلم ينتبه اليه بل اندفع في حديثه فقال :

— وقد أراد ذلك السفاك أن يسلبني إياها بعد ما بحث وعلم انها عندي فدخل الى منزلها دخول السارق وبينما هو يحاول ان يفر بها وهي تصيح وتستغيث إذ دخلت أنا وهي مغمى عليها بين يديه .

فتطاعنا بالخناجر — ولا أذكر شيئاً مما كان بيننا ولا كم دامت تلك المعركة الهائلة ، بل أذكر انه طعنني بخنجره طعنة سقطت على أثرها لا أعى ، ولم أستيقظ إلا بعد ساعتين فوجدت نفسي غريقاً في بحر من الدماء وذلك السفاك قد هرب بمن أحب .

قال هذا ونظر إلى اندريا فرآه أصفر الوجه والعرق ينصب من جبينه فعاد الى حديثه فقال :

ولبثت ثلاثة أشهر أقاسي عذاب النزاع وانا بين الموت والحياة ، ولكني كنت في عنفوان الشباب فتغلبت قوى الشبيبة على تلك الحمى التي كدت أصل بها الى الموت ، وشفيت من مرضي فقامت أطواف البلاد باحثاً عن عشقتها نفسي وعن خاطفها ذلك اللص الذي كاد ينزع حياتي بنزعها مني .

وما زلت أطوف حتى التقيت بها في منزل حقيير بقرية من قرى ايطاليا وحيدة شريدة وقد غدر بها وتركها بغير مستكمل وبغير مال فماتت والأسفاه بين يدي وهي تبتهل الى الله وتسأل لقاتلها الغفران » .

ثم أجال نظره بين الحضور الذين كانوا محدقين به كأن على رؤوسهم الطير وقد ذهب الضحك من أفواههم وتقطبت وجوههم فقال :
- والآن فإن هذا الرجل بل هذا اللص بل هذا السفاك قد لقيته هذه الليلة منذ ساعة وآن لي أن انتقم لتلك المرأة التعيسة والنفسي نعم لقيت هذا الخائن فهو هنا بينكم .

ثم أشار بيده الى اندريا وقال : وهذا هو
وبينما اندريا يثب عن كرسيه إذ أماط الشاب اللثام عن وجهه فصرخ جميع الحضور : هذا ارمان النقاش .
أما أرمان فإنه لم يبال باندهالهم بل نظر الى اندريا وقال بصوت يتهدج من الغضب اندريا هل عرفتني ..

وفيا جميع الحضور منزعجون يتوقعون عراكا هائلا بين الاثنين إذ فتح الباب وولج منه رجل كهل بملابس سوداء فتقدم الى اندريا دون ان ينظر نظرة الى الحضور وقال له :

- سيدي الفيكونت انك تعلم اشتداد وطأة المرض على ابنيك الكونت فيليبون وهو الآن على فراش الموت يريد ان ينظرك النظرة الأخيرة لينال تعزية لم تنلها سيدي والدتك .

فاغتم اندريا هذه الفرصة للتخلص من موقفه الحرج ونهض فودع الحاضرين بالاشارة فمضى .

اما ذلك الشيخ الذي جاء يخبره عن نزاع ابيه فانه مشى في أثره ، وفيما هو يحيل نظره في الحاضرين إذ لاحت منه التفاتة الى ارمان فرجع الى الورا مندهلا وقال :

— إلهي . ماذا أرى ؟ . إن هذه حقيقة رسم الكولونيل أرمان
دي كركاز .

* * *

أما الكونت فيليبون والد اندريا ، فقد كان منذ ساعة مضطجماً على فراش
الآلام وبالقرب منه خادم كهل قوي الأعصاب يهيب له دواء .

فكان الكونت يقول لذلك الكهل :

— إني ساموت با بستييان ولم يعد لي بالحياة أقل مطمع ، فهل شفيت غلك
من الانتقام ؟ . إنك بدلاً من أن تقودني الى المشنقة وكان ذلك ميسوراً لك
ولم يزل بوسعك ، أثرت أن تكون دائماً بقربي لأذكر بمرآك سابق أيامي ،
فكنت تجلني بلسانك وتحتقرني بقلبك ، وتدعوني بمولاك وأنا لا أشعر
بمذاب أشد هولاً من هذه الكلمة . ألم يرتو غلك الى الآن ؟ ألم يحسن لك
يا بستييان ان تعفو عن ذنبي الذي عوقبت فيه على الأرض ، وسأجزى عنه
في السماء ؟

فقال بستييان . كلا يا مولاي ان صوت ذلك الكولونيل لا يزال يصيح بك
ايها التعميس لماذا تزوجت بامرأتي ؟

— ماذا تريد مني ايضاً ؟ فانك تراني أموت وليس بقربي احد ، حتى ولا
ولدي .

أريد ان أنتقم لتلك المرأة الفاضلة التي ماتت دون ان تتزود من وداع
ولدها . أريد ان تموت ايضاً كما ماتت دون ان تنظر ولدك .

فاجتهد فيليبون ان ينهض من فراشه وهو يقول : ولدي . أريد ان

أرى ولدي .

ولكن الضعف كان يمنعه فلم يستطع حراكاً

فأجابه بستييان : إن ولدك متبع أثرك ، وهو مثلك فاسد الأخلاق بذية
الطباع يرتكب كل منكر ومحرم ولكنه ولدك ويسرك فيما اظن ان تنظر اليه
النظرة الأخيرة قبل الموت .

فانهالت دموع الجنسان من عيني فيليبون ، وقال : ولدي دعني أنظر
ولدي ..

— إنك لن تراه أبداً ، فهو غائب عن القصر ولا أحد يعلم اين هو سواي
فلا تطمع برآه .

— بستييان اليس بقلبك رحمة ؟

— لا تذكر الرحمة أو قل أين كان قلبك عندما قتلت الكولونيل وابنه
وامراته ؟

فتنهم فيليبون تنهد محرم أجبر على الاقرار وقال نعم اني قتلت ارمان
دي كركاز بالرصاص وقتلت امرأته التي صارت امرأتى من بعده بالحزن وسوء
المعاملة أما ابنه .

- أتذكر أيها الخائن انك القيتيه عن سطح المنزل الى البحر ؟

— لا أنكر ولكنه لم يمت .

— كيف ذلك : ألم يمت ؟

— كلا ، فقد أنقذه الصيادون وذهبوا به إلى اسكلترا ، وبعد أن
ترعرع ذهب إلى إيطاليا ، ومنهما عاد الى فرنسا ، وقد عرفت ذلك منذ
ثمانية أيام

— اين هو الآن وكيف عرفت ذلك ؟

فانقطع صوت فيليبون وقد بلغت روحه التراقي ، فدنا منه بستييان وقال

بصوت الامر قل كيف عرفت ذلك وأين هو ؟

- عندما خرجت المرة الأخيرة أتتني ، لقيت وأنا في المركبة ، شاباً يبلغ الثلاثين من العمر يمشي على مهل ، وكانت المركبة تسير بي سيراً بطيئاً فتبينت وجه ذلك الشاب ، فرأيتني يشبه ارمان دي كركاز شهاً تاماً ضاع له رشدي ، فتبعته وبحث عنه ، فعلت انه نقاش ، لا يعلم من أمر مولده سوى ان الصيادين أنقذوه من الأمواج ، وانه كان يدعى ارمان .

فقال بستيان وقد طار فؤاده شعاعاً لهذا الخبر : أيها التعميس إذا أحببت أن ترى ابنك وان لا يدنس اسمك بما عندي من البراهين ، فأرجع تلك الثروة التي تتمتع بها إلى ذلك الشاب ، واكتب بيدك انك سرقتها منه وأنا أجده .

- لا حاجة الى ذلك ، إذ لا يحق لي أن أرث ارمان دي كركاز إذا كان ابنه حياً ، فما عليه إلا ان يظهر حقيقة مولده ، فيرجع اليه الشرع ذلك المال

ذلك لا ريب فيه ، ولكن كيف يتسنى له أن يثبت كونه ابن كركاز ؟

فأشار فيليبون بيده الى صندوق أمامه وقال : إني لما رأيتني على فراش الموت تذكرت سابق أيامي ، فقدمت على مسافر مني وكتبت تاريخ ذنوبي مضميفاً اليه جميع الأوراق التي تثبت نسب ارمان ليكون هذا الاقرار كفارة عن ذنوبي

فأخذ بستيان الصندوق وأعطاه لفيليبون ففتحه بيد ترتجف وأخذ منه ملفاً من الورق فأعطاه لبستيان .

أما بستيان فإنه أخذه والفرح ملء فؤاده وقال : طيب نفساً فسأجد الولد

والآن فاني أسألك عما أذنبت به إلي وسترى ولدك
ثم تركه وانصرف فركب في مركبة وقال للسائق أسرع إلى فندق بيكال
(وهو المنزل الذي كانت فيه حفلة الرقص) .

وبقي فيليبون وحده يقاسي ألم النزاع وهو يلتهب شوقاً لرؤية ولده ، فلم ير
على انتظاره ساعة حتى فتح الباب ودخل اندريا وهو بالملابس التي وصفناها ،
وكأنما الله أراد أن ينهي حياة هذا المحرم بالعذاب فإنه لم يكذب يرى ابنه بلباس
الرقص حتى أدار وجهه الى جهة الحائط فتأوه وأسلم الروح قبل ان يتمكن
ابنه من الوصول اليه .

فأخذ اندريا يده فلقمها باردة فوضع يده على قلبه فوجده بغير حراك
فابتسم وقال :
- ما قد مات أخيراً وصارت لي وحدي تلك الأموال .

ولم يكذب يتم عبارته حتى فتح الباب ودخل منه اثنان احدهما بستيان والآخر
ارمان فنظر اليه بستيان شذراً وقال :
- إن هذه الأموال ليست لك بل لك السجن الذي ينتظره أولاد مثل
ابيك ايها التمس ، فاعلم الآن ايها الفيكوت ، ان أباك قد قتل زوج أمك
الأول ، ثم رمى بأخيك الأكبر الى البحر وهذا هو أمامك . أما أبوك فقد
ندم وهو على فراش الموت على ما اقترفه من الذنوب ، فأرجع الأموال المسلوقة
إلى صاحبها ، وأما أنت فلست الآن في منزل بل في منزل ارمان دي كركاز .
فأخرج من هنا .

فنظر اندريا بنظر الباهت المنذهل الى ارمان فأخذه ارمان ومشى به إلى
شرفة تطل إلى الطريق فقال :
- أنظر الى باريس التي أردت ان تستخدم ثروتك بها لإعراء النساء ،
وإضلال الرجال ، أما أنا وقد رجعت الي تلك الثروة فسأنفقها لخير الأعمال ،
فأخرج الآن من هنا فاني سأجتهد أن أنسى كوننا ابني أم واحدة ، كي

لا أذكر إلا ذنوبك وتلك المرأة التي قتلتها ، فاذهب من هذه المدينة واحذر
أن أراك
فمشى أندريا ، وقد شعر بالغلبة ، إلى أن بلغ الباب ، فالتفت إلى
أخيه وقال :
- إن الأيام بيننا ، فإذا أردت أن تكون مثال الفضيلة فسأكون رسول
جهم على الأرض ، وستكون باريس معترك القتال .
ثم خرج وهو يضحك ضحك اليأس ويتهدد السماء بقبضتيه .

انتهت المقدمة

- ١ -

السير فيليام

كان في إحدى ليالي ديسمبر الباردة رجل ملتف برداء طويل يمشي على رصيف سانت بول بالقرب من القلعة غير مهبال بالبرد ، وبما كان يهطل عليه من المطر وكان يقف من حين إلى حين ينظر إلى النهر السائر بالرياح الشديدة ويحدث نفسه بكلام متقطع غير مفهوم .

. وما زال يمشي إلى أن بلغ إلى منزل بالقرب من فندق لمبرت ذي ستة أقسام بعضها فوق بعض ، فوقف عنده ونظر إلى نافذة القسم الأعلى فرأى عليها مصباحاً موضوعاً بشكل يدل على أنه إشارة متفق عليها فنظر إليه هنيهة وقال : ذلك يدل على أن كولار في منزله ينتظرنى .

ثم أدنى إصبعيه من نفسه وصفر ، فانطفأ المصباح للحال ، وبعد عشر دقائق أجيب بصفير مثله ، فدنا من الباب وما وقف هنيهة حتى سمع وقع أقدام ضعيفة ثم تلاها صفير آخر فأسرع إلى لقاء القادم ، وقال له سائلاً : كولار

قال كولار : نعم .

- يسرنى اذك أمين على الملتقى .

- ليس ما يبعيني عن خدمتك وارجوك ان تخفض صوتك وأن لا تدعوني باسمي فاني اذا عدت إلى ذلك فلا أخرج منه .
- إنك مصيب ولكن الشارع مقفر وليس هنا من يسمعنا .
- لا ضرر من الحذر وأرى ان الأوفق ان نذهب الى شاطئ النهر فننتحدث هناك باللغة الانكليزية فاذا اتفق مرور أحد فمولا يفهم ما نقوله
- ليكن
- ثم مشى الاثنان الى جهة النهر ومما غير مكترئين بالمطر فقال كولار : متى عدت من لندره ؟
- في الساعة الثامنة من هذه الليلة وأنت ترى اني لم أضع الوقت فقل مسا فعلت أنت في مدة غيابي ؟
- جمعت عصابة على غاية الموافقة وإن يكن الباريسيون لا يعدلون الانكليز في مهنتنا ولكني فعلت ما قدرت عليه ، وإننا نقدر ان ندرهم في مدة وجيزة وستراهم وتفحصهم .
- متى ؟
- الآن إذا أردت .
- هل اتفقت معهم على الملتقى ؟
- نعم وإذا أمرت سرت بك الى مكان بحيث تراهم واحداً فواحداً ولا يراك منهم أحد .
- حسناً فلنذهب .
- ألا تريد أن نتفق قبل الشروع في العمل ؟
- لنتفق .
- تعلم يا مولاي اني بلغت الخمسين من عمري ، فصار يجب علي أن أهتم بايامي الأخيرة .
- هذا عدل فأظهر شرطك .

- إني أطلب ٢٥ ألف فرنك كراتب يدفع لي في كل سنة وعشرة آلاف فرنك تعطى لي عند النهاية من كل عمل ينجح على سبيل المكافأة .
- سيكون لك ذلك .
- والآن بقي علي أن أتفق معك على رواتب عصابتي .

- إني عرفت أهليتك فلم أساومك ، أما عصابتك فإني لا أعرف منها أحداً .
- هذا حق .

- إذا فلنذهب اليهم ومتى عرفتهم وخبرتهم اتفق معك على تعيين رواتبهم ولكن قل لي كم عددهم .
- عشرة ، اليس ذلك بكاف ؟
- يكفي الآن وسنرى فيما بعد

ثم غادرا ذلك المكان ومشيا ، فكان كولار يسير أمام السير فيليام الى أن بلغا إلى غطة مظلمة في شارع لاتين فسارا فيها الى أن وصلا الى بيت قديم متداع الى السقوط .

ولم يكن ينبعث منه نور مما يدل على انه غير مأهول فأخذ كولار مفتاحاً من جيبه وفتح به باب المنزل ، فدخل مع السير فيليام ثم أقفل الباب وراءهما وأشعل شمعة فأدخل السير فيليام الى غرفة وقال له : هذا هو المكان الذي تستطيع ان ترى منه رجالتي دون أن يروك ، من هذا الثقب الموجود في الحائط .

فنظر السير فيليام ورأى غرفة كبيرة جميلة الأثاث حسنة الظاهر فسأل :
لن هذه الغرفة ؟

فقال له كولار : هذه لرئيس عصابتي كوكيلات وهو رجل حسن الصيت وجميع سكان هذا الشارع يحسبونه متمولاً متنجحاً عن الأشغال ويغبطونه لسعادته مع امرأته التي اشتهرت عند الجميع بالفضيلة

- حسناً أين كوكيلات الآن ؟

ستراه عن قريب .

ثم وضع إصبعه بقمه وصفر ، ففتح الباب ودخل رجل هزيل يناهز الخمسين من العمر حاد النظر مقطب الجبين ، فالتحنى مسامحاً ونظر الى كولار مستقيماً

فقال له كولار : إن هذا هو الرئيس .

وقال للسير فيليام : هذا هو كوكيلات .

وبعد أن فحصه السير فيليام اشار الى كولار ان يصرفه .

فقال له كولار : إنني ضربت موعداً لرفاقتك في الساعة الأولى بعد منتصف الليل وقد حان الوقت فاذهب الى لقائهم أما أنا فسأبقى هنا مع حضرة الرئيس لت قضاء بعض المهام .

فالتحنى كوكيلات وانصرف .

أما السير فيليام فانه جلس مع كولار أمام الثقب وأقام ينتظر وفود العصابة ولم يطل مكثهما حتى طرق الباب وأخذ رجال العصابة يتوافدون قباعاً وكولار يصف كل واحد منهم بين مقامر ومزور وخاطف وخادع ومفتاح أقفال ومسجل وضخم الجثة فتناك وغيرهم من أبناء الشر والوزر الى ان أتم عددهم وبلغ الى التسعة وبعد ان استعرض السير فيليام هذه العصابة قال له كولار : أتريد ان يروك ؟

- كلا .

- لماذا الست راضياً عنهم ؟

- ليس ذاك ، ولكنني احب أن لا يراني أحد منهم وان لا تصلهم أوامري إلا بواسطتك ، وسنبحت غداً في شؤونهم ونجد لكل واحد منهم عملاً يوافق مهنته ، والآن اني ذاهب وسأراك غداً في نفس المكان الذي رأيتك فيه هذه الليلة وبنفس الساعة .

ثم ودعه وخرج

فدخل كولار لمقابلة رجاله ، أما السير فيليام فانه ترك هذا المنزل واجتاز العطفة المظلمة الى أن بلغ الى الشارع ، وفيما هو يمشي على مهل وهو مشتت الفكر ساهي البال إذ سمع صوت سائق مركبة يقول له إحذر ، فصعد السير فيليام مسرعاً الى الرصيف ونظر الى داخل المركبة ، فاختلجت أعضاؤه وصاح بصوت يتهدج من الغضب قائلاً - أرمان - اما المركبة فكانت تسير سيراً حثيثاً ، فلم يسمع ذاك الذي دعاه ارمان نداءه ، ولم يتمكن من الالتباه اليه .

فوقف السير فيليام برهة ينظر الى المركبة وهو يكاد يلتهب من الغيظ ، الى ان توارت عن عينيه فقال : ها قد التقينا أخيراً أيها الأخ الذي يسعى الى الفضيلة ويعمدو بمثل هذه السرعة الى مساعدة التعساء ، إذ ذهب وانفق من الذي اختلسته مني ، ولكن اعلم اني قد عدت الى باريس ظمآن الى الذهب والانتقام

وفي اليوم الثاني ذهب السير فيليام لمقابلة كولار فصفر له كما فعل بالأمس فنزل اليه وسار به السير فيليام الى ضفة النهر وقال له إستعد فان لدينا إثني عشر مليوناً .

- ٢ -

كير مور

مضى يومان على مقابلة السير فيليام لكولار ، الذي خدمه في لندرا خدمات ذكرها له بالشكر وجعله يثق به ثقة لا مزيد عليها ، حصل لهما فيهما

ما سيقف عليه القراء في حينه . وقد حدث ان مركبة يدل ظاهرها أنها من مركبات الأمراء وصلت في ساعة متأخرة من الليل الى قصر شاهق جميل الزخرف ، غريب الاتقان ، فلم تكد تبلغ الى ساحة ذلك القصر حتى فتحت أبوابه وكان مكتوباً عليها بأحرف ذهبية كبيرة قصر الكونت كركاز .

فدخلت المركبة وفي ذلك الحين ظهر على السلم رجل كهل بيده مصباح أقبل مسرعاً إلى لقاء الكونت فلما وصل اليه قال له :
— لقد ابتدأت ان أقلق عليك فانك لم تتأخر عن الرجوع الى المنزل مثل تأخرك في هذه الليلة .

فأجابه أرمان ، وقد كان هو بعينه : لا بأس في ذلك يا بستيان فقد قضت علي بعض المهمات الحيرية أن اتأخر الى الآن .

ثم توكأ على ذراعه وصعدا سوياً الى المنزل ، فسار به بستيان الى غرفته وقال له .

— إنك ستنام فيما أظن .

-- كلا يا بستيان فإني مضطر الى كتابة بعض رسائل ولا أؤجل الى الغد ما أقدر ان أفعله اليوم .

فأجابه بستيان بلهجة أبوية . ولكنك ساع الى حفلتك بقدمك فان كثرة السهر والتعب تضنيك .

— إن الله كريم عادل يحفظ لي قواي لأنني أبذلها في خدمته .

وعند ذلك قرع باب الغرفة قرعاً خفيفاً ثم دخل رجل يقوده أحد خدم القصر فوقف أمام أرمان وقال :

— هل أنا بحضرة الكونت دي كركاز ؟

— نعم .

فانحنى أمامه وأخرج من جيبه رسالة مختومة فقدمها له .

وأخذ أرماني الرسالة وفضها ونظر الى التوقيع فلم يجد غير كلمة (كرييور)
وقرأ ما يأتي :

« سيدي ... »

« إنك رجل ذائع الصيت كثير البر وقد كرس ثروتك الطائلة في سبيل
الخير والاحسان ، وإن الذي يكتبك هو رجل ثقل عليه ذنبه وقد دنت ساعته
الأخيرة ويحب أن يراك لبعض الشؤون وإن الطبيب يقول أنه لم يعد لي من
الحياة غير ساعات قليلة فأسرع الي فاني سأعهد اليك بمهمة خيرية لا يقوى على
القيام بها سواك »

(كرييور)

فنظر ارماني الى الرسول وتأمله ثم قال له : ما اسمك ؟
— كولار .

— قل من أعطاك هذه الرسالة ؟

فتصنع كولار هيئة البله وقال : اني أسكن في منزل كرييور وهو الذي
أعطاني هذه الرسالة كي أوصلها اليك .
— أين يسكن ذلك الرجل الذي أرسلك ؟
— في شارع سانت لويس .

وكان الصباح قد كاد يطلع فلم يبال ارماني بذلك ولا بتحذير بستيان بل
أمر بان تهيئ المركبة ولم يمض على ذلك نصف ساعة حتى بلغ منزل كرييور
وكان كولار يسير بصحبته فنزل من المركبة وسار بامان في فناء المنزل الى ان
وصلا إلى غرفة المريض ورأى فيها رجلا هزيل الجسم نحيل الأعضاء أصفر الوجه
مضطجعا في سريره يتقلب عليه من الآلام فحميا ارماني بيده وأشار عليه بالجلوس
ثم أمر كولار بالانصراف .

ولما خلاهما المكان قال المريض : إن مظاهري لا تدل على اني وشيك
الموت ولكن ذلك لا ريب فيه وقد أكد لي الطبيب

— لا تخف أقوال الأطباء فانهم يخطئون .

فتشهد المريض وقال : انك مصيب ولكن طبيبي لا يغلط ولا يخطئ وقد أكد انه سينقطع لي عرق بعد ست ساعات يكون به انتهاء حياتي وليس لأجل ذلك دعوتك بل لأكلفك بقضاء مهمة لا أؤمن عليها سواك فأرجو ان تصغي إلي ، ثم تأوه وقال :

اني ادعى البارون كيرماروت وليس لي وريث بعد موتي في عرف الناس والشرع ولكن قلبي يحدثني ان لي ولداً يرثني من بعدي ولا أعلم إذا كان ذكراً أو أنثى .

وقد تقدم لي القول أن ليس لي قريب في هذا العالم فاذا مت فليس من يهيكلي وترجع ثروتي الطائلة الى دار الأحكام لفقد الوارث .

أما ثروتي فهي عظيمة تكاد لا تحصى ومصدرها غريب أيضاً كغرامة ما ألقيه من العذاب الذي جازاني به الله عقاباً عن ذنب هائل اقترفته في صباهي . ذلك اني كنت في سنة ١٨٢٤ قائداً في الجيش ، ولم يكن لي مستقبل غير سيفي وكانت حرب الاسبان قد ابتدأت فكانت فرقة الجيش الذي أنا فيه معسكرة في برسلون وكنت انا في باريس بالرخصة فسرت منها مع إثنين من الضباط للانضمام الى الجيش وقد كان سفرنا على الجياد فكنا نبيت في كل قرية نصل اليها عند ظلام الليل .

وان الليل فاجأنا على بعد مرحلة من تولوز فلم نجد سوى فندق صغير جئنا الى المبيت فيه بحكم الاضطرار .

ولم يكن بهذا الفندق من المسافرين سوى امرأتين قدمتا من بيريناس في تلك الليلة وكانت إحداها كهلة عجوزاً والثانية في عنفوان الشباب رشيقة القوام وضاحية الجبين غزالة العينين صبوحة الوجه وقد قدمت مع أمها التي وصف لها الأطباء التجول فاضطرونا الى مشاركتها في الحديث لما اضطرونا اليه من مشاركتها في العشاء

ولم تتهيبا منا وكان لهما مزيد الثقة بنا بالنظر للابسنا العسكرية ولم يكن في الفندق غير غرفتين فناما بهما أما نحن فبتنا في الفناء وقد اتخذنا من القش اليابس رزماً جعلناها وسائد .

وكنّا في ربيع الشباب وطيش الصبا وليس فينا من يزيد عمره على العشرين فأثرت بنا المدام وهاجنا ما رأيناه من جمال الصبية فاقترح احدنا أن نقترح عليها فقبلنا ذلك الاقتراح صاحكين واقترحنا فأصابتني القرعة دون رفاقي .

ولم يكن في الفندق ممن يخشى غير صاحبه فرشناه كي يتغاضى عنا ودخلت الى غرفة الصبية من النافذة أما أمها فكانت تعول وتصيح ولكن صياحها كان يسير في الهواء ولا يسمعه أحد . .

وعندما طلعت الصباح ذهبت برفاقي وقد غادرت بالفندق تلك الفتاة مدنسة بعض البنان من الأسف وتدعو علي الله في خلوتها ولم أعلم منها سوى انها كانت تدعى تريزا ، وقد رأيت في جيبي بعد فراقها نوطاً ذهبياً كانت تعلقه في رقبتها ولا أعلم الى الآن كيف وصل الى جيبي ولعل السبب في وصوله إلي انه انقطع عند دفاعها فسقط في جيبي اتفاقاً .

ثم ذهبت ورفاقي الى برسلونا لننضم الى الجيش وفي اول معركة قتل رفيقاي فعددت ذلك عقاباً لهما وإنذاراً لي وكان صوت سري يقول لي ان الله لم يعاقبك في الممارك إلا ليلوك بعقاب أعظم .

ثم توالى الأيام ودرجت الليالي فنسيت ذنبي الى ان وصلت الى الثروة وها أنا مظهر لك كيف وصلت إلي .

ذهبت يوماً إلى مدريد فنزلت بببيت رجل يهودي كان يتاجر بالجلد وقد كان أصل هذا اليهودي فرنسياً هاجر وطنه سنة ١٧٨٩ .

وعندما جعلت سكني في منزله كان مريضاً فاتفق بعد وصولي اليه بيومين ان اشتدت عليه وطأة المرض الى أن بلغت حداً خشي عليه فيه الموت ولم يكن يعوله في مرضه غير خادم واحد فدعى بي اليه يوماً عند منتصف الليل وقد أعياه

الداء وبرحت به الآلام .
فهرعت اليه وجعلت أعينه وأعزیه على مصابه وهو ينظر إلى نظرة الساهت
الى ان سألتني : ما اسمك ؟
- كيرمور دي كيرماروت .

فرجع اليه صوابه عند ذكر اسمي وخرج بلمحة الفرح والاستغراب يقول :
أنت تدعى كيرماروت ؟

- نعم .
فرفع يديه الى السماء ثم شكر الله وقال : أعطني أدوات الكتابة .
فأحضرت له ما طلب فكتب بيد ترجف :
« إني أعترف ان كيرمور دي كيرماروت هو وريثي الوحيد دون سواه » .
ثم أمضى هذه الوصية وبعد عشر دقائق أسلم الروح .

وقد وجدت بعد موته رسالة بين أوراقه تبين السبب في إعطائي ثروته ،
ذلك أن جدي البارون كيرماروت كان قد أودع في زمن المهاجرة ٢٠٠ الف
فرنك عندهذا اليهودي ثم توفي ولم يعلم ابن كانت وفاته ، وسافر اليهودي إلى
أسبانيا فتاجر بمال جدي المودع عنده وكثرت أرباحه واتسعت ثروته بفضل
ذلك فردده الي اثني عشر مليوناً ، وكنت في الثلاثين من عمري عندما وصلت
الي تلك الثروة الواسعة ، فلم تدفعني عوامل الثبات الى التمتع بها بل عادت
الي تذكارات تلك الليلة الهائلة ، وأصبح تمثال تريزا ممثلاً نصب عيني ،
فأخذت أطوف البلاد باحثاً عنها فلم ألق إلا الخيبة ، ولم أظفر بغير الفشل
وقد أدت بي خاتمة المطاف الى باريس ، فاشتريت هذا المنزل الذي أنا فيه
فأصابني الله بداء عضال لم تنجح فيه حملة الأطباء ، وسيقضى علي بعد
ساعات معدودة .

واليوم عرفت نهاية أجلي من الطبيب على ما أخبرتك فتمثلت لعيني تلك الالة
المسكينة التي دنستها بنزقي وحدثتني نفسي انها لا تزال بقيد الحياة وقد علمت

انك رجل كثير الخير والاحسان وان لديك عملاً وأعواناً يشاركونك في البحث عن التمساء ومساعدة أولى البأساء ومجازاة الأشقياء فقلت في نفسي انك الوحيد الذي يحدها ويسلمها تلك الثروة .

فقال ارمان : إني أشكرك لثقتك بي ولكنني أخاف ما يمكن ان يكون اتفاق من موت تلك الابنة وربما لم يكن لك منها ولد فان مناجاة الضمير قد تخطى أحياناً .

- إذا كانت الابنة قد ماتت ولم يكن لي منها ولد فإن ثروتي تكون لك تنفقها في سبل الخير فتكون كفارة عن ذنبي وأنا أعلم بأنك رجل كثير المال ولكن ثروتي هي طائلة فاذا أنفقتها على المصابين مع ما تنفقه من مالك خففت من بلوى التمساء وأعانتك على بلوغ أمانيك ، والآن فاني أرى على وجهك علائم الانذهال وأراك تشبه بالرفض فبالله لا تضع الوقت في الجدال وانظر الى الساعة فلم يعد لي من الحياة في هذا العالم غير ساعات معدودة فانظر الآن الى هذا الصندوق الذي هو بقربك وهذا مفتاحه معلق بعنقي ، تأخذه بعد موتي وتفتح الصندوق فتجد فيه وصيتين مختلفتين ، إحداها تثبت انك انت وريثي والثانية تثبت ان تريزا هي الوارثة او ولدها إذا كان لها ولد ثم انك تجد في طي هذه الوصية الأخيرة ذلك النوط الذهبي الذي وقع من عنقه في جيبني في تلك الليلة الهائلة فاذا فتحتة تجد فيه خصلة من الشعر وصورة امرأة هي صورة أمها لا ريب فعسى ان تعينك على وجودها وليس لدي غير هذا الدليل .

ثم سكنت ، نيمية ، وقد أعياه التعب إلى ان عاد اليه شيء من قواه فاستحلف ارمان على قبول الوصية وقال وقد سمع قرعاً على الباب : هوذا الكاهن الذي دعوته قد حضر فأدخله الي فاني اريد أن أعترف وأستعد لملاقاة الديان .

ففتح ارمان الباب للكاهن وخرج من الغرفة عندما شرع بالاعتراف . ولم يرض على ذلك ساعتان حتى صدق نبأ الطبيب ومات الارون فدعى ارمان ربال

الشرع في الحال وختم على جميع موجودات المنزل فلم يأخذ منها غير الوصيتين
وذهب الجميع ولم يبق في المنزل غير كولار الذي جعل ينظر الى تلك الجثة التي
لم تزل حارة ويقول ضاحكاً :

— ايها الأبله انك لو علمت السبب لدخولي في خدمتك لما أطق أن تنظر
الي الآن فطرب نفساً فان ارمان دي كركاز رجل صافي السريرة طاهر القلب
وسيعرف السير فيليام كيف يجد الابنة وكيف يغنم تلك الملايين .

— ٣ —

سريز وباكارا

بعد هذه الحادثة بخمسة عشر يوماً كان في الطبقة الخامسة من احد المنازل
الحظيرة ابنة تشتغل في غرفتها بغيرة ونشاط وأمامها على منضدة جميع الأدوات
اللازمة لعمل الزهور الصناعية .

وكان يظهر من ملامح وجهها ان لها من العمر ست عشرة سنة ، وهي
ممشوقة القامة بيضاء كالزنبق سوداء الشعر . وقد سميت بسريز اي الكوز
لحمرة شففتها .

وكانت تشتغل وتغني وأشعة شمس الصباح الذهبية قد ملأت غرفتها الصغيرة
التي كان معلقاً في جدارها قفص فيه عصفور من نوع الكناري كان يشار كها في
الغناء من حين الى حين .

فعندما كادت تصل في جمع طاقة الزهر إلى آخرها ولم يبق لها إلا أن
تحيطها بالورق القتها من يديها على المنضدة ثم تنهدت وقالت : لبي سأتم هذه
الطاقة بعد عشر دقائق فأسير بها الى المعمل وبطريقي أراه

ان يوم الأحد قد قرب وسأكون فيه من أسعد النساء فان ليون سيصبحني مع أمه الى المنتزه في بلهيل . قالت هذا وتبسمت بعد ان تنهدت قليلاً ثم عادت الى شغلها وهي تحدث نفسها فتقول : إن ليون سيسافر الى بلده فيبيع أرضاً له فيها وسيرقيه سيده فيجعله رئيس المعمل بعد شهرين حيث يتزوج بي في ذلك الحين ولكني أرى ذينك الشهران بمثابة جيلين وما أصعب الانتظار على الحبين .

وفيا هي تنساجي نفسها بمثل هذه الأحاديث إذ سمعت صوت غناء على السلم تبنت منه صوت اختها فقالت : هذه هي باكارا التي لا أعلم السبب في كثرة زياراتها لي في هذه الأيام بعد ان كان يمر الامام ولا أراها ! ثم فتح الباب ودخلت منه باكارا .

وكل من رأى هاتين الصبيتين يعلم للحال انها اختان لكثرة ما بينهما من المشابهة ولم يكن الفرق بينهما سوى ان سرير في السادسة عشرة من عمرها عفيفة فاضلة ترتزق من شغل يدها وتقنع باليسير من العيش ، وأن باكارا في الثانية والعشرين من العمر وقد هربت منذ ست سنوات من منزل أبيها مع عاشق لها كان وافر الثروة ، ف عاشت عيشة بذخ وإسراف ثم تخلف لها عاشقها عن ثروة عظيمة فاستبدلته بسواه ونهجت سبل بنات الهوى ، أما أبوها فانه مات من الحزن لما لبسه من عار ابنته فاكتفت برضى أمها عنها التي ذهبت اليها وعاشت معها في قصرها الشاهق ، تاركة ابنتها الثانية التي سرى الى عروقتها دم أبيها الفاضل ، فلم تتببع أمها واختها في سبيل الغواية وعاشت بعيدة منفردة عنها عيشة طاهرة تقيّة ، ترتزق من شغلها وتقنع بالقليل .

وكلنت لا تزور أمها ولا أختها على الإطلاق ، ولا تدع لها مجالاً لزيارتها لها ، ولذلك استغربت عندما رأت أختها داخلة عليها لما رآته من ترددها في زيارتها منذ خمسة عشر يوماً وعلمت ان في ذلك سرّاً شاقها

استطلاعاه .

فجلست باكارا بالقرب من النافذة ودار بينهما الحديث فقالت باكارا :
- ألا تزالين يا سريز تحبين ليون ؟
- وما يمنعني عن حبه وهو رجل طاهر القلب حسن الأخلاق .

لا أنكر ذلك ولكنه عامل بسيط فاذا تزوج بك تعيشان عيشة فقيرة
طول العمر وتكونان تعيشان .

- وأنا لا أرى رأيك في ذلك فعندي ان الزوجين اذا توافقا وكانا متحابين
لا يكونان تعيشان وفوق ذلك فان صاحب المعمل سيعين ليون رئيساً عليه وهو
سيبيع أرضاً له في وطنه فتسنى تم ذلك فهو ينشئ لي محلاً لبيع الزهور فنصبح
من أسعد الناس ولا يقتضي هذا المشروع من النفقات أكثر من أربعة آلاف فرنك
وهذا المال ميسور لديه

فتبسمت باكارا ابتسام احتقار وقالت : انت تعلمين لو سألتني أضعاف هذه
القيمة لما تأخرت دقيقة عن مددك .

أشكر فضلك وأعتذر عن عدم قبولي هبتك فان الابنة الشريفة لا تأخذ
المال إلا من أبيها او زوجها .
- ولكنني اختك .

- لو كان لك زوج أو لو كنت على غير ما أنت عليه لقبلت .

فعضت باكارا شففتيها من الغيظ وقالت : وما يضرك لو أخذت مني هذا
المال على أن ترديه الي متى تيسر لك
- أعذريني فاني لا أحب ان أستدين .

ثم عادت الى شغلها فكانت تشتغل وتحادث اختها التي جلست بالقرب من
النافذة وقد أسندت رأسها بيدها متظاهرة بعدم الاهتمام ولكنها بالحقيقة لم
تجلس الى النافذة إلا لتتمكن من النظر الى نافذة المنزل المجاور التي رأته مقفلة
فقالت بتمرم : إنه ليس في البيت

أما سرير فإنها كانت تراقبها خفية وقد سمعت ما قالت له فقالت لها :
تصدقيني يا اخي في القول فإنك منذ زمن قريب جعلت تأتين الي في كل يوم
بعد ان كنت منقطعة تمام الانقطاع فما السبب في ذلك ؟

فارتعشت باكارا وأجابت اختها بصوت متكلف فقالت : إنني أزورك
يوم لأنني احبك وفراغي يسمح لي بزيارتك .
- ألم يكن لك ذلك الفراغ سابقاً أم لم يكن لي حب في قلبك من قبل ؟

فأفحمت باكارا عن الجواب ولم تجد بداً من الاباحة فقالت :
- إنني مصابة بداء عضال يقال له الحب أقول ذلك لأن جميع الباريسيين
يعلمون ان باكارا هي بغير قلب تهزأ من الحب والمحبين في كل حين . . . نعم
أحب وقد سرت الي هذه العلة من هذه النافذة ، ذلك اني كنت عندك منذ
شهر فنظرت عيناى شاباً برز كالقمر من نافذة هذا المنزل المجاور فنفضت سهما
عينه إلى فؤادي وسمعت باذني رنين السهم في قلبي الذي لم يعرف الغرام من قبل
فصادف ذلك الحب قلباً خالياً فتمكن .

فضحككت سرير وقالت اني أعلم من تعنين بحبك فهو جارنا فردينا.
روسي .

فتنهدت باكارا وقالت : نعم هو بعينه واني أحبه اكثر مما تحبين أنت ليوذ
وقد رأيته ثلاث مرات من هذه النافذة فلم يعرني انتباهاً ولم يتدان الى النظر
الي انا التي ينطرح على قدميها أصحاب الملايين
وأنا لا أحضر الى هنا إلا لأراه وأنت ترييني كيف أنتفض عند ذكره ابتهاجر
المصفور بلله القطر وهو غير عالم بحال قلبي وبما يكابده من الصبابة وأخشى إذ
طال بي الأمر ان أكتب اليه أو أذهب الى منزله فأركع أمامه وأقول فرناند
ألا تعلم اني احبك ؟

ثم مسحت الدمع عن خديها وهو يتساقط كاللؤلؤ وقالت اليس من العار
على المرأء ان تستسلم لرجل لا تعرف اسمه ولا شيئاً من أمره وتألف السهاد في

حبه فاذا ثامت لا تحلم إلا به ولا يتمل لعينها سوى خياله .
نظرت اليها سرين نظرة العجب وقد أنكرت صدور مثل هذه العواطف
عن اختها .

— أنت تحبين الى هذا الحد ؟

— نعم واني أكاد أجن بهواه وما أنا منذ ساعة عندك ونظري لا يحول عن
النافذة وقلبي شديد الخفوق ، اليس هو بمنزله الآن ؟
- إنه يرجع إلى منزله في الساعة الثانية .
- حدثيني عنه يا سرين وقولي لي من هو هذا الرجل ؟ وماذا يشتغل ؟
وكيف تعرفينه ؟

— عرفني به ليون .

— كيف ذلك ؟

— إنه اشترى أثاث منزله هذا من الممعل الذي يعمل فيه ليون وهو الذي
فرشه وقد عرف ليون في عمر مالي فساعدته والتحمت بينهما عرى الصداقة ثم
عرفني به واكثر الأحيان يسلم علي من نافذته .
— إذن هو أعزب ؟

— نعم .

— ألا ترين أحداً يزوره ؟

— كلا .

— إذا فسيحبني كما أحبه .

وفيا هي تقول ذلك إذ فتحت النافذة وأطل منها فرناند فاخترت باكارا
خلف اختها وقالت لها : هذا هو .

فجعلت سرين تحرك روافد نافذتها حتى استلفتت انظار فرناند فسلم عليها
ثم أظهر انذهاله لما رأى اختها وراءها وانها تشبهها مشابة تامة فقالت له سرين :
هذه هي اختي .

فانحنى فرناند مسلماً عليها ، أما باكارا فانها انحنى على اذن اختها وتوسل اليها ان تدعوه .

وقد أقر توسلها على فؤاد سرين بما أنساها موقفها وخطورة هذا السلوك فأشارت الى فرناند ودعته الى الحضور اليها فشكرها واعتذر عن عدم تمكنه من قبول هذه الدعوة لاضطراره الى الذهاب الى مكتبه ثم سلم مودعاً وأغلق النافذة .

فقالت باكارا : انه سيذهب ولا ريب الى زيارة امرأة ولكنني سأعلم أين يذهب وسأكون شديدة الغيرة من هذه المرأة كثيرة الحنق عليها .

- وبأي حق تغارين فان فرناند لا هو زوجك ولا محب لك .

- سيصير أحد الاثنين .

- أنتزوجين به ؟

فهزت باكارا كتفها وسكتت فقالت سرين : أذكر ان ليون قال لي أنت فرناند عازم على ان يتزوج .

- فرناند يتزوج ؟

- نعم ، وماذا يمنع ؟

- يمنعني اني لا أريد أن يتزوج .

- وبأي حق ؟

فضربت باكارا رجلها في الأرض من الغيظ وقالت : أوجد في الحب حقوقاً اني أحبه وهذا هو حقي الوحيد .

- ولكن اذا كان هو لا يحبك

- سيحبني فان أصحاب الملايين تنطرح على قدمي وتتفاني في حبي أيصعب

علي وأنا باكارا أن أحب من رجل فقير .

وكانت سرين قد فرغت من جمع طاقتها فأخذتها وخرجت بها مع اختها كي توصلها الى معمل الرهور فقالت لها باكارا : أتريدني أن أوصلك بركيبي

الى المعمل .
فامتعت وقالت لا يليق بمعاملة زهور مثلي تشتغل كل ساعات النهار
لكسب فرنكين ان تركب في مركبة تجرها الجياد المطهمة ، دعيني اذهب على
الأقدام واذهبي كما تشائين
ثم ودعتها سرين وذهبت .
أما باكارا فانها صعدت الى المركبة وأمرت السائق أن يقف وما زالت بها
الى أن خرج فرناند فقالت للسائق : إتبّع هذا الرجل الى حيث يذهب .

- ٤ -

فرناند

كان فرناند في الخامسة والعشرين من سنه ، حسن الطلعة عالي القامة وافر
الأدب وقد ربي يتيماً عند عم له وتخرج في إحدى المدارس العالية فاستخدم
عندما بلغ العشرين من عمره في وزارة الخارجية براتب قليل ثم أخذ راتبه يزيد
شيئاً فشيئاً إلى ان فاق جميع أقرانه .
وكان كثير الشغف بفن الروايات وقد علق آماله المستقبلية على هذا الفن لشدة
الاقبال في هذه البلاد التي لم تدر من عقابها ولم تبلغ ما بلغته من المدنية إلا بهذا
الفن الجميل فكان يصرف معظم فراغه بين المحابر والأقلام .
وكان شديد المطامع من ذلك انه عشق ابنة رئيسه في الوزارة واسمها هرمين
وهو يعلم ان دون زواجه بها المصاعب الجمة لفرط غنا ابنها ولشدة بخله ولكنه
كان كثير الأمل لتبادل الحب بينهما
وكان والد هرمين قد دعاه الى الطعام في ذلك اليوم الذي خرجت باكارا

في أثره ، وكان كثيراً ما يدعو ليسانده في تأليف كتاب عزم على نشره باسمه والاستعانة بفرناند عليه لما كان يعلمه من حبه لابنته والتذرع الى مرضاته بجميع الوسائل .

ذهب فرناند يقطع الأرض نهياً وقلبه يخفق خفوق الأجنحة من الشوق إلى هرمين إذ لم يرها منذ ثلاثة أيام .

وكانت باكارا تسير في أثره الى ان وصل الى منزل رئيسه فولج اليه وأمرت باكارا السائق ان يقف بعيداً عن الباب ثم نزلت من المركبة فأسدلت برقعها ودخلت الى نفس المنزل الذي دخله فرناند .

فأعطت البواب قطعة من الذهب ثم دنت اليه مبتسمة وقالت : اليس لك لسان ؟

— كلى السنة ناطقة بشكرك .

— إذن قل لي فانك ستنال خيراً من خدمتي ، من هو هذا الشاب الذي دخل الآن ؟

— هو مستخدم في الوزارة وهذا هو منزل رئيسه .

— ما اسم رئيسه ؟

— المسيو دي بيرابو

— هل هو متزوج ؟

— نعم .

— هل امرأته صبية ؟

— كلا فانها قناهر الخمسين .

— اليس له إبنة ؟

— نعم وهي على غاية من الجمال .

— حضرت باكارا على شفقتها وقالت : ما اسمها ؟

— هرمين وأظن انها متحابين .

— ما دعاك لهذا الظن ؟

— ذلك لا ريب فيه عندي لكثرة تردده على هذا المنزل فانه يجيء أربع مرات في الأسبوع .

— في أية ساعة يغادر هذا المنزل اعتيادياً ؟

— في الساعة العاشرة مساء .

شكرته باكارا وأعطته ديناراً ثانياً على سبيل الجزاء ثم خرجت الى المركبة التي كانت في انتظارها

وبينما كانت باكارا تسأل عن فرناند ، كان هو يصعد السلم لا يداخله ريب بها ، ولا يعلم أمراً من غرامها به حتى بلغ المنزل في الطبقة الثالثة وطرق الباب

أما بيراو هذا فانه كان في أول عمره فقيراً معدماً وقد جاء باريس منذ ثلاثين سنة فتوفق للدخول في خدمة الوزارة ثم ترقى يجده ونشاطه ومولاه من أولياء الأمور الى ان عين رئيساً لاحدى دوائرها .

ولقد لقي عند قدومه امرأة تدعى تريزا لها ثروة وجمال ، وكانت تلك المرأة قد ارتكبت هفوة لم تستطع إصلاحها أو أنها خدعت وكان لها ابنة صرقت اليها معظم حنوها فتقرب منها بيراو طمعاً في ثروتها وعلم ان ابنتها غير شرعية فتغاضى عن ذلك ، ووعد تلك المرأة ان يكون لها أباً لابنتها فقبلته بعلا بملء السرور ، ومن ذلك الحين أصبحت ابنتها هرمين معروفة باسمه .

ولنعد الى فرناند فنقول انه عندما طرق الباب فتحت له هرمين ولم تكده تراه حتى تلون خداها بصبغة الورد ، فحيها تحية الحب الوله ثم دخل معها الى غرفة البيانو فجلست تعزف عليه ألحاناً كانت تهيج كوامن غرامهما وتحرك عوامل قلبيهما ثم شغلا عن حديث الألحان بإحاديث الغرام الى ان شغفيا غلما فقال لها فرناند يسرني ان أخبرك عن قبول روابتي في ملعب سانت مارتين

وقد وعدني مديرها انه سيمثلها في هذا الشتاء وأنا أرجو ان ينالني من ذلك ربح عظيم فعند ذلك أجسر في محادثة أبيك في شأن زواجنا .

فقالت هرمين بصوت منخفض إني كنت أتحدث مع أمي أمس في هذا الشأن

فاضطرب فرناند وقال : بماذا أجابت ؟

أجابت هرمين قائلة : ان أمي راضية عن حبنا ولا تمنع في زواجنا لما تعلمه من كرم أخلاقك وحسن مستقبلك ولكنها تخشى معارضة أبي .

فأخى فرناند رأسه بحزن وكآبة وقال . إني اختبرت أبك وأنا أعلم انه سيرفض طلبي بالنظر لفقرتي ، وهو يعلم ان لا رجاء لي إلا من مستقبلي الروائي .

فقاطعته هرمين وقالت له : اصنع الي إن أمي سألتني بالأمس اذا كنت على ثقة من حبك .

- آه يا هرمين أعندك ريب في ذلك ؟

- حاشاي ان أشك بصدق ودادك ولكني أريد ان أقول ان أمي لها نفوذ على أبي وهي تحبني حباً شديداً وحيث انها وثقت من صدق حبك لي بعد ان ثبت لها ذلك فهي تبذل جهدها في إقناعه

- ومتى يكون ذلك ؟

- في هذا المساء

وعندها دخلت أمها فمانقت هرمين بجنو ثم نظرت الى فرناند وقالت له :

أحقيقي يا فرناند انك تحبها ؟

فلم يجبها فرناند بحرف ولكنه ركع أمامها ونظر الى هومين نظرة تكلمت عن فؤاده بافصح لسان .

فارتعشت تريزا وقد أيقنت من صدق حبه ثم أنهضته ووضعت يده بيد ابنتها وهي تقول اني لا أعترض في هناء ابنتي وأنت يا فرناند انك ستدخل

مع هرمين الى غرفة الشغل بعد العشاء وتدعيني في خلوة مع أبيها .
ثم تركت العاشقين يتناغيان ويتناجيان وانصرفت الى إدارة شؤونها
البيئية ، فلم يمر بهما أحلى من تلك الخلوة ولم يشعر بأطيب من تلك الساعة ،
إلى ان أيقظهما من تلك الأحلام السعيدة دخول المسيو بيرابو ، فلم ينظرا
اليه حتى أيقنا أنه مصاب بحادثة أضاعت حواسه ، لأنه كان شديد
الاضطراب

- ٥ -

كينيون

بينما كانت باكارا تقفو أثر فرناند كانت سريرز تسير بطاقة الزهر الى المعمل
وهي تذهب من شارع الى آخر فتهيج النفوس وتفتن العقول وقد دارت بها
العيون كالنطاق وما من أحد كان يراها إلا ويدهش من محاسنها ويسكر بجمالها
العجيب فيقرظها بما يحضره من رقيق الكلام ورائق المعاني ولكن اذنها لم
تكن تصغي لمثل هذه الأحاديث وقلوبها لم يكن يحفل بمثل هذا المديح لما
كان يشغلها من أمانى نفسها وحبها لخطيبها ليون فكانت تمشي بوقار واحتشام
لا تسمع حديث الأفواه ولا تفهم لغة العيون الى ان وصلت الى المعمل فأودعت
فيه الطاقة ثم قبضت اجرتها وأخذت شغلا حديداً وبدلاً من ان تعود الى
منزلها ذهبت في شارع شابون حيث يشتغل خطيبها وهي تقول : كم أكون
سعيدة إذا اتفق لي ان أراه ؟

أما ليون رولاند فإنه كان شاباً يبلغ الثلاثين من العمر أشقر الشعر ضخيم
الجثة قوي الأعصاب ولم يكن جميل الوجه غير انه كان صافي السريرة طاهر

القلب حسن النية عاملاً نشيطاً شريف الأخلاق وقد اتفق انه حين مرور سرين كان واقفاً بباب الحانوت الذي يشتغل فيه .

ولما رآها مارة أسرع اليها وسلم عليها ونفسه تسكاد تطير شعاعاً من بهجة لقائها ثم شكرها لمرورها بهذا الشارع فقالت وقد صبغ الخجل وجنتيها: إني لم أمر من هنا إلا على أمل ان أراك .
— قد صدق ظنك ولو لم تمر من هنا الآن لكنت قصدتك في هذا المساء لأنه يجب ان أحادثك في شأن مهم .

فارتفعت سرين وقالت : لقد شغلت بالي بأي الشؤون تريد محادثتي ؟
— لا تخافي فليس ما يحمل على الكدر وأول ما أبدأ به هو اني عذمت ان أذهب غداً مع أمي الى بلقيس وسأكون من أسعد الناس حظاً اذا قبلت دعوتنا وذهبت معنا

— أراضية أملك بذلك ؟

— ذلك لا ريب فيه لأنها تعلم انك ستصيرين إمرأتني بعد حين .

فأرخت سرين نظرها من الحياء وجعلت تنكت الأرض بمظلمتها ثم نظرت اليه وقالت : أهذا المهم الذي تريد ان تحادثني فيه ؟

— كلا فإن هذه الحكاية قد جعلتها مقدمة لحديثي لما أجد بها من السرور وأية ساعة أشهى الي من ان أكون وإياك في منتزه واحد . أما الذي اريد ان اقله لك فهو انك تعلمين ما وعدني به صاحب المعمل من انه سيجعلني رئيساً عليه بعد شهرين .

فتنهدت سرين وقالت : نعم

— والآن فإنه غير افساره

— ماذا ارجعه عن رئيسك ؟

— كلا فإني عيذت اليوم

— كيف ذلك ؟

— ذلك ان الرئيس الذي خلفته في منصبه قد انتهى اليه إرث من قريب له توفي منذ يومين فاضطر الى السفر والتنحي عن الأشغال ، ولكونه من مواطني فقد رجوته ان ينوب عني في بيع ارضي التي كان في نيتي ان اسافر لبيعها .

— إذا قد رجعت عن السفر ايضاً ؟

— نعم وبعد ثمانية ايام يصل الي ثمن تلك الأرض وبعد ذلك بخمسة عشر يوماً نقدر ان نتزوج .

فظهرت على ملامح سريز علائم السرور وعقب خداهما بحمرة الخجل ، ثم قالت : إن هذا الأجل قريب جداً .

— وأنا أراه شديد البعد ايتمها الحبيبة .

ثم ضغط بيديه على يدها ونظر اليها نظرة توسل واستعطاف باحت بمكنونات فؤاده واستوقفت بعض المارة .

فودعته بلطف وحنو وأفلتت منه وهي تقول : إلى الغد وسنرى .

ولم يزل واقفاً يشيخها الى ان توارت عن عينيه في شارع سانت مارتن .

وفيا هي تمشي سمعت صوتاً يناديها باسمها فالتفتت ورأت شاباً بالقرب منها رفع قبعته وحيهاها باحتشام فدنت منه وسلمت عليه .

وكان هذا الرجل من أصدقاء خطيبها يدعى كينيون وهو شاب في الثلاثين من عمره هزيل الجسم قبيح المنظر ، ولكنه كان رقيق الحاسة لطيف الشعور طيب النفس .

وكان سيء البخت نكد الطالع وقد عرف ذلك من دهره فأدار له ظهر المحن ولم يعبأ بصروفه وكان على الدوام باسم الشجر طلق الوجه شديد المزاح كثير الميل الى خدمة معارفه وعلى الجملة لم يكن له في باريس بغيض

فلما رأى سريز استوقفها وبعد السلام سألها عن وجهتها فقالت اني ذاهبة إلى أم ليون لأخبرها بأننا سنذهب غداً إلى منتزه بلفيل فهل لك ان

تكون معنا ؟

ذلك ما أتوق اليه لا سيما وأني أجد فرصة مناسبة لتأنيب ليون .

— على أي شيء تريد أن تؤنبه ؟

— على صداقة عقدها من عهد قريب مع رجل لا يستاهل المودة ويجب أن يحذر منه .

— من هو هذا الرجل ؟

— هو رجل صناعته عمل الأقفال يدعى روسينيول وهو فاسد الأخلاق قبيح السيرة بذيء السمعة وقد ساء في التحام الصداقة بينهما وبلوغها إلى حـ أصبحا فيه لا يفترقان فرأيت أن من واجباتي أن أردع ليون عن معاشرته وأن أظهر له ما لم يعلمه من فساد أخلاقه وبعد ذلك فله الخيار بالميل اليـ أو بالبعد عنه .

— عجباً اني لا أعرف هذا الرجل وأنت تقول انه من اصدقاء ليون .

— نعم وأن السبب في ذلك هو الصداقة بينهما حديثة العهد وقلبي يحدثني انها ستكون سيئة العاقبة وما استوقفني إلا لما ارجود من مشاركتك أيـ بنصيحتي على تجنب معاشرته وتحذيره منه فاجتهدت أن تردعيه وأنا سأبذل مجهودي، ثم ودعها وذهب في شأنه فواصلت سرير سيراها إلى منزل أم خطيبم وفي الوقت نفسه كان يسير في الشارع رجل كهـ ينساهر الخمين قصير القام نحيل الجسم مجمد الجبين فاتر العينين وكان لابساً ثوباً أزرق وعلى سترته زـ أحمر يشير إلى انه متقلد وسام جوقة الشرف .

ولم يكن هذا الرجل سوى بيرابو والد هرمين فانه كان -ائداً إلى منزل ليواني فرناند الذي كان قد دعاه إلى الطعام كما تقدم البيان وقد اتفق انه تقابل وجهاً لوجه مع سرير فلم يكـ يراها حتى اختلجت أعضاؤه وأضطرب فؤاد فوقف في البدء ينظر اليها بتدله وقد اندلع لسانه وجمحت عيناه ثم رأى أنه لم تلتفت اليه ولم تعره جانب الانتباه فسار في أثرها يقفوها .

ولم يكن ذلك أول ما أتفق لهذا الكهل فانه كان ينفق أكثر ساعات فراغه متجولاً في الشوارع يتعقب الحسان من بنات الهوى فلم يكن يخيب منه أمل ولا تضيق له أمنية ليساره وكثرة انفساقه مما زاد من جرأته ولكنه ساء فاله برين ولقي منها ما غير معهوده وألمه ما رآه بها من الاحتشام بالتهجم عليها بالحديث فاندفع يمشي في أثرها بأقدام مضطربة وقد أعاد جمالها إلى قلبه دم الشباب .

ولم تعلم سرين أنها متبوعة حتى بلغت إلى شارع مقفر ورأته وراءها فأسرعت في مشيها فاقتدى بها ، فهلم قلبها وضاعفت سرعة سيرها حتى وصلت إلى منزل أم خطيبها فدخلت وقد عاد سكونها وأقامت عندها مدة طويلة تزيد على الساعتين .

ثم خرجت من عندها وعندما وصلت إلى الشارع رأته واقفاً على الرصيف وعلى وجهه ملامح السأم من الانتظار فلم تجد حيلة في الرجوع ولا بدأ من مواصلة السير فمشت ولم تسر بضع خطوات حتى أدركها واستوقفها وهو يقول : سيدتي ..

فالتفتت إليه سرين وقالت له بلطف .. لست يا سيدي من اللواتي تعهدن ولم تسبق لي عادة أن احادث في الشوارع من يتبع خطاي فخير لك أن تضي في :أنك .

ثم تركته وهو لا يدري بماذا يجيب ومضت فجعل يتبعها على مسافة بعيدة بحيث يراها ولا تراه فلم تزل تسير حتى وصلت إلى منزلها فدخلت مسرعة والتفتت وراءها فلم تره فاطمأنت وصعدت السلم وهي تغني .

أما بيرابو فانه رآها دخلت ولكنه لم يعلم إذا كان المنزل منزلها فلبث زمناً طويلاً ينتظر إلى أن أعياء الانتظار فذهب إلى البواب وأعطاه ذهباً كما فعلت باكارا في سؤالها عن فرناند ثم .أله عن سرين فقال له البواب اسمح لي يا سيدي أن أقول لك انك تنفق وقتك ومالك عبثاً ف هذه القمئة شريفة .

ولكنني كثير الأموال

لا يجديك مالك نفعا ولو أنفقت منه الملايين لأنها ابنة طاهرة وفوذ
ذلك فأنها مخطوبة ولو كان لك شأن مع اختها لكنت احادك بعكس
ما تسمع .

- من هي اختها ؟

هي ابنة بني كثيرة الجمال لها قصر شاهق ومركبات .

- وما اسمها ؟

باكارا

- أين منزلها .

- بشارع موني .

حسنا ، وتركه وانصرف وهو مشنت الفكر مضطرب البال وقد أصيب
بذلك الداء العضال الذي ليس له دواء وهو حب الشيوخ فأحب سريز حب
ليس فوقه حب ومضى وهو ينظم في أفكاره الجهنمية طرق غوايتها إلى ان
وصل إلى منزله وهو على ما وصفناه من القلق والأضطراب .

- ٦ -

بيراو

فعندما رآته امرأته وابنته صاحتا صيحة انذهال وقلق وقالت له امرأته :
بالله قل ماذا أصابك وماذا اعتراك فان هيئتك تحمل على الخوف .

- قل بيراو وهو يرتعش . لست في شيء مما تتوهمين وليس بي ما يحمل
على الرعب .

إذن فما علة هذا الارتعاش ؟

- بينما كنت ماراً في الشارع وإذا بمركبة قد جمحت جياتها كادت تصدمني
لو لم تحل بيننا المقادير وقد نجوت والحمد لله من هذا الخطر فحمل بنا إلى الطعام ثم
قدم ذراعاً إلى هرمين وذهبوا جميعهم إلى المائدة .

أما فرناند فإنه لم يعبأ بهذا العذر الملقق وأيقن أن السبب في اضطراب
رئيسه هو غير ما قال فأوجس خيفة من هذا الانقلاب وعلم أن امرأته لا
تستطيع أن تحدث في شأنه وهو على مثل هذه الحال ولكنه لم يلبث أن تغير
ظنه باستحالة رئيسه من الانقباض إلى الهشاشة مما يدل على أنه اهتدى إلى
طريقة تمكنه من غواية سريز .

وعندما فرغوا من الطعام دخل فرناند إلى قاعة الكتابة ثم تبعته هرمين
بشارة أمها ولما خلا المكان ببيروابو وامرأته قالت له :

أسمح لي أن احادثك بشأن هام ؟

- وما عسى أن يكون هذا المهم ؟

- اني أريد ان احادثك بشأن ابنتي التي بلغت التاسعة عشر من عمرها أي

انها بلغت سن الزواج .

- تريدان أن تزوجي أبنتك . . ولماذا ؟

لأننا لا ندوم لها .

- ليسكن ولكن يجب أن نجد لها زوجاً

- ان الزوج موجود .

- هل هو غني ؟

- كلا ، ولكن مستقبلي حسن .

فهر بيرابو كتفه وقال ولكن هذا لا يكفي .

انما هرمين تحبه بقدر ما يحبها .

- ما اسمه ؟

- انك تعرفه وتقدر فهو فرناند .

فوثب بيرابو عن كرسیه وقال بتعجب واحتقار أزواج ابنتي من رجل
لا مستقبل له ولا مال ولا يزيد راتبه على الألفي فرنك انك لا ريب قد
جننت فان مثل هذه الآراء لا تصدر عن العقلاء وإذا كنت ظننت اني أصادق
على هذا الزواج فان نفسك قد خدعتك فلا تحلمي به فانه لا يكون ولن يكون
ما زلت في قيد الحياة .

ثم جعل يمشي في أرض الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوة غير موزونة وهو يعثر بما
تصادفه قدماء ولا يهتم كمن به جنة أو ضرب من الهم ، أما امرأته فكانت
جالسة بالقرب من المستوقد فلما سمعت ما كان من جوابه أخذت تشفق وتنتحب
كلأطفال ، ورآها والدع يتساقط من عينيها فقال : انك تبكين لكوني
رفضت أن أزواج ابنتك من رجل لا مال له في حين كان يجب عليك ان
تشكريني لغيرتي على ابنتك التي هي ليست بابنتي بل ابنة الصدفة بل
ابنة الزينغ والنغي

فوقع هذا الكلام على تريزا وقوع الصاعقة ولم تكذ تسمعه حتى وقفت
وقد التهمت عيناها من الغيظ وقالت انك تهينني وانك من أسفل الرجال .
- فعلم بيرابو انه قد أفرط في الإساءة اليها وحاول اصلاح ما فسد فقال لها
بلطف : تلك بادرة بدرت مني ولكنك انت دفتيني إلى هذا الحد

فقالت له تريزا : انك تعلم اني كنت منذ عشرين سنة ابنة نفية طاهرة ولم
أكن قط بغياً وانني كنت في احدى الليالي المشؤومة في فندق على مرحلة من
تولوز مع أمي التي وصف لها الأطباء التجول فاغتصبني فيه أحد الجنود الأشرار
وعلقت منه بهرمين ، وقد اعترفت لك اعترافاً جلياً في كل ذلك عندما طلبت
أن تتزوج بي طمعاً بمالي وقدمت لك ابنتي النقية فاخذتها بين ذراعيك وقلت
لي (طيبي نفساً فساكون أباه) .

- وماذا رأيت بأقوالي ألم أفى بوعدي إلى الآن بشأن هرمين أعندك شك
بأنني أبوها أيعلم أحد من الناس حقيقة السر ؟

— كلا . ولكن هذه الأبنسة التي وعدتها أن تحبها كما تحب ولدك تسائل نفسها في كل حين كيف يكون الرجل أبي وكيف يعاملني بقسوة ونفور بخلاف ما يعامل به أخوتي ؟

— ذلك لأنني أفضل عليها أختها وهي ابنتي وهذا طبيعي معقول انما .

فاوقفته عن الكلام بنظرة ازدراء وقالت : انها كما كانت تستغرب نفورك منها كانت تعجب أيضاً عندما تراني باكية العين وتعلم انك أنت السبب في هذه الدموع التي كنت أذرفها في خلوتي ولا يعلم بها غير الله .

فضرب الأرض برجليه من الغضب وقال : انك تتهمني بما أنا بريء منه فاني لم أسيء اليك ولم أغتصب اموالك فانك إذا كنت أعطيني مالا فقد استعصت عنه باسمي الشريف الذي ستر زلتك ودفع عنك عار الغواية فليس لك علي شيء بعد أن غسلت باقترانك بي ذلك العار

— انك منخدع بما يوسوس لك ضميرك لأنه يوجد شيء تفضله الأم على راحتها وهنائها ونفسها وشرفها وهو هناء ولدها ولقد رأيت مني امرأة صبوراً طائعة منخفضة الرأس لا تخالف لك أمراً ولا تعصي لك إرادة وتسأل لك العفو من الله عندما تسيء اليها ولكن هذه الإساءة كانت للام أما وقد أردت أن تسيء إلى ولدها فان هذا الرأس المنخفض سيرتفع وهذه النفس الفاترة ستنشط وتدفع عن ولدها كل مكروه . . أن هرمين تحب قرناند وهو رجل حسن الأخلاق شريف النفس بعيد منال الهمة وأنت الذي تصفه بهذه الصفات فما لك الآن تناقض نفسك وما الذي يمنعك عن الرضى بهذا الزواج ؟

- يمنعني فقره المدقع .

انك عندما تزوجت بي لم تكن أيسر منه مالا ولا أوسع حالاً .

فقال وقد احتدم غيظاً أني عندما تزوجت بك على هذا الحال كان لك ولد لا تعلمين ولا يعلم الناس أباه والآن ما لنا ولهذا الجدل أتريدين أن أصادق على هذا الزواج . قولي فان ذلك منوط بك .

فمسحت تريزا دموعها وقد عزمّت على أن تقاومه إلى النهاية فقالت :
ماذا تريد أن أفعل ؟

فجلس أمامها وقال . اسمعي ماذا يجب أن تفعل فيه إذا كنت تطالبين ه
القران انه يحق لك حسب اتماقنا أن تهبي ربع ثروتك البالغة مائة ألف فرد
إلى ابنتك هرمين وان تدعي الباقي لي او لأولادي فإذا كنت تتركين حقك
هذا المال إلى ابنتنا الشرعية رضيت بزواج هرمين .
فقاطعت تريزا وقالت : كلا فاني لا أؤثر أحداً من اولادي على الآخر و
ميزت الأمهات على البنين .

فأجابها ببرود ، إذا فلندع هذا الحديث فاني اعترفت عند قراننا ان
هرمين هي ابنتي الشرعية ولا حق للابنة أن تتزوج بغير رضى أبها إلا مة
بلغت سن الرشد وهي الآن دون هذا السن وأنا لا أصادق على قرانها .
ليكن ما تريد أما نحن فسننتظر ويسوءني انك ستضطري إلى أن
أبوح لأبنتي بكل شيء من أمر ماضي حياتي وأن أذوب أمامها من الحجل .
وفيما هي تقول ذلك فتتح الباب ودخلت هرمين فطوقت عنق أمها بذراعيه
وهي تقول . أماه انك من أشرف النساء ولم ترتكبي أثماً تخجلين به أم.
ابنتك . وأبي أسألك المـمـذرة فقد سمعت كل حديثكما وعلمت نبأها
وقداسة قلبك .

ثم تركتها ونظرت إلى بيرابو وقالت . ان امي لا تريد أن تجردني م
حقني من مالها ولكن يحق لي أن أرفض هذا الحق ولذلك أقبل بما اقترحة
عليها ، ثم انحنى امامه بتهكم ومشى إلى الباب ونادت فرناند . . فرناند . .
ولما أتى أخذته بيده وقالت له أمام بيرابو
- ألا تقبل بي امرأة لك يا فرناند بغير مال ؟ .

٧ -

كولار

في اليوم الثاني من اتباع باكارا لفرناند أي يوم الأحد صباحاً كان كولار الذي عرفناه بزعيم عصابة السير فيليام يسير سيراً سريعاً في شارع انتين الى أن بلغ إلى شارع النصر فمال منه إلى بستان كبير قائم في وسطه قصر شاهق بناه أحد الأغنياء الانكليز فاقام فيه زمناً ثم سافر وترك فيه خادماً له وقد سمح له أن يؤجره وينتفع بريعه .

وكان قد استأجره السير فيليام حين رجوعه إلى باريز من لوندرد ولا بد لنا أن نذكر شيئاً من سابق حاله في هذه المدينة التي أقام فيها زمناً طويلاً على سعة من العيش وخصب من الحياة يقول انه كان معروفاً في لوندرد انه من الأشراف ذوي الثروة الواسعة وهو في الحقيقة رئيس عصابة من اللصوص وكان يسمي نفسه البارون فيليام وقد حلق شاربيه كي لا يعرف فكان يدخل إلى أحسن البيوت وله عشرة من أشراف العائلات وقد جمع كثيراً من المال من مهنته اللصوصية أنفق معظمه على البذخ والاسراف ثم غادر البلاد الانكليزية بغتة ولم يعلم أحد من معارفه علة هذا الرحيل المفجائي فكثرت الأقاويل وتواترت الظنون وأشيع عند الأكثرين انه كان متلبساً بقلب البارون وانه كان لصاً سافلاً وانه كان تلميذاني الأصل وان كان يحسن الكلام باللغة الانكليزية كأبنائها فعندما عاد إلى باريس أطلق شعر شاربيه وصمغ شعره بصبغة سوداء وقد تغيرت ملامحه بعض التغير فساعدته تلك الصبغة على الخفاء .

وكان عندما وصل كولار إلى منزله واقفاً أمام مرآة في غرفة النوم يصلح صبغة شعره وهو يقول

اني منذ أشهر في باريس وأشغالي سائرة على محور النجاش الأكيد فاذا دامت

الأبالسة على الصدق في خدمتي فان ملايين كرماروت ستكون لي وحدي
تباً لك يا أرمان دي كركاز من بله يحب البشر وينفق امواله على المساكين
طب نفساً فانك سترد تلك الملايين المؤقن عليها إلى السير فيليام الذي عرف
كيف يغير ملامحه فلا تستطيع أن تعرف انه أخوك العزيز اندريا الذي اختلست
امواله بحجة ان أباه سرق أموال أبيك

أما كولار فانه شديد الذكاء وهو وان كان لم يخدمني في لوندرا خدمات
جليلة فانه كان غريباً فيها أما الآن فهو في موطنه ويعرف خفايا باريس ؟
يعرف خفايا منزله فلا شك ان هذه العصابة التي ألفها سيكون لي منها خير
فائدة وقد ظهر من أعمالها إلى الآن ما يبشر بالنجاح الأكيد .

وفيا هو يناجي نفسه بمثل هذه الأحاديث إذ فتح الباب ودخل كولار
فحمياه ثم جلس على الكرسي بالقرب منه ودار بينهما الحديث الآتي .
قال كولار : اني أتيت لأخبرك عن أمور مهمة توفقت للوقوف عليها بواسطة
رجالي الذين يشتهلون بالدقة والنظام .

- أنظن ذلك ؟

- هذا لا ريب فيه ودليلي عليه أننا أصبحنا على اليقين من أن مدام بيراب
هي ذات تريزا التي نبحث عنها .

- أصبح ما تقول ؟

- نعم وأن ابنتها هرمين هي ابنة كرماروت صاحب الملايين وليست بابنة
بيرابو كما هو المتعارف عند الناس .

- أرى من هنا يجب أن تمتدى الرواية فإن بيرابو شديد البخل وإذ
وعدها بمليون فهو لا يرفض أن يزوج ابنته ، ثم نظر الى المرأة مبتسماً وقال
أما ابنته فلا أخالها ترفض من كان مثلي زوجاً لها .

- إنما للصبيبة عشيق وسيتزوج بها بعد خمسة عشر يوماً كما علمت .

فاصفر وجه أندريا اصفرار اليأس وقال هذا محال .

- أن ما أخبرتك به هو الحقيقة بعينها وإن خطيب هرمين هو موظف في الوزارة الخارجية .
- هل هو عني ؟
- ليس له دراهم ولكنه محبوب .
- ما اسمه ؟
- فرناند روشي .
- أين منزله ؟
- في شارع باريس .
- فأخذ أندريا دفترًا صغيراً وكتب فيه بضعة سطور بالحرف المصري القديم ، ثم سكن اضطرابه فقال : وما عندك وراء هذه الأخبار .
- قبل كل شيء أحب أن أخبرك عن صداقة عقدتها حديثاً مع رجل نجار .
- لماذا ؟
- لهما قلبي بفتاة شغفت لبي وأخذت بمجامع قلبي
- نحن الآن بمعرض الغرام ياكولار أسمع حالتنا الحاضرة أن نعشق ونهم .
- قر بالآ يا سيدي فإن ذلك لا يشغلني فترة عن واجب خدمتك .
- حسناً ، ولكن أية صلة بين هيامك بتلك الفتاة وبين مصادقتك لذلك النجار
- اصنع الي يا سيدي ، اني لقيت حديثاً فتاة جميلة الوجه طاهرة القلب عفيفة النفس فهامت بها روحي وحن اليها قلبي وبحشت عنها فعامت أنها مخطوبة . ومن المقرر أن من يحاصر قوماً يجتهد عند شوب الحرب أن تدمر قلاع أعدائه ويقطع كل مدد عنهم كي يجبرهم على التسليم ولذلك عقدت تلك الصداقة مع هذا النجار الذي هو خطيبها ولا أريد بذلك إلا فساد أخلاقه طمعاً بأن تنفر عنه خطيبته سريز ، أما هذا الشاب فإنه يدعى ليون رولاند وله صداقة مع فرناند روشي خطيب هرمين

فأظهر أندريا علائهم الرضى وقال: تم حديثك فقد بزغ لي منه نور من الأمل

— فقال كولار: وقد ذهبت أمس لزيارة ليون في محل شغلها، فبينما أنا عنده إذ جاءه فرناند وأخبر صديقه والفرح ملء فؤاده بجميع ما كان من خطيبته وأما وأبيها، وأنه سيتزوج بعد خمسة عشر يوماً، وكيف أن بيرابو رفض أولاً أن يزوج ابنته من فرناند حرصاً على المهر إلى أن تنازلت هرمين عن ذلك المال

فأصفر وجه أندريا وقال: اننا في أخرج المواقف وأشدّها ولا أصعب من بزغ الهوى من قلب قتاة تحب.

— اصغ الي فلم انته بعد من تقريرى واعلم أن لسريز اختاً بغيماً وافرة المال وقد تهتكت في حب فرناند، ولم تجد صبراً عنه.

فبرقت عينا أندريا بأشعة الأمل وقال: هل هي جميلة؟

— أنها كثيرة الجمال والدلال.

. هل هي عاقلة؟

— هي رجيعة العقل شديدة الذكاء.

— إذأ فهي تكفل لي غواية فرناند واقلعاه على حب هرمين وسنرى في شأنها.

فقال كولار: يوجد أيضاً شيء آخر لم أطلعك عليه وهو أن والد هرمين مفتون بسريز وقد تبعها أمس ووقف بالقرب من منزلها طويلاً ثم عاد في المساء وسهر طول الليل متجولاً تحت نوافذ غرفتها فهل أنت راض عن هذه الافادات.

فلم يجبه أندريا بشيء عن سؤاله وأخذ يفتكر بتلك السلسلة التي جمعت تريزا وهرمين وأما وخطيبها ورولاندا، وبعد أن أمعن الفكرة طويلاً نظر إلى كولار وقال: أتعرف منزل باكارا؟

— نعم، فهو في شارع موتسي

— حسناً، فإن هذه الفتاة ستخدمني وأنت فهل تحب سريز حباً شديداً؟

— لا أعلم ولكني رأيته في عنفوان الشباب كثيرة الجمال فتقت إلى أن
أخذها خلية لي فأنا أحبها ولا أحبها .
— ولكن إذا احتجنا إليها؟

فنظر إليه نظرة اندهال وحيرة وقال : لم أفهم ما أردت وكيف تحتاج
إليها ؟

— لننصب منها فخماً ليرابو ويجب قتل كل شيء أن نتخلص من خطيئتها
ليكون فإنه يشغل علينا .

— إن هذا رأي جميل وسأشرع في انفاذه هذه الليلة في بلقيس .

— إذا لا يسوؤك ذلك ؟

— كلا ولا سيما أننا مضطرون إلى إجرائه وفوق ذلك لا داعي إلى الغيرة

من الكمول .

فنادى أندريا خادمه وأمره أن يهيئ المركبة ثم قال لكولار : يجب أن
تجد لي من اليوم إلى ثلاثة أيام منزلاً للأجرة في الشانزليزه مع اصطبل للخيل
والآن اذهب لقضاء هذه المهمة ولا تغفل عن أمر ليون .

فذهب كولار ، أما أندريا فإنه ركب المركبة وسارت به إلى منزل باكارا
وكانت باكارا لا تزال في غرفة النوم وقد لسمعتها عقرب الغيرة من هرمين والفت
السهاد ، ولم تذوق طعم الكرى ، ولم تكن تعرف الحب قبل أن رأت فرناند
فكانت تهزأ بالهوى وتعبث بعشاقها ، وهي بغير قلب يحن وبغير نفس ترجم لا
يهمها سوى جمع المال واحتقار الرجال وتركهم يقتتلون لأجلها وهي ضاحكة
لاهية ومحبتها يكتئب وينتعب حتى نفدت إليها سهام الهوى وعرفت أن لها
قلباً كقلوب البشر وأحالتها الحب من الحيوانية إلى الانسانية وجعلت تعض يديها
من الغيرة وهي تردد بصوت منخفض اسم فرناند .

وكانت قد اضطجعت على فراشها من الساعة العاشرة وهي ترجو أن تقطم
النوم وتعمل نفسها بخيال من تحب ولم يغمض لها جفن وما زالت تتقلب على مثل

الغضبي إلى ان طرق الباب ودخلت خادمتها تخبرها بزيارة اندريا وبيدها رقعة
فقال لها :

- لا أريد أن أقابل أحداً فاخبري كل من يزورني اني لست في المنزل .
وخرجت الخادمة ثم رجعت بعد هنيهة وقالت لها سيدتي ان هذا الرجل
يلج في طلب مقابلتك وهو واسع الثروة كما يظهر
واخذت باكارا رقعة أندريا وقرأت فيها « السير فيليام . . بارون » ثم القتها
على منضدة أمامها وقالت اني لا أعرف هذا الانكليزي
وخرجت الخادمة ثم عادت ايضاً وقالت سيدتي إن هذا الرجل يقول ان
قادم لمخبرتك في شأن مهم .

- ليس لي أشغال مهمة . . إذهبي واصرفيه .
- لقد كلفني ان أذكر لك اسم رجل يقول انه يهتمك شأنه .
- قلت لك إذهبي فإنني لا أريد أن أعرف امراً .
- ولكن هذا لا يعني أن أذكر لك اسم الرجل الذي كلفني أن أذكر
أمامك .

- لقد تجاوزت الحد في عصياني فأنا أطردك من خدمتي منذ الآن و
تعودي إلى هذا المنزل .

أما الخادمة فلم تكترث بما سمعت وكانت قبضت من اندريا ما جعلها تعصر
هذا العصيان . . قالت لها ببرود . إن السير فيليام كلفني أن أقول لك انه آآ
ليخبرك بشأن فرناند روشي .

ولم تكذب باكارا تسمع اسم فرناند حتى وثبت من فراشها وقالت : هو آآ
ليخبرني بشأن فرناند قولي له اني هنا واني مستعدة لقبوله ، اذهبي وادخلي
في الحال إلى قاعة الانتظار ، ثم اختنق صوتها وجعلت تحتلج وتضطرب
اضطراب الريشة في مهب الريح .

- ٨ -

البارون

ولبست ملابسها بسرعة ، ثم دعت خادمتها فاني وأمرتها ان تدخله ، فذهبت وعادت باندريا الذي لم يقع نظره حتى قدرها وعرف من رياش منزلها منزلتها من سلامة الذوق ونظر الى عينيها فعلم شدة سلطانها على القلوب فقال في نفسه هذه هي المرأة التي أحتاج اليها وسأجعل منزلها قفصاً لفرناند فلا يخرج منه قبل أن أقضي أوطاري .

وتأملت هي أيضاً بدورها اندريا فاستدلت من توقد عينيها ومن ابتسامه السحري ومن جبهته الواسعة انه شديد الذكاء فقالت في نفسها : إنه إذا كان عدوآلي فقد لقي مني كفؤاً ، وإذا كان صديقاً فسأنتصر ولا ريب لأنه سيكون لي أقوى بصير .

وبعد ان سلم عليها أشارت اليه ان يجلس وصرفت فاني فجلس اندريا ينظر اليها بغير تأثر ولا اختلاج كمن جاء يحدثها باسغال مهمة ولا يعجباً بما وهبتها الطبيعة من الجمال ثم قال .

- إني أدعى يا سيدتي السير فيليام وقد أتيت لأعرض عليك خطة .

- قل ما تريد ، ولكن إحذر ان تحدثني باحاديث الغرام ، فاذا كان هذا مرادك ، فاني أسألك تأجيله إلى يوم آخر ، لما أنا مصابة به من ألم الرأس .

- أعلم ذلك فإن ألم الرأس مسبب عن قلة النوم وان الخيبة في الحب تعدو الى الأرق

... ماذا تعني بالحب والخيبة فيه ؟

فأجابها بسكينة : عجباً كنت أظن أنك مفتونة بفرناند روشي وإنك تحبينه

حبيباً يوافقك أن يكون عبادة .
فارتعشت باكارا ، ولكنها تجللت فقالت : إني لا أحب أحداً
أيها الميلورد .
أنا دون الميلورد يا سيدتي فلإني بارون ويسرني جداً اني خدعت .

— نعم ايها البارون فقد خدعوك .
— ذلك لحسن الحظ .
— ماذا تريد بذلك ؟
— أريد انه لو صح أنك تحبينه وثبت ما أعلمه من ذلك لكنت الآن بمنتهى
التعاسة .

فاصفر وجهها وقالت له بمظمة : لماذا أكون تميمسة ؟
— لأنه يسوء المرأة ان يفر الرجل الذي تحبه من قبضتها
فهاجت عواطف الكبرياء من باكارا وقالت . إن المرأة التي تكون مثلي
تجفو الرجال وليس الرجال الذين يحفونها .
— إن الرجل لا يترك امرأة وافرة الجمال مثلك إلا عندما يريد أن يتزوج .
فرناند سيتزوج .

فوقع هذا الانذار عليها وقوع الصاعقة فصاحت صيحة يأس وسقط رأسها
على الكرسي من الكآبة .
— ها قد اعترفت أخيراً انك تحبينه .

— نعم لم يعد من مجال للكتان فاني أحبه حباً مبرحاً لم يعد لي فيه حيلة
الى الصبر . ولا جرم فهو أول سهم غرام نفذ الى قلبي . نعم أحبه ، وهو
لا يتزوج وسأمنعه عن الزواج ، ولو أفضى بي الأمر الى قتل مزاحتي
عليه بيدي .

ثم تأوهت وبدأت تلتحج انتحاب الأطفال .
فقال لها سكتي روعك يا سيدتي فلإني ما أتيت إلا لمساعدتك وإنقاذك مما

أنت فيه .

- كيف تساعدني ؟

- أنظري إلي وتألمي بي ، ألا ترين من ملاحي رجلا يقدر ان يفيدك إذا

رضيت بي حليفاً ؟

- أنت تكون حليفي ؟

- أي شيء يمنعني ؟

- أنت تخدمني ؟

- كل شيء ممكن .

- ولكن ما الذي يدعوك إلى خدمتي ولأية غاية تريد أن تحالفني ؟

- من المؤكد ان لي بذلك مآرباً ولولا ذلك ..

وقبل أن يتم حديثه فتح الباب ودخلت فاني وأعطت سيدتها رقعة زيارة ،

أخذتها باكارا وقرأت فيها هذا العنوان :

بيراو

رئيس قلم التحرير في وزارة الخارجية

ثم القتها يجزع إلى أعلى المنضدة وقالت : إنني لا أعرف هذا الرجل فقولي له

اني لست في المنزل .

فاضطرب اندريا عندما قرأ الرقعة وقال لها : يجب أن تقابليه

ثم نظر الى فاني وقال لها : أدخليه الى قاعة الانتظار .

فعلمت فاني ان اندريا أصبح الأمر في المنزل فامتثلت لأمره وانصرفت

أما أندريا فانه عاد إلى باكارا وقال لها . ألا تعلمين ان هذا الرجل هو

والد هرمين ؟

فاختلج فؤادها وقالت . قد ذكرت الآن ، إن هرمين هي خطيبة فرناند .

- نعم ولذلك يجب أن تقابليه .

- ماذا يريد مني وما الذي يدفعه الى زيارتي ؟

-- إنه أتى ليتفق معك على أمر شائن ، فاصفي اليه واحذري من أن تغضبني ولا تنهي معه أمراً ، بل عديه ولا ضرر من الوعود - وقولي له كي يعود اليك في الغد وأنا سأختبئ وراء هذا الستار ، فانظر الي من حي إلى حين .

ثم دعا فاني وأمرها ان تدخل بيراو وذهب واختأ وراء الستار دخل بيراو وسلم بغاية الاحتشام والاتضاع وردت تحيته بمعظمة وكبرياء : أشارت اليه بالجلوس فجلس وقال .
- أأأذن لي سيدتي أن أحادثها بما أتيت لأجله ؟
- قل .

- إنك قد علمت ولا ريب من رقعة الزيارة من أنا ؟
فأشارت برأسها إشارة إيجاب
- إني واسع الثروة وذو منصب عال في الحكومة .
فقال بصوت الهازيء : اني أهنتك بهذا المنصب
- إني أقدر ان أقدم للمرأة تقدمات كثيرة وان أفيد لها فوائد جمة لخطار منصبى .

فظهرت علائم الحزن على محيا باكارا وتبسمت تبسم احتقار ، فأزيع الستار للحال وظهر منه وجه أندريا فأشار اليها بما معناه « أنسييت ما أوصيتك به وهما تريدان أن يتزوجا فرناند » فغيرت ملامحها وظهرت بمظاهر البشاشة والأنس ؛ تشجع له بيراو فقال :

- سيدتي إن لك اختاً حسناً .
- إنك آت لتحدثني بشأن اخي التي علمت بحبها كما يظهر .
- نعم إني أحبها حباً مبرحاً ليس بعده حب .
- أراك تضيق وقتك عبتاً في حبها فانها طاهرة الأخلاق حسنة السيرة
- ولأجل ذلك أتيت اليك .

ونظرت باكارا الى الستار ورأت أندريا مطلقاً من ورائه كأنه يقول إلزمي
السكينة واحذري من إغضابه فعادت إلى بيرابو وقالت :
- لا علاقة لي بشؤون اخي وقد قلت لك انها حسنة السيرة .
- ومع ذلك إذا أردت فربما يتيسر لك أن .

فخطر على بال باكارا أن تبادله اختها بفرناند ، وللحال عبق وجهها
بحمرة الخجل ، ثم استحال ذلك الاحمرار الى الغضب وحاولت طرد ذلك
الغاسق ، فظهر اندريا من خلال الستار وقال لها : إنك إذا طردته فان فرناند
يتزوج بعد ثمانية أيام
فهدأ روعها وسكن هياجها وقالت :

- إن اخي بلهاء حمقاء ولو اتبعت نصائحي لكانت الآن على ما أنا عليه
من النعم ، ولكي أعود فأقول لك انها مطلقة التصرف وليس لي علاقة
في شؤونها .

- وأنا أتوسل اليك ان تمدي لي يد المساعدة فهل تريدان ان تتوسطني في
هذا الشأن .

فتوقفت عن الجواب ونظرت الى اندريا فرأته يشير اليها برأسه قائلاً :
قولي نعم .

فأرخت عينها إلى الأرض من الخجل وقالت : ربما .
- سأثقيد بفضلك الى الأبد ولا أحسد نعمتك مدى الدهر فبالله ألا ما
استبدلت الشك باليقين واستعضت عن ربما بنعم .

فنظرت الى اندريا ورأته يشير اليها بان تعده ، فقالت : دعني أتأمل
بذلك ملياً .

-- أيطول زمن الافتكار ؟

ونفضت عن كرسيها وهي تقول : عد الي غدأ وسأرى
فأخذ بيرابو قبعتها وودعها وهو يقول إذا تسمعين لي أن أزورك وسترينها

ولا ريب

سأراها عد الي في الغد

فخرج بيرابو وقلبه يخفق خفوق قلب عاشق في أوائل الشباب ، ولم يك
يفادر الغرفة حتى خرج اندريا من وراء الستار ، فقالت له باكارا : ما هـ
الحياة الي لا تطاق .. أبيع أختي وأزجها بيدي الي هاوية الغي والفساد
لا ، لا إن ذلك لا يكون ولو هلكت غراماً . نعم ان لي قلباً قد من الصيغ
إزاء عشاقى ولكن ذلك القلب يستحيل الى رقة الهواء وصفاء الماء بازاء عائلة
التي خرجت عن خطتها بتلك الغواية ذلك الأب المسكين . كلا ان ذلك
يكون ولن يكون

فقال اندريا : إعلمي انه لا أحد يستطيع حل عقدة الزواج بين فرناذ
وهرمين غير بيرابو وانك ترتكبين أشد الخطأ بمخالفته .

ثم اندفع بمحادثتها وقد طال الحديث بينهما ساعتين ، فلم يعلم شيء مما كانت
بينهما غير انه لما خرج اندريا كان مرتفع الرأس وعليه ملامح النصر ، فشيعة
باكارا ورأسها مطرق الى الأرض والدموع تجول في عينيها ، أما سرين الطاهر
النقية فقد كانت مجال بحثها ، وقد عذمت باكارا على تضحياتها ذهاباً مع تيار
حيها الفاسد .

- ٩ -

حنة

بزغت أنوار شمس الأحد المنتظر بفارغ الصبر من سرين فنهضت من فراشها
ورقبت غرفتها الصغيرة وأخذت تشتغل في تزيين ثوبها الجديد إلى ان قربت ساعة

الظهيرة فلبسته وعزمت على الذهاب الى منزل خطيبها الذي كان ينتظرها مع أمه للذهاب الى بلقيس على ما قدمناه وفيما هي تحاول الذهاب فتح باب غرفتها ودخلت فتاة قابلتها سرير بمنتهى الاحترام والاكرام .

أما هذه الفتاة فقد كانت جارة لسرير ، وهي من ذوات النسب والأدب عاشت في عهد أبيها الكولوميل بالدر عيشة سعة وهناء ، إلى أن أحزن عليها الدهر بوفاة أبيها وغادرها يتيمة فريضة ، ليس لها من يعتني بشؤونها غير حاضنتها جرتريدة .

ولم يترك لها أبوها من المال إلا قدرأ يسيراً يكاد لا يقوم بأودها ولا ينطبق على اسمه لشريف المنزه عن كل وصمة وشين ، فكانت تعيش من ربا ذلك المال على غاية من الاقتصاد ، وقد أقلمت عن معاشره أترابها من ذوات اليسار كي لا يطلعن على ما استعالت اليه حالها من العوز ، فتركت قصر أبيها الشاهق واستعاضت عنه بغرفتين صغيرتين بالقرب من غرفة سرير ، فألف بينهما الجوار ، وجمعت بينهما صلة الأدب والعفاف ، غير أن سرير كانت تعرف حقيقة نسبها وسابق حياتها ، فكانت تجلها وتحترمها غاية الاحترام .

وكان اسمها حنة ولها من العمر ثمانية عشر سنة وهي على غاية من الجمال تدل ملاحظها على انها من أصل كريم وهي بيضاء اللون شقراء الشعر ممتلئة الجسم رشيقة القوام وكل ما بها يدل على جمال نادر المثال

فلما فرغا من أحاديث السلام قالت لها حنة : إني آتية اليك أيتها الصديقة أسألك قضاء مهمة راجية ان يكون لي منها خير وفائدة ومأمولي ان تجيدينني الى رجائي

. أدت يا سيدتي ترجينني بعد ما ثبت لك من إجلالي لقدرك واحترامي لمقامك . إني لك يحملي فمري بما تشائين .

فاحمر وجه حنة وشكرتها ثم قالت . إن حاضني جريريدة قد شاهد وأضعف بصرها توالي الأيام ، وقد خدمتني منذ ولدت وما زالت تدأب ساعدي في كل ما يؤول الى راحتي الى ان أوهى عزمها الكبر ، فوجب علي السمع في راحتها ، إذ هي عندي بمثابة الأم الحاضنة ، ولأجل ذلك يقتضي أن يكون لي مال .

عندي مئتا فرك وضمعتها في بنك الاقتصاد فإذا شئت إني اذهب الآن وأحضرها لك

أشكر فضلك فإني لا أحب كسب المال من هذا السبيل ، بل أريد أن أشتغل .

— انت يا سيدتي تشتغلين وانت فتاة شريفة النسل .

— إن الشغل هو الشرف الثاني ، ولعله الشرف الحقيقي فلماذا ينجل منذ الأشراف ؟ إصغي الي فاني تعلمت في المدرسة الخياطة والتطريز وقد مهرت فيهما كثيراً وإذا كنت تحبيني ذهبت بي لأحد المعامل لأتفق معه على الشغل في أو في منزلي .

— أدت تذهبين إلى المعمل سيدتي . كلا ان ذلك لا يوافق من كان في مقامك وعندي رأي حسن .

— ما هو ؟

هو اني أعرف مخزناً للتطريز بالقرب من معمل الزهور الذي أشتغل فيه وأن رئيسة هذا المخزن صديقة لي فسأحضر لك شغلاً منه في كل اسبوع وعندما تنتهي منه أرجعه ، فأوفر بذلك عليك مشقة الذهاب والاياب ، ولا يتأني من ذلك أقل عناء لأن هذا المخزن يحوار مخزن الزهور وانا مضطرة الى الذهاب كل اسبوع

فعانقتها وهي تقول ما أشد كرمك وما أطيب قلبك

— إذا إنك تقبلين ؟

— نعم أيتها الحبيبة اني أقبل اقتراحك مع الشكر . والآن دعيني أسأل
عنك إنني منذ اسبوع لم أراك

— أنا بخير وعافية ، وليس لي ما أخبرك عنه سوى ان ليون قد رقي الى
رئيس وأظن انه بعد خمسة عشر يوماً سيتم بيننا عقد القران .

— اهنتك أيتها الحبيبة وأدعوك بتمام السعادة لأنك أهل لكل هناء وقد
سرقتني جداً بهذا النبأ حتى اني لا أملك عيني عن البكاء .

— ان هنائي لا يتم ولا يكمل إلا اذا أجهتني الى ما سأرجوك به فاني منذ
يومين أتردد في التماس هذا الطلب منك .

— قولي أيتها الصديقة ما تشائين فلا أخالف لك إرادة واني أتوق الى
خدمتك ، ولا سيما بعد ان بدا لي منك ما بدا من كرم الأخلاق .

— عفواً يا سيدتي ، فان ما أحب ان التمسه منك هو اني سأذهب
اليوم مع ليون وأمه في بلفيل ، وما أشد ما يكون سرورنا إذا كنت معنا .
أقول هذا وانا التمس العفو عن هذا الطلب لأني لم أتجرأ عليه إلا لما لي عليك
من الدالة

— سأذهب معك بطيب خاطر ، وسيكون لي من الانس بينكم أوفر
نصيب .

— إذن تلتظرينا في البيت حيث نمة بك جميعنا في الساعة الرابعة .
فأجابتها بالقول ولشت عندها هنيئة ثم ودعتها وانصرفت

فأفعم قلب سريز الصغير سروراً بما لقنسه من مؤانسة حنة وخرجت
من منزلها إلى منزل ليون وهي تغني كما يغرد العصفور على الأشجار
أغاريد الصباح .

فأقامت حيناً مع أم ليون ، ثم جاء ليون وبرفقته كينيون الذي استوقف
سريز على الطريق وحذرهما من معاشره كولا رخطيبها . فأخبرته سريز
عن قبول حنة بالذهاب معهم فسر بذلك وقال وأنا أيضاً قد دعوت

صديقاً لي حسن العشرة مزاحاً اسمه كولار ، فسيكون يومنا
أبج الأيام .

فامتعض وجه سريز وكيثيون لذكر هذا الرجل ، وبينما ليون يطن
في مديح صديقه طرق الباب ودخل كولار فسلم على الجميع ثم دنا من ليون
وقال : ما أتيت أيها الصديق إلا لأعذر اليك عن عدم تمككي من الذهاب
الى الدعوة التي دعوتني اليها ، فإن أبي قد قدم منذ ساعة من قريته وقب
أصيب بمرض عضال ، فاضطرت الى ملازمته واغتنمت فرصة رقادہ للقدوم
اليك في طلب الاعتذار

ثم ودعهم وخرج من المنزل فركب مركبة سارت به الى قهوة تدعى
بقهوة مصر فنزل ولقي فيها رجلين كانا في انتظاره فأمرهم بتغيير ملابسهم :
غير هو أيضاً زيه وركبوا جميعاً في المركبة ، وأمر السائق ان يسير به
الى بلقيس .

أما ليون وأمه وسريز فانهم ذهبوا الى منزل حنة فوجدوها تنتظرهم وا
شيء يعيقها عن الذهاب وذهبوا جميعاً إلى بلقيس .

- ١٠ -

فاتح الاقفال

بينما كان ليون وأمه والصبيتان ينزلون من المركبة ليسيرا إلى فندق بلقيس
كان ثلاثة رجال مختبئين وراء الفندق يراقبونهم ، وهم كولار واثنان من عصابته
أحدهما يدعى نيكولو والآخر فاتح الأقفال ، فقال لهما كولار مشيراً الى ليون
أنظرا هذا الرجل الذي يدخل الفندق مع هؤلاء النساء وتأملاه جيداً فهو نفس

الرجل الذي أتينا لأجله .

فقال نيكولو : حسناً لقد عرفناه .

وقال فاتح الأقفال : وأنا لم أنس حرفاً مما علمتني .

فقال كولار : أعد علي ما علمتك لأعلم اذا كنت ذا كراً

— إني أدخل مع نيكولو ونجلس في القاعة التي يجلسون بها ، ثم أظهار
كأني رأيت هذا الرجل فأصبح مندهلاً ثم أركض اليه وأسلم عليه وهو
سيدهمش ولا ريب لأنه لا يعرفني من قبل ، فأقول عجباً أتذكر صداقتي أمام
السيدات الست ليون رولاند عاشق بوليننا وان لك منها ولدان فيغضب عند
ذلك ويحاول الانكار ، فأقول ما بالك تتظاهر بنسيان هذه الفتاة وقد قلت
لك أن بوليننا هي الشقراء التي تسكن في شارع التمل فيشتمني ويكذبه فألكمه
ويفتح باب الخصام وعلى نيكولو البقية

قال كولار : حسناً ، واجتهد أن تنجح وانت يا نيكولو احذر من
الفشل واجتهد أن تقتله بضربة واحدة ، والآن لقد آن وأوان العمل وادخلا
الى الفندق أما انا فإني أنتظر كما في الشارع وسأهينكم سبل الفرار إذا
دعت الحاجة .

ثم تركها ومضى ودخلا الى الفندق وهما غير مراقبين بشيء ، ولكنهما
لو انتبها لكانا رأيا رجلاً متخفياً مثلهما ، كان واقفاً وراء صخر فسمع كل
ما دار بينهما وبين كولار وعندما دخلا في الفندق دخل معهما
وكان هذا الرجل طويل القامة قوي الأعصاب ، بين الثلاثين والخامسة
والثلاثين من عمره وهو بالرغم من قسوته بلبس الفعلة كان يستدل من يديه على انه
من الأعيان وأنه لم يلبس هذه الثياب إلا بغية التخفي .

وقد كان شاهد كولار ورفيقه فارتاب بهما ولذلك كمن لهم وراء الصخر
وسمع حديثهم دون ان يروه ، وعندما دخلا الى الفندق سار بأثرهما وهو يقول :
ستعلمان أيها اللصان على من تدور الدوائر وكيف ان عيون أرمان دي كركاز لا

تغفل عن مراقبة لأشرار .

وقد علم القراء ولا ريب ان هذا الشاب لم يكن سوى ارمان دي كرز
الذي كان يتستر كل يوم بازياء مختلفة ويطوف جميع أنحاء باريس ليس
عوز المحتاجين ويكشف ظلامه المظلومين ، فتبع ذينك اللصين الى ان د-
الى الفندق .

أما ليون فإنه دخل الى قاعة الفندق ولم يكن جاء اليها أحد بعد وجا
حول منضدة مستديرة وجلست حنة على يمين أمه وسريز على يسارها يجوار ،
ولم يمض هنيهة حتى دخل نيكولو وفاتح الأقفال وجلسا حول منضدة بالقر
منهم فاستاء ليون لما رآه من ملابسها وخجل أمام حنة .

ثم دخل بعد ذلك أرمان وجلس حول منضدة تجاه ليون وبالقرب
اللسين فطلب ما يشربه ، وجعل يتأملها بامعان بما أراب نيكولو ، فقه
لرفيقه :

- ما شأن هذا الرجل وما أتى ليعمل هنا ؟
- يظهر انه قوي الأعصاب شديد القوى .
- لما ينظر إلي شذراً كأنني عدو له ؟
- لينظر كما يشاء فان العيون لا تخلق إلا للنظر .

وعند ذلك التفت الى ليون الذي كان يتحدث بارمان فتسكف الاندهال وقال
أهذا أنت الصديق ؟

فانذعر ليون وقال : أتكلمني أنا ؟

- عجباً ألم تعرفني ؟

- أظن انك غلطان .

وأنا لا أظن ذلك الست ليون ؟

- نعم .

- ليون رولاند ؟

— نعمم ولكني لا أعرفك .
 فأجابه بوقاحة وهزم : أظن انك لا تتجاهل عن معرفة صديقك القديم إلا
 لوجود نساء معك .
 — إنك تهين أمي .
 فلم يكثر باعتراضه وأتم كلامه فقال : أنسيت خليلتك بوليننا التي .
 فلم يدعه أرمان يتم حديثه ونهض عن كرسيه فضغط على عنقه بيد من
 الفولاذ وهو يقول : خست أيها النذل فلن قتال مآربك
 فصرخ بصوت مختنق : إلی یا نیکولو .
 أما نیکولو فإنه للحال أخذ مدية عن المنضدة وانقض على ارمان يحاول
 طعنه بها .
 وأخذ ارمان من جيبه مسدساً وصوبه الى وجه نیکولو وهو ضاغط باليد
 الشائبة على عنق فاتح الأقفال .
 وإشهار السلاح الناري على الشجاع القلب الأبى النفس يكاد لا يكون له
 تأثير . وإذا أشهر على لص جبان دنيء الطبع منحط النفس فهو يرتجف أمامه
 ويهلع له قلبه من الخوف . وهكذا فان سلاح أرمان قد افزع اللص الى ان
 انذعر منه ورجع حق لصق بالحائط .
 فقال له ارمان وكان لم يزل قابضاً على عنق فاتح الأقفال : الق هذه
 المدية من يدك واحذر من ان يبدو منك ما يريني بك وإلا قتلتك في الحال
 شر قتلة .
 فامتثل نیکولو لهذا الأمر الذي نزل عليه نزول الصاعقة فقال ارمان
 لليون : أعلم ان لك عدواً ألد بعث اليك بهذين اللصين ليقتلاك ولم يأتيا الى هذا
 الفندق إلا لهذه الغاية
 ثم قص عليه جميع ما سمعه وعلمه من مباحثتهما مع كولاتر وعاد الى اللذين
 فقال : إذا كنما تؤثران الحياة اخرجنا من هذا المكان .

فلم يجدا بداً من الامتثال وذهبا وهما يتوعدان .
ولما خرجا وسكن الذاء ولا سيما حنة التي كان ينظر اليها ارمان بامع.
جاء ليون فشكره شكراً جزيلاً ، ثم دعاه إلى مناولة الغداء معهم
فحاول أن يرفض وهو يتردد عن القبول الى أن صادف نظره نظر حنة
فكانت كأنها تقول له « حبذا لو بقيت معنا لنفيلك حقلك من الشكر » فقدم
الدعوة وجلس بينهم .

أما اللسان فإنها انطلقتا والخيبة رائدتهما الى ان لقيا كولار فأخبراه
كان فعضب عليها أشد الغضب لجهنهما ثم سألهما عن اسم ذلك الرجل الذي
رد كيدهما فلم يعرفاه قال : إذأنا أعرف اسمه ، إجلسا معي وراء هـذا
النافذة الى ان يمر .

وقد طال انتظارهما . اعترتا حتى سئما ثم سمعا وقع أقدام فأطل فاة
الأقفال من النافذة ورجع منذعراً وهو يقول : هذا هو .
ونظر كولار فرأى أرمان وقد تأبطت حنة ذراعه ووراءهما ليون وأمه
وسريز فصاح صيحة اندهال وقال : هذا أرمان !

- ١١ -

ليلة الرقص

لم يكد كولار يتيقن ان الذي أحبط مساعيه هو ارمان ، ولم يكد يرا
حتى ترك رفيقاه وهرول مسرعاً الى الشارع فركب مركبة وامر السائق
ان يسوق الجياد خبيلاً الى سانت لازار نمرة ٧٥ اي الى بيت اندريا فسارت
به الجياد تنهب الأرض حتى بلغت المنزل بنصف ساعة فرقت ونزل كولار

ورأى اندريا في مركبته مستعداً للسير فأوقفه للرجال وقال له . يجب أن ترجع الى المنزل .

فقال له اندريا : ماذا حدث ؟ وما الذي يضطرنني الى الرجوع ؟

- سأخبرك متى احتملينا .

ورأى اندريا من ملامح كولار ما يدل على الاهتمام .

فامتلل ودخلا الى المنزل ولما حلا بها المكان قال اندريا : اخبرني الآن ما الذي طرأ ؟

- حدث ما ذهب بامانينا ادراج الرياح .

- عن اي أمنية تعني ؟

- عن الإرث فان أرمان يقتفي أثرنا .

فاصفر وجه اندريا من الغضب وضرب على المنضدة بيده وهو يقول : إذن

فهو يريد ان يموت

ثم هدأت سورة غضبه فحدثه كولار بجميع ما كان في بلفيل ثم قال له بعدما انتهى من سرد تلك الحادثة :

إنك تعلم ان ليون وخطيبته يعرفان فرناند وهما الآن يعرفان ارمان وأقل كلمة تحدث منها بشأن تريزا ولو على سبيل الاتفاق تمكنه من الوقوف على صاحب الإرث وتحبط جميع مساعيها ، ألا تعلم ان فرناند أخبر ليون عما دار بين تريزا وزوجها من الحديث يوم كلمته بشأن زواج ابنتها هرمين بفرناند وكيف ان هرمين علمت انها لم تكن ابنة بيرابو ، أيبعد ان يخبر ليون ارمان عن ذلك كما أخبرني وان يعلم ان هرمين ابنة كرماروت كما علمنا نحن ؟

فأجابه اندريا بهرود : وانا من رأيك .

- أهكذا تجيبني وانا أكاد اجن خوفاً من الفشل ؟

فأباه وهو يبتسم تبسم احتقار : كنت أظنك أشد ذكاء مما أراك .

- ولماذا ؟

- لأنك فقدت حواسك عند اول حادثة ، فما يكون من امرك لو أصبت بأمر جليل ؟ فاعلم الآن ان مثل ارمان الوصي على هذا الإرث مثل الراعي ومثل الإرث مثل القطيع ومثلنا مثل الذئب فنحن نحاول افتراس هذا القطيع وهو يحاول الدفاع عنه فالقتال بيننا متوقع في كل حين . وقد قلت لي ان ارمان له معرفة بليون ؟

- نعم .

.. ولكن ارمان لم يتعرف بعد بفرناند ؟

- هذا ممكن .

- إذن يجب ان نمنع واسطة التعارف بينهما .

- كيف ذلك ؟

- ذلك امر هين ولا ينقضي هذا اليوم حتى أجد طريقة موافقة .

- ولكن إذا أجهزنا على ليون فان سرينز تخبر ارمان .

- سنجد طريقة لسرينز أيضاً .

- سرينز . أيخطر على بالك قتل سرينز ايضاً ؟

- كلا ولكننا سنرجو المسيو بيرابو ان يحتفظ بها .

- وبعد ذلك ..

- وبعد ذلك اذا بقيت على حب الفتاة فسرى .

- ولكن فرناند .. فان اكثر أصحاب ليون يعملون علاقته معه ،

وله مقام جليل عندهم لاستخدامه في الوزارة ، فاذا فقد ألا يسأل أصحاب

فرناند عنه ؟

- ربما ولكن طب نفساً فسينال فرناند حظه من الشرك مساء غد والآن

أجبني هل استأجرت لي منزلاً في الشانزليزه ؟

نعم وهو منزل وفق مرادك .

— حسناً فسأراه صباحاً لأنني مضطر في هذه الليلة ان أذهب إلى حفلة راقصة في الوزارة الخارجية حيث أتعرف بوالد هرمين .
— إذن ستراه في هذه الليلة ؟

نعم سأراه مع امرأته وابنته والآن فاني ذاهب لأرى باكارا فأرجع إلى هنا في الليل وانتظرنني إلى ان أعود معها تأخرت .

ثم افترقا فذهب كولار بشأنه واندريا إلى باكارا فلما وصل إلى منزلها ورأته فاني أسرعرت إلى سيدتها وقالت : سيدتي هوذا الانكليزي قد عاد أسمحين له بالحضور مرتين في يوم واحد ، فقالت لها باكارا بقسوة وجفاء : ليس هذا من شؤونك فاذهبي وادخلي الى السير فيليام في الحال وبعد هنيهة دخل اندريا فجلس بالقرب منها وقال لنتحدث الآن .
— بماذا ؟

— اصغني إلى انك كنت صباحاً شاحبة اللون مضطربة والآن فأنت على عكس ما كنت عليه والسبب في ذلك انك كنت في الصباح تحبين فرناند حب يأس وأنت قانطة من قربه ، والآن فانك تحبينه حب رجاء وتأملين انه يحبك ويكون بقربك بعد حين .
— ربما .

— والآن تلتظرين غداً زيارة بيرابو .

— ذلك لا ريب فيه فهل امتنع عن الحضور ؟

.. كلا ولكني أتيتك بخير علاج ينزع به من قلب هرمين حب فرناند .

— فبرقت أسرة عينيهما من السرور وقالت : أصحيح ما تقول ؟

— نعم ، وسيكون فرناند بعد يومين منطرحاً على قدميك .

فطار فؤادها من الفرح وقالت : قل ماذا تريد أن أضحي لأحظى بهذا النعم .

— لا أريد سوى أن تجلسي على هذه المنضدة وتكتبي ما أمليه عليك ،

فامتثلت بأكارا وأملى عليها أندريا ما يأتي :

« حبيبي فرناند ،

هوذا أربعة أيام لم أرك بها وأنا أحسبها أربعة أجيال أقول أربعة أجيال يا حياة دمي ويا ملاكي المعبود لأنك تعلم أن حبيبتيك بأكارا لا تعيش إلا لأجلك كما أنك لم تعيش إلا لأجلها أيها الناكث العهد قبل أن تلهو عنها بشأنك الجديد كما تقول . ولا جرم فهذه طباع الرجال الذين يحبوننا حباً يكاد يكون عبادة ثم يصادفون ابنة ذات حشمة كما يقولون تتبسم بابتسام البلهاء ولها من المهر مثنا الف فرنك فيميلون إلى الزواج بها رغبة في مهرها دونها .

« وأظن أنك عندما ترتكب هذه الهفوة وتبلغ الغاية من هذه السياسة الخرقاء ، سياسة المطامع ، السافلة ستجد واسطة لتقدمني إلى امرأتك فانت البارون . يريد أن يتزوج بي فسأكون أنا امرأة محتشمة أيضاً وأقسم لك بكل ما هو عزيز لدي اني سأحضر عرسك من غير بد لأنه لا أحب إلي من ان أراك بالملابس الرسمية متأبطاً ذراع امرأتك المحتشمة .

« أنك لم تتزوج بعد أيها القاسي وأراك تهملني قليلاً وانك أقسمت لي أنك لن تحب سواي في هذا العالم فهذه هي إيمانك وماذا يمنعك من أن تزور في كل يوم حبيبتيك بأكارا التي ستحافظ على حبك إلى آخر نسمة من حياتها .

« اني أكاد أجن من غيرتي فاعلم أنك اذا لم تزرن في هذه الليلة فسيكون بيني وبين خطيبتيك ما تكرهه .

« يدي في يديك وشفاي على شفتيك بأكارا ،

فلما انتهت من كتابة الرسالة نظرت إلى أندريا كأنها تسأله عن الغاية من هذه الرسالة ؟

فقال لها وهو يبتسم : ألم تفهمي إلى الآن المراد من هذه الكتابة .

— كلا، وقد ابتدأت ان ارى نفسي الموبة بين يديك تديرها كيف تشاء .

— ستفهمين كل شيء فاكتبي الان العنوان هكذا :

(إلى المسيو فرناند روشي + في شارع مارييس)
 فكتبت قال : أكتبني أيضاً على هذه الرسالة هذه الحاشية .
 « إن خادمتي فاني ستجمل اليك هذا الكتاب فاحذر من أن تهازلها فإنني
 وإن أكن على ثقة من مداعبتك لها كما أكدوا لي فلا أريد أن أصدق انك تتداني
 إلى حب خادمة غرفتي . . آه من الرجال ، .
 فعندما انتهت قال لها أندريا . والآن أيتها العزيزة إنك لا تفهمين المراد
 من هذا الكتاب إلا غداً ، أي عندما يقع في يد هرمين .
 — آه لقد فهمت كل شيء الآن ولكن من الذي يوصله اليها .
 — أبوها بيرابو .
 — هو بعينه ؟
 — أتريدين إذن أن نبيع سرير لهذا الكهل بغير ثمن ؟
 .. هذا أكيد .
 — ان فرناند سيتناول الطعام غداً عند رئيسه ، وبعد إنصرافه يجدون هذا
 الكتاب على منضدة ، أو على بساط الغرفة ، فيفتحونه ويقرأونه وهو كاف
 لنزع حب فرناند من قلب هرمين إلى الأبد .
 . هذا لا ريب فيه ولكن أظن أن بيرابو يقبل بهذه الخيانة ؟
 . يقبل بكل شيء لأنه يحب سرير والآن اسمحي لي أن أذهب إلى منزلي
 لأبني أريد أن أستعد للحفلة الراقصة التي كما أخبرتك سأتعرف فيها ببيرابو .
 — إذا فهو لا يحضر في هذا المساء ؟
 — كلا . ولكنه سيأتي غداً من غير بد .
 — وعندما يأتي فماذا ينبغي أن أعمل ؟
 — تطلعه على الرسالة ؟
 — وبعد ذلك . .
 تقولين له أنك تحبين فرناند وإنه إذا سمح بزواجه بابنته فهو لا يرى

سريز على الاطلاق ثم تعطيه الرسالة وتقولين له أن يجتهد في أن تطّلع عليها
هرمين ، وأن تكتب لخطيبها بعد ذلك سطرين بخطها يشيران إلى انحلال عقد
الخطبة بينهما وتعديه أنه متى أتم ذلك تجميعه بسريز .

- أظن أنه يقبل ؟

- لا أظن بل أؤكد وسترين غداً يكون ثم ودعها وانصرف .

وبعد ساعتين ذهب إلى حفلة الرقص فعرفه الوزير بجميع من وجد في تلك
الحفلة من الأعيان وعرفه الجميع باسم السير فيليام وكثر التحدث بشأنه وقيل
أنه راغب في الزواج ، فجعلت الأمهات تتهافت وتتنافس في إكرامه ، ثم عرفه
أحد العاملين في الوزارة بالمسيو بيرابو ، وتعرف بواسطته بهرمين فرقص معها
مرتين وبذل قصارى جهده في مرضاتها حتى أعجبت بجماله وأدبه وحسن
عشرته ، وعند منتصف الليل ترك الحفلة وذهب إلى منزله وهو يقول . انها جميلة
فإذا وفقت إلى الحصول عليها وعلى ملايئنها أكون من أسعد البشر .

- ١٢ -

الرسالة

أن بيرابو كان رجلاً شحيحاً مفرطاً في محبة الذات وقد أثر عليه كثيراً
احتقار امرأته له وما رآه من كرم هرمين يوم رفضت حقها من المهر بمنتهى
العظمة والجلال ، غير أن حبه للمال انسا كل ما لقيه من الإهانة فصادق على
زواج هرمين بفرناند ، وجعل من ذلك الحين يبالغ في إكرام فرناند ويزيد من
ملاطفته ومؤانسته .

وفي اليوم الثاني من اتفاقه مع باكارا وأخذه منها تلك الرسالة التي أملاها
أندريا ذهب إلى الوزارة حسب عادته ودعا فرناند فلما أتى قال له : انني أحب

أن أطلعك على مسألة سرية سأكشفها لك ولكني قبل أن أنسى أقول لك أن امرأتي وهرمين تنتظرانك اليوم للغداء .
فأختلج فؤاد فرناند من الفرح وظهرت على عيانه علامات السرور .
فقال بيرابو : وأنها بعد الغداء يذهبان لحضور تمثيل رواية جديدة دعيتا إليها وحبذا لو أقمت مقامي ونبت عني بمرافقتهم .

- إنني رهين أمرك ولا أحب إلي من الرضوخ والامتثال لإرادتك .
- أشكر فضلك والآن فاعن إلي فلنني مطلعك على كل أمري ومعترف لك بما يحسبه البعض ذنباً من أشد الذنوب . نعم أيها الصديق وربما كان ذاك ذنباً فلن من تجعد جبينه وغارت وجنتاه وحفظت مقلته فقد فات حد الصبا ، ولكن إذا شاب رأسي فلن قلبي لم يشب وأنا الآن عاشق مفتون .
ولم يطق فرناند أن يملك نفسه وقال له بدهشة واستغراب : أنت يا سيدي تعشق ؟

- نعم فلا تقطع علي الكلام اني احب كما يحب الفتى وهو في العشرين من عمره وأرجو أن لا تخونني في سري .
- معاذ الله يا سيدي أن أخونك في سرّك فقل ما تريد .
- لقد بدأت باقراي فوجب علي أن أبلغ به إلى النهاية . أقول أن التي أحبتها فتاة في مقتبل شبابها لم تر عيناها أجمل منها صورة ولا أبهج منظر . وألقد بلغت من الجمال ما يفوق حد الوصف فكأنها خلقت كما اشتهدت ولذلك فتنت بها ولو تراها رؤيتي لهمت بها نفس هيامي .

فتبسّم فرناند تبسم ازدراء وقال : ليسمح سيدي ان أسأله إذا كان هذا الحب بل هذا الهيام متبادلاً .

لا أعلم شيئاً من ذلك ، غير ان من بلغ سن الكهولة يفيض الطرف ويتسامح في هذه الشؤون والذي أعلمه انني أحب هذه الفتاة حباً يضيّع صوابي ويعيقني عن واجباتي فان رئيسنا سيحيي في هذا المساء ليلة أنس ولا أجد بداً من الذهاب

بنفسي او إرسال من ينوب عني ، وقد علمت الآن انني اؤثر الملتقى بملك الفتاة على جميع الحفلات وعلى قضاء كل ما يدعونه بالواجبات

إذن فسأذهب من قبلك واعتذر عنك .

- حسناً ولكني لا أحب ان تعلم امرأتي وابنتي شيئاً من ذلك بل أود أن

تعلماني اني ذهبت إلى تلك الحفلة

- ماذا تريد ان افعل ؟

- أريد ان ترافقهما الى التمثيل وبعدها ترافقهما معتذراً ان احد اصدقائك

عازم على السفر في الغد وانك ذاهب مع زمرة من الاصدقاء إلى إحياء ليلة

وداع عنده ثم تذهب إلى منزلك فتلبس ملابسك الرسمية وتعود منه إلى منزل

الرئيس فتتوب عني في حضور هذه الحفلة

فأجابه فرناند بالقبول وهو شديد الأسف لاضطراره إلى البعد عن هرمين في

هذه الليلة ، ثم غادره وذهب الى هرمين فقابلته بمنتهى البشاشة والحنان

وذهبوا جميعاً إلى قاعة التمثيل وعادوا منها في الساعة الخامسة ، واستأذن

فرناند منهما على الشكل الذي اتفق مع حميه ومضى الى منزله

اما بيرابو فإنه عاد الى المنزل في الساعة السادسة وبعد ان تناولوا الطعام

دخلوا جميعاً إلى قاعة البيانو ، وجلست هرمين تعزف على تلك الآلة اشجى

الانغام ، وجلس بيرابو بالقرب منها وهو يتكلف عدم المبالاة . اما تريزا فإنها

صرفت اهتمامها الى اصلاح نار المستوقد ، وفيما هي تنحني لأخذ الملقط عثرت

برسالة مفتوحة فأخذتها دون ان تنظر اليها واعطتها لزوجها وهي تقول ان هذه

الرسالة لك ولا ريب . فأخذها بيرابو وقرأ بصوت عال هذا العنوان : « إلى

المسيو فرناند روشي » ثم قال : ان هذه الرسالة لفرناند وليست لي وقد سقطت

منه دون ان ينتبه اليها .

اما هرمين فإنها لم تكذب قسمع لإسم فرناند حتى تركت البيانو وتقدمت من

بيرابو يدفعها الشوق إلى الاطلاع على هذه الرسالة .

وقال بيراو وهو يتكلف السذاجة : ان هذا العنوان غريب في بابه ويظهر انه مكتوب بيد امرأة بدليل هذه العبارة المكتوبة بعد العنوان وهي «بواسطة خادمة غرقى» فارتعشت هرمين واحمرت وجنتاها ثم استحال ذلك الاحمرار الى اصفرار وجعلت تختلج وقد حدثها قلبها بمصائب جليل .

اما بيراو فإنه تظاهر انه يقرأ الرسالة بغير اهتمام كمن يريد ان يقف عرضاً على علائق صهره ولكنه ما لبث ان قرأ سطرين منها حتى صاح صيحة انذهال وانكار وقرب من النور ليتم قراءة الرسالة بجلال .

وعندما فرغ من تلاوتها تكلف الانفعال ودنا من امرأته التي كانت واقفة تراقب ملامح زوجها وتترعش من الخوف فقال لها : هذه الرسالة من باكارا المومس البغي الشهيرة مرسله الى الذي اردت ان تصاهريه فأهنتك بهذا الصهر الفاضل وارجو ان تقرأي هذه الرسالة كما قرأتها .

فأخذت تلك الأم المسكينة تقرأ هذه الرسالة التي خطتها يد الزور والباطل والقي أهملت فيها ابنتها اقبح إهانة ، ولم تبلغ الى آخرها . حتى صرخت صراخ اليأس واغمي عليها واسرع زوجها الى مساعدتها واخذ يصيح ويدعو الخدم ويكثر من الجلبة والاهتمام ليدع وقتاً لهرمين كي تطلع هي ايضاً على الرسالة .

اما هرمين فانها اخذت الرسالة وقرأتها الى آخرها بغاية السكينة والهدوء وبعد ان اتمت تلاوتها جعلت تنظر الى امها . والى بيراو نظرة يأس وهي لا تنبس بهمت شفة ولا تذرف دمعاً الى ان افاقت امها من اغماؤها فعاذتها عناقاً طويلاً والدموع تنهل من عينيها كالطمر ثم نظرت هرمين الى بيراو وقالت له بصوت منهج كمن يحبش للبكاء انك سترجو ولا ريب المسيو فرناند ان ينسى ارتماطنا السابق .

فأجابها بيراو وهو يتصنع الغضب : اذا جسر هذا التمس على الرجوع الى هنا تلقى ما هو امل له .

- سكن جأشك يا ابني فان المسيو روشي لن يكون بعلي .

ثم مشيت بعظمة الى المدخلة وكتبت ما يأتي :

« سيدي .

« لقد طرأت حادثة لا اجد حاجة الى ذكرها الجأتي الى العدول عن اتفاقنا السابق وانني سأدخل الدير بأقرب حين فأرجو ان تنقطع عن زيارتنا فإنها ستكون بغير فائدة » .

وبعد أن وقعت على هذه الرسالة اعطتها لبرابو فقرأها وقال : لقد احسنت وانا سأرسلها اليه في حينه ، ثم قال في نفسه وقد كاد يطير من الفرح : بشراي فإن سريره لي . وبعد ذلك خرج من المنزل والرسالة في جيبه فركب مركبة وقال للسائق : اسرع بي الى شارع مونسي : اي منزل باكارا

-- ١٣ --

فاني

بينما كان برابو قادمًا الى منزل باكارا كانت باكارا محتلمة مع اندريا في غرفة صغيرة كانت تعدها لمقابلة اصدقائها المخلصين وهي فيها بمأمن من ان تسمع حديثها فاني التي كان من عادتها ان تسمع كل محادثات سيدتها بوقوفها على ابواب الغرفة التي تقابل فيها زرارها .

وكانت باكارا ساعتهذا مضطربة الفكر صفراء الوجه والدمع يتفرق في عينيها ، اما اندريا فكان هادئًا ساكنًا يبدى من حين الى حين ابتسام الهزء والسخرية وقد دار بينهما الحديث الآتي

قالت باكارا : ابلغ بي الحب الى هذا الحد من الداءة فأبيع اخي ببيع السلع . لا يغرب عنك ايتها العزيرة ان الانسان في هذا العالم لا يربح شيئًا دون ان يخسر ما يقابل ذاك الربح ، وان برابو سيفرق بين ابنته وبين فرناند

لأجلك ، ليس من العدالة ان يناله ما نالك من الفائدة ؟

— ولكنهما اخي التي سأضحيهما .

— انك لا تضحينهما بل تعملين لسعادتهما ونعيمهما .

— انها نقية طاهرة لا ترغب في معيشة البغي والفساد فهي تريد ان تتزوج .

— لا بأس . فلها ستكون بعد حين من الزمان ، من اسعد النساء ،

وسيكون لها قصور وخيول ومركبات كما لك الآن ، اليس ذاك خيراً لها من

ان تشتغل الليل والنهار لسد عوزها وان تتزوج برجل عامل قلدر الملابس ،

خشن اليدن يسومها الخسف والعذاب وهوان العيش ، ثم انها بعد ان تقيم

زمناً يسيراً مع بيرابو ريثا يتم مأربك من فرناند تنفصل عنه وتعاشر شاباً غنياً

ذا ثروة واسعة ينفق عليها بكرم وسخاء فلا يمضي عليها العام حتى تغدو في

أحسن حال . والان فإن الساعة بلغت الثامنة ونصف وان بيرابو يكون ولا

ريب قد تم حيلته فاشقي الان في عزمك والا فاذي اذهب الى هرمين والقبي

الحجب بينك وبين فرناند فلا ترينه الى الأبد .

فأحنت باكارا رأسها ولم تجب بكلمة .

قال لها : قومي الى المنضدة واكتبي ما أمليه عليك .

فامتثلت وكتبت باملائه ما يأتي :

« يا اخي العزيزة

« انني في اشد موقف الخطر فإذا لم تسرعني اليّ فأنا هالكة لا محالة . ولا

تسمح لي الحال بأن اذهب اليك ولا ان اقص عليك ما انا فيه وما انا عليه من

الاضطرار الى نصرتك ولكنني اعلمك فقط ان تأخرتك عن الحضور ينتج عنه

خطر على مستقبلي وعلى حياتي فاسرعني ايتمها الأخت العزيزة بالذهاب حين

اطلاّعك على الرسالة الى شارع الحية نمرة ١٩ واسألني عن مدام كوكليت وقولي

لها انك آتية من قبلي وحينئذ تعلمين ما الذي يجب ان تفعلينه لانقاذ اختك .

(باكارا) ،

ولما انتهت من كتابة الرسالة سقط القلم من يديها وجرى الدمع في عينيها وهي تقول . مسكينة اخي .

وفيما اندريا يلاطفها ويسكن من شجنها إذ قرع جرس الباب الخارجي فقال : هذا هو بيرابو .

فنهضت باكارا لتذهب الى غرفة الاستقبال العمومية ، فقال لها اندريا : إذا كان القادم بيرابو إعلمي منه أولاً ما حدث ، ثم ارجعي الي قبل أن تعديه بشيء .

فمسحت عن خديها آثار الدموع وأصلحت شعرها ثم دخلت الى الغرفة وأمرت فاني بادخال الزائر فدخل وكان بيرابو .

وقد دخل اليها وعليه ملامح الفوز وحياتها ببشاشة واحتشام ثم أعطاها الرسالة التي كتبها هرمين الى فرناند وقرأتها بسرور لا يوصف ، وعندما انتهت الى آخرها قالت بصوت منخفض : إنه لن يتزوج وقد قضي الأمر على وفق مرادي .

أما بيرابو فانه انتظرها الى ان فرغت من القراءة فقال : والآن يا سيدتي ألا تجرين شيئاً لأجلي ؟

ولم تجبه بشيء ، بل قالت له : اصبر وانتظري قليلاً الى ان أعود اليك .

ثم تركته ومضت الى اندريا وأخبرته بما كان بينهما وأعطته الرسالة فتلاها مراراً وهو يقول : قد تم الأمر على أكثر ما كنا نرجو وهو فوق المأمول .

ثم نظر الى باكارا وقال لها : والآن ايبتها العزيزة إذهبي الى بيرابو وقولي له أن يذهب في الساعة العاشرة الى شارع الحية نمرة ١٩ وان يسأل هناك عن مدام كوكليت وان يعتمد عليها بالحرص على سرير

أهذا كل ما تريده ؟

- نعم وحذريه أيضاً من أن يبهج بأمر لفرناند إذا سألته عن السبب في قطع

العلائق وعن رسالة هرمين وعندما يذهب إرجعي إلي لأطلعك على ما يجب أن
فصنعه بهذه الرسالة واعلمي انك إذا صبرت وعقلت فان فرناند يكون عنده
ولا يخرج إلا بأمرك .

فخرجت باكارا والفرح ملء فؤادها أما اندريا فانه نادى فاني وقال لها :
إر دبي في مركبة سيدتك وخذي هذه الرسالة الى اختها سريز واذا سألتك عنها
لا تجيبي بشيء بل قولي انها في أشد حالات القلق وخذي هذه الدنانير واستعيني
بها على حالك
وبعد ذلك ذهب اندريا من منزل باكارا وأمر السائق ان يسير به الى شارع
الحية نمرة ١٩ .

- ١٤ -

بيرابو

أما فاني فانها ركبت مركبة سيدتها وسارت بها الى سريز . وكانت سريز
قد قضت عدة ساعات من النهار في منزل صديقتها حنة وأحبت ان تستعيض
عما أضاعته من الوقت في النهار بالشغل في الليل ولما دخلت فاني رأتها منكبة
على شغلها تعمل بمزيد الرغبة والاجتهاد .

وانذهلت عندما رأت فاني قادمة اليها في مثل هذه الساعة ولكنها لم تلبث
أن قرأت رسالة اختها حتى استحال اندهاها الى حزن عميق وقلق عظيم وقالت :
بالله قولي ما أصاب أخوتي ؟

— لا أعلم ولكنها كانت شديدة الاضطراب عندما سلمتني هذه الرسالة حتى
انني خشيت عليها من الجنون .

ونَهَضت سريرِز ولبست ثيابها بمنتهى السرعة وقالت لفاني : اسرعى اليها
واخبريها عن ذهابي

ثم خرجت من المنزل وذهبت الى اقرب محل تجتمع فيه المركبات واستأجرت
واحدة منها وقد أنفت من الركوب في مركبة اختها وقالت للسائق اسرع
بي الى شارع الحية نمرة ١٩ .

وكان قلبها يخفق وهي موجسة أشد الخوف على اختها الى ان بلغت بها
المركبة الى ذلك المنزل فطرقت الباب بيد ترتجف ففتح لها ، ولما دخلت
رأت الظلام سائداً ولم تجد احداً فقالت بصوت مرتفع : ألا يوجد بواب في
هذا المنزل ؟

وأطلت امرأة عجوز من أعلى السلم وبيدها مصباح فقالت : من هذا ؟
— اني أتيت لأرى مدام كوكليت فهل هي هنا ؟
— نعم انا هي ، اصعدي .

وصعدت سريرِز وقد اشتدت مخاوفها لخشونة صوت تلك العجوز ولما رآته
من قدارة ذلك المكان ، حتى وصلت اليها فقالت : سيدي ، لاني أتيت من قبل
اخفي باكارا .

واستحال عنف العجوز الى الرقة والحنان وقالت لها : اتبعيني .
ثم فتحت باباً كان مقفلاً ودخلت منه في رواق طويل مظلم حتى انتهت
منه الى غرفة ضيقة ليس بها من الأثاث غير مقعد قديم وكروسي طويل ومنضدة
عليها قنديل من النحاس ، وكل ما فيها كان يحمل على الريبة ودخلت اليها
وقالت لسيرِز بصوت تسكفت فيه جهد اللطف : أدخلي ايتها الحبيبة

وامتثلت سريرِز وجعلت تراوح نظرها بين تلك الغرفة ووجه تلك العجوز
وهي تستغرب كيف ان اختها التي تعيش بمنتهى البذخ والسعة يكون لها علاقة
واتصال بمثل هذا المرأة وفي مثل هذا المنزل
وقالت لها العجوز انك آتية من قبل باكارا ؟

- نعم انها أخوتي
- حسناً ، إجلسي .
- سيدتي ان اخي قد كتبتي لي انه يجب ان أجيء اليك وانني انا وحدي
القادرة على إنقاذها مما هي فيه .
- هذا لا ريب فيه ، إجلسي قليلاً ريثما يأتي الذي سيحدثك بشأنها فقد آن
له ان يحضر .
ثم وضعت المصباح الذي بيدها على المستوقد وخرجت قبل ان تدع وقتاً
لسريز ان تسألها وأوصدت الباب .
وجلست سريز وهي عرضة للاندھال ، وكانت تنظر الى تلك الغرفة
وتتصور تلك العجوز وتتذكر رسالة باكارا وتتأمل بذلك السكون السائد في
هذه الغرفة التي لم يكن يسمع بها غير دقائق الساعة وخفقان قلبها ، وكادت
تجن من الخوف ولم يطل انتظارها الى الساعة العاشرة حتى سمعت حركة من
ورائها والتفتت فرأت باباً من الورق لم تكن نظرتة قبل قد فتح ودخل منه
رجل وأوصد الباب من ورائه ، ثم دنا ومد إحدى يديه اليها للسلام بمنتهى
البشاشة ورفع بالثانية قبعته التي ظهر من تحتها تجمع جبينه ، ولم تزد هذا
البشاشة غير قلق ورجعت خطوة الى الراء وهي تقول : أنت هو الرجل
الذي أنتظره ؟
- نعم .
ثم أخذ بيدها وقال لها : تفضلي بالجلوس لننتحدث .
وسحبت يدها من يده ولبشت واقفة وقالت : إن اخي باكارا ..
- نعم وهي بارعة في الجمال تكاد تضاهيك في محاسنها .
- وقد كتبت لي ..
- لاني عالم بكل شيء
- إنها في حالة خطرة ...

خطر شديد .

... وانه يجب علي أن ..

- نعم انها تثق بك جداً وتتكلم عليك فهلهم واجلسي بالقرب مني لننتحدث في هذا الشأن . هل تخافين مني ؟
- لا .

وكانت لا تفهم شيئاً من حديث بيرابو وكانت شديدة البعد لسلامة نيتها عن أن تسيء الظن بمثل هذا الشيخ وان تعلم حقيقة نياته وامتنلت لاشارته وجلست على المقعد بالقرب منه فقالت له بصوت شجي يلين الجهاد أوتسل اليك أن تنقذ اخوتي .

- هذا لا ريب فيه وهو غاية ما أسمى اليه ، ولكن لننتحدث أولاً بشأنك .
ثم أخذ يدها وحاول تقييمها .

ورجعت الى الورا وجعلت تنظر اليه بريبة واندهال .
واقترب منها جيداً وقال لها . تفرسي بي جيداً ألم تعرفيني ؟
فتذكرته سريعاً للحال وقالت : نعم أذكر يوم تبعني الى منزلي .
ثم نهضت بسرعة وحاولت ان تهرب ، ولكنها افتركت باختها وقالت في نفسها : إن هذا الرجل لم يتبعني في ذلك الحين إلا لمصادتي في شأن اخوتي فخفف ما عندها ولبثت ساكنة لا تبدي حراكاً .

فقال لها بيرابو : يخال لي اني ترائيت لك بمظاهر القسوة ولا أظن السبب في ذلك إلا تجاوزي سن العشرين ، ولكني أؤكد لك انك ستكونين راضية عني وسأتصرف معك بشرف ونزاهة إصفي إلي إنني كثير الوجاهة والمال، وستلقين عندي جميع ما تتوقين اليه من السعادة والنعيم واني ...

ولم تدعه سريز يتم حديثه وقد علمت كل شيء حتى خيانة اختها الهائلة فركضت الى الباب تريد الفرار ولكنه كان موصداً . أما بيرابو فانه تبهما

وحاول ان يضمها اليه فأفلتت منه وصرخت تستغيث وتقول : إلى .
أدركوني ..

ولم يحبها غير قهقهة بيرابو الذي بعد ان فرغ من ضحكته أعاد الكرة عليها وأخذها بين يديه وضماها الى صدره ، فهبت لديها قوة من السماء مما أثار فيها من الغضب ، وإن الحدة تضاعف القوى ، ودفعته دفعة عظيمة فانطرح على الأرض وأسرعت الى المنضدة وتسليحت بالمصباح النحاسي الذي كان عليها .
أما بيرابو فانه بعد ان نهض من سقطته وراها وبيدها ذلك المصباح تزيد حنقا أحجم عنها ، ثم ثارت به عوامل الغرام وذكر انه ليس في المكان غير مدام كوكليت التي أعطاهما مبلغا وافرا من المال فوعده بالسكوت والتغاضي عنها فهبجم عليها وهي تصيح وتستغيث .

وفيا هو ماسك بها وهي تدافع عن نفسها بشهامة ويأس ، إذ فتح الباب فجأة وواجه منه رجل فبدلت صراخ اليأس بصيحة الفرح وقد علمت ان العناية بعثت اليها بمن ينقذها من هذا الوحش الضاري ولكن بيرابو لم يتبين وجه هذا الرجل حتى جمد الدم في عروقه وتم قائلا : السير فيليام .

وكان هذا الرجل هو نفس السير فيليام أي اندريا ، فدخل وبيده مسدس أشهره على بيرابو الذي أحنى رأسه عندما عرفه وهو يكاد يذوب من الخجل ، فمشى اليه بمظمة واحتقار ثم رجع الى سريز وقال : لا تخشي ايتها الفتاة ولا بأس عليك ان الله ارسل اليك من يصون طهارتك وينقذك من أيدي الأشرار .

ثم رجع خطوة الى الباب ونادى قائلا : كولار .

ودخل كولار في الحال من الباب الذي دخلت منه سريز ، فعرفته انه صديق خطيبها ، فركضت اليه واحتمت به كما يحتمي الطفل بأمه في مواقف الخوف .

فقال له اندريا : اني أعهد اليك بارجاع هذه الفتاة الى منزلها واذا أصيبت

بمكروه أنت المسؤول عنها .
وتكلف كولاتر الانذهال وقال إنها بالحقيقة السيدة سريز كما أخبروني .
وقد اكتفى بما ذكره ولم يوضح شيئاً من مقاله واخذ بيدها فخرجها من ذلك
المنزل وهي واثقة به مزيد الثقة وداعية للسير فيليام .

- ١٥ -

الميثاق

بعد ان ذهبت سريز مع كولاتر بقي اندريا مع بيرابو في الغرفة نفسها وقد
لبشا هنيئة ينظر كل منهما الى الآخر نظرة الأعداء في ساحة القتال الى ان ذهب
أندريا وأوصد الباب وعاد الى بيرابو فقال :

— يخال لي يا سيدي انك المسيو بيرابو رئيس قلم في وزارة الخارجية وانك
والد السيدة هرمين التي تشرفت بالرقص معها ليلة امس واني اراك اليوم في
منزل مشتبه تحاول اغتصاب فتاة شريفة وتلقي بنفسك الى .

فقاطعه بيرابو وقال ماذا يعنيك ؟

- انا لا يعنيني ذلك أبداً ولكن يجب ان تعلم ان هذه الفتاة في السابعة
عشرة من عمرها وانك قد حاولت اغتصابها قهراً وغلاباً وهذا الذنب من اكبر
الجرائم وما وراءه غير السجين . أفهمت الآن ؟

وأصغى اليه بيرابو وهو ينظر بلاء الخوف الى المسدس في يده فأتم اندريا
حديثه وقال :

— ولكي تصل الى هذه النتيجة، أي لكي تبدل ثيابك التي تدل على منصبك
العالي بثياب المجرمين وتستعيض عن تلك النياشين التي تعلقها على صدرك بقيد

يوضع في رجلك ، ويستحيل اسمك الذي هو رئيس قلم في وزارة الخارجية الى اسم مجرم مفتصب لا ينبغي إلا شاهدان يشهدان أمام القاضي على جرمك الفظيع .

— إذن أنت تريد هلاكي ؟

— ان أمر هذه الفتاة يهمني وسأشهد مع كولار على ما رأيناه .

فجثا بيرابو على ركبتيه وقال : رحماك ان كلمة منك تزجني الى أعماق السجن .

وكان هذا الشيخ وقفاً مع الأدنى متذللًا للأعلى ، قوياً مع الضعيف جباناً مع القادر ، فجعل يتوسل الى اندريا وهو يبكي بكاء الأطفال فأنهضه اندريا وقال : كفك الآن توسلاً واجلس أمامي لنتحدث

فقال بيرابو وقد استحالته ملاحه من اليأس الى الأمل : أتعفو عني ؟

— كلا ولكني سأجتهد ان أتفق معك وان لم اكن قاضياً قادراً على سجنك ولكن لي الآن سلطان عليك وعلى حريتك وشرفك ومنصبك وسارى إذا كنت أستطيع ان أحصل على مطلوبي بهذا السلطان

فظن بيرابو ان اندريا طامع بالمال فقال له أتريد مالاً .. نعم اني لست بغني ولكن قل كم تريد ؟

فهنز اندريا كتفيه مبتسماً وقال : انى أريد أكثر مما تظن .

— إذا أنت تريد خرابي ؟

— ليهدأ روعك فلست بحاجة الى مالك واصنع لي .

فتنهذ تنهد الراحة ونظر الى اندريا نظرة إجلال ، فقال اندريا : إن لك إبنة وقد رقصت معها ليلة أمس .

— نعم .

— وقد عقدت خطبتها الى فرناند روشي .

— هذا أكيد .

- إنك أخطأت في ذلك ، فإن ابنتك قد أعجبتني ويسرني ان تكون زوجة لي ، والآن إصنع لي . ان هرمين ليست بابنتك الشرعية ، ليس هذا أكيد ؟
--- نعم .

- إنها ابنة رجل لا يعلم اسمه سواي ، وقد مات تاركاً ١٢ مليوناً ، ولا يعلم سواي ايضاً بوصيته وقد أوصى بها ان يبحث عن تلك المرأة فإذا كان لها ولد منه تعطى له جميع هذه الملايين أفهمت الآن ؟

فأدرك بيرابو جليلة الأمر وجعلنا ينظران الى بعضهما كلصين دم أحدهما الآخر ثم اضطرا الى الاتفاق بعد ان كان كل منهما يريد قتل الآخر .
فقال اندريا : إنني إذا تزوجت بابنتك فستكون هذه الملايين لها ، وسيكون لك منها نصيب ، وإذا أبيت فاني أكتم اسم أبيها فتخسر هذه الثروة الواسعة .

فقال بيرابو وقد هاجت به أطباعه : ستتزوجها من غير بد .

- إذاً إصنع لي الآن : إنك رجل أهل لكل جريمة ، كثير الشهوات ولكنك ضعيف العقل ، فلا تستطيع ان تخوض في مضمار المآثم بغير مرشد ، أما أنا فساكون ذلك القائد وستكون آلة بيدي أديرها كيف أشاء .

- قبلت وسأكون لك أطوع من العبيد .

ثم اختلها ولم يعلم أحد ما دار بينهما غير انه لما خرج بيرابو كان قد وقع على شروط تقرر في بعضها موت فرناند .

- ١٦ -

امين الصندوق

في اليوم الثاني من تلك الحادثة جاء بيرابو في الساعة العاشرة حسب عادته وكان قد اطمأنت نفسه لوعود اندريا لاسيما بما يتعلق بسريز ، فمما قال له :
 طيب نفسك يا عماء فان اليوم الذي تزف الي ابنتك تجدد على باب منزلك مركبة
 فيها كريس ملآن من الذهب وبقربه سريز فتذهب بها الى خير بقعة خارج باريس
 وتقتضي معها شهر العسل .

وكان اندريا ضاغطاً على بيرابو بثلاثة أمور أولها خوفه من تهمة الاغتصاب
 وهو شر الذنوب ، ثم حبه لسريز وما يجد بها من الهيام المبرح ، ثم طمعه
 بملايين ذلك الإرث الخفي . فلما دخل الى غرفته في الوزارة على ما قلناه دخل
 اليه فرناند ، ولم يكن قد وصلت اليه تلك الرسالة الهائلة فكان باسم الشفر
 طلق الحيا ، شأن السعداء في الحب فحيا رئيسه وقال : إني آت لأخبرك عن
 حفلة الأمس .

- عسى ألا تكون قد ضجرت فهل حدثوك عني بشيء .

- نعم وقد تلمحت لك عذراً لعدم حضورك .

- حسناً فعلت . والان ايها الصديق انك قد أصبحت من أشد خلصاني ،
 فلا أجد بداً من ان أطلعك على جميع سري فاصفي إلي . ان هذه الفتاة قد
 ملكت قيادي واسترقت فؤادي وانا الان مضطر الى الذهاب اليها فأرجوك
 ان تلتقل إلى غرفتي وتنبوب عني في قضاء الأشغال ، ثم أعود بعد ساعة
 وسأترك لك مفاتيح الصندوق ، فاذا جاء احد ليقبض شيئاً فادفع له من هذا
 الصندوق .

وكان يوجد في هذا الصندوق اعتيادياً الف جنيه بين ذهب وأوراق مالية

واسمه صندوق المساعدات السرية .

وكانت تلك الغرفة التي فيها بيرابو قاعة واسعة ، وعلى الباب الخارجي خادمان لنقل أوامره الى سائر المأمورين ، فقال بيرابو لفرناند : اذهب الان واقل غرفتك وعد إلي .
فامتثل فرناند .

أما بيرابو فانه فتح الصندوق بنتهى الخفية وأخرج منه محفظة خضراء وأخفاها في جيبه ثم أقفل الصندوق وعاد الى مجلسه ، ولما دخل فرناند أعطاه المفاتيح وخرج بعد ان أوصى المأمورين ان يعتمدوا على صهره فيما يعرض لهم من الأشغال أثناء غيابه ، ثم ركب مركبته وأمر السائق ان يسير مسرعاً الى سانت لازار

ولم يطل مكوث فرناند في غرفة حميه حتى دخل اليه أحد الخادمين فقال له : ان على الباب رجلاً يحمل اليك رسالة
فأمره بادخاله فدخل .

وكان هذا الرجل كولار والرسالة هي الكتاب الذي كتبته هرمين .
فوصل منها الى أبيها ومنه الى اندريا الذي عهد الى كولار بإيصاله ففرض فرناند الرسالة ولم يكذب في تلاوتها على آخرها حتى امتقع لون وجهه وأحس ان الأرض اعقبت عليه ، وكان كولار قد قال له : إن امرأتين إحداهما كهلة والثانية صبية قد كلفتهما بإيصال هذه الرسالة ، فعلم انها تريزا وهرمين .
ثم قرأ الرسالة مرة ثانية ، فأضاعت رشده ونسي موقفه فخرج من تلك الغرفة مهرولاً بغير قبعة وبغير رداء وهو يرجو ان يراها على الطريق ولم يكن معه غير مفاتيح الصندوق .

مضى على ذلك ساعة ولم يعد فرناند وقد عاد بيرابو ولم يجد فستكاف الانذهال ودعى بالخادم فقال له :
- أين فرناند ؟

انه ذهب بعدما ذهبت .

- عجباً أيذهب قبل ان أعود ؟

- أظن انه في غرفته لأن قبعته لا تزال هنا .

وجعل بيرابو يبحث عنه في جميع الغرف ثم عاد الى أشغاله وهو يتظاهر بالتمعجب والقلق ، وفيما هو جالس إذ دخل عليه رجل وبيده صك يريد قبض قيمته ، فقال له بيرابو : إن مفاتيح الصندوق ليست معي ، فانتظر قليلاً .

فلبث ذلك الرجل منتظراً حتى أعياه الانتظار ، فتلبس بيرابو بالفضب ودعى الخادم وقال له : إصعد الى الطبقة العليا وابحث عنه ولا بد ان يكون فيها لأن قبعته ورداءه لا يزالان هنا .

فذهب الخادم ثم عاد وقال : إن فرناند خرج من الوزارة .

- أخرج من غير قبعة ان هذا مستحيل .

- ان الحارس قد أكد لي خروجه وقد قال انه شاهده يركض في الطريق من جهة الباستيل .

واصفر وجه بيرابو واخذ يردد في ذاته : هذا محال ... ان فرناند شريف

- لقد غاب عني ان أخبرك انه قدم اليه رجل على أثر خروجك برسالة ولما قرأها ذهب .

فتنهذ بيرابو تنهد ارتياح وقال : لا شك انه ورد اليه نبأ مكدر اضطره الى الذهاب وإني اؤثر ان يكون ذلك على ان يكون ما تسرعت في تصويره . ثم قال للخادم : إذهب الى أمين الصندوق العمومي ، وقل له أن يأتي إلي .

فذهب الخادم وعاد مع أمين الصندوق فقال له بيرابو : إني نسيت مفاتيحي فأعطني مفاتيحك

وأخذها منه ثم أسرع الى الصندوق ففتحـه ، وللحال رجع الى الوراـه
مندعراً واصفر وجهه ووقف ساكناً قلقاً لا يبدي حراكاً .

فقال له أمين الصندوق ماذا أصابك ؟
وسكت بيرابو هنيهة ثم قال : ألم تضبط بالأمس حساب الصندوق
سوية ؟

— نعم ، وأذكر فيه اثنان وثلاثون ألف فرنك منها أوراق مالية قيمتها
ثلاثون ألفاً كانت موضوعة في طي محفظة خضراء .

فقال بيرابو بصوت مخننق : إن تلك المحفظة قد سرقت ، وقد سلمت
مفاتيح الصندوق منذ ساعة الى فرناند روشي ، لثقي به ، ولاضطاري
الى الخروج .

ثم غطى وجهه بيديه كمن يريد ان يظهر خجله لعزمه على تزويج ابنته
برجل لص .

ولم يمض على ذلك مدة وجيزة حتى شاع أمر فرناند عند جميع عمال
الوزارة ، وكان الجميع يتلقون هذا النبأ بالارتياح لاجتماعهم على احترام
فرناند ولثقتهم من أمانته ، ولكن كل ما مر به من الحوادث كاستيلائه على
مفاتيح الصندوق وخروجه من الوزارة راكضاً يدل على وقوع التهمة عليه ،
ولا سيما تركه قبعته ليوم ان خروجه مؤقت فلا يلتفت أحد اليه ولا يبحث
عنه قبل ان يتمكن من الفرار وكانوا يعلمون انه لم يكن ذا يسار فتوهموا انه
طمع بما أؤتمن عليه من المال ، ثم مرت الساعات ولم يعد فثبتت الجرم وقضي
على هذا البريء .

- ١٧ -

الشرطة

بينما كانت هذه الحوادث تجري في الوزارة كان فرناند التعميس يعدو في شارع سانت لويز حتى وصل الى منزل بيرابو فصعد اليه وطرق الباب ففتحت له الخادمة ولما عرفته اعترضت سبيله ولم تدعه يدخل ، فقالت له : ان المسيو بيرابو قد ذهب .

ـ اني أريد ان أرى السيدات .

ـ لمن خرجن ايضاً .

ـ إذن أنتظرهن .

وأبعد الخادمة محاولاً الدخول فاعترضت ايضاً في سبيله وقالت : إن انتظارك لا يجديك نفعاً ، فانهن غادرن باريس ولا يرجعن اليهما قبل ثلاثة أيام .

فارتعش فرناند وقال هذا محال .

ـ ولكن هي الحقيقة أظهرتها لك حسبما بلغتها .

ورجع فرناند وهو يتعثر في مشيته كالشارب الثمل ومشى في الأسواق مشية المجانين وهو لا يعلم اين يسير ، وقد أخذ منه اليأس بعدما تبين من سفر هرمين ، وتغلب على عواطفه حتى أضاع رشده ثم اشتدت عليه تلك الأزمة فسقط على قارعة الطريق منغمياً عليه ، وتسارع اليه الناس للاعتناء به وفيما هم يهتمون بانهاضه إذ مرت بهم مركبة فوقفت للحال ونزلت منها فتاة عليها مظاهر الغنى واختزلت الجماهير حتى وصلت الى فرناند واحنت عليه إحناء الأم على ولدها ثم وضعت يدها على قلبه ومذاحست بحركة فيه صاحت صيحة فرح وهي تقول : حبيبي فرناند .

فابتعد عنها جميع الناس وكلهم واثق ان انصرافه لم يكن الا عن يأس في الحب اما تلك الفتاة وكانت باكارا فانها امرت السائق ان ينقل فرناند الى المركبة ثم صعدت في أثره خبيثاً الى منزلها .

ولم يفق فرناند الا بعد ان وصل الى منزل باكارا ، فظن نفسه رأى حلاً ونظر حوله باندهاش فوجد نفسه في سرير بملايس النوم في تلك الغرفة الحيرية التي كانت باكارا تستقبل بها اندريا . ولم يكن قد بقي من النهار الا بقية نور ضعيف تنير تلك الغرفة البديعة الرياش فغالط نفسه وعساوده الظن انه يحلم فأطرق عينيه كأنه يريد ان يستقم ذلك الحلم ولكنه لما عاد وفتحها وجد شخص امرأة منحنية عليه كما تنحني الأم على طفلها ثم اخذت يده وقالت له بصوت حنون رن في أعماق قلبه انت محبوم

فأجابها وهو في حالة الذهول أين أنا ؟
فأجابته باكارا وصوتها يتهدج أنت في منزل صديقة .
ثم دلت من الموقد وأضاءت شمعتين كانتا عليه فتأملها فرناند ملياً وصاح مندحشاً وهو يظن انه في حضرة ملاك لا في حضرة انسان
- إن الطبيب يأمرك بالراحة فلا ينبغي ان تتكلم ولا تتحرك ، لأن مرضك شديد حتى انك سقطت في الشارع مغمياً عليك ، ولو لم أكن حاضرة ..

فقاطعها وقال أكنت حاضرة ؟

فقال وقد ورد الحجل وجنتيهما : كنت مارة من هناك اتفاقاً فعرفتك وحملتك في مركبي .

- عجباً . أتعرفيني !

- نعم .. أولاً تعرفني أنت ؟

فقال وهو يمر يده على جبينه : أعل اذكر اني رأيتك .

فقال وقد أطرقت بنظرها الى الأرض أنا أخت سريز .

— أجل ، ولقد تذكرت الان ويخيل لي اني رأيتك عندها في النافذة
.. هو ذاك ، ولكن سلتحدث في هذا الشأن ملياً غداً او بعده ، أما الان
أنك في حاجة الى الراحة ولا ينبغي ان تتكلم فاهداً وكن عاقلاً .

تم المنحت عليه كما تنحني الأخت على أخيها وقبلته في جبينه قبلة رجف
لها فؤاده واضطربت أعضاؤه وكاد يعارده الظن انه في حلم لا في حقيقة ، ثم
شعر بالفاستها تهب في وجهه وقلبها يخفق في صدرها فوق صدره ، وخيل له
انه قد سمع كلمة خرجت من شفيتها الورديتين همساً ، كما يهيمهم نسيم الماء ،
تلك الكلمة التي ما وقعت في قلب رجل إلا اهتزت لها كل عروقه والتي
لا شبيه لها الا رنة العود في قلب الحزين ، او صوت المطرب في اذن
النشوان ، ولا يقولها أحد بمثل تلك اللهجة والحنان الا أفواه النساء ، وهذه
الكلمة هي (أحبك) وهي كلمة تختلج لها كل نفس فكيف اذا كانت نفس
ابن عشرين .



ولما طلع الصباح ومرت نسائمه الباردة على جبهة العليل ففتح عينيه ووجد
باكارا واقفة تجاهه وقد ضمت رأسه بين يديها ، والقت عليه نظرات غرامها
وانعطافها وهي تكرر له هذه العبارة على اتفلاق امعان واختلاف روي
(احبك وأهواك) .

وفيا هي كذلك وقد أخذها الحب وأطلقت عقدة لسانها أيدي الصبابة
والهوى طرق أذننها صوت جليلة ووقع أقدام كثيرة تدنو من بابها فوثبت الى
السرير مسرعة وارعدت اول ثوب وقع تحت يديها ودنت من الباب فسمعت
صوتاً من ورائه يقول افتحوا باسم الحكومة .

فعلمت انهم رجال الشرطة على بابها وداخلها الرعب والخوف منهم مع علمها
بانها لم تجن في حياتها ذنباً يستوجب دخول حاكم في أمرها الا اذا كان

ذنب الغرام الذي لا حكومة فيه ، ولكنها تجلدت وفتحت الباب وإذا بكبير الشرطة قد دخل عليها وورآه اثنان من رجاله وحياها بأدب ولطف واعتذر عن دخوله في مثل تلك الساعة وقال : لا تخافي يا سيدي فلانما أنا أطلب رجلاً يدعى فرناند روشي فهل هو عندك

فأجاب فرناند من سريره : هو أنا يا سيدي فماذا تريد ؟

— أأنت فرناند روشي الموظف في وزارة الخارجية ؟

— أجل ..

- إذن البس ثيابك واتبعني فأنا آت في طلبك بأمر من المدعي العام .

فاصفر وجه الفق لهذه العبارة وقال يا رب ماذا تراني صنعت .

فأجاب الشرطي بعنف لا أعلم فالبس ثيابك واتبعني .

فنهض فرناند راجحاً مذهولاً وهو لا يدري انه ارتكب ذنباً وارتمى ملابسه وهو يضطرب حق إذا أتمها نظر الشرطي إلى تابعيه وقال لهما : اقبضا على هذا الرجل

وكان فرناند قد تمالك وتشدد فقال ما بالسك تقبضون علي وأي ذنب جنيت .

فقال له الشرطي : إن رئيسك ائتمنك بالأمس على مفاتيح صندوقه

فاختلست منه محفظة تحتوي على ثلاثين ألف فرنك

فصاح فرناند صياح الانكار والدهش وقال : انا أسرق ، انا ارتكب

جريمة الاختلاس .. ان هذا زور واختلاق . ثم هت قواه وسقط بين ايدي

الشرطة وهو قريب من الاغماء فأخذوه بالرغم عنه .

أما باكارا فكانت واقفة مذهلة من شدة ما ترى حق إذا خرج الشرطة بأسيرهم وثبت من مكانها وثبة منكورة وقد استنارت عينها بفكر خطر في خاطرها ، وتجلت لها حقيقة المكيدة على وجهها ، وهمت ان تجري في أثر الجماعة وتنزع حبيبيها من أيديهم وتقول لهم : قفوا ليس هو الفاعل بل السير فيليام ولكن خانتها قواها واحتبس لسانها وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وعند ذلك فتح باب غرفتها ودخل منه أندريا فنظر اليها بسكون وهدوء وهو يتبسم تبسم الأبالسة وقال في نفسه لقد حسبت لك هذا الحساب وقد حذرت لنفسى ما أمكن ثم قرع جرساً أمامه فدخلت فاني ومعهما رجل قصير بلباس الأطباء وهو أحد رجال العصابة الذين جلبهم كولار لخدمة هذا المحتيال ، فقال أندريا : ضعي سيدتك في سريرها وانضحى وجهها بالماء حتى تفيق وأنت تعرفين الدور الذي عليك ، ثم التفت إلى الرجل وقال : أما أنت فستكون بصفة الطبيب على حسب ما اتفقنا ثم تركهما وانصرف .

ولما فتحت عينيها بدأت باسم فرناند تكرر لفظه حتى إذا رجع رشدها نظرت إلى فاني وقالت : أين انا وماذا جرى ، ثم نظرت فرأت الطبيب المتصنع جالساً على كرسي يجانبها فصاحت مدعورة : من هذا الرجل ؟

.. هو الطبيب يا سيدتي ..

عجباً إذن انا مريضة .

نعم ومريضة جداً .

وعند ذلك نهض الطبيب وجس نبضها وقال : هذا هو اليوم الثامن من أيام الحمى .

فصاحت مستنكرة : اليوم يوم الثامن

فقال الطبيب وهو ينظر إلى الخادمة : ان الحمى قد خفت ولكني اخشى أن لا يكون الهديان قد زال او ان يكون مصيره إلى الجنون .

فصرخت باكارا وقد استوت جالسة : أجنونة انا .. ويلاه ماذا جرى .. وأين فرناند ..

فالتفت الطبيب إلى الخادمة وقال انظري فقد عاودها الجنون !

فقالت باكارا لكنني لست مجنونة ، ثم أمسكت الخادمة وادلتها منها وقالت لها : انظري الي يا فاني واصدقيني الخبر ، مريضة انا .

نعم يا سيدتي ومن ثمانية ايام .

- ذلك مستحيل فقد كنت الآن سليمة وكان الشرطي هنا
- لم يأت الى هنا على الاطلاق .
- عجباً وفرناند كان يجانني .
- ان فرناند لم يأت إلى منزلك قط وأنا لا أعرفه إلا بالسباع عندما
قد كرين اسمه وكنت مريضة .

فبهتت باكارا وقالت : أجنونة انا حقيقة ام انا في حلم .
- بل كانت الحمى شديدة عليك ثمانية ايام .
- ذلك مستحيل والى مستحيل ، ثم عادت تحدث نفسها وتقول : اني
لست بجنونة ولا حاملة بل انا مخدوعة مغرورة واخذت فرناند امس عن
الطريق مغشياً عليه وجئت به في مركبتي واستدعيت له طبيباً ولكن غير
هذا الطبيب .

فقاطعها الطبيب المتصنع وقال للخادمة : ان هذا النوع من الجنون يسمى
اختلال الشعور ولا يمكن شفاؤه الا باستعمال الحمام البارد كل ساعتين .

وكان تلك العبارة كانت ضربة قاضية على باكارا ففطت وجهها بيدها
وأخذت تبكي حتى إذا سكن روعها وخفف الدمع تأثرها عادت الى صوابها
وعاودتها الحقيقة التي خفيت عنها وقالت : كل هذا من اعمال فيليام . ثم جعلت
تنقل نظرها بين الخادمة والطبيب عساها تستكشف منهما ما يدلها على الحقيقة ،
فلم يظهر على وجهها شيء فنهضت من سريرها بسرعة ووقفت تجاه مرآتها
وقالت عجباً ليس في هيتي ما يدل على ما يقولون وليس هذا الوجه وجه
مريضة بل اراني على اتم عافية ، ثم نظرت نظرة ثانية الى فاني فلم يؤثر عليها
ذلك الفطر الحاد شيئاً بل ثبتت على تمثيل دورها وقالت لها : عودي يا سيدتي
إلى فراشك ذاك خير لك .

فقال باكارا : أنك توهمت أن هذا الانكليزي وافر الثروة وأنه سيكون
لك من هباته ما يغنيك عن الخدمة ولكنك جريت شوطاً بعيداً واقنعت

امراً مستحيلاً فلست من الذين يعشون بهم إلى هذا الحد .
ثم ذهبت مسرعة إلى منضدة واخذت خنجرأ كان عليها وقالت لذلك
الطبيب المتصنع : إذا جرأت على الدنو مني فأنت ميت لا محالة .

فاختلجت فاني واضطربت رجلاها من الخوف ، أما الطبيب المتصنع فإنه
لم يكثرث بهذا الانظار ونظر نظرة خفية الى فاني أعادت اليها ما فقدته من
الجسارة فقالت لبقارا : أتريد سيدي أن أساعدها على لبس ثيابها .

— نعم اتبعيني ، ثم سارت أمامها وهي تقول في نفسها لا أراني مجنونة بل
أراني أعقل مما كنت ولا يزال فرناند ممثلاً أمام عيني وأنا اذكر امر الشرطة
وكيف ساقوه إلى السجن بدعوى اختلاس . بقي ان فاني تخدعني ، ولا ريب في
ان كل ذلك من صنع فيليام ، وفيما هي تلبس ثيابها نظرت إلى فاني فرأتها تمسح
عينيهما كأنها تبكي لما ألم بسيدتها فقالت في نفسها : ان هذه الخادمة تمثل دورها
على ما ينبغي من الاتقان ، وقد بقي لدي برهان واحد اقدر ان اميط به
الحجاب عن هذه الخديمة ، اني اذكر انه كان بمنق فرناند نوط ذهبي فيه
خصلة من شعر حمييته واني قد قطعت سلسلة هذا النوط باسناني لفرط ما ألم
بي من الغيرة وخباته تحت فراش السرير ، فإذا كان باقياً في مكانه فقد كشفت
سر هذه الخائنة ، وإلا فإن ما ادعته من حمي وجنوني حقيقة لا ريب فيها
وللحال تركتها وذهبت الى غرفتها فدت يدها وهي تحتلج إلى المسكن الذي
خبأت فيه النوط فعثرت به واخذته والفرح ملء فؤادها حتى إذا سكنت
عوامل سرورها عادت اليها حكمتها وأيقنت من مكيدة أندريا فقالت سأنتقم
سريعاً وسأذهب بملك البلهاء إلى رئيس البوليس لتثبت عنده جنوني وسيرى
السير فيليام أنني أشد منه دهاء .

ثم رجعت إلى فاني فامت لبسها وقالت لها : ان الهواء ليل في هذا النهار
والجو صاف وقد أيقنت من صدق مقالك فاني أشعر بضعف وقتور فلا أجد
بأساً من النزهة واستنشاق الهواء النقي في مثل هذا اليوم . لم يبق لدي ريب

باني كنت أحلم فان حب فرناند قد تمكن مني بحيث أضاع رشدي ولعل ذلك الحلم والجنون ، سببان عن الحمى .

فقلت لها الخادمة ، لا شك في ذلك فانك كنت لا تفترين عن ذكر اسمه الليل والنهار في مدة هذه الحمى وتحدثين عند ابتهاك باحاديث تثبت جنونك وقد زالت الان والحمد لله تلك الأعراض فعليك الوقاية وعند انه خير لك لو لبثت في منزلك إلى ان تتأثلي ويبعد عنك كل خطر

- كلا ، فاني مصممة على الذهاب فاسرعي واتبعيني لأنني لا أحب ان اسير وحدي ثم مشيت امامها فتبعتها وهي تتظاهر بالقلق الشديد إلى ان خرجت من المنزل فوجدت مركبتها بانتظارها فصعدت اليها ثم تظاهرت انها نسيت منديلها فارسلت فاني كي تعود به واغتنمت فرصة غيابها وقالت للسائق ، بأي يوم نحن من الأسبوع ؟

-- يوم الخميس .

- ألم تذهب بي بالأمس إلى شارع سانت لويس .

-- نعم .

- اتشهد بذلك لدى رئيس البوليس ؟

-- نعم .

- الان ، فاصبر الى أن تعود فاني فسر بنسا اليه ولا تدعها تعلم بشيء من ذلك .

وقد أيقنت باكارا أن اندريا يسير على خطة مبهمة ضدها وضد فرناند ولكنها لم تعلم شيئاً من سر الخطة وغايتها فعزمت على ان تطلع رئيس البوليس على الأمر بالتفصيل توصلاً إلى كشف سر هذه الخبائنة . وقد كان لها معرفة به بواسطة . عشيقها القديم .

فلما عادت فاني سارت بهما المركبة حتى بلغت إلى منعطف يؤدي إلى شارع مونمارتر فخرجت عليها وسارت بها فانتبهت باكارا ورأت ان السائق يسير في

غير الطريق التي امرته ان يسير بها ، ففتحت نافذة المركبة واستوقفت السائق وفيما هي تؤنبه إذ فتح باب المركبة بفتحة وصعد اليها ذلك الطبيب المتصنع الذي رآته في منزلها ثم أغلق الباب وجلس بقربها فصاحت صيحة رعب ، أما هو فلم يبالي بصياحها ، وقال لها ببرود هازئاً ، انك تخاطرين بحياتك بخروجك من منزلك فانك معتلة ويجب علي أن امنعك عن كل ما يعود عليك بالأذى شأن كل طبيب صادق مع مرضاه ، وبينما هو يحادثها كانت المركبة تسير في شارع مونترتر .

فأيقنت باكراً أن سائق مركبتها قد باع نفسه مثل فاني من فيليام وقالت للطبيب أين تذهب بي ؟

أنزل الطبيب المتصنع جميع ستارات المركبة وقال لها : ذاهب بك إلى مونترتر ، فاحذري من ان تفتحي الستائر ولا تستغيشي فان الهواء والغضب يضران بك وقد فك اثناء حديثه اضرار صدرته وأخرج من تحتها خنجرأ فجرده من غمده وقال ان هذا النجع دواء لتسكين الهياج ولك بعد ذلك الخيار .

فأحست باكراً انها مغلوطة وان حياتها في خطر إذا استغاثت فعدت إلى سكونها وقالت : لقد ثبت لدي الان اني مجنونة فسر بي حيث شئت فلا أعصي أمراً ولكن ، قل لي أين تذهب بي .

– لقد قلت لك اننا ذاهبون إلى شارع مونترتر .

– ولكن إلى أين ؟

فأجابها بتهنئة البرود ، إلى مستشفى المجانين .

- ١٨ -

المركبة الصفراء

لقد تركنا كولار ذاهباً بسريز إلى حيث أمره السير فيليمان فكان يقول لها
لا تجزعي أيتها السيدة واطمئني فأني سأصحبك وأدافع عنك
أما سريز فانها لم توجس منه خيفة لعلها انه صديق خطيبتها ولإنقاذه إياها
من أيدي بيرابو ، فكانت تسير إلى جنبه مطمئنة حتى وصلا إلى الشارع .
وكان هناك مركبة صفراء كانت تنتظر كولار ، فتقدم منها وطلب إلى سريز
أن تصعد اليها فعاتت المخاوف إلى سريز وخشيت من أن تعرض بنفسها لخطر
جديد فقالت له : لماذا لا نذهب على الأقدام ؟
- إن منزلك بعيد .

- انني قادرة على المسير .
- أما أنا فأني أتعب ولا أستطيع أن احتمل مثل هذه المشاق .
- دعني إذن أسير وحدي .
- إنني أخاف أن يقفو أثرك ولا تجدني من يحميك ، ولم يجد خيراً من هذه
الطبعة لإرهاقها ، فأطاعته وصعدت إلى المركبة فصعدت في أثرها وأمر السائق
بالمسير .

وكان اضطراب سريز شديداً ولم تنتبه إلى سرعة سير المركبة حتى بلغت
بها إلى جسر السين ، ورأت انها قد عرجت إلى جهة الشمال في طريق الاينفاليدي
فقالت برعب وقلق : إن السائق قد ضل ولا أدري إلى أين يذهب بنا .
- أنا أعلم .

- ولكنك قد سار في غير الطريق التي يجب أن يسير بها .
- كل السبل تؤدي إلى الجهة المقصودة .

فقلت سريرز وقد تضعضعت من هذا الجواب : دعني أنزل فإني لا أريد أن أذهب في هذا الطريق .

ثم حاولت أن تفتح باب المركبة فوجدته محكم الإيصاد فنظرت إلى الشارع فألفته خالياً مقفراً فجعلت تستغيث بصوت مختلج لم يحبه غير الصدى .

أما كولار فإنه أشعل غليونه وقال لها لا تزعجي نفسك بصراخ لا يجديك فليس هنا من يسمعك ، وإذا أصغيت إليّ تعلمين اني لا أريد بك شراً .
- قل ما تشاء . إني مصغية اليك !

- اني صديق لليون ا .

فعدت الطمأنينة إلى فؤادها عند ذكر اسم خطيبها وقالت : إذا فلماذا لا تذهب بي إلى منزلي ؟

- لأن ذلك ليس بوسعي لأن ليون بخطر شديد وإذا عدت إلى منزلك تعرضينه للموت

فارتاعت سريرز وقالت بل ، الرعب : ليون يموت ؟

- نعم إذا رجعت إلى منزلك .

- ولكن ما هذا الخطر الذي يهدده ، كيف ان بعدي عنه ينقذه ؟

- هذا سر لا أستطيع أن أبوح به لأنه سر سواي ولكني أقول لك انت إذا لم تطيعيني طاعة لا حد لها فان خطيبك يموت قبل الغد .

. وجعلت ريز تختلج اختلاج ريشة بمهب الريح وأخذ صوتها يتهدج .

إني أطيعك ولا أخالف لك امراً ولكن بالله ألا ما أنقذت خطيبي .

- الآن سررتني وسكنت مني روعي فاني اشفق على ليون نفس اشفاقك

عليه فاللبثي الآن بقربي وكفي البكاء ، فلم يعد من خطر عليه ولا تسأليني شيئاً بعد ذلك

- رحماك واسمح لي أن أسألك سؤالاً واحداً ا .

تكلمي ا .

.. وصلاني منذ ساعتين رسالة من أختي

.. اعلم ذلك واسمها باكارا ..

.. وقد كتبت لي بها ان حياتها في خطر واني وحدي القادرة على انقاذها

فإذا لم أسرع إلى مساعدتها في شارع الحية فهي تموت .

فتصنع كولار الغضب وقال : ان أختك قد بلغت منتهى الخيانة فإنها قد نصبت لك شركاً مذموماً لتلقيك في أيدي بيرابوليست على شيء من الأخطار.

فاسترسلت سرير في البكاء وهي تقول : ايمكن أن تخون الأخت أختها .

.. نعم وحسبذا لو استطعت ان أبوح لك بهذا السر ولكني في ذلك أعرض حياتي وحياة ليون للموت وربما كان لك حظنا من الموت .

.. بالله إذا كان في موتي انقاذ ليون فاقتلي .

فأخذ كولار يدها بين يديه وضغط عليها بتودد وحنان وهو يقول : لا تخشي أمراً فإنني عندما يتاح لي أن أبوح بهذا السر تقفين على الحقيقة وتعلمين اني خير صديق ، ثم انقطع الحديث بينهما وزادت المركبة في سرعة المسير حتى إذا بلغت إلى سنت جرمن خارج البلدة عاد الرعب إلى سرير فقالت : اتسير بي الى محل بعيد ..

.. كلا .. سنصل الى وجهتنا بعد ساعة .

.. إلى أين نحن ذاهبون ؟

لا أقدر أن أقول .. ويجب علي الآن أن أعصب عينيك ا.

فصرخت سرير صراخ الرعب ، فقال . تذكرني سابق وعدك لي من انك قطيعيني وان حياة ليون متوقفة على امتثالك ، ثم أخذ منديلًا من جيبه فمصب عينيه دون ان تبدي أقل اعتراض ، وقال لها : لا تبخشي أبداً عن الحبل الذي تذهبين اليه فإن ذاك مما يضر بنا ، فسكتت سرير وهي بمنتهى الاندهال تخال نفسها في حلم فلم تنبس بكلمة ولم تبد إشارة حتى وقفت المركبة. فقال لها : قد وصلنا فهات يدك لأساعدك على النزول ، ثم فتح باب المركبة ونزل واياها .

وكانت المركبة قد وقفت في سهل متسع أمام حائط طويل ففتحت كولار بفتاح كان في جيبه وقاد سريز وهي معصوبة العينين فمشت معه عرضة للاضطراب والخوف وقد سمعت وقع أقدام وهي تسير مع كولار ثم سمعته يقول « هوذا العصفور » ، وسمعت صوتاً خشناً أجابه « لقد أعددت القفص » ثم شعرت ان كولار قد ترك يدها فمدتها حالاً الى العصابة وأزاحتها عن عينيها ثم تطلعت بنظر قلق ، وكان شفق الصباح قد بدأ يتوقد ، فرأت نفسها في حديقة واسعة الأرجاء محاطة بسور طويل وفي وسط هذه الحديقة منزل صغير ، فحولت نظرها الى الجهات الأربع فلم تجد أقل أثر للمساكن ، ثم نظرت بعد ذلك إلى الذي سمعته يخاطب كولار فرأت امرأة عجوز تناهز الستين قد جمعدت وجهها الأيام. وهي بمنتهى القبح ، فرجعت سريز الى الوراء منذرة وقد أخذ منها الرعب . فدنبت منها تلك العجوز ، وكان اسمها مدام فيبار فأخذت بيدها وتوددت اليها تودداً عظيماً لم يكن الا ليزيد من خوفها ورعبها فصرخت مستغيثة بكولار الذي بعد عنها وتظاهر انه لم يسمع نداءها فكانت تناديه وهو يمشي مسرعاً ، وقد قبضت عليها العجوز بيد من حديد فلم يمكنها الا فلات واللحاق به ، حتى وصل الى الباب الذي دخل منه فخرج واغلقه وراءه.

فأخذت العجوز تسكن جأشها وتطيب قلبها وهي تسير بها حتى وصلت الى المنزل فأدخلتها الى غرفة بها مستوقد وقالت : اجلسي هنا وتدفأي فإن البرد شديد وثوبك مبتل من المطر وسأحضر لك شيئاً من الشراب يعينك على الدفء.

فأبت سريز وقالت يجزع ويأس : كلا لا أريد ان أبقى هنا .. أريد أن أعود إلى باريس .

— ان المسافة شاسعة وانك ستؤذين قدميك الجميلتين .

— كلا .. فإن لي مقدرة وقوة على الرجوع وإذا تعبتي في الطريق استريح ! فتنهدت مدام فيبار وقد تكلفت هيئة الرفق والاشفاق .

قالت سريز : نعم ان لي قوة على المسير وليس ما يتعبني في سبيل ذهابي
إلى ليون ؟

- من هو ليون ؟ أهو عشيقك ؟
. ألا تعرفين ليون ؟

- كلا

فداخل سريز الريب وقالت : إذا كنت لا تعرفين ليون فإنك لا تعرفين
شيئاً من سر هذه الحادثة !.

. وماذا تريد أن أعرف ؟

- كيف ألم يخبرك كولار انه أتى بي الى هنا لأن حياة ليون خطيبي بخطر.
فضحكت مدام فيبار وقالت : كولار قال لك ذلك ؟

. نعم

- وهل صدقته ؟

فارتعت سريز وقالت : أليس ذلك بصحيح ؟

فعدت مدام فيبار الى ضحكها وقالت : حقاً ان كولار من أعظم
المضحكين ، كما ان هذا الحديث من أطرب المضحكات .

فجثت سريز على قدميها وتوسلت الى تلك العجوز وهي تبكي وتقول : بالله
الا ما قلت لي أين أنا وما يريدون مني !

-- ذلك حين سهل فإن أحد الأغنياء العظام رآك فأحبك وأنت تعلمين
البقية

- ليس ذلك بصحيح ..

ثم ذكرت يبرابو فقالت : بل هي الحقيقة بعينها فإن رجلاً وحشي الأخلاق
حاول .. ولكن رجلاً شاباً قد انقذني منه وسلمني الى كولار ليوصلني الى منزلي
فضحكت ضحكاً شديداً ثم قالت هذا هو الفتى الذي أخبرتك عنه
وأنت الآن في منزله .. فصاحت سريز صيحة يأس !.

المستنطق

ندع الآن سريز ، لنعود الى فرناند الذي تركناه خارج غرفة باكارا فنقول انه كان يسير بينهم وهو يخال انه يحلم ، الى أن وسلوا به الى الحديقة ورأى الخدم تنظر اليه بغرابة واندھاس فأيقن انه في يقظة ثم افتكر بما يتهمونه به ، وان لا يد له بهذه الخيانة ، فثار الدم في عروقه وحاول ان يتخلص من الشرطة ولكنهم كانوا ثلاثة أشداء فأحاطوا به وتغلبوا عليه ، وكان يقاومهم كلها لاحت له فرصة ، واشتدت عليه الذكرى فقال له رئيسهم : انك فرد ونحن ثلاثة فدفاعك لا يفيدك شيئاً ، ولكنه يثبت جرميتك ، وما يؤثر عليك أن تحاكم وأنت بريء كما تقول ، فاذا صح ذلك وهو ما اتناه لك فلن الحكمة لا تلبث أن تطلق سراحك ولا ينالك شيء من الاهانة .

فبقنع فرناند مكرهاً وسار معهم بغير دفاع حتى وصلوا الى السجن فأدخلوه اليه فلبث فيه ساعة وهو منهوك القوى فاقد الرشد ، وكان يؤثر الموت على أن يتهم بسرقة ، وهو مشهور عند الجميع بالنزاهة والعفاف ، فكان يذكر باكارا ، ثم الجنود ، فالتهمة فالسجن ، فكتاب هرمين وواحدة من هذه المصائب تكفي لأن تهيج أعظم الناس رشداً فيزيد كما تزيد الجمال . ثم ينكس برأسه الى الأرض متأملاً بما أحاط به من الكوارث ، ويرى ان كل ما مر به من الحوادث يثبت تلك الجريمة الهائلة فيتهدد السماء بقبضته ، ثم يجد ان كل ذلك لا يفيد ، ولا يجد باباً لتبرئة ساحته فتصغر نفسه ويسترسل الى الدموع ويبكي بكاء الأطفال ، وكان يعود بعد ذلك الى الافتكار بهرمين وكيف بعثت اليه بتلك الرسالة ، وهو لم يحن ذنباً يستحق هذه الاهانة فينسى موقفه وما هو متهم به الى أن يفيق من غفلة تصوراته ويرى نفسه منفرداً في ذلك

الحبس الضيق حبس المجرمين ، فيفقد صوابه ويعود الى ما كان عليه .

وكان يقول إن مفاتيح الصندوق معي وقد تركت الوزارة حاسر الرأس وأنا أعدو في الشوارع كالجائنين ، وبدلاً من أن أعود وأرجع المفاتيح الى رئيسي بقيت معي إلى أن فتشوني وقد وجدوني عند مومسة كثيرة المطامع فهل بقي ريب بأني اختلست هذه النقود لأنفقها في سبيل مرضاتها ، ولكنني لم أسرق شيئاً والمفاتيح كانت معي فكيف سرق هذا المال ، بل كيف وجدت عند تلك المرأة ، وإذا صح ان المار قد سرق فمن السارق ومن اتهم وأنا المسؤول ؟ ومن يدافع عني وليس لي غير بيرابو الذي أصبح خصمي . إلهي أنت خلقتني بشراً وهذا فوق طاقة البشر ، وفيما هو على ذلك دخل عليه شرطي وذهب به إلى الاستنطاق فاستنطق على ما يأتي :

قال المستنطق : أنت هو الذي يدعى فرناند روشي ؟

- نعم ..

- أنك متهم بجرم هائل وكل ما لدينا من الأدلة يثبت جرمك فإن رئيسك قد اضطر في الساعة العاشرة من صباح أمس إلى الخروج فنقلك إلى غرفته واثمتك على مفاتيح الصندوق ، الذي تحقق بعد إثبات أمين الصندوق العام انه كان يحتوي على ثلاثة آلاف فرنك ذهباً وثلاثين ألفاً قرطيس مالمية .

- لم يكن لي علم بهذا لأنني لم أفتح الصندوق .

- ولكن مفاتيحه كانت معك ؟

- نعم .

- وقد وجدوها في حبيبك عند تفتيشك ؟

فأشار فرناند إشارة إيجاب .

وان رجلاً قد قدم اليك قبل خروجك ولم نعلم عنه شيئاً إلى الآن فمن هو هذا الرجل ؟

لا أعرفه فإني لم أره سوى مرة واحدة .

— احذر من أن تضلني بانكارك وقل ألم يكن هذا الرجل شريكك في الجرم ؟

فأجاب فرناند بصوت خرجت فيه الحقيقة من أعماق قلبه : أقسم لك أنه لا يمكن أن يكون لي شريك لأني بريء .

— ولكن من هو هذا الرجل وماذا يبتغي منك ؟

— قد أحضر لي رسالة .

... ممن ؟

فاختلج فرناند وأرعى نظره إلى الأرض ثم قال ذلك ما لا أقدر أن أبوح به لأن الرسالة قد وردت إلي من امرأة شريفة لا يليق بي أن أصرح بذكرها في هذا الموقف .

— إنني كنت أتوقع منك مثل هذا الجواب الذي تحاول فيه الدفاع عما أنت متهم به ، ولكن المسيو بيرابو قد أوقفني على الحقيقة فإنك كنت مزعماً على أن تقترن بابنته اليس كذلك ؟

فتوسل إليه فرناند أن لا يذكر هذا الشأن فقال المستنطق :

— وقد علمت أن لك خلية !

فقال فرناند بكراهة ونفور : لا صحة لما يقال .

فلم يحفل المستنطق بجوابه واستمر في الحديث فقال : وان هذه الخلية تدعى باكارا وهي كثيرة الدلالة شديدة التلف إلى المال فلا يبعد أنك لأجل مرضاتها ولشفقك بها قد ..

فقاطعه فرناند بحدة وقال : اني لم أعرف هذه الفتاة قبل امس

فقال المستنطق بلمحة الناصح : اعلم ان الاقرار في مثل هذه الشؤون أولى من الانكار الذي لا فائدة منه سوى تعظيم ذنبك .

فأجاب فرناند بلمحة جملة المستنطق يثق ببرائته بالرغم عما لديه من البراهين ، أقسم لك يا سيدي اني بريء .

هذا ما أتمناه لك ولكن كيف تنطبق سرقة هذا المال وخروجك من الوزارة على ما كنت عليه من الاضطراب واحتجابك والقبض عليك في منزل تلك المومسة على براءتك ؟

فرجع فرناند عيذه الى السماء وقال ان الله عظيم عادل فهو يكشف سر هذه الخيانة واني اقسم بحلاله اني بريء .

— سيذهب بك الآن جنديان الى منزلك ومنزل خليلتك ويفتشان فاذا لم يجدا بهما المحفظة نرى في شأن تبرئة ساحتك .

فصاح فرناند والفرح ملء فؤاده : هلموا الى حيث تريدون فاني بريء .

فدعى المستنطق جنديين وقال لفرناند بلطف ودعة : سر معهما وعسى ان تبرىء ساحتك وتنجو من هذا العار

فذهبوا جميعاً حتى وصلوا الى منزل باكارا ، ثم ركبوا مركبة وذهبوا الى شارع مونسي .

وكانت باكارا قد خرجت من المنزل مع فاني كما تقدم ، ولم يكن في المنزل غير الحدم فبدأوا بتفتيش الغرف حتى بلغوا الى الغرفة التي كانت نائماً فيها فرناند . وبعد ان فتشوا في خزائنها ولم يعثروا على شيء ، نظر أحدهم فرأى رداء رجل معلق فقال : هوذا رداء رجل ، وعسى ان يكون رداء المتهم فلنفتش فيه .

وكان هذا الرداء لفرناند ، وذلك انه عندما سقط مغمياً عليه في الطريق كان مرتدياً به ولم يفتن اليه عندما أخذته الجنود ، فبقي عند باكارا ، ولما رأى الجنديين يشيران اليه قال هذا الرداء لي .

وجلس على كرسي وعليه لوائح عدم المبالاة ، أما الجندي فإنه أخذه وقال : انه ثقيل وأظن ان المحفظة في جيبه .

ثم مد يده اليها فأخرج منها تلك المحفظة الخضراء بنفسها فارغة من المال ، فقال لفرناند لا أظنك تقوى بعد ذلك على الإنكار .

أما فرناند فلم يجبه بحرف ، ولكنه صاح صيحة يأس وسقط مغمياً عليه ،
فانتصر اندريا بما كاده للبريء وأصبحت تهرثته ضرباً من المحال .

- ٢٠ -

البحث عن تريزا

بينما كان اندريا يدير بحذقه هذه الحادثة ، وقد زج بفرناند بالسجن بنهضة
الاختلاس ، وحبس باكارا في المستشفى بمعلقة الجنون ، وحجر على سرين في
منزل مدام فيبار ، ففرقهم عن بعضهم ، وأبعد كل من يحتمل ان يوقف ارمان
دي كركاز على آثار تريزا وابنتها . وكان ارمان يسعى بلاء التفسيره
والنشاط لايجاد تلك المرأة وولدها ، ليدفع اليهما ملايين البارون كرماروت
المؤتمن عليها .

وكان يستعين على ذلك ببستيان وببوليس سري ، ولم يكن الى الحين الذي
رأيناه فيه يقفوا أثر الرجلين في بلفيل قد وقف على شيء من أثر تريزا فوصل الى
تلك القرية في حينه ، ومنع ذلك الاعتداء عن ليون رولاند . ولا يزال يذكر
القاريء انه كان قبل دعوة ليون فلما عزموا على الرحيل قدم ذراعه الى حنسة
وسار الجميع الى منزل سرين .

ومن غرائب القلب في سرعة تأثره وتقلبه انه لا تسكاد تسري اليه النظرة
أحياناً حتى تفعل فيه لأول وهلة فعل سواها بعد طول الممارسه والتكرار ،
كأنما هي بين اخب والكروه وقع السعادة والشقاء ، فان كليهما يملأ القلب عند
وقوعه وكثيراً ما تختلف نظرتان فتكونان بدء الحب الأكيد أو البغض الشديد
عند اول مقابلة منهما في الغراء ، وهما زهرة ورد يتهاداها القلبان من طريق

العيون في الحب وفي الكره ، سهمان مسمومان تتراشق بهما القلوب عن قسي الجفون ، وهو سر من أسرار الطبيعة لا يعرفه إلا من يعرف سر الوداد والبغضاء ولعله تشابه القلبين أو تباينهما جملة حق يمتزجا أو يتنافرا في لحظة عين كما يمتزج النور بالنور ، ويتنافر الضياء بالظلام ، ولقد كان من هذا القبيل نظرة أرمان الى حنة فانه لم يكذب يقع نظره عليها حق شعر ان جمالها يملأ فؤاده كما يملأ النور العين عند انفتاحها ، وانها ارتسمت على جوارحه كما يرسم أثر الختم عند الطباعة وانه قد أصبح لها وهو يعلم أنها أصبحت له بدافع الأمل الذي يرجوه فيها واعتقاده ان من القلب الى القلب دليل ، وما أدري هل استحسان النظرة هو الذي ينشئ هذا الأمل والاعتقاد أم هما ينشئان تلك النظرة ويكونان رائد القلب الى العيون :

والذي حارت البرية فيه داء قلب بنظرة العينين

وان الذي زاد ارمان ميلا الى حنة وحنوا عليها ما استشفه في ظاهر هيمتها من ذلة الانكسار وآثار الشقاء والحزن وهي آثار قد تفعل في القلب الشريف أحيانا ما لا تفعله طلائع الحسن والازدهاء . فلما وصل القوم الى منزل سريز ، دخلت الى منزلها ودخل معها ليون وامه ، اما حنة فانها اعتذرت وسألت ارمان ان يوصلها الى منزلها ، فسار وإياها وقال إلى أين تريد أن أوصلك ؟

— إلى شارع مسلي .

وفيما هما يمشيان قال : أتعرفين سريز حق المعرفة ؟

— نعم أعرفها أيام كان أبوها حياً وكنا جيران .

— عجباً .. فاني أرى من تباين حالتكما ..

فقاطعت الفتاة وقالت : صدقت ياسيدي ، ولكن المصائب والشقاء تناسب بين القلبين في الألفة أكثر مما يناسب بينهما المقام .

ثم تنهدت تنهداً طويلاً رق له قلب ارمان وقال لها : أتراك يتيمة ؟

— نعم ، فان أمي قد ماتت من بضعة أشهر ، وأبي راح قتيلاً في ساحة الحرب .

وعند ذلك وصلا الى منزل الفتاة فودعها وقبل يدها باحترام وعاد إلى منزله مفكراً مهموماً وهو يقول : أتاني لا أزال فتياً أم لا يزال في قلبي وتر لم تنقر عليه أصابع الغرام ؟

ولما كان الصباح دعا اليه بستيان فقال له : البس ثوبك العسكري واذهب في الحال الى شارع مسلي نمرة ١١ واجتهد ان ترى فيه منزلاً معداً للأجرة ، وإذا لم تجد فادفع للبواب قدر ما يشاء ليخلي لك أحد المنازل المأهولة ، فان ذلك لا يصعب عليه ، وبعد ان تجد ذلك المنزل تنقل اليه الأثاث ثم تذهب اليه فتقطن فيه باسم باستيان ، اما هذا المنزل نمرة ١١ فان ابنة تدعى حنة ساكنة فيه ويهمني أمرها جداً ، وأول ما تشرع به عندما يتيسر لك أن تكون يجوارها هو أن تفحص عنها ، فقد علمت انها ابنة رجل كريم النسب وقد أحنى عليها الدهر بوفاة أبيها وفقد ثروتها ، ثم تجتهد ان ترتبط معها بالعلائق الوثيقة فان ما بلغت من العمر يدفع عنك كل ريبة . فاذهب الآن وعد إلي سريعاً في كل حال لأعلم ماذا فعلت

وبعد ان ذهب بستيان قام ارمان الى مكتبته فأخذ منها دفترأ ضخماً وكتب فيه بالخط المصري هذين الاسمين « ليون رولاند في شارع البوربون ، وسريز في شارع التامبل » ثم كتب تحتها هذه المذكرة « يجب البحث عن الغاية التي دفعت نيقولا وفاتح الأقفال الى الاعتداء على ليون وخطيبته » وبعد أن فرغ من الكتابة أخذ يقاب صفحات الدفتر ثم غلبت عليه الهواجس فغرق في تأملات عميقة

وما زال على أتم الذهول حتى قرع الباب ودخل بستيان فقال :

— إن تلك الابنة التي أرسلتني لأبحث عنها تسكن في الطبقة الرابعة من المنزل ، وقد توقفت لاييجاد منزل مقابل له فاستأجرته بستائة فرنك ، وبعد

ذلك ذهبت الى البواب واستطلعت منه كنه أمر الصبيبة ، فقال لي : إنها تدعى حنة بالدر وانها حسنة التربية ، أما أجرة منزلها فهي ثلاثمائة فرنك وهي عائشة مع خادمة لها طاعنة في السن شديدة الطوع لها ، وهي حسنة السيرة جداً لا تزور ولا تزار وقد أخبرني البواب انه شاهد منذ يومين نورا في غرفتها بعد منتصف الليل ففحص عن ذلك فعلم انها تشتغل اشغالا يدوية ولم يكن يراها تشتغل قبل هذا العهد

وقد كانت من قبل تسكن منزلاً كبيراً في شارع شابون الى ان ماتت أمها ولم يبق لديها من المال ما يتيح لها ان تعيش في بذخها السابق ، فتركت ذلك المنزل الأنيق واستبدلته بهذا المنزل الحقير بغية الاقتصاد ويظهر انها قد اضطرت لفقرها ان تعيش من أشغال يدها وهي حسنة الصمت وافرة الأدب ، وجميع معارفها من الأعيان .

وبينما كان بستييان يقص أخبار حنة كان قلب ارمان يختلج بماطفة سرية وقد طفح سروراً بما سمع .

ثم قال بستييان . وقد علمت أيضاً من البواب انه كان عندها في منزلها القديم بيلو وعندما استبدلت منزلها لم تنقله اليه مما يدل على انها اضطرت لفقرها الى بيعه .

فقال ارمان : إذن اذهب واشتري بيلانو قديم الطراز ، وأنا أعلم انك لا تعرف ان تعزف على هذه الآلة ولكني أرغب اليك ان تشتريها وتنقلها لمنزلك ثم تدعي ان منزلك ضيق وان هذه الآلة لا يمكنك ان تبيعها لأنها كانت لابنتك وهي آخر تذكار بقي لك منها ، فترجو السيدة ان تسمح لك بأن تودعها عندها .

فامتثل بستييان ومضى لينفذ أمر سيده . أما ارمان فانه وضع رأسه بين يديه ، وانتقل الى عالم التنصور والخيال ، فصور له أوهامه تذكارات تلك الفتاة مرثاة ، التي طالما أحبها وطالما حاول إنقاذها من اندريا الخائن ، فلم

يقدر على ذلك .

وكان هذا الخيال الذي هو خيال حبه الماضي المشؤوم ، قد فجلى لديه بكمال صورته كأنه يغالب غرامه الجديد ، ولكنه لم يمكنه ان يقوى عليه لأن ذلك الحب القديم لم يبق منه إلا أثر صغير ، وقد محت باقيه تقلبات الأيام في ذلك القلب الذي ملأته ظامة الأحزان حتى لم يعد يغير فيه الأمل إلا نوراً ضعيفاً يحللي من وراءه صورة المحبوبة الجديدة ، وتنبت من تحت أكداره زهرة الحب الجديد كما تنبت الوردة تحت الشوك ، وكما يخضر غصن الآس بين المقابر ، وإنما كان ذلك لأن القلب لا يزال يحب ما دام حياً ، وكل حب قديم يحدث فيه لا يكون إلا رماداً تلوح من تحته نيران الحب السام ، ولذلك لم يكده خيال مرثاً يمثل لمينيه إلا نظر من ورائه تلك البسمة الحلوة على شفقي حنة ، كأنها اليقظة تمحو الأحلام والنور يبدد غياهب الظلام ، والذي كان يساعده على زوال تلك الصورة الماضية هو ما كان يتصور معها من تذكر اندريا عدوه الذي طالما طبع على فؤاده من ذكرى المصائب ما لا يكاد يحويه كرور الأيام ، ثم قال في نفسه : كيف يكون حظي لو أحببت هذه الفتاة ثم ظهر بيننا خيال اندريا الجهنمي وعرف بجنبنا وكاد لنا كيداً كما فعل في أمي وأمه وحبيبتي وحبيبتيه .

- ٢١ -

بستيان

وكانت حنة قد أصيبت، بنفس ما أصيب به ارمان من الحب ، وهي وإن تكن قد رآته بملابس الفعلة غير انها أيقنت لما رآته من حسن أدبه وكرم

أخلاقه انه بلباس التخفي ، وانه يستر تحت تلك الملابس نفساً طاهرة وأدباً وافراً ومنزلة عالية بين أرباب المقامات . ولم تكن تعرف الحب من قبل ، فصرفت معظم ليلتها بالتصورات المقلقة . ونهضت في الصباح باكراً ، وهي على ما كانت عليه من الاضطراب ، فاستسلمت الى التأملات ولم يوقظها من تلك الغفلة غير صوت بستيان الذي كان منهمكاً حينئذ في نقل أثاثه وهو يتباحث مع البواب بصوت مرتفع في شأن البيانو وأين يجب ان يضعه فأشار عليه البواب أن يودعه في منزل السيدة حنة ، وكان على اتفاق مع بستيان في ذلك الشأن بحيث أنه كان يتكلم بصوت مرتفع بلغ الى مسمع حنة ، فاختلج له فؤادها اختلاجاً شديداً .

وكان بعد ذلك ان بستيان دخل الى حنة ، فتعرف بها واستأذنها بوضع البيانو عندها حسبما أوعز اليه ارمان . ولما رتب منزله ولم يعد لديه ما يشغله فيه أقفله وخرج منه فاستأجر مركبة وأمر السائق بالذهاب الى شارع سنت كاترين وفيما تسير به المركبة حانت منه التفاتة ، فرأى مركبة قادمة من جهة الباستيل وهي تسابق في مسيرها الهواء . وكان يقود هذه المركبة شاب عليه ملامح الأشراف وبالقرب منه خادم كان جالساً وراءه مكتوف اليدين . فعقد بستيان نظره في ذلك الشاب ولم يكذب يذنبه اليه حتى صاح مندعراً : يا إلهي ! إن هذا اندريا وقد صبغ شعره بالسواد .

ثم نظر الى السائق وقال . إنك إذا تمكنت من ان تسير في أثر هذه المركبة بحيث لا تحتجب عنك ، فاني أجازيك خير الجزاء

فضرب السائق الجواد بالسوط فانطلق يعبدو كالسهم وما زال يسير في أثر المركبة حتى وقفت أمام قصر جميل بهيج المنظر فنزل الشاب منها ودخل الى القصر مسرعاً . أما بستيان فانه أوقف المركبة على بعد قليل وتقدم الى مركبة الشاب فوقف امام الجواد وجعل يكلف ان يفحصه وقد أعجب به ثم نظر الى الخادم وقال له : أبيع سيديك هذا الجواد ؟

— لا أعلم وإذا شئت فاسأله عن ذلك .

— من هو سيدك ؟

— إنه إنكليزي يدعى السير فيليام .

— وأين منزله ؟

هو الذي تراه أمامك .

— أهو الذي كان يسوق المركبة بنفسه وكنت وراءه .

-- نعم .

فتركه بستيان ودخل الى ذلك القصر ، فأوصله احد الخدم الى غرفة اندريا واستأذن له بالدخول فدخل .

وكان اندريا قد غادر باريس منذ ثلاثة أعوام ، فتغيرت هيأته بعض التغيير ، ولكنها لم تكن تخفى على بستيان الذي ربه منذ نشأته . فلما رآه اندهش وظهرت منه إشارة الاندهال بالرغم منه ، فلم يحفل بها اندريا فقال بستيان : إنني رأيت ذلك الجواد الكريم الذي كنت تسوقه وقد أعجبت به غاية الاعجاب .

فأجاب اندريا باهجة إنكليزية : إنه من خير الجياد وقد أعطيت فيه ستة آلاف فرنك فأبيت بيعه .

-- ألا تزال الى الآن تأبى هذا الثمن ؟

-- نعم .

وعند ذلك نهض اندريا فذهب الى منصدة وأخذ سيكارة فقدمها الى بستيان الذي رأى به عرجاً فصاح وقد نسي موقفه قائلاً : هذا هو بعينه .

وكان ذلك ان اندريا قد كبا به الجواد مرة في حادثته فكسرت رجله وبقي فيها هذا العرج فلما رآه بستيان يعرج لم يعد عنده شك به .

أما اندريا فانه سمعه يقول هذا هو بعينه التفت اليه وقال بغاية الهدوء : أتعرفني يا سيدي ، إنني لم أرك قبل الآن ؟

— لقد قيل لي انك تدعى السير فيليام وهذه اول مرة أرى فيها إنكليزيا
ذا شعر أسود .

- لست إنكليزيا بل أنا إيرلندي .

فقال بستيان ببرود أظن انك ولدت في فرنسا .

— إنك غلطان يا سيدي في ما ظننت .

. لا أراي غلطانا بل انك مولود في فرنسا بقصر كارلوفان .

ثم وقف وقال . وان أباك يدعى فيليبون .

— أعود وأقول لك انك خطيء .

— وأنا أقول لك أيضاً أن أباك الكونت فيليبون قد تزوج بامرأة الكولونيل

أرمان دي كركاز وان له منها ولد وهو أخوك .

— ليس لي أخوة ولم أولد بفرنسا وليس أبي الكونت فيليبون بل أنا وحيد

ولدت في إيرلندا وأدعى السير فيليام

— إن أخاك يدعى الكونت أرمان دي كركاز ، كما انك تدعى الفيكونت

أندريا .

فأجابه اندريا ببرود أدهش بستيان قائلا : إنك خطيء ، فاني لم أسمى

بهذا الاسم .

— اصغ إلي أيها الفيكونت أن أخاك قد بحث عنك طويلا في جميع

الأنحاء وهو قد غفر لك وعفى عنك وعزم على أن يمسحك ثروته فان قلبه

الشريف لا يعرف الحق ولا سبيا وأنما ابنا أم واحدة فهو يود أن تميشا في منزل

واحد وقد تيسر لي بعد ما بذلت من العناية في التفتيش عنك ان أجذك فلماذا

تحاول الاحتجاب عني .

فأجابه أندريا بغاية الهدوء والسكينة : إني أقسم لك انك خطيء وإني

لا أعرف الكونت دي كركاز ولا اسمي الفيكونت اندريا ، ولم أتشرف برؤياك

قبل الآن .

أما بستيان فإنه رأى مسعاه قد أخفق ، وقد بذل ما لديه من الوسائل ، فإنه استعمل في بادئ الأمر الحيلة ، ثم ذكر له ثروة أرمان الواسعة وإن أخاه يبحث عنه في كل مكان ليشاطره هذه الثروة ، آملاً أن تثور به المطامع ، فيخلع ثوب الخفاء ويعترف باسمه الحقيقي ، فذهبت جميع آماله أدراج الرياح

وكان بستيان على كهولته شديد الأعصاب متين القوى فلما رأى إخفاقه ثار به الغضب فتقدم من أندريا وقبض عليه بيد من الفولاذ وهو يقول : أيها الفيكونت أنك لا تستطيع أن تتخذهني طويلاً وستعرف الآن أنك لست بالسير فيليام ؟

فتصنع أندريا الاندهال وأجابه باللهجة الانكليزية المهدودة قائلاً ألا تريد أن تدعني وشأني فقد ابتدأت أن أحسبك مجنوناً ؟

— لتعلمن أيها الفيكونت أنني أشد منك ساعداً واني قادر على خنقك ببضع ثوان فاحذر من أن تستغيث إذ لا يجديك الصراخ نفعا .

— إذن تريد قتلي ؟

— كلا بل اني أريد أن أجردك من ثيابك وأكشف عن صدرك لأتبين فيه علامة أعهداها من قبل فاني رأيتك عارياً مراراً كثيرة في حدائقك وكنت أرى تحت ثديك الأيمن شامة سوداء .

— إن بصدري كثيراً من تلك الشامات وستحقق ما أرتك عيناك من الأوهام .

ثم أفلت منه ونزع ثوبه ومزق قميصه فظهر من تحته صدر كثير الشعر ملآن من تلك الشامات السوداء التي تسميها النساء حبات الجبال ، فارتاع بستيان مما رآه ورجع الى الوراء وقد علا وجهه الاصفرار وهو يقول : ليس هو إياه ولكن الشبه شديد .

وكان السير فيليام هو ذات أندريا ، ولكن لم يدر بخلد ذلك الكهل الطيب

السريرة أنه صبغ شعره بلون السواد وأخفى كل أثر يعرف فيه .

ووقف الاثنان بعد ذلك ينظر كل منهما الى الآخر الى ان افتتح أندريا الحديث فقال : أن كل ما ظهر لي منك يدل على الجنون فأنت دخلت إلي وأنا لا أعرفك ودعوتني باسم رجل لم أسمع بذكره في حياتي ، وعندما أظهرت لك خطأك بلطف وأدب هجمت علي هجوم الكواسر ، فأنا أعتبر أنك أهنتني .

فأجاب بستيان بصوت المتوسل وقد شعر بما ارتكب من الخطأ :

— أسألك ان تتعطف بالاصغاء إلي دقيقة واحدة . فاعلم الآن ان اندريا الذي دعوته بالفيكونت اندريا والذي يشبهك شبيهاً غريباً ، هو رجل شرير وأهل لكل الذنوب وان له أخاً يدعى الكونت ارمان دي كركاز له من النبل ومكارم الأخلاق بقدر ما لذلك الخائن من الدناءة والشؤم والاقدام على كل منكر . أما ذلك الخائن فهو شديد الحق على أخيه الذي رد اليه الشرع ثروة واسعة كان سلبها أبوه من أبيه ، إذ هو أحق منه بها وقد سافر منذ ثلاث سنوات من باريس على أثر ذلك وهو يجد ولا ريب ، وراء وسائل الانتقام لأنه على ما أبنت لك أهل لكل شر ، وإني أحب الكونت دي كركاز كما يحب الأب ابنه ، وهو يحب فتاة طاهرة الأخلاق ، فاذا علم بأمرها ذلك الخائن ، فهو لا يعدم وسيلة لغوايتها لأنه هو شديد المكر كثير طرق الغواية . وقد علمت الآن ان الذي دفعني الى التصرف معك ، على ما أنكرته علي ، لم يكن إلا ذلك الشبه الغريب ، ومع ذلك أعتذر اليك وأسألك الصفح عما كان .

فلبت أندريا هنيئة يفتكر ثم قال له بهرود : إن ذلك الحديث الذي قصصته علي جميل الفائدة ، ولكنه لا يرضيني تمام الرضى ولا أجد سبيلاً للعفو عما أسأت إلي به لذلك أسألك ايضاً ان تخبرني عن اسمك وعن محل سكنتك فاني لم أقتنع بسلامة قصدك .

فأجابه بستيان ، وقد وقع عليه هذا الكلام وقوع الصواعق اني ادعى بستيان .

فأجابه اندريا باحتقار . بستيان ماذا ؟

- بستيان فقط . فلاني نشأت في باريس وولدت بها دون ان أعرف اسم أبي ، ولكن نابوليون العظيم قلدي وساماً في معركة واغرام وسماي قائداً في فرقة الحرس .

فقال اندريا : لا بأس في ذلك فان بيني وبينك شيئاً من التكافؤ ، وقد قلت لك اني لم يسعني قبول عذرك ، فأنا أسألك ترضية عما فرط منك .
- ليكن ما تريد . فقد علمت اسمي واني اقيم في شارع سنت كاثرين في منزل الكونت ارمان دي كركاز

-- حسناً وسأبعث لك بشهودي بما غد لأني مقيد اليوم وفي الغد .

- انك تجعدي طوع أمرك عندما تشاء .

ثم أخذ من جيبه رقعة زيارة فوضعها على المستوقد وحيا أندريا وذهب ، فشيعة إلى خارج الباب .

ولما خلا أندريا بنفسه جعل يضحك ضحك الساخر وهو يقول بنفسه : اني كنت أجهل ان أخي العزيز عاشق ، وقد كنت أظن انه اكتفى بما لقيه من حبه السابق الى ان أعلمني بذلك بستيان ، فصح ما قيل (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) . أما الآن فانه ذهب وهو واثق من اني غير أندريا وان العدو الخفي أشد هولاً من العدو الظاهر ، وسيكون ذلك الأخ العزيز شاهده بلاريب ، فسنتقابل وجهاً لوجه وسأعلم كيف أقنعه اني ايرلندي الأصل ، حتى إذا قزوجت بهرمين أطلب منه ملايين كرماروت فيدفعها لي بغير صعوبة .

وفيا هو في هذه التأملات إذ وردت عليه رسالة من كولار ففوضها وقرأ بها ما يأتي :

« إن الفتاة التي يحبها ارمان دي كركاز تدعى حنة دي بالدري وهي بارعة في

الجمال ومنزلها في شارع مسلي .
فسر بهذا النبأ وقال : سأجتهد بعد ان أقتل بستيان بأن أتخذها
خليلة لي .

أما بستيان فإنه خرج من منزل اندريا أضفر الوجه شديد الاضطراب ،
وذهب الى ارمان فقص عليه جميع ما كان يمينه وبين السير فيليام ، فارتاح
لذكر اندريا الى ان تيقن ان السير فيليام شبيه له وليس هو بعينه ، فاطمأن
ولم يعد يشغله سوى منع هذه المباراة باحدى الوسائل الخوفه على بستيان .
وبعد ان فرغ بستيان من حكايته قص عليه ما كان بينه وبين حنة فسر لنجاحه
وقال له :

— إذذهب الى منزلك الجديد واختلق عذراً يمكنك من زيارة حنة ولا
تخرج من عندها إلا حينما تسمع قرعاً على باب منزلك وأكون أنا القارع فتخرج
وتشبعك هي بالطبيع الى الباب حيث أكون أنا هناك .
— قد فهمت .

وذهب للحال لينفذ ما عهد اليه ولم يكذب يخرج بستيان من الباب حتى دخل
خادم المنزل وفي يده رسالة ففحصها ارمان وقرأ هذه السطور :
« انه في شهر اكتوبر عام ١٨٠٠ ، أي في غضون الحرب الأسبانية ذهبت
فتاة صبية تدعى تريزا مع امها الى قرية بجوار فونتبيلو ، فأقامتا فيها فصلي
الشتاء والربيع ، وعندما رجعتا كانت الفتاة حبلى ولا يعلم هل كانت أرملة
أم انها ارتكبت خطأ ، وقد ولدت في آخر الربيع ابنة دعمتها هرمين ثم
أقامت عاماً كاملاً في مارلوت وسافرت في آخر اكتوبر الى باريس فأشيع
في مارلوت انها ذهبت لتتزوج ، ويؤكدون انها تزوجت برجل مستخدم
في الوزارة » .

هذا هو مفاد الرسالة التي لم يهتم بها ارمان كثيراً ، لكثرة ما كان
يرد عليه من أمثالها في كل يوم ، ولكنه أخذ دفتر مذكراته وكتب فيه

بالخط المصري :

يجب البحث إذا كان يوجد رجل في وزارة الخارجية قد تزوج في آخر شهر أكتوبر من سنة ١٨٠٠ بأبنة تدعى تريزا ، وإذا كان لها ابنة تدعى هرمين

ثم أرجع الدفتر الى مكانه وذهب الى منزل بستيان الذي كان ساعته عند حنة فقرع الباب وجاء الأمر طبقاً لما تصوره ، فان بستيان عندما سمع القرع استأذن من حنة فخرجت تشيعه الى الباب الخارجي حيث كان ارمان ينتظر وقلبه شديد الخفق .

فلم تكذ تراه حتى عرفته فاصفر وجهها واختلج فؤادها ولكنها تجلجت وانحنيت مسلمة عليه بابتسام ثم دخلت الى غرفتها وأغلقت الباب أما ارمان فلم يخف عليه اضطرابها فكان سروره لا يوصف .

٢٢

الرسالة

مر على ذلك يومان وقد جرى من الحوادث ما عرفه القراء كأسر سريز في منزل مدام فيبار خارج باريس وسجن فرناند لاتهامه بالسرقة وحبس باكارا في مستشفى المجانين واتفاق اندريا مع بيرابو على الزواج بهرمين فبينما كانت اندريا جالسا في منزله في اليوم الثاني من اتفاده على المبارز مع بستيان ، وهو قد نال جميع ما ينتهيه من إبعاد جميع من يخشى ان يعترضوا في سبيل مساعية بحيث لم يبق عليه سوى إقناع هرمين على الزواج به ليفوز بتلك الملايين إذ دخل عليه بيرابو ودار بينهما الحديث الآتي :

- فقال بيراو : إني أتيت لأخبرك عن سفر هرمين وأمها .
- الى أين سافرتا ؟
- الى بريطانيا ، فإن لنا فيها بعض الأنسباء ولا أخال ان فرناند يستطيع الوصول اليها .
- فأجابهُ أندريا ضاحكاً : يقتضي له الوصول اليها أن تصادق الحكومة على سفره .
- ذلك مستحيل فإن جرمه قد ثبت وسيحكم عليه باقرب حين
- ألا توافقني يا عماء على رأيي وهو ان الحكومة تقدر أن تعثر على المجرم الحقيقي .
- فارتعش بيراو وقال : ذلك لا ريب فيه .
- إذن ان هرمين وأمها قد سافرتا .
- أجل ان هرمين قد حاولت الانتحار في بادئ الامر ثم الآن لانت بعض اللين ورضيت بالسفر .
- إن السفر خير بلسم لجراح الأحزان ، وان العشاى يسافرون باليأس ويرجعون بالنسيان فلا دواء لمثل هذه الأمراض خير من السفر .
- لا ريب عندي بشعائر هرمين لا سيما عندما تعلم بجريمة فرناند .
- كلام لم يحن الوقت بعد لاطلاعها على ذلك حذراً من ان يؤثر عليها تأثيراً لا محمد عقباه وان النساء غريبات الأطوار فربما زادت خيانه من محب تعلقاً به وفي كل حال يجب اولاً ان يصدر حكم المجلس
- كما تشاء .
- بقي علي أن أسألك اذا كان يمكنك ان تعرفني بالنسبالك في بريطانيا عندما أذهب اليها .
- لقد افتركت بذلك من قبل ورتبته على أحسن منوال فان كبير العميلة شديد الولع بالصيد محب لكل راغب فيه ولا أيسر لك من ان تتظاهر بشدة الميل الى الصيد ، فتلتحم بينكما العلائق وتتصل الى العميلة فلا يمضي الشهر إلا

وأنت صهري .

.. وعند ذلك تنعم بسريرى وبحظك من الملايين .

— يجب ان أصبر شهراً كاملاً ، إن ذلك لأجل طويل وإني أكاد أجن من شوقى إليها .

— ذلك منوط بك فإذا أمكنك ان تزف هرمين إلى بعد أسبوع تكون لك سريرى وهذه هي طريقى واحدة بواحدة جزاء .

— لا أراك مصيباً في ذلك لأنك تعلم ما ينالني من الفائدة بزواجك هرمين وأنت وحدك تعرف .

— تريد أن تقول انى وحدي أعرف المودعة عنده تلك الملايين ولكن ألا يتفق لذلك الرجل المودعة عنده أن يعلم اتفاقاً او باحدى الطرق اسم الوارث فإذا أعطيتك سريرى الآن واتفق بعد ذلك حصول هرمين على الارث فإنك ترفض لتستأثر دوني بالملايين

— ولكن أنسيت انى المحرم الحقيقى في مسألة فرناند ؟

— لم أنس ذلك ولكن الرابطين أشد من الرابط ومن كان مثلك فإنه يتحمل كل عار لكسب الدراهم ولكنه ينفق ذلك الدرهم في سبيل غرامه ولا أشد من غرام الشيوخ فإذا أعطيتك سريرى فإنك تلبث في خدمتى ولكنك تخدمنى ببطء كشرىكك في الجرم وأنا أريد أن تخدمنى بغيره كعاشق لذلك أعود فأؤكد لك انى في اليوم الذى اقزوج فيه بهرمين تنعم انت بسريرى ولندع الآن الخوض في هذا إذ لا فائدة منه واعلم انى سأذهب بعد بضعة ايام الى بريطانيا فاعليك ان تستأذن من الوزارة فتذهب قبلى الى امرأتك وابنتك واجتهد أن تكتب لى في كل يوم عن هرمين وأن تهدي لى السبيل .

سأعمل كما أشرت وسأسافر اليوم .

ثم ودعه وانصرف ، وخرج أندريا بعده وذهب الى السفارة الانكليزية حيث اجتمع بصديقين له فيها ، وعرض عليهما ما كان بينا وبين بستيان وسألها أن يكونا شاهديه ، فقبلاوا وخرجوا سوية من السفارة ، فرجع

أندريا إلى منزله وذهب الشاهدان الى منزل الكونت ارمان دي كركاز ليتفقا مع بستيان على شروط المباراة فلم يجدها بل وجدا ارمان الذي بذل ما في وسعه لمنع المباراة ، فلم يجد الى ذلك سبيلا لما اشتهر به الانكليز من العناد في مثل هذا الموقف ، فاتفقوا على ان المباراة تكون بالسيف ويكون الملتقى في الساعة السابعة من الغد في غابة بولونيا ، ثم تركاه وذهبا إلى أندريا فأخبراه بما كان وبعد أن ذهبوا ورد الى أندريا رسالة من كولار هذا نصها :

« أكتب اليك الآن من منزل فتاة يجوار منزل حنة قد أغويتها بحيث أصبحت آلة في يدي اديرها كيف اشاء .. وقد وثقت الآن ان بستيان لا يبيت هذه الليلة في منزله الجديد فلا يبقى أحد يجوار حنة بحيث يخلو لنا الجو فتدبر وسأحضر اليك بعد قليل للمداولة في هذا الشأن . »

أما حنة فانها كانت قد اجتمعت مراراً ببستيان فعلمت منه نزاهة قصد ارمان وشغفه بها وشدة رغبته بالاقتران بها ما زاد حبها له وحقق أمانها ثم زارها ارمان فحقق بالعيان ما كانت علمته بالخبر بحيث أصبحت لا تحلم الا بتلك الأمانى الزاهرة ولا تحدث نفسها إلا بحب ارمان وبما ستلاقي معه من الغبطة والسعادة وكانت قد استوثقت بينهما العلائق فكان يكثّر من زيارتها على قدر ما يسمح له المقام .

وقد علم القراء انه عندما أتى شاهد أندريا كان بستيان في منزله الجديد فذهب اليه ارمان وتباحث ملياً بشأن الہراز وكافا يتكلمان بصوت مرتفع بحيث سمعت حنة بعض حديثهما وعلمت انه سيحصل مباراة ولكنهما لم تعلم اسم المتبارزين ، وكان آخر ما قال ارمان لبستيان : يجب ان تذهب الآن لترتب هذا الأمر المكدر وانت تعلم انها تحبني بقدر ما أحبها ويسؤوني اني لا أستطيع زيارتها في هذا المساء حيث علينا أن ننام باكراً ، وأما غداً فإني تأني اليها من من قبلي وتخطبها رسمياً بالنيابة عني ثم انصرفا .

فاختلجت حنة لما سمعت وسقطت على كرسي في حالة تقرب من الإغماء

وتقول ، رباه ما عسى أن يكون هذا الأمر المكدر
ولبثت بعد ذلك ساعتين وهي غارقة في بحار الهواجس والقلق إلى أن قرع
الباب فانتهت من سبات غفلتها ونظرت إلى حاضنتها جرتريدة داخلة ويدها
رسالة محتومة فقالت : لقد كلفني رجل لا أعرفه بأن أعطيك هذا الكتاب ، ثم
دفعته إليها ومضت ، وفضت حنة ختامه وقرأت ما يأتي :

« أول ما أبدأ به سؤالك المصدرة عما جسرت عليه من مكاتبتك » ، فظنت
ان هذا الكتاب قادم إليها من ارمان فبحشت آخره لترى التوقيع فرأته غفلا
فعادت إلى القراءة :

« إني أحبك يا سيدتي وأول مرة نظرتك علمت ان قلبي قد شغل بعد ذلك
الحلاء بهواك وان بك وحدك يناط مستقبل سعادتي » ، فوضعت حنة يدها على
قلبيها وهي تقول رباه .. هذا هو . ثم استمرت في قراءتها :

« إني واسع الثروة أيتها الحبيبة وقد رأيتك ملاكاً طاهراً فاعدت لك
جنة أعيش فيها على قدميك متى اراد الله تحقيق هذه الأمانى ولا أصبح من
تسميتها بذلك المنزل الأنيق الذي تحيط به الأشجار وتكتنفه الرياحين والأزهار
وتأن فيه الأنهار لتغريد الأطيار حيث تناسج بلسان الهوى وتكشف أسرار
القلوب لأنك ستقيمين فيه ومنازل الملائكة هي الجنات .

أيتها الحبيبة أني لم أجسر ان ابوح لك بفرامي لأنني معرض لخطر عظيم
فاني سأبرز عدواً لي في الساعة السابعة من الصباح » .
فما قرأت هذه الفقرة حتى شعرت ان الأرض قد انطبقت عليها فصاحت
صيحة عظيمة وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وعندما أفاقت من اغماؤها وجدت نفسها مضطجعة على سريرها وامامها
حاضنتها جرتريدة وفتاة حسناء عليها ملامح الضحك وفي عينيها ما يدل على
المكر والرياء .

وكانت هذه الفتاة هي التي اغواها كولات وكتب في منزلها رسالته السابقة

الى اندريا ، وقد سمعت صيحة حنة قبل اغماؤها وسقوطها واستغاثة جرتريدة فأنت مدفوعة من كولار الذي كان باقياً عندها وعرضت على جرتريدة مساعدتها فقبلتها

أما حنة فانها لم تلبث عندما استفاقت ان عادت الى الافتسكار بارمان وانه في خطر عظيم فعزمت على ان تذهب الى منزله وتبذل كل ما تستطيع في سبيل منع هذه المبارزة ثم رأت خيالاً قد انتصب امام عينيها وخيل لها انه يقول « لا يجب على المرأة الشريفة ان تمنع من تهواه عن ان يخاطر بحياته للدفاع عن شرفه » ، وكان هذا الخيال خيال أبيها فنهضت من فراشها فركعت أمام صليب معلق في الحائط وصلت ثم رجعت الى الفراش فحككت ريثما تناولت قليلاً من المرق ولم يمر على ذلك عشر دقائق حتى استرخت عيناها وشعرت بنعاس عظيم لم تستطع مقاومته وثقل رأسها فانطرحت على الفراش وكانت جرتريدة جالسة بالقرب منها على كرسي طويل .

وبعد ذلك بساعة فتح باب الغرفة ودخل اليها رجل ومشى الى فراش حنة وهو يضحك ضحك الساخر ويقول . خليلتي قد أتمت واجباتها على ما يرام ووضعت في القدر جميع ما أعطيتها من المرقد بحيث ان صوت المدافع لا يقوى على ايقاظ خليلة السير فيليام المستقبلة وكان هذا الرجل هو كولار .

استيقظت حنة عند الضحى وقد نفدت أشعة الشمس الى غرفتها فنظرت الى ما حولها فلم تر ذلك الصليب الذي كانت تصلي امامه بالأمس داعية لأرمان وقد وجدت نفسها نائمة بملابسها على مقعد في غرفة متسعة يرى من نوافذها انها محاطة بالأشجار المرتفعة .

وقد رأت في وسط تلك الغرفة البديعة الأثاث سريراً ذا عواميد موشعة بالذهب وستائر من الخمل وفيها جميع ما تحتاج اليه العذارى من كل ما يروق للعين ويحلو للنفس وجميع أدوات الزينة مما يتفاخر به عظماء باريس وتماثيل ومراتب مرتبة أحسن ترتيب مما يدل على سلامة ذوق مرتبها وفي الجملة فان

هذه الغرفة كانت محتوية على كل ما تحلم به العذارى .

وقد خيل لها انها في حلم عندما رأت نفسها في غير منزلها وفي غرفة توافق ذلك الكتاب الذي ورد اليها وهي تظنه من ارمان فأخذ العرق ينصب من جبينها وهي تجهد النفس ولا تقدر على حل شيء من هذه الألغاز فقامت ومشت في أرض الغرفة ضائعة الصواب موجعة القلب ، وهي لا تزال تعتقد انها في حلم ثم فتحت لإحدى النوافذ فهب في وجهها نسيم الصباح البليل ، وأطلت منها على روضة غناء كثيرة الأشجار ، وسمعت تغريد الأطيار فتمثلت لها تلك الجنة التي ذكرت في كتاب ارمان ، ثم أخذت تفحص جميع الأشياء الموجودة في الغرفة المحمولة عندها ، فتحقت انها في يقظة ، وأخذ الخوف يداخل قلبها وهي تقول : ترى أين أنا ، وكيف جيء بي الى هذا المنزل الذي تدل ظواهره على انه خارج باريس ؟ ومالي لا أرى حاضني جريدة ؟ ويلاه أفي يقظة أنا أم في منام . كلا ان ذاك غريب لا محالة ، ولكن نسيم الصباح الذي كان يبرد جبينها الملهب وأشعة الشمس التي كانت تتدفق على الحقول الخضراء ، وتغريد الطيور التي كانت تتناجى في الشجر وتمتدح فوق رؤوس القضب وحفيف الأشجار وتميل الغصون التي كانت ترقص لنغمات النسيم كل ذلك كان يثبت لها انها في يقظة .. وفيما هي تتأمل في تلك الغرفة وقع نظرها على رسالة مفتوحة على المستوقد فأسرعت اليها وأول ما نظرتها رأت ان خطها هو نفس خط رسالة الأمس فأخذتها إذ أيقنت انها من ارمان وقرأت ما يأتي :

« الساعة التاسعة صباحاً .

« لقد تبارزت في الساعة السابعة فانتصرت وأنا سليم أصعب بشيء »

فصاحت صيحة فرح وقالت في نفسها ما يعني بعد ذلك ان اعرف أين أنا فإن الذي تحبه نفسي حي ثم عادت الى الرسالة تتم تلاوتها فقرأت :

« دخلت الى غرفتك ايتها الحبيبة فرأيتك نائمة فلم اوقظك بل اني لثمت جبينك الوضاح كما يقبل الأخ اخته ورجعت على الأثر بملء السكون

« أيها الملاك المحبوب انني اتصور فرط انذها لك عندما تستيقظين وتجدين نفسك في مكان لا تعرفينه من قبل وتجملين كيف وصلت اليه وأية يد قادرة اغتنمت فرصة رقادك ونقلتك الى هذا القصر بل إلى هذه الجنة التي لم تشد إلا لأجلك فاطماني ايتها الحبيبة انني لا أحبك حباً بل أعبدك عبادة وان تلك اليد القادرة لا تستخدم قوتها إلا لخدمتك فإن تلك اليد هي الحب » .

فرجف قلب حنة ونظرت الى ما حولها نظرة قلق ورعب وقالت في نفسها . كيف يمكن ان ذلك الرجل الذي سمعته بالأمس يقول لبستيان (انك ستخطبها لي في الغد رسمياً) ان يجري على هذا السيل أترأه يريد ان يتخذني خلية له وانه اغتنم فرصة رقادي . ولم تجسر ان تطلق ظننها الى ما وراء ذلك وعادت إلى تمة الرسالة

« أيتها الحبيبة اني رجل شريف وأريد ان أبقى اهلاً لحبك الشريف فانك تحبينني بقدر ما احبك فتجدين نفسك على ما كنت من الطهارة ومع ذاك فإنني أسألك الصفح والمعذرة فقد انتشلتك لأنني لم أستطع الصبر على ما رأيته فيك فيه من ضيق العيش ، وانفت من ان اراك تأوين إلى منزل حقير وعلمت بأنك لا ترضين بالرحيل معي قبل ان يتم بيلنا القران فالتجأت الى الحيلة واغريت خدام المنزل ووضعت في طعامك مرقداً حتى إذا غفوت بتأثير ذاك المرقد نقلتك الى مركبة مقفلة سارت بك كل الليل حتى وصلت إلى هذا المكان ولكني أعود فأقول لك اطمئني لأنك في منزلك وستكونين امرأتني في اقرب حين » .

فوضعت حنة يدها على قلبها وهي تحاول تسكين خفقانه ثم عادت إلى الرسالة فقرأت :

« وأعلمي ايتها الحبيبة انه قد يمر على المرء في حياته حوادث غريبة محاطة بالأسرار الخفية ، فاني بالأمس كنت معرضاً لخطر البراز وقد انتصرت فيه بحول الله ، وارانني اليوم في خطر شديد اعظم من الأول ، اما الأول فقد انقذني منه ساعدي ، واما الثاني فلا ينقذني منه سواك فانتهبي الى ما اطلبه

منك . »

« ان في ذاك سر أيتها الحبيبة لا يتعلق بي وحدي ولا يسوغ لي افشاؤه ، وقد ير عليك في هذا المكان بضعة أيام لا ترينني فيها فاطمئني وثقي بي لأنني أحبك . إذالم تبحشي أبداً أين أنت ، وإذا كنت لا تحاولين مغادرة هذا المنزل ، وإذا كنت لا تسألين الخدم الذين جعلتهم منذ اليوم في خدمتك أقل سؤال ، أكون في مأمن من هذا الخطر ، وإلا فإن أقل مخالفة تجرئها تقضي عليّ بالموت فتدبري واعلمي بما يدعوك اليه واجب الحب »

« وسيسلك مني رسالة في كل يوم ، ثم لا تقلقي لبعده جرتريده عنك ، فإنني قد أخذتها معي لأنها تعلم بحبنا ، وهذا أيضاً من الأسرار التي لا أستطيع أن أبوح بها لك الآن فأستودعك الله أيتها الحبيبة على أمل اللقاء القريب . »

وكان هذا الكتاب غفلاً كالكتاب السابق أي بغير توقيع .

- ٢٣ -

المبارزة

لندع حنة الآن تعيد تلاوة هذا الكتاب الغريب ، ولننعم إلى أرمان وبستييان فنقول انها خرجا من منزل بستييان وذهبا توأ إلى منزل أرمان حيث دخلا إلى قاعة السلاح وامتنعن أرمان وبستييان بلعب السيف فوجداه متين الساعد ، ولكن لعبه قديم لا ينطبق على القواعد المقررة في هذا العصر بما جعله في قلق عليه ، ثم دخل كل إلى غرفته وناما باكراً ، وعند الساعة السادسة استيقظ أرمان فأيقظ بستييان وقال له: هلم بنا الآن إذ يجب علينا ان نصل

قبلهم فلان الفرنسيين لا يتأخرون .
ثم ذهبوا إلى غابة بولونيا فلم يلبثا هنيهة حتى قدم مسير فيليام مع شاهديه
وفيما هم في المركبة نظر اليهم أرمان فاختلج واضطرب عندهما رأى
أندريا ، وأشار إليه وهو يقول لبستيان هل انت واثق من أنه ليس
أندريا بعينه ؟

— انني على أتم الثقة كما ثبت لي بعد الامتحان .

ثم وقفت المركبة ونزل أندريا منها مع شاهديه فتبادلوا التحية ودار بين
أرمان وشاهدي أندريا الحديث الآتي :
قال أرمان : نحن الآن يا سيدي في موقف حرج يتيح لنا المداولة
بصراحة وحلاء ، فلا يؤخذ كلامنا في غير مأخذه بما يمكن أن يتناول منه
مس كرامة او ظن ، لسوء قصد ، وانني استأذن منك فآلقي عليكما هذا
السؤال : أتعرفان السير فيليام من زمن طويل وهل تعتقدان انه إيرلندي ؟
— اننا نعرفه منذ شهرين وقد اطلعنا على أوراقه العائلية فهي تثبت أنه
السير فيليام وأنه إيرلندي .

— لم يعد عندي ريب في ذلك ، وان كانت الشبهة عظيماً بينه وبين اخي
والان فلأنني أرى أسباب البراز طفيفة جداً بحيث يجب التساهل فيه لاسيما وان
التيابن شديد بين سني المتبارزين .

— ونحن الان على رأيك لذلك نقترح ان يكف عن المبارزة عند أول
جرح ، وان لا يقصد أحدهما قتل الآخر

— ليكون ما تريد وليسرع في القتال .

فخلع المتبارزان سترتيهما وفحص الشهود السيفين ، ثم أعطيت الإشارة
فبدأ العراك ، وكان بستيان شديد الهياج في القتال خلافاً لأندريا الذي كان
يقاقل بأتم السكون كأنه يريد ان يقلد الانسكليز بجميع حركاتهم ، اما ارمان
فإنه علم لأول وهلة ان بستيان دون خصمه ، يفضل بالثبات وقوة الساعد ولم

يمض على مبارزتها خمس دقائق حتى صبح ظن ارمان ، فإن اندريا دحر بستيان ووضع سيفه بصدرة ، فحف عنه ، ولم يدع الحسام يصل إلى جسمه ، فأوقف ارمان القتال ، ولم يعد لديه اقل ريب بأن السير فيليام هو إيرلندي ، بدليل ما رآه من عفوه عن بستيان بعد المقدرة عليه ، وهي شهامة لا يعرفها أندريا .

وبعد أن أوقف القتال واعترف بستيان بأنه مغلوب تقدم أندريا وصافحه ثم أشار إلى الحضور فقال : اسمحوا لي الآن أيها السادة ان اظهر لكم السبب الذي حملني على البراز بعد ان قدم لي خصمي من الاعتذار ما هو كاف . ذلك انني كنت يوماً جالساً في أحد المنتديات مع بعض مواطني فدار بيننا حديث عن البراز فأذكره مواطني وقالوا ان الشرفاء لا يتبارزون ، اما انا فقد اعترضت عليهم واثبت وجوب المباراة وأخذت اترقب الفرض كي اثبت ما قلته بالفعل ثم ما كان بيني وبين خصمي فعزمت على مبارزته تأييداً لقولي ورفضت قبول ذلك الاعتذار .

وبعد ان قال ذلك تقدم من ارمان فقال : يا سيدي الكونت اني اشبه أخاً لك تبعت عنه منذ حين في سائر الأنحاء .
- لا أنكر وجود الشبه بينكم ولكنكما تختلفان بالشعر فإن شعره أشقر وشعرك اسود .

- ومع ذلك فإنني أريد ان تزورني يوماً فأطلعك على أوراق التي تثبت لك حقيقة نسي .

فاعتذرا له اعتذاراً حسناً .

اما اندريا فتسكف هيئة ودية وأشار إلى الجميع فقال : لا ريب أيها السادة ان كلا منكم قد أحب امرأة واحدة في حياته على الأقل اما انا فإنني اعشق الان فتاة ملكت لي ، وقد اسكنتها بين الغابات لشدة غيبي عليها ولم استطع ان اراها مساء امس لاضطراري الى الاجتماع بكم في هذا الصباح .

ثم التفت إلى ارمان فقال له . انني أكون لك من الشاكرين ايها الكونت
إذا تفضلت وأوسعت في مركبتك مكاناً لشاهدي كي استأثر بمركبتي وحدي
فانني غير راجع الى باريس .

فأحنى ارمان رأسه إشارة الى القبول وصعد اندريا الى المركبة وهو يقول
ليست للسعادة الحقيقية ان يجتمع العاشق بمن يحب وعندي ان من يحب خطيئة
له يجب عليه ان يخفيها عن جميع العيون .

فافتكر ارمان بجنة ، واختلج قلبه ، اما اندريا فإنه ضرب الجواد بالسوط
وقال لارمان بصوت اهازى : إذا احببت امرأة فلإني أشير عليك ان
تحافظ عليها كما يجب .

فاصفر وجه ارمان وافتكر ثانية بجنة فملأ قلبه الخوف .

وسارت مركبة اندريا تعدو به كالبرق الخاطف ساعات طويلة الى ان
بلغت الى ذاك المنزل الذي جلست فيه حنة وسريز ، وهو منزل مدام فيبار
فتفتح باباً سريعاً ودخل منه فنظر الى الرمل وإذا عليه أثار اقدام فتشهد تنهد
الفرح وقال : وقم الطير في الشراك وقد اصبحت حنة لي .

وفيما هو يسير في الروضة رأى كولار مضطجعاً تحت ظل شجرة على غاية
الاطمئنان فدنا منه وقال . ما وراك من الأخبار ؟

فنهض كولار ووقف امامه باكرام واحترام وقال : انها لا تزال نائمة ؟

- في أية ساعة تركت الموقد ؟

- في الساعة العاشرة

فنظر اندريا الى ساعته وقال الان ثمانية وهي لا تفيق قبل العاشرة .
ثم مشيا سوية ودخلا الى ذاك المنزل الأنيق فوجدوا تلك الغرفة التي تركنا فيها
حنة مندهلة مستغربة لوجودها في مثل هذا المكان . وكانت ساعتها نائمة فدنا
منها وتفرس في وجهها ثم قال اني أهنيء أخي ارمان لسلامة ذوقه فهي
بالحقيقة على غاية من الجمال ، وبعد ذلك سأل كولار عن سريز فقال : أنها لا تزال

توال تبكي وتشكو من معاملة مدام فيبار .

فاغتاط اندريا من ذلك وقال له : اذهب وادع لي مدام فيبار وأخبر سرين بأني قادم لزيارتها .

فذهب كولار وجلس أندريا بالقرب من منضدة فكتب إلى حنة الرسالة التي مر ذكرها ثم نهض ووقف أمام حنة فجعل ينظرها ويقول : انها بارعة الجمال وهي الآن متأثرة من المرقد فلا تشعر بشيء ، ولو كان سواي لكانت ينتقم انتقاماً اشد واقسى ، وأنا لا أريد جسم هذه الفتاة بل اني أريد قلبها ، فهي قد ابتدأت أن تحب ارمان وستنتهي بأن تحبني ، وقد كان يتمثل ارمان لها بالأمس شخص الفضيلة ، ولكني سأدعها ترى فيه بعد ذلك المكر والدناءة والخداع ، وأنه مخادع وقد انتحل اسمي ليتمكن به من غوايتها فساكون أنا ارمان الحقيقي بعينها ويكون ارمان المنتحل الخائن .

وبعد ان انتهى من تصوراتهِ قرع الجرس فدخلت الخادمة وكان أعدها لخدمة حنة فأمرها ان تدعو جميع الخدم ، ولما أتوا قال لهم : انني أعطي كلا منكم مائة دينار إذا كنتم تظهرون أمام هذه السيدة الدائمة انني أنا الكونت ارمان دي كركار ، وإذا كنتم تجعلونها تعتقد بذلك وإلا فإنني أطردهم جميعاً .

ثم صرفهم وخرج في أثرهم وهو يقول : سينطلي مثل هذا الحال على سرين أيضاً ، فإذا لم تقتنع حنة من الخدم ، فهي تقتنع ولا ريب من صديقتها سرين .

- ٢٤ -

الوعود

لقد تركنا سرير منعمياً عليها في منزل مدام فيبار وبعد أن أفاقت من إغمائها نقلتها إلى غرفة عالية حسنة الأثاث ، ثم تركتها ومضت في شأنها بعد أن أقفلت الباب عليها . وكان أول ما بدأت به سرير بعد ما رأت نفسها وحيدة بهذه الغرفة انها أسرعت الى الباب وحاولت فتحه والخروج ، ولكنها رآته مقفلاً فأخذت تصيح وتستغيث ، ولكن لم يجيبها غير الصدى . ولما لم تستطع شيئاً أخذت تبكي بكاء الأطفال . وعند الظهر دخلت عليها مدام فيبار بأنيمة طعام فرفضت ان تأكل ، فتركتها وخرجت فأقفلت الباب من الخارج وفي المساء عادت اليها بالطعام فرفضت أيضاً ، فلم تكررت مدام فيبار بذلك وفعلت نفس ما فعلته عند الظهر ، وفي اليوم الثاني تغدت بالقليل من الطعام وأرادت أن تخرج من الغرفة ، فمنعتها المعجوز وعاملتها أسوأ المعاملة .

ومضى على سرير في ذلك المجلس ثلاثة أيام حتى نضب الدمع من عينيها ، وكادت تجن من اليأس . وفيما هي ذات يوم متكئة على النافذة فتح باب غرفتها ودخل منه السير فيليام ، فلما رآته صاحت صيحة رعب شديدة وركضت مندعة إلى آخر الغرفة كمن تريد الهرب .

أما السير فيليام فكان هادئاً مبتسماً ، وقد تكلف هيئة اللطف والاحترام فرفع قبعته وانحنى مسلماً بمنتهى الأدب وقال : إطمئني يا سيدتي ، فاني رجل شريف

فلبثت مكانها تنظر اليه نظرة القلق والريبة ، وقد ذهب عنها بعض ذلك الرعب ، فقال لها بصوت رقيق لصغي إلي يا سيدتي فاني سأخبرك بما

لا تعرفينه .

— أيمكن يا سيدي ان تكون أنت الامر بجميع ما كابדתه من المتاعب والامانة ؟

فتصنع أندريا الغضب وقال : من الذي جسر على ذلك ؟
— تلك المعجوز الشمطاء ، التي قالت لي أنهم أتوا بي إلى هذا المكان بقصد أن ...

فقاطعها أندريا وقال : كل ما قيل لك كذب وزور وسأنتقم لك .
فقلت سرىز وقد تهدج صوتها وأجهشت بالبكاء : إلى أسيرة في هذه الغرفة منذ ثلاثة أيام ولم أعلم شيئاً عن ...

فلم يدعها تتمم وقال : تريدان ان تقولي انك لم تعلمي شيئاً عن خطيبك ليون رولاند .. إطمئني ولينعم بالك فان خطيبك يستحق حبك ، وسأجعل لك مهر يتسع فيه حالكما بحيث تعيشان على أتم السعادة .

فتنهدت سرىز تنهد الفرح وقالت لم أكن أصدق أبداً يا سيدي ما كانت تقوله لي هذه المعجوز
— ماذا كانت تقول لك ؟

— إنه لم يوت بي الى هنا إلا بأمرك . . لأنك شاب واسع الثروة ، وأنا صبية فقيرة ..

فتظاهر اندريا أنه التهب من الغيظ وقال : أنا الكونت أرمان دي كركاز أرتكب مثل هذه الدناءة ! ..

— أنت يا سيدي هو الكونت أرمان دي كركاز ؟

— أجل يا ابنتي ، وقد عرفت خطيبك ليون بواسطة خادمي بستييان الذي قد رأيته ولا ريب فهو ذلك الرجل الذي أنقذكم من أخصامكم في فندق بلغيل .

— أجل ، أجل . إني أذكر ذلك وقد عرفته .

— إذأ فاصني إلى ولا تخشي أبداً ، فإنك حسناء فاضلة وكذلك ليون

فهو أهل لك وأنا سأكون لك بمثابة أب أو أخ ، فان مدام فيبار قد قالت شيئاً من الحقيقة ، وهو انه قد أتى بك إلى هنا بأمرى ، ولكن ما قالتها لك من اني أريد غوايتك افك وبهتان ، والذي يجب علينا الآن هو إنقاذ ليون وحنة .

فصرخت سرير بمنتهى الاندهال : حنة .

— نعم حنة دي بالدري التي أحبها حباً مبرحاً ، والتي ستكون امرأتى في أقرب حين ، فانها أصيبت أيضاً بنفس ما أصبت به أنت واني أراك شديدة الاضطراب لهذه الحوادث الغريبة التي تمر عليك كالغاز ، فاصغى لي أوضحها لك ، فلنبدأ بك أولاً ثم نعود الى حنة فأنتم قد أصبتم بمصاب واحد .

إنك تحبين ليون وهو يحبك ، وقد كنتم اتفقتا على أن يكون قرانكما بعد خمسة عشر يوماً وان لك اختاً شقية بغياً باعتك ببيع السلع الى رجل غني قادر على ان يقتحم أشد الأمور وهذا الرجل هو بيرابو رئيس القلم في الوزارة وهو الذي أنقذتك منه واضطرت الى نقلك هنا كي تكوني بأمن من كيد ريثما يدعى الى المجلس ويحاكم بما جنت يده وهو لا يستطيع ان يأتي اليك وأنت في هذا المكان أقممت الآن ؟

— فما الذي دعاك ان تعاملنا بمثل هذا الإحسان ؟

— إنني رجل واسع الثروة وقد أوقفته لصنع الخير ودفع كل شر ولدي رجال صادقون أبشهم في جميع الأنحاء ، فيطمعونني على كل شيء ، وهم الذين أعلموني بما كان بين اختك وبيرابو من الاتفاق بشأنك ، والآن فاصغى إلي فاني أكلمك عن حنة .

ثم وضع يده على قلبه وقال : إنني أحبها حباً ليس فوقه حب ، وقد كانت معرضة لخطر يشبه الخطر الذي كنت أنت معرضة له ، ذلك ان بستيان خادم غرقتي قد انتحل اسمي وتقدم اليها باسم الكونت ارمان دي كركاز .

فقابلت سرير باندهال : بستيان الذي كان معنا في بلقيز ؟

- أجل ، هو بعينه وقد توهمتم يومئذ ان الصدفة قد بعثت به اليكم لإنقاذ من ذينك اللعين اللذين لم يكونا إلا رقيقه ، والسبب في ذلك أن بستيان هذا قد رأى حنة واقتفى أثرها مراراً وعلق بها فاتفق مع شريكه عندما رأى حنة ذاهبة معكم إلى بلغيل ، ومثل هذه الرواية المضحكة التي تعلمونها بحيث اضطرتت بعدما شاهدت من شهادته ان تدعوه الى ذلك العشاء ، ثم ذهبتم إلى منزلكم فاعتمت هذه الفرصة لا يصال حنة ، التي سرها ما رأته فيه من الشهامة الى منزلها ، وانك لا تعرفين هذا الرجل إلا بالنظر ، أما أنا فقد عرفته بالخبر ، فهو أهل لكل شيء ، فلما رأي ميل حنة اليه انتحل اسمي فتسمى بارمان دي كركاز ، وأعطى اسمه لرجل كهل استأجر مبنياً باسم بستيان بجوار منزل حنة ، فتعرف هذا الرجل بها وأخبرها انه كان له سابق صداقة مع أبيها ، فلما وثقت به أخذ يخبرها عن ميل الكونت دي كركاز اليها ويحدثها بشهادته ومكارمه ، ثم زارها ذلك الخائن المتلبس باسمي وأظهر لها ما يؤيد كلام شريكه المنتحل اسمه فأحبته عندما تأكد لها أن حبه شريف وان ما وراءه إلا الاقتران

فاضطربت سرين وقالت باشمزاز : ذلك محال فان مثل حنة دي بالدري لا يمكن أن تحب خادماً .

- وأنها كانت تحسبه الكونت أرمان ، وهو حسن الظواهر ، فخذعت به وقد أطلعت على هذا السر الغريب اتفاقاً ، لأن خادمي هذا كان يفتخر أمام رجالي بأن حنة دي بالدري تحبه . وإذا كنت أحبها حباً شريفاً طاهراً ، كمن يحب الفتاة التي سيتزوجها ورأيت انها قد تدلعت في حب ذلك الخائن الذي كان يتلبس باسمي فقد أسقيتها مرقداً وجئت بها في الليل إلى هذا القصر بعد أن كتبت لها كتاباً بغير توقيع .

فصرخت سرين بفرح : أهى هنا الآن ؟

- أجل وسترينها ، فهلم معي اليها .

ثم أخذ بيدها وخرجها من الغرفة سوية ، وفيما همسا في طريق الروضة صادف مدام فيبار ، فنظر اليها شذراً وقال لها بقساوة : إن زوجك كان رجلاً صادق الخدمة ، وإني أراك على عكس ذلك فاني عهدت اليك الاعتناء بهذه الفتاة فأوسعتها شتماً وسباباً ، وعاملتها أسوأ معاملة ، لذلك أكتفي بطردك .

وفيما هو يقول ذلك أشار اليها بطرف خفي ففهمت مراده ، وانصرفت وهي تتكلف هيئة الكدر .

ولما وصلا الى غرفة حنة قال لسريز : إصفي إلي جيداً ، فان حنة لا تزال نائمة ولا تستيقظ إلا عند الساعة العاشرة ، عندما أكون سافرت لأني مضطر الى التغيب ثمانية أيام في قضاء بعض الشؤون المهمة ، وإنك ستقيمين معها إلى أن أعود بحيث تكونين بمأمن من اختك الخائنة ، ومن مطاردة بيرابو اللذين سينالان من العقاب ما يكونان فيه قدوة لسواهما ، وإني سأكتب لها كل يوم وستقعين على رسائلي اليها ، فلا تظهرين لها سوى ان الذي يحبها الحب الأكبر هو الكونت أرمان دي كركاز ، وليس ذلك الخائن بستان ، وإني أرجو ان يكون لرسائلي تأثير عليها ، فتمحو من قلبها حب ذلك السافل .

فنظرت اليه سريز متعجبة وقالت : كيف لا تلتسى حبه بعد أن تعلم بدناءته ولا يقتضي لأن تهواك إلا أن تراك .

— إذا أردت على أمل اللقاء القريب ، فاني مضطر الى السفر ولا يوافق أن تراني الان .

— قل لي بالله متى أرى ليون ؟

— لا أقدر أن أفيدك بالتدقيق ، ولكن ثقي بي واصبري قليلاً واني اقسم لك انك ستزفين اليه بعد خمسة عشر يوماً .

ثم تركها وقلبها مغمم بالأمل ، وانصرف فلقي كولار بانتظاره فقال له :

لقد تم كل شيء وفق المراد ، فاني لم أسرق امرأة أرمان فقط ، بل قد سرقت اسمه ايضاً ، والان فلننظر في شأن الملايين ، إذ قد شفيت نفسي من الانتقام .
- هذه النقطة المهمة .

- وانا من رأيك . والان فاني مسافر الى بريطانيا لأقترن بهرمين ...

وهكذا ، فان اندريا قد انتصر بجميع أعماله : فانه سجن فرناند ، واستولى على حنة وسريز ، ووضع باكارا في مستشفى المجانين . بحيث لم يعد في وسع الكونت أرمان دي كركاز أن يجد الوارث للملايين البارون كرماروت .

- ٢٥ -

قلق ليون

مريوم على اختطاف سريز ، التي كانت تمر كل مساء بالمعمل الذي يشتغل فيها خطيبها ، وكان ليون ينتظرها في الباب الخارجي في وقت معين وقد انتظرها ذلك اليوم حسب العادة ، فلم تمر به ، فقلق وظن انها مريضة أو أصيبت بسوء . فصبر بملء الجزع إلى ان أقفل المعمل وانطلق مسرعاً الى منزلها فقرع الباب فلم يجبه أحد ، فظن انها ذهبت الى الشارع في بعض الشؤون فلبث منتظراً الى ان تعود وقد طال انتظاره حتى عسل صبره ، فنزل إلى البواب وسأله عن سريز فقال له : إنها ذهبت أمس مساء ولم تعد الى الان .

- كيف ذلك وهل ذهبت وحدها ؟

— كلا ، بل قد ذهبت مع فاني ، خادمة باكارا . وأظن ان أمها او أختها أصيبت بمكروه ، بدليل ما رأيت على وجهها عند خروجها ، من ملامح القلق .

فارتاع ليون لذكر باكارا ، إذ كان يخشي دائماً منها ، ولم يكذب يلهي كلام البواب حتى تركه وذهب مهرولاً الى شارع مونسي حيث ميرل باكارا ، فوجد الأبواب والنوافذ مقفلة فقرع الباب قرعاً شديداً فلم يجبه أحد . وكان في زاوية الطريق حمال وقد اعتاد خدمة المنزل ، فلما رأى ليون يقرع الباب ذلك القرع الشديد تقدم منه وقال له : لا يوجد أحد في المنزل فإن صاحبه قد سافرت في هذا الصباح .

— ذلك مستحيل ألا تعلم أين ذهبت ؟
-- كلا .

فاختلج فؤاد ليون وتأكد له ان باكارا قد اختطفت سرين ، فترك ذلك المكان وهو يكاد يحن من اليأس . وذهب الى أمه آملاً أنها تقيده شيئاً عن سرين فألقاها لا تعلم شيئاً . فذهب الى صاحب المعمل الذي كان يشتغل فيه وهو يرجو أن ينفعه شيئاً برأى سديد . وكان صاحب هذا المعمل رجلاً عاقلاً محباً لليون ، فسكن جأشه وطيب قلبه وقال ان خطيبته قد ذهبت ولا ريب مع أختها ، ووعدته أن يذهب معه غداً الى دائرة البوليس فيعرضون الشكوى فذهب ليون الى منزله ونام تلك الليلة على أحر من الجمر ، فلم يغمض له جفن . وعندما طلع الصباح ذهب الى منزل سرين فقبل له إنها لم تعد ، فتوجه الى منزل باكارا فوجد الأبواب مقفلة ، فذهب إلى صاحب المعمل وانطلقا سوياً الى دائرة البوليس ، فأخبرا الرئيس بما علماه عن اختفاء سرين ، فقال لهما : إن البنات التي تخطف في باريس يكونن اختطافهن في الأغلب الأعم عن طوعهن ومع ذلك فسأنظر في هذا الشأن فأرجعا إلي بعد يومين

وكان هذان اليو ان لدى ليون أشبه بهامين ، فخرج من عند الرئيس وقلبه

مفعم من اليأس ، فارتأى أن يذهب الى منزل حنة عساه أن يعلم منها ما يوقفه على سر اختطافها . فذهب ولما وصل لم ير غير جرتريدة جالسة في المنزل وهي تنوح وتبكي البكاء الأليم ، فعلم منها أن حنة قد اختطفت وانها قد تركت رسالة هذا نصها

« حبيبتي جرتريدة

» إنك ستستيقظين فلا تجديني لأنني قد سافرت إلى مكان لا أستطيع أن أخبرك عنه ولأجل ذلك لا أقدر أن أسميه أما السبب في هذا السفر المفجائي فهو أنني أريد الهرب من الكونت ارمان دي كركاز الذي لا أحبه لألحق بالرجل الذي هامت به روحي والذي لا أقدر أيضاً أن أسميه ، فاطمني أيتها الحبيبة وربما نلتقي بعد حين . »

فقص عليها ليون خبر اختطاف سريز ، وفيما هما يتحادثان سمعا وقع أقدام على السلم فأطلت جرتريدة بحيث رأت القادم هذا الكونت ارمان دي كركاز ، فنظره ليون وقال بمنتهى العجب هذا الذي رأيناه في بلفيل وأنقذنا من اللصوص

وكان القادم الكونت ارمان بعينه يصحبه بستيان ، فلأنه بعدما سمع من أندريا ذلك التحذير على أثر المباراة اشتد قلقه على حنة ولم يهدأ له بال . فأسرع مع بستيان الى زيارتها وهو يقول : إن قلبي يحدثني بمصاب جمل .
وعندما وصل الى ذلك المنزل وجد جرتريدة تشفق وتلتحب فعلم بوقوع المصاب وأعطاه ليون رسالة حنة فلم يتم قراءتها حتى سقط على المقعد واهي القوى وهو يقول إن ذلك صنع اندريا . وهو الذي رأيناه .

رسالة بيراو

ولنعد الآن الى بيراو وهرمين اللذين تركناهما على ما عهد القراء فيهما من التأثر من الكتاب الذي كتبته باكارا الى فرناند .

وقد أفضى اليأس بهرمين الى أن قالت لأمها على أثر هذه الحادثة

— أماء إني أحب أن أدخل الدير ولا أريد الزواج .

— إنك تدخلين الى الدير وتتركيني وحدي ؟

وكان صوت تريزا يتهدج من الحنان بما أثر تأثيراً شديداً بهرمين فقالت :
كلا يا أماء ، بل أبقي بقربك ما دمت حية ، وما دفعني الى هذا القول غير اشتداد الأحزان .

ثم أكتبت على عنق أمها تمانقها وتبكي البكاء الشديد

طال هذا البكاء زمناً طويلاً الى ان سكن جأش هرمين فقالت لأمها :
إني لا أستطيع ان أمكث ساعة في باريس . فهل لك ان نذهب لزيارة عمي مدام كرمارك .

فقبلت أمها هذا الاقتراح بفرح لا يوصف لأنها كانت ترجو ان يخفف السفر أحزانها فأجابتها بالقبول .

وعند منتصف الليل عاد بيراو الى المنزل ، فأخبرته امرأته باقتراح هرمين بوجوب السفر الذي يمهّد للعشاق سبل السلوان فصادق هو أيضاً على هذا الطلب ليس حباً بشقاء هرمين بل لرغبته ان يكون حراً في غيابهما عن باريس فيمرح كما يشاء . وهكذا فلنهما عند الصباح سافرتا الى بريطانيا ولما وصلتا اليها قابلتهما مدام كرمارك بمزيد التودد والاحتراف

وكانت مدام كرمارك امرأة عجوزاً عائشة مع زوجها في قصر واسع تكتنفه

الأشجار وتحيط به الغابات والحقول وكان مولعاً بالصيد بحيث كانت تقضي جميع ساعات نهارها بعزلة فلا ترى أمامها غير الخدم لذلك أنست بلباقها وتمزت برؤياهما مما كانت تلتقاه من ضجر الوحدة والانفراد .

وبعد يومين من ذلك استأذن بيرابو من الوزارة لاحقاً بهما ، حسبما كان الاتفاق بينه وبين اندريا . وكانت جودة الهواء وما كانت تلتقاه هرمين في تلك البرية من جمال الطبيعة قد لطف أحزانها ، فلم تسكب دموعه بل كانت تبتسم بعض الأحيان إذا سمعت نكتة مضحكة ، وربما كان ذلك منها من قبيل التصنع لإرضاء لأمها التي كانت تذوب لهفاً على ما أصابها والتي كانت تحشى عليها في كل حين أن يفعل الحزن في جسمها النحيل ما تفعل ربح الشتاء بأوراق الشجر . .

ولم تكن هي ولا أمها تلتظران بيرابو ، فاندعشتا جداً لرؤياه . أما هو فإنه عانقهما عند وصوله بغاية الحنان ، وأظهر لهما من التودد ما لم تكونا تعهدانه فيه ، وفي يوم وصوله أخذ بيد امرأته بعد أن قاما عن المائدة ، وخللا بها فقال :

— إصفي لي فإني لا أجهل أنك تسيئين بي الظنون ، وليس لك بي ثقة المرأة بزوجها . ولكني أتيت لأباحثك في شأن هرمين التي أحبها كما تحبينها أنت . . إني كنت أعلم من قبل فساد أخلاق فرناند الذي رمانا بهذه النكبة ولذلك كنت أرفض مصاهرته ، ولم أقبل به زوجاً لهرمين إلا لما رأيته من رغبتك ، وحذراً من أن أسوءك بهذا الرفض فإن هذا الرجل التعس لم يرتكب فقط ما تعلمينه من خيانة لهرمين ، بل إنه قد ارتكب ذنباً من أعظم الذنوب . أتعلمين ما كان مراده من زواج هرمين ؟ إنه لم يتزوج بها إلا لينفق مهرها على خليلته التي أوصلت به إلى هذا الشقاء .

وكانت والدته هرمين لا تزال تحب فرناند فقالت لزوجها بالله كفى ولا تحكم على هذا الشاب بمثل هذه القسوة .

- إنك لا تعرفين شيئاً بعد
فقلت وهي تضطرب وما عسى ان يكون قد طرأ أيضاً ؟
- إن فرناند في السجن .

ثم قص عليها جميع ما حصل لفرناند من اتهامه بالسرقة ومن القبض عليه في منزل باكارا ووجود الدراهم المسروقة عندها ولما انتهى من هذه الحكاية قال :
- وستنشره الصحف بعد صدور الحكم ، ولأجل هذا قد حضرت اليوم كي أطلعك على هذا النبأ فأني أخشى ان تقف هرمين على جرم خطيبتها بأحدى الصحف فتصاب بما لا ينجع فيه دواء . والآن لم يبق علينا سوى ان نطرد هذه الأفكار من مخيلة هرمين ، فإن المسهار يدفع المسهار والحب الجديد يدفع الحب القديم

فقلت تريزا والدموع تنهل من عينيها لما سمعته عن فرناند : ماذا تعني بالذي قلته ؟

- أتذكرين حفلة الرقص الأخيرة التي حضرناها في وزارة الخارجية ؟

- نعم وماذا تريد بهذا السؤال ؟

- أتذكرين أيضاً الشاب الانكليزي الذي عرفك به سفير انكلترا والذي

رقص مع هرمين ؟

- نعم اني أذكره وانه يدعى السير فيليام .

- نعم هو ذاك . فاعلمي الآن ان هذا الشاب شريف الحسب حسن الأدب

وافر الثروة وقد علق بحب هرمين حين رآها في تلك الحفلة . وقد زارني مرتين بعد السفر كما . .

فقاطعت تريزا وقالت : إن هرمين متى أحبت رجلاً فلا تحب سواه .

- ولكنها متى علمت ان ذلك الذي تحبه قد خدعها وخانها بدناءة ثم متى

علمت انه لص فلا يبقى في قلبها أثر من حبه . فإذا رأت شاباً شريفاً جميلاً ، قد اجتمعت جميع الصفات الحسنة فيه يحبها ، فلا يبعد أن

تبادلته هذا .

- إنك قلت ان هذا الشاب يحب هرمين .

- إنه يحبها كثيراً

- كيف يمكن أن يحبها وهو لم يجتمع بها إلا مرة واحدة .

- إن روميو أحب جوليت وهو لم ينظرها إلا نظرة واحدة .

-- شهد الله اني إذا لقيت رجلاً يقدر ان يرد الى ابنتي قلبها المسلوب أنطرح على قدميه وأقول له « رحماك أنقذ ابنتي مما هي فيه » .

- وإذ ذلك الرجل هو السير فيليام .

- إذن يجب أن نعود إلى باريس .

- لا حاجة الى ذلك ، بل هو يأتي الى هنا . وإني سأكون من أسعد البشر إذا يسر الله هذا الزواج ، فإن الرجل عريق النسب وثروته تقدر بالملايين ولا أقرب من ان تحبه هرمين مق حصلت بينهما العشرة لما هو عليه من الذكاء وطيب الحديث ووفرة الآداب وما شاكل من كل ما تتوق اليه نفوس الأديبات .

وما زال بها حتى أقنعها واتفقا على اتخاذ الوسائل اللازمة لتحببه إلى هرمين ثم افترقا فدخل بيرابو إلى مخدعه وكتب الى أندريا ما يأتي :

« أيها الصهر العزيز

« لم أزل بامرأتي حتى أقنعتها وأصبحت آلة بيدنا نديرها كيف نشاء ولم يبق عليك سوى أن تسرع بالحضور وان تكتب لي قبل سفرك » .

وقد وصلت هذه الرسالة الى اندريا بعد خروجه من عند سرير فخلا بكولار وقال له : إني مسافر الآن لأهتم بالملايين وسأدعك أمام عدو هائل يجب ان تخافه

- الملك تريد به أرمان دي كركاز .

- هو ذاك .

- طب نفساً فسأراقبه .
- إن فرناند بالسجن ولا يمكن ان يخرج منه فيجب ان نحرس الحرس الشديد على سريز وحنة .
- لا تخشى من هذا القبيل .
- بقي علينا عدو أشد هولاً من الجميع وهو ليون رولاند .
- أتريد أن يموت ؟
- هذا ما أرتنيه أيسطيع نيقولا أن يقتله ؟
- لا ريب فيه ولكن كيف يقتله وفي أي مكان ؟
- إنك لا تزال أبله ضعيف الرأي ، أيصعب عليك ان تدعه يذهب خارج باريس بإحدى الطرق ؟
- لقد خطر لي فكر وهو ان ليون يعتقد اني صديق له وسأذهب به في الليل الى بوجيفال بدعوى اني علمت ان سريز مختبئة هناك ويكون نيقولا مترقباً حضورنا فنقضى عليه .
- هذا فكر حسن ، ولكن لا تفعل شيئاً قبل أن أكتب لك .
- ثم القى اليه بعض أوامره وودعه وسافر الى بريطانيا .

- ٢٧ -

جروح المركبة

وكانت قد استحكمت العلائق بين مدام كرمارك وضيوفها ، فبينما كانوا يوماً جلوساً على المائدة وذلك بعد وصول بيرابو بيومين دخل مأمور البريد وقدم الى بيرابو رسالة ففحصها وقرأ ما يأتي :

« سأسافر بعد ساعة حيث انتظرك في سذت مالو التي تبعد خمس عشرة
مرحلة عن القرية التي أنتم فيها ، فأسرع إلي عندما تقف على هذه الرسالة
لأنني بانتظارك »

فنهض بربابو وقال : لقد جاءني رسول من قبل الوزارة وهو ينتظرنني في
سانت مالو فيجب علي ان أسرع في المسير اليه .

ثم انحنى على كتف امرأته وقال لها سرأ : إنني ذاهب لألاقي السير فيليام ،
وسأعود عند الغروب فاذهبي مع هرمين لملاقاتي .

فأمرت مدام كرمارك ان تهيمء له المركبة ، فركب فيها وسار ينهب
الأرض نهبا حتى وصل الى سذت مالو وكان أندريا قد سبقه اليها منذ ربع ساعة
فاجتمعا وقال له أندريا : كيف مسير أعمالنا ؟

- على أنتم النجاح فإن امرأتني أصبحت تميل اليك أشد الميل ؟
- حسنا فكيف عذمت على أن تعرفني بأهل المنزل الذي أنت فيه ؟

- إن البارون دي مادي هو صديقك وهو ابن أخت مدام كرمارك ،
ومنزله يجوار منزلها ، وستدخل القرية عندما يجن الظلام فتسأله الضيافة ،
وعلي تتميم الأمر . أما الآن فان طريقنا الى المنزل وعرة المسالك .
أعرف ذلك .

وبالحقيقة فان أندريا يعرف تلك الطرق أتم المعرفة لأنه كان يسكن على
عهد أبيه فيليبون في قصر كارلوفان ، كما يعلمه القراء وهذا القصر واقع في
البراري نفسها .

- عجباً ! كيف تعرف هذه الطرق ؟

- إنني أعرفها أكثر منك .

- إذن تذهب الى مغارة الذهب وتجلس على تلك القمة العالية المشرفة على
الأوقيانوس حتى إذا مرت إمرأتني وابنتها تجدانك جالسا في ذلك الحلاء مستغرقا
في تأملاتك الحزنة .

--- حسناً . ولكن لدي طريقة تفضل ، ذلك اني أنقذك على مرآها من
 خطر عظيم .
 --- تنقذني أنا ؟
 --- نعم ، فاصغى إلي
 ثم اتفق وإياه على ما سيقف عليه القراء في حينه .

وافترقا فذهب بيراو على مركبته لملاقاة امرأته وابنته وذهب اندريا على
 جواده من طريق آخر الى القمة السكائنة أمام مغارة الذهب .
 ولم يكن أشد خطراً من تلك الطريق التي سار فيها بيراو على المركبة ،
 فانها كانت ضيقة لا يزيد عرضها على ثلاثة أمتار وهي شديدة الارتفاع يحيط
 بها من الجهة اليمنى وديان عميقة كثيرة الصخور ومن الجهة اليسرى البحر
 الأوقيانوس وهي كثيرة الشعاب بحيث ان أشد الخطر فيها كان على المركبات
 التي إذا جمحت بها الجياد تسقط بها إما الى ما وراء البحر وإما الى الوديان
 ومع ذلك ، فقد كان المنتزه العام لأهالي تلك القرى ، لكثرة ما يكتنفها
 من جمال الطبيعة ، ولا سيما في شهر نيسان ، التي تساق هذه الحادثة
 في غضون .

وبينما كانت هرمين وأمها سائرين الهويناء في تلك الطريق للملاقاة بيراو إذ
 رأتا جواداً كريماً يرعى الكلأ ، فدنتا منه فأبصرتا عليه سرجاً مزركشاً
 بالخيوط الذهبية على غاية من الدقة في الصناعة ، بما يدل على ان صاحبه من
 أولي اليسار . ثم حومتا بنظرهما لتبحثا عن صاحب هذا الجواد ، فرأتا على
 على قمة عالية رجلاً فاخر اللباس جالساً على صخر مرتفع وهو واضع رأسه بين
 يديه ينظر الى الأرض نظراً ساهياً وهو غارق في بحار تصوراته ، فاختلفت فؤاد
 الأم وقالت في نفسها . لا ريب بأن هذا الفارس هو السير فيليام .

أما هرمين فإنها أنكرت وجود هذا الشاب على مثل هذه الحالة من العزلة
 التي تدل على منتهى الكآبة فقالت لأمها : ترى ما شأن هذا الرجل وما علة

انفراده في مثل هذا المكان
 - ربما كان مصوراً يمثل جمال هذه المناظر فيرتزق منها .
 - ذلك محال فان مصوراً يرتزق من عمل يديه لا يكون له مثل هذا الجواد
 وفوق ذلك اني لا أرى أمامه معدات التصوير
 - إذا فهو سائح وقد استوقفته هذه المناظر البهجة .
 لا هذا ولا ذاك يا أماء ، بل هو رجل منكود وقد التجأ إلى هذه البراري
 لترويح النفس وللتأمل بمعظمة الله .

فارتعشت أمها في البدء ثم اختلج فؤادها بعاطفة سرور وأمل لأنها رأت
 ان هرمين قد نسيت مصابها فاشتغلت عنه بمصائب الغير وقالت في نفسها : إذ
 كان هذا هو السير فيليام فان مقابلة واحدة تكون كافية في مثل هذا المكان
 ولا شيء يؤلف بين القلوب مثل الأحزان .
 وقد عازمت أن تجعله أمام ابنتها مثلاً للفضيلة كي يروق بعينيها

وكانت الشمس قد ابتدأت تصفر مؤذنة بالمغيب وهي تلقي بأشعتها الباردة
 على ذلك العباب فترقص أشعتها الذهبية على أمواجه الزاخرة وتدبج الحقول
 الخضراء بأبهج الألوان . فنهض ذلك الشاب واتشح برداء طويل ثم ذهب
 إلى جواده فامتطاه وسار به إلى جهة سان مالو . ولم تستطع هرمين ان تتبين
 وجهه ، ولكنها قدرت أن تعلم انه في شرح الشباب ، وظهر لها من مشيته
 وسهيانه انه منقبض الصدر شديد الحزن . وما زالت تشيعه بالمطر إلى ان عاب
 في أعماق الوادي .

وكانت قد اتفقت مع أمها للملافة بيراو فأوجست خيفة لطول غيابه إلى
 أن رأت عن بعد نقطة سوداء كانت تدنو منها وتوسع حتى تمثلت بهيئة مركبة
 فملحت انها مركبة أبيها . . ثم سمعت صوت استغاثة من تلك المركبة عقبه
 صوت بارود ارتج له الوادي . فنظرت فإذا بالمركبة قد وقفت فأيقنت انها في
 خطر ، وكانتا واثقتين من انها تحمل بيراو . فجعلتا تركضان إلى ان بلغتا اليها

فإذا بالجواد قد سقط ميتاً وبيراو خارج المركبة يصافح السير فيليام ويشكره الشكر الجزيل . ولما رأهما تقدم منهما وقال : اني مديون لهذا النبيل بالحياة فإن جواد المركبة قد جمح ولولم يطلق عليه الرصاص لكانت سقطت المركبة بي الى الوادي ..

وبينما كان بيراو يقص على تريزا وهرمين ما كان من الجواد كان اندريا مطرقاً بنظره إلى الأرض ، الى ان انتهى من حديثه فرفع عينيه ونظر إلى هرمين وصاح صيحة كآبة واندهال ثم انحنى عليها مسلماً ووثب مسرعاً إلى جواده فسار به يقطع الأرض نهياً .

فأخذوا ينظرون إلى بعضهم وكلهم يقول: من هذا الرجل الغريب الاطوار؟
تم قال بيراو : يخال لي أني نظرت هذا الشاب قبل الآن .
قالت تريز : وأنا كذلك ولكنني لا أذكر أين .

قالت هرمين : وأنا أيضاً نظرت قبل ذلك وقد عرفتة فهو السير فيليام الذي عرفنا به سفير انسكاترا في حفلة الرقص التي أحييتها الوزارة الخارجية واذكر اني رقصت معه أيضاً .

فقال بيراو : إذن ما الذي دعاه إلى هذا السلوك الغريب ولماذا غادرنا بهذه السرعة ؟

فقالت هرمين وقد أثر عليها ما رأت عليه من الكتابة : انه عندما نظر الينا تنهد تنهداً طويلاً عميقاً ثم صاح صيحة أسف وقد كان قبل جالساً على هذا الصخر ، سامي الطرف مشتت البال لا يعباً يجهل هذه البراري ولا يكثر بتلك الأمواج التي قد ذهبته أشعة الشمس مما يدل على انه بلغ أقصى درجات الكتابة .

فقال بيراو : ذاك يدل على انه عاشق منكود .

فتنهدت هرمين وقالت : مسكين هذا الشاب .

وحول بيراو الحديث إلى غيره وقال : ان الجواد قد قتل فكيف نرجع

الى المنزل

... اننا نذهب على الأقدام فلاني أعرف طريقاً قريبة .

ثم تأبطت ذراع أمها ومشت معها مشياً سريعاً كأنها تريد ان تدرك الشاب الذي حمل فؤادها على الشفقة عليه ، ولا سيما بعدما رآته نظرت اليها فاصفر وجهه وتنهد ، وكانت تبصر بنظرها في جميع الجهات آملّة أن ترى ذاك المنكود الذي ماثلها في اليأس ورأت انه يكابد من الأشجان نفس ما تكابد .

أما أندريا فإنه ما زال يسير الى أن وصل إلى منزل كرمارك وقد كان قد جن الظلام فأوقف جواده أمام للباب وقال لأحد الخدم : قل لسيد هذا المنزل ان غريباً قائماً يسأله الضيافة

فهرول الخادم مسرعاً إلى مدام كرمارك ووصف لها هيئة أندريا وملابسه ثم قال لها : انه قائم يسأل الضيافة .

... أسرع بادخاله فإن هذا المنزل معد للضيوف منذ تشييد .

فذهب وعاد به والنحن أمامها مسلماً وقال أسألك يا سيدتي الصفح والممذرة فلاني تهت في هذه البرية وقد أظلم الليل فلم أعلم أين أنا .

فأشارت اليه بالجلوس وقالت : إن قصري معد منذ أعوام لقبول الغرباء والتائهين ولكل من يلتجئ اليه

فقبل يدها باحترام ثم عاد فقال انني ذاهب يا سيدتي إلى قرية مانوار لزيارة صديق يدعى البارون دي مادي وقد ضلت الطريق

فظهرت على وجهها علائم البشاشة وقالت أنت صديق البارون دي مادي انه ابن اخي وأنت الآن في منزلك .

— لم أكن أعلم ذلك من قبل وإنني اشكرك في كل حال وأرجو ان تسمح لي ان أقسمي لديك ، فلاني ايرلندي الأصل وأدعى السير فيليام .

فانحنى بدورها .

فقال أندريا بلهجة محزنة : انني أضرب الأرض وأطوف الليل والنهار
جائلاً دون غاية ومن غير قصد

— عجباً كيف تجول من غير قصد ؟

- وأأسفاه نعم يا سيدتي لأنني اخترق الهضاب والبطاح وأجوب الفلوات ،
وأجول في البلاد كقائد لا يقبل العزاء ، أو كمجرم يفر من القضاة وما أنا
بمجرم ، بل أنا قائد لأني محب غير محبوب ولا يمكن أن أحب . وقد كنت
منذ ساعتين قائماً في هذه البراري ليس لي وجهة غير منزل صديقي البارون وأنا
أظنني بعيداً عن أحبته نفسي وهامت بها روعي ولكنني عدت فوجدت تلك
الضالة المنشودة فلم تكن رؤياها إلا ليهيج مكاناً أشجاني .

— كيف رأيت التي تحبها في هذه القرية ؟

— نعم وعندما رأيته هربت منها فلكنزت بطن الجواد وأنا لا أعلم أين
أسير ولا أصغي لصوت قلبي المنكود فسار بي الجواد يسابق الرياح إلى أن
جن الظلام ، وسلك سواء السبيل ثم وقف ذلك الجواد الكريم أمام هذا
المنزل الكريم فدلني بأنه أعقل مني وأنا لا أعلم إذا كنت بعيداً عن قرية
صديقي البارون ، أو قريباً منها فالتجأت إلى هذا المنزل إلى أن أهتدي إلى
وجهتي ، وأنا أسألك صفحاً والتمس منك عفواً .

— كفى يا سيدي تعتذر فأنني أشكر العناية التي اضلتك الطريق وارسلت
إلي هذا الضيف النبيل

فانحنى أندريا وقبل يدها ثانية باحترام ثم دار بينهما الحديث الآتي :

قالت : ألا تبالي في حديث غرامك ؟

— كلا يا سيدتي فإن حيي لا أصفه إذ لست أنصفه ، ولا أعده إذ لست
أحده ، وليس هو حب بل هو جنون بل هو داء قاتل لا يعمل فيه دواء ولا
تنفذ فيه حيل الأطباء .

— ولكن لا يمكن لتلك المرأة أن تحبك ؟

- .. ليس لي ذرة من الأمل ..
- إذن هي من غير قلب .
- إنها من أشد النامر شعوراً واعظمتهم تأثيراً وقد اجتمعت بها كل الصفات التي تجعل المرأة تعبد عبادة لا تحب حباً .
- فتبسمت تبسماً خفيفاً ثم قالت : أهى متزوجة ؟
- كلا فهى عذراء .
- إذا أنت متزوج
- كلا يا سيدتي فاني لا أزال عازباً ولي من العمر ثمانية وعشرون عاماً ومن المال ما يقدر بالملايين .
- وما يمنعك عن الاقتراح بها ؟
- فأجابها بصوت نفذ إلى اعماق قلبها : انها تحب سواي .
- ان حديثك بمنتهى الغرابة فلاني منذ اربعين عاماً في هذه القرية وليس بها الا من العذارى غير فتاتين إحداهما السيدة ب . والثانية السيدة ر ..
- ولا بد ان تكون احدهما التي صادفتها بهذه الضواحي .
- كلا يا سيدتي فلاني لا أعرف هاتين الصبيتين .
- إذا .. اين لقيتها وهل كانت في مركبة ام كانت تسير على قدميها ؟
- كانت تمشي ..
- أكانت وحدها ؟
- كلا بل كانت مع امها تسيران في طريق سانت مالو .
- الهى ماذا اسمع اليست تدعى بهرمين ؟
- فوضع يده على قلبه وتنهّد طويلاً ثم قال : أواه نعم هي بعينها .
- انها نسيبة لي وهي ابنة بيرابو رئيس قلم في الوزارة الخارجية .
- فتنهّد ثانية وقال نعم .
- اني اعجب يا سيدي كيف ان مثل هرمين تبلغ من فساد الذوق الى ان

لا تحب مثلك وترغب عنك بسواك .
 - إنها تحب شاباً لا يستحق حبها فهو غير أهل لها .
 - كيف ذلك ومن هو هذا الشاب ؟ انني اريد ان ادقق البحث في هذا
 الشأن وهي آتية فسنرى .

فصاح اندريا صبيحة افدهاش وقال : اهي آتية الى هنا ؟
 - لا ريب في ذلك فإننا ننتظرها للعشاء .
 فتمض مسرعاً وقال : استودعك الله يا سيدتي فاني لا اطيع النظر اليها
 وليس بوسعي ان اقف امامها .

ثم خرج مسرعاً بغير ان يدع لها مجالاً لمنعه .
 وبعد ان مثل هذه الرواية المضحكة وسار الى منزل صديقه البارون دي
 مادي ووصل بيراو وهرمين واهما الى المنزل فوجدا مدام كرمارك على غير ما
 عهدوها من البشاشة فسألوهما عما أصابها فقالت . اني أعجب لأطوار
 الانكليز فإنهم كثيرون الشواذ في معاملاتهم .
 فأجابها بيراو : عن اي انكليزي تعنين ؟
 ألم تصادفوه في مسيركم ؟

- من ذلك ؟
 - السير فيليام .
 فقار بمزيد الاندهاش : كيف رأيته وانا أبحث عنه في كل مكان لأنني
 هاديون له بحياتي ؟
 - كيف ذلك ؟

فقص بيراو حديث المركبة وجموح الجواد .
 قالت : كل ذلك يدن علي انه من نبلاء القوم وقد جاء الى هنا منذ حين
 بحجة انه قائم عن الطريق ثم ذهب لأنه لم .. وكادت تظهر السبب في رحيله
 ثم رأت ان ذلك لا يوافق قصة أمام هرمين فأرادت إبعادها بحيلة فقالت لها :

ارجوك ان تذهبي الى المطبخ وتحشي الطاهي على تهيء الطعام فذهبت هرمين ولما خلا بهم المكان قالت مدام كرمارك : اتعلم ان السير فيليام عاشق مفتون . فأشار بيرابو برأسه إشارة إيجاب قالت . اتعلم ذلك ؟
- نعم انه قد توله بحب هرمين وقد خطبها من شهر .

- ارفضت طلبه ؟

- لم ارفضه الا لأن هرمين كانت مخطوبة وهي على اهبة الزواج .
ثم قص عليها حديث فرناند روشي وكيم ارتكب ذلك الاثم الذي زج بسببه في السجن وهتك حرمة بما دعى إلى حل هذا العقد بينهما .
فارناعت مدام كرمارك وقالت : عجباً كيف ان هرمين تحب مثل هذا السافل ؟

فأجابتها تريزا : انها تحبه حباً ليس فوقه حب .

... يجب نزع هذا الحب من قلبها فهو يشينها ويجب ان تحب السير فيليام من غير بد فهو من نبلاء القوم ، شريف الحسب رافر الأدب واسع الثروة حسن السمعة ولا اجد لها عذراً في رفض حبه فيجب ان تتفق جميعاً على اقناعها إذا لازمت الاصرار على هذا الغي وسأضرع بتمهيد هذا السبيل منذ الان إذ ينبغي قبل كل شيء ان يحصل التعارف بينهما ثم دعت بخادمها وقالت له : اعطني ادوات الكتابة فألقها بها فكتبت إلى البارون ما يأتي :

« يا ابن اخي العزيز ..

« انه قد زارني منذ خمسة ايام نسيبي بيرابو مع امرأته وابنته التي لها ولع بالصيد وشغف بركوب الخيل وانا اعلم ان عندك السير فيليام فإذا رأيت ان تحضره معك في الغد فمذهب سوية الى الصيد واكون لك من الشاكرين »

وأعطت الكتاب الى خادمها وقالت له : سر الى ابن اخي وارجع الي حالاً بالجواب .



بينما كان السير فيليام مجدداً في الاستيلاء على قلب هرمين كان ارمان يبحث مع ليون وبستييان عن حنة وسرين وقد فرق رجاله الخفيين في جميع أنحاء باريس فلم يقفوا لهما على أثر .. وكان ارمان شديد الحزن لبعده حنة ، وكان يبكي لفراقها البكاء المر . وفي اليوم الرابع من اختطافها كان جالسا في منزله وهو مشتبك البال ضائع الرشد ، فدخل عليه ليون رولاند الذي أصابه من فقد سرين نفس ما اصاب أرمان وقال له يظهر يا سيدي الكونت أن الشقاء قد أحاط بجميع معارفي وأن لي صديقا طاهر الأخلاق أحبه كأخ وقد رزيه بمصائب .

-- من هو هذا الصديق وما أصابه ؟
فأعطاه ليون رسالة مفتوحة وقال له : إقرأ يا سيدي الكونت فقرأ أرمان ما يأتي :

« صديقي العزيز ليون
« انك الرجل الوحيد الذي أقدر أن اكتب اليه واسأله مساعدة وعزاء ، فلما كنت يوم آخر عهدي ببلقائك من أسعد البشر لقرب اقتراني بمن أحب وكنت محترما في عيون الناس ، أما اليوم أيها الصديق فاني مطرود من خدمتي متهم بالاختلاس منطرح في أعماق السجن ولا أعلم أين يقذفون بي بعد الحكم علي . فتعال أيها الصديق لأراك المرة الأخيرة فإن الشقاء سيقتلني وأظنني أموت قبل صدور الحكم ، محبك .

فرناند روشي »

فلما أتم أرمان قراءة الرسالة سأل ليون عن فرناند فقال له : انه مستخدم في الوزارة الخارجية وانه في السجن منذ أربعة أيام

بأي ذنب قد سجن

- لا أعلم ولكنني اقسم أن فرناند لا يمكن أن يحترم ذنبا يعاقب عليه بالسجن والطرود .

— أين منزله ؟

. هو ذلك المنزل المقابل لمنزل سريز .

— أكان له معرفة بمحنة ؟

. ربما فإنه كان يراها كثيراً مع سريز .

— إن كان ذلك فهو من الغرابة بمكان فإن أربعة أشخاص متعارفون قد احتجبوا تقريباً في وقت واحد بما يدل على ان يبدأ واحدة قد وضعت هذه الحوادث . ولكن لماذا ولأية غاية ومن هو الفاعل ، إن ذلك من الأسرار المغلفة التي يصعب حل رموزها فلنذهب إلى فرناند عسى ان نقف منه على شيء .

ثم ذهب الاثنان إلى السجن واستأذنا بزيارة فرناند فأذن لهما ، فلما شاهده ارمان حين اليه قلبه وهاجت به عواطف الشفقة لما رأى على ملامحه من اليأس والانفعال فقال له انك لم تري قبل ذلك ولا تعرفني ولكن سأهتم بشأنك وأخذ بناصرك لأسباب لا يمكن التصريح بها الآن ، ولأني أعتقد ببراءتك ، غير اني احب أن أعرف بالتدقيق بما يتهمونك وكيف انت هنا .

فقال فرناند انهم يتهمونني باختلاس ثلاثين ألف فرنك من صندوق الوزارة الذي كانت مفاتيحه معي . ثم قص عليه حكايته من حين ائتمنه بـسيرابو على المفاتيح ، وكيف أعطاه كولاتر الرسالة من هرمين إلى ان قبض عليه به بمنزل باكارا

ولما انتهى من حكايته نظر ارمان إلى ليون وقال لم يبق للدي ريب بأن اتهم هذا الشاب بالاختلاس واختطاف حنة وسريز صنع يد واحدة وقد صار يجب أن أرى باكارا .

فقال ليون وأأسفاه هي ايضاً قد احتجبت ولا يعلم أحد بمكانها .

فقال فرناند وأن الأغرب من ذلك وجود الحفظة في جيب سسترتي التي كانت معلقة في منزل باكارا وأنا لم أمسها على الاطلاق .

فقال ارمان ثقب أيها الشاب ان الحقيقة تتضح عن قريب وانه يهمني

حل هذا اللغز أكثر ما يهمك فاخبرني الآن عن خطيبتك هرمين أمي جميلة ؟
فأجابه فرناند ببساطة : لا أعلم ولكنني أحبها

- هل هي غنية ؟
- كلا ، وفوق ذلك فإن بيرابو لم يسمح بقراني بها إلا على شرط أن تجرد من مهرها الذي يصل اليها من امها وأن بيرابو ليس بأبيها .
- هل تزوجت امها مرتين ؟
- كلا .. ولكنها قد ارتكبت هفوة في صباها وان والد هرمين غير معروف .

فتذكر أرمان تلك الرسالة التي أتته من قبل وكان بها ان امرأة تدعى تريزا قد ارتكبت هفوة في مارلوت فولدت بنتاً ثم تزوجت برجل مستخدم في الوزارة في باريس فقال في نفسه : الا يمكن ان يكون هي تلك المرأة التي بحثت عنها منذ حين ، وقد علم من فرناند أن والدته هرمين تدعى تريزا ، فتأكد لديه أنها ابنة البارون كرماروت صاحب الملايين المؤتمن عليها ، وقال في نفسه ان هذه الحادثة ستكشف لي جميع هذه الأسرار

ثم ودع فرناند وقد وعده بأن يزوره في اليوم الثاني ولم يسذكر شيئاً من أمر ذلك الأثر الخفي الذي ستحصل عليه هرمين ، وذهب مع ليون إلى منزله فأخذ ذلك النوط الذي أعطاه إياه البارون كرماروت وهو على فراش الموت ليكون كعلامة يعرف بها صاحبة الأثر على ما تقدم في موضعه من سياق هذا الحديث كما يذكر القراء .

وقد عزم على أن يذهب إلى منزل بيرابو فيتحقق الأمر ، ثم عسدل عن ذلك بغية التآني وقال لليون : لا ريب عندي ببراءة فرناند وان الرجل الذي رماء بهذه التهمة يريد أن يتزوج بهرمين ، ولكن إذا صح ذلك ألم يقدر ذلك الرجل أن يفسخ بينهما عقد الخطبة بغير هذه الوساطة ، وبعد فكيف أن فرناند بعد ان اغمي عليه في الطريق وجسد في منزل باكارا التي هي اخت

سريز ، وكيف أن باكارا وسريز وحنة قد احتجبن تقريباً في يوم واحد ، أن ذلك يدل على أن فاعل هذه الفعلة لم يدفعه اليها الغرام وحده ، بل له بذلك مآرب أخرى ، وربما كانت مآربه عظيمة ، فإذا صح أن مدام بسيراو هي التي أبحث عنها من زمن طويل فستكون ثروة ابتتها ١٢ مليوناً قسداً ائتمني عليها البارون كرماروت ، ولا أحد غيري يعلم هذا السر ، أيمن لذلك الذي القى التهمة على فرناند بقصد إبعاده عن هرمين أن يكون عارفاً بهذا السر ، وكيف يتاح له معرفة ذلك ، وهب انه عرف بذلك الارث الخفي ، وان هرمين هي الوارثة فما السبب في اختطاف سريز واختها وحنة .

فقال ليون : أظن أن باكارا هي التي فعلت كل ذلك فإنها مشغوفة بفرناند - ذلك لا يمكن أن يكون فإنها إذا كانت تحبه فهي لا تريد له ضرراً ، وما أظنها إلا آلة قد أدارتها يد قوية ، ولا أحد سوى باكارا يقدر أن يفيدنا عن ذلك المحرم ، فيجب أن أراها من غير بد - هما تجشمت من المشاق . ثم أشرق ملياً فطرات على باله حنة وتذكر ابتسام السير فيليام السخري فطار فؤاده شعاعاً وقال ، كل ذلك من صنع أندريا . وللحال دعى بستيان وقال له : ألا تزال واثقاً ان السير فيليام هو غير أندريا ؟

- لا ريب عندي في ذلك فقد امتحنته بغاية التدقيق .
- ولكن قلبي يحدثني بأنه هو بعينه ، لا بأس من أن تنظره مرة ثانية ، فإنك مديون له بزيارة فاذهب الآن اليه على الفور واجعل حديثك معه على غاية التودد واجتهد أن تدعه يكثر من الحديث فقد رابطني لهجته التي يستشف منها المدقق أنها فرنسية محضة

فذهب بستيان ثم عاد بعد قليل وقال أنه غادر باريس وقد قال لي خادمه انه ذهب إلى إيرلندا وسيعود اليها بعد خمسة عشر يوماً .

فارتاع أرمان وخشي أن يكور هذا الذي اختطف حنة وسار بها إلى تلك

البلاد .

وكان قد أرسل ليون إلى منزل بيرابو فعماد أيضاً مسرعاً وقال : ان مدام
بيرابو قد سافرت مع ابنتها الى بريطانيا من يوم قبض على فرناند .
فضرب على جبهته بيده وقال اقسم أن كل ذلك من صنع اندريا . .
وفيما هو يتأمل إذ دخل خادم غرفته وقال له : يا مولاي ان امرأة على
الباب تقول انك تعرفها وهي تطلب ان تراك
--- لتدخل

فلما دخلت ورآها صاح صيحة اندهال وقال : هذه باكارا .

ولكي نظهر كيف أن باكارا قد جاءت إلى منزل أرمان وهي لا تعرفه أن
نعود إلى حيث تركناها مع الطبيب المتصنع تسير في المركبة إلى مونمارتر فنقول :
يذكر القراء انها كانت جالسة في المركبة بين خادمتها فاني وبين ذلك
الطبيب المتصنع ، وانها عندما حاولت ان تستغيث أشهر عليها الخنجر فارتفعت
وسكتت ، ثم أنها بعد حين همت أن تثب من المركبة فأمسكها بيديه وقال
لها . اختاري بين أن تكوني في مستشفى المجانين أو أن تكوني في السجن مع
المجرمين .

فأجفلت باكارا وقالت : أنا أزج في السجن وأي جرم ارتكبت ؟

— انك ارتكبت جرم السرقة فإن لك شركة في سرقة المحفظة المحتوية على
ثلاثين ألف فرنك التي سرقها عشيقك فرناند من الوزارة وقد قبض عليه في
منزلك . .

— إذن فمؤ بالحقيقة سارق ا

— لا أعلم إذا كان هو الذي سرق المحفظة أو إذا كان أحد أعدائه قد
وضعها في جيبه ، ولكن الذي أعلمه أن الشرطة قد القوا القبض عليه في

منزلك حيث وجدوا المحفظة في جيبه بما كان فيها من المال

- أوجد المال عندي ؟

- نعم . . في غرفتك الذاتية !

فانطرحت داخل المركبة واهية القوى وهي تقول : إلهي ماذا أسمع .
وعند ذلك وقفت المركبة ففتح بابها ودخل أندريا وقال لفاني : اصعدي
أنت واجلسي بجانب السائق ودعيني أجلس مكانك .
فامتثلت ، أما باكارا فإنها نظرت ابتسام أندريا السخري فقالت : لقد
عرفت من قبل أن ذلك من صنعك .

- هذا مما يثبت لي رجحان عقلك فلا تضيعني مني تلك الثقة فيك واعلمي
اني لا اريد بك ضرراً وربما اتخذتك خلية بعد حين فإنك وافرة اللطف بارعة
الجمال ، ولكنني أسعى وراء أمر خطير وأن حريتك تعرقل مساعي ، وربما
كانت عقبة في سبيلي فاضطرت إلى أسرك مكرهاً بضعة أيام من قبيل الحذر
والاحتياط وسترد اليك حريتك بعد ذلك وتموضين أضعاب ما خسرت .
- أنا لم أسيء اليك قط فلماذا تريد ان تسيء الي ؟

- ألم تفهمي بعد اني شديد الشغف بك وقد اضطرت إلى أن أحجبك عن
العيون حذراً عليك .

بما تحذر علي فاني لم أسرق المحفظة .

- ولكن السارق وجد عندك المحفظة وجدت في غرفتك .

- يا للخيانة انه برىء .

- ربما ، ولكن من صالحني أن يكون هو المحرم .

- أنا لا أرضى بذلك وسأظهر مكرك وخيانتك أمام الشرع .

- كيف تقدرين أن تثبتي براءته وقد وجدته الشرطية في منزلك وفي
جيبه المحفظة والمال ، فكأنك بذلك تقودين نفسك بيدك إلى السجن وتثبتين
انك شريكته في الجريمة ، ومع ذلك فاني أخيرك بين السجن وبين مستشفى

المجانين وعندي ، انه خير لك ان تلزمي السكون فلا مرد لما قضى به عليك ،
ولا يمر بك ثمانية أيام حتى تنفجر عندك الأزمة وتعودي إلى منزلك فلا يحنق
عليك البارون

- أنا كنت له أن ذلك زور وبيتان .

- ومع ذلك فقد ورد اليوم إلى البارون رسالة بخطك ويظهر أن كاتبها
قد أجاد تقليد الخط حتى لم يدع للبارون أقل شك فيها

فصاحت باكرا صيحة منكورة وعلمت انها أصبحت في قبضة هذا الرجل
يفعل بها ما يشاء .

وعند ذاك وقفت المركبة على باب المستشفى فقال لها : لقد تم الاتفاق بيننا
على ان تكوني هادئة وذلك خير لك على ما ابيهته .

- ولكن ماذا يجري بفرناند أيحكمون عليه ؟

- لا تخافي فان فرناند متهم بسرقة وهذا ما يدعو هرمن الى ترك حبسه
والاقتراح بي !

- ومتى اقترنت بك فماذا يكون ؟

- يكون انني ابرىء فرناند من تهمة .

فصاحت باكرا صيحة الفرح وقالت : بالله كيف ذلك .

- هو سري فاسمحي لي بكتمانه .

- وهم يطلقون سراح فرناند .

- نعم .. ويقترن بك !

فتنهدت الفتاة وأحنت رأسها كمن يستسلم للقضاء وقالت . افعل ما تريد !

وعندها نزل السائق وقرع باب المستشفى وأدخل المركبة إلى ساحته
فنزل أندريا وأقفل الباب على باكرا والطبيب وذهب إلى رئيس المستشفى
فقال انني أريد ان استودعكم فتاة مجنونة تدعى اليس هوتية وهي معشوقتي
وأنا أريد ان اتولى النفقة عليها ، أما جنونها فقد أصابها على أثر سادئة جرت

لها مع مومسة شهيرة تدعى باكارا غارت هذه الفتاة منها على عشيقها حتى
اختل عقلها واصبحت تزعم انها هي نفس باكارا .

قال الرئيس : لا بأس فسنجته في علاجها .
فدفع له اندريا اجرة شهر مقدماً وانثنى إلى المركبة فأخرج منها باكارا
وقال لها لقد أصبح اسمك الآن اليس واذك مجنونة غيرة من باكارا حتى صرت
تعتقدين انك هي بعينها وهذا كل جنونك أفهمت ؟
- انك شيطان مريد ! .

- لا بأس ، ولكن افتكري بانقاذ حبيبك .

ثم خاطبها بصوت عال فقال كمن يملق مجنوناً : تمساي يا حبيبتي اليس
لتنظري هذا المنزل الذي اشتريته لك حديثاً .

ثم تأبط ذراعها وسار بها حتى أدخلها إلى الغرفة المعدة لها فتركها هناك
بحجة انه يرى الحديقة وخرج فاستدعى طبيب المستشفى وقص عليه حكاية
جنونها المزعوم وانه قد أصابها منذ ثلاث أيام ، ورأى الطبيب فاني تتبع
سيدتها فقال من هذه الفتاة ؟

- هي خادمة اليس أفلا يمكن ان تبقيا معها تسهلا لخدمتها ؟

- لا بأس في ذلك فهو يفيد العملية .

فعاد أندريا إلى باكارا فوجدتها جالسة حزينة فمزأها بلطف وقال : لا
تجزعي فان حبسك لا يطول فقد ابقيت معك خادمك فاني .

- بل أبقيتها جاسوسة علي .

- أنا ذاهب وسأراك غداً ..

ثم ودعها وانصرف ودخل الطبيب على أثره وهوى قول . اعذريني يا سيدتي
إذ دخلت بلا استئذان ..

فتقدمت إليه باكارا وقالت : قد عرفت من أنت يا سيدي فانك طبيب
هذا المكان ! .

فانذهل الطبيب لرقتها وسكونها ، وعادت فقالت انني أعلم أيضاً أين أنا وأعلم انك قادم لتفحصني .

فزاد انذهال الطبيب من هذا الثبات الذي يدل على العقل . وعادت باكارا وقالت لا تحسب أنني أرتكب الحماقة التي يرتكبها كل داخل إلى هذا المكان ويكون أول كلامه لك غير مجنون

فابتسم الطبيب بسمة الريب ، وأدركت معنى ابتسامه فقالت له أنا أبرهن لك على ذلك .

فجلس الطبيب إلى جانبها وأخذ يدها وقال أن دماك غير عضال وعلاج أيام قليلة يكفي لشفائه .

فنظرت إليه نظرة هادئة وقالت اتسمح لي أن اكلمك وتصفي إلى آخر ما أقوله

– تكلمي يا سيدتي ؟

– ألا يحصل أحياناً أن يأفوك بأناس عقلاء اصحاء يزعمون انهم مجانين رغبة في اخفائهم عن أعين الناس .

فاضطرب الطبيب وقال . ذلك ممكن فهل أنت من اولائك المظلومين فاخذت يده بلطف وهزت رأسها واستوت جالسة شأن كل امرأة تعودت الدلال واستهواء القلوب وقالت اسمع لأقص عليك حكاية غريبة ندر أنت تسمع بثمتها في هذه الأيام ، فعاد الطبيب ظنه انها مجنونة ولكنه صبر إلى النهاية وأصغى ، فقصت عليه حكايتها بالتفصيل من يوم احبت فرناند إلى يوم إلقاء القبض عليه بتدقيق وبيان غريب ، وقالت انها مستعدة لتأييد أقوالها بشهادة كل الذين عرضوا لها في هذه الحكاية ، ثم دلت الطبيب على منزلها في شارع مونسي وسأته أن يذهب اليه ويجمع فيه بامها فتتجلى له الحقيقة .

فآثر كلامها على الطبيب وقال لها : اني ذاهب الآن إلى منزلك فافحص الأمر بنفسي فاذا صح الأمر كما تقولين فاني أكون لك محامياً لا طبيباً وسأعود

اليك في المساء ، ثم تركها وانصرف .

جلست باكارا في غرفتها تنتظر الأجل المضروب على أحر من الجمر .

وكان اندريا قد قدر ذلك من قبل فاتفق مع مومس كثيرة الدهاء واقامها بمنزل باكارا وقد علمها ما تقول فلما جاء الطبيب حكى له قصة باكارا كما رواها له اندريا فلم يعد لديه ريب بجنونها وعاد إلى المستشفى وهو آسف عليها . . .

ولما رآته باكارا داخلا عليها صاحبت صيحة فرح واستهلت حديثها معه بالشكر له والثناء عليه ، ثم قالت انك قد رأيت أمي ولا ريب وثبت لك الآن اني غير مجنونة ، فجل ما ألتسمه منك الآن أن تسير معي إلى دائرة البوليس فتوضح مكر السير فيليام وتنقذ ذلك التعيس البريء من عذاب السجن . وعند ذلك دخلت فاني فنظرت الى الطبيب نظرة استفهام اجابها على سؤالها بابتسامة حزينة تدل على الشفقة ثم قال :

- لقد بدأت بها أعراض الجنون ويجب أن تستحم بالماء البارد .

فصاحت باكارا صيحة منكرة وقد سمعت ورأت كل شيء فقالت : إذا أنا مجنونة حقيقة .

فاجابها الدكتور لا بأس يا سيدتي فان داءك غير عضال وستنقهي منه بزمن يسير إذا لزمك السكون .

ألم تذهب إلى منزلي ، ألم تر أمي وخدمي فيه .

- ذهبت يا سيدتي ورأيت فيه باكارا .

فقطنت حينئذ لحيلة اندريا واسترسلت الى اليأس فهاجت هياج المجانين ، ثم هدأت ثورتها وعاد اليها سكونها فوضعت رأسها بين يديها وجعلت تبكي بكاء مرأ ، وفيما هي على ذلك إذ سمعت الدكتور يقول لفاني لقد التمسيت من رئيس المستشفى أن يسمح لك بالبقاء ليلا بقرب سيدتك فابي علي ذلك ولكنه سمح ان تزوريها في النهار وان تبقي بقربها الى الساعة العاشرة مساء فقط ، فلم تنبس ببلت شفة وجعلت تفكر بما سمعته من الدكتور عند خروج

فالي من المستشفى في كل يوم .

ثم ذهب الدكتور فبقيت باكارا في غرفتها مع فاني فنظرت اليها باكارا وقالت : إنك تمثيلين رواية مضحكة ولكنها ستكون مفعمة وتنايلين جزاء ما جنته يدالك .

— ستتأكد سيدتي بعد حين انني من اشد الناس تعلقاً بها ستظهر لها الأيام حقيقة ما أقول .

ولما دنت الساعة العاشرة عزمت فاني على الذهاب فقالت لسيدتها : إنني ذاهبة وسأعود في صباح الغد فهل تريدان ان احضر لك شيء معي ؟

— نعم احضري لي علبة الشغل التي في غرفتي .

— استودعك الله يا سيدتي الى الغد .

. إلى الغد . . ثم قالت بصوت منخفض وقد التهبت عينها بشعر الانتقام إلى الغد أيتها الخائنة وسترين كيف يكون جزاء الخائنين .

ولبثت طوال الليل تهيم في فكرها سبيل الفرار ولما طلع الصباح عادت اليها فاني بعلبة الشغل وكان فيها لفافة كبيرة من الخيوط القطنية الشخينة ، وكانت قد طلبت العلبة لأجل هذه الخيوط فأخذتها منها ، وتظاهرت كل النهار بالبشاشة بما سر الحكيم ودعاه أن يضاعف لها اوقات الاستحمام ، وعند الساعة الثامنة قالت لفاني انني احب ان انام فاغلقني نوافذ الغرفة ورتبي لي السرير ، وبينما كانت تغلق النوافذ نظرت اليها باكارا ثم نظرت إلى نفسها بالمرآة كأنها تريد أن توازن بين القوتين واخذت خنجراً كانت قد خبأته في صدرها ، ثم هجمت على فاني هجوم الأسد على فريسته ، ووضعت يديها في طوقها حذراً من ان تستغيث ، ثم القتها على الأرض فركعت على صدرها واشهرت عليها الخنجر وهي تقول : إذا استغثت او ففت بكلمة فانك ميتة لا محالة . .

— عفواً سيدتي ومرحمة !

فاستعرت مقلتا باكارا من الغضب حتى خيل لفاني ان ساعتها الأخيرة قد دنت وقالت : انك تقولين اني مجنونة والجميع هنا يعتقدون بجنوني فاذا قتلتك لا أعاقب بقتلك إذ ليس على المجانين حرج . ثم ادلت الخنجر من صدرها وقالت احذري من ان تفوهي بكلمة وإلا قتلتك بغير اشفاق واعلمي اني اريد الخروج من هذا المكان ، ولا أحد سواك يستطيع مساعدتي على ذلك .

كيف استطيع إخراجك فان الأبواب مقفلة .
- انهم يفتحونها لأجلك لأنك تخرجين كل يوم الساعة العاشرة .

- ولكنهم لا يدعونك تخرجين معي .
اعرف هذا ولكنك ستبقيين واخرج مكانك فاعلمي الآن اني اشد منك ساعداً وانني مسلحة بهذا الخنجر وانني إذا قتلتك فلا حرج عليّ لأنهم يحسبونني مجنونة فاختاري اذن بين الامتثال وبين الموت .

- مري بما تشائين .
- انهضي واخلمي ثيابك في الحال .
فامتثلت فاني وخلصت ما عليها من الثياب .

اعطني الآن علبة شغلي ، فأحضرتها لها وهي تكاد تجن من الخوف فأخذت باكارا لفافة الخيوط وامرتها ان تضم بعضها الى بعض وتجعل حبلاً رقيقاً ، فامتثلت . ولما انتهت اخذت باكارا الحبل وقالت لها اديري يديك إلى الوراء ففعلت وربطتهما باكارا بذلك الحبل رباطاً وثيقاً ، ثم ربطت رجليها ، وبعد ذلك خلعت ثيابها فلبست ثياب فاني وقالت لها : قولي لي كيف تخرجين من هذا المكان واباك ان تكذبي بحرف واحد فاني أعود اليك فأमितك شرمية واذكري اني مجنونة

- يوجد في آخر الرواق بابان احدهما إلى جهة اليسار وهو الباب الذي يخرج منه المجانين إلى الحديقة ، والآخر إلى جهة اليمين فتخرجين من ذلك الباب

إلى رواق آخر طويل حيث تجدين في آخر ذاك الرواق باباً كبيراً وهو باب المستشفى العام.

— اما كان يسألك البواب شيئاً ؟

— لم أخرج غير مرة واحدة وقد سألتني من انا فقلت له انا خادمة السيدة التي دخلت إلى المستشفى بالأمس ثم فتح لي الباب فذهبت .

— ألم يتبين وجهك ؟

— كلا فانه فتح لي الباب وهو يقرأ في جريدة وفوق ذاك فان النور ضعيف .

وخرجت باكراً بعد ان اقفلت الباب واستوثقت من صدق فاني وذهبت في الطريق التي اشارت اليها حق وصلت إلى آخر الرواق فوجدت البواب منهمكاً في القراءة فسألته ان يفتح الباب وهي تقلد صوت فاني ففتح دون ان ينظر اليها ، فخرجت وهي تظن انها تحلم ولم تصدق انها تتمكن من الفرار فجعلت تركض في الشارع المقفر وهي تلتفت إلى الوراء من حين إلى حين شأن الهارب الخائف ، ثم وقفت في عطفة الشارع فتفكر اين تذهب فانها خشيت من الرجوع الى منزلها حذراً من اندريا ، ولعلها انه رشا جميع خدام المنزل بحيث اصبحوا جميعاً في قبضة يده ، وخطر لها ان تذهب الى عشيقها البارون .. لأنه هو وحده القادر على انقاذها وانقاذ حبيبها فرناند لما له من النفوذ والوجاهة فمشت حتى مرت بها مركبة فركبتها ودلت السائق على منزل البارون فسار بها اليه .

وكانت كثيراً ما تأتي إلى ذاك المنزل فيميدت فيه ، وقد عرف جميع الخدم انها عشيقة البارون سيدهم فكانوا يتملكونها ويكرمونها ، ولما دخلت انكر عليها الخدم لباس الخاديات وحسبوا انها تريد مزاحاً ، فأمرت احدهم ان يدفع الى السائق اجرته وهي غير مكترثة بمجيبهم ، وسألتهم عن البارون ، فقالوا : انه خرج منذ حين . قالت : اتعلمون اين ذهب ؟ قالوا كلا ..

قالت : حسناً سأنتظره . ثم ذهبت إلى غرفته الخصوصية وانطرحت على مقعد فيها .

ولما كانت الساعة السابعة دخل عليها البارون فأيقظها ، وكان قد وردت إليه رسالة مزورة عن لسانها تخبره فيها انها سافرت مع أمها وتغيب بضعة أيام ، ولما أفاقت من نومها قال مندهشاً ألم تسافري بعد .

فضحكت وأخبرته بأمرها وكيف انهم خدعوها وأرسلوها مجنونة إلى البيمارستان ، وكيف خلصت منه ، وكيف أقام مقامها في منزلها امرأة سواها باسمها وانها قادمة اليه ترجو مساعدته واسعافه ، وان يعطيها مبلغاً من المال تستعين به على أمرها ، لأنها أخذت من منزلها ولا مال معها .

فنفقدها البارون ما شاءت وسألها عن الاسعاف الذي تطلب فقالت : هو أن تكتب لي تذكرتين إلى مدير الشرطة ، وقاضي التحقيق لأن لي معها شيئاً أريد ان يسعفاني فيه ، وان يسعما ما أنصه عليهما منه ، وان لا يسألها أكثر من ذلك ، فأطاعها البارون كما هو دأبه وكتب لها ما سألته ، فوضعت الرسائل في جيبها شاكرة مسرورة ، وكانت قد استبدلت ثياب الخادمة بما كان لها من الثياب في منزل عشيقها البارون ، ثم ركبت في الساعة الثامنة من الصباح مركبة وانطلقت مسرعة إلى مدير الشرطة .

وكان البارون معروف المقام لدى هؤلاء القوم ، فلما قرأ المدير رقعته أمر بإدخال باكارا اليه ، وكان يهمه أن يراها لما شاع من وجود فرناند عندها ، وانهم قبضوا عليه بتهمة السرقة فاستقبلها وهو يقول : يسرني ان أراك يا سيدتي لأن المحكمة تلح عليّ من يومين أن أقبض عليك ولكن يظهر ان قدومك لي بنفسك انني لا أحتاج الى هذا الأمر لأنني سأعرف منك شيئاً

نعم وهو شيء مهم ثم قصت عليه في حديث طويل كل حكايتها مع السير فيليام وكيف اتهم فرناند افتراء وزوراً إلى آخر ما يعرفه القراء مما في علمها من هذا الشأن ، وبينما هو مندهل من حديثها وغرابة تلك الخدعة قالت :

والآن أسمح لي أن أقابل فرناند في حبسه ؟

— ذلك يحتاج إلى إذن قاضي التحقيق .

فأعطته الفتاة التذكرة التي معها باسم القاضي وأضاف هو من عنده سطرًا وأرسلها مع أحد الحجاب ، ولم يلبث أن جاءه الجواب بالاذن ، فأمر الحاجب أن يوصلها إلى سجن فرناند وسألها ان ترجع اليه بعد نهاية المقابلة

وكان قبل دخولها عليه بقليل خرج من عنده ليون والكونت ارمان بعد أن اطعماه بالخلاص من ورطته ، ولما دخلت إلى سجنه وجدته في جانب سريره مهموماً مفكراً فدنت منه وطوقته بذراعها فاندھش من مرآها في بادئ الأمر حتى تبسم بالرغم عنه كما يتبسم العاشق لمعشوقه المسيء اليه وينسى اساءته عند أول وهلة من مرآه ، ثم خطر له ما وصل اليه من إساءتها واعتدائها فدفعها عنه بازدراء وقال : اتبعيني إلى هنا

— رويداً يا فرناند ، إنك تكون ذا حق باحتقاري ولكني أر هو منك أن تسمع لي ما أقول وان تعي برهان براءتك من ذلك كما القيه عليك .

— أتقرين الآن بانني غير مجرم .

— بل أقر أكثر من ذاك ، أي بأسماء المجرمين الحقيقيين .

— عجباً إلى هذا الحد .

فتنهدت الفتاة وغطت وجهها بيديها وقالت : ويلاه انه لا يصدقني ولا يزال يحسبني شريكهم في الذنب .

وكا- في صوتها رنة حنو وحزن رق لها قلب فرناند وتلطف معها وقال : ألم تكوني أنت الساعية في هلاكي .

— عجباً يا فرناند أيسمى لإنسان في إهلاك من يهواه ؟

ثم ركعت أمامه وشخصت اليه بعينان مغرورتان بالدمع وقالت له بصوت الحزين اللائم انه لو كان لي عرش لأعطيتك إياه .

وكان صوتها اللطيف ومنظرها المؤثر قد فعلا في قلب فرناند حتى رق لها

وانهضها وهو يقول : صدقت فإن من المستحيل أن تسعى في إهلاكي ما دمت تقولين إنك تحبينني فتكلمي وافصحي عما تعلمين .

وأخذت يده برفق وقالت وهي تنظر اليه نظرة ملؤها الحنو والغرام : عفواً يا فرناند إذا تجاسرت وقلت لك إنني أهواك أنا التي لا أستحق أن تهواني ولست إلا فتاة ساقطة ، ولكن براءتي من ذنبي اليك تستلزم أن أقر لك بهواك وما انكر عليك انني لست أهلاً لك ، ولا مستحقة لودادك ، ولكني اسمع ان الحب الحقيقي يظهر من الأدناس ويصلح فاسد القلوب ويكون داعي مغفرة وسماح من عند الله الذي يغفر كثيراً لمن يحب كثيراً .

نعم ؟ ثم ماذا ؟

اني أنا باكارا المرأة الساقطة لدى الجميع ، قد شعرت انني صرت خسير مما كنت من يوم علق قلبي بهواك وصرت أحسب انني أصبحت شريفة يوم دخل إلى قلبي شعاع من الأمل بانك تهواني ، ولكن عفواً إذا انطلق لساني في شكوى الغرام ، فإنما أنا قادمة لأجلك وساعية في خلاصك فاسمع ما أقول لك ، ثم مسحت مدامعها وشدت صوتها وقالت : ان أول مرة رأيتك فيها يا سيدي كنت في النافذة عند أخوتي وكنت أنت في نافذتك ولكنك لم تكلمني ولم تنظر الي ، وأظن انك لم تشعر بوجودي أيضاً ، ولكن ذلك لم يعني عن غرامك عند أول نظرة اليك ، وعند أول خفوق من فؤادي ، عند تلك النظرة فأحببتك ، ولكن لا تسأل كيف أي بكل ما يمكن للقلب أن يحب ومن تلك اللحظة أخذ الحب فؤادي وعقلي وكل حياتي بأسرها ، لأنك تعلم ان امرأة مثلي مارست أصناف الرجال ولعبت بقلوب الفتيان واستهوت نفس العاشقين لا يدخل الحب قلبها إلا اغتصاباً ولكنها متى أحبت فهي مجنوننة هواها لا تحسب فيه للعواقب حساباً .

ثم عادت فركت بين يديه وهو يبسم لها تبسم الظافر على المرأة المفتخر بامتلاك فؤادها وقال : مسكينة أنت .

- قف لا تشفق علي لأني لا استحق منك شفقة ولا رحمة بل احتقاراً
وصكراً .

- إذا كان الأمر كذلك فأنا أسأحك وأعفو عنك .

- إسمع فليس ذاك كل الأمر فلقد مر علي يوم مشؤوم أخبرني فيه اخي
انك عازم علي الزواج .

فاضطرب الفتى لهذه العبارة وقال : هو ؟ إذن أنت التي كتبت !
فقاطعتة وقالت : لا لست وحدي بل أنا وهو ؟
- من هو ؟

- هو الوحش الضاري السير فيليام ..

- انني لا أعرف هذا الرجل ..

- ستمعرف من هو فإنني يوم علمت انك عازم علي الاقتران كنت في بيت
أخي ، وكنت انت في نافذتك فتطارحنا السلام وخرجت انت وكانت مركبي
لدى الباب فركبتها وانطلقت في اترك حق وصلت إلى منزل عروسك ،
فنزلت انا وسألت عنها فقيل انها تدعى هرمين وان اباه يدعى بيرابو فعدت
الى منزلي حزينة كثيفة تتنازعني الأفكار من كل جانب ، ولكن فكر
حرمانك من عروسك لم يكن قد خطر لي بعد ، فقضيت ليالي مسهدة الجفن
على فراشي واسمك يتردد بين شفقي حق الصباح ، فدخل علي رجل ، بل
شيطان بصورة انسان يقال له السير فيليام .

فقال فرناند منذهلاً : واكنني لا أعرف هذا الرجل .

- اما هو فقال لي انك تحبين فرناند وانا احب ابنة بيرابو .

فارتعش فرناند لهذا الخبر ، وعادت باكارا وقالت : وإذا بوالد هرمين
تقدم الي من وراء فيليام وهو يقول لي انه مغرم بأخي ، ثم دخل فيليام معي
في حديث طويل كله دهاء رخداع ، لم ادكر منه سوى انه لعب بعقلي واستولى
على فكري ، وبعث أخي سرينز لوالد خطيبتك علي ان يمنعك من زواج ابنته .

وهنا أخذت باكارا في البكاء الشديد ، وأخذ فرناند يدها وقال : لا بأس أنا أسامحك .

— قف لا تسامحي الآن فأني لم اقل لك كل شيء ، اما السير فيليپام فانه بعد ان اتم اتفاقنا على هذه الصفقة الخاسرة أملى علي رسالة اليك أشكو لك فيها غرامي ، كأهلك عشيقتي من زمن مديد وجعلني اهزأ بالفتاة التي ستصير عروسك واذكر بك بأنك وعدتني بانك لا تسلوني ولو تزوجت

وقاطعها فرناند وقد أخذ يستنير من الأمر وقال اكتبتي كل هذا . نعم . ودفعت الرسالة إلى يرايو ، وقد احتال فألقاها في ارض بيتته يوم كنت تأكل عنده ، بحيث وجدتتها هرمين بعد ذهابك وقرأت ما فيها فجمد فرناند كأنه اصيب بصاعقة وادرك السبب الذي دعى هرمين إلى النفور منه ، ولكنه بقي جاهلاً امر السرقة وتدبيرها وعادت باكارا إلى حديثها والآن وقد عازمت على انقاذك وان اتهم هذين الشقيين مكانك .

ولكن اذكري ان احدهما والد هرمين .

أحنت رأسها وجرت على خدها دمعتان فطرتها يد الغيرة من اعماق قلبها وقالت : نعم . انك تهواها ، ولكن ما يهمني ذلك فأنا سأسمى في انقاذك ، وتلافي ما بدر من اساءتي اليك ، وإذا أصبحت سعيداً بعد ذلك بمن تهواها خففت عني وقر العذاب

وتذكر فرناند عند ذاك ريارة الكونت ارمان وقوله له : يجب ان نبحث عن باكارا ، فاضطربت افكاره وقال : لقد اتاني رجل الآن ووعدني بانقاذي ايضاً وهو يريد ان يراك وقد كان معه ليون خطيب اختك ، ثم خرجا قبل دخولك بقليل وهو يدعى الكونت ارمان دي كركاز ومنزله في شارع كاترين ، إذهي اليه وانظري ماذا يريد .

فأخذت باكارا رأس السجين بين يديها وقبلته في جبينه قبله عاشق مفارق وقالت لا بد من تهرئتك ولو آل الأمر إلى اتهام نفسي مكانك وويل لك يا

سير فيليام وكن على حذر ، ثم خرجت بعزة وكبرياء كأن عرامها الصحيح قد جعلها عند نفسها من اطهر النساء ، وعادت إلى مدير الشرطة وزادته إيضاحاً في الأمر ووعده أنه لا يخرج من باريس وانها مستعدة لاجابة الحكومة عند استدعائها ، ثم ذهبت إلى منزل الكونت ارمان فدخلت عليه وهو يقول لليون : لا يمكن ان تنحل هذه السيدة إلا إذا قابلنا باكارا .

ولما رآها ليون داخلة وثب اليها وهو يقول اين سريز وماذا فعلت بها ؟ فاصفرت الفتاة وقالت : ليست في منزلها - لا .. لقد فقدت منذ ثلاثة ايام .

- ويل لهم لقد خطفوها !

- ومن هم !

- السير فيليام وبيرابو .

ولما لفظت لاسم فيليام نظر ارمان إلى بستيان وقال : رأيت انني عرفته وهو اندريا بعينه .

ثم سكبت ليون واخذ بيد باكارا وقال تكلمي ولا تخافي .. نحن من اصدقائك ..

وقصت عليه القصة التي حكتها لفرناند ، فارتجف الكونت من وهل ما سمع وقال قد وضع الأمر الآن ، فان يد اندريا في كل هذه الأمور ولا اقدر عليها منه وهو قد عرف ان بنت بيرابو هي ابنة كرماروت ، وقد اتفق مع بيرابو على هذا الأمر وكلاهما مشتركان في هذه السرقة التي اتهم بها فرناند .

ثم صرف باكارا وهو يقول والغيظ يحمقه : احذر أيها الأخ العزيز فقد فتحت بيننا حرباً لا هدنة فيها ولا شفقة .

وقد كشف ارمان تقريباً الحجاب عن هذه المكيدة وثبت لديه ان بيرابو شريكه فيها فأخذ يتراوح بين رأيين اما ان يشكوهما إلى الشرع ، واما يحتال لبلوغ مآربه من انقاذ فرناند وحنة وسريز ، أما الرأي الأول فقد خشي أن يفشل فيه إذ ليس لديه من الشهود غير باكارا وفوق ذلك فان السير فيليبيام غائب عن باريس وان اشهار جريمة بيرابو يمس بكرامة هرمين ، أما الرأي الثاني فهو شديد الخطر غير مضمون النجاح غير انه رأى ان يسير إذا فشل فيه عاد الى الأول ، وعلى هذا أمر باكارا ان لا تخرج من المنزل وأوصى ليون أن يأتي اليه في كل يوم وان يدخل من باب سري في الحديقة وأخذ يسعى في التفتيش على حنة وسريز ، وأول ما شرع به انه أحاط برجال المنزل الذي ذهبت اليه سريز في شارع الحية وهو المنزل الذي دهمها فيه بيرابو واختطفها منه كولار فامر ان ياقبوا جميع من يدخلون اليه ومن يخرجون منه .

أما فاني فأنهم انتبهوا اليها في الصباح وهي في آخر رمق من الحياة فحلوا قيودها راعوا منها كيف كان هرب باكارا فاطلقوا سراحها وذهبت توءاً إلى منزل السير فيليبيام لتخبره بما جرى وكان قد سافر فاخبرت كولار الذي جمد لهذا النبأ كمن اصاب بالصاعقة وقال في نفسه ، إذا اجتمعت باكارا بليون فقد ضاعت كل امالنا وذهبت امانينا ادراج الرياح وقد عزم في البدء أن يكتب الى السير فيليبيام يستقدمه ولكنه رأى ان رجوعه يؤخر عقد الزواج وكسب الملايين فعدل عن ذلك وقرر الاسراع في قتل ليون وذهب يبحث عنه في الحل فلم يجده فيه واخبره رئيسه بما حل به بعد فقد خطيبته من اليأس فتركه وانصرف يبحث عنه في جميع الانحاء حتى لقيه في الساعة الخامسة خارجاً من منزل امه فدنا وسلم عليه وقال له بصوته الكئيب ، كيف انت أيها الصديق

- اني أكاد أجن من اليأس

- اني أعرف كل شيء ايها الصديق وشهد الله اننا في هذا المصاب سواء
- أنت تعلم حبي لك .

فاختلج ليون وقال . أنت تعرف كل شيء ؟

- نعم أعرف ايها الصديق أن سريرز رحلت عنك

- قل انها قد اختطفت

- لا بل قل انها قد سافرت ، فان الصبايا يختطفون في بلدة مثل بايس ،

أجابه ليون بصوت خشن قائلاً ان سريرز ابنة شريفة .

- لا أنكر ذلك ولكن ..

- ولكن ماذا ؟

فاجابه بلمهجة حزن ، ولكني أعرف ما أقول .

فامسكه ليون بذراعيه وهزه بعنف وهو يقول : انسييت انها ستكون

عروسي ؟

- وان تكن قد اختطفت .

- نعم ، اني سأنتقم لها ، بل سيئتم لها عني الكونت

ارتعش كولار وقال : عن أي كونت تعني ؟

- الكونت ارمان دي كركاز ، فقد عرفنا مرتكب هذا الجرم .

- كيف عرفتموه . ومن هو ؟

- هو ذاك الانكليزي المحتال ، اريد به السير فيليام

بذل كولار معظم ما لديه من القوة حتى تمكن من اخفاء انفعاله وقار في

نفسه ، قد غلبنا وذهبت الملايين ، ثم رجع اليه سكونه وقال لليون : اني كنت

قادمًا عندما لقيتك من المعمل الذي تشغل فيه ، أحببت ان اراك كي احادثك

بشأن سريرز .

- أتعلم شيئًا عنها ؟

- نعم . ولأجل هذا أتيتك ولكن المقام لا يسمح لي بمثل هذه الابحاث

فاذهب معي الى قهوة قريبة أظهر لك ما تود معرفته في هذا الشأن ، ثم ذهبا

وجلسا حول منضدة معتزلة .

فقال كولار اني صديقك ولا أحب لك الزلل والخطأ
 - أي زلل وأي خطأ ؟
 ... اني أعلم ما لا تعلمه . .
 فصرخ به ليون كفاك ألفازاً وقل لي ما تعلمه من شأن سرينز
 - لا أعلم شيئاً ولكني رأيته أمس في بوجيفاك .
 قال ليون وقد ظهرت عليه ملامح السرور انك رأيته أمس في بوجيفاك
 قل مع من كانت وكيف رأيته ؟
 - رأيته في مركبة مقفلة .
 فارتاع ليون وجعل العرق ينصب من جبينه وقال : قل مع من رأيته ؟
 فظاهر من كولار انه يتردد ، فهزه ليون وعاش به يقول انك ستقتلني بهذا
 التردد فبالله الا ما قلت لي مع من رأيته .
 - رأيته مع شاب أسمر اللون وعليه ملامح الأغنياء
 قال ليون بلهجة الحزين : ان هذا محال ألم تكن تستغيث ؟
 فقال كولار : مسكين أنت يا ليون انك لا تعرف أخلاق النساء ، فاني
 رأيته على أتم السكون بل رأيته يتحدثها وهي تبسم له ابتسام الرضى والحب
 فهاج ليون لما سمع ، وقال انك تكذب وانت منخدع فليست سرينز
 التي رأيته ؟
 - انها هي بعينها فلم أخدع ولا أنا كاذب
 - إلى أين كانت تسير ؟
 - في طريق الوادي ، فلم أعلم بعد ذلك شيئاً لأنني لم اتبعها .
 فقال بلهجة الانتقام : كولار انك ستذهب معي إلى بوجيفاك حيث نبحث
 سوية عن سرينز وسنبعث هناك اذا لم نتوفق للقاءها اذا الظلام قد أقبل .
 فنظاهر كولار انه يفتكر ثم قال : نعم سأذهب معك وسنجدتها بأذن الله
 غير اني لا استطيع مبارحة باريس قبل ساعة فانتظرني ريثما أعود ، ثم ودعه

وانصرف ، وارتأى ليون بعد ذهابه ان يخبر الكونت ارمان كي لا يفوته شيء من امر هذه المكيدة ، فكتب له رسالة اوقفه فيها على ما دار بينه وبين كولار وكيف انه سيذهب معه بعد ساعة إلى بوجيفال ثم ختمها وخرج ليبحث عن يوصلها اليه ، ولقي اتفاقاً صديقه المخلص كينيون واطلعه على جلية الامر وكلفه ان يوصل الرسالة الى الكونت

وقال له كينيون : اني ناصح لك ان لا تسير مع هذا الرجل ولا تثق به ، فإنه يضمرك لك كيداً وقد حذرتك منه مراراً
- انك مخطيء في رأيك به هولي ولا بد من الذهاب إلى بوجيفال .
- انت بعد ذلك وشأنك ، لقد بذلت لك ما يجب علي من النصيح ولم يبق علي سوى ان التمس منك امراً واحداً ..
- ماذا ؟

هو ان لا تخبر صديقك كولار بهذه الرسالة التي سأذهب بها إلى الكونت .
- اعدك بانني احذثه بشأنها .
ثم افترقا فرجع ليون الى القهوة وذهب كينيون الى منزل ارمان فأعطاه الرسالة واخبره عن سوء ظنه بكولار وانه يكيده لليون .

قال ارمان : إذن هلم معي إلى حيث ليون وانما سنسير باثرهما الى بوجيفال متسكرين ، أما كولار فإنه ترك ليون وذهب قواً إلى نيكولو وأمره أن يسير مع رفيق له إلى بوجيفال ، وأوقفه على المكيدة ثم عد إلى ليون ووجده بانتظاره وركب واياه مركبة وسارا .

ولم يكن ليون يفكر سوى بامر واحد وهو ان يحصد سريز وينتقم من خاطفها ، وكان يهيج هياج المجانين ويتهدد السماء ببديده ، ثم يعود إلى السكون وتهداً عاصفة غضبه ، ويضع رأسه بين يديه ويفكر تفكير الحزن .

وقد رأى ليون ان الليل قد جن فنظر إلى كولار وقال : ان الظلام قد ادلهم والأفق مربد بالضباب فكيف نبحث عنها في الليل الدامس قال كولار :

إن الظلام افضل من النور وفي مثل هذه الشؤون اؤثر ان نصل ليلاً فنبيت في فندق بوجيفال وهو فندق يقدم اليه اكثر خدم الأغنياء في تلك الجهات ، فربما علمنا منهم ما يدلنا على مكان سريز وقنع ليون بهذا الجواب وعاد إلى تأملاته .

وما زالت المركبة تسير حتى وصلت إلى مارلي ووقفها كولار بإشارة وقال لليون : ان الطريق إلى الفندق لا تسير فيها مركبات ولنذهب على الأقدام ونزل الاثنان ومشيا .

وكان هذا الفندق الذي تكلم عنه كولار واقعاً على ضفة النهر بالقرب من طاحونة كبيرة تديرها مدام فيبار التي طردها اندريا امام سريز كما يذكر القراء ، ولم يكن معها غير صبي يبلغ الثالثة عشرة من سنه يدعى روكامبول وهو غاية في المكر والدهاء .

فلما وصل ليون وكولار وجدا المعجوز والصبي يلعبان بالنرد ، وحيهما كولار تحية صديق ، ثم تبادل إشارة خفية فقال كولار اننا نريد المبيت الليلة في هذا الفندق فهل لديك غرفة موافقة لنا .

- نعم .. وأمرت روكامبول ان ينير لهما الغرفة الصفراء .

وصعد الصبي وصعدا بأثره فأنار لهما الغرفة وسألاه ان يحضر لهما زجاجة خمر ، ولما عاد بها قال كولار لليون دعني أسأله عساي ان اعلم منه شيئاً .

ثم أشار بعينه إشارة سرية اتصدقني في الحديث يا روكامبول .

- اني لا اكتملك امراً يا سيدي كولار وانا لا اعرف الكذب قل ما تشاء .

- ماذا حدث عندكم في هذا الأسبوع ؟

- لم يحدث شيء جديد .

- ألم يجيء من باريس الى هذه الضواحي أحد من الأغنياء

- نعم ، قد جاء منذ حين شاب قيل انه انكليزي واسع الثروة .

فارتعش ليون وقال : هذا السير فيليام الذي طالما حدثتنا باكارا عن

مكره .

قال كولار : ألا تعلم اين يسكن هذا الانكليزي
كلا ا .

— اهو متزوج ام اعرب ؟

— لا أعلم شيئاً من ذلك .

— أتقدر ان تصفه لي .

— نعم لقد رأيته مرة وهو يناهز الثلاثين من العمر اسمر اللون خفيف
شعر الشاربين .

قال كولار : كفى هذا بعينه

ثم سمع روكامبول ان العجوز تناديه فهرول مسرعاً اليها .

وقال لليون : أوعيت كلام الصبي فإنه لا يعلم شيئاً من امر سرينز كما يظهر .

— انه يعلم كل شيء ولكنه لا يريد ان يقول .

ثم سمع كولار وقع اقدام على السلم ، فأشار الى ليون انه يلزم مكانه وفتح
الباب واطل منه ورأى روكامبول ووراءه نيكولو ورفيقه وتبادل معها
اشارة وعاد إلى ليون فدار بينهما الحديث الآتي وهما يشربان الزجاجاة وقال
كولار اتعلم يا ليون ان هذا الفندق كثير الخطر ، وقد يقتل فيه المرء من
يريد قتله ولا يعلم بجريمته احد .

فنظر اليه ليون باندهاش فابتسم كولار ابتسام الأبالسة وقال نعم . إن
القتل في هذا المكان لا يكون إلا خنقاً ، وتلقى الجثة تحت حجر الطعن ،
ثم تدفعها المياه ولا يعلم بعد ذلك اكان موت صاحب الجثة قتل ام اتفاقاً .

وارتاع ليون وقال : يوجد هنا قتلة ؟

— إذا اقتضى الحال ..

فنظر اليه ليون وهو يحسبه سكران وقال : كيف اذا اقتضى الحال .

— إذا كان يوجد من تثقل علي حياقه فاذا قتلته فاني لا احسب قتله ذنباً

كبيراً ، ولنفرض انك أنت الذي حياته تثقل علي ..
فصاح ليون مستنكراً : أفا !

— لنفرض انك انت كذلك ، واذك صديق رجل يشغل علي أيضاً نظير
الكونت ارمان دي كركاز مثلاً ، واني لداك احملت عليك وجئت بك إلى
هذا المكان ؟

- انك لتخيفني يا كولار بهذا المزاح .

— لا بأس ولنفرض ايضاً ، ثم نقر بيده على الحائط وقال : تعالوا يا اصحابي
لقد وقع الطير في الشرك . ولم يكذب يتم كلامه حتى دخل نيكولو وفاتح الأقفال
فأدرك ليون سر الأمر بما رأى عليهما من هيئة الغدر ووثب من مكانه وتناول
سكيناً كانت أمامه وقال لكولار : أتريد أن تعتلني ؟

— نعم لأنك تثقل علي !

فرجع ليون حتى لصق بالحائط ورفع سكينه وقال : تقدموا الآن .
فتناول نيكولو زجاجة الخمر الفارغة وضربه في رأسه فانكسرت وسالت
دماءه وسقط على الأرض صريعاً ، وهجم عليه الثلاثة وتناول كولار مندبلاً
كبيراً ووضع في عنق ليون الجريح وهم بخنقه وإذا بدوي رصاص ونور قد
سطع وسقط كولار مصاباً برصاصة في صدره .

وكان مطلق الرصاصة الكونت ارمان نفسه ، فإنه لما أخبره كينيون
بذهاب ليون إلى بوجيفال مع كولار داخله ريب في أمر هذا الرجل وسار
بمركبته في أثرهما ، كما يعلم القراء حتى أدركهما على الطريق ، وتمكن من رؤية
كولار في المركبة وتذكر انه رآه مرة حين جاء لاستدعائه إلى منزل البارون
كرماروت صاحب الملايين ، فزادت شبهته فيه وعلم انه كان ملازماً للبارون
وقد وقف على سر الملايين ، ودخله الريب بأنه هو الذي اطلع اندريا على
ذلك السر ، فاقتفى أثره حتى رآه صعد مع رفيقه إلى الفندق ثم رأى صاحبيه
القاتلين قد تبعاه ، فأخذ كينيون الذي جاء معه وتوارى به وراء نافذة الغرفة

التي جرت بها الحادثة ، إلى ان جرى الأمر أمامه ، وراهم يهيمون بقتل ذاك المسكين فأطلق تلك الرصاصة من النافذة ، كانت السبب في خلاصه ، ثم وثب إلى الغرفة والغدارة في يده ، وعرفه نيكولو في الحال فخرج برفيقه مسرعاً وتركها صاحبتها ميتاً وهربا فمرا على صاحبة الفندق وأخبراها بالأمر فتظاهرت بأنها أغمى عليها من الخوف .

وصعد روكامبول وهو يصيح : إلى القاتل إلى القاتل .
وبادره كينيون وتهده بالقتل إذا لم يسكت فسكت مكرهاً
وتقدم أرمان إلى كولار وراه لا يزال حياً وهو ينظر اليه ويقول : لقد ظفرت علي هذه المرة ولكن رئيسي سينتقم لي .
- ويحك . أقوت كذا بغير إقرار ولا ندم
- هيهات أن تعرف مني شيئاً !
- ولكن بالله أخبرني أين حنة وأين سربز ؟
- تريد أن تعرف ذلك ، إذن فاعلم ان حنة قد أصبحت معشوقة السير فيليام وغير هذا لا أقول شيئاً .
ثم أطبق عينيه على أثر هذه الكذبة الشنعاء ومات والدم يتدفق من فمه فتقدم الكونت إلى الصبي روكامبول وقال له : أتعرف أنت شيئاً من أمر هؤلاء اللصوص ؟

ونظر اليه الغلام نظرة الشجاع الباسل وقال : نعم أعرف كل شيء .
فصاح أرمان صيحة الفرح : إذن أخبرني أين حنة وسربز
ورفع كينيون سكينه على صدر الولد وقال : تسكلم أو تقتل
- لا أقول شيئاً فاقتلوني إذا شئتم !
وقال الكونت : دعه قد يتكلم ..
ثم التفت إلى الصبي وقال له : أتريد اجرتك ؟
- نعم وإلا إقتلوني لأن الحياة بغير مال لا خير فيها !

- كم تريد ؟
- عشرة دنانير أولاً .
- فرمى له الكونت كيس دراهمه وقال : خذ ولكن تكلم ..
- ان كولا قد كذب عليك .. إن الفتاة التي تبحث عنها ليست عشيقته السير فيليام ، ولم ترد أن تستسلم له ..
- وأين هي ؟
- على عشرة دقائق من هنا محبوسة في بيت وأنا أدلك عليه .
- .. هلم بنا .

وتقدم الفق أمامهم ثم التفت إلى الكونت وقال : أظن ان هذا الخبير يساوي أكثر من عشرة دنانير !

- إذا وجدت حقه سأعطيك خمسين .
- إذا كان ذلك فنعم وكرامة ..

ثم خرج أمامهم حق مر بالمجوز وهي تتظاهر بالإغواء فدنا منها بحجة انه يريد إيقاظها وممس في أذنها أن أهرب في الحال فاني سأعشهم ولا أدهم يعلمون شيئاً ، ثم مريقودهم وهو يقول : إن الفتاتين في وسط النهر . وسار بهم على جسر هناك حتى إذا توسط الماء نظر فرأى كينيون إلى جانبه فدفعه بكلتا يديه فسقط في النهر والتفت إلى الكونت وقال السلام عليك يا كونت فانك لا تعرف من أمر حنة شيئاً ثم وثب وثبة سابع ماهر وغاب في النهر تحت الظلام قبل أن يفيق الكونت من اندهاله ، فماد ارمان حزيناً إلى الفندق فوجده خالياً من صاحبتة ، فأخذ ليون الجريح وترك جثة كولا غارقة بدمائها في تلك الغرفة .



بينما كان ارمان مجدداً في انقاذ ليون وهو يبحث بالبحث عن حنة وسريز ،

كان أندريا يعمل على غزو قلب هرمين ، وقد تذرع إلى ذاك بجميع الوسائل بحيث أصبح جميع من يحيط بها من انصاره وقد ذهب من منزل مدام كرمارك على ما علمه القراء إلى صديقه البارون مادي وخف صديقه لاستقباله بغاية التودد ورأى على وجهه ملامح الحزن وسأله عن علة هذه الكتابة ، فقص عليه حديث غرامه بهرمين ، وان لا رجاء له من هذا الحب وتأثر البارون تأثراً شديداً وقال : طيب نفساً فانك نميل في قومك جميل الطلعة كثير المسال فلا تياس من حب هرمين وستكون امرأة لك في وقت قريب فانها أهل لمثلك وأنت كفؤ لها وهي نسيبتني وأنت صديقي ، وسأخدمك في هذا الشأن كما أخدم نفسي . فشكره أندريا بلهجة الموجه القلب .

وفيا مما على العشاء وردت على البارون رسالة مدام كرمارك فسر بها وقال : قد وجدت طريقة حسنة لأعرفك بهرمين ، ذلك اني سأدعو أسرتهما غداً إلى الصيد وستكون معنا ، ثم قام إلى منضدة وكتب إلى مدام كرمارك رسالة يدعوها بها مع بيرابو وامراته وابنته إلى الصيد غداً في وادي سيبرس ثم بعث بها اليها مع رسولها .

وقد رقد أندريا تلك الليلة وقلبه يطفح بالأمل . وعاد الرسول إلى مدام كرمارك ولما أطلعت على الرسالة سرت بها غاية السرور وقالت لهرمين : ان البارون دي مادي يدعونا غداً إلى الصيد فهل تذهبن؟ قال بيرابو : إننا نذهب من غير بد فلا أجد أجمل من الصيد في هذه الوديان وكانت هرمين قد تعودت ركوب الخيل ولكنها لم تر في حياتها صيد الوحوش البرية فسرت بذلك ووعدت بالذهاب .

وقالت مدام كرمارك : يظهر من هذه الرسالة ان السير فيليام سيكون من المدعويين . واختلج قلب هرمين ولم تحب بشيء ، بل تركتهم وانصرفت إلى غرنتها وهي تفكر . وكانت لا تزال تحب فرناند ، ولكن حبها له كان حباً بغير أمل كما يحبون الأموات ، وقد علمت انه غير أهل لها فكانت تجتهد أن

تلساه وكان قلبها يحدثها بأنه سيكون للسير فيليام شأن في حياتها وكانت تفكر به وترتمش وهي لم تره غير مرتين وتأملت تلك الليلة وهي تحمل به أحلاماً مزعجة .

ولما طلع الصباح تأهبوا للرحيل ، وامتطت فرساً كريماً وسارت مع أمها وبيرابو وخادم ، وفيما هم على بعد مرحلة من الوادي سمعوا صوت النفير وعواء الكلاب فقام لهم الخادم أسرعوا واتبعوني ، إنهم يحصرون الوحش وقد دنا أجل صيده .

وكانت الساعة العاشرة من الصباح والشمس تتوقد في قبة الفلك فترقص أشعتها الذهبية على الغصون ، وتقع من خلال الأوراق على الأرض كالذنانير ولم يكد الخادم يسير أمامهم حق دفعوا الجياد وانطلقت بهم مسرعة تحترق تلك السهول ، تمرق مروق السهم في الفضاء حق بلغوا الوادي ، وعلا نباح الكلاب وأول ما رآته هرمين ذلك الوحش البري الذي يطاردونه وهو يزأر زئير السباح وعيناه متقدتان بشرر الغيظ والرعب ، وكان يعدو على غير هدى بين الصخور ، ثم رأت بعده الكلاب تهاجمه من كل صوب وتسد عليه سبل الفرار ورأت بعد ذلك على بعد يسير فارساً راكباً على فرس أسود كالليل يقفز به من فوق الصخور وسياء الشجاعة والاقدام تلوح على ذاك الفارس الذي ظهر انه في عنفوان الشباب ، ثم تبين لها ان ذاك الفارس هو السير فيليام ، فخفق قلبها خفوقاً لا يوصف ، ثم رآته قد ترحل عن جواده وتقدم من الوحش بقلب جسور ثابت وضرب الكلاب بالسوط ففرقها عنه ثم هاجم الوحش مهاجمة مستبسل يرى الموت سهلاً في رضى من يهاواها .

ونظرت هرمين إلى ذاك الرجل الذي يخاطر بحياته أمامها في سبيل ضربة تستحسنها ، ورآته قد التحم مع الوحش في عراك عنيف حق لم تعد تميز بينهما ، ثم نظرت فرآته قد طعن الوحش بخنجره طعنة شديدة غرق فيها إلى اليد ، وسقط ذلك الحيوان الهائل صريعاً ، وأثر ذلك المنظر بهرمين تأثيراً شديداً

حتى سقطت على الأرض مغشياً عليها ، وتسارعوا اليها ونضحوا وجهها بالماء ، فاستغاثت ورجع الجميع إلى القصر وكلهم ينظر إلى أنسدريا نظرة العجب والاكرام وهو يقول في نفسه : لقد استتب لي النصر ، وإذا لم أفر بقلبيها بأقرب حين كنت أبلها لا أستحق هذه الملايين .



ولنعد الآن إلى حنة التي تركناها في تلك الغرفة وقد استغاثت وجعلت تقرأ الرسالة التي تحسبها من الكونت ارمان الذي كانت تحبه حباً شديداً وجعلها تغفر له اساءته في ذلك التصرف الغريب ، ولم يدخلها شيء من الريب ، بل انها كانت تشفق عليه وتخشى أن يصاب بمكروه من ذلك الخطر الذي كتب لها عنه وفيما هي على ذلك فتح الباب ودخلت فتاة وقالت ان سيدي الكونت قد أقامني في خدمتك ، وممت حنة أن تسألها أين هي وكيف أتت إلى هذا المكان ، ثم ذكرت الرسالة التي أوصيت بها أن تحتجب الأسئلة وسكنت وقالت الفتاة : لقد قدر سيدي الكونت ما متلاقية من الضجر في الاعتزال والوحدة فأرسل اليك صديقة تودين ان تكون معك ا

– ومن هي هذه الصديقة وما اسمها ؟

– اسمها سريز .

ولم تكذبتم كلامها حتى دخلت سريز وصاحت الفتاتان صيحة فرح وتعاقتا وأخذت كل من الفتاتين تسأل الأخرى عن السبب في رجوعهما في هذا المكان ولكنهما لم تعلما شيئاً واتفقتا على أن تحتجبا البحث في هذا الشأن عملاً بما أوصاهما وانصرفتا عن كل ذلك الحديث إلى بث الهوى وشكوى الغرام .

وعند المساء دخل كولار فنظرت اليه حنة نظرة قلق فسكنت سريز روعها وقالت أنه خادم الكونت ، اما كولار فانه انحى امام حنة وقال لها اني يا سيدي آت من قبل الكونت بهذه الرسالة . فتلتها حنة وكل فحواها انه اضطر

إلى البعد عنها بضعة أيام لشاغل مهم وأنه سيعود اليها بأقرب حين ويقترن بها وأنه سيرسل لها في كل يوم رسالة مع كولار ويوصيها أن تثق به وقد حذرهما بالختام من الخروج من المنزل غاية التحذير وبعد أن فرغت من تلاوتها قال لها كولار : إذا أحببت أن تجيبي على هذه الرسالة فأنا أوصل رسالتك إلى سيدي الكونت فاحمر وجه حنة وقالت له : نعم سأجيبه فانتظرني .

ثم قامت إلى منضدة وكتبت له رسالة لم تذكر بها شيئاً من غرامها بل أظهرت له بها شدة استغرابها لسلوكه وانها لا تقدر أن تحكم بشيء على هذا السلوك المستغرب قبل أن تراه ويوضح لها سر الأمر ثم ختمتها بالدعاء له ورجائه بسرعة العودة وبعد ذلك أعطتها لكولار فأخذها وانصرف

وفي اليوم الثاني لم يعد كولار ولا وردت رسالة فقلقت لذلك وانتظرت إلى الغد ، ثم مر عليها أربعة أيام ، ولم يعد كولار الذي كان قتل كما تقدم فاشتد قلق الفتاة وثبت لديها أن حبيبها قد أصيب بذلك الخطر الذي كتب لها عنه .

وفيما سرير تسكن روعها وتطيب قلبها دخلت خادمة غرفتها وأعطتها خمس رسائل ودهشت حنة وطار قلبها من الفرح ففتحت جميع تلك الرسائل وقرأتها واحدة فواحدة وكان بالرسالة الأخيرة إشارة إلى قرب من تحب ولم تتمالك نفسها من الفرح واكبت على عنق سرير وهي تقول والدمع يحول في عينيها : بشرى فهو حي لم يمت ، ثم أفافت من ذلك السرور فسألت الخادمة عن أتى بهذه الرسائل ؟

- روكامبول .

-- من هو روكامبول ؟

- صبي نسيب لكولار

أما روكامبول فإنه بعد أن وثب إلى النهر أسرع في السباحة إلى أن بلغ الضفة فاختماً كل ذلك الليل في إحدى الحانات وقد قدم إلى مدام فيبار فأخبرها بما صنع مع الكونت إيثاراً لخدمة السير فيليام الذي سيعحسن إليه الجزاء متى

وقف على هذا الصنيع فأخبرته بحديث حنة وسريز مع السير فيليبام وشدة احتفاظه بهما ، فذهب روكامبول عند الصباح الى الحارة فنقل جثة كولار الى القبور ، وأزال آثار الدماء ثم أقفل الفندق وكتب على الباب « أقفل الفندق لإفلاس صاحبه » ثم سار الى المنزل الذي فيه حنة ، وأخبر جميع الخدم ان كولار سافر في شأن مهم ، وأنه أتابه مكانه حين رجوعه ، فأطاع الجميع كما كانوا يطيعون كولار ، وبعد يومين أخبرته الخادمة ان حنة شديدة القلق لتأخر الرسائل عنها فأدرك روكامبول ان الرسائل التي كانت تأتي بها الى حنة فذهب حالاً الى باريس وأخذ تلك الرسائل الخمس التي اعطاها المفتاة كما تقدم .

اما حنة فانها عندما علمت بقرب قدوم الكونت فرحت فرحاً لا يوصف ونامت تلك الليلة براحة وسكون وهي تحلم بأمانيتها الزاهرة .

ولما طلع الصباح تزينت احسن زينة زادت جمالاً على جمالها وفيما هي تنتظر الى المرأة وتتبسم دخلت عليها الخادمة وقالت سيدتي قد جاء الكونت . فصاحت حنة صيحة فرح وقد اضطرب فؤادها اضطراباً لا يوصف وسقطت على المقعد وهي قريبة من الاغماء .

* * *

أما أرمان فإنه بعد أن رأى ما رآه من مكر الصبي ولم يجد حيلة لانقاذ كينيون ، عاد الى الفندق وهو يرجو أن يرى فيه المرأة فتدله على حنة وسريز فلم يجد غير جثة كولار ساجدة بالدماء ، ففتش بالضواحي فلم يعثر على أحد فعاد واليأس ملء فؤاده الى باريس وعند وصوله لقيه بستيان وأعطاه تقريراً بعث به أحد رجاله السريين وهذا مآله :

« إن الرجل المعروف في باريس باسم السير فيليبام لم يسافر ابداً الى الهافر بل ذهب الى بريطانيا الى صديق له يدعى البارون دي مادي » .
فلما انتهى من تلاوته تأمل هنيهة ثم قال لبستيان : لم يعد لدي أقل ريب

بأن هذا الرجل هو أندريا بعينه ، وأنه لم يسافر الى بريطانيا إلا ليجتمع فيها
هرمين ويفريها على الزواج به . فإذا لم تسرع لانقاذها فهو يبلغ مآربه لذلك يجب
أن تسافر في الحال الى بريطانيا فتقف على مجرى الأحوال وتكتب لي كل يوم
عما يكون

فسافر بستيان ، وكان الجميع يعرفونه في تلك الضواحي ، فعلم منه
ما كان من أمر الصيد ، وكتب الى الكونت في اليوم الثاني من حضوره
ما يأتي :

« لم أكد أصل حتى علمت عن أندريا ، أو عن السير فيليام إذا أردت ،
ما تهتم معرفته : فهو ضيف البارون دي مادي وقد ذهب أمس الى الصيد
بصحبة البارون وبيرابو وهرمين ، فقتل وحشاً هائلاً بطعنة خنجر وكان
ذلك على مرأى من هرمين فأغمي عليها . وهو الآن في منزل مدام كرمارك
جالس على المائدة الى جانب هرمين ، ويتحدثون هنا بأن زواجها سيكون
وشيكاً » .

أما أندريا فانه قد فاز أتم الفوز ، وأنست به هرمين فحالت اليه
بعض الميل .

وكان قد علم بوجود بستيان في كرلوفان فلم يمتأ بذلك ، ولكنه كان قلق
البال لانقطاع أخبار كولار عنه .

وبينما هو عائد ذات ليلة من منزل كرمارك الى منزل البارون عند
منتصف الليل وهو يسير على جواده في ذلك الممر الضيق الخط ، الذي
سبق وصفه للقراء ، والبدر منير في قبة الفلك يلاً بأشعته ذلك البحر الهائج
وتلك الوديان الساكنة ، إذ رأى عن بعد رجلاً مقبلاً اليه يمشي الهويناء .
ولما دنا منه اندعر كمن طلعت عليه أفعى إذ تبين له أنه بستيان وراه مسلحاً
وهو أعزل ، فمالك روحه وحياه مندهكاً كأنه يستغرب وجوده في هذا المكان
ثم دار بينهما الحديث الآتي .

- فقال بستيان : إني أعجب لما بدا منك من الاندخال لمراي مع انك تعلم اني أتيت من بارس
- إني أعلم ذلك ، ولكنني دهرت لوجودك في هذا المكان ، عند منتصف الليل .
- لأنني كنت بانتظارك ، ان لدي ما أقوله لك .
- إني مصغ ، فقل ما تشاء .
- علمت انك تسعى للاقتراح بهرمين ابنة بيرابو ، وانك لم تأت إلى هنا إلا لهذه الغاية .
- ذلك ممكن
- وقد علمت ان هذه الفتاة واسعة الثروة .
- كلا فإن مهرها لا يتجاوز الخمسين الف فردك وصل اليها من امها ، وهو مهر لا يكاد يذكر .
- ربما ولكنها ستث ثروة طائلة ، لأن البارون كرماروت قد ترك لها بعد مائة اثني عشر مليوناً كما تعلم .
- انها ثروة واسعة ولكني لا أعلم شيئاً من ذلك
- نعم وانك تعلم أيضاً ان الوصي على هذه الأموال هو الكونت أرمان دي كركاز .
- فاضطرب اندريا وقال : قلت لي انك كنت بانتظارني ، فهل أنت تنتظرني للمباحثة في مثل هذه الشؤون ؟ وهل في مثل هذا المكان يتباحث الناس ؟
- سوف ترى أن هذا المكان يفضل على سواه ، ففضل بالنزول عن جوادك واجلس معي على هذا الصخر ، لأنني سأحدثك عن امرأة تعرفها ويملك شأنها
- من هي هذه المرأة ؟

— إنك تعرفها يا سيدي حق المعرفة . وهل نسيت انك حبستها في مستشفى المجانين .

أصفر وجه أندريا وقال بمنتهى الاضطراب أخرجت من المستشفى ؟

فقال بستيان بصوت الهازيء أرأيت يا سيدي كيف خانك الجلد ؟ نعم إنها هربت من المستشفى وأتت الى الكونت أرمان .

فصاح أندريا صيحة يأس وعض على شفته من الغيظ حتى كاد يدميها فقال له بستيان : أرأيت الآن أن ما أحدثك به شديد الأهمية جدير بالاصغاء ؟ فتنفضل إذن بالنزول عن جوادك لنجول في هذا الحديث .

وحاول أندريا الامتناع فأخذ بستيان غدارة من جيبه وصوبها عليه وهو يقول : تخير بين أن تنزل أو تموت .

وارتاع أندريا ونزل عن الجواد حذر الموت وقد علم أنه مغلوب .

وأسرع بستيان الى امتطائه وصوب الغدارة على اندريا وقال : انك اذا حاولت الفرار أقتلك بغير إشفاق فاصغ إلي الآن .

إن باكارا قد أفلتت من ذلك السجن الذي وضعتها فيه ، وحدثت الكونت أرمان بجميع ما كان من اتفاقهما مع بيرابو ، ومن الرسالة التي استكتبتها إياها إلى يوم سرقة المحفظة واتهام فرناند وهو بريء والآن وقد ثبت لنا أن الفيكونت أندريا يحاول الاقتتان بهرمين ، طمعاً بما سترته من الملايين .

— إذن لا تزال تعتقد لني هو نفس أندريا ؟

نعم . ولم يعد لك سوى سبيل للنجاة مما أنت فيه . ذلك أن تمعدل عن الزواج بهرمين ، ثم تدلنا على المكان الذي خبأت فيه حنة وسريز وتغادر هذا البلد في الحال ، وفي مقابل ذلك فلأني مكلف من قبل أخيك الكونت أرمان ، أن أنقذك خمسمائة ألف فرنك وإلا فاني قاتلك لا محالة . وصوب عليه الغدارة مرة ثانية .

... إذا قتلتني فانك لا تعرف أمراً .

إذا قل أين حنة وسريز ؟

فقال اندريا بصوت القانط المغلوب ، لهما في بوجيفال في منزل محاط بروضة واسعة قرب الوادي وهما في حراسة امرأة تدعى مدام فيمار -- إحذر من أن تحاول الهرب فاني أقتلك . وإنيك ستبقى في هذا الأسر عندي إلى أن أخبر الكونت بما كان ، ويكتب لي انه وجد الفتاتين . وان كنت كاذباً فيما تقول فاني أقتلك بغسير رحمة . والآن سر أمامي الى كارلوفان .

فمشى أندريا وهو لا ينبس بكلمة . وبعد أن هدأ روعه نظر يمنة ويسرة ورأى ذلك الممر ، وعلى يمينه البحر العجاج وعلى يساره ذلك الوادي العميق فقال في نفسه : إن عثرة واحدة من الحصان تكفي ان تلقي براكبه إلى هذه الأعماق . وكان معه خنجر ففطن اليه وجعل ينظر الى الهوة وكان الجواد شديد القرب منها ، فتظاهر أنه عثر وسقط على الأرض فاستل خنجره بأسرع من لمح البصر وطعن الجواد في بطنه طعنة شديدة فصاح ذلك الجواد صيحة منكرة وهوى براكبه الى الوادي

فوقف اندريا يشاهد ذلك السقوط ساخراً وهو يقول حقاً ان هذا المكان يفضل سواه .

ورجع أندريا الى منزل البارون وبات تلك الليلة قرير العين . وفي اليوم التالي خلا بهرمين وبشها جواه بلهجة يأس وحزن عميق . فألقاها لا تزال معلقة بفرناند ولكنه أنس منها إشفافاً عليه لما مثل أمامها من القنوط ، فأيقن من الفوز لعله بان الإشفاق هو أقرب الطرق المؤدية الى الحب . وكان يقول في هذا المعنى أن درجات الحب تتألف من ثلاث هي : عدم المبالاة ، والشفقة ، والحب . وان بين هذه الدرجات مسافات تعد بالسنين والأيام . وقد يحتاج الى أعوام للوصول من عدم المبالاة الى الشفقة وأما من الشفقة الى

الحب فقد يصل المرء بأيام قلائل وربما وصل بيوم أو بساعة .

وفي اليوم الثاني بينما كانت مدام كرمارك جالسة في قاعة الاجتماع مع بيرابو وهرمينا وهرمين دخل الخادم بجراند باريس فأخذت واحدة منها وتصفحتها ثم وقع نظرها على أصل عنوانه (سرقة في الوزارة) فاسترعت سمع الحضور وقرأت بصوت مرتفع ما يأتي

« حدث في الأسبوع الغابر أن أحد عمال وزارة الخارجية قد اختلس ثلاثين ألف فرنك ،

واضطربت هرمين وتبسم بيرابو تبسم الأسف ، واندفعت مدام كرمارك في القراءة فقالت

« وكان ذلك ان رئيس هذا المستخدم اضطر الى الذهاب ، وأعطاه مفاتيح الصندوق . ولما عاد وجده قد اختلس ذلك المال وهرب . وقد قبضت الحكومة عليه بمنزل خليلته وزجته في السجن . أما هذا السارق فانه يدعى فرناند روشي » .

فصاحت هرمين صيحة منكورة وسقطت مغمياً عليها بين يديها . وعند ذلك فتح الباب ودخل اندريا فعلم ما حدث لأول نظرة ، وأسرع الى هرمين وأخذ زجاجة من جيبه ونضح وجهها بما فيها الى ان أفاقت وأخذ الجريدة وقرأ ذلك الفصل ، ثم القاما الى الأرض وهو يقول . اني أعلم هذا من قبل .

وبعد ذلك خلا بهرمين في حديقة المنزل ، وهي تكاد تجن من اليأس فقال لها : ما يكون جزائي منك إذا انقذته من السجن وبرت ساحة أمام الشرع ؟

— إني أحبك .

ثم ألقت بنظرها الى الأرض وقالت : وإن لم أحبك فأني أرضى بك بعملًا على الأقل .

- إذن سأنقذه .
- إفعل يا سيدي وهذه يدي لك منذ الآن
إني مسافر الساعة الى باريس .
- إرحل وعندما تعود أرف اليك وأكون امرأتك .
- فوعدها ورحل في الحال الى بوجيفال . وكم بلغ من أسفه عندما وصل
وعلم من روكامبول ما مر من الحوادث ، وكيف كان قتل كولار لأنه كان
متممداً عليه في إنقاذ فرناند بأث يدعه يعترف أمام القضاة أنه هو الذي
ارتكب جرم السرقة وليس فرناند ثم خطر له خاطر فقال لروكامبول : أين
دفنت جثة كولار ؟
- قال انها لم تدفن وهي لا تزال في قبو الفندق .
- إصنع إلي . إني أجد على وجهك ملامح الذكاء ، وقد رأيت أنك تؤثر
خدمتي بدليل خداعك للكونت ، فوجهت علي مكافأتك وسأعينك في خدمتي
خلفاً لكولار . والآن اني أريد ان يظهر للشرع ان قاتل كولار هو نيكولو
وليس أرمان .
- كيف يكون هذا ؟
- هو سهل هين ، ويقتضي أن تشهد مع مدام فيبيار أمام القاضي ، أنه
هو القاتل .
- فنقده أندريا مبلغاً وافراً من المال وقال : أعطها هذه الدنانير فهي تطلق
عقدة لسانها وعد إلي في الليل لنذهب سوية الى الفندق .
- فذهب روكامبول ودخل اندريا الى غرفة حنة التي تركناها قد سقطت على
المقعد عندما انبأت بقدوم أرمان ولما رأت اندريا داخلها إليها وهي تنتظر أرمان
صاحت صيحة شديدة ورجعت الى الورا .
- وكان يتوقع مثل ذلك فدعى بسرير ويجمع الخدم ، فساعده على اقناع
الفتاة انه هو نفس الكونت أرمان دي كركاز وان الذي كانت تحبه باسم أرمان

لم يكن الا خادمه .

ثم تركها على أمل العودة اليها بعد أسبوع للاقتران بها فلبشت حنة حائرة ساهية وخيال ارمان يمثل أمام عينيها .

أما أندريا فانه كان يعلم ان لكولار خلية في لوندرة فكتب اليها بتوقيع كولار هذه الرسالة :

« حبيبتي املي »

« اني سأعود اليك بعد ثلاثة أيام من غير بد ، فقد توفقت بالحصول على مال كثير نقدر ان نعيش به سعيدين ، ان لدي الآن ثلاثين الف فرنك واليك بيان السبب في كسب هذا المال ، انه من أغرب المضحكات . ذلك اني كنت أطوف يوماً بشارع سانت لويس ، ولما قربت من وزارة الخارجية دعني فتاة كانت تسير مع أمها ، دفعت الي رسالة كي أوصلها الي صاحبها وقد نقدتني أجرتي . وقرأت على الغلاف هذا العنوان (فرناند روشي - في وزارة الخارجية) ، ففضيت الرسالة وقرأتها وعلمت أنها من خطيبته التي تدعى هرمين تخبره فيها انها فسخت عقد الخطبة ، وسرت بالرسالة وأنا أضحك حتى بلغت الوزارة ، وسألت عن فرناند فأدخلوني اليه وكان وحده في غرفة متسعة وأمامه صندوق نقود مفتوح ، رأيت فيه محفظة فيها كثير من القراطيس المالية ، فحدثتني نفسي بسرقتها . وبعد أن أعطيتها الرسالة وتلاها نظرت اليه واذا بوجهه قد أقتم بظلام اليأس وخرج من تلك الغرفة وهو يمدو كالمجانين دون ان ينظر الي ، فأسرعت الى المحفظة وأخذت ما فيها من المال ووضعتها في جيب سترته ثم خرجت أتقبه ، ورأيت بعد حين خارجاً من الوزارة وهو يحمل في سترته تلك المحفظة دون ان يعلم أنه سيكون له مع الوزارة شأن . »

وقد ظهر للقراء من هذه الرسالة ، اعتراف كولار بأنه هو الجاني وان فرناند بريء . وقد قلد فيها اندريا خط كولار تقليدأ رائعا لا يختلف

عن الحقيقة .

وبعد ان أتم كتابتها قدم اليه روكامبول وأخبره بقدم مدام فيبار .
ثم سارواياه الى الفندق وأخرجوا جثة كولار من القبو ووضعها في الغرفة
التي قتل فيها ، وأخذ اندريا تلك الرسالة التي كتبها ، ووضعها بجيب
كولار وقال لروكامبول اذهب الآن الى مدام فيبار وقل لها أن تسرع الى
دائرة الشرطة وتخبر الرئيس بما كان من قتل كولار ، وان القاتل هو نيكولو
وان ذينك اللصين كانا يأتیان بكثرة الى فندقها ، وانها سمعت كولار يقول
في تلك الليلة التي قتل فيها لرفيقه انه سيسافر قريباً الى لوندرة ، وانها سمعت
بعد ذلك دوي الغسارة فصعدت مملء الى الغرفة ورأيتا كولار ميتاً وأنذرکا
هؤلاء بالقتل اذا بحتا .

فذهب روكامبول مسرعاً .

وعند الصباح ذهبت مدام فيبار الى رئيس الشرطة وأخبرته بكل ما القاه
اليها روكامبول فقبض على نيكولو ، وذهب رئيس الشرطة الى الفندق ونظر
جثة كولار وفحص جيو به ورأى بها ذلك الكتاب الذي كتبه اندريا فلما اطلع
عليه سر سروراً مزيداً لبراءته فرناند التي لم يعد فيها ريب بعد تلك الرسالة ،
فأمر بدفن الجثة وعاد الى السجن وأطلق سراح فرناند ، الذي ذهب توكاً الى
منزل الكونت ارمان فوجد به ليون وباكارا وارمان الذي كان قلق البال على
بستيان لأنه لم يكتب له منذ خمسة ايام ، فقص عليهم كيف كان انقاذه وكيف
ان رئيس الشرطة اطلع على كتاب في جيب كولار القليل يعترف به انه هو
السارق ، فثبت لأرمان أن كل ذلك صنع اندريا وانه لم ينقذ فرناند الا ارضاء
لهرمين ! .

وفيما هم يتباحثون في هذا الشأن فتح الباب ودخل خادم قصر الكونت
في كارلوفان وعليه ملامح الكتابة فقص على الكونت حديث موت
بستيان المفجع ، وانهم رأوا جثته على شاطئ البحر وكيف أنهم رأوا

جواده مطعوناً بخنجر .

فازبد وجه ارمان وكاد يتميز من الغضب وأمر بأعداد المركبة وقال : هلم بنا الى بريطانيا .

بعد ان وثق أندريا من نجاة فرناند وأخبر هرمين وذويها بما كان من انقاذه وتبرئته ، فتنهدت هرمين تنهد القانط المستسلم الى القضاء وقالت : لقد وعدتك يا سيدي بالقران ولا أزال على وعدي .

وسر الجميع بذلك واتفقوا على ان يكون القران بعد يومين . ولما دنا اليوم الموعين احتفل في منزل مدام كرمارك بعقد الزواج بعناية الاحتفاء وكان الحضور كثيرين والمنزل يكاد يلتهب بالأنوار ولم يبق غير التوقيع على شروط الزواج ليفوز أندريا بتلك الملايين . فبينما المسجل يقرأ تلك الشروط دخل خادم وقال لسيدة المنزل : سيدي ان على الباب الكونت ارمان دي كركاز مع رفاق له .

ثم دخل الكونت فأنحنى أمام مدام كرمارك وقال : عفواً يا سيدي اذ جسرت ودخلت اليكم بمثل هذه الساعة فاني لم أقدم على ذلك الا لسبب خطير . انني يا سيدي حامل وصية البارون كرماروت الذي توفي منذ شهرين عن ثروة طائلة تبلغ اثني عشر مليوناً . والتفت الى أندريا وقال : اليس كذلك ؟

فاصفر وجه أندريا وقال : لا أعرف هذا البارون ، ولا علم لي بشيء من أمر هذه الثروة .

ولم يحبه ارمان وعاد الى سيدة المنزل وقال : أقاؤن لي سيدي بأبعاد المسجل ريثما أبين لكم حقيقة تجهلونها ؟

فذهب المسجل الى قاعة المدعوين ودنا ارمان من والدته هرمين وبيده ذلك النوط الذهبي الذي أعطاه إياه البارون كرماروت فقال لها : أتعرفين يا سيدي هذا النوط ؟

فأخذته تريزا ولم تكذب تراه حتى اختلج فؤادها وعادت إليها ذكرى تلك الليلة الهائلة فتورد خداهما بحمرة الخجل ، وأرخت نظرها إلى الأرض ، وقالت نعم .

فقال لها أرمان بصوت منخفض : إن هذا الرجل قد قاب عن ذنبه وقد عاقبه الله عقاباً شديداً وكلفني بعده أن أسأل له منك الصفح .
ثم عاد يخاطب بيرابو بصوت مرتفع فقال يجب يا سيدي ان تغير شروط الزواج فإن السيدة هرمين ليست بابنتك ، بل هي ابنة البارون كرماروت وهي صاحبة الملايين .

فصاح بيرابو صيحة منكرة ، ونظر إلى أندريا فرآه مضطرب كمن صمق أو كمن به جنة . أما هرمين وأما ، فكانتا ترتجفان كورق الخريف يحركه الهواء .

ودنا أرمان من أندريا وهدق نظره وقال: إني لو تأخرت ساعة لكنت زوج هرمين وفزت بالملايين ..

فشمخ أندريا بانفه وأجاب لا، علم لي بهذه الملايين وسيان عندي إن كانت عروسي غنية او فقيرة فان لدي من المال ما يكفيني ويكفيها .

— وأنا أعلم عكس ذلك فأنا كنت زعيم لصوص في لندرا وقد هربت منها الى باريس فصبغت شعرك وانتعلت اسماً غريباً ثم علمت من كولار بوصية البارون وان هرمين هي وريثته فنصبت المسكيد السافلة للاقتران بها ولكني وقفت على جميع كميديك ورددته الى محرك .

ثم نظر اليه نظرة احتقار وذهب الى الباب ونادى : فرناند فرناند ...

فارتعش أندريا وأمسكت هرمين بيد أمها حذراً من أن تقع ودخل فرناند ونظر إلى بيرابو نظرة منكرة ، ودخلت في أثره باكراً وهي بلباس الراهبات فركعت أمام هرمين فقال فرناند . لسنا الآن أمام المحاكم ولا بحضرة القضاة ، بل نحن بحضرة عائلة أنت رئيسها لسوء بختها وهي لا تحونك ، وأنا أسألك

الآن أن توضح له كيف كانت سرقة المحفظة ، وأن تعترف باني لم أسرق المال .
ودنت باكارا وقالت : إني يا سيدي كنت امرأة خاطئة وأنا أجتهد الآن
بالتكفير عن ذنوبي التي ارتكبتها عندما كنت أدعى باكارا .

ثم قصت على الجميع سابق حبها لفرناند وتلك الرسالة التي كتبتهام باملاء السير
فيليام وبالاتفاق مع بيرابو .
وقال أرمان لأريا : أرايت أيها الشرير كيف انتصر الخير على الشر أسمع
يا أندريا ؟

ثم أشار بيده الى الباب وقال له بلاء الاحتقار : أخرج من هنا .
وأخذ بيد فرناند وضمها إلى يد هرمن وهو يقول : إنك أهل لها وهي أهل
لك فليبارككما الله .

فر كع فرناند على قدميه ونظرت اليه باسمة ودموع الفرح في عينيها
أما أندريا فإنه خرج وعيناه تتوقدان بحمر الغضب ومر بارمان فقال : انك
انتصرت أيها الأخ ولكن ساعتي لم تأت بعد وسوف ترى كيف أنتقم .
وقالت تريزا لزوجها : أو مل يا سيدي ان لا تحضر زفاف هرمن وأرجو
أن تذهب في الحال الى باريس .

فخرج بيرابو كما خرج أندريا واليأس ملء فؤاده
ونفضت باكارا وقالت : وأنا لا أستحق أيضاً أن أحضر هذا الزفاف
فأستودعكم الله وأدعو للعروسين بالرغد والهناء .

ثم حاولت الخروج فأوقفها أرمان وقال لها : تعالي واستندي علي ، فإنه
مهما كانت ذنوب المحبين كثيرة وعظيمة فإن الله يغفرها لهم لأنهم كفروا عنها
بما قاسوه من العذاب .

وقال أندريا لبيرابو وقد ركبا مركبة البريد عائدتين الى بوجيفال تعال معي
ان سرين ستكون لك وستكون لي حنة .

ويذكر القراء أننا تركنا حنة مشغولة البال من وداع أندريا لها وتظاهره بحبها وما القاه عليها من عبارات ذلك الغرام المصنع ، الذي يشبهه تجربة الشيطان للإنسان . وقد كان مضى عليها الى ذلك اليوم ثمانية أيام من ذهاب أندريا عنها وهي لا يقر لها قرار من غريب ما سمعت ورأت . إنها أصبحت مخدرة مأخوذة لا تدري إلى أي الرجلين تميل إلى الذي أحبته أو إلى الذي قال لها أنا هو ، وبالتالي أحب الجسم أم الاسم ؟ وهل تهوى الخادم الذي أنقذها أم الرجل الحقيقي الذي انتحل ذلك الخادم اسمه ؟ ثم تغالبها أفكارها ويقوى عليها جمال من تهواه فتقول لرفيقتها سرين : لا يمكن أن يكون ذلك الرجل خادماً ولا يمكن أن يخدعني قلبي .

فلما كانت في مساء ذلك اليوم سمعت مركبة دخلت الدار ودخل عليها الخادم وقال : قد أقبل مولاي الكونت دي كركاز . ثم خرج ودخل أندريا مسرعة اليها وركع أمامها وقبل يدها وقال : لقد سمح لي الدهر أن أراك أخيراً .

فنظرت اليه ورأت على وجهه ذلك الجمال الجهنمي الذي لا يمكن للشيطان أن يتزيا باحسن منه فخانتها قواها وصاحت صيحة منكورة وهي تحسب أنها في حلم لا في يقظة ، فأخذها بين يديه وهو يخاطبها : يا حنة يا حبيبتي ويا حمايتي ها قد حضرت اليك ولا فراق يفصل بيننا بعد فأنت ستصبحين عروسي .

فأطبقت الفتاة عينيها وهي ترجف تحت عوامل وجد ونفور لا يمكن إيضاحها ثم تمثلت لها صورة ارمان فاضطربت في مكانها .

والتفت السير فيليام إلى سرين وكانت واقفة تنظر اليهما وقال لها : إنك سترين حبيبك قريباً وغداً تزفين اليه

فسقطت الفتاة على كرسي من هذه المفاجأة فنهض اليها أندريا وسقاها بعض نقط من زجاجة كانت معه فانتعشت واستوت جالسة فقال لها : إذهبي الى الغرفة التي كنت فيها في وسط الحديقة وانتظري قليلاً ، فإن ليون

أت اليك .

ثم أوصلها الى الباب فانطلقت مسرعة مستبشرة بقرب اللقاء ، وخلا له الجوفعاد الى حنة وعيناه تبرقان بنار الانتقام وانطلقت سريرة الى تلك الغرفة المنفردة وهي لا ترى في طريقها أحد من الخدم كأن القصر أصبح خالياً لا أنيس به سواها ، حتى بلغت غرفتها فوجدت فيها مصباحاً منيراً ، ولكنها لم تسمع حساً ولا حركة فجلست على كرسيها . وإذا برجل قد ظهر بغتة فصاحت وهي لا تعي ليون ، ولكنها لم تلبث أن تأملته حتى صرخت من الرعب وعرفت ان الداخل عليها بيرابو ذلك الشيخ القبيح المكروه ، فأقفل الباب وراءه وتقدم اليها قائلاً : ما أسعدني بلفاك أيتها الحبيبة .

فنهضت سريرة من مكانها مذعورة وهربت من وجهه الى آخر الغرفة فقال لها ضاحكاً : ما هذا الذي تفعلينه أتهربين من وجهه من يهواك ؟
ثم أقبل عليها فهربت من وجهه ووقعت وراء منضدة تحول بينها وبينه ، فقال لها هائلاً كفى مداعبة وجنونا يا حبيبة قلبي فانك لا تلبثين ان تتعي ويكون لي ما أريد .

فصاحت الفتاة مستغيثة : ليون . ليون .

فأجابها الشيخ : لقد ضحكوا عليك فان ليون لا يأتي وأنا الذي أتيت مكانه وما نحن الآن وحدنا والباب مقفل فلا أمل لك بالنجاة مني

فعمدت الفتاة تصيح مستغيثة وتهرب من وجهه وهو يتبعها حتى تعبت واستولى على جسمها خدر شديد فخانتها قواها وأظلم النور في عينيها وقد أثر فيها الشراب الذي سقاها إياه اندريا تأثيره المطلوب ، فسقطت على الأرض لا قوة بها ولا حراك فهجم عليها الشيخ كما يهجم النمر على فريسته الساقطة ، وإذا بصوت أوقفه مكانه والتفت فرأى رجلين لدى الباب ثم رأى أحدهما قد هجم عليه وضربه والقاه على الأرض ووضع ركبته على صدره وقال : ويل لك أيها الشيخ الأحق ، لقد أتيتك في أواني .

وكان ذلك الفتى ليون ورلاندي ولذي معه أرماني دي كركاز وفتحت سرير عينيها وقالت : أنقذني فقد كدت أموت .

ثم أدارت عينيها في الغرفة وأبصرت أرماني وقالت له والشرب يحبس لسانها : حنة .. في البيت .. أسرع أنقذها .

وكان السبب في قدومهما أنها كانا عائدين إلى باريس كان أندريا قد وصل إلى مجلس الفتاتين وصرف من فيه من الخدم وخاطب روكامبول : قد انتهت حراستك ، فاذهب الآن وأنا ذاهب في رحلة ، وسأدعوك متى احتجت إليك .

ثم وعده بمكافأة حسنة ولكنه لم يدفع له شيئاً ، ورأى الغلام لوائح الكدر على وجهه فلم بفراسته إنه لم ينجح في مسماه وان آماله قد خابت أو كادت تخيب فانطلق عائداً إلى باريس . وفيما هو في وسط الطريق قابله أرماني وليون وهما عائدان إلى باريس كما أسلفنا ، فمرفساه في الحال انه الغلام الذي خدعها ورمى رفيقهما في النهر ، فانقض عليه ليون واحتمله بين يديه إلى غابة هناك وجرد خنجره على صدره وتهدهده بالموت إذا صاح والثفت إلى أرماني وسأله : ماذا تصنع به الآن ؟

— نستنطقه عن محل الفتاتين

ثم وضع الخنجر على صدره وقال له . تكلم أو تقتل .

وكان الغلام قد قدر في فكره ان اندريا قد أحبط مسماه ، وأن لا أمل بنيل مكافأة منه وان الكونت أغنى منه وأصدق في وعده فرأى أن يهوح في الأمر ، بعد ان يستوثق من نيل المكافأة اللازمة عليه ، فأجابه : ماذا تريد مني ؟

فسأله الكونت أن تخبرنا اين حنة وسريز ؟

— لا أدري إلا إذا أعطيتاني ما أريد .

وما تريد ؟

— الف دينار .

— هي لك فتكلم .

فأخبرهما بحلية الأمر وأن الفتاتين على خطر إذا لم يسرعاً لإنقاذهما في تلك الساعة . وأقسم له الكونت أن يعطيه ما طلبه ، فصار الفتى بين أيديهما إلى بوجيفال حتى أوصلهما إلى غرفة سرير حيث رأياهما داخلين على غرفة ذلك الشيخ الفاسد وحيث قالت سرير لأرمان : اسرع وأنقذ حنة .

وأخذ الغلام بيد أرمان وقال له : تعال يا مولاي فأنا أدلك على مكانها ثم سار به مسرعاً إلى غرفتهما فسمع صوت أندريا يخاطبها . أحبك يا حنة وستكونين لي .

— أما أنا فلا أحبك .

ثم استنار فكرها بفتة وقالت : إنك لست الكونت فان الرجل الشريف لا يفعل هذا .

ورأى اندريا أن لا اللين يفيد معها فانتفض في مكانه وتطايير بريق الغضب من عينيه وقال : نعم اني لست الكونت بل انا أندريا المغضوب عليه وأخو الذي تحببته وأكرهه كما يكره الملاك الشيطان ولا بد من أخذك بالرغم عنه .

ثم هجم عليها وطوقها بذراعيه وقبل شفيتها تلك القبلية الفاسدة التي يرتعش لها جسم كل امرأة شريفة وقال لها إنك في قبضة يدي وهيئات لأرمان ان ينقذك مني

ولم يتم كلامه حتى سقط الباب مكسوراً ودخل ارمان كالصاعقة وقال : بل يخلصها منك بالرغم عنك فاركع واستغفر الله فقد قربت ساعة بماتك .

فاصفر وجه اندريا وخانته شجاعته لدى الموت فسقط راکماً على ركبتيه ، والتفت أرمان إلى حبيبته وسأها أين هذا الرجل قد أهانك فهو يستحق الموت ولكنه أخي من أمي فماذا تريد أن أفعل ؟

-- أعف عنه بالله .

فرجع أرمان غدارته من جبهة أندريا وقال له : إني أعفو عنك الآن باسم
تلك الوالدة وباسم مرثا التي كنت السبب في هلاكها وباسم هذه 'الفتاة الطاهرة'
التي دنسها بشفتيك فاذهب ملعوناً من الله والناس وعسى ان الله يشفق عليك
يوماً أنت يا من لم يشفق على أحد .

وبعد ثمانية أيام من هذه الحادثة أقيمت صلاة حافلة في كنيسة بايس
إقترن بها الكونت أرمان بحنة وفرناند بهرمين وليون بسريز وكان الى
جانبيه على هيكل الكنيسة امرأة لابسة السواد تصلي وتبكي وهو باثواب
الراهبات ، وقد أصبحت تدعى الأخت لويزا ، وكانت من قبل تدعى
باكارا .

انتهت رواية « الارث الخفي »

ويليها الجزء الثاني من روكامبول « التوبة الكاذبة »

الجزء الثاني

التوبة الكاذبة

التوبة الكاذبة

- ١ -

في يوم صفت سماؤه واعتل هواؤه كانت مركبة تسير سيرا حثيثا عائدة إلى باريس من الضواحي ، وهي جميلة الرونق تدل ظواهرها على أنها مركبة رجل من النبلاء ، وقد جلس في مؤخرها خادمان مرتديان أجمل الملابس التي يرتدي بها خدمة الأعياء ، وكان في هذه المركبة رجل يناهز الأربعين من العمر وامرأة لا تزال في عهد الشباب ونضارة الصبى وبينهما طفل صغير تقف عند رؤيته الأبصار معجبة بحاله البديع .

وكان الأب والأم يعبثان بشعر هذا الطفل الجميل وهما ينظران إليه نظرات حذو لا يفهم سره غير الآباء والأمهات .

وكان هذا الرجل الكونت أرمان دي كركاز والمرأة قرينته والطفل طفلها ولد على أثر زواجهما الذي عرفه القراء في القسم الأول من هذه الرواية وكانت المركبة تسير بهما في طريق ضيق وهما يتجاذبان أطراف الحديث ودلائل البشر والسعادة تلوح بين ثنايا وجهيهما فتعرب عما يختلج بنفسيهما من الحب والحنان .

وكان أرمان ينظر إلى ولده ثم ينظر إلى امرأته ويقول : ما أهنأ الحب وما أجمل ثمرة الزواج ، لقد جعلتني سعيداً في الأرض حق بت غير طامع

بسماعة السماء ا

وكانت حنة تسمع قوله ويفلجها الحنو ولا تجيبه بغير الدموع .

ثم جعل الزوجان يذكران ما لقياه من الهناء في إيطاليا، وكانت حنة نحن إلى هذه البلاد وتذكرها بالشوق والارتياح وقال لها أرمان العلك تؤثرينها على باريس ؟

- اني أفضل كل بلد مهما صغرت في عيون الناس على تلك العاصمة السوداء لقد لقيناها من الأحداث السيئة ما يدفعني عند ذكرها إلى الحزن والاكتئاب فاضطرب ارمان وقال : لقد شغلت فؤادي أيتها الحبيبة وما أخلك إلا قمسة في سكتي باريس ، لقد سمعتك مرة تذكرينها بخوف وتذكرين معها أخي أندريا العلك تخافينه الى الآن ؟

- اني لا اكتمك أيها الحبيب ، لقد كنت أخافه خوفاً شديداً لما عرفت به من الميل إلى الانتقام وقدرته على الشر ، أما الآن فقد زالت هذه الأوهام بتقادم الأيام عليها ، وأنا لا أخاف باريس ولكني أفضل البعد عن الناس ، لأن العالم بأسره قد جمع فيك ومتى كنت وأياك فردين أكون مع العالم أجمع .

فابتسم أرمان وهو يعلم ان امرأته قد أرادت ان تتنصل بهذا الكلام العذب من مخاوفها فقال لها : ليطمئن قلبك أيتها الحبيبة فإن أخي فاروقنا فراقاً لا لقاء بعده ، ثم سكت هنيهة سكوت المتأمل وقال : انني في اليوم الثاني من زواجنا أرسلت مع ليون رولاند مثنى الف فرنك هبة الى هذا الأخ الجبار ، وتمهد لي في مقابل ذلك تمهداً كتابياً أن يبرح فرنسا إلى اميركا حيث يجد مجالاً متسعاً للذئب أو للنسيان أو للندم ولا أعلم ما من امره بعد ذلك ، غير اني وثقت انه سافر إلى اميركا كما علمت من تقارير البوليس السري الذي لا تخفاه خافية .

وقبل أن يتم أرمان حديثه سمع سائق المركبة يصيح مندهراً ويقول : احذر ثم أوقف المركبة مضطراً بعد أن كرر الانذار مراراً .

فاضطرب الزوجان وسأل أرمان السائق عما أصابه ، فأجابهُ وقد سكن روعه لزوال الخطر : لقيت رجلاً منطرحاً على الطريق فما استطعت اجتنبه لضيق الطريق ولم يسمع صوت تحذيري ويحتمل الخطر - انه سكران ولا ريب . ثم نادى واحداً من الخادمين اللذين كانا في مؤخر المركبة وقال له : اذهب وانظر في شأن هذا الرجل . ثم لم يترك أن ذهب في أثره وخرج من المركبة وتبعته امرأته حتى أشرفا على الرجل الممدد على الطريق وإذا به رجل حافي القدمين ممزق الملابس وعلائم الشقاء بادية على وجهه الضئيل وهو في حالة تقرب من الاغماء . فأشفقت حنة عليه وقالت : يا له من بائس مسكين لقد قتله الجوع . ونادى أرمان أحده قائلاً أسرع بزجاجة الشراب .

ثم أخذها من الخادم وجعل يسقي بيده من شرابها المنعش ذاك الرجل المسكين غير أنه لم يلبث أن حلق به حتى اضطرب قائلاً . ما هذا الشبه الغريب أنه لا يفرق عن أخي بشيء . ودنت منه حنة أيضاً ورجعت إلى الوراء منذرة وقالت هو هو بعينه ولا مجال للريب .

وأقام أرمان هنيئة وهو مكعب عليه ينشقه الروائح المنعشة حتى استفاق من اغماؤه فجعل يقول بصوت متقطع كصوت الحالم ؟ لقد عضني الجوع . أين أنا . كيف سقطت في الأرض .

ثم جعل يقلب طرفه بين الحاضرين حتى استقر على أرمان فحلق به تحديق المنذهل ، ثم ظهرت عليه دلائل الخوف والذعر حين تبينه ، فأجفل وحاول التخلص من أيديه ولكن رجليه لم تقويا على حمله فسقط ثانية على الأرض .

ولما رآه أرمان على هذه الحال جال الدمع في عينيه من الحنو وصاح به أنت أندريا ...

فأجابه الشحاذ بصوت مختنق . . من هو أندريا ... انه مات ولا أعرفه وأنا ادعى جبروم الشحاذ ، وقد نطق بهذه الكلمات بصوت يتجلى وحاول

الافلات ثانية من أيدي الخادم فخانتته قواه وسقط أرضاً مغمياً عليه وقد صبغت هيئته باصفرار الموت .

ففسى ارمان جميع ما ارتكبه اخوه من الذنوب ولم يذكر غير شيء واحد وهو ان هذا الرجل البائس اخوه وسرت هذه العاطفة الشريفة نفسها إلى قلب امرأته فامرت وأمر الخادمين ان يحمله إلى المركبة فلما نقلاه اليها أمر السائق أن يذهب مسرعاً إلى باريس .

ولم يفق اندريا من اغماؤه الطويل إلا وهو مسجى فوق سرير في غرفة أخيه وحوله الطبيب وجميع من في المنزل فدنا ارمان منه وقال له : طب نفساً إنك الآن عندي أي في بيتك وبيت أخيك فنظر إليه أندريا نظرة المنذع ثم قال له كلا لست بأخيك ، بل أنا رجل متشرد لا مأوى له ولا زاد بل أنا رجل شقي ينتقم مني الله بعدل لفرط ما أسأت إلى الله وإلى الناس بل أنا ذلك المذنب الأثيم التائه في بوادي الندامة يلتمس الغفران ويقتله تقريع ضميره مراراً كل يوم .

وصاح ارمان صيحة فرح وقال وافرحتاه انك رجعت عن غرورك وثبت الى رشك فاسرع الى احضان أخيك وأعلم ان أمنا واحدة وقد حملتنا في بطن واحد .

فقال اندريا بصوت أجش : أسببت الذي قتل هذه الأم ... ثم تنهد تنهد الغانط وسأله . ألا تعدني يا أخي باطلاق سراحي حين أثوب الى العافية فاسير في طريقي . ان قطعة من الخبز وكأساً من الماء يكفيان ، ولا يحتاج جيروم الشحاذ الى أكثر من هذا .

وأشفق ارمان عليه وقال : ما اصابك وما هذا الشقاء الذي بلغت اليه ؟

— انه شقاء اختيار لا شقاء اضطراب لقد مثلت لي ذنوبي بشكل رائع هائل فندمت ولم أجد بداً من التمكيز عن تلك الذنوب وذلك انك اعطيتني حين مبارحتي باريس مائتي الف فرنك فما انفقت منها فلساً ولا تزال وديعة في

مصارف نيويورك ليوزع رهاها بأمرى على المستشفيات لأنى؟ إست فى حاجة الى شيء . وقد حتمت على نفسى أن أطوف الأرض وأمر بالناس متذللًا مستجدياً فلا آكل غير فضلات خبز المحسنين ولا أبىء إلا على الطرق فافترش الأرض والتحف السماء وعسى أن يغفر الله لى بعد هذا التكفير إنه لغفور رحيم .

فبرقت أسرة ارمان من الفرع باهتداء أخيه وقال له . لقد كفى ما كفرت به وأذا اضمن لك عفو الله وأغفر لك جميع ما أسأت به إلى ، ثم طوقه بذراعيه وقال له : كلا انك تعيش فى منزلى كما يعيش الاخوان ، ابق أياها الأخ الحبيب بيننا ، إنك ستكون سعيداً مع أخيك وأمرأة أخيك وابن أخيك .

- ٢ -

مضى على ذلك شهران تعافى فى خلالها اندريا وكان لا يزال مقيماً فى منزل أخيه ولكنه كان يتقشف تقشف الزاهدين امام أخيه ويحلد نفسه بالسياط لا يطالع غير الكتب المقدسة ويشتغل النهار كله فى محل تجارى فيعطي جميع ما يكسبه لإمرأة أخيه كي توزعه على الفقراء ولا ينام فى الليالى الباردة إلا على الأرض وهو يجري جميع ذلك دون أن يدع أحداً فى المنزل يقف على ما يصنع بنفسه لشدة مبالغته بالتكتم فى الظاهر غير أن اخاه ارمان كان يراقبه مراقبة شديدة فيقف على جميع ما يصنعه ويخبر امرأته بما يراه فكانت تعجب بندامته اعجاباً شديداً حتى باتت تحسبه من الأبرار الصالحين وتشفق عليه اشفاق أخيه وطالما طلبت الى زوجها أن يلح عليه ويكرهه على تغيير خطئه والاشفاق على نفسه فكان يظهر لها عجزه عن ارجاعه حتى وثق الزوجان أن حياته لا تطول .

وفى ما يتباحثان ليلة فى شأنه قال ارمان لامراته لقد خطر لى رأى

أرجو أن أتمكن به من انقاذ حياة هذا الأخ التائب .

وما عسى ان يكون هذا الرأي ؟

- تعلمين اني حين سفري وإياك إلى إيطاليا عهديت إلى أصدقائنا فرناند روشي وليون رولاند والأخت لويزا ان ينوبوا عني بإغاثة البائسين ودفع ثكبات الفقر عن أولئك العمال والعاملات الذين تصدهم المروءة عن الالتئاس وارتكاب المحرمات ولا يجدون من رواتبهم القليلة ما يردون مكائد الدهر ويدفعون به غدر الزمان ، أولئك هم الفقراء والفقيرات ، وليس الفقير ابن السبيل الملتئس ما بأيدي الناس .

.. أعلم جميع هذا ..

- ولقد وفي أولئك الأصدقاء بجميع ما عهديت به اليهم فوقوا كثيرات من البنات غوائل السقوط وانقذوا كثيراً من الفتيان من مغالب اليأس فجبرى ذلك مشروع الخير في مجراه ولكن مشروع العدالة لم ينفذ بعد .

- ماذا تريد بهذا القول ؟

- اصغى اليّ ، لقد التقى منذ عشرة أعوام رجلان في مرتفع يشرف على باريس فأشار أحد الرجاءين بأصبعه الى تلك العاصمة وجعل يقول

« يا مدينة باريس العظمى ، يا ملكة العواصم بك اجتمع النعم والهناء ، وبساحتك استقر البؤس والشقاء ، يا بابل القديمة ان الذنوب فيك تحمك بالفضائل وأصوات الضحك تقترن بأنات البكاء ، وأغاني الحب تمزج بدموع اليأس ، والقاتل الشفاك يمشي على الأرض التي يمشي عليها الورع الزاهد ، وقد عجزت شريعتك عن معاقبة المجرمين وعجز أولو البر فيك عن إغاثة البائسين فما عوقب مسيء ، ولا كوفئ محسن ، ومن لك برجل موثر شريف يغفل يد الظالم ويحتر قلب البائس ويرثي لدمع الأرملة ويحن لشقاء اليتيم . »

ثم أشار الآخر بأصبعه الى العاصمة قائلاً :

« يا ساحة المذات ونعيم الدنيا وقطب الأمانى ، لقد وصفت يجهال نساءك ،

واشتهرت بالبدايع ، فمن لي بالذهب الكثير استغوي بها الفتيات الطاهرات ، واشتري به النفوس الشريفة فاصرفها الى الغواية واستخدمها فيما أريده من التمتع ببلاد الشباب . »

إن هذا الرجل ، بل هذا الداهية الذي كان يتفوه بهذا الكلام كان أخي أندريا الذي بات اليوم من المساكين . وكان ذلك الرجل المشفق الذي كان يتمتع الثروة لإنفاقها في سبيل إغاثة الملهوف زوجك أرمان وقد ظفر كلانا بما كان يرجوه ويتمناه أما وقد تاب أخي قوبة لا رجوع بعسدها الى المعاصي فقد رأيت ان أستخدمة لردع شرور الفاسقين فإنه إذا كان قد رجع عن الغي والضلال والمنكرات فإنه أعلم باصحاب الآثام وأبصر بطرق منع الشرور ومثل هذا الرجل الحاذق الذي يعد من النوابغ اذا جرد قريحته لمقاومة الشر يدفع كثيراً من البلاء عن أخيه الانسان .

ثم انك تعلمين اني معين بوليساً سرياً لهذا الغرض ، فإذا عيّنت أخي رئيساً لهذا البوليس السري يبلغ بحسن إدارته أقصى درجات الكمال . فاستصوبت حنة هذا الرأي وقالت : لا أظن ان أخاك يأبى قبول هذه المهمة فانه اذا كان يزهّد للاستغفار فإن دفاعه عن الأبرياء ومقاومته للشر تدنيه أكثر من التقشف .

وفيما هما يتباحثان إذ دخل خدام الكونت وأعطاه غلافاً ضخماً يتضمن كتاباً مسهباً ففضه ارمان وجعل يقرأ ما فيه كما يأتي :

« إن بوليس سيدي الكونت السري أخذ الآن بالبحث عن جمعية سرية عقدت حديثاً في باريس ، وقد ظهر ان هذه الشركة متشعبة في جميع العاصمة ، ولم نقف بعد على شيء من طرقها في الاجراء ولا عرفنا رئيسها وأعضائها . غير أنه تبين لنا ان الغرض من هذه الشركة ان يتحصل أعضاؤها على جميع الوسائل السرية المشوشة لنظام العائلات فيستخدمونها للانداز والتوصل لما يريدونه من الأغراض وقد بذلنا الجهد للوقوف على أسرارها فلم نظفر بعد بشيء

ولكننا لا تفتر لنا همة عن اقتفاء أثرها .
ولما فرغ ارمان من تلاوة هذا الكتاب أخبر امرأته بضمونه وقال : إن الله أرسل لنا أندريا لمقاومة هؤلاء اللصوص .

ثم دعا خادمه وأمره ان يذهب ويدعوه له أخاه أندريا .
إن من عرف الفيكونت أندريا أي السير فيليام أي أخو ارمان دي كركاز أي ابن الكونت دي فيليبون على ما مثل في رواية الارث الحفي السابقة ينكره متى رآه الآن ، وقد امتقع لونه وهزل جسمه ، وهو بلباس تدل على الزهد ، فإذا مشى أرخى نظره الى الأرض ، وإذا تكلم نطق بصوت ضعيف ، وإذا نظر الى محدثه نظر اليه نظرة الضعيف للقوي ، وقد ذهب رواءه القديم وخذت جذوة نظراته الجهنمية .

وكان لا يحسر ان يطيل النظر الى امرأة أخيه كأن مرور أربعة أعوام لم يمح آثار ذنوبه وإساءته اليها فلما قدم الى أخيه وقف أمامه وأمام امرأته وقفة الذليل وقال : ها قد أتيت فماذا تحتاج مني ؟
- إني دعوتك لأني محتاج اليك

فبرقت عين اندريا باشعة الفرح وأضاف : حبذا الموت في خدمتك .
- إني لا أطلب اليك ان تموت بل أن تحيا .
وقالت لمرأة أخيه : أي انت تعيش كما يعيش الناس .

ثم أخذت يده بين يديها وضغطت عليها بحنو وإشفاق فاحمر وجهه اندريا وحاول ان يجذب يده وهو يخاطبها : لست أهل يا سيدتي لحنوك فما أنا غير أثيم شريد .

فتنهدت حنة ورفعت عينيها الى السماء وهي تضيف : لا شك إنه من الأبرار .

وأضاف ارمان : إنك تعلم ايها الأخ العزيز إني موقف نفسي ومالي لعمل الخير وأنا أرجو مساعدتك لي في هذه المهمات

فارتعش أندريا وأجاب أيمقى الخير خيراً إذا قدنس بيدي الأثيمة ؟
فرد أرمان : إني لا أطلب اليك ان تعمل الخير ، بل ان تساعدني على
مقاومة الشر .

ثم دفع اليه التقرير الذي ورده من البوليس السري .

وبعد ان قرأه أندريا ، وهو يظهر العجب والدهشة أضاف أرمان : إنك
قد شقيتني في توبتك وندمك شقاء عظيماً كان شقيماً لك الى عفو الله والآن فعد
الى ما كنت عليه من النشاط والذكاء والجرأة النادرة كي تستطيع أن تقاوم
أولئك اللصوص .

وأطرق أندريا هنيئة ثم أجاب . سأكون ذلك الرجل .

فسر الكونت غاية السرور وقال الآن قد وثقت من كشف الستر عن
هذه الجمعية الهائلة .

وفيما هم على ذلك فتح الباب ودخلت منه امرأة لابسة ملابس سوداء كما
تلبس الراهبات ، ولم تكن هذه المرأة بل تلك الفتاة غير التي عرفها قراء
روايتنا السابقة باسم باكارا ، وقد مات كل شيء من تلك الفتاة التي كانت
من أشد بنات الهوى غدراً ، ولم يبق فيها حياً غير جمالها النادر الذي لا
يقيد بها شيء ، وقد استبدلت اسمها القديم باسم الأخت لويزا على انسا
نستسمح القراء ونبقي لها اسمها فتبدو لهم بذلك الحال الغريب الذي كانت
تسمى ان تخفيه بالملابس الضخمة ولكن الورد لا يستر جمالها ما يحيط بها من
الشوك غير ان هذه الفتاة التي عرفت أسرار الهوى ثم تابت بمد ان حبسها أندريا
في مستشفى المجانين لم تبق من مظاهر التجميل غير ذلك الشعر المنسدل على كتفيها
كالأرقام السوداء

ولما دخلت باكارا هشت اليها مدام دي كركاز ومدت لها يدها للسلام ،
فظهرت على وجهها علائم الخجل ، كما بدت هذه العلائم على وجه اندريا .
فقام أرمان وأمسك بيدي باكارا وأخيه وخاطبهما قائلاً : لقد كنتم شيطانين

على الأرض تتعاونان على الشر ، فأصبحتا بعد توبتكما ملاكين ، فتماونا الآن على الخير .

ثم وضع يد باكارا بيد أخيه . فنظرت باكارا الى أندريا وهي تقول في نفسها لقد خدع أرمان وخدعت امرأة أرمان ، فإن مثل هذا القلب لا تصل اليه التوبة .

- ٣ -

بينما هذه الحوادث تجري في بيت ارمان كانت حادثة أخرى تجري بعد ساعة في شارع آخر .

وكان الليل حالك الأديم والضباب كثيفاً ، حتى ان المار بذلك الشارع لم يكن يستطيع ان يهتدي لسبيله على كثرة أنوار الغاز لشدة عصف الهواء الذي كان يهب على تلك الأنوار فيقبض السنتها من حين الى آخر . وكان في عطفة من ذلك الشارع بيت كبير حسن الظاهر ، فلما انتصف الليل كثر طرق باب هذا البيت ودخل اليه خمسة رجال الواحد بعد الآخر ، فكان الداخل منهم يدخل من الباب العام فيسير عدة خطوات في دهليز طويل حتى يبلغ الى باب سري في حائط الدهليز فيطرقة ثلاث مرات متوازنة فيجيبه صوت من الداخل قائلاً : أين تذهب العلك أتيت لتسرق خمرى ؟

فيجيبه الطارق من الخارج : كلا ، فإن الحب صالح (وهي جملة مصطلح عليها بينهم)

فيفتح الباب عند ذلك ، ويدخل الزائر ويمجد بصيصاً من النور يذبعث من مصباح ضعيف ويرى أمامه سماً طويلاً ، ولكنها غير ذاهبة صعداً كالسلام المألوفة ، بل أنها كانت تخترق جوف الأرض فينزل منها الزائر حتى يصل

الى غرفة متسعة رصفت بها براميل الخمر بعضها فوق بعض ، وفي صدر هذه الغرفة منضدة حولها خمسة كراسي مصفوفة ويرى جالساً على المنضدة شاباً جميل الطلعة ، لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة ، وأشعة الذكاء تتوقد من عينيه ، فيحيطي هذا الغلام تحية المرووس ، ثم يجلس في مكانه من القاعة .

وكان عدد الحضور خمسة ما عدا الرئيس فكان أحدهم حسن الملابس وفي عروة ثوبه إشارة تدل على انه من أصحاب الوسامات والثاني يناهز الثلاثين والثالث شيخ عجوز تبدو عليه مظاهر القوة والرابع غلام يبلغ سن الرئيس والخامس شاب تدل هيئته على انه من خدم البيوت الكبيرة .

ولما تكامل عدد المدعويين نظر اليهم الرئيس وحدثهم قائلاً إن جمعيتنا أيها السادة يطلق عليها عنوان الجمعية السرية وأعضاؤها أربعة وعشرون عضواً ليس بينهم من يعرف الآخر على ان لكل منهم الحق بالوقوف على نظام هذه الجمعية وأخص بنوده ان يطيع الأعضاء طاعة عمياء لا حد لها رئيسنا الذي لا يعرفه أحد سواي لأني الوسيط بينه وبينكم .
فانحنى الأعضاء عند ذكر الرئيس إشارة الاحترام .

وأضاف : وقد صدر أمر الرئيس ان تجتمعوا أنتم الذين دعوتكم دون سواكم كي يعرف بعضكم بعضاً لأنكم ستشتركون بعمل واحد نؤمل ان يعود علينا بالخير العميم ولا أعلم شيئاً من ذلك فإن مهمتي بينكم ان أنقل اليكم أوامر الرئيس السري كما أتلقها منه .

ثم التفت الى أحد الأعضاء فناده بلقب ماحور وقال: إنك تزور كثيراً من الأسرات النبيلة
فأجاب الماحور ، أجل .

فجعل الرئيس الصغير يقلب أوراق كتاب كتب عليها رموز إصطلاحية ، الى ان عثر بما يبحث عنه فسأله : الك معرفة بالمركيزة فان هوب ؟ وهل

- أنت مدعو الى الحفلة الراقصة التي ستحييها ليلة الأربعاء القادمة ؟
- أجل .
- اليست هذه المركيزة أسبانية أميركية تزوجت هولاندي وعمرها الان ٣٠ عاماً ؟
- أجل .
- أهى غنية كما يقولون ؟
- لانهم يقدرون دخلها السنوي بليون فرنك
- أصبح ما يروى عنها انها تحب الفنون الجميلة وانها كانت تتعلم صناعة النقش منذ عهد قريب ؟
- فمنض أجد الحاضرين وقال ذلك لاريب فيه فاني كنت أستاذها
- وأضاف الرئيس أصبح انت زوجها يغار عليها غيرة شديدة وانسه لا يتجاوز الأربعين من العمر ؟
- إنه بات بغيرته مضرب المثل ولكنها غيرة في غير موضعها لأن المركيزة معروفة بالطهارة والعفاف .
- فأوما الرئيس بيده الى أحد أعضاء الجمعية وأضاف انك ستصحب معك ليلة الرقص المسيو شاروبيم وتحرفه بالمركيز
- وكان شاروبيم هذا في مقتبل الشباب وله جمال عجيب لقب من أجله باسماء الملائكة ثم عرف به الماجور وبعد ذلك قال له اليس للمركيزة علاقة مودة مع امرأة تبلغ الخامسة والثلاثين ؟
- أجل ، وهي أرملة تدعى مدام ملايس ، لقيتها مراراً كثيرة عند المركيزة
- ألم تكن متهمه بواجباتها الزوجية في حياة زوجها ؟
- هي تهمة يدري بها الأكثرون .
- ولكن المركيزة لا تعلم شيئاً من حياتها السابقة ، وتحسبها من أفضل

النساء ، وكذلك الدوق مايي الشيخ فإنه يهاها ويحاول أن يتزوجها فيحرم حفيده الكونت مايي من إرثه العظيم وقد أوشك أن يسقط هذا الكونت في مهاول الإفلاس .

— بل سقط ولم يبق له من ماله غير الندم على ما فات .

فالتفت الرئيس الى أحد أعضاء الشركة وقال له : إن هذه الأرملة التي نذكرها محتاجة الى رجل يدير منزلها ويكون لها وكيل في أعمالها فاذهب اليها واعرض عليها خدمتك .

فأحنى الرجل رأسه إشارة الامتثال ، فقال له الرئيس : إنك كنت بالأمس مستخدماً في قصر الدوق مايي الشيخ وطردت منه ؟
- بل إني دعوته الى طردي امتثالاً لأوامرك .

— هو ذاك ولكنك نسيت أن ترد الدوق مفتاحاً كان ائتمنتك عليه وهو مفتاح حديقة بيت الأرملة ، ولا بد أن تكون قد عرفت عوائد الدوق وكيف ينفق وقته في مدة خدمتك له
— أجل لقد خبرته خبرة تامة شأني في معرفة جميع من أخدمهم .

فأبدى الرئيس علامة الرضى وقال له : إنك تذهب في الغد الى صانع أقفال فتصنع مفتاحاً آخر مثل المفتاح القديم وترده الى الدوق وتبقي المفتاح الاخر معك فتدفعه الى هذا .

وأشار بيده الى أحد أعضاء الجمعية .

ولما فرغ من ذلك قال للحضور : إنكم الان قد عرفتم بعضكم بعضاً فانصرفوا الى شؤونكم وستردكم التعليمات الى منازلكم .

ثم فض الجلسة وتفرق الحاضرون فلم يبق في الغرفة الا الرئيس الصغير ، وعند ذلك سمع طرقاً على باب سري فدنا من الباب وأجاب : أدخل ايها السيد فقد انصرف الجميع .

ففتح الباب وظهر منه أندريا وهو يقول بلهجة الساخر : لقد أعجبني منك

ياروكامبول انك ترأس الجلسات كما يرأسها القضاة .

أما روكامبول الذي يظهر الان بمظاهر السيادة فما هو إلا روكامبول الذي عرفه القراء في آخر رواية الارث الخفي ، أي ابن الأرملة فيبار الذي أطلع أرمان على دسيسة اندريا حينما كان يريد اغتصاب عروسه ، وقد سافر بعد هذه الحوادث مع اندريا الى نيويورك فتبناه اندريا وأحسن اليه لما توسم فيه من الذكاء ، ثم جعل يدربه ويعلمه اسرار مهنته الى ان نبسغ فيها ولما رجع من نيويورك الى باريس صحبه معه وجعل يشاركه في كل لائم وزور حتى الف أخيراً هذه العصابة التي تقدم ذكرها فعينه رئيساً بالظاهر عليها وبقي هو الرئيس الحقيقي .

فلما دخل اندريا عليه حاول ان يخبره بما كان من امر العصابة فقاطعه :
لا حاجة لي بذلك فقد سمعت كل شيء بل اني في حاجة الى الطعام فأعد لي
أفغره لأنني لم أبتلع شيء منذ الصباح .
— إذن لندخل الى البيت حيث تجد فيه جميع ما تشتهي .
ثم دخل الاثنان يتأبط كل منهما ذراع الآخر واندريا يقول : سترى ايها
الأخ العزيز كيف يكون الانتقام

- ٤ -

ولما بلغا الى داخل البيت الذي كانا يجوزان اليه من ابواب سرية دخلا الى
غرفة الطعام وجلسا حول المائدة يأكلان ويتحدثان وقد افتتح الحديث اندريا
فسأله كيف حال الصندوق ؟
فأجابه روكامبول : أي صندوق تعني ؟ صندوق الشركة أم صندوق
الخاص ؟

- بل صندوقك فاني أعلم ميزانية الشركة
- لقد ذهب معظم مالي بما أخسره في المقامرة فقد خسرت امس مائة جنيهه وأنت الذي أمرتني أن أخسر
- هو ذاك .. فإنه يجب على المرء ان يزرع كي يجني ، ومن يحسن الزرع يحسن الحصاد .
- ولإني أنفق كثيراً على هذه الخليفة التي لا أعلم كيف أرضيها وهي كالخوت لا يرويه شيء يلتهمه .
- إنك ستطلق سبيلها في القريب العاجل ، فلم يعد لي بها حاجة وقد أدركت منها ما أريد .
- فأجابه روكامبول وقد جمعت نفقاتها ونفقات المنزل وخسائر القمار فبلغت ٤٠ الف فرنك في هذا الشهر ، ولا يمضي على ذلك زمن يسير حتى تفرغ جيوبي .
- لا بأس فسأملها إذا كنت تحسن الطاعة والسلوك .
- فنفر روكامبول وقال : لعن مولاي يشكو مني قصوراً في طاعتي وامتثالي ؟
- . كلا ، ولكننا مقدمون على أمر خطير يجب فيه الطاعة العمياء .
- . أيطلعي سيدي على حقيقة ما ينويه .
- نعم ، فإن لي بك ملء الثقة وما أتيت اليك في هذه الليلة المدلّمة إلا لهذا الغرض ، ولا بد لي قبل إطلاعك على ما أريد من مقدمة صغيرة ، وهي أن الطاعة والحب والاخلاص ومعرفة الواجبات كلها كلمات لا معنى لها في قاموسنا ، ومن كان مثلنا لا يدفعه الى الاخلاص غير الفائدة والصالح . وهذا هو خير تعريف لما يدعوه الناس بالصدقة ، ودليل ذلك انك لو عثرت على رجل أشد مي في مواقف الذكاء وأفادك أكثر مما أفيدك لتخليت عني ونقضت عهدك او تكون من زمرة الجهال ولكنك لا تجد الآن فأنا أطلعك على شيء من

مقاصدي دون ان أخشى منك نقض عهد .
فأعجب روكامبول بكلامه ، وأجاب : إني طوع لارادتك ، فمر
بما تشاء .
- لنبدأ من الأمور بأهمها . فقل كيف رأيت روايتي المضحكة في دخولي
الى بيت أخي ؟

- هي خير ما رأيته على مراسح التمثيل ، فقد أنقنت تمثيلك والاعضاء
على قارعة الطريق ، حتى لقد خدعت به انا على ما أعرفه من حقيقته ، ولو
لم أكن انا ذلك السائق الذي كان في مركبة أخيك لداستك المركبة ، ثم
ان قوبتك وندمك وجميع ما تبديه من مظاهر الصلاح لا يقوى على بعضه
اشهر الممثلين ولكني لا أظنك تستطيع ان تعيش طويلا على هذا
التعسف والزهد .

- إني أعيش دهرأ عيشة الأذلاء كي أروي غلي من الانتقام وان الانتقام أعرج
بطيء السير ولكنه يصل .

ثم أخذ اندريا يتأمل هنيهة وهو يعد أصابعه فقال : نبدأ بالكونت ارمان
لأنه أعظم أعدائي .
- وأنا أبدأ بخنجرى فإنه افضل سلاحى .

- كلا لم يحن الوقت بعد . ثم أتليه بامرأته حنة فلما لم تحبني بعد ولكنها
سحبني ثم أتليها بباكارا فانها ستبكي بكاء شديدا حين أقبض عايبها وتندم الندم
العظيم لافلاتها من مستشفى المجانين .

فقاطعه روكامبول . ولكنها في جمالها وذكاها ، وخير لك ان تكون
صديقتك

- لدي افضل منها وهي ستكون لك بدلا من خليلتك ، اذا أحسنت
السلوك .

ثم عاد الى حسابه وأضاف : وبعد باكارا يأتي فرناند روشي ، فقد اتهمناه

بالسرقة فلم نفلح ، ولا نفوز الآن ايضاً بمثل هذه التهم ، فانه من كبار الأغنياء . ولكننا سنمثله للقضاء قاتلاً سفاكاً ، والثروة لا تعصم الأغنياء من جريمة القتل .

— وما عساك تصنع بامرأته هرمين ؟

فأجابه أندريا ببرود : إن هذه المرأة قد تنسازلت الى حبها ، فرفضت حيي . ولذلك سأسحق كبرياءها بقدمي وأرمي فؤادها بهوى يحط مقامها ويصم حياتها الحاضرة والمستقبل بوصمة عار لا تمحي ، فأجعل عرضها مضفة الأفواه وأزج بها الى الحضيض . ثم أضاف وبعد ذلك يأتي دور ليون رولاند ، فلقد قتل هذا الأبله كولار رئيس عصابتي السابق ، ودم رجالي لا يذهب هدرأ .

— وماذا تصنع بامرأته سريز ؟

— الحق اني لا أريد بهذه المرأة شراً . ولكن والد هرمين لا يزال مفتوناً بها حتى لقد جن في هواها ، وقد وعدته وعوداً احب ان أنقضها .

— أهذا كل ما تبغيه من الانتقام ؟

— أجل .

— وحنة امرأة أخيك ؟

— إني لا أكرها بل أحبها .

وكان هذه الكلمة التي خرجت من فم هذا الرجل الهائل كانت قضاء مبرماً على أرمان دي كركاز وحكمًا بموته لا يدفع .

فسأله روكامبول : لقد أخبرتني باسماء الذين تريد الانتقام منهم ولكنك لم تقل لي شيئاً عن طريقة الانتقام .

فابتسم اندريا ابتسام الأبالسة وقال إن من يريد الانتقام لا يكشف طرق الانتقام بل يبقئها مكتومة في صدره .

فغير روكامبول مجرى الحديث وقار إذن فقد عولت على ان تستمر على

زهديك الحاضر .

-- أجل .

-- أفي مثل هذا الشتاء القارص تنام بغرفة لا نار فيها ؟

-- إن في قلبي من نار الانتقام ما يكفيني للاصطلاء .

-- أتشتغل جميع ساعات النهار في ضبط الحسابات ومسك الدفاتر في

مخزن حقير .

-- كلا فان أخي العزيز قد كفاني مؤونة هذا العمل الشاق فجعلني رئيساً

لبوليسه السري .

ثم أخبره بجميع ما كان بينه وبين ارمان . وكيف انه سيضل هذا البوليس فلا يدعه يقف على شيء من أسرار جمعيتهم السرية . ولما انتهى من حديثه سأله روكامبول :

-- لقد كتبت عني طريقة انتقامك . أفتمت عني أيضاً هذا السر الذي الفنا

من أجله هذه الجمعية ؟

-- نعم أخبرك بما يجب ان تعلمه ، أي بالمقدمات التي لا بد من إيقافك

عليها فاسمع :

إن هذا المركيز الذي يدعى فان هوب والذي يقدرون ثروته بالملايين لو لم يتزوج لكانت ثروته تقدر بأضعاف ما هي عليه الآن ، وذلك أنه كان لهذا المركيز عم فقير فبرح وطنه الهولندي في صباه وسافر الى الهند فدرت له أخلاف الثروة وتزوج بامرأة هندية فولدت له بنتاً ترك لها مهرأ يبلغ عشرين مليوناً ، وقد ذهب المركيز فان هوب منذ عشرة أعوام لزيارة عمه في الهند فأقام عنده زمناً طويلاً وأحبته ابنة عمه حباً شديداً ، وقد جاهرته به لأبيها وأخبرته . انها لا تتزوج سوى ابن أخيه . فرضي الأب بهذا الزواج وتوافق عليه العاشقان .

وكان المركيز قبل الخطبة عازماً على الطواف حول الأرض فأجل الزواج الى

انتهاء الطواف وودع الخطيبة ورحل .

وقد بدأت رحلته من جزائر الأنتيل ، حتى إذا بلغ إلى هافانا رأى فيها فتاة شغفت له وملكت قياده ، فنسي ابنة عمه وحنث بوعوده واقترب بتلك الفتاة .

فقال روكامبول : يا له من أبله أترك عشرين مليوناً كي يمثل لصوت فؤاده الضعيف ؟

-- ولكن امرأته غنية أيضاً . وهو يحبها حباً بلغ به حد العبادة ، غير أن هذا المركز لم يظن لتلك الجذوة التي أشعلها في قلب ابنة عمه فقد كانت تحبه حباً لا يحيط به وصف ولا تزال ، وقد مضى على زواجه ثمانية أعوام ، وهي تحبه ذلك الحب الشديد ولكنه حب مقرون بالانتقام .
- إذن تكرهه ؟

- كلا بل إنها تعبه ، ولكنها تريد الانتقام من خصيمتها فيه ، ومن كان له عشرين مليوناً فلا يصعب عليه مثل هذا الانتقام .
- هذا ميسور . وأنا أتعهد لها بقتل امرأة المركز إن أعطتني مئة ألف فرنك .

فقال أندريا ببرود : إنها ستعطيني خمسة ملايين .

فدهش روكامبول وقال : متى وعدتك ؟

-- منذ عام .

- أتعلمك بهذه الثروة الطائلة منذ عام وتصبر عليها الى الآن ؟

فضحك اندريا ضحك الساخر وقال : إنك لا تزال على سابق عهدي فيك فإذنك تستطيع ان تكون يداً عاملة منفذة ، ولكنك لا تقدر ان تكون الرأس المدبر .

- كيف ذلك ؟

- لأن الهندية لا تريد الاقتصار على قتل المركيزة بل انها تريد ايضاً الزواج

بالمركيز ، وإذا كان هذا المركيز يجب امرأته هذا الحب ، فهو لا يتزوج سواها ، إذا فجع بها بعد عهد قريب ، بل قد يقتل نفسه بعد قتلها ، فنحسر الملايين ولذلك يجب ان يكره المركيز امرأته قبل ان تموت أو تقتل ولا يجب أن يحب غير ابنة عمه الهندية . ولا نقبض الملايين الخمسة إلا بهذا الشرط

فقال روكامبول : لقد بدأت ان افهم ، ولكنه عمل شاق يحتاج إلى الدهاء الكثير .

- وليس الجزاء بيسير .

- وأين رأيت هذه الهندية ؟

- رأيتها في نيويورك . فاسمع حكايتها فانها لا تخلو من الفكاهة .

- ٥ -

قبل أن نرجع من نيويورك ، وذلك منذ بضعة أشهر ، بينما كنت راجعاً الى المنزل في المساء رأيت مركبة يسوقها أربعة جياد تسير سير الهويناء ، وفي صدرها صبية تدل هيئتها على انها بين الخامسة والعشرين او الثلاثين من العمر فاستوقف نظري ما رأيته بهذه الصبية من عينين متوقدتين كأنهما تخرج منهما شهب النار ووجه متجهم بالسويداء ، وملامح تدل يحملتها عسلى الاسترسال بالملاذ . غير ان تجهمها على صباها وظواهر غناها كان يشير على ان في حياتها سرّاً من الأسرار ، فوقفت أنظر اليها نظرة الفاحص ، وأنا أبعد عنها عدة أمتار ونظرت إلي وحدقت بي ، ثم برقت أسرة وجهها كأنها تقول : هذا هو الرجل الذي أبحث عنه . ثم أمرت السائق بالوقوف فوقف ، أما انا فاني دنوت من المركبة وجعلت انظر اليها نظرات تحترق النفس ، ثم قلت لها : ماذا تبتغين؟

قالت بصوت أجش ، تبدو من نبراته علائم الظمأ الى الانتقام أريد رجلاً قوياً .

- إنك نكبت نكبة غرام فغدوت كاللبوة فقدت أشبالها
- هو ذاك فاني أحب وأكره لحد الموت .
- إن الانتقام يقتضي له المال الكثير .

فقالت بهرود : أيكفي ٢٠ مليوناً ؟

فلم أنبس بعد ذلك بحرف وصعدت الى المركبة فجلست بالقرب منها فسارت بنا المركبة سيراً حثيثاً حتى بلغنا الى قصرها ، فنزلت وأخذت يدها ودخلنا الى إحدى قاعات المنزل فأقفلت الباب وأجلستني أمامها ثم قالت إني لم أرك غير الآن ولا أعلم من أنت ولا من اي بلاد أتيت ولكني قرأت في عينيك ما دلني على انك ذلك الرجل الذي أبحث منه من دهر طويل يكون عوني في ما أبغيه من الانتقام .

- لقد صدق نظرك فأنا هو ذلك الرجل
- إني أهوى ابن عمي وأريد ان أتزوج به .
- إذن فلا بد من قتل امرأته .
- أصبت وليس أسهل من قتلها فان لدي كثيراً من الخدم إذا امرت احدهم بقتلها لا يعود الا مخضباً بدمائها ولكنها اذا ماتت مثل هذه الميتة زاد شفقة بها ولا أنال منه شيئاً .
- إذن كم تعطى الرجل الذي يزيل جميع هذه الموانع ويجعل ابن عمك حياً بك .
- اعطيه كل ما يريد فاطلب ما تشاء .
- أطلب خمسة ملايين .
- أتموت امرأته موتاً فظيماً وينساها زوجها ؟
- اجل .

— ومن يقتلها ؟

— زوجها !

فصاحت صيحة فرح وقالت : لك ما طلبت من الملايين .

— إذن إطمئني فسيقتلها بيده ويلعنها بعد قتلها ويعود اليك بعد شهرين من رمله فيبحثو مستغفراً على قدميك .

فنهضت الى منضدة عليها أدوات الكتابة وأخذت ورقة فكتبت عليها حوالة على احد مصارف باريس بخمسةائة الف فرنك فدفعته الي وهي تقول : أخذ هذا المبلغ لنفقاتك الأولية .

ثم كتبت لي تعهداً بالملايين الخمسة اقبضها حين انتهاء العمل فأخذت الحوالة والتعهد وقلت : إني مسافر غداً الى باريس فاصبري وكوني على ثقة مني فاذا ورد اليك كتاب من بوجيفال قرب باريس دون توقيع ادعوك فيه للحضور فاحضري في الحال .

ثم تركتها ومضيت وبعد يومين سافرت الى باريس .

فقال له روكامبول : ألم ترها بعد ذلك ؟

— نعم فقد رأيتها امس وهي تنتظر في باريس منذ يومين .

ثم تبسم ابتساماً علم روكامبول من خلاله ان المركيزة فان هوب حكم عليها بالموت وبيعت حياتها بخمسة ملايين فرنك .

وبعد ذلك قال له روكامبول : بقي ان اسألك سؤالاً آخر وهو ما شأن الأرملة مالايسس معنا ؟

— إنها عماد روايتنا ، فانها بالظاهر لا علاقة لها مع المركيزة فان هوب ولكنها في الحقيقة يدها العاملة . وذلك ان زوج المركيزة صديق للدوق دي مايلي ، عشيق الأرملة ، وسيزوجها اذا ترك وشأنه ، ويحرم حفيده من إرثه .

— أيها هذا الحفيد ؟

- ولكنه يدفع على الأقل خمسمائة الف فرنك إذا مات الدوق قبل أن يجرمه من الأرث .

. ولكن ملايين الهندية أعظم من آلافة وخير لنا لو تجردنا لها .
- هو ما تقول ولكن لدينا أسبابا كثيرة تقضي عليها بالتجرد للأمرين وذلك لأن الماركيز وامرأته لا يعرفان حقيقة علائق الدوق الشيخ مع الأرملة ولكنها يعلمان فقط انه هائم بها وان الماركيزة تحب الأرملة حب الأخاء وتحسب أنها من أعف النساء فهي تتمنى أن تراها زوجة الدوق ، غير ان هناك أمراً آخر وهو ان الماركيز شديد الغيرة على زوجته وقد انفق مرة أن حفيد الدوق الشيخ طمع بحب الماركيزة ولم يفر بشيء ، فبسات الماركيز يكرمه أشد الكره ، ولذلك فإنه يتمنى أيضاً أن يتزوج الدوق بالأرملة كي ينتقم بجرمان حفيده من الارث .

وبهت روكامبول . أهذا كل ما تريد أن تقوله فلاني لم أفهم شيئاً من هذه الألغاز ولم أر شيئاً من التحام المسألتين ..
- سننجلي لك هذه الألغاز في المستقبل القريب ولكنها منحصرة بكلمتين وهما : ان سقوط امرأتين متفقيين أهون من سقوط امرأة واحدة وذلك إذا أصيبت هذه الأرملة بسهام الغرام وهي تسكاد تبلى سن الكهولة بحيث يبلغ الغرام فيه إلى أقصى الحدود فانها تعترف بهذا الحب لصديقتها الماركيزة ، ودق أحبت الماركيزة شاروبيم الجميل وهو من أعضاء جمعيتنا تقتدي بالأرملة وتبوح لها بهواها .

- إن هذا لا ريب فيه ولكن ..
فقطب أندريا حاجبيه قائلاً : كفى .. لا أزيد حرفاً على ما قلت ..
ثم قام يريد الذهاب . فسأله روكامبول : بقيت مسألة مالية أرجو أن توضح لي أمرها .
- قل ا

— اننا اتفقنا أن نقتسم ما نكسبه بجمعيتنا السرية فيكون النصف لك والرربع لي والرربع الباقي لبقية الأعضاء فهل تكون قسمة ملايين الهندية على هذه القاعدة ؟

-- بالتقريب فاني سأعطيك مليوناً والأعضاء مليوناً وأبقي لنفسى ثلاثة ملايين .

فأخنى روكامبول رأسه دون أن يحيب ، فأدرك أندريا استياءه وقال بلمهجة المؤنب : أنسيت أني سأتزوج بامرأة أخي وان هذا الزواج يقتضي له كثير من النفقات ؟

فابتسم روكامبول وقال له وقد رآه يهيم بالذهاب : متى أراك ؟
- بعد ثلاثة أيام !

— ومتى استبدل الخليفة القديمة بالجديدة ؟
— متى عرفت أن تصبر !

ثم ودعه وخرج فركب مركبة وسارت تقطع به شوارع باريس في تلك الليلة المدهمة حتى وصلت إلى عطفة شارع مونمارتر فاستوقفها ونزل ثم أطلق سراحها ومشى قليلاً إلى أن وصل إلى بيت مرتفع ونظر إلى نافذة الدور الأخير فرأى نوراً ضميماً ينبعث منها فقال : أنها لا تزال تنتظرنى .

ثم تقدم الى الباب وصعد الى الدور الأول حتى بلغ إلى آخر بيت فيه ولما طرقه سمع صوت فتاة من الداخل تقول : من الطارق ؟
— هو الذي تنتظرينه ففتحت له الباب ودخل .



وكانت الغرفة التي دخل اليها حقيرة الأثاث ، تدل على ان صاحبته حديثة العهد في مهنة الغواية ، فشرح أندريا نظره فيها ثم نظر مبتسماً إلى تلك الفتاة التي كانت تنتظره فيها ، وهي فتاة في مقتبل الشباب تناهر العشرين من العمر وتجول بين عينيها ملامح الذكاء على جمال بارع وعينين تعرفان مصارع القلوب .

وحكاية هذه الفتاة أنها خرجت من المدرسة وهي في الخامسة عشرة من سنينها فزوجها أهلها على الكره منها بشيخ عجوز واقامت معه على أحر من نار الغضب ثلاثة أعوام ثم افلكت من قيده كما يفلت العصفور من القفص وانطلقت في سبيل الغي والضلال حتى أدركت أسرار هذه المهنة الشائنة .

وقد التقى بها أندريا وهو يبحث عن امرأة يستخدمها في سبيل مكائده ، وهي تبحث عن رجل يحقق اطماعها الواسعة ، فتعارفا وتواعدا على أن يزورها في منتصف الليل ، دون أن يطلعها على شيء من مقاصده ، ولما حان الموعد أقبل اليها كما قدمناه ، وحلس أمامها قرب نار خفيفة وجعل يفحص سماتها فحس المدقق الخبير ، وهو معجب بجمالها النادر ، وبما كان يتوسم فيها من مخائل الذكاء . وبعد وقت قصير قال : لقد آن لي أن أطلعك على مقاصدي ، إعلمي قبل كل شيء أنني واقف على أسرار حياتك ، عالم بجميع ما تعانينه من الشقاء ، فهل تريدن الخروج من هذا الشقاء واستبدال هذه الغرفة الحقيرة بقصر جميل في أشهر شوارع باريس ؟

فبرقت أسرة عينيها وحسبت انه فتن بجمالها وقسالت : ومن يأبى سكنى القصور ؟

- هو قصر بديع في شارع مونسي تكتنفه حديقة غناء كان من قبل لفتاة مومس كان يلقبها عشاقها باسم باكارا ، باثت تدعى الآن الأخت لويزا فضحكك ضحك الساخر وقالت لقد عرفت من صواحي شيناً من تاريخ

هذه الثائبة البلهاء ، وما فعلت بقصرها العظماء تريد بيعه الآن ؟
 - كلا . فإنه لي بل لك إذا كنت ترغبين ، وقد اشتريته بما فيه من الأثاث
 منذ ثلاثة أشهر بمائة ألف فرنك ، وعينت فيه الخدم والخادومات ، وأرسلت
 إليه الخيل والمركبات ..

فقاطعته تقول بصوت الوجع المضطرب : أتهديني كل هذا كما تقول ؟

- هو لك إذا كنت توافقيني فيما أريد .

وضربت الأرض برجلها وقد نفذ صبرها ثم قالت بلهجة المتهمك : ماذا
 تبتغي مني .. الملك عاشق لي !

فابتسم اندريا قائلاً : لو أردت هذا الغرام لما حالت دونه مظاهري .

- إنك تجاوزت عهد الشباب وبلغت الخمسين

- كلا . إني لم أبلغ الثلاثين ، ولو أردت الغرام كما قلت لعرفت طريق
 قلبك بالرغم من هذه المظاهر .

ولكنك تجعل طريقك من هذا القصر .

- بل بغير هذا القصر ..

- ربما . قد تكون منزلتك فوق منزلة البشر

- لنعد الآن إلى حديثنا فقد قلت لك أني سأعطيك القصر وأعين لك
 الخدم والخادومات وأهبك الخيل والمركبات وأزيدك ألف فرنك أدفعها لك
 في كل شهر لنفقاتك الخاصة ، ولكنني سأعتمد عليك مقابل ذلك في كثير من
 الأمور الخطيرة

- إذن أنت تريد المضاربة يجالي .

هو ذلك فإني أطلب اليك غواية شاب تبلغ ثورته اثني عشر مليوناً غير
 ان غوايته ليست بالأمر اليسير لأنه متزوج ويحب امرأته حب العشاق .

فقال بلهجة الواثق كن مطمئناً سأززع هذا الحب من قلبه

- إذن أمهلك ثلاثة أشهر . اسلمي أمواله وانتهي فؤاده كما تشائين على ان

ترديه الي سخاملا مخبولاً ، وهذا كل ما ابتغيه

— والملايين ؟

— هذا أمر خاص بي وسنتفق عليها في غير هذا المقام لأنني لا أكرث بها

الآن !

— ألا تخبرني عن اسم هذا الرجل ؟

— نعم .. فهو فرناند روشي .

ثم نهض فودعها قائلاً إلى الغد .

فشميعته إلى الباب وهي مندهلة لا تصدق ما سمعته وقبل أن يخرج سألتها

عن اسمها فقالت : حنة !

— انه اسم مبتذل لا يخلق بمن ستمثل مثل دورك فغيريه .

— أي اسم تختاره لي ؟

فنظر إلى عينيها الزرقاوين نظر المبهت من جمالها وقال : اني استبدل

اسمك بلقب ينطبق على صفاء عينيك فأدعوك الفيروزة .

فضحكت وقالت : ليكون ما تريد .

ثم تركها أندريا وذهب مسرعاً إلى بيت أخيه فرأى النور مضيئاً في غرفة

الكونت وقرع الباب ودخل ، فاندهل الكونت لما رآه وقال : أين كنت !

فأجاب أندريا : كنت في باريس ، ألم تجعلني رئيساً لبوليسك السري ؟

— وماذا علمت ؟

— لقد وقفت على اسرار الجمعية السرية ولكني لا أطلعك على شيء الآن

فهم مطمئناً واعلم ان أعضاءها لا يزالون ضعفاء وسأبدد شملهم قبل ان يشندوا .

ثم ودعه وخرج إلى غرفته فأرصد بابها من الداخل وأخذ من خزانة—هـ

كتاباً خطياً ضخماً مكتوب عليه من الخارج بحروف كبيرة هذا العنوان :

« تاريخ حياتي الثانية » ، وكان يكتب فيه كل يوم بضعة أسطر ففتحهُ وهو

يقول انه رأي مبتدع سيكون له شأن خطير في تحقيق ما أبتغيه ، ولقد

أحسننت بما كتبته في صدره من الإشارة الى أنه كتاب خاص لا يحق لأحد أن يطالع فيه ، ثم كتب في إحدى صفحاته يا يأتي :

« ٣ دسمبر »

« لله ما أشد شقائي وما أعظم ما قاسيت في هذا المساء ، لقد تمثلت لي حنة ، امرأة أخي بشكل آلهة الجمال تلك التي أحبها حباً ليس بعده حب .. ربه عفوك وتب عليّ ، لقد تقطع قلبي اليوم حين رأيت زوجها يقبلها امامي واسبل علي ستر رحمتك فأني أحبها منذ اختطفها وجعلت بيني وبينها هوة عظيمة بهذا العمل الفظيع . »

ثم أطبق الكتاب وابتسم ابتسام الأبالسة وهو يقول : انها متى وقفت على هذه السطور ، وعلمت حبي الصحيح فلا تمنع عن الزواج بي بعد قتل زوجها .

٧

عرف القراء مما قدمناه عن باكارا كيف استحوالت هذه الفتاة أثر توبتها.. لقد كانت تبالغ بالزهد حتى باتت تشبه النسك الزاهدين ، واقفة حياتها على خدمة البائسين ، والقاء البذور الصالحة في نفوس الفتيات ، ومساعدة أرمات دي كركاز في ما كان ينفقه في سبيل الخير ، فاشتهرت بهذه المعيشة الصالحة وأصبحت ملجأ المعوز اليتيم ، وكان الفقراء يتوافدون الى منزلها أفواجا ، والرجال الأغنياء يأتونها من كل فج يلتمسون منها توزيع حسناتهم على الفقراء البائسين .

على انها مع شدة رهدما وانقلابها كانت لا تزال حريصة على بعض من آثار خلاعتها السابقة ، فقد كان لها في منزلها الرحيب غرفة خاصة لا يدخلها

أحد من الخدم ، ولا يلجها سواها ، وفي هذه الغرفة جميع ما كان لديها من أهوات التبرج والتزين ، ولعلها أبقتهما كي تذكر برويتها أويقاتها الهائلة فتكون خير دافع لها الى الاسترسال في التوبة .

وكان في صدر الغرفة صورة كبيرة تمثل فرناند روشي وهونائم على سرير إشارة إلى الليلة التي حمل فيها إلى منزلها كما عرف القراء في القسم الأول من هذه الرواية ، وفي جدار آخر صورتها وهي مجردة خنجرأ تريد قتل خادمتها فإني إشارة إلى خادمتها السابقة في مستشفى المجانين . وكانت في كل ليلة تدخل إلى هذه الغرفة وتنظر إلى صورتها ، فتبدو عليها علائم الاشتمزاز والنفور ، وتنظر إلى صورة فرناند حبيبها القديم فتنتطحع على محياها الجميل لدلائل الخشوع وتنطلق عينها بالدموع فتركم امام الرسم وتصلي .

ثم تخرج من الغرفة فتتفي هذه الذكرى من غيلتها ولا تفتكر إلا بمشاريع الاحسان والترقي إلى الله بما تصنعه من الخير ولا يزال هذا دأبها منذ بدأت تويتها إلى هذا العهد من سياق الحديث .

ولقد تقدم لنا القول ان نساء الخير كن يأتينها ليعمدهن اليها توزيع حسناتهن السرية ، فاتفق انه بعد يومين مضيا على اجتماع اندريا بالفتاة التي نعنيتها بالفيروزية قدمت المركيزة فان هرب إلى منزل باكارا وطلبت أن تراها ، فأجفلت باكارا حين علمت بقدوم المركيزة وكأنها خجلت من نفسها أن ترى أعظم نبيلة بين عقائل باريس تلنسى حياتها السابقة وتزورها في منزلها فقابلتها مطرقة باستحياء

أما زيارة المركيزة فلم تكن إلا لأنها وردت اليها رسالة من عائلة فقيرة تلتمس منها الاحسان ، وجاءت إلى منزل تلك العابدة كي تعهد اليها إيصال إحسانها إلى تلك العائلة

ويسمح لنا القارى ان نسدل الحجاب على تلك المقابلة الأولى بين هتين المرأتين اللتين سيؤلف بينهما الشقاء فيما سيجيء من فصول هذه الرواية غير

أننا نقول ان هذه الليلة كانت موعد الليلة الراقصة التي تهيئها المركيزة في قصرها وهي الحفلة التي سيقدم فيها شاروبيم الجميل أحد أعضاء اللجنة السرية للمركيزة كما تقدم في فصل سابق .

- ٨ -

بعد ساعتين من زيارة المركيزة كان رجلان يسيران إلى منزلها لحضور الليلة الراقصة وهما شاروبيم والماجور العضوان العاملان في الجمعية السرية ، وكان شاروبيم يقول لرفيقه الذي كان يريد تقديمه للمركيزة : إني لم أعلم المراد من تقديمي لهذه المركيزة ، فهل تعلم أنت شيئاً من ذلك ؟
- ألا تعرف رئيسنا ؟

- لا إني أتلقى أوامره بواسطة روكامبول ؟
.. ألا ترى اننا نركب متن الطيش والغرور حين نقبل أن نقاد كالعُميان ؟
فقال له الماجور : وأي ضرر علينا من ذلك لاسيما أنت فإن غاية ما يطلب اليك ان تحمل المركيزة على حبك ، وما أنت بصديق لزوجها فترتكب خيانة وغاية ما تلقاه من الخطر في تمثيل دورك هذا انك تضطر إلى مبارزة المركيز فهل تخاف هذه المبارزة ؟

- إذا كان هذا كل الخطر فإني أسير كما تريد بل كما يريد رئيسنا .
وانطلق الاثنان حتى بلغا الى بيت المركيزة فدخلوا اليه .

ولم يكن قد تكامل عدد المدعوين وكان المركيز وصديقه الدوق مساييل والشيخ يتخطران في قاعة الاستقبال ذهاباً وإياباً ، ولما دخل الماجور وشاروبيم قدمه بيده للمركيز ، فسلم عليه المركيز ولكنه ما لبث ان رأى جماله النادر حتى هلع قلبه ، فانحنى أمامه الاثنان ثم انصرف الى المركيزة وكانت جالسة

في زاوية من القاعة العمومية ، وامامها حفيد الدوق ماييلي والأرملة مالاسيس صديقتها وهي تروي لها أحاديث مضحكة كان يعاونها فيها حفيد الدوق فقدم الماحور رفيقه شاروبيم الى المركيزة كما قدمه للمركيز .
وبينما كانت المركيزة معجبة بشاروبيم تحدثه بارتياح وتنظر اليه نظرة الاستحسان إذ دنا رجل عليه ملامح الانكليز فوضع يده على كتف الكونت ماييلي حفيد الدوق وأشار اليه ان يتبعه ، فتبعه الكونت مندهلاً لأنه لم يكن يعرفه من قبل .

أما الانكليزي فلم يكن إلا اندريا وقد تلبس بملابس الانكليز وقلد لهجتهم وسائر حركاتهم بحيث لم يعد يفرق عنهم في شيء وقد دعا نفسه السير ارثير وتعرف على المركيز بواسطة احد اصحابه فدعاه الى ليلته الراقصة .
وسار اندريا والكونت حتى بلغا إلى قاعة مشرفة على القاعة العمومية ، فجلسا إلى منضدة وافتتح اندريا الحديث فقال : أسألك المَعذرة ايها الكونت فلإني ما دعوتك الا لمباحثتك بأمر هام .

- قل ما تشاء . فلإني مصغ اليك

فأشار اندريا الى الأرملة وقال : ما رأيك بهذه المرأة .

فالتفت الكونت ورأى الأرملة فأجفل مضطرباً وقال : لا رأي لي فيها !
فابتسم اندريا ابتساماً معنوياً وقال : انها حسناء .

فقال الكونت : انها تبلغ الأربعين

- كلا .. إنها لا تتجاوز الخامسة والثلاثون ولكنها لم تبلغ بعد العشرين في عين جدك الدوق

واصفر وجه الكونت وجعل ينظر إلى أندريا نظر المستطلع فاستطرد
أندريا الحديث قائلاً : إن هذه الأرملة التي كانت زوجة عطار ستعود زوجة دوق وتحمل اسم اسرتك بعد شهر ، وأنا أعلم انك تتوقع ذلك منذ عهد بعيد غير اني أرجوك ان لا تنظر الي هذه النظرات وأن تصغي إلى النهاية

لأني لك من المخلصين .

واستبشر الكونت خيراً بجديته وقال قل لاني مصنع اليك
- انك وريث الدوق الوحيد وهو ذو ثروة واسعة ، فإذا تزوج هذه
الأرملة انتهت الثروة اليها غير اني أعرف رجلاً يستطيع منع هذا الزواج وإبقاء
الثروة لوربشها الشرعي ؟

فاصفر وجه الكونت وقال : من هذا الرجل ؟

- هو أنا يا سيدي .

وعند ذلك دخل أحد الخدم وصاح معلناً قدوم فرناند وامراته حسب
عادة الافرنج في الحفلات الكبيرة .

- ٩ -

واختلج فؤاد اندريا عندما نظر فرناند وهرمين ، غير انه ما لبث أن عاد
إلى رشده دون أن ينتبه اليه الكونت ، أما الكونت فإنه ادهش لما قاله له
اندريا وقال له : انت نستطيع إبقاء ارثي ؟

.. نعم إذا وافقتني فيما أريد .

- لا بد ان يكون لك شروط فاقترح ما تشاء

وابتسم اندريا وقال له أخبرك قبل كل شيء اني لا أريد منك درهماً من
مالك على انك لو طلب اليك أن تدفع مليوناً مقابل حصولك على ارث الدوق
أما كنت تدفع المليون ؟

- أدفعه بجلء الرضى ؟

إذاً . إطمئن فلاني لا أسألك مالا كما قلت ، واعلم ان هذا الدوق
الذي سترته رجل شيخ وقد تمكن الغرام من قلبه الضعيف حتى أصبح كل

حياته ، وإذا فقد تلك الأرملة التي كوته بهواها ، فهو مائت لا محالة ، ولكن هذه الأرملة على ما كانت عليه من الخفة والطيش كانت شديدة الحرص على كتمان غوايتها السابقة ، حتى انه لم يبق أثر من آثارها يستند عليه في سبيل ارجاع الدوق عنها ، ثم ان العاشق قد أعياه حبها فهو لا يحفل بمثل هذه البراهين ولذلك فإنه يجب ان يعلم بالبرهان ما طالما علمه بالخبر وليس لدي شيء من هذه البراهين الحسية .

فاضطرب الكونت وقال : على ما عولت إذن ؟

على أن أوجد هذا البرهان .

— إنك لا تريد . ما لك جزاء عن هذا الصنيع فلا بد أن يكون لك مطلب آخر

هو ذاك فليس في هذا العالم شيء عجائي وليس لي مطلب غير الانتقام من امرأة اساءت إلي

— عجباً أتصنع جميع ما أنت عازم على صنعه من أجل الانتقام من امرأة ؟
— اني انكليزي .

وجم الكونت كأن هذا الجواب قد افحمه ثم قال له : كيف تريد أنت تلذتهم فأني سأكون يدك في هذا الأنتقام كما أرى .
— هو ما رأيته . . والذي أطلبه اليك هو أن تحتال على تلك المرأة حتى تحبك .

— لا أحب إني من ذلك ولكن هذه المرأة قد تكون فاضلة طاهرة بحيث لا يمكن جذب قواها بالزمن القصير .

— اني أمهلك قدر ما تشاء .

— وإذا تزوج الدوق قبل انتهاء المهلة ألا يفسد كل شرط .

فحدد به اندريا تحديق المستطلع ثم قال له : ان بين جنبيك قلباً شريفاً فاذا أقسمت بشرفك أن تفني بعمودي كما أفني بعمودك أنلتك مأربك قبل أن

تسيلني مأربي .

— أقسم لك بما تشاء غير أن هناك أمراً قد يحول بين قلبها وقلبي وهو انها قد لا تحبني مهما بذلت في مرضاتها من الجهد .

— عدني انك تبذل جهدك هذا وتخضع لما أرشدك به فاذا فعلت جميع ذلك دون ان تنجح فاني لا أطلبك بشيء

فأقسم له الكونت على الوفاء وقال له : بقي ان تذكر لي اسم هذه المرأة . فقال اندريا بصوت منخفض: لم يحن الوقت بعد غير انه قد يحدث في هذه الليلة براز بين رجلين يكون احدهما زوج المرأة وتخون أنت أحد الشاهدين ومتى عرفت المرأة وربما تعرفها في هذه الليلة تبتديء معها بتمثيل دورك والآن فاني استودعك الله الى أن نلتقي فكن حريصاً على كتمان هذا السر أشد الكتمان لأن أقل هفوة تبدر منك قد تهدم جميع ما تبنيه

ثم حياه وانصرف فاختلط بين اللاعبين في قاعة اللعب ودخل الكونت إلى قاعة الرقص .

ودارت المحاصرة على أنغام الموسيقى إلى أن وهت قوى الراقصين فذهب النساء الى المقصف مع بعض الرجال ودخل بعض الرجال الى قاعة اللعب حتى غصت بهم وكان بعضهم يلعبون لعبة الباكارات على منضدة كبيرة كان حوالها كثير من الناس بينهم اندريا متنكر باسم انكليزي وروكامبول متنكر باسم كونت ، فدخل فرناند روشي والورق بيد وروكامبول فقامه فرناند فغسر ، ثم الثانية والثالثة والرابعة وروكامبول يربح منه دائماً ، ثم أظهر وروكامبول كأنه قد طمع بالربح الزائد فعرض جميع ما لديه من النقود للمراهنة فاجفل الحاضرون لجسامة المبلغ ولبشوا هنيهة يترددون إلى أن دفعت الجسارة فرناند روشي فاخرج من جيبه جميع ما كان معه من الاوراق المالية وقال لروكامبول: أنا أراهنك ، وهذا المال .

فنظر اليه وروكامبول ثم أعطى الذي بيده الى جاره وقال له بهرود : أي

تنازلت عن حقي بالورق .

فاحمر وجه فرناند من الغضب وقال لروكامبول : ماذا تريد بذلك يا سيدي؟

- لا أريد شيئاً سوى اني تنازلت عن الورق وذلك من حقوقي بنظام اللعب؟

- ولكنك قد بسطت اموالك على المنضدة وجعلت تطلب منذ حين من

يراهنك عليها فكيف تمتنع حين تقدمت لمراهنتك ؟

- ذلك لأنني وجدت الانسحاب أفضل .

ثم ترك المنضدة وانصرف فساد الاسكون بين الحضور لهذه الاهانة الظاهرة

وبات كلانا يخشى عقباها ، أما اندريا فانه نظر إلى الكونت مايلي الذي كان

جالساً بالقرب منه ، نظرة خفية فهم منها أن فرناند هو زوج المرأة التي طلب

اليه إغواؤها فهمس في اذن أندريا وسأله قائلاً : من هو هذا الشاب الذي

ترك الورق ؟

- الفيكونت دي كمبول ..

- والآخر؟

- فرناند روشي زوج المرأة التي أخبرتك عنها والتي رقصت وإياها منذ

حين أفهمت الآن ؟

فأجاب الكونت وهو يضطرب : نعم .. لقد فهمت كل شيء .

- ١٠ -

أما فرناند فإنه غادر غرفة اللعب وذهب يبحث عن روكامبول فلقية في

إحدى الغرف وهو بمنزل عن الناس ، فبدأ معه بطلب الاعتذار عن إهانته ،

فأبى روكامبول ، وما زال يتدرجان من العتب إلى الملامة إلى الاحتجاج حتى

انتهى بهما الأمر إلى المباراة ، فرفع اليه فرناند رقعة الزيارة المكتوب فيها

اسمه وعنوانه وقال له : إلى الغد .

فأبى روكامبول أن يؤجل المباراة إلى اليوم التالي مدعياً أنه سيسافر إلى إيطاليا في الصباح وقال له : نتبارز الآن !

ووافقه فرناند وانطلق إلى القاعة العمومية يبحث فيها عن شاهد له ، وكانت هذه أول مرة يزور فيها قصر الماركيز فان هوب ، ولم يلق بين المدعويين أحداً من أصدقائه الخلفين وفيما هو يبحث إذ لقي الماجور ، وهو أحد أعضاء الجمعية السرية كما تقدم فاستأنس بلباسه العسكري والتمس منه أن يكون شاهداً له في مبارزته بعد أن قص عليه حكاية الخصام ، فقبل الماجور راضياً وجعل الاثنان ينتظران عودة روكامبول الذي كان يبحث أيضاً عن شاهد له بين جمهور المدعويين .

أما روكامبول فإنه كان يبحث عن أندريا المتنكر في تلك الحفلة باسم السير أرثير ، وقد لقيه في إحدى الغرف المعتزلة وهو جالس يحادث بيرابو والد هرمين وعاشق سرين باهتمام ، ونظر إليه روكامبول نظرة مملوءة أجباه أندريا بمثلها ، فوقف معزلاً عنهما يتوقع تمة الحديث .

وقد عرف القراء من القسم الأول من هذه الرواية حكاية بيرابو والد هرمين وكيف أنه يهوى سرين وقد كاد يفتك بها بمساعي أندريا لو لم ينقذها ارمان ورولان ، غير أن حب الشيوخ لا يزول من نفوسهم مهما تعاقبت عليه الأيام وحالات في سبيله العقبات

وحكاية هذا الرجل أنه بعد أن فشل في اغتصاب سرين خرج مع أندريا ثم انقطعت أخباره ، ولم يعلم منها شيء . وبعد أن مضى على اختفائه سنة كاملة ورد إلى صهره فرناند روشي كتاب من أحد مستشفيات المجاذيب أخبر فيه أن حماد يقيم في هذا المستشفى خارج باريس منذ عهد طويل لاصابته بالجنون ، وإن الداء قد خفت وطأته في هذه الأيام فتمكنوا من معرفة اسمه ، وأرسل فرناند في الحال من أتى به إلى باريس وأقام في منزله مع ابنته فزالت

عنه أعراض الجنون ، ولم تكن تعود اليه إلا حين تذكر أمامه كلمة سرين ، ولكن جنونه كان لطيفاً هادئاً يميل به إلى الهزل المقبول والنكات المضحكة بحيث لم يكن يمنعه عن زيارة الأسرات

وقد لقيه أندريا في تلك الليلة فعرفه بنفسه ، لأنه لم يستطع أن يعرفه لتخفيه ، وعاد معه إلى حديث سرين ومشروع انتقاله الجديد ، وزخرف له القول حتى أقنعه ان سرين باقت في قبضته ، فطار فؤاد بيرابو من الفرح ، وقبض على أندريا بيد من حديد ، وبات طوعاً له في كل ما يريد ، وكان آخر ما ختم به الحديث معه انه سيعرفه بالكونت مايلي ، وطلب اليه أن يعرفه بابنته هرمين ، فرضي بذلك هذا الشيخ شاكراً وهو مستعد لتوضيحية كل عزيز في سبيل تحقيق أمنيته سرين ، وعند ذلك أخذه أندريا وسار به إلى الكونت مايلي حفيد الدوق ، وعرف كل منهما بالآخر وأخبر الكونت سرّاً ان بيرابو قدمه إلى ابنته هرمين ثم غادرهما وعاد إلى روكامبول وأخبره بجميع ما صنع ، وانه ترك فرناند يبحث عن شاهد قال : أنا شاهدك فامض بنا واحذر أن تنسى ما علمتك إياه ولا تصه إلا في المكان الذي أخبرتك عنه دون أن تقتله ، فلإني أريد أن أبلغ منه الآن ما هو أشد من القتل .

سيكون ما تريد . . وذهب الاثنان لمقابلة فرناند ولقياه في انتظارهما ! وقد كان فرناند بعد أن لقي شاهده أخبر امرأته انه ذاهب لمشروع خيرى لا سبيل إلى تأجيله ، وطلب اليها أن تعود مع أبيها عند انتهاء الحفلة ولما عاد روكامبول بشاهده خرج الجميع من القصر دون أن ينتبه لهم أحد

أما الكونت مايلي فإنه تعرف على هرمين ورقص معها تلك الليلة ، وفيما هو ينتقل من مكان آخر في تلك الغرفة الواسعة لقي الأرملة مالاسيس وهي تتأهب للخروج مع الدوق ، فابتسمت له مكروهة وقالت : لقد رأيتك مع الشيخ بيرابو فهل راق لك عشرته وهل هو مجنون كما يقولون .

.. كلا .. بل انه قد يكون أوفر منك عقلا .

أصحيح ما تقول ؟

- نعم .. وفوق ذلك فإنه يقص حكايات غريبة

- قل لي شيئا منها .

- إنها حكايات طويلة ما شاقني منها غير حكاية واحدة ، وهي قصة شيخ شريف يحاول أن يتزوج بامرأة خادعة وان يحرم أسرته من ارثه ، ثم انحنى أمامها وابتسم لها ابتسام الهازيء وانصرف .

فاصفر وجه الأرملة من الغضب والحقد ثم التفتت فرأت الدوق قادما إليها فنظرت إلى حفيده الكونت وضحكك ضحكك الواثقة من الفوز وهي تقول : الأيام بيننا يا كونت وسنرى لمن يكون الارث .

- ١١ -

ثم خرجت شاحخة الأنف وقد تأبطت ذراع عاشقها الدوق حتى بلغت الى موقف مركبتها فصعدت إليها وقالت للدوق بلمحة حنان شغفت لبه ألا تصعد معي !

فتلجلج لسانه من الفرح قائلا : أية ساعة أبرك عندي من ساعة أكون فيها بقربك .

ثم صعد فجلس يجانباها وأمر السائق أن يسير الى منزلها فقالت : اني أرى المنزل قريبا في هذه الليلة فلنذهب إلى الشان اليزه .

فأخذ الدوق يدها وقبلها قائلا : ان اشارتك أمر لأمرد منه .

وسارت المركبة الهويناء والعاشقان واجمان الى أن افتتحت الأرملة الحديث فقالت : اني أعنتم فرصة هذه الخلوة كي أخبرك بأمر قد تدهش له لمدم توقعك

اياه ، ذلك لأنني ..أسافر سافراً قد يطول الى عدة أعوام
فأجفل الدوق وجد الدم في عروقه فلم ينبس ببنت شفة ، فعادت الأرملة
الى تنمة حديثها فقالت : وسأسافر صباح غد .
وعند ذلك حلت عقدة لسان الدوق فسألها بلهجة المأخوذ : أحقية مسا
تقولين ولماذا تسافرين رالى أين ؟

- اني أسافر لأسباب أعلمها ولا أستطيع التصريح بها .
- اذن تريدني قتلي !
وقد تبينت الأرملة لهجة الصدق من قولها فأيقنت انه قد جن في هواها .
فقالت : كيف أريد قتلك .. العلك جنت ؟

- إذا لم أكن قد جنت فلاني على وشك الجنون فبالله أيتها الحبيبة قولي لي
الحقيقة وكفك مزاحاً .

- لم أكذبك يا سيدي الدوق فلاني مسافرة في صباح الغد .
فأجاب بلهجة القائط ولماذا تسافرين ؟
كي ينساني الناس في باريس
- كيف ذلك ومن تطلبين أن ينساك ؟
فأجابته بهرود : اني أطلب ذلك منك قبل كل الناس .

فزاد ذهول الشيخ الدوق ولم يرد جواباً ، أما الأرملة فلأنها عادت الى
حديثها وما زالت تستطرد من حديث الى آخر ، حق ذكرته بما وعده إياها
بالزواج ، وكيف انها باتت من اتعس النساء لاعتقادها على هذه الوعود

فقال لها : اني لن أحنث بوعدتي ولا أزال طوعاً لك فيما تريدني .
- لقد فات الأوان فلقد علمت اليوم حقيقة مقامي حين كنّا في قصر
المركيزة وعلمت حقيقة موقفني من حفيدك الوقح .
- وما شأن حفيدي ؟

فتظاهرت بالبكاء وهي تقول : انه قال لي الليلة كلمات مرة شائنة لا

أجسر على إعادة قولها فلم أجد بعد ذلك بداً من الرحيل .
 وكانت تمثل دورها تمثيلاً غريباً حتى طار فؤاد هذا الشيخ المسكين
 وقال لها وقد جمعت عيناه من القنوط : سأري هذا الوقح كيف يجب عليه ان
 يحترم الدوقة مايلي .
 فلما سمعته الأرملة يدعوها بامرأته تظاهرت بالتأثر الشديد فصاحت صيحة
 شديدة وسقطت مغماً عليها فوق صدر الدوق .

أما الدوق فانه أمر السائق ان يسير في الحال الى قصره ، وكان قريباً من
 الطريق التي كانت تسير المركبة فيها . فسارت تقطع الأرض نهياً حتى وصلت
 الى القصر ، فأخرج الأرملة من المركبة وأمر الخدم فحملوها الى غرفته
 ووضعوها فوق سريره ، وهي لا تزال متظاهرة بالاغماء . فجعل الدوق
 يعالجها بالمنعمشات وهي تنظر الى ملامحه من خلال أهدائها الطويلة ، الى ان
 خطر لها ان تستفيق بعد ان قطعت فؤاد عاشقها ، فأجالت نظرها في ما
 حولها وعلمت انها في غير منزلها فقالت له : بربك أين انا ؟ وكيف اتيت بي
 الى هذا المنزل ؟

- إطمئني فأنت في منزلي

فسارت وجهها بيديها وقالت : رباه ! وماذا عسى ان يقول الناس ؟
 - إنك في منزلي اي في منزلك إذ لا يمر ثلاثة أسابيع حتى تصبهي زوجتي
 اي الدوقة مايلي .

فصاحت الأرملة صيحة إنكار دون ان يفهم عليها ، لأنها رأت أن
 الاغماء لم يعد يفيدها وقالت لقد هتكت شرفي بما فعلت وانك لن تدخلني
 الى منزلك كمروسة بعد ان حملتني كخليفة على مرأى من الخدم .

ثم وثبت الى الأرض غضبى وقالت بلهجة المتهم . لقد أصاب حفيدك حين
 قال انك تسرق إرثه لتبهره الى خليلتك .

ثم أخذت قبعتها دون ان تلبسها وخرجت وهي تقول : الوداع ايها

الدوق وداعاً أبدياً ، واعلم انك هتكت شرفي . ولكني أعفو عنك ،
وليساحبك الله

ثم خرجت مسرعة دون ان تدع له وقتاً لإمساكها ، وانصرفت عائدة
الى منزلها والفرح ملء قلبها ، لوثوقها من ان الدوق لا بد ان يسرع اليها
ويدركها قبل ان تسافر لأنه كان لديه مفتاح خاص لحديقة منزلها ،
يحيي كل ليلة من هذه الحديقة ، فيدخل الى غرفتها دون ان يعلم به أحد
من الخدم

فلما وصلت الى المنزل أمرت خادمتها ان تعد لها امثلة السفر ، حتى
إذا أقبل الدوق علم صدق عزمها . فلما أتمت المعدات أطلقت سراح الخادمة
وجلست في سريرها تضرب اخماساً لأسداس وتتوقع من دقيقة الى اخرى قدوم
الدوق ، ولبثت على ذلك الى ان أشرق الفجر ، فسمعت وقع اقدام على السلم
المؤدية الى غرفتها ، فاختلج فؤادها واسرعت الى صندوق السفر ترتب
الشياب فيه ، ثم سمعت صرير المفتاح في القفل ، ثم فتح الباب فأجفلت إحفال
الظباء ورجعت منذرة الى الوراء ، ذلك لأن هذا الرجل الذي دخل غرفة
لومها في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل وفتح الباب بمفتاح خاص لم يكن الدوق
بل كان بعلا ما عرفته من قبل

- ١٢ -

ولنعد الآن الى فرناند وخصمه ، فإنه بعد ان لقي فرناند شاهد- وهو
الماجور ، ولقي روكامبول شاهده وهو أندريا ، خرج الأربعة خلصة من قصر
المركيز دون ان يشعربهم أحد . حتى اذا بلغوا الى قارعة الطريق قال
روكامبول لفرناند : إن مخازن الأسلحة مقفلة الآن ، غير ان منزلي قريب

فإذا شئت مررتا به فأخذنا سيفين ، وإلا فإننا نوقظ أحد أصحاب هذه المخازن .

فقال فرناند : لا حاجة الى ذلك ، فان سيفيك يغنيانا عن إيقاف الناس في هذه الساعة المتأخرة من الليل .

فشكره روكامبول وسار الأربعة الى منزله فأخذوا منه سيفين متساويين في الطول ، ثم انطلقوا الى محل قريب مقفر . ولما أيقنوا بخلائه أخذ الشاهدين السيفين وفحصاهما فحصاً مدقّقاً ثم أعطيا سيفاً لكل من الخصمين وأوقفاهما في موقف القتال .

وكان أندريا تمكن في خلال مسيرهما ان يخلو بروكامبول فقال له : أعلمت أيها الحبيب أن تصيبه كما علمتك .
- أجل حفظت كل شيء .

- إذن فاحذر ان تقتله فاني لا أريد ان يموت الآن والا تدع حسامك يدخل في كتفه الا بقدر ما علمتك .
- كن مطمئناً فلا يكون الا ما تريد

وأمر الشاهدان الخصمين ان يقتتلا فانقض كل منهما على الآخر انقضاض الصاعقة ، ولبثا مدة طويلة بين هجوم ودفاع الى ان فاجأ روكامبول خصمه فرناند بضربة وقعت في كتفه ، فاختلج لها فرناند وانصب الدم من كتفه بغزارة ثم اصفر وجهه ووهت رجلاه ، فسقط على الأرض لا يعي لفرط ما نزع من دمائه . وعند ذلك أسرع الشاهدان اليه فأوقفا المبارزة وانصرفا الى العناية بالجريح ، وعند ذلك دنا اندريا من روكامبول وقال له همساً : لقد أحسنت ولكن احذر من ان تكون قد قتلتته

- ١٣ -

وقد رأى المايجور ان فرناند قد سقط على الأرض ، ولم يكن واقفاً على شيء من اسرار اندريا بشأنه ، فأسرع لمساعدته كما تقضيه الواجبات . غير أن روكامبول حال بينه وبين فرناند ، فانحني عليه وقال له : ان مهمتك قد انتهت ايها المايجور فارجع الى منزل المركز او الى منزلك كما تشاء ، ودعني أعتني بهذا الجريح

فأيقن المايجور ان فرناند قضي عليه بحكم صادر من الجمعية السرية وأخذ سيكارة من جيبه فأشعلها من مصباح المركبة وانطلق مطرق الرأس يفكر في أمر هذه الجمعية وما يحيط بها من الأسرار ،

وعند ذلك انحنى اندريا على فرناند وكشف عن جرحه فوجده بالغماً ، غير انه ليس بخطير . فأمر روكامبول ان يحضر له ضمادة من المركبة فامتثل وضمد له جرحه ، ثم حملاه برفق الى المركبة ، فجلس أندريا بقربه وأمر روكامبول ان يسوق المركبة الى منزل الفيروزة اي منزل باكارا القديم فسارت المركبة الهويناء رفقا بالجريح ، الى ان بلغت ذلك المنزل ففتحا بابه وحملوا فرناند ، وهو لم يستفق بعد من إغمائه لفرط ما نزع من دماائه . فاستقبلتهم الفيروزة وقد باتت في قصرها الجديد شبيهة بالملكات فتبسّم لها اندريا ممجّبا يحميها وقال : هوذا الطير فهل أعددت القفص .

- كن مطمئن الببال فلا يغلت منه إلا متى اردت له إطلاق السراح .

. أعلمت ما يطلب منك ؟

- طب نفساً ، فسأمثل دوري خير تمثيل .

وأيّن الطبيب ؟

ها هو بالباب ، وقد أمرت جميع الخدم بالنوم طوعاً لأمرك .

- أحسنت . والآن فلننظر في هذا الجريح .

فأقبل الطبيب يفحص جرحه ، وهو من صنائع أندريا ، فقال له . أبطول
زمن شفائه ؟

— سبعة او ثمانية أيام ، إلا اذا اردت ان يطول .
— كلا فاعتن به خير عناية وامثل لأوامر صاحبة المنزل .

ثم قال لروكامبول : ذاهب الآن الى قصر المريكز فلم يعد لنا عمل هنا .
وقبل ان يذهب همس في اذن الفيروزة يقول : اني أنتظر منك رسالتين
كل يوم .
ثم ودعها وانصرف مع روكامبول .

وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل ، فذهب الى قصر المريكز فان
هوب وانخرطا في سلك الراقصين دون ان يشعر بهما أحد . ثم اختلما في زاوية
القاعة وجعلا يراقبان الراقصين فوجدوا الكونت مايلى حفيد الدوق يراقص هرمين
زوجة فرناند ورأيا شاروبيم أحد أعضاء جمعيتها السرية يراقص المريكزة فان
هوب وهي تبتسم له بلطف ودلال .

فقال اندريا الست ترى المريكزة كيف تبتسم معجبة بمجال شاروبيم ؟
— أجل .

— فقد ذكرتني ابتسامتها تبسم اولاد شارل الأول المعان فأس الجلاذ وهم
لا يعلمون انه سيقطع رأس أبيهم بعد حين . وهكذا المريكزة غير انها تبتسم
للخنجر وليس للفأس .

ومن عسى ان يكون الخنجـر العله شاروبيم ؟
— كلا ولكنه سيضع هذا الخنجـر بيد المريكز المفتون بزوجه .
ثم تبسم تبسماً تضطرب له الجريمة نفسها وتوتـش لرؤيته الشياطين .

- ١٤ -

ولنعمد الان الى فرناند روشي . فلقد غادرناه مغمياً عليه في منزل تلك الفتاة التي استخدمها اندريا لغوايته ، فلما أفاق من اغمائه نظر الى ما حوله نظرة المندهل إذ رأى نفسه في مكان لم يعرفه وفي غرفة مزدانة بأفخر الرياش غير انه لم يرب بين أثاثها شيئاً كان يعهده من قبل ، فعلم انه في غير منزله ، ولم يذكر ما هو فيه الى ان تحرك في فراشه فبشعر بالمرشد أعاد اليه رشده وذكره أمر المباراة وكيف ان خصمه أصابه بكتفه فعلم انه اغمي عليه لما نزل من دماثة وان شاهده او خصمه حمله الى هذا المكان القريب .

وفيما هو يفكر مهموم حائر ففتح باب الغرفة التي هو فيها وولج منها رجل بلباس سوداء فحشى الى سرير الجريح مشياً خفيفاً حتى وصل اليه ، فأخذ يده دون ان ينبس بكلمة وجس نبضه وهو يقول : إني أراك مجروحاً يا سيدي وهو دليل حسن .

ثم حل ضماد جرحه وطهره فعلم فرناند انه طبيب وقال له أترى جرحي بالغماً مخطرأ ؟

- إنه بالغ ، ولكنني أرجو ان لا يكون خطرفيه ، وفي كل حال فإنك لا تستطيع الخروج قبل اسبوع .

فلم يحفل فرناند بهذا القول لانشغاله بمعرفة المكان الذي هو فيه فقال للطبيب :
أين انا في المستشفى ؟
- كلا يا سيدي .

- إذن اني في منزل شاهدي او خصمي ؟

فتكاف الطبيب حياة البساطة وقال : لا أعلم شيئاً من هذا يا سيدي ، وجل ما أعرفه اني دعيت لمعالجتك منذ ساعتين ، فلم أر في هذا المنزل غير فتاة

- صفها لي لعلها امرأتى .
 - فتاة تناهز العشرين جميلة شقراء ربعة القوام ، وقد رأيتها منحنية فوق
 سريرك تستعين بخادمتها على تنظيف جرحك .
 - ألم تر رجالاً في البيت ؟
 - كلا .

فاضطرب فرناند وقال إذن ابن انا وما هذا السر ؟ فإن الفتاة التي وصفتها
 لي ليست امرأتى .
 وطال الحديث بينهما دون ان يتمكن فرناند من الوقوف على شيء وبقي
 مسجى فوق سريره وهو غائص في بحار التأملات

وفيا هو سارح في عالم الخيال ، فتح الباب ودخلت منه امرأة تتهادى
 في مشيتها ، وقد برزت في حلة من الجمال تدهش لها العيون ، الى أن
 استقرت أمام سرير فرناند فنظرت اليه نظرة المشفق وقلت له بصوت رخيم :
 كيف أنت ؟

فتلجلج فرناند وقد دهش بجمالها ولم يدر كيف يجيب ، ثم حاول أن
 يتكلم فوضعت بنائها المترف الناعم فوق فمها الصغير وهي تقول اسكت فان
 الكلام يؤذيك .

وعند ذلك اقترب منها الطبيب وقال لها بلهجة الاحترام : سيدتي إن
 حالتك الصحية متحسنة ، ولم يعد لبقائي حاجة . على اني سأرجع بعد
 ساعتين .

فأطلقت الفتاة سراحه وخرجت معه ، غير انها لم تصل الى الباب حتى
 سمعت فرناند يناديها ، فرجعت اليه وهي تبسم له الطف ابتسام ، فقال
 فرناند إنك أمرتني بالسكوت ، ولكني أستحلفك بالله أن تجيبي على
 سؤال واحد

فقلت له مبتسمة : سل ما تشاء .

— إن لي امرأة أحبها وتحبني وهي لا بد ان تكون في أسوأ حال لغيابي .
 — طيب نفسك ، فلقد علمت امرأتك انك ستغيب عنها بضعة أيام ،
 لأشغال خطيرة .

ثم نظرت اليه نظرة دلال تسبى فؤاد العابد وقالت وأنا أسألك سؤال
 واحد ارجو ان تجيبني عليه .
 — مري يا سيدتي بما تشائين .
 — هو ان تعلم انك بمنزل امرأة أنقذت حياتك من الخطر وهي لا تسألك
 مقابل ذلك غير السكوت .
 ثم غادرت مبهتة وانصرفت .

فعاد فرناند الى هواجسه ثم اشتدت عليه الحمى وعقبها الهذيان ، فأصبح
 يخلط بين زوجته والفيروزة وخصمه في المبارزة ، الى ان نام فتمثلت له
 هذه الفتاة في منامه باجل مثال ، ولما أفاق من رقاده وجدها واقفة أمام
 سريره وعينها شاخصتان اليه يحول فيهما الدمع الكاذب كأنها كانت شفقة
 لما كانت تسمعه من هذيانه . فلما رأته صحا مدت يدها الى يده تجسها فأخذ
 فرناند يدها وقد أثر به حنوها وأدناها من فمه فقبلها قبلة حارة تدل على
 امتنانه ثم لم يلبث ان عاد اليه الحمى وجعل يذكر زوجته فاغتنمت الفيروزة
 فرصة عودة الحمى اليه وقالت له . لقد خدعتك حين قلت لك اني
 أخبرت زوجتك خشية عليك من التأثير . أما وقد زال ما كنت أتوقعه
 من الخطر ، فإنك تستطيع الان ان تكتب ما تشاء الى السيدة هرمين ،
 مدام روشي .

فدهش فرناند وقال : أتعلمين اسمي ؟

— لو لم اكن اعرفك لما كنت الان عندي .
 لقد أصبت .

ثم عاد الى ذكر زوجته فقال اني لا استطيع الكتابة .

- لا بأس فلني اكتب عنك وفي كل حال فإنك تستطيع التوقيع .

ثم تركته وقامت الى المنضدة وكتبت كتاباً الى هرمين قالت فيه بلسان زوجها انه تبارز مع شاب من أجل فتاة فأصيب بجرح غير خطير ، وانه مقيم في منزل تلك الفتاة وان الطبيب امره ان لا يخرج قبل ثمانية أيام ، وقد كلف تلك الفتاة ان تكتب اليها بيدها البيضاء يطمئننها عنه الى غير ذلك من هذه الجمل التي تثير الغيرة في قلوب الزوجات . وجملت كلما كتبت سطر الى فرناند وتكلمه حتى علمت ان الحمى قد تمكنت منه وان لم يعد يستطيع القراءة ، فأتت اليه وقرأت امامه هذا الكتاب الذي كتبت له ولكنها كانت تقرأ غير ما كتبت ثم اعطته القلم كي يوقع عليه اسمه تحت هذا الكتاب وخبأته في درج في غرفة اخرى . وعادت الى الجريح فاستمرت جالسة الى ان فارقت الحمى وثاب الى رشده ، فرأى الفتاة امامه وهي تنظر اليه نظرة الملائكة ، فأخذ يدها وقبلها قبلة اشتياق وهو يقول في نفسه : ايمكن للرجل ان يحب امرأتين ؟

اما هي فلما افلحت منه إفلات الظبي ، وقد عبق وجهها بالاحمرار ، ثم عادت اليه وحدثته كما تحدث الأخت اخاها قائلة : ارجوك ان تنام وتستريح وان لا تتحرك حركة عنيفة ، وسيمودك الطبيب بعد قليل ، اما انا فسأعود اليك بعد حين .

وبعد ذلك خرجت الى غرفتها فغزت بزي بسيط كما تلبس البنات العاملات وخرجت من منزلها وركبت مركبة وقالت للسائق : سر بي الى شارع سانت انطوان وقف بي في اول عطفة شارع .

- ١٥ -

ولا بد لنا هنا من ايضاح خطة اندريا الهائلة ، فإنه كان يقسمها بين الفائدة والانتقام أما الفائدة فهي ما كان يرجو ان يكسبه من الهندية وهو خمسة ملايين بعد ان يسدع المركيز فان هوب يشق من بغى زوجته ويقتلها بيده ، ثم يتزوج بعد ذلك بابنة عمه الهندية ، فكان يستخدم شاروبيم الجميل لإغواء المركيزة ، ويستخدم الأرملة صديقة المركيزة لهذه الغواية ، ثم انه كان يطمع بفائدة أخرى ينالها من أموال فرناند روشي الذي سلط عليه الفيروزة وعلمها طرق إغوائه وابتزاز أمواله .

أما انتقامه فإنه كان يحاول ان يلتقم من جميع أعدائه القدماء ، مبتدئاً بأخيه الكونت ارمان فإنه قد تلبس أمامه بلباس التوبة الكاذبة ، وظهر أمام زوجته بمظاهر الأبرار . وكان يكتب كل يوم بضعة سطور في مذكراته اليومية تشير الى ما يقاسيه من حبه لامرأة أخيه ، وما يكابده من العناء في سبيل قمع نفسه عن هذا الجور ، ذاكراً ذنوبه السابقة بالندم الشديد ثم يضع هذه المذكرات بحيث تقف عليها امرأة أخيه حتى اذا قرأتها في غرفته أشفقت عليه وبين الشفقة والحب مسافة قصيرة .

وكان يريد بذلك انه متى تمكن من خدعة أخيه وحمله على الوثوق به دفع روكامبول الى قتله بمبارزة فيغدو أندريا بعد قتل أخيه قيماً على ولده وزوجاً لامرأته فيجري على ما جرى عليه أبوه قبله .

ثم أنه كان يحاول الانتقام من باكارا لأنه علم انها غير منخدعة بتوبته ، وخشي ان تنهدى له في سبيل انتقامه ، وتحول بينه وبين أغراضه فقرّر قتلها أما فرناند فإنه كان يريد ان ينتقم منه بتجريدته من أمواله ، وبقتله بيد صديقه ليون رولاند ، وذلك انه جعل الفيروزة تسطو على الاثنين وترمي في شرك غرامها الفؤادين ، فتظهر أمام فرناند بالمظهر الذي عرفناه وتتمثل

أمام ليون بزي عاملة فقيرة تلتبس العمل في معمله لانقاذ أبيها من الشقاء ، ولهذا فانها عندما خرجت من لدن فرناند غيرت ملابسها ولبست ملابس العاملات وانطلقت الى غرفة حقيرة أقامت فيها رجلاً أعمى كانت تقول لليون أنه أبوها وكان يريد اندريا بهذا الحب المزدوج ان يلقي التحاسد بين العاشقين دون أن يعرف احدهما الآخر ثم يحمل ليون على قتل فرناند في ظلام ليل دامس كما سيحيي ببيانه بالتفصيل .

وكان آخر ما في كنانته الجهنمية من السهام انه كان يريد ان يلتقم من هرمين زوجة فرناند فيهلك عرضها ويجعلها مضغة بالأفواه ، ولهذا فقط سلط عليها الكونت مايلي حفيد الدوق ووعدته بمنع زواج الدوق بالأرملة ، وإبقاء أمواله العظيمة له إذا تمكن من إغوائها وتمثيلها للعيون على ما يريد مما يخالف الشرف وواجبات الزواج . هذه هي مقاصد هذا الرجل الهائل التي يدور عليها محور هذه القصة .



ولنعد الآن الى الفيروزة فانها خرجت بلباس العاملات الى الغرفة التي أقامت فيها أباهما الكاذب كما قدمناه ، فأتى ليون الى تلك الغرفة كي يساعد ذلك الأعمى المنكود فتلبست أمامه بلباس الفتيات الطاهرات وأثارت في فؤاده مكان من غرام جديد .

ثم فارقتها على ان يعود الى أبيها في اليوم التالي كي ينظر الى أمره ، وفي نفسه الضميمة من غرامها القوي أشياء . فلم يكده يخرج من تلك الغرفة حتى خرجت في أثره ، فركبت مركبة وأسرعت بالرجوع الى منزلها الذي تركت فيه فرناند ، وهي تقول في نفسها : لقد وقع ليون ، فلننظر في ملايين فرناند .

فلما بلغت الى المنزل غيرت ملابسها ، ودخلت الى غرفة فرناند ،
فألقت به جازعاً لفراقها ، وقد ظهر الحب بين ثنايا وجهه ، فابتسمت له وقالت :
كيف أنت ؟

— بخير لولا ما كنت أشكوه من الوحدة

— هو حق ما تقول فان المريض أشبه بالمسجون

فحاول ان يحببها ولكنها وضعت إصبعها فوق شفثيها القرمزيتين وقالت
وهي تبتسم له دعني أتم حديثي .

ثم أضافت : إن السجين ينتظر كل يوم بذهاب الصبر ان يأتي اليه
حارسه بالزاد ، وكذلك المريض فانه يتوقع كل ساعة ، متى كان منفرداً ،
ان يأتي اليه ممرضه . فينتهي الأمر بالسجين ان يحب الحارس ، وبالمريض ان
يحب الممرض .

فقاطعها فرناند وقال : يا سيدتي ، إن ضجري من وحدتي لم يكن
لذلك السبب .

. لا ريب عندي فيما تقول فإنك تلتظر أنباء زوجتك .

فاختلج فرناند واضطرب وجعل يفتكر بهرمين ، غير ان الفيروزة نظرت
اليه نظرات ملؤها الحب والحنو خلعت لبه ونسي هرمين .

ودام بهما الحال على ذلك ثمانية أيام وهي في كل يوم تجذب قطعة من فؤاده
وتسرق بقلبه حتى أصبح لا عقل له ولا قلب .

فلما كان اليوم الثامن ، وقد شفي جرحه وأصبح قادراً على الذهاب ،
دخلت الى غرفته وجلست بقربه وقالت : إنك تعلم بأني لا أستطيع ان
أخبرك باسمي ولا اسم الشارع الذي أنا فيه ، وقد آن زمن رجوعك
الى منزلك لتعافيك ولكني لا أطلق سراحك قبيل ان تقسم لي أنك
تتمثل لما أريد .

— اني اقسم لك بما تشائين .

- إنك لا تخرج من هنا إلا بعد ان أعصب عينيك فتخرج بك مركبة الى ان تبلغ الى مكان معين وعند ذلك تزيح العصابة عن عينيك وتقرأ هذا الكتاب الذي أعطيك اياه الآن فتعلم ما اريد منك

فحار فرناند بين هذه الألغاز وقال لمكن ما تريدن فمتى أذهب ؟

- الان .

ثم أخذت منديلاً فمصبت به عينيه وقادته بيدها حتى وصلت به الى الباب الخارجي ، وكانت مركبتها تنتظر قرب الباب فأصعدته اليها وودعته وهي تقول : كن وفيماً بالقسم .

وسارت المركبة تقطع به الأرض نهياً ، فاجتازت جميع شوارع باريس حتى انتهت الى شارع غير مطروق ، فأوقفها السائق وقال لفرناند : هنا أمرتني سيدتي ان أقف .

فنزح فرناند العصابة عن عينيه ، ونزل من المركبة وانطلق مسرعاً الى زاوية مقفرة بالشارع ثم فض غلاف الكتاب ، وقد سأم صبراً وقرأ ما يأتي :

« أيها الصديق

« إنك أوشكت ان تشفى أتم الشفاء ، بحيث أصبحت قادراً على الرجوع الى زوجتك التي تحبك وتنتظر عودتك بذاهب الصبر ، فأودعك وداعاً لا لقاء بعده . واسألك ان لا تعود بعد ذلك الى مبارزة أحد ، فإذا جال يوماً ذكرني في خاطرك فقل ان الحياة تكتنفها الأسرار ، ولا تبحث عني لأنك لا تراني وذلك لأني مقيدة . وبحبك عني يعرضك لأخطار شديدة ثم لأنك مقترن بامرأة تهوّاها وتهواك ... الوداع ... ولا تفتكر بي إلا كما تفتكر في حادثة جرت لك في حلم . واعلم ان الأحلام خسر أوقات الحياة » .

فاضطرب فرناند عند الفراغ من تلاوة الكتاب وقال : إني سأجدها ولو ذهبت الى أقصى مكان في الأرض .

- ١٦ -

في اليوم التالي لحمل فرناند الى منزل الفيروزة ، كان اندريا عند منتصف الليل في منزل روكامبول ، وقد جلس هذان الاثنان حول منضدة . فكان اندريا يتعشى ويأكل أفخر الماء كل نافضاً عنه غبار الزهد في منزل اخيه ، وكان روكامبول يتلو عليه تقارير أعضاء الجمعية السرية ، مبتدئاً بتقرير شارويم .

وكانت خلاصة تقرير شارويم انه راقص المركيزة فان هوب ، فظهرت عليها ملامح الاضطراب ، وانه يسط مقدمة غرامه فتكلفت عدم المبالاة وانه لقيها في اليوم الثاني في أحد المنتزهات ، فاحمر وجهها حين سلم عليها وبرحت المنتزه دون سائر المنتزهين ، كأنها تحاول الفرار منه الى غير ذلك من هذه المقدمات .

فقال اندريا : إنه لم يصنم بعد شيئاً يذكر ، ولكن اضطرابها واحمرار وجهها حين لقياه ، خير دليل على انها خطت الخطوة الأولى في سبيل غرامه .

ثم قال : ما لديك غير هذا التقرير ؟

ففتح روكامبول محفظة كبيرة وأخرج منها ملفاً مكتوباً عليه « الأرملة ملايس » ففتحه وقرأ فيه ما معناه ان هذه الأرملة عادت الى منزلها عند منتصف الليل وبينما هي مقيمة في غرفتها سمعت وقع أقدام ، فحسبت ان القادم هو الدوق إذ لا يزورها احد في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل غير

ان القادم لم يكن الدوق بل كان ارثير كامبي احد أعضاء جمعيتنا فأجفلت حين مرآه وحاولت ان تصيح غير انه اقفل الباب بهدوء وجلس بقربها فلم يعلم ما دار بينهما ولكنه لم يخرج من منزلها إلا عند بزوغ الفجر .

وكان هذا التقرير ان هذه الأرملة تخرج كل يوم في الساعة الثانية بعد الظهر فلا تعود إلا في الساعة الرابعة . وان الدوق زارها في صباح اليوم التالي للحفلة فوجدها منشغلة باعداد معدات السفر ، ودار بينهما حديث طويل ، فكان الدوق يلتبس منها وهو راكع أمامها ان ترجع عن السفر . وما زال بها حتى أقنعها على البقاء على شرط ان يتزوج بها قريباً وان يسافرا على اثر الزواج الى إيطاليا وان لا يزورها ولا يحاول ان يراها قبل ان توزع رقع الدعوة لحضور حفلة الزواج .

فقال أندريا: إن مسألة هذه الأرملة تسير سيراً حثيثاً خلافاً لمسألة المركيزة والكونت مايلى ولكن النصر مضمون لمن يتمكن ان يصبر . ثم قال له : ألم يردك شيء عن الفيروزة ؟
- أجل .

وأخرج ملفاً مكتوباً عليه ليون رولاند ، فكان خلاصة ما فيه ان الفيروزة تأتي كل يوم بلباس العائلات في الساعة الثانية بعد الظهر الى الغرفة التي يقيم فيها الأعمى الكاذب وان ليون يأتي كل يوم متمللاً بعبادة هذا الأب ويحدث الفتاة ملياً ، فإذا ذهب الى معمله ذهبت هي في أثره الى منزلها . وقد بدأ ليون يفتن بها فانه حين يأتي يسأل خادمة البيت اذا كان والد الفتاة فيه فاذا أجابت بالايحاب اضطرب واصفر وجهه .

فتبسم أندريا وقال : وقع الطير في القفص .
ثم أخذ من جيبه كتاباً من الفيروزة وقرأ ما يأتي :
« أظن ان زمن عذاب سرين قد دنا ، فإن زوجها الأبله سقط في الفخ وهو في كل ساعة يراني يحاول ان يحشو أمامي ويكاشفني بحبه ، فيمنعه

حضور أبي ، ولكني أقرأ صورة الهيام بين عيني ، وعندني ان دور هذا الأب قد انتهى ، ويجدر إرساله بالظاهر الى إحدى المستشفيات كي يخلو الجو ليون ويكاشفي بما يريد إني أنتظرك في الموعد المعين كي ألتقي أوامرك الجديدة وأعلم ما ينبغي ان أعمل .

فأعاد أندريا الرسالة ثم أدناها من الشمعة وأشعلها ، ونظر الى روكامبول فقال : لننظر الآن في أمر هذه الملايين ، فلن هذه المركيزة فاضلة محبة لزوجها ولكنها بدأت ان تحب شاروويم بالسر ، فينبغي علينا ان نساعد كي نحملها على الاباحة بهذا الحب
— أظن ذلك سهلاً ميسوراً ؟

— ليس هو بالشيء السهل ، غير ان كل شيء ممكن في الوجود فاعلم الآن انهم سيمثلون رواية بعد غد في الاوبرا وستحضرها المركيزة دون ريب فتقيم في لوج خاص بها .
.. أجل

— فاذهب غداً الى شاروويم وأخبره بانك ستبارزه وتجرحه جرحاً بسيطاً في يده لا ينال منه أدنى مشقة ، ولكنها يؤثر تأثير إشفاق على المركيزة .

فدهش روكامبول وقال : وكيف ذلك ؟

— ذلك انك تستأجر في الأوبرا اللوج الملاصق للوج المركيزة وتقيم شاروويم فيه ، ثم تزوره في لوجه وتخاصمه بصوت مرتفع يبلغ الى مسامع المركيزة ، لتلاصق اللوجين خصاماً يدعو الى المبارزة بينكما ، وتعين موعد المبارزة ، وتذكر مرة منزل شاروويم ، واسم الشارع المقيم فيه بحيث لا يفوت المركيزة بحرف من جميع هذه التفاصيل .

قال روكامبول : فهمت كل شيء .

.. بقي أمر واحد وهو انك تدع شاروويم يستأجر غداً المنزل السكائن تحت

منزل الأرملة ملايس صديقة المركيزة وهو معد للابحار وكائن بدينسار ثمة
٤٠ ، فإن نوافذ منزل الأرملة تطل على هذا المنزل والمركيزة تزور صديقتها في
أكثر الأيام .

- كفى .. قد فهمت كل شيء ..

وعند ذلك تركه اندريا وانصرف إلى منزل الفيروزة فلقبها تنتظره فقال
لها : إذهي غداً إلى غرفة أبيك وخذيهِ إلى مستشفى دييوا وانتظري تعليماتي
الجديدة ..

فبرقت أسرة الفيروزة وقالت : وفرتا ند ؟

- صبراً ، فإن ملايينه تستحق شيئاً من الصبر .

- ١٧ -

بينما كانت المركيزة في اليوم التالي تتأهب للذهاب إلى الأوبرا وزوجها
واقف أمامها ينظر إليها نظرة العاشق المفتون ، إذ دخل أحد الخدم وأخبرهما
بقدوم الماجور غاردن (وهو أحد أعضاء الجمعية السرية وصديق المركيز) ،
فأمره المركيز بإدخاله وقد سر لحضوره ، لأنه كان مولعاً بلعب الشطرنج
وهو يبحث منذ حين في ضميره عن صديق ينوب عنه بمرافقة امرأته إلى
الأوبرا ، لأنه كان يؤثر الشطرنج على حضور الملاعب ، ولمسا دخل الماجور
طلب إليه أن يصحب امرأته إلى الأوبرا بدلاً منه ، على ما عرف به من الغيرة
عليها ، وذلك لأن هذا الماجور قد تجاوز عهد الشباب بمراحل ، وهو صديق
البديت منذ عهد بعيد ، فقبل شاكرأ وهو لم يأت إلا لهذا الغرض مدفوعاً من
روكامبول ، أما المركيز فإنه ودعها واعدأ امرأته أن يرافيقها إلى الملعب عند
تشيل الفصل الأخير من الرواية ومضى ، فذهب الماجور والمركيزة في أثره

إلى الأوبرا ودخلا إلى اللوج الخاص بالمركيزة ووجدوا القاعة غاصة بالناس .

وفيما هما يميلان النظر بالحضور إذ دخل شاب إلى لوج مقابل للوجهما وجعل ينظر إلى الناس بنظراته وهو يبسم قارة ويتجههم أخرى حتى وقع نظره على لوج المركيزة فالتحنى أمامه مسلماً فتنبهها المماجور إليه وقال : أتعرفين هذا الشاب ؟

- نعم . لقد قدموه الي في الليلة الراقصة وهو أسوجي كما قيل لي .
- نعم .. غير انه مولود في فرنسا وهو من أسرة نبيلة ، عاقل وافر الذكاء ، غير انه على فرط ذكائه حاد المراج شديد النزوع إلى الخصاص كثير المبارزات ، ممرس باطلاق الرصاص ولا يخطيء مرماء ، وندر ان سلم مبارزه من الموت .

فأجفلت تنظر الى اللوجات القريبة منها فرأت شاروبيم باللوج الملاصق ثم رأت روكامبول ينظر اليه نظرات الحقد فوجف قلبها وخشيت أن يكون بين الاثنين ما يدعو إلى المبارزة .

ولما انتهى الفصل الأول من الرواية سمعت طرقة على باب لوج شاروبيم ، ففتحت وسمعت الحديث الآتي :

قال الداخل وهو روكامبول : هل أنا بحضرة الكونت أومسكار دي فرني (وهو إسم شاروبيم) .
وقال شاروبيم : هو أنا .

- أتأذن لي بخلوة معك لشأن خطير ؟

- ليسكن ما تريد ..

- إني أدمى الفيكونت دي كامبل .

. قد تشرفت بمعرفته في منزل المركيزة فان هوب منذ ثمانية أيام .
واختلج فؤاد المركيزة وأسندت رأسها إلى جدار اللوج وهو من الخشب الرفيع كي لا تفوتها كلمة من هذا الحديث .

فقال روكمبول اني أقمت ثمانية أيام أبحث عن اسمك ومنزلك ولم أعلمهما إلا الآن حين أخبرني باسمك أحد الأصدقاء .

- إني مستعد لإرضائك يا سيدي في كل ما تريد فقد عرفت اسمي ، واما منزلي فهو في شارع بيدينار نمرة أربعين ، غير اني أعجب لما أراه من انشغالك بي والبحث عني .

- ذلك لأني لقيتك في منزل المركيزة فأحببت ان أعرف اسمك .

- العلك مكلف بقضاء مهمة سرية ؟

- كل يا سيدي فلاني لا أهتم إلا بأشغالي الخاصة ، واذا أذنت لي أوضحت لك ما أريد .

- قل ما تشاء فلاني مصنع اليك .

- تذكر إننا كنا نقامر في منزل المركيزة في تلك الليلة الراقصة وكنا على طاولة واحدة .

- أذكر ذلك ولا انساه .

- وكنت من الراحين في تلك الليلة ، وكان الورق بيدي فدفعته الى سواي وقتت فخاصمني أحد اللاعبين وبالاختصار فلاني تركت الحفلة لمبارزة خصمي فبارزته بسرعة زائدة وتغلّبت عليه ثم عدت حالاً إلى الحفلة كي ارصد حسابي مع بقية اللاعبين الذين سمعت منهم حين ذهابي كلمات مرة اضطرت إلى الصبر عليها لانشغالي بمبارزة ذلك الخصم ، وكنت أنت من الذين قالوا عني اني قد اتخذت المقامرة مهنة لي ، ولكنني عندما رجعت لم أجده بين الراقصين واللاعبين ، أما وقد رأيتك الآن فقد جئت أسألك أن تعتذر الي عما قلت .

- يسوءني أن لا أعتذر اليك فقد تعودت ان لا اندم عما أفعل ولا أرجع في شيء مما أقول .

- إذن أفلا تسحب كلامك ؟

- كلا !

— لم يبق لي إلا أن أسألك عن المكان الذي تريد فيه أن أرسل إليك
شهودي .

— لقد قلت لك اني اقيم في منزل في شارع بيننار نمرة ٤٠ .
— بقي أن التمس منك امراً واحداً وهو أن تكون المباراة هذه الليلة لأني
مضطر إلى السفر في الصباح .
— ليكون ما تريد لأني أجد الأمر سهلاً .
— كيف ذلك ؟

— ذلك اني رأيت في هذا اللوج المجاور لنا، وهو الذي تقيم فيه المركيزة
فان هوب ، الماجور غاردن وهو من اصدقائي وسأسأله أن يكون شاهدي
فانتظرنا عند منتصف شارع ريشليو مع شهودك .

ثم ودعه روكامبول وخرج وقد اضطرب فؤاد المركيزة إذ لم يفتها سماع
حرف من هذا الحديث وجعلت تمنع الفكرة في ايجاد وسيلة لمنع هذه المباراة
فأغلق في وجهها كل باب الا اذا تدخلت بين المتبارزين وفي ذلك أعظم مساس
بشرفها إذ لا وصلة قريبي بينها وبين المتبارزين تشفع بالوساطة ، وبينما هي
تفكر مهمومة والماجور متشاغل عنها بالنظر إلى الحضور إذ سمعت صوت
شاروبيم يخاطب صديقاً له فمادت وسمعتة يقول لصديقه ما يأتي : اني أعترف
لك بأمر لم يدعني إلى إفشائه غير ما أنا فيه من الخطر وذلك اني سأبارز
رجلاً شديداً وخير ما أرجوه ان يكون الظافر فأبلغ من الموت ما طالما تمنيت .
— أراك مللت من الحياة وأنت لم تتجاوز بعد عهد الشباب .

فتنهذ شاروبيم وقال بنس الشباب إذا كان رائده الخيبة وكانت
حلاوته مراراً وعذاباً ، واعلم أيها الصديق اني أحب امرأة حباً مبرحاً ولكنها
لا تعلم شيئاً من حبي لها ولا أحب أن تعلم سر غرامي إلا بعد أن أموت
وأزج في ظلمات الأبد .

— ويحك ما هذا القنوط العلك جننت ؟

- لم أجن إلا بهواها ، وخلاصة امري اني سئمت الحياة لأنني أحب حباً لا رجاء فيه ولا أمل لي بمكاشفتها به في الحياة ، فأنا أرجو أن تعلمه بعد موتي وأن تكون رسولي بهذا البلاغ .

- كيف ذلك ؟

- ذلك اني سأدفع اليك رسالة مختومة أكتب فوق غلافها عنوان من أحب واضع هذا الغلاف ضمن غلاف آخر لا كتابة عليه فإذا قتلت في المبارزة تمزق الغلاف الأبيض وتضع الرسالة في صندوق البريد ، وإذا سلمت من الموت وهو ما لا أرجوه تميد الي الرسالة كي أدفن سرها بصدري الى أن ييسر الله لي موتاً آخر .

فبهت صديق شاروبيم ثم قال : أهذا كل ما تريد ؟

- نعم وقد بقي علي أن استخلفك بانفاذ هذه المهمة . فأقسم له صديقه على تنفيذها وغادره وانصرف .

أما المركيزة فقد هلع قلبها من الخوف وأيقنت أن هذا الرجل قد خلب قلبه حبها ، وأنه سيبحث عن الموت بحث الرغب فيه لمسا تولاه من القنوط فحارت في امرها ، غير انها فطنت لأمر أملت أن يكون فيه نجاة شاروبيم وهو انها سمعته يقول أنه سينتدب الماجور ليكون أحد شاهديه فقالت في نفسها . انه لا بد أن يأتي الآن لاختبار الماجور امامي فإذا سمعت الحديث تداخلت في الأمر ولا تلحقني وصمة هذه المداخلة لأنني ما سمعت اليها .

غير أن قال المركيزة قد ساء فإن شاروبيم لم يتزحزح من لوجه بل نزع ورقة من دفتر جيبه وكتب عليها للماجور يرجوه ان يكون شاهده في المبارزة المتقدم ذكرها وارسلها اليه مع إحدى خادמות المسرح فأعطته إياها أمام المركيزة وهي تقول انها من شاروبيم ، فعلمت المركيزة مضمونها وحاولت أن تدع الماجور يطلعها على كنهها فلم تنجح لشدة مبالغته بالكتمان ومما زالت تستنبط الحيل للحملة على الاقرار وهو يصرفها عن مرادها الى ان قدم زوجها

المركيز فاستأذن الماجور وانصرف ذاهباً للقاء شاروبيم ، أما المركيزة فلإنها عادت مع زوجها بعد انتهاء الرواية إلى القصر وباتت من اشفاقها وخوفها بليلة العين .

ولم تستيقظ من رقادها الا في الساعة الحادية عشر من الصباح وهي مختلة مشردة الفكر لا تعلم ما تعمل لتطمئن على شاروبيم وفيما هي والهة حائرة إذ دخلت عليها وصيفتها تحمل اليها كتاباً من صديقتها الأرملة تدعوها فيه إلى زيارتها لشأن خطير ، وكانت تعلم انها تقيم في منزل مجاور لشاروبيم ، فطار فؤادها سروراً وأسرعت فركبت مركبتها وانطلقت الى منزل تلك الأرملة .

ولما خلت بها اخبرتها الأرملة على سبيل الاتفاق ان شاباً منزله تحت منزلها أتى به أمس محمولاً على الأكف لاصابته بجرح بالغ على أثر مبارزة .

فصاحت المركيزة صيحة رعب وسقطت مغمياً عليها فأسرعت الأرملة بقرع الجرس ، وعند ذلك دخل الخادم وهو من صنائع أندريا فلما رأى المركيزة مغمياً عليها نظر الى الأرملة متبسماً وقال : وقع الطير في الشرك

— أو شك أن يقع فإنه بداء يتلقط الحب .

وكانت هذه الأرملة في عداد الذين وقعوا في فخاخ أندريا فباتت يده العاملة في غواية المركيزة لطعمها بزواج الدوق الشيخ وكان خادمها يحمل اليها أندريا فتصنع بها مكرمة مضطرة لأنه كان لديه أدلة تثبت حبها لأحد أعضاء الجمعية السرية ، ورسائل اليه بخطها اذا وقعت بأيدي الدوق نفر منها وقذف بها الى الحضيض فلما صحت المركيزة من اغماؤها هشت لها الأرملة وأظهرت لها انها واقفة على سر غرامها وقالت خففي عنك أيتها الحبيبة فإن جرحه لا خطر فيه وهو سيبرأ في زمن قريب

فظهرت علائم السرور بين ثنايا وجهها ثم تجهم جبينها وعبق خداهما بحمرة الخجل حين علمت انها باحت بشيء من سرها وارخت عينيها الى الأرض كالمنذوب النادم وهي تقول رباه ماذا صنعت ؟

فأخذت الأرملة يدها بين يديها وقالت . لقد كنت لي صديقة أفلا تريدني
ان اكون لك أختاً ؟
ثم جعلت تهوّن عليها الخطوب وتستدرجها الى الإباحة بغرامها حتى بلغت
منها ما تريد وبعد حين خرجت المراكيزة عائدة إلى قصرها وقد فتحت لها
الأرملة هوة الشقاء .

- ١٨ -

بينما كان ليون رولاند يسهر الليل مفكراً حائراً بأمر تلك الفتاة التي
خلبت لبه ، والكونت دي مايلي يحاول أن يجذب قلب هرمن وقدرات
مستودع سرها ، إذ كان يتزلف اليها بلباس الأخاء وهي تشق بوداده الكاذب
وتخبره بما اقترفه زوجها ، فيعدها خيراً ، ويذكر لها من أحوال الفيروزة ما
يضرم فارق الحقد في قلبها ، وقد اتفق وإياها على أن لا تخبر زوجها حين يعود
اليها بشيء مما تعلمه عن هذه البغي إلى أن يجد وسيلة لإبعادها .

فوثقت بوعوده وجعلت تتغذى بقرب ولدها عن بعد هذا الزوج ، وبينما
كانت الأرملة تفتح هوة الضلال كي تزج بها صديقتها وبينما كان أندريا يراقب
جميع هذه الحوادث ويعمل على إغواء امرأة أخيه المحسن اليه ، وبينما كانت
جميع هذه الدسائس التي استنبطتها قريحة السير فيليام تسير على ما يريد كان
فرناند روشي ينزل من مركبته بعد ان أزاح العصابة عن عينيه ووقف في
عطفة الشارع يتلو كتاب الفيروزة .

فلما أتم تلاوة الكتاب اصفر وجهه وقال : لا بد لي أن أراها ولو سافرت
إلى أقصى المعمورة .
ثم مشى مشية المفكر المهموم إلى أن وصل إلى منزله ودخل اليه دون

أن يدري أين هو حتى انتبه وهو في الحديقة إلى صوت ولده يناديه من النافذة بصوت الجذل المندesh فوجف فؤاده وسرت إلى نفسه عواطف الحنو ، فأسرع إلى لقاء هذا الولد فبلغ اليه وهو في حجر أمه واندفع يعانق الاثنين ويقبلهما قبلات صادقة أنسته حب الفيروزة الكاذب إلى حين .

وكان بينه وبين امرأته حديث طويل فأخبرهما بمحدث مبارزته واعتقاله كما شاء ، وتظاهرت بتصديقه كي لا يعود إلى الجفاء وبات تلك الليلة في منزله وهو على أحر من الجمر ، وكان إذا تمثلت له الفيروزة تشاغل عنها بمداعبة طفله إخفاء لبوادر غرامه الشديد

ولما كان الصباح ركب فرساً عربياً أصيلاً وخرج إلى النزهة في الغابات كما تعود فاطمة أنت هرمين لما رآته من ظواهر حبه القديم ولم تعد تخطر لها خيانتها في بال فلما حان وقت الغذاء لم يرجع فانتظرت إلى العشاء فلم يمسد وانتصف الليل فلم يحضر فعادت إليها هواجسها وأقامت في نافذة غرفتها منتظرة دون أن يكتحل جفنها بالرقاد حتى طلع النهار فرأت باب الحديقة قد فتح ودخل منه ذلك الفرس الذي كان يمتطيه فرناند دون فارسه ، وكان يقوده أحد الخدم ، فهلج قلبها ونادت الخادم وسألته عن زوجها فقال أنه دفع إلى الفرس كي أرجعه إلى المنزل وكان ذلك مساء أمس خارج باريس .

قالت : كيف أعطاك الحصان ولماذا ؟

. انه كان يطارد مركبة فيها فتاة حسناء عليها ملابس السفر فلما أدرك المركبة استوقفها فوقفت وتباحث مع الفتاة بحثاً طويلاً تبينت من اشارته انه يدعوها إلى الرجوع إلى باريس وكأنه قد أقنعها فنظر إلى الشارع فرآني واقفاً أنظر إليهما فكتب نمرتي في دفتره ثم قال :

— خذ هذا الجواد وانتظري في غابة بولونيا إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل إذا لم أعد اليك أرجعه في الصباح الى منزلي ثم داني على المنزل ودفع لي اجرتي وعاد الى المركبة فركب بجانب الفتاة وعاد كلاهما إلى باريس .

دقت هرمين يدأ بيد وقد أيقنت أن زوجها قد علق بتلك البغي وللحال خرجت من المنزل فركبت مركبة وأمرت السائق ان يسير بها الى منزل الكونت دي مايلي كي تستشيريه في امرها فقد باتت تثق به وثوق الأخ بأخيها. وحكاية فرناند انه خرج للتنزه صباحاً في غابات بولونيا كما تقدم ، وفيما هو يسير الهوينا إذ ابصر مركبة تسير على مسافة بعيدة عنه مسير المستعجل المسافر لأمر خطير تجرها اربعة جياد دفعه الفضول إلى تعقب هذه المركبة لا سيما بعد ان رأى فيها فتاة وأمتعة سفر وما زال يتعقبها حتى اوشك أن يدنو منها فعلم ان تلك الفتاة لم تكن الا الفيروزة وذكر ما كتبتة اليه عن عزمها على مغادرة باريس .

وكان في مؤخر المركبة خادمة غرفة الفيروزة فتظاهرت انها تلتفت الى ورائها اتفاقاً حتى إذا رأت فرناند يسير بأثر المركبة أظهرت الاندهال وقالت لمولاتها كلمة لم يسمعها فرناند لبعده عنها ولكنه علم انها أخبرتها بأمره وذلك لأن الفيروزة أمرت السائق بالاسراع فضرب الجياد بسوطه الطويل فاندفعت تنهب الأرض وتسبق الرياح .

وحسب فرناند انها تريد الفرار منه فلكز بطن جواده وأطلقه في أثرها وما زال يطاردها حتى ادركها بعد ان خرجت من ابواب باريس وسار جواده بجانب مركبتها .

نظرت اليه وصاحت صيحة اندهال ثم قالت : كيف أنت هنا وما أتيت تعمل ؟

فتلعثم لسانه ولم يدر ماذا يجيب ، ولكنها أجابتها عيناه بلمغة تفصح أكثر من أبلغ الكلام عن مراد القلوب ، فابتسمت له وقالت : الى اين انت ذاهب ؟ - لا أعلم .

- ومن أين أتيت ؟

- من باريس . وقد سكن اضطراب فرناند وقال : وأنت الى أين تذهبين ؟

— اني مفادرة باريس كما ترى .
 — أيطول غيابهك عنها ؟
 فأرخت عينيهما وقالت بصوت يتهدج : سأغيب عاماً على الأقل .
 فاضطرب فرناند وقال كلا ان هذا محال .
 — كيف تراه محالاً وأنت تراني مسافرة على الطريق ... ثم أشارت اليه
 مسلماً بيدها وهي تقول اني ذاهبة الى فلورنسا لأقضي فيها بقية الشتاء ،
 فاستودعك الله واذكر كتابي .
 غير ان فرناند قد عزم عزماً أكيداً فاستوقف السائق وقال لها : سيدتي
 قلت لك ان سفرك محال لأنك لا تستطيعين السفر الآن .
 فقطبعت حاجبيها وقالت : من يمنعني عن السفر ؟
 — أنا وذلك لأنني أقفوا أثرك حين خروجك من باريس لأنني أود محادثتك
 في شأن خطير فان ابليت علي ذلك فاني ألقي نفسي بين دواليب مركبتك .
 قالت وهي تبتسم تبسم الرضى . اني لا أريد لك الموت ، ماذا تريد .
 ثم اوقفت المركبة ونزلت منها ونزل فرناند عن جواده فتأبط ذراعها وسار
 وياها الى فندق قريب وهو يقول . اننا سنتغدى في هذا الفندق ونتباحث فيه
 فاما تعودين الى باريس او تسافرين بعد الغداء .
 وذهب بها الى الفندق فدار بينهما حديث طويل أسفر عن رضى تلك
 الفتاة بالرجوع مع فرناند الى باريس بعد أن تعاقدا على الحب واستوثقت منه
 بأشد الموائيق ، وفي المساء عاد الى باريس فذهبا الى منزلها ، وكان فرناند لا
 يزال يرافق المركبة فأمرت خادمها عند الصباح بارجاعه الى منزله بعد أن
 علمته ما يقول كما علمناه حين سألته هرمين .

ولنعد الآن إلى باكارا التي ستمثل أعظم دور في هذه الرواية العجيبة ،
فنقول أنها بعد أن ثابت إلى الله توبة صادقة أثر غرامها بفرناند ، جعلت
قصارها إغاثة المعوزين ودفع فكبات الدهر عن البائسين بالانفاق عليهم من
مالها الخاص ومستعينة بأموال الكونت دي كركاز وكانت صارفة معظم
اهتمامها إلى انقاذ البنات الفقيرات من وهدة البغي الذي يدفعهن إلى هاوية الجوع
وما يلقينه من المسكنة والمذلة

وقد اتفق لها في تلك الليلة التي وقع فيها فرناند بشرك الفيروزة أنها
أنقذت ثلاث أخوات اسرايليات من السقوط في هذه الهاوية فجعلت الكبرى
وصيفة لإحدى ربات القصور ، وأدخلت الثانية في أحد معامل الخياطة ،
وعادت بالصغرى إلى منزلها وهي تؤمل متى طالت صحبتها لها أن
تجعلها تعتنق الديانة المسيحية لفرط تعصبها بدينها بعد أن ثابتت تلك التوبة
الصادقة .

وكانت الفتاة الاسرائيلية بارعة الجمال وقد بالغت باكارا بملاطفتها حق
استأنست بها وتعلق بها فؤادها ، فلما عادت بها إلى المنزل خصصت لها غرفة
فيه ، وأوصت بها الخدم خير وصاية ، وفيما هي تلقي عليها الارشاد وتبث فيها
روح الفضيلة كي تستأصل من نفسها ما خلفته دواعي الشقاء من مبادئ البغي
والفساد إذ دخلت عليها الخادمة تخبرها بقدوم اختها سريز . وكانت لا
تزورها إلا في النادر لانصرافها عن الزيارات .

وفرحت بقدمها فرحاً شديداً غير أنها ما أوشكت أن تراها حق تراجعت
منذلة لما رآته من شحوبها ونحوها ثم أكبت على عنقها تقبلها باكية وهي تقول :
أختاه ماذا أصابك ؟

ولم يكن محول سريز إلا لما لقيته من انشغال زوجها بحب سواها وهيامه

بالفيروزة ، وهو يحسبها إحدى العاملات فشكت لأختها جميع ما تلقاه من الخراف ليون عنها وقالت : أنه لولا ولده لما قدم الى البيت وأنه لا يأتي من محل عمله إلا حين الحاجة الشديدة لافتتانه بن يهواها ، وأنه لا يعاملها إلا بالنفور ، وإذا عاتبته ابتدرها بالقول الغليظ والسخط والحدة إلى غير ذلك مما يفسد عيش الزوجين ، وآخر ما قالت أنه باتت تخشى عليه أن يصاب بالجنون فإنه حين يبيت في المنزل يلبث طول ليله سهران يحول في ردة البيت لا يكلم أحداً ولا يريد أن يكلمه أحد .

فسمعت باكارا جميع قول أختها وهي آسفة متوجمة ثم سألتها أتعرفين هذه الفتاة التي يهواها ؟
- كلا .

- أتعرفين أحداً باغرائه على هذه الخيانة .
- كلا .

وجعلت تبكي وهي متكأة على صدر أختها بكاء الأطفال وفيها هي تعزيها وتعددها الوعود الجميلة إذ دخلت الخادمة تقول : سيدتي أن الفيكولنت أندريا يطلب مقابلتك .

فأجفلت سرير عند سماع اسمه ونظرت الى أختها نظرة الخائف الوجل ثم قالت قلبي يحدثني بأنه لم يسلبني قلب زوجي سوى هذا التائب .
فاضطربت باكارا وقالت : وأنا أرى ما تريه فإن توبته كاذبة وستفضحها الأيام فاذهبي الآن كي أرى ما يريد واطمئني فإن نفور زوجك لا يطول .
وذهبت سرير فدخل في أثر ذهابها أندريا فسلم على باكارا ووقف وعيناه مطرقتان الى الأرض ، الى أن أمرته بالجلوس فجلس بازائها وجعل كل منهما ينظر الى الآخر نظر من يفحص خصمه قبل القتال كي يعلم مبلغ قوته وإذا كان كفؤاً له

وساد السكوت بينهما هنيهة الى أن افتتحت باكارا الحديث فقالت : هل

اكتشفت شيئاً من أمور الجمعية السرية ؟
فأجابها نعم ، وأخص ما علمته ان معظم اعضائها من النساء ، وانها
ترتكب من المنكرات الفظيعة ما لا يخطر في بال وان رئيستها امرأة .

فدهشت باكارا وقالت : من هي هذه المرأة ؟
فقال اندريا . اصغي الي ودعيني الآن أخبرك بما أتيت من أجله ، فلان
رجلاً ينبغي علي وعليك ان نحبه بقدر ما أسأنا اليه في خطر شديد .
فاختلج فؤاد باكارا وقالت : من عسى ان يكون هذا الرجل العله فرناند ؟
فأطرق اطراق الأسف والحزن وقال : هو يا سيدتي بعينه .
فجزعت باكارا وصاحت ربه ماذا أصابه أهو مريض ؟ قل أي
خطر تعني .

- كلا ما هو مريض ولكنه وقع في شرك تلك الجمعية الهائلة فسلطت
عليه امرأة أحبها حباً مبرحاً .

وكان الصاعقة قد انقضت على باكارا فقد تأججت في فؤادها براكين الغيرة
وهاجت مكان حبها القديم حق أو شكت أن يغمى عليها ، وذلك انها كانت
لا تزال تهوى فرناند ، ولكنها شغلت عن هواه بعد زواجه بتوبتها الصادقة ،
فلما رآته قد نقض عهد الزوجية ثار حبها القديم ، حق أو شكت أن تنقض
عهد النوبة .

وكان اندريا قد علم ما يحول في خاطرها فعاد الى ذكر عشيقها فقال بلهجة
الأسف : انه يجب فتاة بغيلاً يلقبها الشبان بالفيروزه لصفاء عينيها وهي تقيم
في منزلك القديم في شارع مونسي .

فصاحت باكارا صيحة منكرة وقد جحظت مقلتها واصفر وجهها ،
فتسكف أندريا هيئة الحزن وجعل يقص عليها حوادث عشق فرناند كما أراد
مبتدئاً ببحرجه على أثر المباراة ، وحمله الى منزل تلك العشيقة ثم اظهر لها
كتابين بخط الفيروزه أحدهما الى هرمين والآخر الى رئيسة العصبة ، فلما

قابلت باكارا بين الخطين ورأت انها واحد أيقنت بصدق اكتشافه ، ولكن قلبها كان يحدثها انه خائن وان توبته ومظاهر نسكه خداع وتضليل ، وان يده هي التي ضربت هرمين واختها سرين بغية الانتقام ولكنها لم تظهر شيئاً من ذلك بل تظاهرت بتصديقه لما يقول وجعلت تراقب بعينها النقادتين جميع سكناته وحركاته .

وبعد أن انتهيا من حديث العصابة قال لها : ان أخي الكونت ارمان يدعوك في الساعة العاشرة من هذه الليلة لنجتمع في منزله للمباحثة في هذا الشأن الخطير ، فوعده بالذهاب ، ونهض اندريا يحاول الانصراف وفيما هو يسلم عليها دخلت الفتاة اليهودية التي تقدم ذكرها ووقفت بازاء باكارا فنظر اليها اندريا نظرة فضحت سره لفرط اعجابه بيجها ولم يدر في خاطره ان باكارا تراقبه فقبل يدها وانصرف وفي نفسه من تلك الفتاة اليهودية أشياء .

أما باكارا فرجعت بعد أن شيعته الى الخارج وهي تقول : لقد كنت مشككة بك ، أما الآن فقد اصبح الظن حقيقة لا ريب فيه وقد ثبت لي انك من الخائنين .

وسمعتها الفتاة تقول هذا القول فقالت : لقد صدقت يا اماء فإنه نظر الي نظرة جف لها قلبي واذكرتني نظرات ذلك الشيخ الذي كان يزور امي في تلك الليلة ، فلم تنتبه باكارا لكلامها ودخلت الى مخدعها فكتبت الى ارمان دي كركاز تسأله ان يقابلها في الساعة الثامنة بدلاً من العاشرة والتمست منه ان تكون هذه المقابلة سرية لا يعلم بها احد ثم ختمت الكتاب وارسلته مع خادمها الى الكونت فذهب به وعاد بعد حين يحمل جواب الكونت بالايجاب . فلما حان الموعد ارخت على وجهها نقاباً كثيفاً وذهبت الى الكونت فألفته ينتظرها في قاعة منزله في الحديقة ودار بينهما حديث طويل عن اندريا فأظهرت له جميع ما يخامرها من الريبة بأخيه ، الا ان الكونت كان يناقضها في جميع ما تقول لأنه كان يرى بعينه كل ليلة ما يعانيه اخوه من العذاب وكان يراقبه

في بعض الليالي من قفل الباب فيراه يجلد نفسه حتى تنتهك قواه ويقرأ أسفار الشهداء حتى تغمض عيناه فينام على الأرض دون غطاء بعد ان يغير نظام الفراش كي يظن الخدم انه نام عليه ولا يفتنون الى انه نام على الأرض .

فلما يئست باكارا من إقناعه قالت : لا بأس من ان تبقى على اعتقادك فيه ولكنني سأراقبه في الليل والنهار وأصرف كيده عنك باذن الله ولا التمس منك غير أمر واحد .

— ما هو ؟

— هو أن تكتم ربيقي هذه عنه وعن زوجتك وعن جميع أعوانك .

— سأفعل ما تريد .

— أتقسم لي على الكتان ؟

— أقسم لك وأبر باليمين .

فودعته باكارا وانصرفت وهي تقول في نفسها : لقد انتصرت على هذا الشيطان المريد وأنا بغبي مومس وسأنتصر عليه الآن وأنا نائبة مؤمنة ليس لي نصير عليه غير الله وكفى بالله نصيراً .

— ٢٠ —

بينما كانت باكارا عائدة الى منزلها ، وهي تدعو الله في ضميرها كي ينصرها على أندريا ، كان اندريا جالساً قرب منضدة في منزل روكامبول ، وهو يتداول مع تلميذه بشأن العصابة ، وقد أخبره بجميع ما فعل وبزيارته لبأكارا وإطلاعها على حب قرناند . فأجفل روكامبول ثم سكن روعه ووقف أمام رئيسه وقفة الاحترام وقال : أتأذن لي ان أسألك عما أشكل علي فهمه من أعمالك ؟

فأبتسم له اندريا وقال : قل ما تشاء .
 — إنك ! تكتسب الفيروزة رسالتين ، وانفقت مع الكونت مايلي والأرملة
 مالايس فكأنك قد أخبرتهم بأسرار جمعيتنا وأخبرتكم بحقيقة فرناند ، فأبي
 قصد تريد من إظهار هذه الحقيقة التي يجب ان تبالغ في كتابتها ، اليس في ما
 فعلت خطر علينا ؟

فقال اندريا ببرود : أي خطر تعني ؟
 — أولاً إنك قلت الحقيقة بتجاهها ومهدت لأخيك الكونت السبيل الذي
 نسعى اليه .

— وبعد ذلك ؟
 — ثم إنك أوقفت الفيروزة على بعض سرنا ، وهي إنما ينبغي ان تكون
 آلة صماء في أيدينا .

فقاطعه اندريا وقال : كفى ! إنك لا تزال جاهلاً لدقائق أسرار الصناعة
 فاصنع إلي الآن لتعلم حقيقة هذه الخطة التي أشكلت عليك فإن هذه الجمعية
 السرية مؤلفة من رئيس وهو أنا ، ونائب وهو أنت ، وأعضاء يعدون بثبات
 الآلات العاملة كالفيروزة والأرملة والماجور والكونت وغيرهم ، ولكل جمعية
 سرية في الأرض من الماسونية الى جمعيتنا سر دقيق يكون خاصاً بالرئيس المدير
 وقد يطلع هذا الرئيس نائبه على نصف هذا السر ويوقف الأعضاء على ربه ،
 ولكن السر يحملته يبقى مكتوماً في صدره . أما الفيروزة والأرملة والكونت
 دي مايلي فانهم لا يعلمون شيئاً من أسرارنا ، فان هذا الكونت يعتقد
 بخداعه لهرمين وإغوائها انه ينتقم لرجل شريف ، وهو لم يخبر بذلك غير
 السير أرثير الانكليزي ، واين له ان يعلم اني والانكليزي واحد . وفوق
 ذلك فانه رجل نبيل وقد أقسم بشرفه أن لا يبوح باسم السير أرثير ، وأما
 الأرملة فانها لا تعرف أحداً منا غير خادمها فانثير ، ويبدنا من رسائلها ما
 يجعلها أطوع لنا من ظلها : لا سيما وهي لا تزال طامعة بزواج الدوق ، ولا

تجهل ان رسالة واحدة من هذه الرسائل يقف عليها الدوق تحبب جميع أمانيتها ، وفوق ذلك فهي لا تعلم شيئاً من أسرارنا ، ولو علمتها وأرادت ان تبوح بها فلأنها لا تستطيع ان تتهم أحداً غير ذلك الخادم ولا خطر علينا من اتهامه . وأما الفيروزة فلأنها لا تعلم من أسرارنا سوى اننا نريد استخدامها في سلب أموال فرناند وهي التي ستتولى سلبه بارشادنا فهي شريكة لنا ومثل هذه البغي الفقيرة لا نخوننا وهي تطمع بتلك الملايين

بقي علي ان أجيبك على اعتراضك الثاني ، وهو كيف اني أطلعت ارمان وباكارا على الحقيقة ، وذلك لأنه سيعتمد علي بعد هذا لا سيما اذ حقق ما أخبرته به ووجده صحيحاً لا ريب فيه ، فنأمن بوليسه السري ، لأنني أديره كيف أشاء ، وأنا لم أخبره بعد إلا بحب فرناند لتلك الفتاة ، وهو امر لا بد من ان يظهر . وأما باكارا فلأنها ستخدمنا بعد ذلك أجل خدمة دون أن تريد

فبهت روكامبول وقال : كيف ذلك ؟

— ذلك ان باكارا سيكون اول ما تجر به انها تقابل الفيروزة وتحاول إرجاعها عن فرناند ، وقد علمتها ما تقول . ثم تذهب الى فرناند وتحذره من تلك الفتاة مظهرة له انها لا تريد غير الاحتيال على سلب أمواله ، فيزيد فرناند حباً بخليته ، لأنه يرى انها لم تقبل منه هدية الى الآن ، وانها غير طامعة بشيء من ماله . فيعلم ان باكارا قد غارت منها وانها تتهم تلك الفتاة .

فلما أتم أندريا كلامه قال لروكامبول : أفهمت الآن ؟

— نعم قد فهمت كل شيء .

— إذن فاصنع إلي الآن لتعلم ما يجب ان عمله في الغد ، ذلك انه يجب ان تمتطي حصاناً وتذهب عليه الى الشانزليزية في الساعة الثانية بعد الظهر ، فتجول حول المنتزه . وبينما انت سائر الهويناء تمر بك مركبة فيها رجل

وامرأة هما الفيروزة وفرناند فتدنون يجوادك من المركبة فتنظر الى المرأة نظرة احتقار وتحبي فرناند تحية احترام ، ثم تقول له : أعرفتني يا سيدي ؟ فيجيبك هو لا ريب بالاجاب ، لأنه لم يذس مبارزتك بعد ، وعند ذلك تقول له : إنني عندما بارزتك يا سيدي ، وجرحت بعد منتصف الليل أغمي عليك فارتأيت بالاتفاق مع الشهود عدم حملك الى منزلك كي لا تصاب زوجتك بسوء عندما تراك على تلك الحال ، ورأينا ان نحمالك الى منزل تلك الفتاة المجاور لحل الحادثة .

أما هذه الفتاة التي حملتك الى منزلها ، وهنا تشير اليها باحتقار ، فقد كانت عشيقة لي وقد خدعت بها وارتكبت خطأ حبها ، فاشتريت لها ذلك الميرل الذي تقيم فيه وفرشته لها باحسن الرياش كما رأيت حين كنت فيه ، وجعلت لها المركبات والخيول المطهمة الى غير ذلك مما يفعله كل شاب يعتبر مثلي بجمال هذه الحظايا وزخارف أقوالهن الكاذبة . وقد سافرت على أثر مبارزتي وحملتك الى منزلها . فلما عدت اليوم من سفري علمت انك خلفتني في قلبها وفي منزلها ، وان لك وحدك الحق في الركوب معها في هذه المركبة التي اشتريتها بأموالي .

فأجفل روكامبول وقال : العلك تريد بذلك ان فرناند يتمحس فيدفع لي ثمن المنزل والفرش والمركبات والمجوهرات ، وجميع ما تملكه تلك الفتاة

فأجابه اندريا بلهجة الساخر : لقد علمت بعض الشيء فان الفيروزة ستغادر هذا القصر بعد هذه الحادثة كما علمتها ، فتستأجر غرفة حقيرة تقيم فيها وهو ما يرضاه فرناند . ولكنه يشق بعد ذلك من حبها ويكرهها على قبول جميع ما تحتاج اليه من قصر جديد ومجوهرات ومركبات جديدة الى غير ذلك مما سيكلفه نصف مليون على الأقل .

— وهذا المال ؟

نعطي الفيروزة ٥٠ الف فرنك منه ، ويدخل الباقي لصندوق الشركة تحت الحساب ... ولنعد الآن الى فرناند فان حديقك معه على ما تقدم لا بد أن يدعو الى مبارزة بينكم ، ولكن الفيروزة تصلح بينكما لأنه سيكون لها أطوع من بناتها .

فأظهر روكامبول إشارة الامتثال ، وقال . أهذا كل ما تريد مني ؟

— كلا . بل بقي لي صاحتان : إحداهما ان توصل كتابي هذا ، وأعطاه رسالة ضخمة ، الى أدابي ناتها الهندية وتحمل إلي جوابها . والثانية أن تذهب غداً الى معلم السلاح المعروف في شارع رشوات نمرة ٤١ وتطلب اليه ان يعطيك ضربة السيف المعروفة باسم « مائة ريال » فانها سميت بهذا الاسم لأن أجرة تعليمها مائة ريال .

— وما الفائدة من تعليمها ؟

— إنك متى ألقنيتها تستطيع ان تطعن خصمك طعنة تقتله قتلاً بطيئاً بحيث يستطيع ان يكتب وصيته قبل ان يفاجئه الموت .

فدعر روكامبول وقال أقضي علي ان اقتل أحداً ؟

— أجل .

-- متى ؟

— ربما كان ذلك بعد خمسة عشر يوماً .

— من هو هذا الرجل المنكود ؟

هو الذي سأزوج أرملة .

فأحنى روكامبول رأسه وهو يقول : مسكين ارمان دي كركاز .

أما اندريا فلم يحفل بكلامه ولكنه قام فودعه على ان يراه بعد يومين ، وذهب ليجتمع مع أخيه . وبأكارا في الساعة العاشرة . غير انه بينما كان ذاهباً الى منزل أرمان وهو يعيد له وسائل الموت كانت بأكارا عائدة من ذلك المنزل وهي تعد لصاحبه وسائل الحياة .

- ٢١ -

لم نبسط في ما تقدم من فصول هذا القسم غير مقدمات تلك المكائد الهائلة التي أسس أركانها اندريا ونحن آخذون الان ببسط نتائج تلك المقدمات وسرد حوادثها المعجبية فنقول :

في اليوم الثاني لاجتماع اندريا بروكامبول ، كان فرانساند روشي في منزل الفيروزة وقد جلس اليها يعرب عن غرام فؤاده ، وهي تظهر له حبا أكيدا خالصا من شوائب الغايات فتلفق له من حوادث ماضيها قصصا تلبسها حلة الازدراء ، مبينة له فضائل الحب الصحيح وكيف انه إذا دخل الى القلوب الأثيمة طهرها من الأثام الى غير ذلك مما كانت تجمله مقدمة لما ستنبه له من حباثل دهائها ، وكانت تقف معه موقف المشفق الحنون فتذكر له واجباته الزوجية وتلمس منه ان يسلوها ويعود الى زوجته ، فكان يصغي اليها لصغاء المفتون بجمالها وقد شغل فؤاده هواها فأعماه عن دهائها بحيث بات يحمل نصيحها على محامل الاخلاص الصحيح فتبدو لمينيه بمثال الفضيلة والكمال ويقاطعها كلما ألحت عليه بالقبل الحارة .

فما زالا على ذلك الى الساعة الثانية وهو الموعد الذي عينه اندريا لروكامبول فاقترحت عليه ان يخرج للنزهة فركبا مركبة وانطلقت بهما حسب أمرها الى الشانزليزية .

وبينا كانت المركبة تسير بهما الهويناء وهما يتناجيان مناجاة الأطيوار إذ بصريا فرأها قد امتقع وجهها وجعلت تضطرب كالريشة تقاذفها الهواء . فأجفل فرناند لمنظرها وقال : ماذا أصابك ؟

فلم تجبه ولكنها نظرت نظرة الى الطريق ثم غطت وجهها بيديها . فنظر فرناند الى حيث تطلعت فرأى روكامبول متمطيا بجواده وهو يسير بازاء المركبة ويبتسم للفتاة إبتسام الاحتقار ولكنه حين رأى فرناند ينظر اليه رفع قبعته

وحياه باحترام ثم هنأه بسلامته من الجرح واندفع في محادثته على ما علمه اندريا وذكرناه في الفصل المتقدم .

وكان يتكلم والفيروزه مطرقة الرأس تنهد وفرناند مصغ اليه أتم الاصفاء فلما فرغ من حديثه قال فرناند ببرود : طب نفساً ايها الصديق فسترجع اليك جميع أموالك .

فقال له روكامبول بازدرأ : لا حاجة لذلك ، فأني أحب هذه الفتاة تلك الأموال .

فأجابه بعظمة : كلا فانها لا تقبل شيئاً دون اذني .
فنظرت عند ذلك الفيروزه نظرة احتقار الى روكامبول وقالت : كلا لا أقبل شيئاً .

فانحنى روكامبول امام فرناند وقال : ولكني أومل ان نلتقي بعد أن اغتصببت مني تلك الفتاة . فان لدينا حساباً آخر نرصده ، وهو ليس حساب المال .

— هو ذاك فنوفيك عدأ حساب المال ونرى حسابك الآخر بعد الغد .
— حمدا ذاك يا سيدي لو لم أكن مضطراً الى السفر بعد الغد فلنرجى هذا الحساب الأخير إلى الأسبوع القادم .

— ليكن ما تريد وسأرسل لك شهودي بعد ثمانية ايام .
ثم أمر السائق بالعودة الى المنزل فعادت بهما وفرناند يتميز من الغيظ حتى إذا بلغا اليه أخذت الفيروزه بالبكاء ثم تظاهرت بالغشيان فلما أفاقت من الغشيان وقفت أمامه موقف التائب النادم وقالت : دعني وشأني ايها الحبيب وعد الى زوجتك فقد بدأت أكون شؤماً عليك .

وطال حديث العاشقين فكانت تسأله وتلح عليه ان يسلوها وهو لا يزداد بها إلا تعلقاً وهياماً ويدفع البرهان ، إلى ان تظاهرت بأن حبه قد تغلب عليها فقالت : إني أرضى ان أعيش وإياك ، إذا قبلت شروطي .

فطار فؤاده فرحاً وقال : سيلي ما تشائين فإني أقبل كل شرط .
فتنهدت طويلاً وقالت : إصنع لي يا فرناند ، إني قد شغفت بحبك وأحببتك حباً أكيداً صالحاً ، فصغرت في عين نفسي وتمثل ماضي أيامي الأثيمة بشكل رائع خفيف سئمت لأجله الحياة ، ولكنني قبل ان ألقى تلك النفس الى هاوية الغواية ، كنت فتاة طاهرة شريفة . فإني أهلي زوجوني بالرغم عني بشيخ عجوز حملي لسوء طباعه على الفرار منه ، وأنفق بجميع مهري على السكر والجون ، بحيث لم يبق لي من ذلك المهر سوى عشرة آلاف فرنك ولا تزال هذه الأموال لدي احترس عليها لأنها وصلت إلي من أشرف مورد وقد زادت من رباها الى الان ألقى فرنك .

فقال فرناند وهو لم يدرك قصدها : ما تريد من هذا القول ؟
قالت أريد ان أعيش من ربا هذا المال ، ومن شغل يدي كما تشتغل العاملات .

فأجفل فرناند وقال : أنت تعيشين هذه العيشة التمهيسة وأنا أغنى الأغنياء ؟

- نعم ولا أكون منكودة بل اكون من أسعد النساء . ويكفي من نعم الحياة ان فرناند يحبني وأنا أحبه .

فحاول فرناند الاعتراض ، ولكنها أسكتته بما اتخذته من مظاهر الحب وقالت : هذا هو شرطي الذي وعدت ان تقبله مني كيف كان فاعلم الان

انك تخير بين الرفض والقبول واني لا أرجع عن هذا الغرام .
فأطرق فرناند إطرارق المتأمل وجعل ينسكت الأرض بمعصاه فقالت على
ماذا عولت ؟

— لا يسعني إلا الامتثال لما تريدن .

— أتخضع لي في كل ما أريد ؟

— أجل .

— إذن قم الآن واذهب الى زوجتك فإنك لم ترها منذ يومين ولا تعد إلى
إلا في صباح الغد .

فحاول فرناند ان يعترض ولكنها ضربت بيديها مفضبة على منضدة وقالت :
لقد وعدتني ألا تخالفني فيما أريد .

فامتثل فرناند وخرج مطأطأ الرأس ، والحب ملء فؤاده ، فوقفت ترمقه
من النافذة حتى إذا رآته يسير في الشارع سير الخبول قهقهت ضاحكة
وقالت : لقد بلغت من قلبه ما رجوت وسأبلغ من ماله ما أريد ، فما أجهل
الرجال !..

ثم غيرت ملابسها فزيت بزي العاملات وانصرفت الى غرفتها الحقيبة لتمثل
دورها الثاني مع ليون رولاند

وكان ليون قد فتن بها حتى لم يعد يطيق صبراً على فراقها وقد أرسل
أباها إلى المستشفى كي يخلو له الجو معها ، وهو يعتقد انها عاملة وان ذلك
الأسمى أبوها ، وكانت الفيروزة قد مدت له حبل هواها ، حتى حسب انها
بالت رهن حبه وطوع إشارته فلما رأى اندريا ان خدعته قد نجحت وان
الهوى قد برح بذلك العامل المسكين ، أمر الفيروزة ان تقاطعه وتهرب منه
على ما علمها . فذهبت إلى غرفتها وكتبت اليه كتاباً تخبره فيها انها لم تعد
تحتمل الإقامة معه لأن شكوى زوجته قد بلغت إلى قلبها ، فهي تودعه
وداعاً أبدياً ، وتبرح تلك الغرفة الى غيرها في شارع لا تسميه ، حذراً من

أن يتبعها .

فلما انتهت من الكتاب نادى البوابة ، وكانت مدام فيبار التي عرفها القراء في القسم الأول من هذه الرواية ، فأعطتها الكتاب وقالت لها أن تعطيه لليون حين حضوره ثم أخبرتها ان تقول له انها رأتها في مركبة بديعة مع شاب عليه مظاهر النعمة وانصرفت عائدة الى منزلها كي تهتم بأمر فرناند تاركة أمر النظر في إتمام مسألة ليون لرئيسها السير فيليام

٢٣ -

بينما كانت الفيروزة تبحر غرفها الصغيرة وهي بلباس العاملات الى منزلها في شارع مونسي كانت باكارا تطرق باب ذلك المنزل ، اي منزلها القديم ، ففتح لها الخادم وسألها ماذا تريدين ؟
- أريد ان أرى سيدتك .
- إنها لم تعد بعد .

فدخلت باكارا بعظمة وهي تقول : لا بأس فاذهب بي الى قاعة الاستقبال لأنني اريد ان أنتظرها فيها .
فامتل الخادم وذهب بها الى القاعة فلما وصلت اليها صرفته في شأنه وجلست تنتظر ولم يطل جلوسها حتى عادت الفيروزة الى منزلها ثم دخلت الى القاعة لترى الزائرة وهي تعلم انها باكارا .
وكانت الفيروزة لا تزال بلباس العاملات وعلى رأسها قبعة بيضاء فحسبت باكارا إنها إحدى خادمتي القصر وقالت ألم تحضر سيدتك بعد ؟
- نعم يا سيدتي قد حضرت .
- إذن فاخبريها إنني أنتظرها .

فذهبت الفيروزة وأغلقت الباب ثم قالت : عفوك يا سيدتي فاني لبست هذه الملابس لبعض الأغراض ، وأنا هي السيدة التي تريدن أن تريها والتي يلقبونها بالفيروزة .

فنظرت إليها باكارا عند ذلك نظرة الفاحص الخبير وقالت : أحقيقة أنت هي ؟

— نعم يا سيدتي اني مستعدة لخدمتك ، وإن اكن لم أتشرف قبل الآن بمعرفتك .

— إن لي إسماً آخر غير الذي قرأته على رقعة زيارتي ولا بد ان تكوني قد سمعت بهذا الاسم فإنه باكارا .

فأظهرت الفيروزة عند ذلك حركة عجيبة جمعت بين الاعجاب والاندهال والاحترام فقالت : أنت هي باكارا ؟

— كلا ، ولكنني كنت أدعى بهذا الاسم حين كنت قائمة في بوادي الغمي والضلال . أما اليوم فقد ثبتت توبة صادقة عما اقترفته من الأثام وصرت أدعى مدام شارمت كما ترينه على رقعة زيارتي .

فأحنت الفيروزة رأسها وقالت نعم لقد علمت بتوبتك ايضاً ولكنني كنت أذكرك كل يوم بما أجده في هذا المنزل الذي كنت تقيمين فيه قبلي وكل ما فيه يدل على سلامة الذوق وحسن الاختيار .

— كيف علمت اني كنت أقيم في هذا المنزل ؟

— علمته من سائق مركبتك الذي كان في خدمتي .

— ألم يخبرك عني سوى هذا ؟

فتلبست الفيروزة بملابس السداجة وقالت إنه كان يخبرني بكل ما يعلمه من أمرك ومعاملتك لعشاقك فكنت اجعلك مثلاً لي لخداع أولئك الأغرار ، حتى اني كنت اقلدك في كل شأن ، لما بلغت من الشهرة ، بل اني أبقيت جميع ما في هذا المنزل على حالته القديمة كي لا أخرج عن تقليدك

في شيء .

فابتسمت لها باكارا وقالت : ألم يخبرك هذا السائق ايضاً كيف اني خرجت من منزلي هذا ؟

- نعم فلقد قال لي انك انت التي كان يترامى الأمراء على أقدامك ويموتون لكلمة تخرج من فمك بل كنت تفتخرين بأن قلبك لا يعرف الهوى ولكن نفذت أشعة الغرام الى هذا القلب وأحببت ذلك الحب الذي كنت تجملينه فتخلّيت عن كل هوى واعتزلت الناس وجميع ما كان يحيط بك من السعادة من اجل هذا الحبيب اليس ذلك أكيداً ؟

- إذه اذا لم يصدق كله فقد صدق بعضه والان أتمي حديثك ألم يخبرك هذا السائق شيئاً عن الذي كنت أحبه ؟

نعم ، ولكني أسألك الصفيح يا سيدتي فلاني أخاف اذا قلت ان يكون هذا السائق كاذباً فيأ أقول او اكون قد فتمت منك جرحاً قديماً قد اندمل بتقادم الأيام .

... لا بأس قولي ما تعلمين

- أخبرني هذا السائق ان ذلك الحبيب الذي خرجت لأجله من نعيمك كما خرجت حواء من الفردوس لم يكن غير لص .

فلم تضطرب باكارا بل قالت لها : أصدقتيه فيما يقول ؟

- بل قال لي ايضاً ان الجنود قبضوا عليه في منزلك وأخرجوه منه وانت مغمى عليك ، فلما عاد اليك رشادك وعلمت بما كان خرجت من ذلك المنزل تائهة والهة لا تلوين على أحد فلم يعلم ما كان من أمرك .
- أهذا كل ما علمته ؟

- نعم ولكني قلت في نفسي إنك لا بد ان تكوني قد أفرغت جهدك في سبيل إنقاذه .

- لقد أصبت في ما ظننته ولكن انقذته براءته لأنه لم يكن سارقاً .

فتظاهرت الفيروزة بالسرور وقالت : إذن انت سعيدة وإياه ؟
- كلا لأنه كان يحب سواي .

فانذهلت الفيروزة وقالت اتراه تخلى عنك ؟
- بل أنا تخليت عنه ، فقولي لي ألم تعلمي اسمه من ذلك السائق ؟
- كلا ، لقد اخبرني عن صفاته ولم يذكر لي اسمه لأنه كان يجهله .
فحدقت بها باكارا وقالت أصبح ما تقولين ؟

فتنهدت الفيروزة وقالت هي الحقيقة بعينها ومن ولج الحب الصحيح في
قلبه بعد الكذب عن اسائه .
- العلك أحبت هذا الحب ؟

فوضعت يدها على قلبها وقالت : إصفي لي يا سيدتي لقد كنت منذ
أسبوعين انظر اليك بعين الخيال ، وأعجب بك اشد الاعجاب . أما وقد
رأيتك حقيقة ورأيت علائم الصلاح بادية بين ثنايا وجهك فقد تبدل ذلك الاعجاب
بالاحترام وأحبت ان أطلعك على حقيقة ما أعانيه كي يكون لي من كلامك
الصالح بعض العزاء .

واعلمي يا سيدتي اني لا أزال أجعل القصد من زيارتك ولكن مهما يكن هذا
القصد فو نبيل لا يمنعني عن ان أبوح لك بسري فقد تسدين إلي نصيحة تخرجني
من هذا الموقف الحرج الذي أنا فيه .

فتظاهرت باكارا بالاشفاق عليها وقالت : قولي ما تشائين فلعملي أفيدك في
ما تؤملين .

- إن هذا المنزل الذي ترينني فيه هو لرجل كان يحبني فاشتراه لي ووهبني
أثاثه . واتفق منذ اسبوعين ان كان عازماً على السفر الى لندن فخرج في الليلة
التي كان عازماً في صباحها على السفر وجلست أنتظره على هذا الكرسي
إلى ان دقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، فسمعت طرقة شديداً
على الباب الخارجي ثم سمعت ان باب الحديقة قد فتح ، فأسرعت كي

أرى من القادم ، فرأيت عشيقتي ومعه رجلان يحملان رجلاً سالت دماؤه وهو مغمى عليه ، فعلمت أنه تبارز مع عشيقتي فجرحه وحمله إلى منزلي كي يتعالج فيه .

ثم سكتت كأنها تخاف ان تتم حديثها ، ولكن باكارا شجعته على إتمامه فاندفعت في حديثها ، وذكرت لها كيف ان فرناند أقام عندها ثمانية أيام وكيف أنها أحبته وأشفقت عليه لأنه متزوج فأخرجته من منزلها معصوب العينين كي لا يهتدي إذا أراد الرجوع اليه ثم أخبرتها عن سفرها في اليوم التالي ، وكيف ان فرناند لقيها خارج باريس وحملها على الرجوع الى غير ذلك مما علمه القراء . فلما أتمت حديثها قالت لها باكارا : والآن على ماذا عولت ؟

— عزمت على ان أرجع عن هذا العيش الذميم فأهجر هذا القصر واستأجر غرفة حقيرة فأعيش من عمل يدي شأن العاملات الشريفات .

فقالت لها باكارا وهي منذهلة بما تسمع : أتفعلين ذلك ؟
— أجل أفعله ما زال يحبني ولا أريد منه سوى حبه فلا يقال اني أحببته لابتزاز أمواله

فما كادت باكارا تسمع هذا القول حتى وقفت مغضبة ، وقد انتقدت عينها ما بشرر الغيظ ، ثم دنت من الفيروزة فهزت كتفيها هزاً عنيفاً وقالت : إنك داهية شديدة الذكاء إلا انك تكلمين باكارا واني طالما مثلت قبلك مثل هذه الادوار على هذه المراسح .

وكان قد تمكن الحقد من باكارا بحيث لم يكن يعوزها سوى الخنجر لقتل مزاحمتها على فرناند أما الفيروزة فانها لبشت في مكانها دون أن تظهر شيئاً من ملامح الخوف ، ولكنها نظرت الى باكارا نظرة المندهل وقالت : لقد رايتني انقلبك يا سيدتي فإما ان تكوني قد جننت او انك تهوين الذي يهواني وأهواه .

... نعم فلقد صدقت في قولك الأخير .

ثم عادت فجاءت على كرسيها متكلفة هيئة الوداعة والسكون وقالت :
إصفي إلي الآن كما أصغيت اليك واعلمي ان هذا الرجل الذي تزعمين انك
تحبينه ، أحببته أنا منذ أربعة أعوام . ولم أغير طريقة حياتي إلا من أجل
هذا الغرام ولا أنكر انك قد تكونين أحببته حباً أكيداً ، فإذا كان ذلك
فبرهني على هذا الحب الأكيد كما برهنت عليه أنا من قبل .

فأظهرت الفيروزة الاندهال وقالت : ألا تكفي ملابسي هذه للدلالة على
صدق هذا الحب ؟

.. كلا ليس هذا ببرهان .

فأسرعت الفيروزة الى خزانة في الغرفة المجاورة ثم عادت تحمل غلافاً كبيراً
ففتحتته وجعلت تنثر ما فيه من الأوراق

فقالت باكارا : ما هذا ؟

- أنظري ا .

ثم التقطت ورقة من الأرض وقالت : هذا عقد بيع تام الشروط للمنزل
الذي أنا فيه ، وهو الذي رهني إياها عشيقتي الفيكونت دي كامبل .

ثم أخذت ورقة ثانية وقالت هذه أسهم مالية قيمتها ١٦٠ ألف فرنك
أعطاني إياها الفيكونت ؟ وهذه أوراق أخرى تبلغ فائدها ستة آلاف
فرنك في العام .

- ماذا تقصدين ؟

- إقرأ أي هذه الغلاف اليس مكتوباً عليه إسم الفيكونت ؟

- أجل .

- إذن فاقراي هذا الكتاب الذي كتبته اليه ، ووضعت في طيه هذه
الأوراق .

فأخذت باكارا الكتاب وقرأت ما يأتي :

« سيدي الفيكونت

« أرجو عفوك فلقد خدعتك حين تظاهرت بحبك ولم أكن أحب سوى أموالك ، ولقد كرهت هذه الأموال بعد مقابلتنا بالأمس فأنا أرجعها اليك الان مع حجة المنزل الذي يعود اليك فاحضر لاستلامه متى شئت » .

(الفيروزة)

فلما أتمت باكارا تلاوة الكتاب قالت الفيروزة: أليديك شك بعد ذلك بصدق حبي لفرناند ؟

— نعم . ولو كان فرناند فقيراً كما كان عندما أحببته انا لمسدت رديك الأموال الى الفيكونت خير برهان ، إلا ان فرناند واسع الثروة وهو قد يموض عليك أضعاف ما بذلته .

— إن هذا قد يكون ولكفي لا أحبه لماله وهوذا برهان آخر .

ثم دفعت اليها كتاباً كانت مزعومة أن ترسله الى فرناند ، كتبت فيه ما يأتي :

« صديقي المحبوب

« إذا كنت قد رضيت بشروطي التي عرضتها عليك اليوم ورضيت ان تحبني فقيرة معدمة لا مال لي سوى الغرام الصادق فلا تزورني في منزلي بل في شارع بلانش نمرة ١٧ » .

(الفيروزة)

فما كادت باكارا تتم تلاوة الكتاب حتى نظرت اليها نظرة ملؤها الوجدان ثم انقضت عليها انقضاض الصاعقة وقبضت بيديها على عنقها وضغطت عليها ضغطاً شديداً حتى أوشكت أن تخنقها . فصاحت الفيروزة صياح الخنق ، أما باكارا فلما خففت ضغطها وقالت لها: إن حياتك بين يدي فاصدي القول والا فانك مائتة لا محالة .

فقال الفيروزة وقد اعترت وجهها صفرة الموت ، ماذا تريدان ؟

.. قولي الحقيقة أتحبين فرناند ؟

- لا أحبه حباً بل أعبدته عبادة

- إذن فأني أمهلك دقيقة واحدة لتختاري فيما بين رجوعك عن حبه

وبين الموت !

فقال الفيروزة بعظمة دهشت لها باكارا . لا حاجة إلى المهلة فقد اخترت الموت فإذا شئت فاقتليني ولكن لتعلمي انه يحبني فوق ما أحبه وانه ينتقم لي.

فوقع هذا الكلام وقعاً شديداً على باكارا فأنت أنين المتوجع وأفلتت فريستها لأنه خطر لها أن فرناند يموت بعدها إذا قتلته لفرط حبه لها ولكنها أرادت أن تجرب معها تجربة أخرى فقالت : لا تخافي الآن فاني لا أقتلك لأنك تحبين فرناند ولكفي أقتلك دون إشفاق إذا لم تطيعيني مدة ساعة .

- ماذا تريدان أن أصنع ؟

- إقرعي الجرس ومري السائق أن يهيئ المركبة ..

فامتثلت الفيروزة طائعة وهي تجهل ما تريد . أما باكارا فانها أخذت الأوراق التي نثرتها الفيروزة من الغلاف وفيها حجة المنزل والكتانان اللذان قرأتها والقتهما جميعاً في النار ، ثم نادى الخادمة وأمرتها أن تحضر لمولاتها قبعة ورداء ، ولما عادت بهما ذهبت بالفيروزة إلى خارج المنزل وركبت وإياها المركبة التي أمرت باعدادها وأوعزت إلى السائق أن يسير إلى شارع بيدي ، أي إلى المنزل الذي تقيم فيه باكارا ولما وصلت إلى دخلتها فذهبت باكارا إلى خزانة فخرجت منها أوراقاً مالية تبلغ قيمتها ١٦٠ ألف فرنك وفيها هي تقفل الخزانة أقبلت إليها الفتاة اليهودية فقبلتها ونادت الخادمة وقالت لها : إني سأغيب يومين عن المنزل فاحرصي على هذه الفتاة كل الحرص ولا تحرمنيها شيئاً مما تطلبه . ثم ذهبت مع الفيروزة وأمرت سائق المركبة أن يسير بها إلى المسجل . فأجفلت الفيروزة وقالت : ما حاجتنا بالذهاب إلى المسجل ؟

— اننا نذهب اليه للسجل عنده عقد بيع منزلك .
— ولكنه للفيكونت وليس لي ..
فقالت باكارا : لا بأس ولا فرق لدى الفيكونت بين أن يسترجع أمواله
ذهبا أو عقارا .

— ومن يشتري هذا المنزل ؟
— أنا التي سأشتريه ، فإني ما تبت إلى الله ورجعت عن حياتي السابقة
إلا لحبي لفرناند ولاعتقادي انه يحب امرأته الشرعية ، فضحيت ما ضحيت في
سبيل حبه غير نادمة على شيء . أما الآن وقد نسي حبه لزوجته فلم أجد بدا
من نسيان توبقي لأنه إذا كان يريد أن يحب فتاة مثلك فأنا أولى بهذا الحب .
فبهتت الفيروزة وقالت إذن عزمت على ان تعودي إلى حياتك السابقة ؟
هو ذلك فان كل فتاة تزج بنفسها إلى هاوية الغواية فقد قدر عليها ان
لا تخرج منها إلا الى حين كما يخرج الغواص رأسه من الماء ليتنفس الهواء وأنت
فإنك قد تصبحين شريفة طاهرة ما زال فرناند يحبك وما دمت تهوينه غير
أن هذا الحب لا يلبث ان يزول حتى تعودي إلى حياتك السابقة ولقبحك
القديم وهو الفيروزة كما عدت أنا إلى لقبي وهو باكارا .

ولما وصلت إلى هذا الحد من الحديث وقفت المركبة عند باب المسجل
فدخلت إلى البيت وبعد أن كتب لهما عقد البيع عادتا إلى المنزل فأمرت باكارا
الفيروزة ان تكتب للفيكونت انها مرسلة اليه أمواله وثن المنزل ففعلت ،
وأخذت باكارا كتبها ووضعته ضمن غلاف ووضعت في طيه ثمن البيت أوراقا
مالية ثم ختمته وأمرت الخادم ان يحمله في الحال الى الفيكونت ، وبعد ذلك
نظرت الى الفيروزة وقالت لها : هوذا المنزل قد عاد إلي بجميع أثاثه ، فهل
لك حاجة فيه بعد ؟

— أريد ان اكتب لفرناند .
كلا .. إني اريد ان يأتي الى هذا المنزل فيراني فيه بدلا منك .

— اني أقبل بذلك بشرط ان تخبريه أين اقيم
 — أقسم لك اني أخبره ، إطمأني .
 وعند ذلك دخل الخادم وهو يقول : هوذا الجمال الذي امرتني باحضاره .
 — ليدخل
 دخل الجمال وامرته الفيروزة ان يحمل صندوق امتعتها ثم ودعت باكارا
 وداع الفسائز المنتصر وانصرفت ، فاستوقفتها باكارا وهي خارجة وقالت :
 اصغي إلي واسمعي مني هذه الكلمة الأخيرة وهي انك اذا عشت بفرناند
 وسلبته درهماً واحداً فاني لا أعفو عنك بل اني أبحث عن خنجر خبأته
 وأغمده في صدرك .
 فخرجت الفيروزة دون ان تجيب بحرف على هذا الانذار ولحقت بالجمال
 فلما أدركته خارج الباب قال لها : الحق انها قوية فقد كادت تخنق بيديها .
 — كيف علمت هذا ؟
 — ذلك لأنني حضرت المعركة وكنت مختبئاً في الغرفة المجاورة سمعت ورأيت
 كل شيء وانا الذي لبست ثياب السائق وذهبت بك الى منزلها ثم الى المسجل .
 فعلمت الفيروزة من صوته انه اندريا وانذهلت لاقدامه الغريب ، فقال لها :
 ان هذه المرأة شؤم علي وفي سمعها ان تلقي بي الى الحضيض اذا علمت بأنني
 أنا الذي ادبر هذه المكيدة وهي قالت لك انها تقعد خنجرها في صدرك اذا
 سلبت فرناند ، أما انا فأقول لك اني أشويك على النار الحامية إذا خطرت
 لك خيانتني .
 وبينما هما يذهبان كانت باكارا جاثية تصلي وقد أنهت صلاتها بقولها : رباه
 عفوك لاني لم أعد الى حياتي السابقة إلا لكي أنقذ فرناند بل انقذهم جميعاً .

- ٢٤ -

ولنعد الآن الى روكامبول فانه بعد ان ترك فرناند والفيروزه على ما تقدم
 برح الشانز اليزه وذهب الى معلم السيف ليدرس عليه الامشولة التي امره اندريا
 يتعلمها وبعد ذلك ذهب الى منزل الهندية يحمل اليها كتاب اندريا فلما قابلها
 دفع الكتاب اليها نظرت الى عنوانه انه من السير فيليام، اتفقت عينها وفضت
 الغلاف فقرأت الكتاب مسرعة كأنها تريد أن تلتهم سطوره .

ولم يعلم ماذا دار بين هذه النمرة الهندية وبين هذا الاسد الباريسي من
 الحديث غير انها بعد ان تباحتا مباحثة طويلة غادرها فركب مركبة وذهب
 الى قصر المركيز فان هوب فدخل وسأل عن المركيز ف قيل له انه لم يعد ولكنه
 علم ان المركيزة في المنزل ، أمر الخادم ان يخبرها بقدومه وتبعه الى قاعة
 الاستقبال ، فقام ينتظر فيها وبعد حين أقبلت المركيزة فحيته مبتسمة ولكنها
 لم تتالك من إظهار انقباضها لأنها ذكرت حين رآته انه عدو شارويم ولكنها
 لم تجد بدا من مجاملته ومحادثته وما زالت وياه يتباحثان في الأحاديث
 المألوفة حتى أتى المركيز فذهب بروكامبول الى غرفة اشغاله كي يخبره بالسبب
 الذي أتى من أجله .

ولما اختليا ولم يكن روكامبول قد زار المركيز غير مرة واحدة فعرّفه
 بنفسه وقال له عفوك يا سيدي فاني ما أتيت إلا لشأن خطير قد يثقل عليك
 ولكفي لا أجد بدا من اخبارك به ثم اني لا أجد بدا من اطلعك على ما أتيت
 لأجله من أن أخبرك بشيء من تاريخ حياتي لشدة علاقته بهذا الشأن .

فأظهر المركيز الاندهال وقال : قل ما تشاء فاني مصغ اليك .
 فقال روكامبول : كنت يا سيدي منذ عام في مدينة نيويورك وليس لي

من العمر غير أربعة وعشرين عاماً فكان لي من الجراة والاقدام والمطامع ما ينطبق على هذه السن ، وقد لقيت في هذه المدينة العظمى فتاة غريبة العادات والأخلاق بارعة الجمال ، وهي تسمى باسم أسرتك لأنها تدعى مسز داي ناتها فان هوب .

فدهش المركيز وقال : إنها ابنة عمي وقد مات أبوها في الهند فكيف هي في نيويورك ؟

— لقد كانت فيها أما الآن فهي هنا في باريس .

— العلك قادم من قبلها .

— نعم هي التي أرسلتني اليك ولكنك وعدتني يا سيدي ان تسمع حديثي .

— نعم وهذا أنا مصغ اليك .

فقال روكامبول : اني عندما لقيتها في نيويورك بذلت جهدي مع كثيرين غربي من أعيان تلك العاصمة للتعرف بهذه الهندية فكانت الفائز دون سواي وبلغ من جسارتي اني كاشفتها بغرامي ، فكانت تصغي الي وتبتسم ابتساماً حزيناً لا يظهر الا على شفتي من لقي عناء شديداً في جهاد الحياة وقالت لي : ان القلب الكريم لا يحب غير مرة واحدة وقد أحببت هذا الحب . فاضطرب المركيز عند سماع هذا القول ، غير ان روكامبول تظاهر انه لم ينتبه اليه واندفع في حديثه فقال : ولكني لم أقتنع بجوابها وتددت عليها كثيراً وكل يوم اكشفها بهذا الغرام ، فلم تكن تحتفل بي الى أن مدت لي يدها يوماً وهي تقول أتريد أن تكون صديقاً لي ؟ فقبلت تلك اليد وقلت لها : سأكون ما تشائين فدعيني أرجو على الأقل ، فهزت رأسها وقالت : لك ترجو رجاء باطلا فلقد مات الحب في قلبي

ثم نظر روكامبول الى المركيز وقال له . أسألك العفو يا سيدي فاني لم أذكر لك جميع هذه التفاصيل الا لغرض واحد وهو أن أظهر لك ان ابنة عمك كانت تحب حباً قديماً برح بها والقي في قلبها اليأس .

وكانت تدعوني دائماً الى زيارتها فما زلت اختلف اليها ستة اشهر حتى شعرت بأني أصبحت عاشقاً مفتوناً بها ولكنها لم تشأ ان تقف معي الا موقف الصديق ، ثم طرأ علي من الشؤون ما دعاني الى الرجوع الى باريس فعدت اليها منذ عام ، وكان ملاذ هذه العاصمة وزخارف الحياة فيها شفتني من ذلك الغرام فنسيت كل ما مضى ، الا اني اصبحت اليوم واذا بكتاب ورد الي من ابنة عمك تقول فيه هذا القول المتقطع ثم أطلعه على كتاب بخط الهندية يتضمن ما يأتي :

(أنا في باريس .. أسرع الي فلم يبق لي من الحياة الا ساعات معدودة واني اعتمد على صداقتك)

فقرأه الماركيز وعرف انه خط ابنة عمه وصاح منذعراً : بربك قل لي ماذا اصابها ، أهي ميتة أم لا تزال في قيد الحياة ؟

- كلا .. فانها لم تمت بعد فاصنع الي ، اني عندما قرأت هذا الكتاب اصابني من الاضطراب ما اصابك فأسرعت اليها فوجدتها جالسة على مقعد شرقي وهي تبسم حسب عاداتها وليس بين ثنايا وجهها ما يدل على ما جاء في كتابها فدهشت وحسبت انها ارادت المزاح

وكانها علمت ما كان يحول في نفسي فمدت الي يدها وقالت : إنك تراني في أتم عافية الا انه لا يمر بي ثمانية ايام حتى افارق هذه الحياة .
فدعرت وقلت : كيف ذلك ؟

فأجلستني بقربها وقالت ، اتعلم ايها الصديق السبب الذي رفضت من أجله هواك وقنعت بصداقتك ؟ ذلك انه ليس لي الآن من العمر الا ثلاثين عاماً ولكنني أحببت وانا في الخامسة عشرة من عمري حباً بلغت به حد القنوط ولم أكن أنظر وأنا في الهند إلا لهذه العاصمة الفرنسية التي دفنت بها قلبي .

فدهشت لقولها وقلت العل هذا الرجل الباريسي قد جن فتعالمى عن هواك - كلا .. ولكنه أحب سواي . ثم تبسمت وقالت : أتعلم أيضاً لماذا

أتيت إلى باريس ، اني أتيتها ورجائي أن أراه مطلق القيساد أو أراه مطلق القلب ولكنني علمت والأسفاه أنه لا يزال يهواها ، وعلمت اني لم يعد لي رجاء في الحياة

فما تمالككت أن أخذت يدها وجعلت اغسلها بدموعي وأقول :
أقوتين هكذا في صباك حلوة يفتن الجماد هواك

بالله سيدتي الا ما رجعت عن هذا القصد السيء واشغلي نفسك عن ذلك الحب القديم .

— لقد فأت الأوان وقضي الأمر ، ثم أخذت زجاجة صغيرة فارغة كانت على منضدة أمامها قائلة : لقد شربت عند الصباح ما كان في هذه الزجاجة وهو سم زعاف .

فوقف المركيز وهو لا يملك نفسه من الاضطراب فأجلسه روكامبول وقال له : اصغ يا سيدي لتتمة الحديث : فلقد قالت لي ، ان هذا السم بطيء التأثير لا يحدث آلاماً ولكنه يقتل بعد ثمانية أيام ، وليس لهذا السم الا دواء واحد ولكنه لا يوجد في القارة الأوروبية لعدم وجود هذا السم فيها ، فهو لا يوجد الا في الهند وعلى ذلك فقد اصبح موتي محتملاً لأنه لا يمكن احضار الدواء من الهند في هذا الزمن الوجيز . وقد دعوتك الي كي اودعك وداعاً أبدياً ثم لأعهد اليك بقضاء مهمة ارجو ان لا يثقل قضاؤها عليك .

فقلت وانا أجهش للبكاء : مري سيدتي بما تشائين . قالت : اريد ان أبعث بك الى الرجل الذي احببته وأنا اموت من اجله كي تلتمس منه ان يحضر الي قاني أحب ان اقزود منه بنظرة قبل الموت

فاصفر المركيز اصفرار الأموات وقال له : وبعد ذلك .

— لا حاجة الى ان أقول لك شيئاً بعد ذلك فان الرجل التي احبته واقدمت على الموت من أجله هو انت .

فوقف المركيز عند سماع كلمة روكامبول الأخيرة ، ولكن رجله وهما
حق أوشك ان يسقط فأسند يده على الكرسي كي لا يقع .

- ٢٥ -

وكان بين الرجلين سكوت طويل خشي روكامبول على اثره أن يصاب
المركيز بموت فجائي فتخسر الجمعية السرية أملها الوحيد ، وهو الملايين الخمسة
التي وعدت الهندية بدفعها لأندريا ، ولكنه لم يلبث هنيهة حتى تبدل خوفه
بالاندهال فإنه رأى المركيز زال عنه التجهم وعاد الى السكينة فقال
لروكامبول : ألم تخبرك ابنة عمي باسم السم الذي شربته ؟

- نعم . ولكنني لا اذكر بالتدقيق لغرابته فقد قالت انه خلاصة عصير
ورق شجر يدعى « مانسانيليه » ينبت في جزائر الأنتيل وانه ممزوج بورق
شجر يدعى « ليلياس » .

فافتكر المركيز هنيهة ثم قال بهرود لقد صدقت ابنة عمي فلا يوجد
لهذا السم الا دواء واحد ، ولا يوجد هذا الداء الا في الهند ، ثم جعل يقص
على روكامبول تأثير هذا السم الى ان قال عن درائه ، حجر أزرق نادر الوجود
لا يوجد الا في احشاء الأفاعي التي لها ثلاثة رؤوس تبدو منها بشكل قسم
مثلث الزوايا وهي سوداء الظهر وبطنها ذو لون اصفر براق كلون الذهب فلا
يوجد الا في نواحي لاهور وفيراير على ان هذا الحجر الغريب لا يوجد في
احشاء جميع هذه الأفاعي ، بل انه شديد الندور فيها ، حتى انه لا يكاد
يوجد غير حجر واحد بين احشاء عشر حيات ، ولهذا فقد غلثن هذا الحجر
حتى انه يمتنع في بلاده التي جنيه ، ولا يوجد منه الا لدى بعض الأفراد ،
فاذا شرب احد الناس مثل هذا السم الذي شربته ابنة عمي فإنه لا علاج له

الا هذا الحجر ، وذلك انه يوضع في قدح ماء فتتحل اجزاؤه في الماء ويصبح اوراق بلون الحجر المذاب فيه فاذا شرب المسموم المزيج شفي للحال ولكن لشفائه شرطاً وهو ان هذا الدواء لا يؤثر الا بعد ان يمر بالمسموم سبعة ايام والا فلا يكون له شيء من التأثير .

فقاطعه روكامبول وقد اضطرب لما رآه من بروده وقال له : تسمح لي يا سيدي ان اظهر انذهالي بما اراه منك .
لماذا ؟

— لأنني اخبرك ان ابنة عمك قد تجرعت السم وانها ارادت الموت من اجلك ، وان كنت بريئاً من انتحارها وانك تعلم انه لا يوجد للسم الذي شربته الادواء واحد وان هذا الدواء لا يوجد منه في هذه البلاد وانك تعلم جميع هذا يا سيدي ، وبدلاً ان تباأس لنكد هذه الفتاة ويضيع رشدك لمصاها اراك تحدثني بتاريخ هذا السم وترياقه دون ان يبدو منك شيء من الاكترات فابتسم المركيز وقال : ان كلمة واحدة تبطل عجبك وهي ان المركيزة مخطئة بزعمها ان الحجر لا يوجد منه في باريس ، ثم مديده اليسرى وقال لمحدثه ، انظر الى هذا الخاتم الثخين الذي البسه في خنصري والى هذا الحجر فيه الذي يشبه الفيروز .

فنظر اليه روكامبول وقال : ما هذا الحجر الأزرق ؟
— هو ترياق ذلك السم وقد اشتريته حين كنت في الهند وذلك منذ اثني عشر عاماً ولم يخطر لي في بال انني سأشفي بمذوبه ابنة عمي .

ثم نهض فنهض معه روكامبول وخرج الاثنان الى منزل الهندية وفيها هما على الطريق قال له المركيز : اني لا اجد بداً من اخبارك ببعض امري كي تعلم اني لست بخائن ولكفي شقي تعس ذلك اني سافرت منذ ثلاثة عشر عاماً اريد الطواف حول الأرض فبدأت طوافي بالذهاب الى هافانا الاسبانية وتعرفت فيها بعيلة اقامت معها سنة شهور وهي عيلة امرأتى المركيزة ، ثم برحت هافانا

الى الهند بعد ان احببت التي غدت اليوم امرأتي وعاهدتها على الزواج ، فلما وصلت الى الهند نزلت في منزل عمي والد دابي ذاتها فأحببني هذه الفتاة حباً غريباً ورضيت بي زوجاً لها الا اني كنت منشغل القلب مرتبط العهد فرجعت الى هافانا وتزوجت التي كنت احبها وصحبته الى اوروبا ، وعشت معها الآن بأحسن عيش وانا احسب اني قد برحت من بال ابنة عمي الى ان اخبرني اليوم بأمرها وانا لم اسمع بذكرها منذ ذلك العهد افلا تحسبني شقيماً بعد هذا ؟ فتلبس روكامبول بلباس الكآبة وقال الحق انك جدير بالاشفاق فانك السبب في موت الفتاة ولكنك بريء من انتحارها

- فقال المركيز : انها لا تموت ما زلت احمل الدواء بيدي .
- بل انها ستموت يا سيدي لأنك ستري انها لا تريد هذا الدواء .
- ولكني اكرهها على شربه .
- انك لا تستطيع انقاذها الا اذا احببتها

فتنهده المركيز وقال ايمن للقلب ان يعلق باثنين وانا لا ازال احب امرأتي كما كنت احبها يوم الزفاف ولكني سأنقذ ابنة عمي لأنني سأحبها كما يحب الأخ اخته .

وعند ذلك وصلت المركبة الى منزل الهندية فدخل الاثنان وجعلا ينتظران قدوم صاحبة المنزل في قاعة الاستقبال فما طال انتظارهما حتى أقبلت تتهادى وقد استبدلت ملابسها الهندية بلباس باريسية وتألفت بالتجمل على جمالها فباتت فتنة العيون بحيث ذهل المركيز حين رآها وهو يحسب انه سيري فتاة ممجية من فتيات الهند أما هي فأها سلمت على زائريها ثم قالت لأبن عمها باللغة الانكليزية لجهلها الفرنسية : أني ألتمس منك خلوة اطعمك فيها على بعض الشؤون السرية ، ثم اعتذرت من روكامبول وتأبطت ذراع المركيز فدخلت وأياه إلى قاعة اخرى وبعد ان أوصدت بابها جلست على مقعد شرقي وأجلسته بقرها وقالت :

إني أشكرك يا ابن عمي العزيز لأسراعك بتلبية دعوتي وأرجو أن لا تقاطعني فيما أقول وأن تصغي إلي أتم الإصغاء فاسمع : انك حين جئت إلى الهند ونزلت في منزل أبي منذ اثني عشر عاماً كنت عند ذلك في حداثة عمري لا أدرك شيئاً من اسرار القلوب وأمور الحياة وكنت أنت جميل الوجه غض الصبى وقد ظالماً سمعت أبي يقول لي انك ستزوجين ابن عمك حتى أفضى بي الأمر إلى حبك .

وقد أحببتك وأنا لا أعلم انك كنت مقيد القلب واللسان فلما سافرت من عندنا جعلت أتوقع عودتك كل يوم وأعد الساعات والأيام إلى أن جعلت أعد الأعوام دون أن تعود ، ثم علمت السبب في جفائك الطويل وعلمت انك تزوجت سواي ولو لم يحل البحر خصماً بيني وبين تلك المرأة في ذلك اليوم الذي علمت فيه هذا المصائب لمجتم عليها هجوم العقبان الكاسرة وأغمدت خنجرها في صدرها

اضطرب المريكز وقد رأى الانتقام يتقد في عينيها ولكنها لم تقبل هذا القول حتى عادت إلى الابتسام وقالت : لا تخشى على امرأتك ، فقد أصبحت اليوم غير ما كنت فيه أمس وصرت متمدنة بعد طول اختلاطي بالمتمدنين أما الدم الهندي الذي يشور في عروقي ثورة البراكين وذلك الانتقام الذي كنت استحل معه قتل النفوس فقد صرفته لنفسه فلا يتنساؤل شره إلاي غير اني أحببت ان اتزود منك بنظرة اخيرة قبل الموت كي اقول لك انك مثل في قوادبي منذ نظرتك النظرة الأولى ولم تخرج منه إلى الآن وانني أحببتك اثني عشر عاماً كنت تنام ملء جفنيك ولم اكن أبيت ليلة من حبك إلا بليلة الملسوع .

ولم يكن مثل حي لك إلا مثل تلك الأمراض الويلة التي لا ينجح فيها دواء ولا سبيل في شفاها الى حيلة طبيب وقد أتى ذلك اليوم الذي طفح فيه كأس قنوطي فرزحت تحت حملي الثقيل وكرهت الحياة . ولم يكن هذا اليوم

غير يوم امس . ثم أخرجت من صدرها زجاجة صغيرة فيها بقية من سائل أحمر وقالت له : لقد شربت السم النقيع وسأمت بعد ثمانية أيام .

فاصفر وجه المركيز حين نظر الى الزجاجة وعلم انه ذات السم الذي وصفه له روكامبول ، فقال لأبنة عمه بلمجة حنان صادقة . كلا أيتها الحبيبة انك لا تموتين وانا أحمل هذا الحجر وهو دواء السم الذي شربتيه ، ثم أخذ يدها بين يديه وقال لها اذكري ان ابويننا كانا أخوين متحابين فلما لا نقتدي بهما بهذا الحب .

فصاحت صيحة فرح ولكن المركيز لم يمهلهما ان تتكلم حتى أتم جملته فقال . ألسنا أبناء هذين الأخوين ألا يحب علي ان أحبك كما أحب اخي ؟

فاصفر وجه الهندية وانطفأ ذلك النور الذي اتقد في عينيها وقالت : انك قد جننت دون شك أتعرض حب الأخاء على فتاة تلتجر ليأسها من الغرام ؟ ألقى بهذا الخاتم حيث شئت فانه لا ينقذني من الموت لأنني غير طامعة بالحياة .

فركع المركيز امامها وقال لها : بربك أرجعي عن هذا القصد السيئ واذكري ما بيننا من صلة النسب .

— اني ذكرت هذا النسب وجعلتك ورثتي الوحيد بحيث تزيد ثروتك ٣٠ مليوناً بعد ثمانية أيام .

— بالله لا تعيدي هذا القول فإني لا أريد ملايينك بل حياتك .

ووقفت الهندية عند ذلك قائلة : أنظر الي ألا تجدي حسناء ؟

— بل إنك بارعة الجمال .

— الست أجمل من امرأتك ؟

فأطرق برأسه إلى الأرض وقال : نعم ..

-- أكنت تحبني لو لم تكن موجودة ؟

— محب شغف !

فأنت أنين المتوجع قائلة : وإذا ماتت ؟

فقال المركيز بصوت يتهدج : إن المرء قد يحب الأموات وقد البث على حب امرأتي حتى بعد الموت .

فاصفر وجه الهندية من الغيرة ثم خطر لها خاطر ظهر من بريق عينيها فقالت إذا طلبت اليك حلف يمين غليظة قد أوافق على الحياة بعدها أتقسم لي هذه اليمين أنا التي أموت من أجلك ؟

- أقسم لك بما تريدن كي تبقي في قيد الحياة .

- اني سأطعمك على أمر هائل يضطرب له قلبك وعقلك أتقسم لي أن تطيعني طاعة عمياء إلى أن أظهر لك البرهان الجلي عما سأخبرك به

- اني اقسم بتربة أبي ان أطعمك فيما تريدن

. إذن فأني أسألك الآن سؤالاً ؟ .

- سلي ا .

- ألم تقل انه إذا لم تكن امرأتك موجودة فإنك تحبني ؟

- نعم ولا أزال أعيد ما أقول . .

- وإذا كانت تلك المرأة خائنة لعهدك .

فصاح المركيز صيحة غضب وقال : احذري من ان تشتميهما .

- ولكنني أقول الحقيقة ، وهي انك ستحبني متى عرفت هذه الحقيقة .

فلم يحب المركيز بحرف ولكنه قام إلى منضدة لقي عليها خنجرأ فأخذ الخنجر وهو يقول انك أخطأت بشرب السم لأنك لا تموتين بالسم بل بهذا الخنجر .

كل من عرف هذا المركيز وخبر اخلاقه وعلم ما فطر عليه من الدعة

والسكون ورقة الطبع ينكره أشد الانكار وقد رآه يزيداً ازباد الجمال وقد
اصفر وجهه ورجفت شفتاه وبرقت عيناه بريق الخنجر المطرب في يده

وقد أشهر هذا الخنجر وحاول أن يفمده في صدر تلك الفتاة التي جسرت
على تدنيس سمعة امرأته وإتهامه بأقبح الميوب ، ولكنه رأى ابنة عمه واقفة
أمامه تستقبل الموت بابتسام وهي تقول : إذا أبيت أن تنتظر البرهان
فاغمد هذا الخنجر في صدري .

وكان المركيز قد ذكر اليمين التي حلفها ، أو هاله ابتسام ابنة عمه للموت
وذكرها للبرهان ، فرمى الخنجر إلى الأرض وقال وهو يوشك أن يتميز من
الغيظ : إذن هاتي برهانك واعلمي انه إذا كان كلامك حقاً فلست أنت التي
تموتين بل هي ، وليست هي التي تكون امرأتى بل أنت .
- أحق ما تقول ؟

- نعم ، فاسرعي بالبرهان .

- إذن فاصنع اليّ .. انك تعلم ان حياتي بيديك الآن وانني لم يبق لي في
هذه الحياة غير سبعة أيام ، فإذا لم تجد منذ اليوم إلى اليوم السابع ، رجلاً
جائئياً أمام امرأتك يغازلها في منزل غير منزل فابق هذا الخاتم في يدك
ودعني أموت

- أتبرهنين لي أيضاً على انها خائنة ؟

نعم . على شرط ان تطيعني كما أقسمت .

- اني لا أرجع بقسمي ..

- إذن فاذا ذكر انك رجل وانه ينبغي على الرجل العاقل عند المصيبة أن
يدفن حزنه في أعماق قلبه وان يكتفم ما يحول في ضميره ولا يظهر سره بسين
ثنائيا وجهه حتى يعثر على البرهان الذي يخرج به من موقفه .. كي لا يفسح
لعدوه مجال الحذر ويصبح مضغة في الأفواه فإذا عرفت هذا فاذهب الآن
إلى منزلك وكن مع امرأتك على ما عودتها دون أن تبدر منك بادرة تدل على

الريبة إلى أن أسلمك هذين المذنبين
فوقع هذا الكلام وقع الصاعقة على رأس المركيز لأن ابنة عمه كانت
تسلكم بالهجة الرائقة المطمئنة وقال : ألا تذكرين لي إسم هذا الرجل ؟
- كلا .. لم يحن الوقت بعد ولكني أرد اليك هذا الخنجر الذي كنت
تحاول قتلي فيه كي تغمد في صدر من خانتك لا في صدري .
ثم أخذت الخنجر عن الأرض واعطته أياه وهي تقول : إذهب بسلام وكن
حكيمًا واعمل بما أوصيتك .

فأخذ الخنجر من يدها وقال سأطيعك فيما تريدن ، ولكن اعلمي أن
هذا الخنجر لا بد له أن يدفن في قلب واحدة منكما ، فلما أن يغمد في صدر
النامة الساذبة ، أو يخترق قلب الخادعة الخائنة .
ثم انصرف يمشي لاضطرابه مشية السكران . فشيعته ابنة عمه إلى الباب
وبقيت تودعه بالنظر إلى أن غاب عن عيניה فعاتت إلى روكامبول الذي كان
ينتظر في القاعة على أحر من جمر الغضا فقال لها : أمضى ؟
- نعم . لقد ذهب واليأس ملء فؤاده وهو واثق من خيانة امرأته ،
ولكنه يطلب البرهان .

فأجابها روكامبول ببرود : أنه سيرى خيانة امرأته بالعين .
- أوافق أنت مما تقول . لأن هذا البرهان تتعلق حياتي .
- اني واثق ملء الثقة فإن ثروتنا متوقفة أيضاً عليه .
- ولكنك تجهل أمراً وهو إذا وجد امرأته بريئة فلاني مائتة لا محالة .
- كيف ذلك ؟

- أولاً انه يقتلني .
- وإذا منعناه عن قتلك فكيف تموتين وأنت لم تشربي السم به ؟
- ذلك لأنني سأشربه ..
- وأية فائدة من شربه ..

- إن الحجر الأزرق الذي يشفي شارب السم يقتل مذوبه من لم يشربه
فإذا أراد أن يشفيني بعد سبعة أيام وسقاني محلول الحجر الذي في يسهه ولم
أكن قد شربت السم فاني أموت ، وإذا كنت قد شربته فاني اشفي وفي كل
حال ، لقد عولت متى يئست من الزواج به على الموت .

- اطمئني فإنك ستزوجين به .

فأخرجت الهندية عند ذلك زجاجة السم من صدرها وشربت ما فيها
دفعه واحدة ، ثم وضعتها بسكينه على المنضدة وقالت : لا يحميني الآن إلا
حجره الأزرق .

فقال روكمبول وقد كان يثق ثقة عمياء بقريحة استأذه قلت لك اطمئني
فستكوني زوجة الماركيز

- ٢٧ -

ولنعد الآن إلى باكارا ، فإنها بعد أن اشترت من الفيروزة منزلها القديم
واطلقت سراحها بقيت وحدها في المنزل ، كان أول ما فعلته أنها طردت
جميع من كان فيه من الخدم ، ولكنها أبتت خادمة غرفة الفيروزة وهي تؤمل
أن تعلم منها شيئاً من أسرار سيدتها ، إلا ان اندريا كان يتوقع حدوث جميع
ما مر من الحوادث ، فأحضر للفيروزة خادمة جديدة ، فلما سألتها باكارا عن
سيدتها القديمة أخبرتها جميع ما حدث بالأمس بينها وبين فرناند ، وكيف أنها
لبست بعد ذهابه لباس العائلات وعزمت على مبارحة القصر والاقامة في
غرفة صغيرة تعيش فيها من كسب أيديها ، فلم تستفد منها باكارا شيئاً ولكنها
أبقتها في عملها وقالت لها . سيحضر غداً فرناند فمتى حضر ادخله إلى قاعة
الاستقبال ولا تذكر له شيئاً من أمري .

فامتثلت الخادمة .. وأقامت باكارا طول ليلها ساهرة وهي تعمل الفكرة في طريقة تنقذ بها فرناند وترد قلبه إلى زوجته وولده

ولما كانت الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي أقبل فرناند حسب اتفاقه مع الفيروزة ، وفيما هو منتظر إذ فتح الباب ودخلت منه باكارا وهي بالملابس التي كانت تلبسها في عهد غوايتها السابقة ، فما صدق نظره حين رآها إلى أن أقبلت إليه تبسم ومدت له يدها للسلام فتلعثم لسان فرناند وقال : من أرى هنا الست مدام شارمت ؟

— لقد خدعتك عيناك فاني كنت بالأمس مدام شارمت ، أما اليوم فاني باكارا . ثم قدمت كرسيًا لفرناند وقالت له : اشكرك لأنك أول قادم يهنئني بالعودة إلى حياتي السابقة ، وقد تغاءلت خيراً بقدمك .

فبهت فرناند وقال : ماذا أسمع العلك جننت ؟
فابتسمت باكارا وقالت . أمثل هذا اتمني في هذه الساعة المتقدمة من الصباح ؟ فزاد اندهال فرناند ولم يعلم كيف يجيب ، فقالت : ما هذا السكوت .. العلك لم تكن تتوقع ان تراني هنا وانت آت لترى الفيروزة ؟ فاضطرب فرناند وقال ربما ..

-- لقد ساء فألك فان الفيروزة قد باعتني هذا المنزل وبرحته منذ أمس . ألا تذكر هذا المنزل حين كان لي من قبل وكنت فيه ؟
قال فرناند : كفى مزاحاً وأوضحي لي هذه الألغاز ..

- اني لا أمزح . ولا الغاز ، فان المنزل قد اشتريته والفيروزة برحته . فزاد اندهال فرناند وقال انت التي كنت مثال الفضيلة والطهارة أربعة أعوام لا يذكرك الناس إلا بالخير والثناء . أتستطيعين العودة إلى حياتك السابقة ففهمت باكارا ضاحكة : لا تكثّر المواعظ والنصح فقد تجد أولى مني بهما بل اصنع لهذا الحديث الذي اقصه عليك ، فقد كان في سالف الزمن امرأة مكروهة ينظر اليها الناس نظرات الاحتقار لاسترسالها للنهي والفضال ،

واتفق يوماً انها رأّت في السماء الزرقاء نجمة تضيء وكانت هذه النجمة نجمة الحب . وكان الرجل الذي أحبته موظفاً فقيراً ولكنه كان يحب فتاة طاهرة نقية ويرجو الاقتران بها ..

فقاطعها فرناند وقال : كفى لقد علمت من تعنين .
إذا كنت عرفتة فسأقص الغرض من سرد الحكاية فاعلم ان هذه المرأة ارتكبت جريمة من اجل من تحب ثم ندمت على ما فعلت فانقضت من تحبه وسهلت له طرق الاقتران بالفتاة التي كان يحبها ، ولما رأته سعيداً بالقرب منها ثابت إلى الله عن حياتها السابقة توبة صادقة وخلعت عنها اسم باكارا فاستبدلته باسم مدام شارمت .

فقال لها فرناند : أرايت كيف انك تمزحين فانك ما تزالين مدام شارمت - لقد خدعت ايها الحبيب فان الحب قد ردني عن حياتي السابقة وهذا الحب قد أعادني اليها ، ولا تعجب لما اقول فاني لما رأيت من قبل خصيمتي فيك كانت فتاة طاهرة رجعت القهقري ولبست حلة الفضيلة ولم تكن في الحقيقة غير حلة لليأس اما وقد باقت تلك الخصيمة من بنات الهوى وهي لا توازييني في شيء بل هي فتاة ساقطة لا أدب لها ولا شرف ..
فصرخ بها فرناند يقول : كفى فانك تهينين التي احبها .

أما باكارا فانها لما سمعت اقراره وجف فؤادها فوضعت يدها على جبهتها ولبشت صامته وهي أثبه بالأموات الا ان فرناند لم يكثر لما حل بها فقال :
إذا كان هذا المنزل منزلك كما تقولين فهل لك ان تخبريني أين ذهبت صاحبتك القديمة ؟

فقالت باكارا بعظمة : معاذ الله ان اكرم عنك محلها فسانها تقيم في شارع بلانتين نمرة ١٧ ، ثم صرفته بإشارة من يدها فأنحنى مساماً ومضى .

فلما أصبحت وحدها وجعلت الدموع تسيل من عينيها وهي تقول : رباه اني اردت اقناعه بالحجة والبرهان فتغلبت عواطف قلبي على عقلي .

بعد ذلك بساعتين وقفت مركبة باكارا أمام منزل أختها سريز فخرجت منها ودخلت إلى المنزل فوجدت أختها على أسوأ حال وقد فرح البكاء جفنيها وبعد حديث طويل علمت منها ان زوجها ليون وقع في شرك إحدى العاملات وانها كتبت اليه بالأمس كتاباً قاطعته فيه فتمكن منه القنوط حق عول على الانتحار ، ثم أخبرتها انه أراد ان يلقي بنفسه من النافذة وهو يحسبها نائمة فوثبت اليه ولم يتمكن من ارجاعه عن قصده إلا بعد ان ذكرت له ولده الصغير ، فحن فؤاده وذهب إلى الطفل النائم وجعل يقبله وهو يبكي بكاء الأطفال ، ثم خرج من المنزل بعد ان عاهدتها على أن لا يقدم على الانتحار . فمضت باكارا واشغقت على أختها ثم سألتها : كيف علمت بهذا الكتاب الذي ورد اليه ؟

- رأيته في جيبه ..

فسألتها احضاره . وكان هذا الكتاب الرسالة التي كتبتها الفيروزة في غرفتها عند مدام فيبار ، ولما وقفت عليها باكارا وتأملت بخطه صاحت صيحة منكرة وقالت : الخط واحد والمرأتان واحدة فما هذا السر ؟

ثم افتركت هنيئة وعادت إلى أختها فقبلتها وهي تقول : اطمئني أيتها الأخت العزيزة فإن ليون سيعود إلى حبك ويرجع عن هذه الداهية في أقرب حين .

وحاولت سريز أن تعلم من أختها شيئاً عما ذكرته من اتفاق الخطيين والمرأتين ، ولكن باكارا لم تجبها بشيء بل اقتصرت على تطمينها وخرجت فركبت مركبتها وذهبت إلى منزلها الذي كانت تقيم فيه باسم مدام شامت فسألت الخادمة إذا كان قد زارها أحد في مدة غيابها فأجابت لقد أتى الفيكونت أندريا أمس مرتين وقد أتى اليوم أيضاً منذ ساعة وترك لك هذه

الرسالة ، ففوضتها باكارا وقرأت ما يأتي :

« سيدتي »

« لدي كثير من الشؤون الخطيرة الخاصة بالجمعية السرية يجب اطلاعك عليها
وأن اراك في القريب العاجل .

الامضاء

أخوك بالتوبة - اندريا »

فمزقت الرسالة والقتها في النار وقالت للخادمة : إذا جاء يسأل عني فقولي
له اني لست بالمنزل . ثم دعت جميع الخدم وقالت لهم : اني قد أبيع هذا
المنزل وقد أبقيه ، وأغيب عنه عدة أيام فإذا أبقيته فانكم تبقون في خدمتي
وإذا بعته اطلقت سبيلكم وكافأتكم خير مكافأة .

فأسرعت الفتاة اليهودية اليها بعد خروج الخدم وقالت لها : وأنا ماذا
تصنعين بي ؟

- انك ستكونين معي حيث أكون .

فأظهرت لها فرحاً عظيماً وجعلت تبكي فسألتها باكارا عن السبب في
بكائها فقالت لها : ذلك لأنني خفت خوفاً شديداً من الرجل الذي زارك أمس
واليوم وترك لك الرسالة .

... لماذا خفت منه ؟

- لأنه كان ينظر الي بطرات ذلك الرجل الذي كان ينومني تنويماً
مغنطيسياً كل ليلة بالرغم عني .

فعمجبت باكارا لأمرها وسألتها . من هو هذا الرجل ؟

فحككت لها اليهودية حكايتها وخلاصتها ان أحد المشتغلين بصناعة التنويم
كان يعطي أمها كل يوم عشرة فرنكات كي تأذن له بتنويم ابنتها .

فزاد عجب باكارا وسألتها : أكنت تنامين ؟

- لم أكن أريد النوم ولكنه كان يحدق بي تحديقاً شديداً فأفام مكرهه

وحين أصبحوا من الرقاد الكاذب كانت امي تقبلي ضاحكة وهي تقول : انك قابلة للتنويم وستكفيننا شر الفقر .

وكانت باكارا مصغية للحديث الفتاة أتم الاصغاء ثم غاصت في تأملاتها وذكرت انها كانت تستخدم هذا النوم في أيامها السابقة لتعلم حقيقة أميسال عشاقها ثم ذكرت ان الذين كانوا ينامون هذا النوم كانوا يخطئون في معرفة خفايا القلوب مرات ولكنهم كانوا مصيبون في بعض الأحيان ، وعند ذلك برقت أسرتها بأشعة الأمل وقالت في نفسها سوف أرى فقد أقف على اسرار اندريا بتنويم هذه الفتاة .

- ٢٩ -

ثم عادت الى الفتاة الاسرائيلية وبعد سكوت قليل دار بينها الحديث الآتي فقالت باكارا

- إذن فإن هذا الرجل كان ينومك ؟
- نعم يا سيدتي .
- أكنت تخافين ؟
- خوفاً شديداً ..
- ولو خطر لي أن أنومك ألا تخافين ايضاً ؟
- كلا .. بل أنام بلاء السرور لأني أحبك ولا أخافك .
- إذن فاجلسي أمامي .

فامتثلت الفتاة وذهبت باكارا وأوصدت الباب والنوافذ ثم عادت وجلست أمام الفتاة وحدقت بها تحديقاً طويلاً وهي تقول لها . نامي .. فكانت الفتاة تنظر اليها وهي لا تستطيع ان تقاوم نظراتها ، وما زالت

تحدق بها وهي تأمرها بالنوم حتى تشاقلت عينها ثم أطبقت جفنيها وسقط رأسها على جانب الكرسي فشعرت بأكارا بسرور عظيم وقالت للفتاة النائمة :
أناأمة أنت ؟ فأجابتها وهي مغمضة العينين قائلة : نعم .

ودار بينهما عند ذلك الحديث التالي ، فسألتها بأكارا :

— أي نوم تنامين ؟

— النوم الذي أمرتني ان أناأمة .

— انظري الي وقولي لي ماذا ترين وبأي شيء افتكرك ؟

— إنك تفتكرين به .

— بمن ؟

— بذلك الرجل الذي اتى وكان ينظر الي ..

— أترين هذا الرجل ؟

— نعم .. نعم .. اني أراه !

— أين هو ؟

— لا أعلم .. اني لا أراه جيداً .. اصبري .. انه يسير في شارع كبير

عريض ، ثم مدت يدها مشيرة الى الغرب ،

— أترين كنيسة في هذا الشارع ؟

— نعم .

.. أين يذهب هذا الرجل ؟

— انه يمشي مسرعاً .. انه يسرع جداً .. هوذا مركبة .

— أصعد إلى المركبة ؟

— كلا بل انه صادفها .

ثم كأن هذه الفتاة النائمة قد انصرفت أفكارها الى المركبة ومن كان

بها فأخذت تقول

ما أجمل هذه المرأة .

- أية امرأة تعنين ؟
- إنها امرأة جميلة لم أرها من قبل .
- إذن فلماذا انصرف فكرك اليها ؟
- لأنها آتية إلى هنا .
- . إلى هنا . إلى منزلي .
- نعم وهي جميلة جداً ولكنها شديدة الحزن .
- ولماذا هي حزينة ؟
- فوضعت الاسرائيلية يدها على قلبها وقالت : لأنها تشكو .
- ألم تعرفيها ؟
- كلا ولكنها قد أتت من قبل إلى منزلك .
- أكانت تزورني دائماً ؟
- كلا . . فإنها لم تترك غير مرة واحدة .
- وهي آتية الى منزلي كما تقولين
- نعم فإنني أراها قادمة وهذه مركبتها الجميلة قد مرت فوق الجسر . .
- انها تجاوزته . . مرت بالشارع الجديد الموصل إلى منزلك . انها دنت من المنزل
- وأنا أراها الآن جلياً . ما أسرع هذه الجياد وما أجمل هذه المركبة . ها
- هي قد قربت من الباب . وقفت امام باب منزلك .
- فدهشت باكارا دهشة عظيمة لأنها سمعت صوت مركبة وقفت على باب
- منزلها ، وبعد هنيهة دخلت الخادمة تحمل بيدها بطاقة الركيزة فان هوب
- فحالت لها : إذهي بها إلى قاعة الاستقبال وقولي لها اني قادمة في الحال .
- ثم عادت إلى الفتاة فسألتها :
- من يوجد عندي في قاعة الاستقبال ؟
- هي . هي التي رأيته في المركبة .
- ماذا تريد بها ؟

- انقباضاً شديداً .
- أتعلمين أسباب حزنها ؟
- نعم فانها تحب .
- انظري اليها وانبئيني عن أحوالها .
فلم تجب الفتاة في البدء ولكنها ما لبثت ان تراجعت منذرة الى الوراء
وقالت : هذا هو ؟

- من هو ؟
- الرجل الذي يزورك وينظر الي نظرات تخيفني .
فعلمت باكارا انها تقصد اندريا فقالت لها : اين تريته ؟
- انه يصعد سلم منزل في الشارع مع رجل في مقتبل الشباب .
- بماذا يتحدثان ؟
- بها .. بتلك المرأة الحزينة التي اتت اليك .
فعلمت باكارا ان أفكار الفتاة لم تنصرف الى اندريا إلا لعلاقته بالمركيزة
فقالت لها : ماذا يقولان عنها ؟

- لا أعلم . لا افهم شيئاً .. ولكنها يريدان قتلها .
فاضطربت باكارا وقالت : لماذا ؟ انظري جيداً في نفسيهما
- لا أعلم . اني لم اعد ارى شيئاً ، ثم سقط رأسها على كتفيها واستغرقت
في سبات نوم عميق . وكانت باكارا تعلم ان التنويم المغناطيسي لا يصلح ان
يسمى علماً صحيحاً يبسط اسرار المستقبل ويكشف خفايا القلوب ولكنه قد
يدل بعض الدلالة على تلك الأسرار وبصدق في بعض الأمور كما اتفق صدق
الفتاة حين اشارت الى قدوم المركيزة فانقطعت عن سؤال الفتاة وتركها
ناثمة في الغرفة ثم ذهبت لاستقبال زائرتها فوجدتها حزينة منقبضة الصدر
كما قالت لها اليهودية .

وكانت المركيزة قد زارت باكارا كي تسألها عن تلك الفتاة التي كلمتها

بارسال إحسانها اليها والسؤال عنها ، وأخبرتها بأكارا انها أتمت المهمة التي انتدبت لها وذكرت لها عن أخلاق الفتاة ما رغبها باستخدامها في منزلها وطلبت أن تراها فلم يسع بأكارا إلا الامتثال وذهبت معها إلى حيث تقيم تلك الفتاة البائسة لتختبرها بنفسها

وبينما كانتا ذاهبتين بالركبة مر بهما فارس كان يمتطي جواداً كريماً ولما رأى المركيزة رفع قبعته وحياتها بمنتهى الاحترام ، فردت المركيزة تحيته وقد عبق وجهها ، ثم اصغرت وبرقت عينها بريقاً يدل على كره الفارس ، فلم يغب عن بأكارا شيء من اضطرابها وخطر في بالها ما قالت له الفتاة الاسرائيلية عن حزن المركيزة وحبها فحسبت أنها مولعة بهذا الفارس الذي حيّاها فطبع رسمه في ذاكرتها .

وبعد ذلك بساعة عادت بأكارا بعد ان قضت مهمة المركيزة وفيما هي عائدة رأت ذلك الفارس نفسه يسير بجواده الهويناء فخطر لها أن تعرف اسمه وللحال نادت السائق وأمرته أن يقفوا أثره على مسافة بعيدة فامتثل وما زال يسير متعقباً الفارس حتى بلغ إلى منزله وأسرع أحد الخدم فأخذ الجواد ودخل سيده إلى المنزل .

أما بأكارا فلما نادت حملاً كان واقفاً على قارعة الطريق فسألته : أتعرف هذا الرجل الذي كان يمتطي جواداً ودخل إلى المنزل ؟

فقال لها نعم اني أعرفه فهو الكونت دي كامبول ، وقد أخبرني خادمه انه تبارز منذ ثلاثة أيام مع رجل فجرحه .

وعادت بأكارا وقد كادت تشرف على هذا الخطر الذي كان ينذر المركيزة بحيث تكفيها كلمة واحدة لاماطة الحجاب عن هذا السر الخطير .

- ٣٠ -

وفي اليوم التالي أظهرت باكارا لجميع عارفها أنها عادت إلى حياتها السابقة وعادت عن توبتها وذلك أنها خرجت مع صديقة قديمة لها من بنات الهوى الشهيرات ، وتزيت بزينا وانطلقت تجول في المنتزهات المألوفة ، ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عرف جميع أهل الجحون بهذا الانقلاب الغريب أما باكارا فإنها عادت إلى منزلها والياس ملء قلبها لأنها خشيت أن لا تفوز بما تسعى اليه من الخير فتعسر سمعتها الصالحة وتسقط إلى الحضيض ، ولما دخلت إلى غرفتها أخبرتها الخادمة ان الفيكونت أندريا ينتظرها في القاعة . فاضطرب فؤادها عند ذكره وقالت لها : دعيه ينتظر ثم أحضرت الفتاة الاسرائيلية فنومتها حتى إذا نامت دار بينهما الحديث الآتي فسألته باكارا .

- أنتستطيعين أن تنظري ما وراء هذا الجدار ؟

فقالت الفتاة النائمة : نعم ا .

- إذن فانظري إلى قاعة الاستقبال واخبريني من تجددين فيها .

فأجملت الفتاة وهي مغمضة العينين وقالت . هو .. هو ا

- من هو ؟

- الرجل الذي ينظر إلي ويخيفني .

- أقدرين أن تنظري إلى نفس هذا الرجل وتعلمي ما يحول فيها ..

- لا أجد غير الظلام ولكنه يفتكر بأمر سافلة .

- أيكرهني ؟

- كما يكره الموت .

أيكره سواي أيضاً ؟

- نعم . نعم . أجد رجلاً عالي القامة أسمر اللون يكرهه أكثر مما يكرهك

فعلمت باكارا ان هذا الرجل هو أخوه الكونت دي كركاز فسألتهما :

أيفتكر بي الآن ؟

- كلا .
 - العمل يفتكر بالرجل الأسمر ؟
 - كلا .
 - إذن بمن يفتكر ؟
- فاضطربت الفتاة اضطراباً شديداً وقالت : انه يفتكر بي أنا .

- ٣١ -

وكان اندريا قد هاله انقلاب باكارا الفجائي وأمعن الفكرة في هذا الانقلاب فلم يهتد إلى سبب ، ولم يعلم مرادها منه ، وقد بقي طول ليلته مفكراً مهموماً تتردد في مخيلته ثلاث مسائل . أصدقت باكارا توبته ، وهل توبتها صادقة وقد رجعت عنها بالظاهر كي تنقذ فرناند من بحالب الفيروزة أم أنها عادت حقيقة إلى حياتها السابقة لما رآته من خيانة فرناند لامرأته .

وقد كان يرجح هذا الفكر الأخير لاعتقاده ان الغيرة حملتها على نقض توبتها ولكنه بقي مشككاً في أمرها وقال في نفسه : انني سأزورها فإذا كانت تريد حقيقة إنقاذ فرناند فلا بد لها أن تطلعني على قصدها كي أشاركها في انقاذه فلاني أنا الذي أخبرها بهذا السر وإذا كتمت عني ما تبذله من المساعي لا يبقى لدي ريب باحتراسها مني وعدم وثوقها من توبي

ولكنه لم يطمئن له خاطر لأنه كان يخشاها لما عرفه من شدة دهائها وبقي يمعن الفكرة إلى الصباح ، فلم يغمض له جفن حتى استقر على رأي وهو الحكم بالموت على باكارا وذلك لاعتقاده انها إذا عرفت بمقاصده فلا بد من موتها وإذا كانت تعتقد بصدق توبته فلا بد من موتها أيضاً كي لا تزاخه بغيرتها .

وقد تركناه في منزل باكارا الجديد ، وانما قدم اليها لسببين أحدهما بغية

الوقوف على أسرارها، والآخر رجاؤه أن يرى تلك الفتاة اليهودية التي عزم على اختطافها لما لقي من حبها فإن هذا الرجل الذي جردته أمياله الشريرة من عواطف الإنسانية لم يلبث أن رأى تلك الفتاة حتى شغف بها شغفاً لم يكن يخطر له في بال ، وكان إذا رآها يضطرب وتبدو غلائم غرامه الفاسد بين ثنايا وجهه وبمثل هذا الاضطراب تمكنت باكارا من الشك والريبة باخلاصه في توبته

وأما باكارا فإنها لما علمت من اليهودية حين لومتها ما أرادت أن تعلمه تركتها وأقبلت الى قاعة الاستقبال التي كان ينتظرها اندريا فيها فتظاهرت بالاندهاش حين رؤياه ، ثم اعتذرت اليه لتأخرها عن الحضور .

وذهل اندريا لما رآه من مظاهرانقلابها ولباسها الجديد . أما هي فإنها دنت منه وقالت له : انك يا سيدي الفيكونت كنت في مقدمة المذنبين ثم أصبحت على أتم الصلاح فلا بد لك من أن تشفق على خاطئة مثلي إذا كان قد دعاها الحب إلى التوبة فقد حملها هذا الحب نفسه على نقدها وذلك اني حين علمت أن فرناند مولع ببغي مثلي خلعت ثوب التوبة وعدت الى البغي ، أي اني كنت مدام شارمت فأصبحت باكارا، والآن وقد بات يفصل بيني وبينك هوة عميقة وانك ستشفق علي؟ دون ريب لصلاحك ولكنك لاتراني بعد الآن اليس كذلك؟

ثم تراجعت عنه والتفتت الى صديقة لها كانت أتت لزيارتها فقالت لهسا : أتذهبين معي الى الغرفة ؟

فلبس اندريا قبعته وخرج مطرق الرأس وهو يقول بصوت مرتفع كي تسمعه . ليأخذ الله بيدك ويرشدك إلى محجة الصواب ثم خرج من المنزل وذهب إلى الفيروزة وهو مقتنع بأن باكارا واثقة من توبته أشد الوثوق .

وبعد حين خرجت باكارا مع صديقتها القديمة فركبتا مركبة ذهبت بهما الى غابة بولونيا ، وكان من يعرفها من المتنزهين ينظر اليها وهو مندهل مما يراه من رجوعها إلى سبل الفساد بعد أن اشتهرت بتوبتها منذ أربعة أعوام .

وكان بين المتنزهين رجل يقال له البارون دي مينيرف يصحب في مركبته

شاباً روسياً يدعى الكونت أرتوف ، فلما رأى باكارا مع إحدى بنات الهوى لم يتمالك عن اظهار دهشته وانفط اسمها ، فقال له الروسي : من هي باكارا ولماذا انذهلت حين رأيته ؟

— عجباً ألم تسمع بهذه الفتاة ؟

— كلا .. فلاني ما برحت بطرسبرج إلا منذ بضعة أسابيع

— ألم تسمع بها في تلك العاصمة فان اسمها قد اشتهر في جميع العواصم ، ثم سأله وقد تنبه إلى حداثة سنه : كم عمرك ؟

— عشرين عاماً ..

— لقد كنت صبيّاً في عهد هذه الفتاة فانها اشد امثالها خطراً وهي زكية اللسان رشيقة التناير حتى أن رجال المراسح يختلفون اليها كي يسرقوا من الفاظها ما يدبجونه في سلك رواياتهم . ولقد فتن بها كثير من الأمراء وأعاضم الرجال فان أحد كبار الموسيقيين بلغ به هواها الى الجنون ولا يزال مجنوناً إلى الآن ، والبارون ... باع ما لديه لارضائها ثم انتحر بعد إفلاسه والبرلس لي .. قتل نفسه في سبيلها .

فارتعد الكونت وقال : ما هذه المرأة العليا دون قلب ؟

— هو ذاك ايها الصبي فاذا أحببت أن أعرفك بها فأسرع بجوادك كي ندرکها فامتثل الروسي وسار الاثنان يعدو بهما الجوادان حتى وقفت المركبة في ظل شجرة باسقة فدنا البارون مع رفيقه من المركبة وقال انها باكارا ولم أخطيء فالتفتت باكارا ولما رأت البارون قالت : هي بعينها وقد انبعثت ولكن بعثها سر من الاسرار .

- ولكنك ستبوحين لي بهذا السر في غير هذا المكان . ثم اشار الى رفيقه وقال لها : اني اقدم لك صديقي الكونت ارتوف وهو شاب روسي لا يعلم عدد ما لديه من القرى وقد أنفق عمره وهو يحصي عدد الفلاحين في اراضيه ولم يبلغ الى المجموع بعد .

فأحنت باكارا رأسها وحيته باحترام فقال لها البارون . هوذا رجل لا يتيسر لك أن تلقيه في مهاري الافلاس .

فقال له ضاحكة : إذن سيكون شاذاً عن القاعدة . وفي كل حال فسئري فاني سأحتفل بتدشين منزلي القديم وعيشي الجديد بعد يوم ، وأنا أبدأ بدعوتكما كي تكونا في مقدمة المدعوين
فحياتها البارون والكونت ، وانصرفا الى النادي الذي يجتمعان مع أصحابهما فيه .

- ٣٢ -

وكان في ذلك النادي كثيرون من أصدقائهم وبينهم روكامبول باسم الكونت كامبول وشاروبيم باسم البارون دي فرني وغيرهما . فلما دخلا الى النادي وجدا أعضاؤه ، وكلهم في مستقبل الشباب ، يتحدثون بشأن باكارا ورجوعها عن توبتها وهم بين مصدق ومشكك . فكان أحدهم يقول إني رأيتها اليوم في غابات بولونيا مع إحدى بنات الهوى ، فيناقضه آخر ويقول أن ذلك وقد شبهت لك ، ثم يقول آخر قد تكون صحبت تلك المرأة لغرض من الأغراض .

وما زالوا بين مصدق ومكذب إلى أن دخل البارون دي مينرف والكونت أرتوف الروسي فلما سمعهم البارون يتجادلون ، وكان روكامبول من فريق المنكرين قال له : إنك مخطيء في اعتقادك ، فقد رأيت باكارا بعيني وكلمتها .

فظن روكامبول ان لأندريا يداً في رجوعها إلى حياتها السابقة . وسكت عن الاعتراض ، فقال معظم الحاضرين : ولكن كيف رجعت عن توبتها ؟ وهل

هي غنية ؟

- لا أعلم . ولكنها إذا لم تكن غنية فسيكون لها من أموال صديقي الكونت ما تشاء

وأشار الى الكونت الروسي فقال الكونت : قد تنال مني ما تريد ولكني لم أقرر شيئاً بعد بشأنها .

فقال له شاروويم : حسناً فعلت .

- لماذا ؟

- لا بد لي قبل ذلك أن أخبرك بشيء من أحوالي وماضي حياتي ومهنتي . فاعلم اني أسباني الأصل ، أميركي المولد ، باريسي الموطن . غير أن نسبتي يتصل بالدون جيان ومهنتي غواية النساء ، كما كان يصنع جدي الذي أنتمسب اليه .

فضحك الحاضرون لمزاحه . أما شاروويم فإنه عاد الى حديثه فقال : ولقد خدعت كثيراً من النساء ولكني لأزال طامحاً إلى غواية اثنتين إحداهما كليوباترا ملكة مصر .

فضحك الجميع ضحكاً شديداً ، ثم طلبوا اليه أن يخبرهم باسم الثانية ، فقال : هي باكارا المعروفة بأنها دون قلب . إلا انه كان يفصلني عن كليوباترا ما بيني وبينها من الأدهار ، وكان يفصلني عن باكارا عيشتها الطاهرة وتوبتها التي لم يكن يشك أحد بصدقها . أما وقد عادت إلى العيش القديم فلا يفصلني عنها شيء بعد الآن .

فقال له البارون صديق الروسي . إنك ستضيع وقتك عبثاً ، فإن باكارا لا تحب سوى الذهب ومهما بلغ من جمالك فلذلك لا تبلغ شيئاً من قلبها ولو تلبست بلباس جدك الدون جيان لأنها دون قلب . ومن كان مفلساً فإن الملوك أنفسهم لا تستطيع نيل حق منه

- ولكني سأعرف أين أجد منها حقوقي

فانبرى له عند ذلك الكونت الروسي وقال له : أتأذن لي بكلمة ؟

— بل بعشرين

— إنك تدعي إنك قادر على غواية باكارا .

— لا أدعي ذلك ادعاء بل أعتقد اعتقاداً .

— العلك واسع الثروة ؟

— كلا ، فان إيرادي لا يتجاوز ثلاثين ألف فرنك في العام .

— أما أنا فان إيرادي يبلغ عشرين مليوناً وربما تجاوز هذا القدر وقد عازمت

على ان تكون لي .

— إذن فستفعل فعلي .

.. نعم ، فهل لك ان تعقد رهاناً بسيطاً .

— أجل ، بل الرضى .

— إنني أمهلك خمسة عشر يوماً ، فاذا ظفرت بفؤادها وحملتها على حبك فاني

أدفع لك خمسمائة ألف فرنك في هذا المكان الذي نحن فيه .

— أقبل

فصاح الجميع قائلين وإذا خسر الرهان ؟

فأجاب الروسي ببرود : إنه ليس بعني أراهنه على المال ولكنه إذا لم يفز

بحمل باكارا على حبه بعد هذا الأجل المعين فاني أقتله .

فأجفل الحاضرون ، وقد رأوا من ملامح الكونت الروسي أن وجهه

يجهجهم من الغضب ، وأنه لم يمزح فيما يقول ، وقالوا لشاروبيم ماذا تقول في

هذا الاقتراح ؟

.. إنه شرط صعب يقتضي له الامعان والتفكير .

وقال البارون دي مينرف : بل ان تنفيذه محال .

فقال الروسي : لماذا ؟

— لأننا في فرنسا ، وهي بلاد لا تؤذن شرائعها لأحد ببيع النفوس وشراؤها

فاذا قبل شاروبيم ان تقتله فان الشريعة الفرنسية لا تقبل .
 - إني درست شرائع بلادكم ، وأنا أعلم منها ما تعلمون . إلا اني أجد لهذه
 العقدة حلاً بسيطاً يتيسر فيه بيع النفوس ، وذلك انه إذا خسر خصمي الرهان
 تبارزت وإياه بالمسدسات ، إلا ان مسدسه يكون خالياً من الرصاص ومسدسي
 محشو فيموت في عين الحكومة موت المبارز ، وفي عين الحقيقة موت الخاسر في
 وجميعكم من أهل النبل والشرف فاذا قتلتني على هذا الشكل فانكم تكتمون دون
 ريب حقيقة السبب في قتله .

وصاح الجميع : كلا إن هذا محال !
 - إذن فليرجع عن قصده .
 فقال شاروبيم : كلا ، إني لا أرجع عنه .
 - إذن إنك تقبل شرطي الا إذا كنت تخشى الفشل بالرهان .
 - أقبل بشرطك .

وأقبل الجميع على شاروبيم يسألونه التروي والامعان ، ولكنه بقي مصراً
 على ما قال الى ان رأى روكامبول انه قد استفضل ، وان هزله قد انقلب الى
 جد فتقدم من الكونت الروسي وقال له : إن المسيو شاروبيم نسي حين راهنك
 يا سيدي على حياته ، انه مقيد بتمهيد لا يستطيع الافلات منه . ورجائي
 أن لا تعتبر هذا الرهان جدياً إلا بعد أن أخبرو هنيئة معه ، وأخبره
 بشأن خاص .
 - ليكن ما تريد .

فأخذ روكامبول شاروبيم ودخل به الى إحدى غرف النادي وقال له :
 ويحك ماذا فعلت ؟ أخطأ بحياتك من أجل مبلغ من المال ستربح ضعفه دون
 عناء ؟ وبعد فكيف تخاطر بحياتك وهي ليست لك !
 فدهش شاروبيم وقال : إذا لم تكن حياتي لي فلن تكون ؟
 - إنها لنا ، أي للجمعية فاذا لم يأذن لك الرئيس بعقد هذا الرهان فلا

حق لك بعقده .

- ولو رفض هذا الرئيس وأبديت الامتثال ، فماذا يكون ؟
- يكون انك لا تنال الموت من مسدس روسي بل من خنجر فرنسي ولا أعلم من يقتلك ولكنك إذا أبديت الامتثال فانك مائت لا محالة .
- ومق يصدر أمر الرئيس ؟
- في الغد .
- إذن أنتظر للغد .

- وعاد به روكامبول الى القاعة وقال للروسي : لقد قضي الأمر يا سيدي .
- كيف ؟ أبالرفض أم بالقبول ؟
 - لا هذا ولا ذاك . ولكنه سيتمعن في هذا الشأن الى الغد .
 - إني أمهله الى الغد بشرط ان يحق لي زيارة باكارا في المساء .
 - يحق لك ذلك .

- فأخذ الروسي يد صديقه البارون ثم حيا الحاضرين وانصرف .
- وبعد ذلك خرج روكامبول وشاروبيم ثم افترقا على ان يحمل اليه روكامبول جواب الرئيس في الغد ، فذهب روكامبول الى منزله فوجد أندريا ينتظره فيه فسر روكامبول لرؤياه وقال له : لدي أمور خيرة يجب إطلاعك عليها .
- ما هي ؟
 - أولاً ان باكارا خلعت ثوب التوبة وعادت الى حياتها القديمة .
 - عرفت ذلك فما لديك ايضاً ؟
 - شاروبيم يريد ان يراهن على حياته ، وقد أوقفت هذا الرهان إلى أن أستشيرك .

- ثم أخبره بجميع ما حدث . فقطب أندريا جبينه ثم خاض في تأملات عميقة الى ان استقر على رأي فقال : ليمقد هذا الرهان فلا ضرر فيه علينا .
- فدهش روكامبول وقال : كيف ذلك ؟

— ذلك انه قبل ان تحضر كنت أفكر في طريقة لقتل باكارا فلما أخبرني بهذا الرهان وجدت الطريقة .
ثم أمره أن يخبر شاروبيم ان الرئيس يأذن له بقبول الرهان وانصرف تاركاً روكامبول في أشد الاندهال لما يحيط به من الأسرار

- ٣٣ -

كانت باكارا جالسة في غرفة منزلها الجديد ، وبينما هي مستغرقة في خلواتها تسأل الله الغفران عن هذه الحياة الجديدة التي لم تكن تريد بها سوى إنقاذ فرناند وجميع أشخاص هذه الرواية من مخالب أندريا ، إذ سمعت صوت جسم ثقيل قد سقط في الحديقة ، فأسرعت الى النافذة وأطلت منها فرأت رجلاً قد تسلق الجدران والقي بنفسه منه الى الحديقة ، ثم جعل يمشي الى المنزل فصعد السلم وهي تراه دون ان يراها الى ان بلغ الغرفة التي هي فيها وقرع بابها بلطف ففتحت باكارا الباب دون ان تنهيب ودخل منه هذا الرجل ورفع قبعته مسلماً عليها باحترام عظيم .

فاندحشت باكارا حينما رآته ولكنها قابلته بابتسام ورحبت به ترحيباً لطيفاً حل عقدة لسانه وجعل يمتدح اليها عن قدومه وتسلمه جدار منزلها بأعذار تظاهرت بقولها .

وكان هذا الرجل الكونت الروسي وقد أتى ليفزو قلب باكارا متمسكاً ببلايينه . فلما استقر به المقام جلست باكارا بقرينه وخاطبته : كفاك اعتذاراً واصنع لي فاني أعلم بشيء من مقاصدك ، وأحب ان اوقفك على شيء من أمري فاسمع .

إنك لقيتني اليوم وهي اول مرة رأيتني فيها فرقت في عينيك ، ودفعتك

فروتك وشهري السابقة الى غزو فؤاد لم يتمكن أحد من الاستيلاء عليه ، كما أخبرك صديقك البارون دون ريب ، وهو لا بد أن يكون أخبرك بكثير من الأمور الشائعة عني .

فأراد الكونت أن يجيب ولكنها منعتة عن الكلام بإشارة واستطردت حديثها قائلة : إنك لا تزال أيها الكونت في مقتبل الشباب فتنبأ لا يتجاوز عمرك العشرين ، وهو العمر الذي لا يقف بصاحبه عند حد . أما أنا فقد بلغت السابعة والعشرين ولكنني جريت شوطاً بعيداً في مضمار اللهو والغرور ، حق كأي قد بلغت ضعف عمري وقلبت جميع صفحات الحياة في حين انك لم تقرأ بعد الصفحة الأولى من كتابها ، ولهذا فقد حق لي أن أكلمك بلهجة السيادة إذا أذنت .

- تكلمي يا سيدي كيف تشائين فانك السيدة الآمرة كيف كنت .

- إني بالأمس كنت أجهل كل شيء عنك حتى اسمك . أما اليوم فاني أعرف ما يحول في خاطرك ، فاصنع الي ولا تشك بما أقول ولا تنس هذا الابتسام الدال على الريبة ، فلقد دلوك علي امس وقالوا لك هوذا امرأة حسناء لا رحمة عندها ولا قلب لها ، وما أحببت في حياتها سوى المال فقلت لهم اني في شرح الشباب وفروتي لا عد لها وسأجد بين جنبي هذه الحسنة قلباً يحب اليس كذلك يا سيدي ؟

فانحنى باسمها وقال : هو ما تقولين .

- إلا أنني اقسم لك بأنك خدعت لاختداعهم ، فاني لا أستطيع ان أحبك ولا طمع لي بمالك ، وإذا أردت ان تتبين الصدق في قولي فانظر إلي فاني لا أنظر اليك نظرات الأمس ، بل أقف في موقف طبيعي تبدو فيه حقائق النفس بما ينبعث من خفاياها من العيون ، فتعلم اني على غير ما يظنه بي أولئك الأغرار .

ونظر اليها الكونت فرأى علائم الحزن الشديد بادية بين ثناياها ، وعلم

أن لها سرّاً تخفيه ، ولكنه لم يتألك عن ان يظهر حبه فابتسمت له ابتسام الأم لطفلها وقالت له إنك لا تزال فتى ومن كان له سنك فان قلبه يكون طاهراً لم تدنسه عوادي الأيام بعد ، فينطبع عليه كل قول شريف ويصادف القول الصالح خير هوى في ذلك الفؤاد . انظر إلى تجرد امرأة مسكينة تمثل دوراً فوق طاقتها ، بل تجرد امرأة صالحة تجل نفسها التائبة عن الانغماس في حماة الأثام وهي تسألك الغوث باخلاص دفعها اليه ما رأته يتقد بعينيك من أشعة الصدق وما يحول بين ثناياك من علائم النبل والطهارة والشرف .

وكان الكونت ينظر اليها وهو مندهل مما رأى وسمع فتبين الصديق من لهجتها ورأى دمة قد سقطت على وجنتها ، فعلم أن الناس قد خدعوا بها وانها ليست دون قلب كما يشبهون عنها ، بل علم انها ارفع مما مثلها له رفاقه وان لديها حزناً عظيماً تكتمه عن جميع الناس وتستره بمظاهر الخلاعة والجون . ثم حسب انه أساء اليها بتجرأه على زيارتها فقال لها لقد أصبت يا سيدتي حين دعوتني فتى ، فاني لولا حادثتي وظيش صباي لما تجاسرت على الاساءة اليك ، ولكني أعتذر قائماً عن هذا الذنب .

فقاطعت به باكارا قائلة قل أتريد أن تقسم يميناً ؟

.. أقسم لك بما تشائين .

— أتقسم لي بشرفك وبشرف الأمة الروسية التي تنتسب اليها اذك لا تذكر حرفاً أمام أحد من الناس عما دار بيني وبينك من الحديث ؟
— أحلف حلفه وفي صادق .

فنظرت اليه باكارا بامعان نظرة الفاحص المتردد في أمره ثم قالت له : إنني أفد لك على سواك وأجعلك مستودع سري مع اني لم أعرفك قبل الآن ، وذلك لما نوسمته فيك من دلائل الخير والشرف والحاجي الى معين ، فعلم الآن أن لي سرّاً من الأسرار الخطيرة لا يمكن الاباحة به لأحد من الناس إلا أن قلبي يحدثني انك ستكون لي خير صديق .

- إنني الآن ذلك الصديق .

سوف نرى سأسألك قضاء أمر دون ان أكلفك شيئاً من المال فلقد كنت من قبل كما قيل لك لا أعبد سوى المال ، أما المرأة التي تراها أمامك الآن فإنها لم يعد لها مطعم في مال او جمال وإذا قدر لها أن تحب فإنها تعيش من كسب أيديها كي تكفر عن هذا الحب .

فقاطعها الكونت وقال : كفى يا سيدتي ولا تذكرى المال فإنه من سفاسف الأمور لدي وأخبريني بهذه المهمة .

- إنك أتيت طامعاً بحبي وقد قلت لك إنني لا أستطيع أن أحبك ولا أن أدعك تحبني لسبب قد تعلمه في مستقبل الأيام ، غاية ما أسألك إياه أن تكون لي صديقاً مخلصاً وان تطيعني طاعة الاخلاص إذا اقتضت الحال .
-- سأكون لك أطوع من البنان .

- إذن فستكون أمام أصحابك وفي عيون العالم أجمع عشيقى وأتظاهراً أنا بحبك بحيث تكون السيد المطلق في هذا المنزل .

فدهش الكونت وقال : ما هذه الألغاز ؟

- هو سر خفي لا أستطيع ان أبوح به لأحد واعلم أيها الصديق إنني لا أستطيع ان أحب أحداً وان قلبي لا يسهه إلا ان يتجرد حب الله وإنى سأمضي الآن خاشية باكية مصلية ، الى ان أنفق النهار متظاهرة بالخلاعة والمجون والاسترسال ظاهراً في الغي والضلال ، فلا تسألني ان أبوح بسري ولكني إذا بحث به يوماً فلا يعلمه سواك .

وأنا أعلم ان أمرى يشكل عليك ، فان المرأة إما ان تكون شريفة طاهرة وإما ان تكون على عكس ذلك غير انه لا بد لي من الجمع بين الطهارة الباطنة والغواية الطاهرة لهذا السر الغريب ، الذي لا بد لك أن تعلمه ، كما يحدثني قلبي ، فإذا شئت ان تكون صديقي وعصدي ، جعلت اعتمادى بعد الله عليك .

فتأثر الكونت من كلامها وقال : إني اوقف لك يا سيدتي قلباً لا ينبض فيه سوى الاخلاص وقد أحسنت في اعتمادك علي ، فإني إذا كنت لا أزال فتياً فإني سأكون رجلاً عند الاقتضاء يحق الاعتماد عليه عند المهمات وسأكون لك خير صديق لا يطلب اليك سوى الصداقة .

ثم ركع أمامها وقبل يدها باحترام فقبلت باكارا جبينه وأنهضته وهي تقول : إنك شريف ونبل ويكفيني عزاء انك عرفتني دون سواك .

-- إني منذ الآن عبد لك تدفعين بي إلى حيث تشائين وبشارة منك القي بنفسي إلى غمرات الموت .

ثم استأذنته هنيئة وخرجت إلى إحدى الغرف وعادت تحمل أوراقاً مالية قيمتها مائة ألف فرنك ، فدفعتها اليه فدهش الكونت وقال : لم هذا المال ؟

— هو المال الذي ستنفقه علي . ألم تتفق على ان تكون عشيقتي في عيون الناس ؟ وإذا كنت عشيقتي فلا بد لك من ان تشتري لي أمامهم كل يوم ما يروق في عينك من النفائس .

— ذلك لا ريب فيه ولكن الملك نسيت اني أفرى الأثرياء وان إيرادي يعد بالملايين .

— كلا بل أنت نسيت اني صديقتك في الحقيقة لا عشيقتك . فكيف أستطيع قبول شيء منك ؟ وأنا قد رضيت ان يحتقرني الناس مكتفية بأن تحترمني أنت .

فوجم الكونت وأخذ المال ثم خطر في باله الرهان الذي عقده مع شاروبيم ولم يجد بداً بعد ما عرف من فضائل باكارا ما عرف من أن يطلعها على كل شيء فقص عليها بلهجة النادم جميع ما دار بينه وبين شاروبيم في النادي فأصغت اليه باكارا بانتباه شديد .

ولما فرغ من حكايته نظر إلى وجهها فرآه قد امتنع فقال لها : الملك تعرفين هذا الرجل ؟

— كلا ، إنني لم أره في حياتي .

إذن لماذا اصفر وجهك ؟

أجابته باكارا بصوت منخفض : ذلك لأنني بدأت أظن أن الله قد أرسلك إلي فاقبل الرهان .

فاندesh الكونت وقال : كيف يعني قبوله بعد أن علمت أن هذا الشاب لا يمكن له ان يستغويك ، وبالتالي اكون كأني قد حكمت عليه بالقتل وهو برى .

فصالت له باكارا ، بصوت أجش وكيف علمت ان هذا الرجل لا يستحق الموت ؟

وقد قالت هذا القول بلهجة الواثقة من وجوب موته ، كالفاضي يحكم على الجاني وهو مطمئن الضمير بعد ثبوت الجناية . فطأطأ الكونت رأسه وقد علم أنها تكتم سرأ هائلا .

ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فقالت له باكارا لقد دنا موعد الفراق أيها الصديق فعد لي في ظهر الغد للغداء وأحضر بركبتك وخدمك كي يقفوا بها على الباب فيعلم الناس انك في منزلي .

ثم مدت له يدها فقبلها وخرج وهو يقول : ما هذا السر العجيب في القلوب اني دخلت إلى منزلها وانا أعتبرها اعتبار بنات الهوى فما خرجت من عندها إلا وأنا أحترمها احتراماً لا مزيد فيه ، حق لقد القى بنفسه الى الموت من أجلها فما هذا التأثير العلي أحبها ؟

أما باكارا فانها دخلت بعد ذهابه الى الغرفة التي كانت تنام فيها الفتاة اليهودية فألفتها لا تزال مستيقظة وكانت باكارا قد بدأت تعتقد بصدق أقوالها في نومها ولكنها لم تكن قد علمت منها الى الآن سوى ان أندريا يكرهها ويكره أخاه وفرناند وليون وانه يحاول قتل المريضة فان هوب بواسطة حبها لرجل جميل هو شارويم . وقد بقي عليها ان تعلم كيف يدبر أندريا هذه المكيدة

الهائلة ومن هم أعوانه فيها فأجلست الفتاة بازائها وجعلت تطيل التحديق بعينها وهي تقول لها : إنني أمرك أن تنامي . حق نامت نومها المغناطيسي

- ٣٤ -

ولنعد الآن إلى شاروبيم فإنه بعد أن غادر روكامبول جعل يفكر وهو سائر إلى منزله تفكير النادم لدخوله في هذه الجمعية السرية وما وراءها من الأخطار والقيود إلى أن بلغ منزله فدخل إلى غرفته وحاول أن ينام ولكنه أطل من النافذة فرأى مصباحاً قد وضع خاصة في نافذة الأرملة ملايسيس وهي علامة متفق عليها بينها وبينه . فعلم أنها تلتظره ، وللحال خرج من منزله وصعد إليها فجعلت تؤنبه تأنيباً شديداً لخروجه من منزله وقد قالت له . إن المراكز كانت مشقة عليه أشد الاشفاق فكانت تزورها كل يوم كي تطمئن عليه ولكنها حين علمت أنه لم يقيم في الفراش غير اسبوع وأنه خرج من المنزل أمس انقطعت عن زيارتها لاطمئنانها .

فعض شاروبيم شفته من الغيظ وقال : متى تزورك ؟
- إنها لا تزورني إلا بعد ثمانية أيام كما أخبرتني ، وذلك إما لاطمئنانها عليك أو لأنها تريد أن تنساك وعلى كل حال فإنك قد ارتكبت خطأ عظيماً بخروجك من المنزل ، فقد كان يجب أن تبقى متراضاً فيه كي يزيد حنوها عليك وبكثير ترددها علي والان فماذا تريد أن أعمل ؟

فوجم شاروبيم هنيهة ثم افترى بروكامبول فقال غداً سأخبرك .
- بل اكتب لي لأنني أخشى أن يزورني الدوق فجأة ويجدك عندي وهو شيخ غيور فتفسد علي أمري .

فوعدها بالكتابة إليها وانصرف إلى منزله وهو لا يعلم أيفتكر بالمركيزة أم

بما كارا ولكنه جعل يفتكر فلا يجد غير المصاعب والأخطار .
وفي اليوم التالي وردته رسالة روكامبول وهي تتضمن إذن رئيس الجمعية له
بالمراهنة على باكارا فذهب الى النادي الذي جرى فيه حديث الرهان وأخبر
جميع أصحابه انه عزم على قبول الرهان ، وفيما هو يفتخر سلفاً بالفوز سمع
البارون دي مينرف يقول لأحد أصحابه : إنصحه كي لا يقبل الرهان .

فالتفت شاروبيم وقال : لماذا ؟
فقال له البارون : ذلك لأن الكونت ارتوف قد سبقك الى باكارا وهذا
كتاب منه يدعوني الى الغداء معه عندها
ثم أعطاه الكتاب فقرأه الى آخره وردده اليه وهو يبتسم ابتسام الهازيء
فقال له البارون : ألا تزال على عزمك ؟
- بل زدت إصراراً وسوف ترى لمن يكون النصر .

ثم برح النادي وذهب للقاء روكامبول حسب الاتفاق فأخبره بما دار بينه
وبين الأرملة وكيف ان المراكيزة انقطعت عن زيارة الأرملة بحيث لم يعد أمل
باغوائها إلا إذا تمكن من الاختلاء بها فقال له روكامبول : ونحن لم يعد لنا من
الوقت سوى سبعة أيام ، فإذا لم نفرز بعدها خسرتنا كل شيء . أما هذه الخلوة
فسنعمدها لك .

- متى ؟
- في هذه الليلة عند الأرملة ملايسيس .
- أيجب ان أكتب اليها ؟
- لا حاجة الى ذلك فانا أعددتنا كل شيء إلا انه يجب ان تكون في منزلك
في الساعة الثامنة .

وقبل ان يفترقا أخبره شاروبيم بما جرى له في النادي بشأن الرهان وكيف
أنه أخبر أصحابه بقبول هذا الرهان فقال روكامبول في نفسه : إن أندريا
يرى هذا الرهان مفيداً ولكفي أراه ضرباً من الجنون ثم قال لشاروبيم لقد

أحسننت في قبورك إذ لا بد لك من الفوز .
وفيا هما يتكلمان مرت بهما مركبة الكونت الروسي وباكارا ففسال له
روكامبول : هذه فرصة مناسبة لإخبار الكونت بقبولك فاذهب اليه لأن
مركبته قد وقفت .

وكانت باكارا قد اتفقت مع الكونت على ان تطمع شاروبيم بها لأغراض
لها ستظهر في سياق الكلام ، فلما قابلها شاروبيم هشت له وأكرمته . فأخبر
الكونت انه قبل برهانه . أما باكارا فانها لم تظهر شيئاً من الاستياء بل انها
قالت لشاروبيم حين انصرافه : إنكما الآن بمثابة الخصمين إذا تبارزا وجب ان
يكونا متكافئين بالسلاح ، ولهذا فاني أأذن لك كما أذنت للكونت ان تجيء
الى منزلي متى أردت كي لا يمتاز عنك في شيء .
فشكرها شاروبيم ثم قبل يدها وانصرف .

أما باكارا فانها أتمت نزهتها مع الكونت ، وعند عودتها طلبت اليه ان
يذهب بها الى منزله فامتثل دون ان يعرف ما تريد حتى إذا بلغا اليه جعلت
تفحص غرفة ثم صعدت معه الى السطح فجعلت تنظر الى المنازل المجاورة الى
ان وقع نظرها على منزل تحيط به حديقة كبيرة فسألته : لمن هذا المنزل ؟
- انه لخصمي شاروبيم .

فأطرقت باكارا هنيئة لإطراق المتأمل ثم نظرت الى الكونت وقالت : إنني
أسألك ان تتخلى لي عن منزلك هذه الليلة دون ان تسألني عن السبب .
فامتثل الكونت وهو لا يفقه شيئاً من هذه الأسرار .
ولما نزلا عن السطح دخلت الى غرفة الكتابة وكتبت الى خادمتها ما يأتي :
« البسي الفتاة اليهودية ملابسها في الساعة الثامنة من هذا المساء واحضري
بها الى منزل الكونت أرتوف في شارع بوبينار حيث أنتظرها فيه » .

(باكارا)

يذكر القراء ان روكامبول وعد شاروبيم أن يعد له خلوة مع المركيزة ، ففي مساء ذلك اليوم ورد الى المركيزة كتاب من وكيل منزل صديقتها الأرملة يخبرها فيه ان سيدته أصيبت بمرض فجائي باتت بعده في خطر الموت السريع وأنه قد تجاسر على ان يكتب اليها لأن سيدته قد فقدت رشدها ولم تعد تعي على شيء ، فأسرعت المركيزة لزيارة صديقتها فرأتها على ما وصفها الخادم بحالة تقرب من الاحتضار ولقيت الطبيب بقرها ينظر اليها نظر القانط .

وكان الطبيب ووكيل المنزل والأرملة وخادمتها من صنائع أندريا وكل واحد يمثل الدور الذي أمر بتمثيله ، غير ان الأرملة أتقنت تمثيل الاحتضار حتى كانت دموع المركيزة تسيل إشفافاً عليها .

ولفق لها الطبيب ما شاء عن هذا المرض الفجائي إلى أن أخبرها بيأسه من شفائها ولكنه بقي له أمل وحيد بتغيير قد يحدث لها في الليل فإذا لم يحدث لها شيء من ذلك فلا رجاء بحياتها غير انه يجب السهر عليها ، فهاجت المرأة بصدر المركيزة وقالت : أنا أسهر على هذه الصديقة فعسى ان ينقذها الله مما هي فيه ثم دعت فانتز وهو وكيل المنزل فأعطته رسالة الى زوجها المركيز أخبرته فيها بمصائب صديقتها وانها اضطرت إلى البقاء عندها هذه الليلة وطلبت اليه أن يحضر اليها في الصباح كي يعود بها ، فأخذ الرسالة وانصرف ثم خرج في أثره الطبيب بعد أن وصف لها دواء تستعمله متى عاد اليها رشادها .

وجلست المركيزة بازاء سرير هذه الصديقة الكاذبة تنتابها الهواجس والأفكار وكانت نوافذ الغرفة مقفلة بأمر الطبيب ، فبينما المركيزة تجيل نظرها ، رأت نور مصباح يضيء في إحدى غرف المنزل المجاور فعلمت ان النور في منزل شاروبيم وانه لا بد أن يكون فيه فجعل فؤادهما يضطرب اضطراب ذلك النور . ثم انطفأ النور وساد السكوت .

وبعد هنيهة سمعت وقع أقدام وجف فؤادهما وحدثها قلبها ان القادم هو

شاروبيم فما طال انتظارها حتى صدق ظننها ورأت شاروبيم داخلاً وقبعته بيده فأظهر الاندهال حين رآها ، ثم دنا منها فحياها باحترام وقال : إني عدت الآن الى منزلي يا سيدتي فأخبروني ان مدام ملايس في خطر شديد فلم يسعني إلا الاسراع للاطمئنان عنها وكنت أرجو أن أرى خادمتها غير اني رأيت الأبواب مفتوحة ولم أر أحداً فتقدمت حتى بلغت غرفتها وأنا لا أعلم شيئاً حتى الآن فاصفر وجه المركيزة وأوشك لسانها أن ينعقد مما تولاهما من الاضطراب غير انها تغلبت على عواطفها وقالت : أشكرك يا سيدي لاهتمامك بأمري صديقي وهي الآن نائمة كما ترى وأرجو أن يكون نومها دليل خير .

فالتحني شاروبيم شاكرأ ثم قال إذا كان الأمر كذلك فاذني لي يا سيدتي بالانصراف .

وقد قال هذا القول وهو يؤمل أن تستوقفه غير أن المركيزة لم تحقق أمانيه بل انها ردت له التحية بأحسن منها فمشى شاروبيم مشية القلق المضطرب حتى إذا وصل إلى الباب خطر له أن يعود فأقفل الباب وعاد الى المركيزة وهي تكاد تسقط من الاضطراب وقال لها : عفوك يا سيدتي فإني لا أستطيع الذهاب قبل أن أبوح لك بخطأ ارتكبته .

فاجفلت المركيزة وسأله : أي خطأ ؟

فقال شاروبيم بصوت تكلف فيه لهجة الاضطراب : خطأ كذبي عليك الآن ، نعم يا سيدتي فلقد كذبت عليك ثم سكنت وجعل ينظر اليها كي يعلم ما يكون من تأثيرها فراها قد سقطت على كرسيها كأن رجلها لم تقويا على حملها غير انها ما لبثت ان استقرت على الكرسي حتى هبت لها قوة من لدن السماء فتمكننت من اخفاء اضطرابها واجابته بسكينة : لا أعلم يا سيدي أي كذب تعني فتفضل بالجلوس وقل ما تشاء فإني مصغية اليك .

فلبت شاروبيم واقفاً وقد تلبس بلباس الحزن والسوداء وقال : اني عدت إلى منزلي وعرفت بمرض جارتي الآن كما قلت لك غير اني ما أتيت لمنزلها بغية

السؤال عنها ، بل لدافع أشد وهو اني علمت يا سيدتي من بواب المنزل ان مدام ملاسيس مريضة وانك عندها

فحاولت المريضة أن تعترضه وتوقفه عند حده فقال لها شاروبيم بصوت الملتبس : بالله يا سيدتي ألا ما أصفيت لي الى النهاية ، فإن اختلائي بك بعد الآن محل وإذالم أخبرك بأحزاني وأبوح لك بما أقدمت عليه من الجرأة فلا أستطيعه بعد لأني سأودع باريس بل أوروبا بأسرها وداعاً أبدياً بعد ثمانية أيام.

فوجف فؤاد المريضة وقالت أتسافر ؟

- نعم ، ولا أحمل في قلبي غير حب واحد قد تزول حياتي ولا يزول ، وان تلك السيدة التي أحببتها لا يفصل بيني وبينها غير تلك الهوة العميقة وهي طهارتها وفضيلتها لأنها غير مطلقة القياد .

ثم دنا خطوة منها فركع أمامها وقال سيدتي اني لن أراك بعد الآن وقد ينقضي العمر ولا يذكر اسمي أمامك غير انك إذا خطر لك في ساعات خلوتك خاطر حزن فاذكرني بين هذه الأحزان. ذلك لرجل التبعس الجاني أمامك لا يسألك غير أن تأذني له بلثم أطراف ثوبك .

وكان شاروبيم يرجو ان تنهضه بعد هذا الاعتراف غير انها سمعت حديثه إلى النهاية دون ان تحونها عواطفها وهي تجد منه أشد الوجد غير ان الله الذي يصون الطاهرات ارسل اليها روحه الأمين فصانها من مواقف الزلل فنهض شاروبيم والنحى مسلماً ثم خرج يمشي مشياً بطيئاً إلى ان توارى عنها فتنهد تنهد من سلم من خطر شديد وسرت لتصاممها عن صوت قلبها وانصرافها الى سماع صوت الواجب الشريف ولبشت جديرة بأن تحمل اسم زوجها . أما الأرملة فإنها لم يفتها حرف من ذلك الحديث ولكنها كانت متظاهرة بالنوم .

ولنعد الآن إلى باكارا فانها بينما كان شاروبيم حاول إغواء المريضة كانت باكارا في منزل صديقتها الكونت الروسي وقد ارسلت اليه خادمته الفتاة اليهودية فلما وصلت استأذنت من الكونت وخلت مع الفتاة فأنامتها النوم

المغنطيسي ثم أدارت وجهها إلى جهة منزل شاروبيم وقالت للنائمة : أريد ان أعرف ما يفعل هذا الرجل الآن .

ثم خرجت بها بعد أن أيقظتها الى حيث كان ينتظرها الكونت فقالت له .
اني عائدة الآن الى المنزل لأن شاروبيم سيزورني فعد الى في الغد .

فانذهل الكونت وقال : كيف عرفت انه يزورك .
- سيزورني بعد ساعة ثم قالت له باسمه : لقد عرفت ذلك لأنني اشتغل
بالكهانة والسحر .

- ٣٦ -

ولما وصلت باكارا الى منزلها وجدت به رسالة من شاروبيم يخبرها فيها انه سيزورها بعد ساعة ويذكرها بالرهان فلما اطلعت عليها زادت ثقتها بالتنويم المغنطيسي وعلمت ان اليهودية تصدق حين تنويمها بأكثر ما تقول فنومتها ايضاً وعلمت منها ما تريد ان تعلمه بشأن زيارة شاروبيم ثم خرجت إلى قاعة الاستقبال تنتظره فيها إلى أن حضر في الوقت المعين فمدت له يدها وقالت باسمه : أهلاً بالرجل الهائل

وكان شاروبيم قد سر بهذا الاستقبال فقال لها اني قد استحق ان القب بهذا اللقب غير اني .

فقاطعت به باكارا وقالت : دعني أبحاثك بأمر خاص قبل ان تخوض في أبحاثك وأعلم اني قد افرغت جهدي كي أقنع الكونت أرتوف بالرجوع عن الرهان فلم أنجح .

فقال لها شاروبيم منكراً عليها هذا الجهد : لماذا أردت أن تقنعيه ؟
- لأنه قد حمله على حمل الجد .

— واذا حمل هذا المحمل ؟

— انك لا تعرف هذا الروسي فانه إذا كان مجداً فيه لا تكون عاقبته مجودة . ان ذلك سيان عندي .

لا تقل سيان فلقد كنت جميلة ولا أزال وقد اشتهرت بعدم الاكتراث فأنت الآن تخاطر لاغواء امرأة بحبك وهي امرأة لا قلب لها كما يقولون فاذا كنت حقيقة كما يقولون فلا بد لك أن تخسر الرهان وبالتالي فلا بد للكونت من قتلك .

— انه يقتلني ولا حرج عليه فان ذلك لا ريب فيه إنه حقه .
— ولكن اذا كنت الفائز ؟ ثم حدثت به تحديق الساخر فلم يسمعه إلا الاطراق بنظرة استحياء الى الأرض فأتمت حديثها وهي تقول . ألسنت يا سيدي قد أردت ان تراهن على حبي بالمال ؟

وكان هذا الكلام قد انقض على شارويم انقضا الصاعقة فاجفل منه اجفالا شديداً وعلم انه ارتكب بهذا الرهان ما لا يرتكبه الاشراف .

فعادت باكارا الى هزئها السابق ثم قالت . انك قد جريت في هذا الرهان شوطاً بعيداً وسلكت فيه مسلكاً لا يسلكه العقال ألم يقل لك الناس أي فتاة دون قلب ؟

— نعم ، ولكن من كان مثلي لا يصدق هذه الأقوال .

— ربما تكون قد أصبت غير انه كان يجب عليك في كل حال ان تستشيرني قبل ان تعقد هذا الرهان الشائن غير انك قلت في نفسك أي قد اشتهرت بجهالي وعرفت طرق القلوب من النساء فلا بد لي من الفوز ، ثم جعلت تفتخر برهانك في النوادي وأنت لو أجريت فيه على مناهج العقل لأمكن لك أن تعرف طريق قلبي انك ... ثم توقفت عن الكلام تنظر اليه ..

— إذن أنت تعتبرين انني سأكون الخاسر في هذا الرهان ؟

— هذا ما اراه إلا إذا ... ثم قطعت كلامها أيضاً لتسمع ما يقول .

- أرى انك تقترحين شروطاً ، إقترحي ما تشائين ؟
- أريد ان اقتنع بها قبل كل شيء انك لا تحبني وتريد اغوائي من أجل
كسب المال فقط .

- أملكك تشكين بهذا وما حاجتي بالمال وأنت أعظم جواهر الأرض ؟
- إذا كان ذلك فارجع إذن عن هذا الرهان اذا أردت ان احبك
- اني لا أريد غير هذا الحب . ثم عض شفته من الغيظ وهو يخشى ان
تكون قد علمت ما يحول بنفسه .

- إذن اصغ لي وبعد ذلك أنث خير بين ان تزورني أم تنقطع عن زيارتي
أما الذي اقترحه عليك فهو ان تكتب الآن الى الكونت تخبره برجوعك
عن الرهان .

- واذا كتبت هذا الكتاب ؟
- اني أغفر لك .

فاطرق شاروبيم هنيهة اطراق المفكر المهموم ثم استقر رأيه على الخضوع
فقال : ليكن ما تشائين .

- اذن قم الى هذه المنضدة وأكتب ما أمليه عليك ؟

فقام شاروبيم وهو يضطرب وأخذ القلم بيده فأملت عليه ما يلي .

« سيدي الكونت

« أرجو ان تتناسى ما أخطأت به اليك وان تعتبر رهاننا لغواً غير
معمول به » ..

فتوقف شاروبيم عن اتمام الكتابة وقال : ان هذا اعتذار محض لا أكتبه
لأنني لم أخطيء .

- بل تكتب كلما أمليه عليك متى علمت ان خضوعك يرضيني ، وانه لا
يكون وراءه غير الحب ، فامتثل شاروبيم مكرهاً مضطراً ، وأتم الرسالة على
مثال ما تقدم حتى إذا فرغ منها أخذتها منه وهي تقول باسمه : بقي عليك

ان تقبل يدي وتأخذ قبعتك وتنصرف بسلام .

فاجفل شارو بيم وقال : الى أين أذهب ؟

— ان الليل قد انتصف فاذا اردت ان تحب فابدأ بالخضوع .

— متى أعد ؟

— بعد غد .

فقبل يدها وانصرف وهو يفكر بالكتاب الذي كتبه الى الكونت وخسارة ما يرجو ان يكسبه من المال غير انه خطر له خاطر أخرجه من هذا الموقف فانطلق مسرعاً الى النادي حيث رأى الكونت فيه فخلاً به وقال له : خرجت الآن من عند باكارا فأكرهني بدلا لها على أن أكتب اليك كتاباً أنقض فيه الرهان لأنها لا تحب أن يراهن عليها .

— لقد أصابت .

— فكنتبت اليك الكتاب مكرهاً ولكني أسرعت اليك كي أنقض بكلامي ذلك الكتاب فيبقى الرهان معقوداً بيننا .

— ليكن ما تريد .

— إذن أرجوك أن تحسب الكتاب لغواً متى وصل اليك على شرط واحد وهو أن تقسم لي بشرفك أن لا تخبر باكارا بحرف مما دار بيننا كي لا تعلم أمر عودنا الى الرهان . فأقسم له الكونت على الكتمان ثم افترقا .

وفي اليوم التالي ذهب الكونت الروسي الى باكارا فاستقبلته وقالت له : اني سأخبرك بأمر تظن انه لا يعلمه سواك .

فقال لها الكونت أي أمر تعنين ؟

— ما قاله شارو بيم لك أمس عند منتصف الليل .

فذهل الكونت وقال : كيف عرفت ذلك ؟

— بل عرفت ما دار بينكما من الحديث ، ألم يقل لك أنه لا يرجع عن رهان وينقض بالقول ما كتبه بالقلم ؟

فذكر الكونت اليمين التي حلفها وقال كلا . . إنه لم يقل لي شيئاً من هذا فأجابته باكارا بلهجة الحنو : إنك شريف وكل شريف يبر بيمينه غير اني قلت لك اني ساحرة أخرج حجب الغيب وقد علمت جميع ما قاله لك شاروبيم ولكن هذا الرجل لا يعلم انه حكم على نفسه بالموت ، ثم سكنت هنيهة وقالت : إن هذا الرجل لو لم يكن غير نذل خسيس يفتخر باغواء النساء لكنت اكنفي بطرده من هذا المنزل ، غير أن شره لا يقتصر عند هذا الحد فهو رجل مجرم سفاك ، رضي أن يكون آلة صماء بيد رجل داهية لا يعرف اسمه وهو يشاركه بحريمة هائلة يضيع عندها كل رحمة واشفاق .

فحاول الكونت أن يسألها غير أنها قاطعته وقالت : لا تسألني شيئاً فإن ما أقوله لك سر خفي لا يعني إظهاره الآن ولكني أريد أن ألقى عليك هذا السؤال : وهو اني إذا كشفت لك يوماً بالبرهان الجلي مكائد هذا القاتل السفاك ثم دفعته اليك وقلت لك انه قد خسر الرهان فعق لك قتله أمقتله ؟ - أقسم لك اني اقبله دون شك فإنه يستحق الموت مرتين .

- ٣٧ -

تركنا الفيروزة تعبت بفرناند وليون كما يشاء السير فيليام وهي قد غادرت زوج سرين هائما مفتوناً لا يستقر على حال من يأسه ويبحث عنها في كل مكان ولا يجدها ، وترك فرناند متولها بحبها وهو يحسبها هائمة وانها من فضليات النساء لا يشارها الفقر على الغنى ورفضها ما كان لها من النعمة غير ان فرناند لم يكن يطيق أن يراها تقيم في غرفة حقيرة فما زال بها حتى اقنعها على سكنى القصور ، فاشترى لها قصرأ بديعاً وفرشه بأجل الأثاث وأحضر لها المركبات وأصائل الجياد بحيث تسكف عليها نصف مليون أول دفعة من ثمن هذا

الحب الشائن .

غير أن اندريا لم يكن غرضه الاقتصار على كسب مال فرناند بل انه كان يريد سلب ماله وشرفه وحياته ، وقد بدأ بسلب المال والشرف فبقي عليه سلب الحياة . وكان قد هاج مكان الغرام في صدر ليون وفرناند وجعلها يحبان امرأة واحدة ابتغاء إثارة الغيرة في قلب ليون وحمله على قتل مزاحمه ، ولهذا دفع الفيروزة إلى مقاطعة ليون والاحتجاج عنه حتى أوشك أن يخن من يأسه وجعل يبحث عنها كل يوم في جميع انحاء باريس وهو لا يهتدي اليها لفرط مبالغتها في الاحتجاج ، فلما رأى أندريا أن وقت الانتقام قد دنا أمرها أن تمر بعمل هذا الرجل كي يراها ، ثم علمها ماذا تصنع حين اجتماعها بها . فلبست أفخر ما لديها من الثياب وركبت خير المركبات التي اشتراها لها فرناند ، وأمرت السائق أن يسير الهويناء في الشارع الذي يوجد فيه معمل ليون ، فامتثل السائق ولما مرت المركبة بباب المعمل نظرت ليون سالسا على كرسي ، مطرق بنظره إلى الأرض ، فمرت دون أن ينكبه اليها فاستمرت في مسيرها ، ثم عادت فالتفته واقفاً على الباب ينظر إلى المارين نظرات القلق المضطرب .

وقد استلقت نظره صوت المركبة فنظر اليها وهي لا تزال بعيدة عنه عدة أمتار فاستوقف بصره حسن رونقها ، ولباس سائقها وجمال جياها فأطال النظر بها حتى مرت به ، ورأى الفيروزة تنظر اليه دون اكتراث كأنها ما عرفت من قبل ، ثم ذكر انها كانت عاملة فقيرة ورأى ظواهر نعمتها فجئن من الغيرة ، وعلم انها لم تصده إلا لانشغالها بسواه من الأغنياء فأسرع يمدو وراء مركبتها ، حتى عثر بمركبة معدة للأجرة ، فركب فيها ووعد السائق بجزء حسن إذا أدرك مركبة الفيروزة .

فاندفعت المركبة في أثرها حتى أدركتها حين دخلت إلى حديقة النصر ،

فاستوقفها ليون وأطلق سراحها ، ثم ذهب الى القصر الذي أقفل بابه بعد دخول الفيروزة فطرقة بكلتا يديه وهو يود لو تمكن من كسره فخرج اليه البواب وقال له : ماذا تريد ؟

— أريد أن أرى سيدتك في الحال ..

— لا بأس في ذلك غير ان سيدي لا تستقبل إلا من تعرفه .

فذكر له ليون اسمه فاستوقفه البواب وذهب إلى الفيروزة يخبرها بأمره ثم عاد اليه فقال ، إن سيدي لا تعرفك ولكنها تستقبلك لتعلم ما تريد . وطاش رأس ليون وقال في نفسه : إما أن أكون منخدعاً وإما أن تكون قد انكرتني . ولكنه تبع الخادم حتى أوصله إلى غرفة الاستقبال وتركه فيها وانصرف . فجلس ليون يفكر تفكير المبهوم ، ثم نظر إلى ما يحيط به من مظاهر الثروة ، وذكر ان الفتاة قالت حين عرض عليها اسمه ، انها لا تعرفه فعشى أن يكون منخدعاً وان تكون تلك الفتاة قد تمثلت له بالقي يحبسها وحاول أن يخرج من القاعة ويفر ، الا أنه ما لبث أن نهض عن كرسيه حتى فتح الباب ودخلت الفيروزة ، فصاح صيحة الفرح المستبشر قائلاً : هي .. هي بعينها . ثم أسرع اليها .

ولكنها تراجعت عنه ونظرت اليه نظرة انكار وهي تقول : أنت ليون رولاند الذي طلب أن يراني ؟

فانقض هذا الكلام عليه انقضاض الصاعقة وسقط على كرسي وقد عقد لسانه عن الكلام

وقالت له يظهر انك قد غلطت بي يا سيدي !

— كلا .. يستحيل أن يخلق الله فتاتين تتشابهان الى هذا الحد ، وأنت أوجيني ابنة جارن التي طالما أظهرت لي حبها وأظهرت لها حي . فاظهرت الفيروزة عدم الاكتراث ثم قالت أعيد عليك القول يا سيدي انك مخطيء فاني لا أدعى الانسة أوجيني بل أدعى مدام دولار .

فجثا ليون على ركبتيه وقال لها : بالله كفى فاني أبحث عنك منذ ثمانية أيام ولا تخدعيني الى هذا الحد . إني لا أعلم ما أصبحت عليه الآن ولكني أعلم انك ابنة غارين التي كان أبوها عاملاً عندي وإني أحببتك ولا أزال مفتوناً بك بعد احتجابك وجعلت أعود في أثر مركبته كالجانين حتى عرفت منزلك ووصلت اليك فلا تقطعي قلبي بهذا الانكار .

وكانت الفيروزة تصغي اليه صامتة ، حتى إذا فرغ من حديثه قالت له بألفاظ : انظر إلي جيداً تعلم انك مخطيء .
- كلا ، إن الله لا يخلق مثلك لأنك تكفيه لفتنة عباده .

فهزت الفيروزة رأسها وقالت : قر لي شيئاً عن تلك الفتاة التي تحبها .
- إنها ابنة أحد عمالي وهي فتاة عاملة .
- إذا كان ذلك فانظر بما يحيط بك من النعمة أيمن ان يكون للعاملات مثل هذا الرياش ؟

فأطرق ليون برأسه لأن البرهان قد غلبه ، فلم يعلم ماذا يقول وأن أنين المتوجع فقالت له : خفض عليك واصنع إلي فاني سأزيل هذا الاعتقاد الراسخ في ذهنك ولنفرض الآن اني انا هي تلك الفتاة العاملة التي تحبها والتي احتجبت عنك كما تقول .
فصاح ليون : نعم أنت هي .

فأجابته باسمه لنفرض اني انا تلك الفتاة واني كنت عاملة فقيرة حين كنت تحبني فلا بد لي إذن ان أكون من بنات الجن وإلا فكيف تتبدل حالي من الفقر المدقع الى أقصى درجات الغنى في مدة ثمانية أيام .. وإذا كنت لا تزال بعد هذا على اعتقادك فلندخل في باب الافتراض فإنه باب واسع ولنفرض أولاً أن والدي غارين كما تقول كان له أخ ، وان هذا الأخ قد سافر الى البلاد الأمريكية ثم عاد في هذه الأيام وهو من أصحاب الملايين ، فأقام ابنة اخيه في هذا القصر .

فهز ليون رأسه وقال هذا مستحيل
- إذن لنفرض افتراضاً ثانياً وهو ان هذه الفتاة العاملة حين احتجبت
عندك لقيت غنياً هندياً أو أميراً روسياً فأحبها وخرجت منك اليه .

فعضت الغيرة قلب هذا المسكين ووثب عن كرسيه يصيح: هو ذاك أ رأيت
الآن كيف اني لم أخطيء؟

- لا تفس يا سيدي اني افترض افتراضاً. ثم انه إذا كانت ثروتي قد تغيرت
بثمانية أيام فان آثار العمل لا تزول من يدي في هذا الزمان الوجيز ، أنظر الى
يدي أترى عليها آثار الاشتغال بالصناعة ؟

وأطرق بنظره الى الأرض دون أن يحيب فقالت الفيروزة . لنفترض ايضاً
فرضاً ثالثاً وهو ان ابنة غارين لم تكن ابنة غارين ولم تكن عاملة حين عرفتها بل
كانت على ما أنا عليه الآن .
- كلا ، ان هذا محال

- إذن ، إختر ما تشاء بين ان أكون ابنة غارين العاملة أو مدام دلاكور
التي تراها الآن

- فغطى ليون عينيه بيديه وقال : رباه ! أحقيقة ما أراه أو حلم
من الأحلام ؟

- إسمع بقية الافتراض . ان هذه الفتاة كانت من أشد بنات الهوى دلالة
ولكنها كانت تحب الحوادث والأسرار والغرائب . وقد اتفق انها رأتك يوماً
فشغفت بك وذلك لأن الحب كثير العجائب ، فقد يحب المرء بنظرة واحدة ،
فتزيت بزي عاملة فقيرة حتى يحبها هذا العامل الفقير لأنها لو بدت له بمظاهر
توفها لأحجم عنها ثم لما عاشرتة علمت انه رجل مجتهد شريف وان له امرأة
تحبه وضملاً صغيراً

فصرخ ليون بسرور كاد يقتله : إذن انت هي ولا سبيل بعد للانكار .
فابتسمت الفيروزة وأجابته : ربما

فحاول ليون ان يركع أيضاً أمامها ولكنها نظرت اليه نظرة اضطرب لها
ولبت في مكانه فأتمت حديثها تقول :

— إن ما تريده المرأة يريدك الله ، وهو مثل صادق ولهذا فان تلك الفتاة
تزيث بزى العاملة كي تحملك على حبها ففازت بك وبلغت منك ما تريد .
إلا أنه لنكد الناس ان لكل شيء نهاية ، وعلى هذا فإن الحب مهما اشتد فانه
يزول عند حدوث طارئ . وقد كان هذا الطارئ ان تلك الفتاة ذكرت
انها تسيء الى رجل شريف ، وانها من بنات الهوى الشهيرات وانها تلقب
بالفيروزه ولكنها كانت تحب هذا العامل حباً شديداً . فآثرت ان تعيش
قمسة منكودة بالبعد عنه وقاطعته كي لا تسيء اليه بحمله على الافتتان بها ،
لأنها تحبه حباً أكيداً ، ولكنسه متزوج وله طفل صغير أولى بحبه
منها ، فإذا جفته فقد ينساها بتقادم الأيام ، دون أن تغادر في فؤاده أثراً
من الاحتقار .

وكانت تقول هذا القول وهي تتظاهر بالتأثر الشديد حتى ان ليون نظر
اليها فرأى دموع قد سقطت على وجهها ، ولم يستطع ان يضبط نفسه بل
أكب عليها يقبلها وهو يقول باكية أنت هي ... لا تنكري بالله وكفاني
ما صبرت

فجملت تبكي لبكائه وتقول : أنا ، أجل أنا هي .. أنا التي أحبتك وخدعتك
ولا تريد ان تراك ... إذهب عني فقد عرفت الآن من أنا وعرفت انك لا
تستطيع أن تحبني
— كيف أستطيع فراقك ؟

- كيف تحبني وأنا امرأة ساقطة . أؤثر ان يقتلني الغرام على ان
تحتقرني . فانساني ولا تفكر بغير امرأتك ولذلك فاني مسافرة الى البلاد
الأمريكية .

— إني أسافر معك ولو ذهبت الى أقصى المعمورة .

- كلاب بل أسافر وحدي لأذك مقيد بحب سواي .
فر كع ليون أمامها وقال إني لا أحبك حباً بل أهدك عبادة وسأكون لك
أتبع من ظلك وأطوع من بنائك .

- لا ريب عندي في حبك . ولكني أخشى ان تحتقرني لأني من
بنات الهوى .

- أقسم لك بكل عزيز في الأرض ومقدس في السماء إني أنسى الماضي
وأحترمك أجل احترام .

- إذن فلنهرب ولنعد هذه العاصمة السوداء التي لا يلقى فيها المرء سوى
الحجل والذئب إلى بلاد نجني فيها ثمرات الحب دون رقيب .

فجن هذا المنكود من فرحه وقال . لنسافر حيث تشائين .
ولكنه ما لبث أن تفوه بهذا القول حتى مرت بخاطره امرأته سريز وتثقلت
له حاملة على ذراعها طفله الصغير وهو يبتسم له ابتسام الملائكة الأطهار فتنبهت
منه عواطف الأب وأجفل وهو يقول : ولدي !..

فتراجعت الفيروزة إلى الوراء وقد اصفر وجهها وقالت أرأيت كيف انه
يجب ان نفرق فراقاً أبدياً لأن لك امرأة وولداً ؟

ثم تركته مسرعة فبرحت القاعة وأقفلت بابها فبقي المسكين وحده وهو لا
يعلم ما يعمل . ولكنه لم يطل انتظاره حتى فتح الباب ودخل خادم يحمل اليه
ففتحه وتلا فيه ما يأتي :

« وان لك امرأة وولداً ، سوى انك إذا كنت تحبني كما أحبك ، فلا
يلبني ان تحب إمرأتك ، بل خذ ولدك ولنهرب به ، فإنني سأحبه كما
تحبه أمه ، وسأكون له خير أم . فاختر بين أن تدعني أسافر وحدي ،
فلا تراني إلى الأبد . وبين أن تسافر معي . فإذا شئت السفر ، أحضر
بولدك غداً ، بل هذه اليلة إذا أردت ، ولا تكتب لي لأني لا أرجع عن
هذا العزم » .

فلما أتم ليون قراءة الرسالة وضعها في جيبه وخرج من هذا المنزل الجهنمي بحالة تحمل على الاشفاق .

- ٣٨ -

وكانت الرسالة من إملاء أندريا ، وذلك انه كان مقيماً في غرفة مجاورة للقاعة يسمع جميع الحديث . ولما غادرت الفيروزة ليون وحده دخلت الى الغرفة المقيم فيها أندريا ، فأمرها ان تكتب الرسالة المتقدمة . ولما ذهب ليون أملى عليها رسالة لفرناند تخبره فيها انها ستغيب عنه يومين بشأن خاص ، ثم قال لها : إنك تجدين في صباح الغد مركبة على باب المنزل ، وسائقها من أعواني فاعتمدي عليه . واذا حضر ليون مع ولده ولا بد له ان يحضر ، إركبي معه هذه المركبة ودعي السائق يسير حيث يشاء واذا سألك ليون أين تذهبن فقولي سوف تعرف متى بلغنا المحطة الأولى ، وهناك يخبرك السائق بما يجب أن تفعله .

— سأمتثل لجميع ما تريد دون أن أعلم شيئاً من هذه الأسرار التي تحيط بي . فاني أغوي فرناند لابتزاز أمواله ، وأغوي هذا العامل المسكين لأنك تريد أن أغويه . ولكن ما عسى أن يكون بعد فراره من إمرأته وما عساي أصنع بهذا الطفل ؟

— أما المرأة فاتها تدبر نفسها كما تشاء ، وأما الطفل فاني سأضعه في إحدى ملاجئ اللقطاء .

ووجعت الفيروزة وهي لا تعلم ما الذي يدعوه الى هذا الانتقام أما أندريا فانه ذهب من عندها الى الكونت مايلي حفيد الدوق الذي عاهده على إغواء هرمين زوجة فرناند فوجده نادماً على ما فعل وقد سرت اليه روح شريفة أرجعته

عما كان عازماً عليه من الاغواء السافل . ورجع أندريا من عنده وهو موجس شراً من نقض الكونت لعده وإفلات هرمين من انتقامه وقد تشاءم بهذا النقص وعده دليلاً على بدء حبوط أمانيه .

أما ليون رولاند فانه أخذ الرسالة وانطلق بها الى معمله ، وأخذ يقرأها ويعيد قراءتها مرات كثيرة فتتنازع العوامل المتناقضة . وبينما هو يميل الى اختطاف ابنه واللاحاق بالفيروزة تتمثل له امرأته سرين صائحة نادبة فراق زوجها ولدها ، فيجفل قلبه من الفيروزة ويذكر واجباته الزوجية ثم يذكر الفيروزة ويتمثل له جمالها النادر والفاظها الرخيمة ، ويحن غراماً بها وغيره علمها ، وينسى كل واجب لدى هذا الغرام . واستمر على هذه الهواجس ساعات طويلة يمشي في معمله ذهاباً وإياباً وهو ضائع الرشد مبلبل الخواس حتى تغلبت عليه عواطف الأبوة والمرورة فدعك الرسالة بيديه والقاها مغضباً في أرض المعمل ثم برحه دون أن يقفل بابه وصعد منه الى منزله .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل ، وجميع من في المنزل نيام . ولما خلا بغرفته هاله ما يحيط به من السكوت وعادت اليه هواجسه السابقة ، وذكر الفيروزة وكيف انها ستسفر ولا يعود يراها ، فهاجت به مكان ذلك الغرام الفاسد وعزم عزمياً أكيداً على اختطاف ابنه غير مكترث بتلك الوالدة المسكينة وقام الى غرفتها يمشي على رؤوس أصابعه ودنا من سرير الطفل الذي كان يجانب سريرها ، وأخذ من السرير واحتمله بين يديه ثم حاول الخروج به

وكان الله أبى أن يلقي عليه تمعة هذه الجريمة فانه عثر وهو يمشي بكرسي فسقط الكرسي واستمطت سرين لصوته ورأت ولدها بين يديه ويحاول الخروج به فصاحت صيحة أم توجس خطراً على ولدها .

أما ليون فانه أرجع الطفل الى مهده وخرج من المنزل دون ان يصغي لنداء امرأته قائلاً : إحتقريني ما شاء الاحتقار ، فما انا إلا نذل أثم .

ثم برح المنزل هائماً على وجهه لا يعرف اين يستقر حتى قاده يأسه الى نهر
السين وذكر ولده ثم ذكر الفيروزة وعزم ان يلقي بنفسه في مياه النهر ولكنه
شعر بيد قوية قبضت عليه وأرجعته الى الوراء والتفت فرأى رجلاً شديداً عرف
أنه خادم الفيروزة وانتهره وقال له : ما تريد مني ؟

- أريد أن أمنعك عن الانتحار

- لماذا ؟

- لأن سيدتي تموت لموتك وهي تمنتظرك الآن ولا يمنعها عن السفر إلا
حضورك ، فاذهب معي .

وكان ذكرى الفيروزة هاجت فيه حب الحياة وردت اليه بعض صوابه ،
وذكر ماسيلقا بقرىها من النعيم وانطلق يحري مع الخادم مطرق الرأس لايفتكرك
إلا بما سيلقاها .

أما سرين فانها لما سمعت من زوجها ما سمعت وانه قد خرج من المنزل خروج
المجانين خرجت في أثره راجية ان تدركه على باب الطريق ، ونزلت الى
السلم وعندما بلغت الى منتصفه رأت باب المعمل مفتوحاً ، وقد كان نسي
ليون ان يقفله لذهوله فحسبت أنه فيه ودخلت اليه تبحث عنه ولم تجده ولكنها
لم تكن تشكك انه فيه ، وأرقدت شمعاً وجعلت تطوف في الغرفة مفتشة حتى
بلغت الى غرفته الخصوصية ولم تجد أحد . وبينما هي تجيل نظرها إذ رأت ورقة
مدعوكة وملقاة على الأرض وهي الرسالة التي أرسلتها الفيروزة الى ليون تغريبه
بها على اختطاف ابنه والفرار معها . وأخذت سرين الرسالة وما لبثت أن قرأتها
وعرفت ما فيها حتى عرفت قصد زوجها من حمل الطفل وصاحت صيحة منكرة
وسقطت مغمياً عليها

وعند الصباح أقبل العمال يشتغلون ورأوا امرأة سيدهم لا تزال مغمياً عليها
وعالجوها حتى صحت من اغماها وحملوها الى المنزل . وقد اتفق ان باكارا
جاءت لزيارتها في تلك الساعة لانشغال بالها عليها ولما علمت ما كان من أمر

زوجها وقرأت رسالة الفيروزة وعلمت ان ليون قد رحل هاجت هياج اللبوة
فقدت أشبالها وقالت : إن الفيروزة لا تموت إلا من يدي .

- ٣٩ -

ولنعد الآن الى السير فيليام او السير أرثير او أندريا ، فأت هذا الرجل
الهائل عندما برح منزل الكونت مايلي كما قدمناه ، ذهب توأ إلى روكامبول
الذي كان ينتظره في منزله لتلقي أوامره . وأخبره روكامبول بجميع ما كان
بين شاروبيم والمركيزة ، وأظهر له ربه من الفوز لما لقيه من عسدم اكتراث
المركيزة . فمزأ به اندريا وقال إنها اذا كانت غير مكترثة به كما توهمت لما
سمعت جميع حديثه ولأوقفته عند أول كلمة قالها ، ولكنك لا تزال غراً
جاهلاً حديث العهد بهذه المهنة

- كيف نرجو الفوز ولم يعد لنا من الوقت سوى ستة ايام ، لأن الهندية
شربت السم امس وإذا ماتت قبل فوزنا باغواء المركيزة فكيف تظفر بالملايين
وإذا كانت لم تظهر إشارة حب لشاروبيم الى الآن فكيف نرجو أن نفويها
وقوق ذلك ان شاروبيم أخبرها انه راحل عن هذه الديار فكيف يتيسر له
لقاؤها بعد هذا القول ؟

- أما إغواء المركيزة فلا نريد به سوى الظاهر ، وسيان تهتكت بحبه ام
اقتصرت على ما هي عليه الآن من الرضى عنه والرافة به ، وان الغرض الذي
نسعى اليه وهو ان يباغت المركيز شاروبيم والمركيزة في غرفة واحدة واما
اجتماع شاروبيم بها فهو امر ميسور لدي
- اين يجتمعان ؟

- في منزل الأرملة وقد أوقفت المركيز على ما ينبغي بحيث يكفيه ان يرى

امراته مع شارويعم لاثبات خيانتها . فاطمئن واستعد للسفر .
ثم أخبره بجميع ما كان من امريون ، وأمره ان يستزيا بزي سائق
مركبة كي يسوق المركبة التي تسافر بليون والفيروزه وأخبره بجميع ما ينبغي
عليه ان يفعله .

وبعد ساعتين كانت المركبة واقفة على باب منزل الفيروزه وروكامبول
ينتظر فيها بزي سائق . . ثم أقبل مع الخادم كما تقدم ، ولما رآته الفيروزه
أسرعت اليه وتأبطت ذراعه وسارت به الى المركبة واندفع معها يقدم
رجلا ويؤخر اخرى . وكأنها خشيت منه عاقبة هذا التردد فجعلت تغالزه
وتكشف له من كوامن حجبها ما أنساه امراته وولده ، فصعد معها الى المركبة
وسارت بهما تنهب الأرض حتى خرجت من باريس واجتازت مسافة مسير ساعة
في طريق نورمانديا .

إلا ان ليون ما لبث ان عادت اليه هواجسه ، وذكر امراته وولده ،
وعلم انه يأتي أمراً جنونياً لا يقدم عليه العاقلون ثم تمثل له ولده وهو يناديه
ويتبسم له ابتسام الملائكة فاتحاً ذراعيه لضمه . فثارت في فؤاده عواطف
الأب وأفلت يده من يد الفيروزه وصاح بغتة بالسائق يقول قف فلا طاقة لي
بارتكاب هذه الخيانة .

فخطر للفيروزه خاطر سريع وقالت له : ليكن ما تشاء . أريد العودة
الى باريس ؟
أجل .
- إذن نفترق الى الأبد .

واختلج ليون وجعل الواجب الشريف والحب الفاسد يتجاذبان فؤاده
الضعيف ولكن الواجب قد انتصر فصاح أيضاً بالسائق وقال : قف ، فإني لا
أريد ان أفارق ولدي .

فنادت الفيروزه السائق وأمرته ان يقف ثم قالت لليون : يمز علي أن

أفارقك إلا اني لا أستطيع ان أدعك في هذه البراري المقفرة فاننا نبعد خمس مراحل عن باريس .

- لا بأس ، اني أعود ماشياً على الأقدام .

- كلا بل ترجع بك المركبة .

ثم أمرت السائق أن يرجع بهما الى باريس

وكان روكامبول قد سمع جميع الحديث فقال لها : ان الخيل قد تعبت يا سيدتي ولا طاقة لها بالرجوع وقد دنونا من محطة قريبة فإذا شئت وصلنا اليها واستبدلنا الجياد ثم نعود .

- إذن فأسرع الى هذه المحطة .

فدفع روكامبول الجياد وليون مطرق بعيثيه الى الأرض لا يحسر ان ينظر بهما الى الفيروزة حتى وقفت المركبة أمام فندق منفرد . فنادى روكامبول أصحابه وللحال فتح الباب وخرج منه فانتير وهو الخادم الذي وضعه أندريا في منزل الأرملة مالاسيس وقد تزيا بزي أصحاب الفنادق فقال له روكامبول :

أسرع وأعد لي جوادين قوين أعود بهما الى باريس .

ثم أوما اليه بخفة ، فعلم فانتير المراد ، وقال : لا سبيل للحصول عليهما قبل ساعتين .

وكان ليون والفيروزة يسمعان الحديث فتظاهرتا الفيروزة بالسرور وطوقت ليون بذراعيها وهي تقول اني سأزود منك ساعتين .

فأطرق ليون ، وقد أخذت تلك العواطف الفاسدة تتغلب على فؤاده ، فسكت الفيروزة بيده وصعدت به الى الدور الأول يتقدمها صاحب الفندق وهو خادم الأرملة ، وأعد لها غرفة خاصة وأمرته الفيروزة أن يحضر لها ما ياكلان ويشربان . فخرج مسرعاً وعاد يحمل طعاماً بارداً وزجاجة مختومة من الخمر ، فوضع الطعام على مائدة وأخذ يفيض ختم الزجاجة ، وهو يشير بطرف خفي الى الفيروزة ، فعلمت ان في الزجاجة مخدراً أخبرها عنه

روكامبول .

وهذا المخدر الغريب في بابه ، أحضره معه اندريا حين كان في البسلام
الأميركية ، وهو مسحوق نبات يمزج بالشراب فلا يغير طعمه ولونه
ورائحته ، فإذا شربه المرء تخدرت حواسه جميعها ما عدا حاسة السمع ،
بعيثة يسمع جميع ما يقال أمامه دون ان يرى او يستطيع حراكاً مدة
يوم كامل .

فلما أتم الخادم فتح الزجاجاة ، وضعها على المائدة وخرج . فأخذتها
الفيروزة وصبت منها في كأسين وجعلت تنادم ليون وتشاغله عن امرأته
وولده بأطيب الحديث وتذكر له ما ستلقاه من لوايح الوجد بعد فراقه ،
ثم سقته ما بالكأس فشربه جرعة واحدة ، وأدنت كأسها من فمها ثم أرجعته
نافرة منه ورمته مدعية انها وجدت فيه ذبابة واستدعت صاحب الفندق
فأمرته ان يحضر لها زجاجة غيرها ، فلما أحضرها جعلت تشاركه بشربها
خلوها من المخدرات .

وما مضى على ذلك هنيهة حتى أحس ليون بفتور في جميع أعضائه ثم
تناقلت عيناه فجعل يتشاءب تشاؤماً شديداً ، وهي تنظاها بالانذهال من نعاسه
حتى أطبق جفنيه وسقط لا يعي . فأسرت الى نداء صاحب الفندق
وأحد خدامه ، وقالت لها وهي تعلم تأثير المخدر وانه يسمع جميع ما
تقول إحمل الزوج العزيز الى سرير ، واحذرا من ان تزعجا فانه منذ
يومين لم ينام .

فحملاه ووضعاه على السرير . فأخذت كرسيًا وجلست بازائه وجعلت
تناغمه بالطف الأصوات وتودعه بأرق العبارات كأنها تحاول ان تسافر وتتركه
نائماً كي تهرب فكان يسمع كل ما تقول لكنه لا يستطيع ان يبدي حركة لتأثير
هذا المخدر القوي .

وفيا ما على ذلك إذ سمع من خارج الغرفة صوت رجل شديد يسأل

صاحب الفندق يلمحجة السيادة ، فيقول : ألم تمر بك مركبات في هذه الليلة ؟

نعم ، لقد مرت بنا مركبتان إحداهما لرجل إنكليزي ، وقد استراح هنيئة وسافر ، والثانية لرجل وسيدة وهما باثتان عندنا في هذه الليلة .

فصاح هذا الرجل صيحة فرح ، ثم استتلاها بالشتائم والسباب وقال : إن جهنم قد بعثت بي الى هذا المكان لأعاقب الخائنين أما الفيروزة فلأنها أجفلت حين سماعها هذا الصوت وقالت يا ويلتساء إنه يطاردني فما عساه به وبني يصنع .

وكان ليون رولاند سامعاً فخاف خوف الفتاة وأفطع اذ لا يطيق الدفاع وهو كما علمت لا صاحياً ولا يهجع .

أما صاحب الصوت فإنه استدل من صاحب الفندق على الغرفة التي يقيم الرجل والمرأة ، فركض اليها مسرعاً ورفس بابها برجله فانكسر الباب ، وخرج منه دوي شديد ، ودخل الرجل حتى اذا رأى الفيروزة هجم عليها وقبض على شعرها وهو يقول : أين المفر الآن وانت في يدي ؟

فركعت الفيروزة وقالت . رحماك ! أشفق علي .

— لا رحمة ولا إشفاق ، فلا بد من قتلك وقتل هذا الرجل الذي تخونيني من أجله

— رحماك وإذا لم ترد الابقاء علي فأبق عليه .

— كلا . بل تموتين وإياه .

ثم هجم كأنه يريد قتل ليون وهو يقول : سيسيل دمه على يديك ثم تموتين بعده شر موت .

غير ان الفيروزة حالت بينه وبين ليون كأنها تريد الدفاع عنه او الموت قبله وجعلت تستعطفه وتتملقه ، فلا يزيد إلا عتواً . كل ذلك وليون سامع جميع الحديث ولا يستطيع ان يبدي حراكاً كالنائم يصاب بالكابوس ولكنه كان

ينتظر الموت في كل لحظة .
 وكان هذا الرجل قد ولد في بلاد الفيروزة ، لا سيما حين
 قالت له : إني أتبعك حيث تشاء وأحبك حباً أكيداً إذا أبقيت على هذا
 الرجل إذ لا ذنب له .
 - أتقسمين على ذلك ؟
 . أقسم لك بإله السماء والأرض اني أكون لك أتبع من ظلك وأطوع من بنائك
 بشرط ان لا تتعرض له بأذى .
 إذن هيا بنا نعود الى منزلك في باريس والويل لك اذا خطرت لك الحياة
 في بال أو حنثت باليمين .
 ثم أخذها بيدها ، وخرجا من تلك الغرفة الى قاعة الفندق ، في
 الدور الأول .

- ٤ -

ولم يكن هذا الرجل سوى روكامبول ، وقد اتفق مع الفيروزة على تمثيل
 هذه الرواية التي وضعها أندريا .. فلما باتا وحدهما في القاعة ، قال لها
 روكامبول : الحق انك لو كنت ممثلة على المسارح ، لكنت الآن من أشهر
 الممثلات .

فسرت الفيروزة من هذا الثناء وقالت : الآن ألا تخبرني بحقيقة هذا
 الدور الذي مثلناه ، فلاني لا أفهم منه شيئاً ، بل كنت فيه شبيهة
 بالآلة الصماء .

- ولكني لا أستطيع ان أخبرك شيئاً ، لأنني أنا نفسي مثلك يديرنا
 رئيسنا الحاضر .

- وما لديك من الأوامر الان ؟
- يلبغي ان تذهبي في الحال الى باريس وتقيمين في منزلك بانتظار الرئيس.
- ألا تعود معي ؟
- لا . فإن مهمتي لم تلتته بعد .

وعند ذلك خرج فأعد المركبة وعاد فأخذها اليها ، وسارت بها تنهب الأرض عائدة الى باريس . فلما بلغت الى منزلها علمت ان فرناند قد زارها مبكراً وأنه خرج من منزلها منذ ربع ساعة فقط . ثم أعطاها أحد الخدم رسالة من أندريا يأمرها فيها ان لا تخرج من المنزل وان تنام الى ان يأتي عند الغروب فيوقظها ويباحثها بشؤون خطيرة . فنامت وقد أنهكتها التعب الى ان حان الأجل المضروب ففتحت عينيها ورأت أمامها أندريا وهو يقول كفك لوماً وهيا بنا نتحدث .

- فجلست في سريرها ودار بينهما الحديث الاقي فقال أندريا :
- أيعجبك هذا القصر الذي أنت فيه ؟
- كل العجب .
- وثلاثمائة الف فرنك تضاف اليه .
- إن هذا لقليل فان فرناند يعطيني أكثر من هذا .
- انك منخدعة ولو كانت ذاكرتك جيدة لعلمت ان فرناند لم يكن له اتصال بك لولاي .
- هذا لا ريب فيه ولكن ..
- بل ان هذا يدل على ان فرناند لا يستطيع ان يفيسدك بشيء إلا إذا أردت .
- كيف ذلك اليس له الحق ان يصنع ما يريد ؟
- كلا .
- إذن تربد ان تقول انك الوصي عليه ، ولكن هذا ليس أكيد ولو شئت

أن أنهب جميع أموال فرناند لقدرت
فقال لها أنديريا بصوت الهازيء المستخف : لقد كنت أحسب ان لك عقل
راجحاً وانك تعلمين بأني اشتغل لنفسي لا لسواي .
فعضت على شفتها من الغيظ وقالت : لقد نسيت انك تريد سمسة .
— نعم وان سمسرتي تبلغ مليونين .

فوئدت الفيروزة من مكانها قائلة : لا شك إنك مجنون فإن من يطمع بالكثير
فاته القليل وما دام فرناند يحبني فهو يصنع دون شك ما أريد .
فقال أنديريا دون أن يبدو عليه شيء من علامات التأثر : إنك منخدعة
فإن كلمة واحدة تصدر مني إلى فرناند تكفي لهجرانه لك إلى الأبد فإن لدي
إحدى رسائلك إلى ليون رولاند .

فاصفر وجه الفتاة من الغيظ ثم قسالت ولكنني أقر له بكل شيء وهو
يحبني ولا بد له من الصفيح عني .
فأخرج أنديريا خنجراً وقال لها بأتم السكينة بقي هذا الخنجر فإنه يفعل
دون شك أشد مما تفعله الرسالة .

فمدت الفيروزة يدها إلى الحائط تحاول أن تضغط على زر كان فيه قصد
منادات الخدم ، ولكن أنديريا عرف قصدها فقمقه ضاحكاً وقال : فإتك
أيتها الحسناء انت جميع من في القصر من أعواني ، وإني إذا أردت قتلك فهم
يساعدوني على اخفاء آثارك .

فسقطت يد الفيروزة عن الزر وتنهدت تنهداً عميقاً فقال لها أنديريا : اصغي
إلي وخففي من مطامعك وانظري إلى ماضيك منذ عهد قريب تجدي انك كنت
في أشد حالة من الفقر ، ثم انظري إلى حاضرك تجدي انني قد وهبتك قصراً
يبلغ ثمنه مع ريشه نحو المليونين وفوق ذلك فإني سأهبك أيضاً ثلاثمائة ألف
فرنك أفلا يكفيك جميع هذا أم أنت تؤثرين العودة إلى حالتك السابقة ؟
فأطرقت الفيروزة لإطراق الواجم المقتنع . ثم قالت . امل علي شروطك

فاني راضية بما تريد .

فجلس أندريا بازائها وقال : إذن فقد رضيت .

فأنتت قائلة : ولكن هذين المليونين سيطول العهد بالحصول عليهما .

— كلا بل أنا سنقبضها غداً إذا أحسنت الطاعة .

— أراك شديد القناعة فإن فرناند وافر الثروة فكيف تقنع منه بالمليونين ؟

— انك منجدة بثروته كسائر الناس فإنه عندما تزوج بهرمين كانت

فقيراً لا يملك شروى نقيير وكان مهرها اثني عشر مليوناً الا انها حين عقد الزواج

لم تحصى إلا بثلاثة ملايين وقد انفق منها على القصر ورياشه نحو مليون ولم يبق

له الا مليونين

بقي أن أعلم كيف نحصل على هذين المليونين .

— ان ذلك سهل ميسور وهو اني سأعطيك خمس حوالات قيمتها ٥٠ الف

فرنك تسأليه أن يوقع عليها بالقبول وهو سيقبلها دون ريب لأنها مبلغ زهيد .

— وأين المليونان إذن ؟

فأسرج أندريا الحوالات مكتوبة من جيبه وقال : أنظري إلى هذا الحبر

فإنه إذا مسح عن الورق زالت جميع آثاره ، وإذا وقع فرناند على الحوالات

بالحبر المادي مسحت عنها الكتابة السابقة ويبقى الامضاء اكتب فوقه ما أريد

فبهنت الفيروزة لكلامه ثم أخذت الحوالات وجعلت تقلب نظرها فيها

فرأت أنها بعيدة الآجال فقالت : إن فرناند لا يلبث أن تعرض عليه الحوالة

الأولى حتى يقطن للتزوير ويبعث بي إليك إلى أعماق السجون

— لقد أصبت ولكن ليس فرناند الذي سيدفع هذه الحوالات بل امرأته

ستدفعها بعد موته حرصاً على اسمه .

فأجملت الفيروزة وقالت : العلك عزمت على قتله ؟

نعم !

— كلا .. اني أوافقك على كل شيء وأشارك في كل جريمة ، أما جريمة

القتل فان يدي لا تنغمس فيها .

واخرج أندريا الخنجر من جيبه ثانية ووضعه على منضدة أمامه وهو يقول لا شك انك بلهاء فانك تدافعين عن حياة الآخرين وأنت أولى بالدفاع عن حياتك .

وهاله بريق الخنجر وانقادت صاغرة اليه ودار بينهما حديث طويل لا ندري خلاصته الا ان نتائجه ستظهر قريباً .

ولما فرغا من هذا الحديث أمرها ان تكتب رسالة إلى فرناند تدعوه بها إلى العشاء معها ، ففعلت وخرج أندريا على ان يعود حين يحىء فرناند فيختمىء في إحدى الغرف

أما الفيروزة فانها أوقدت المصابيح بجميع المنزل كأنما هي تعد ليلة راقصة ثم جعلت تنتظر قدوم فرناند، وفي الساعة التاسعة أقبل هذا المفتون فاختلقت له حديثاً ملفقاً عن السبب الذي دعاها إلى الغياب وجلست وإياه على المائدة تسقيه من خمرها ومن عينيها كؤوساً أضاعت رشاده وجعلته آلة في يديها حتى سأله عن السبب في هذا الانقلاب الشديد ، فأخبرته بأن لها عملاً مدينياً وأنهما تشفق عليه وعلى شرفه وسوى ذلك إلى أن سأله عن مبلغ دينه .

— خمسون ألف فرنك .

وضحك فرناند ضحك الهازي . وقال : أتحزنين لهذا المبلغ الزهيد وأنا صاحب الملايين ؟

ثم هزته أريحية الحب ونشأة المدام وقام إلى منضدة يريد أن يكتب حوالة على صرافه بالقيمة فمنعته الفيروزة وقالت : ليس هذا الذي أريد بل اني أسألك التوقيع على خمس حوالات يبلغ مجموعها هذه القيمة .

ولم يخطر الشر لفرناند في بال وقال هات الحوالات .

ودخلت الفيروزة إلى الغرفة المجاورة حيث كان مختفياً أندريا وقالت له : لقد وقع الطير في الشرك فهات الأوراق فاخرج اندريا من محفظته الحوالات

التي تقدم ذكرها وأعطاها أياها فذهبت بها الى فرناند حيث وقع عليها جميعها كما تريد وهو لا يعني من شدة سكره ما يفعله فحملتها وذهبت بها الى اندريا فاخذها والفرح ملء فؤاده واعادها الى المحفظة وهو يقول : عودي الى فرناند وتأهبي فان رجل الخنجر سيأتي قريباً .

وكانت الفيروزة قد ذكرت موقفها الهائل وتمثلت لها تلك المعركة العظيمة التي ستجري بين العاشقين فقالت : رباه ماذا افعل وما يكون من أمري في هذه المعركة ؟

فقال لها اندريا : انك تختبئين بعد ان تطفئي المصباح .

- ولكنه يقتلني بعد ذلك .

- لا تخشي ، فاننا سننجي ، لانقاذك .

- وما يكون من نتائج هذا القتل ؟

- ان البوليس يقبض عليك ويسألك عما جرى في المنزل فتقولين ان لي عاشقين دفعت باحدهما الغيرة إلى قتل مزاحمه فيطلقون سراحك وتعودين آمنة الى ما كنت عليه ، فخرجت الفيروزة مطرقة الرأس وهي خائفة أشد الخوف وعادت الى فرناند . أما اندريا فانه ما لبث بعد ان خرجت الفيروزة وساد السكون في تلك الغرفة المختبىء بها حتى سمع صوت تنفس انسان من وراءه فالتفت مندعراً فرأى على نور النار الضعيفة في المستوقد خيال انسان ورأى في إحدى يدي ذلك الخيال سلاحاً يلمع فوجف فؤاده وقال في نفسه : أعله قدم أحد لنصرة فرناند ؟

- ٤١ -

ولنعد الآن إلى روكامبول فلقد تركناه في الفندق بعد رجوع الفيروزة ينتظر ان يصحوا ليون من رقاده ، أما المنكود فانه كان على ما وصفناه صاحياً

في زي نائم من تأثير المخدر الذي شربه وقد لقي اهوآا شديدة في رقاده فانه كان يسمع ما دار بين الفيروزة وعشيقتها ويذتظر الموت في كل لحظة فلما ذهب بها ما لبث ان اطمئن على نفسه لسلامته من الموت حتى عادت الى فواده لواجج الفيرة تعضه بأنيابها المسنونة وهو لا يستطيع ان يبدي حراكا ثم شعر من نفسه ان لومه قد طال وفيما هو ذلك إذ فتح صاحب الفندق غرفته وقال : انه لا يزال نائما أعله سينام نوماً الى الأبد ؟ فسمعه ليون وخشى اذا طال لومه ان يدفنوه حياً ، ثم جعل يذكر جميع الحوادث التي كان يقرأها في الجرائد عن دفن الأحياء لحسبانهم في عداد الأموات فينخلع قلبه من الخوف .

وما زال على هذه المخاوف المقلقة الى ان اذنت الشمس بالمغيب ففتح عينييه وجعل ينظر نظرات الرعب الى ما حوله ثم جعل يحرك يديه ورجليه كأنه غير مصدق بصحوه وعوده الى الرشاد واستوى جالسا في سريره فجعل يستعرض في سره ما مر به من الحوادث وهو يحسب انه كان بالسلاوس الذي يعرض لبعض النائمين المزعجين في النوم .

ثم انه اراد ان يتحقق جميع ذلك فنادى صاحب الفندق حتى اذا صعد اليه كان اول سؤال ألقاه عليه قوله : أين هي ؟

- من هي ؟

- السيدة التي كانت معي .

فأجابه بصوت المتهمك أنها يا سيدي أتت معك ولكنها عادت مع سواك الى باريس .

فصاح ليون صيحة منكرة إذ ثبت لديه انه لم يكن حالما وان جميع ما مر به كان حقيقة ثابتة لا ريب فيها فوثب من سريره الى الأرض وخرج من الغرفة خرج المجانين حتى اذا بلغ الى باب الفندق العمومي سمع صوت رجل يناديه فالتفت فرأى روكامبول بزي سائق وهو جالس الى مائدة عليها أكل وشراب فقال : ماذا تريد ؟

- اني عائد الى باريس ، فاذا شئت صحبتك معي اليها .
- إذن أسرع باعداد المركبة .
- ألا تشرب كأساً ؟
- ويحك كيف يخطر لي الشراب وأنا على هذه الحال .
- رويدك يا سيدي واجلس معي قليلا الى أن أفرغ من الطعام ، وإذا
شاركني بهذه الزجاجة قصصت عليك أمر الفتاة التي أتيت بها ثم ذهبت مع
سواك واطلمك على سرها .
- أنت تعرف سرها ؟
- نعم ، ولكني لا اطلمك عليه الا على شرط الشرب معي .
- رضيت فقل ما تعلم .
فصب له روكامبول كأساً فشربه جرعة واحدة وهو يذوب تلهفاً للاطلاع
على هذا السر . وصب له روكامبول كأساً فشربه جرعة ثانية وقال : أبدأ
فأقول لك اني كنت في خدمة هذه الفتاة التي تعشقها وهي فتاة مخلصه النيسة
لطيفة الشعور الا ان عشيقها الذي استردها منك اليوم لا رحمة في فؤاده ولا
إشفاق عنده فإنه يعاملها شر معاملة ويضربها الضرب المبرح حتى أنها باتت
تؤثر الموت على صحبتته .
فسخط وأخذ مدية كانت على المائدة فقبض عليها وضرب بها المائدة كأنه
يضرب ذلك الرجل وهو يقول : لا بد من قتله .
وصب له روكامبول كأساً ثالثة وجعل يفضح أعمال هذا العشيق ويذكر
له عيوبه لا تحتملها النفوس ثم يذكر في مقابل ذلك ما تقاسيه الفيروزة من
العناء والمتاعب وأنها لا يتسنى لها الراحة مما هي فيه إلا إذا مات هذا الجاني ،
وكان كلما ذكر له نادرة سقاء كأساً فزاده تحمساً ، إلى ان اشتد سكر
ليرون وعاهده روكامبول على أن يوصله الى مزاحمه ، وعاهد نفسه على ان يقتله
شر قتلة .

ولما رأى روكامبول ان المدامة قد نهبت من عقل هذا الصانع المنكرد
يقدر ما يريد قام عن المائدة وأعد المركبة ودعاه للسفر فأسرع ليون اليها وهو
يتهادى في مشيته من الشرب وقد جمحظت عيناه من الغضب وسارت بهما الى
منزل الفيروزة حتى بلغت اليه والفيروزة عند ذلك مع فرناند بعد أن أخذت
منه الحوالات المزورة على ما تقدم

أما ليون فانه صعد مشهراً بيده الخنجر وهو هائج هياج المجانين وكان
روكامبول يتقدمه كي يرشده إلى الغرفة التي يقيم فيها فرناند ، ولما قرب أن
يدنو منها أشار له عنها بيده وخرج مهرولاً وهو يقول في نفسه لقد فعلت
ما وجب عليّ ولتفعل الفيروزة ما يجب .

وأسرع ليون إلى الباب يريد اقتحامه إذا لم يكن مفتوحاً فتصدى له أحد
الخدم وحاول ممعه عن التقدم فضربه ليون بيده ضربة سقط في اثرها على
الأرض وأسرع الى الباب فوجده مقفلاً ولكنه رأى النور من ثقبه فطرقه
فلم يفتح له بل سمع أنه أقفل مرة ثانية ، وجعل يطرق الباب مفضباً وهو
يقول : افتحي اني لا أريد بك شراً بل أريد قتل الظالم . افتحي أو
اقتحم الباب .

أها فرناند فانه دهش لهذا الحادث الذي لم يكن يخطر له في بال ثم رأى
من انذار هذا الطارق واصفرار الفيروزة واضطرابها ما زاد في هواجسه ،
فسألها من هذا وماذا يريد ؟

- ألا تسمع أنه يريد قتلك ؟ ثم تظاهرت بمظاهر القدامه وقالت : انه
عشيق قديم لي نسيت أن أخبرك عن أمره فاهرب بالله انه شديد الغيرة
وكان فرناند قد شرب حتى سكر فهاجت غيرة ايضاً وأخذ سكيناً عن
المائدة وهو يقول : ليدخل ولنرى من يقتل الآخر .

فما أوشكت الفيروزة أن تستمطفه حتى كسر الباب ودخل منه ليون
وأسرعت الفيروزة إلى الشمعة التي كانت تنير الغرفة فألقتها على الأرض بحيث

انطفئت وساد الظلام قبل أن يرى أحدهما الآخر ، ثم هربت إلى غرفة ثانية ولكنها لم تكذب تخرج وتسود الظلمة في تلك الغرفة حتى فتح باب آخر. وظهر منه نور عظيم شق حجاب الظلام وأظهر للعاشقين موقفها الهائل الشديد .

- ٤٢ -

تقدم لنا القول أنه حين أعطت الفيروزة الحوالات لأندريا وخرجت من الغرفة التي كان فيها للاجتماع مع فرناند رأى اندريا على نور النار المشبوبة في المستوقد شبح انسان ولما رآه جعل يحدق به ويتراجع على بسالته منذعراً الى الوراء حتى لم يعد يطيق الرجوع لبلوغه الى الحائط وعند ذلك تقدم منه الخيال حتى بلغ اليه ، وشعر اندريا بأنفاسه تهب على وجهه فاندعر وقال من أنت وماذا تريد ؟

أما الخيال فإنه لم يجبه بحرف بل انه قبض على عنقه باحدى يديه ووضع على جبهته باليد الثانية معدناً بارداً علم اندريا في الحال انه حديد مسدس ثم سمع صوتاً نسائياً يقول : يجب ان تعطيني الحوالات وإلا فأنت ماثت لاحالة .

فاضطرب أندريا لأنه علم ان هذا الصوت صوت باكارا وانه إذا لم يرجع اليها الحوالات قتلته دون شك ، فمد يده الى جيبه واخرج الحوالات دون تردد الا أن باكارا لم تمسها بيدها بل بقيت قابضة على عنقه وقالت له : الق هذه الحوالات في النار ، ولم يسمعه الا الامتثال والقاما وهو يكاد يذوب إشفافاً على زوال مطامعه .

وكانت باكارا متشعة برداء طويل لا يخفي منظرها عن يعرفها ، الا أن أندريا كان متذكراً تنكراً عظيماً بحيث يستحيل على باكارا أن تعرفه ولكن باكارا أرادت أن تبين وجهه فقالت ببرود : اذا أحببت الحياة فينبغي عليك

أن تطيعني .

فقال بلهجة الانكليز اني أطيعك في جميع ما تريدن .
-- خذ هذه الشمعة واشعلها من نار المستوقد .

فامتثل أندريا ، وقالت له : اشعل الثانية فإن امثالنا يجب أن يعرف بعضهم بعضاً .

وامتثل ايضاً وأنار الشمعة الأخرى وصوبت اليه مسدسها وقالت : ان من كان لصاً أثيماً مثلك يسرق مليونين وثلاثمائة الف فرنك باقبح الحيل لا بد له أن يحمل خنجرأ في جيبه فاسرع يا حضرة الميلورد والقي خنجرك الى الأرض وأنا قلت لك ميلورد لأنك قد تقمصت فصرت انكليزياً

ولما رأت أنه يتردد صوبت اليه المسدس أيضاً وقالت : إذ تأخرت دقيقة واحدة فلنك مائت . وقد صوبته الى الرأس فعلم أندريا أن لا حيلة معها ففك أزرار ثوبه وأخذ الخنجر وقدمه لها وهو يؤمل انها متى مدت يدها لاستلامه انقض عليها وجردها من سلاحها فكان له الفوز . غير انه ساء فأله فان باكارا كانت أشد منه دهاء ، وكأنها قد أدركت قصده فقالت : كلا بل القه الى الأرض .

فألقاه مكرهاً وهو يرجو ايضاً ان تنحني لأخذه غير انها وضعت رجلها عليه وجعلت تنفرس به وهي تقول بنفسها : أظن ان هذا الرجل هو اندريا بعينه ولكنه قد غير هيئته تغييراً شديداً بحيث لا أستطيع الحكم عليه إلا من عينيه فلإنها هما هما لم تتغيرا

ولما فرغت من تمنعها تراجعت الى وراء وهي لا تزال مصوبة المسدس وقرعت على باب الغرفة مرتين ففتح الباب ودخل منه رجلاً حسبته اندريا في بادئ الأمر أحد خدام الفيروزة ، ولكنه لم يكن الا الكونت أرتوف الروسي صديق باكارا ، وقد دخل مسلحاً بمسدس ايضاً فأومات بيدها الى أندريا ، وقالت للكونت : اني أعهد اليك مراقبة هذا الرجل ، وحذار

من ان يفر

- كوني مطمئنة فان قبضتي شديدة ومسدسي لا يخطيء

ثم أخذت شمعدانا فيه كثير من الشموع وأشعلتها جميعا ، ودخلت بها الى الفوفة التي كان فيها فرناند وليون يوشكان ان يقتتلا ، على ما عرفه القراء ، فلما دخلت وهي تحمل هذه الأنوار ورأتها الفيروزة فعلت انها باكارا صاحت صيحة رعب ووقفت في مكانها لا تعلم من الذعر كيف تفر .

وكان المنظر هائلا يستوقف الأبصار فان ليون كان يحمل بيده الخنجر وهو كالهائم على وجهه لا يعرف أين يغمده ويبحث بين الظلمات عن صدر فرناند وهو لا يعرفه ، وفرناند اصفر الوجه لا يزال يتمايل من السكر واقفا في مكانه ينتظر ان يقتله هذا العدو اللدود وهو لا يعرف من هو ولما تبدد الظلام بنور باكارا ورأى كل منهما الآخر صاح صيحة انكار ورمى ليون الخنجر من يده الى الأرض ، ثم ما لبث أن رأى باكارا حتى أطرق بنظره اطراق الخجل النادم وكذلك فرناند فإن باكارا حلت فيهما حلول القضاء ولم تكن الا رسول السلام .

وبعد أن صبرت عليهما هنيئة وهي تبتسم لهما ابتسام المؤنب الظافر وضعت مصابيحها على المائدة ثم التقت لونيون ودنت من الفيروزة وهي توشك أن تسقط على الأرض من الرعب وقبضت عليها بيد من حديد وقالت لها وهي مصوبة الخنجر الى صدرها : اختاري الآن بين أن تموتي أو أن تبوحي بكل شيء .

وجعل ليون وفرناند ينظر كل منهما الى الآخر نظر الوجل والانسدهال وما لا يدركان شيئا من هذه الأسرار ، وضغطت باكارا على الفيروزة وسالتها : أيتها الأفعى اعترفي لليون بأنك تريدني وضع ابنه بين اللقطاء وان كل ما جرى أمس لم يكن الا رواية تمثيلية وانك كنت السلاح القاتل بل انت التي كنت تدفعينه الى قتل فرناند ، اعترفي أو تموتي .

ثم ادنت الخنجر من عنقها ووخزتهابه وخزاً خفيفاً ولما شعرت بالألم ورأت انها لا نجاة لها الا بالصدق قالت : رحماك اني اعترف بكل شيء وان كل ما قلتيه حق لا ريب فيه

فصاح ليون صيحة منكرة وكاد يمزقها بيديه ، أما باكارا فلما ادنت الخنجر ايضاً من عنق الفيروزة وقالت لها . اعترفي الآن ايضاً أمام فرناند انك دعوتيه الى التوقيع على حوالاة تبلغ قيمتها مليوني فرنك لا خمسين الفاً كما أوهمتيه ثم انك لم تقصري على ذلك بل انك اردت قتله وبعثت حياته بثلاثمائة الف فرنك . . اعترفي في الحال أو استعدي للموت .

ولم تعد الفيروزة تملك نفسها من الرعب وقالت : نعم كل ما تقولينه حق . -- والآن قولي للاثنيين انك سحقت قلبيهما وعبثت بشرفيهما وانك لولاي لكننت قتلتي الاثنيين قولي لهما إذا كنت تؤثرين الحياة عن ذلك الشيطان المريد الذي كان يدفعك الى هذه الآثام فإنك لم تكوني الا آلة بين يديه .

ثم ضغطت عليها ضغطة اضاعت صوابها ووخزتها بالخنجر تريد حملها على الاقرار فترامى للفيروزة أن ما بنته من صروح الآمال قد تهدم بلحظة واحدة وانها سقطت الى الحضيض وستعود الى حالتها الأولى من الفقر المدقع ثم هالها هذا الموقف الشديد من ذلك الخنجر البراق الذي كان يخز عنقها من حين الى آخر فقضي على عقلها وأجابته باكارا بضحك عصبي شديد تبين منه انها قد جنت لول ما لقيت فرفستها باكارا برجلها وقالت : لم يعد لنا بك مآرب بعد أن ضاع صوابك .

ثم التفتت الى فرناند وليون وقالت لهما : اتبعاني الى هذه الغرفة المجاورة كي أريكما ذلك الرجل الجهنمي الذي يطاردكما منذ أمد بعيد ويحاول سلب شرفكما وحياتكما وأقوالكما . اتبعاني فإنه في هذه الغرفة .

ثم مشت أمامهما حتى بلغت الى باب الغرفة التي يقيم فيها اندريا والكونت الروسي وفتحت بابها بعنف ولكنها لم تكد تفتح الباب حتى خرج

دوي مسدس شديد اضطربت له جوانب المنزل وتبعه صوت سقوط جسم على الأرض ، فارتجفت باكارا منزعجة وقالت : هوذا المعدل قد نفذ فان الكونت قد قتل أندريا رسول إبليس على الأرض .

- ٤٣ -

إلا ان باكارا أخطأت بحسن ظننها بالعدالة . فان هذا الرجل الأثيم لم يقتل بل انه فر من القضاء قبل ان يضربه الضربة القاضية . واليك تفصيل الحديث :

إن أندريا والكونت أرتوف لم يفتها شيء مما جرى داخل الغرفة التي كانت فيها باكارا وقد سمعا كل شيء فكان أندريا ينظر تارة الى باب الغرفة التي يحميها الكونت أرتوف وينظر طوراً الى نافذة مفتوحة تشرف على الحديقة فخطر له ان يلقى بنفسه من هذه النافذة ، ولكنه لم يكن يستطيع الى ذلك سبيلاً لفرط عناية الكونت بمراقبته وما زال على هذه الحال الى ان فتحت باكارا الباب بذلك العنف الذي قدمناه ، فالتفت الكونت مدشغلاً بما سمع عن أندريا ، فهب أندريا الى النافذة بأسرع من لمح البصر والقي بنفسه منها الى أرض الحديقة فجئن الكونت أرتوف من يأسه وأطلق عليه نار مسدسه دون أن يعلم اذا كان أصابه او أخطأه .

وسمع سقوط جسمه على الأرض ثم تلاه سكوت حسب بعده ان الرصاصة قد أصابته وانه قد سقط قتيلًا .

أما باكارا فسانها زعرت زعراً شديداً ، وصاحت صيحة القناط :
العله نجا ؟

فقال لها الكونت : إذا كان قد نجا من الرصاص فهو قد قتل أثر سقوطه ،

لأنني لا أسمع له حساً

وعند ذلك أقبل الجميع على النافذة علمهم يرون شيئاً من آثاره ، فسمعوا صوت مشي أقدامه وعلموا انه فر ، فتراجعوا جميعهم الى القاعة فأخرجت باكارا من صدرها رسائل الفيروزة الى ليون وأطلعت عليها فرناند وهي تقول :
أتعرف هذا الخط ؟

فتبينه فرناند وقرأ جميع تلك الرسائل ، وعلم انه كان آلة بيد تلك الفتاة وانه مدين بشرفه وحياته وأمواله لباكارا ، وكذلك ليون فلأنهما لم يعد يعوزهما برهان على الجريمة . فجعلت عند ذلك باكارا تؤنبهما تأنيباً لطيفاً وتذكر كلا منهما بواجباته الزوجية الى غير ذلك من ضروب النصيح ، وهما بكادان يذوبان من الحجل والامتنان . فصرفتهما الى منزلها وهي تقول لهما . عودا الى ما كنتما فيه من الرغد والهناء وكونا مطمئنين مع نسائكما وبنسائكما فان الذي سيسهر على هنائكما ليس له بنون ، وليس في قلبه حب ولا يخطو خطوة إلا في سبيل خيركما .

فذهب الزوجان الى منزلها وقد نسيا ذلك الحب الشائن القديم وحملت الفيروزة الى مستشفى المجانين وعادت باكارا مع الكونت ارتوف الى منزلها وهي مشتتة البال قانطة الفؤاد لإفلات أندريا من قبضتها .

أما أندريا فانه عندما القى بنفسه من النافذة سقط على ارض كثيرة العشب فلم يصب بأذى ونهض فهرول مسرعاً الى باب الحديقة فألقاه مقفلاً ، فالتفت الى نوافذ المنزل ليرى من حركة أنواره إذا كانوا يطاردونه ، فرأى ان الأنوار لا تزال في قاعة الاستقبال وعلم انهم تيقنوا من فراره وقنطوا من لحاقه فتسلق جدار الحديقة وسقط منه الى الشارع ثم مشى قليلاً حتى لقي مركبة فركب فيها وذهب الى روكامبول .

وكانت علائم القنوط بادية في وجهه ، فلما رآه روكامبول ذعر وقال له :
ماذا دهاك ؟

- لقد فشلت وأنا قادم فاراً من الموت ولم يكن بيني وبينه إلا لحظة .
ثم أخبره بجميع ما كان من خسارته للعلميون بعد ان وصلا الى يده ،
وكيف ان فرناند قد نجا من الموت ، وليسون سلم من تبعة القتل ، إلى غير
ذلك مما عرفه القراء فأجفل روكامبول وقال له : العل باكارا قد
عرفت من أنت ؟

- لا أعلم . فإن هذه المرأة أصبحت لدي سرّاً من الأسرار والذي أراه أن
جميع مساعينا ستخفق بسببها اذا لم تسرع الى إهلاكها فإنها تصدى لنا في كل
سبيل وما راعي غير إنقاذها لفرناند .

فهز روكامبول رأسه وقال : أراك تأسف لنجاة فرناند فوق أسفك
لفقد ملايينه .

- هو الحق ما تقول ، إني أكرهه كرهاً شديداً لا أحفل بعده بالملايين .

- إنك رئيس جمعيتنا فلا حق لي ان أعترضك في أمر ، ولكفي لا أجد بداً
من القول انك قد تماديت في الرغبة بالانتقام حق إنك بت تأثيره على مصلحتنا
ولا أنكر ان الانتقام مسرة الآلهة ، غير أن الآلهة من أهل الخلود ولديهم
فسحة من الأجل يستطيعون معها بلوغ الانتقام وغيره من أغراض النفوس ،
خلافاً للإنسان ، فان مجال العمر لديه أقصر من ان يصرفه لغرض واحد ولقد
خلقت كوننا وربيت في أكتاف النعمة فلم تعد تكترث للمال ، أما أنا فلا
أكتملك ان اسمي ولقي عارية وإني لا أخدمك وأعرض نفسي للأخطار إلا
كي أظفر بغمم أعيش بعده آمناً شر الفقر ونكد الأيام . ولكننا لا نكاد
نظفر بغميمة حتى يعرض لنا انتقامك فنخيب فيها ، مثال ذلك ما جرى
مع فرناند ، فإنك لو لم تدخل ليون في روايته وتشركه في حب الفيروزة لما
تنبهت لنا باكارا .

وكان اندريا يصغي اليه حتى أتم حديثه فقال له ببرود : لقد طالما قلت
لك إنك لا تزال صبيلاً لا تدرك شيئاً من خفايا الصناعة ولا تصلح إلا ان تكون

آلة صماء .

فكبر هذا القول على روكامبول وقال كيف ذلك ؟

إنك لو تدبرت الأمر لعلمت ان جميع ما دبرته من المكائد لم يكن الغرض منه إلا المال أولاً ثم الانتقام ثانياً . أضرب لك مثلاً على ذلك نفس حادثة فرناند ، فإننا لا نستطيع سلبه المليونين إلا بتزوير الحوالات المزورة التي لا يمكن قبضها وهو في قيد الحياة لئلا يفتضح أمرها . وإذا كنت أنا وأنت لا نجراً على قتله فلم أجد بداً من إغواء مزاحم له في غرامه على هذا القتل أفأكون مخطئاً إذا وضعت الخنجر بيد ليون وجمعت بين المال والانتقام ؟ ثم انك لو تعمقت قليلاً لوجدت اننا نمثل الآن ثلاثة أدوار يبدو لك من بعضها ظواهر الانتقام المحض ، أما الغرض منها في الحقيقة فهو المال . أما الأول فهو دور فرناند ، وقد مضى البرهان عليه . وأما الثاني فهو دور الفتاة الهندية وهو مالي بحت . وأما الثالث فهو دور أخي أرمان فلاني لا أريد قتله والزواج بأرملته مجرد الانتقام والشغف بامرأته ، بل لأستأجر بملايينه من بعده . والآن فلاني أرجو ان تكتفي بما ذكرته لك من الأدلة ، ولنعد إلى حديث الأشغال .

فأطرق روكامبول واجماً وقال : ليكن ما تريد .

— لنبدأ بما كارا فلاني أصبحت أخافها وأرى انه لم يعد بد من قتلها .

— لنقتلها ولكن كيف تريد ان يكون هذا القتل بالخنجر أم بالخنق ؟

— لا هذا ولا ذاك إذ لا سبيل لنا اليها ، فان جميع خدمها مخلصون لها . وفوق ذلك فان قتلها وقتل المركيزة يلبيه أنظار الشرع بينما ، بل إننا نقتلها بالسلم الذي أحضرناه من البلاد الأميركية ، وهو سم غريب لا نعلم من خواصه سوى انه يميئ كسواء من السموم ، ولكنه يقتل بالشم وباللمس وبالذوق ، ومن غرائب أمره انه إذا شربه المرء أو شممه أو لمسه تحدث له على الفور نشأة كلنشأ السكر وينطلق لسانه بمكنونات قوادته ، فلا يكتف سرراً من أسرارته ثم

يفاجئته الموت العاجل دون ان تبدو عليه آثار التسمم .
- إنه فكر حسن ، ولكن كيف السبيل الى تسميم باكارا به ، وليس لنا اتصال بها ؟

- بواسطة شاروبيم ، ألم تقل لي انه يذهب اليها في كل ليلة ؟
- هو ذاك ، إن شاروبيم لا يروق له قتلها لأنه يخسر الرهان بموتها وما يطمع به من كسب الرهان .

- لكننا نضع في يده هذا السم دون ان يعلم ما يحمل وذلك انك تلبس في يديك قفارين من الجلد النخين وتضع على وجهك حجاباً من زجاج كي لا تلمس السم ولا تشمه ، ثم تأخذ قطرة من هذا السم وتضعها في زجاجة من العطر الفاخر . وبعد أن تحتّمها تدفعها الى شاروبيم وتقول له : خذ هذه الزجاجة واهدها الى باكارا فانها اذا تلشقت رائحتها المنعشة هاجت فيها عواطف الحنان وبلغت من حبها لك ما تريد فان لهذا العطر خاصية في إثارة العواطف النفسانية يدفعها الى الخنو .

فأظهر روكامبول سروره وقال : إنها خير طريقة للانتقام من باكارا والاطلاع على أسرارها .

- سأرسل لك السم بعد ساعة والآن فاصنع إلي كي أخبرك بما يجب صنعه بشأن الهندية .

وخلا به فاخطط له خطة هائلة سنقف على تفاصيلها في ما سيجيء .

- ٤٤ -

وفي اليوم التالي بينما كان شاروبيم مقيماً في منزله ، وردت عليه رسالة مكتوبة بخط نسائي فما شكك انها من باكارا ، وفتحها فاذا هي تدعوه الى

الحضور الى منزلها عند منتصف الليل غير انها لم توقع على الرسالة فلم يكثر ذلك وجعل يبني صروح الآمال ويعمل نفسه بكسب الرهان وقبض النصف مليون وفيما هو على ذلك إذ دخل عليه روكامبول وقال : أبشر فسنظفر بالخمسة ملايين وتأخذ النصيب الأوفر .

- كيف ذلك ؟

- إجلس على مائدة الكتابة واكتب ما أمليه عليك الى المركيزة .

فلم يسع شاروبيم الا الامتثال ، فأخذ القلم بيده ، وأملى عليه روكامبول ما يأتي :

» سيدتي

« أعلم إني لا أخطر لك في بال ، ولكنني أجسر على الكتابة اليك لأن ما التمسه منك يتعلق عليه نيعمي وحياتي فلا أخالك ترفضين طلبي ، وقد جبلت على اللطف ومكارم الأخلاق ، وأشبهت الملائكة في كل شيء . على اني أكتب اليك هذه السطور بيد تتجحف لأني تجرأت على الكتابة اليك ، كما تجرأت على ان أرفع عيني الى وجهك المشرق بنور الفضيلة والشرف .

« ولقد قلت ان هذا الكتاب تتعلق عليه حياتي ونيعمي على اني لا أريد بها نيعمي وحياتي خاصة ، فقد سئمت الحياة ويئست من كل نعيم بعد ان عولت على ان أهمي على وجهي ، ولكنني أريد بهما حياة ونعيم من لا نصير لهما في هذا العالم إلاي .

« وأنا مسافر غداً الى الهند سفرة لا أوبة بعدها ورجائي ان تمني علي بمقابلة أخبرك فيها بشأن هذه الأم المنكودة وعسى ألا أخيب » .

ولما فرغ شاروبيم من الكتابة قال : أتظن أن هذا الكتاب يقنعها ويحملها على مقابلتي ؟

- ذلك لا ريب فيه .

-- وماذا تريد ان أحدثها عن أمي وانا لا أم لي ؟

— لا يجب ان تحدثها عنها بشيء ، فان هذه المقابلة ستكون في منزل الأرملة
مالاسيس وهي تكون غائبة عن المنزل . فمضى قدميت المريضة تجشوا أمامها
وتكلمها بلهجة محب سعيد في غرامها منذ عهد بعيد ، وقد بلغ في حبها
أقصى ما يرجو ، الى غير ذلك من الأقوال الدالة على تمكن الحب بينكما .

فاعترض عليه شارويم وقال : كيف أستطيع ان اذكر أمامها مثل هذه
الأقوال فانها توقفني بنظرة عند حدي ؟
— إنها لا تجد وقتاً فسيحاً فانك عند اول جملة تقولها تخرج رصاصة من
مسدس المريكز فتخرق صدرها .

فأجفل شارويم وقال : العلك تطمئني بذلك ؟
— لا تخش فان رصاصة المريكز لا تخطيء وهو من مشاهير الرماة .
— ولكنه إذا قتلها فلا بد له من قتلي بعدها .

— كلا ، فلقد أقسم ان لا يقتل سوى امرأته وان لا يتعرض بسوء لسواها
إذا انه يرى ان الذنب في تلك الجرائم لا يجب ان تلقى تبعته إلا على المرأة فانها
لو أرادت صيانة نفسها لما تجرأ الرجل عليها .

فطاب خاطر شارويم واطمأن ثم جملاً يتنقلان بالحديث الى ان دفعه
روكامبول الى الحديث عن باكارا ، فأخبره عن الرسالة التي وردت اليه وأطلعته
عليها فقال له روكامبول . لا شك انها منها وإن تكن خالية من توقيعها وهو ما
يدل على انها تحبك حباً أكيداً

— لم يعد لدي ريب بحبها بعد ان أكرهتني على الرجوع عن الرهان ، فانها
أرادت بذلك ان تستبقني لحبها لي وان تستبقي الكونت الروسي لطمعها بأمواله
وهي لا تعلم اني جددت الرهان بالسرا ، إلا ان الذي يسوءني منها انها لا تزال
واقفة معي في مواقف المتردد .

— أنت واثق من انها تهواك ؟

لا ريب عندي ، ولكني أخشى ان يطول ترددها فينقضني الأجل

المفروض بيني وبين الكونت وأخسر الرهان ، وليس بعد خسارته كما تعلم ، سوى الموت .

فأخرج روكامبول زجاجة العطر المسموم من جيبه وقال : إني سأخدمك أجل خدمة ، فانظر الى هذه الزجاجة العطرية فان من يفض ختمها ويشم رائحة عطرها تهيج منه مكان الغرام ويندفع في القول الى ان يبوح بجميع ما في قواده من الأسرار . فخذها اليها فانها من العطور الشهيرة وستقبلها منك راضية شاكرة ، وقبل ان تدفعها اليها أخبر الكونت انك واثق من كسب الرهان ، فاتفق معه على ان يسمع حديثكما في غرفة مجاورة ، حق إذا خلوت بها وهو مختبئ ، يجواركما أعطيتها الزجاجة ، فتفضها وتشمها وعند ذلك تبوح لك بغرامها وسائر مكنونات صدرها فتبلغ منها ومن الكونت ما تريد . إنما يجب عليك ان تحذر من ان تشم ذلك العطر لئلا تحدث لك نشأته فتبوح بأسرارنا .

فسر شاروويم سروراً عظيماً لهذه الهدية النفيسة وأخذ الزجاجة من روكامبول شاكرأ ثم خرج الاثنان ينزهان في غابات بولونيا .

- ٤٥ -

ولما كان المساء ، ذهب شاروويم الى النادي الذي يقيم فيه الكونت الروسي ، فخلا به وقال له : أذكرك ، يا سيدي الكونت ، الرهان المفقود بيننا ؟
- أذكرك ولا أنساه .

- إنما أردت تذكيرك به لاعتقادي اني كسبته .
فقال له الكونت بسكينة : إني أهنتك بفوزك ، ولكفي لا أقنع

إلا بالبرهان .

- إذا كنت تعرف خط باكارا فاقرأ هذا الكتاب .

ثم أعطاه الرسالة التي وردت اليه في الصباح ، فأخذها الكونت وتلاها ثم ردها اليه وهو يقول : إنك مخطيء فليس الخط خطها .

- ربما كنت مخطئاً ولكن الرسالة اذا لم تكن من خطها فهي من إملائها . وفي كل حال فقد كسبت الرهان

فقال الكونت ان هذا البرهان غير كاف ولا يسعني الاقتناع إلا حين أسمعها تقول لك : أحبك .

فذكر شاروبيم ما أوصاه به روكامبول ، وقال له : إن هذا سهل ميسور وذلك انك تزورها في هذه الليلة ثم توهمها انك انصرفت ، وتعود فتختبئ في الغرفة المجاورة للقاعة أو المجاورة للغرفة التي تكون فيها ، وليس ذلك عليك بمزين فانك قادر على شراء الخدم بالمال ، فاذا قبلت بهذا الشرط فاحضر الليلة .

- رضيت وموعدا هذه الليلة .

- لا تنس ان تصحب معك المال

فأجابه باسمًا وسأصحب المسدس أيضاً

فالتحني شاروبيم مسلماً وقال : لقد أصبت فلا نعلم لمن يكون النصر .

ثم افترقا فدخل شاروبيم الى قاعة اللعب ، وذهب الكونت الى باكارا ثم اجتمع شاروبيم بروكامبول ، وأخبره بما جرى بينه وبين الكونت الروسي . وعند منتصف الليل ، وقد دنا موعد اجتماعه ببكارا برح النادي وذهب اليها .

وكانت باكارا قبل ذلك بساعة . مختلطة مع الكونت ارتوف ، فكانت تقول له : إني لم أكن أثق بالتنويم المغناطيسي فبات لي الآن به ثقة شديدة ، وذلك لأنني قد وقفت به على أسرار غريبة بفضل تلك الفتاة اليهودية التي القتها

الصدفة بين يدي . فإني علمت منها منذ خمسة ايام ان شاروبيم قد ذهب اليك وفارضك بأمر تجديد الرهان ، ولولاها ما تمكنت من إنقاذ ليون وفرناند ، الذي طالما أحببته . ولا بد ان تكون قد علمت الآن لماذا حكمت على شاروبيم منذ اول يوم لقيته فيه بأنه رجل خائن لا يستأهل الاشفاق . والآن فاني غير مستائة من هذا الرجل لأنه قد راحن علي فان ماضي حياتي يستوجب مثل هذه الاهانة إلا انني علمت من هذا التذويم انه يطارد امرأة شريفة وانه لا بد له من إعدامها إذا لم أقداركه ، إلا اني لا أعلم شيئاً من قصده وهو ما أذوب تلهفاً لمعرفته ولا بد من معرفته مهما كلفني الأمر .

— إطمئني فسنقف على حقيقة هذا السر .

— إن ذلك لا يتيسر لنا إلا اذا حملناه على شراء حياته .

هو الحق ما تقولين وسأرى في شأنه لكفي التمس منك إجابتي الى سؤال وهو ان تخبريني عن الرجل الذي نجا من قبضتنا امس .

فتنهدت باكارا وقالت إنه رسول جهنم على الأرض ، وعندى انه هو الذي يدير جميع هذه الفتن والدسائس . ولكفي لم أجد سبيلاً إلى إظهاره فانه يبالغ في الخفاء والتنكر الى حد يستحيل معه على الأبالسة نفسها أن تعرفه . وإنما كتتمت أمره لأنني لو بحث بسرّه لما صدقني اخوه ولا أحد من الناس فقد اشتهر بتوبته الساذبة ، وبالع بالظاهرة في التزهد والتعشف ، حتى بات يحسبه الجميع انه مثال التقوى والصلاح ، وما هو بالحقيقة غير شيطان بزي إنسان .

ثم جعلت تقص عليه جميع ما مر بنا من أحاديث أندريا في روايتنا الأولى الى ان أتت على ذكر جميع مكائده فدعر الكونت وقال : أنت واثقة من ان أسيرنا بالأمس كان هو بعينه ؟

— كل الثقة ، فانه يتنكر على جميع الناس دوني لأنني أعرفه من عينيه ولو بقي في قبضتنا أمس لذهبت به مكبلاً الى أخيه ، وجعلته يعترف أمامه

بتوبته الكاذبة .

- لا تياهي من الظفر به ، فان الأيام بيننا ولا بد لنا من القبض عليه متلبساً بجناية من الجنايات ، فنحمله على الاعتراف بجرائمه كرهاً ، ونزيح أخاه من مكروه .

وفياهما على ذلك إذ دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل، وكان الكونت قد أخبرها بما دار بينه وبين شاروبيم ، فدفعته الى الغرفة المجاورة وقد سمعت وقع أقدام شاروبيم على السلم وقالت : هوذا قد أتى . فاخترى الى أن نرى ما يكون؟

وبعد لحظة طرق الباب ودخل شاروبيم فتظاهرت باكارا بالاندهال لرؤياه وقالت باسمه . كيف تزورني دون اذني ؟

فاختلج فؤاد شاروبيم وخطر في باله ذلك الكتاب وقد خشي ان يكون الكونت قد زوره ليعيث به ويظفر بالرهان دونه . ولكنه تجلد ودنا باسمه من باكارا فقبل يدها وهو يقول العلي عصيت أوامرك ؟
- نعم ، ألم أقل لك أول امس اني لا أريد ان تزورني قبل ثلاثة أيام فكيف زررتي قبل انقضاء هذا الأجل ؟

فجلس شاروبيم أمامها وقال : ما أجلك بهذا التصنع والتكلف ؟
- أنا أنتكلف ؟

- نعم اليس هذا الكتاب منك ؟

فأخذت- باكارا الرسالة وقالت له بمنتهى السذاجة : ومن كتب اليك هذا الكتاب ؟
- أنت .

- كلا ، فاني لم أخط حرفاً منه .

- ولكنك أمليته

فلم ترد وابتسمت فكان ابتسامها نصف إقرار . فتنهّد شاروبيم تنهد الفرح

ووثق في الحال من كسب الرهان . وعند ذلك خطرت في باله زجاجة العطر التي أعطاه إياها روكامبول فأخرجها من جيبه وقال أسألك ان تأذني لي بتقديم هذه الهدية العطرية فانها من خير العطور النادرة .

فأخذتها باكارا وجعلت تقلبها بين يديها على نور المصباح ثم قالت له : ما عسى ان يكون هذا العطر ؟

— هو عطر هندي ذو رائحة عجيبة يندر وجود مثلها في هذه البلاد .

فدخل الربب باكارا في أمر هذا العطر وخشيت ان يكون ممنوماً بل انها تمادت في ظنونها وحسبته سماً زعافاً ، لأن خيال أندريا قد تمثل لها في تلك الساعة . ولكنها كتمت ما أوجسته ، ثم نهضت كأنها تحاول فتحها وجعلت تبحث عن آلة تفتحها بها ، فلم تجد فقالت : أأذن لي هنيئة ريثما أفتحها وأعود اليك .

ثم خرجت بها إلى حيث يختبئ الكونت فأومأت اليه بيدها ان يتبعها وذهبت به الى الغرفة التي كانت فيها الفتاة اليهودية . فأجلستها أمامها ونومتها التئويم المغناطيسي ثم قالت لها : إني آمرك ان تري من يوجد عندي في القاعة .

فقالت الفتاة لفرورها : يوجد فيها رجل ينتظرك

— من هو هذا الرجل ؟

— هو الذي يقيم في المنزل المجاور لمنزل الأرملة .

فعلت باكارا انها تريد به شارويم وعرضت عليها زجاجة العطر وقالت لها . من أعطاني هذه الزجاجة ؟

— هو .

— ما يوجد فيها ؟

فضغطت الفتاة على الزجاجة بيدها ثم أدنتها من جبهتها ولبشت هنيئة تتأمل ثم ردتها منذرة وهي تقول : إن فيها سماً قاتلاً

- أيقتل في الحال ؟

- كلا ، بل ان من يشربه او يشمه يصيبه ما يصيب السكرى فيبتدىء باباحة جميع أصراره ثم يجعل يهذو هذياناً شديداً ثم يموت شر ميتة بعد عذاب شديد .

فاكتفت باكارا بما سمعته ثم أيقظتها وقالت لها : إذهبي فنامي نومك الطبيعي .

وخرجت مع الكونت الى الغرفة التي كان مختبئاً فيها وقالت له : إبقى فيها على إحدرك وأنا داخلة الى هذا القاتل .

ودخلت الى شاروبيم ولكنها خبأت الزجاجاة في صدرها وجلست أمامه على كرسي وقالت له : إذن فقد خدعت وسقطت في الفخ .

وكانت تقول له هذا القول بلمحة المتهم ، وقد هرب الابتسام من شفطتها فاختلج فؤاد شاروبيم وسألها : أي فخ تعني ؟

- أريد به الرسالة التي قادتك الى هنا . إلا اذا كانت من مخترعائك .

- الست أنت اذن التي كتبتيها ؟

فقهرت ضاحكة وقالت لقد بلغت البلاءة منكم معشر الرجال انكم تحسبون ان نظرة واحدة منكم تكفي لافتتان النساء بكم .

- ولكنك ألم تأذني لي بزيارتك ؟

- أريد ان أكلحك بحرية وجلاء ؟

- لا أحب لذي من هذا .

- إذن فاسمع .. أعلم لماذا قبلتكم في منزلي بدلاً من ان أطردهم كما تستحق لتجراكم ومراهنكم علي كما يتراهنون على الجياد ؟ ذلك لاني كنت أعرف عنادكم وثقتكم من نفسك ، فعلمت انك مائت لا محالة فاذا أصررت على الرهان وأردت إنقاذك من الموت .. أنظر إلي أترى بين ملاحي ما يدل على الشر والتلذذ بقتل الناس ؟ . إن باكارا لا تطيق ان يقتل رجلاً من

أجلها ، ولهذا فقد أذنت لك ان تزورني وبالغت في ملاطفتك كي أحملك على الرجوع عن هذا الرهان الشائن الخطر ، فان الكونت ارتوف يقتلك دون إشفاق لو تم عقد هذا الرهان وكان الفائز فيه ، بل كان ينوب في قتلك عن العدالة ، فانك تجرأت على إهانة امرأة ليس لها أخ ولا أب ولا زوج يحميها .

فطاش رأس شاروويم مما سمع وقال : إذن فأنت لا تحبيني ؟ فضحكك ضحك الهازيء وقالت لا شك إنك مجنون .

ثم دفعت يده التي كانت يقدمها لها بأشد احتقار . وعند ذلك فتح باب الغرفة المجاورة وطلع منه الكونت ارتوف طلوع القضاة ، فكان كالصاعقة انقضت على رأس شاروويم فصاح صيحة القناط وجعل يتراجع منذعراً لمرآه حتى استند الى الجدار .

وكان بيد الكونت مسدس فمضى به الى شاروويم وقال له . اني يا سيدي قد أحضرت معي المال كما طلبت وأحضرت معه هذا المسدس فاستعد للموت حسب الاتفاق فانك لم تفز بقلب باكارا .

- ٤٦ -

قبل هذه الحادثة بساعة كان روكامبول في منزل دايي ناتا الهندية ، فلما رآته أقبل فرحت وقالت : لقد طال غيابكم حتى حسبت أنكم تخليتم عني وغادرتوني أموت بالسم الذي تجرعتة ، فانك تعلم انه لا يشفي من غير خاتم المركيز .

- إطمئني فسيكون هذا الخاتم لك غداً فاننا اذا لم نشفق على صباك أشفقنا على الملايين التي سنقبضها منك .

فاطمأن قلبها وقالت كيف يكون قتل المركيزة ؟
 - ستعلمين ذلك متى تم القتل وأصبحت زوجة لابن عمك والآن تفضلي
 بالجلوس إلى هذه المنضدة كي أملي عليك رسالة إلى ابن عمك المركيز وامثلت له
 وأملى عليها ما يأتي :

« أحضر الي أيها الصديق في الساعة السابعة من المساء لأخبرك بالأسف
 الشديد كيف اني وفيت بوعدتي ولأطلعك على الحقيقة التي تعلم منها صدق أقوالي
 السابقة بالبرهان وتعلم أين تجد الخائنين »

ثم وقعت على الرسالة ودفعتها الى روكامبول فقبل يدها وطمئنها وانصرف
 وذهب توأ إلى منزل الأرملة ملايس واسمقبله الخادم فانتير وهو من أعضاء
 العصابة وأدخله إلى الأرملة

ولم تكن الأرملة تعرفه من قبل ولكنها رآته مرة عند المركيزة في حفلة
 راقصة فأشارت اليه بالجلوس وهي تظهر استغرابها من هذه الزيارة . فأدرك
 روكامبول ذلك منها وقال لها : لا تعجبي لزيارتي في هذه الساعة المتأخرة بل
 اعلمي أن خادمك فانتير من رجالي وفي هذه الاشارة كفاية .

- نعم لقد خطر لي هذا الخاطر حين رأيتك .
 - إذن فأعلمني اني أتيت الان أسألك قضاء مهمة سيكون جزاؤك عن
 قضائها زواجك بالدوق .

فاختلجت الأرملة وعلمت ان المهمة خطيرة تعادل الجزاء ثم قالت اني
 مصفية اليك يا سيدي فقل ما تريد .

- أريد أن أملي عليك رسالة للمركيزة فان هوب .
 واستعدت الأرملة للكتابة وأملى عليها روكامبول ما يأتي :

« صديقي العزيزة

« ان شاروبيم يلح بأن يراك في هذا المساء فاحضري الى منزلي في الساعة
 الثامنة لتعزية هذا العاشق الغيور الذي يتسكلم منذ حين إلا بأحاديث السيوف

والمسدسات ولا يزال مصرأ على قتل زوجك
فوقفت الأرملة عن الكتابة وقالت ما هذا الذي تلميه علي .
- اكتبى وستعلمين كل شيء .

فامتثلت وعادت إلى الكتابة فأملى عليها روكامبول ما يأتي :
« في الساعة السابعة أبرح المنزل وأطلق سراح فانتير كي يخلو لكما الجو
فاحضري في الساعة الثامنة حسب العادة حيث تستقبلك خادمتي فاني وهي
تخبر بقدمك الأميركي الجميل . »

فلما انتهت الأرملة من كتابة هذه الرسالة قال لها روكامبول : وقعي عليها .
فكتبت اسمها في ذيلها وهي لا تفهم شيئاً من هذه الألفار ، فأخذها
روكامبول ووضعها في جيبه ثم قال لها لقد كان يسعك أن ترفضي مطالبنا
الآن لأن رفضك لها لم يكن يكلفني غير إبطال زواجك بالدوق ، أما الآن وقد
أصبحت لنا فلا بد لك من طاعتنا في جميع ما نريد فإن عصياننا لا يتوقف
عليه إبطال زواجك فقط بل حياتك .

واجفلت منزعرة قائلة : حياتي ؟
- نعم . . فإن المرء لا يعلم متى تأتي ساعته فقد تكونين خارجة في مركبتك
فتتكسر وتدوسك دواليبها ، وقد تكونين مارة على الطريق فيدهسك أحد
الفرسان وسوى ذلك من أسباب الموت التي لا تخطر للمرء في بال ولكنها قد
يتفق حدوثها لكل انسان .

وجعل العرق البارد يتصبب من جبهة الأرملة دون أن تجيب بحرف الى
أن قال لها روكامبول : لقد انقضى كل شيء وأظن انك تخلصين في طاعتنا .

... نعم ، سأطيعكم فيما تريدون .
وعند ذلك دار بينهما الحديث الآتي وقال روكامبول : أحببنا المركيزة
حبا شديداً ؟

... نعم ، لقد كانت من خير صديقاتي قبل اليوم وقد جعلتموها من أعدائي .

- حسناً فعلنا وذلك لخيرك ؟
- فانذهلت وقالت : كيف ذلك ؟
- ذلك لأبك إذا فقدتها يكون حزنك عليها ضعيفاً .
- كيف أفقدها العالها مسافرة ؟
- نعم . ولكن سفرها في طريق الموت
- وأجفلت الأرملة وقالت : رباه ماذا أسمع .
- لا بأس عليك واجلسي الآن لتتحدث فقد يزول عنك الرعب ..
- ولا نعلم ما دار بينهما الا انها عندما فارقها روكامبول شيعته بمظاهر الرضى
- وهي تقول : إلى اللقاء غداً في الساعة السادسة ثم دخلت إلى غرفتها ولبست
- ثيابها وركبت مركبة وذهبت مسرعة إلى منزل المركيزة .
- وكانت المركيزة وحدها في المنزل وذهلت لزيارة الأرملة ولاسيما حين رأت
- آثار الاضطراب بادية في وجهها الا ان الأرملة أدركت منها ذلك الاستغراب
- وقالت : اني ما أتيت في هذه الساعة المتأخرة إلا لفرط تأفري مما شاهدت فاني
- لا أطيق النظر الى الدموع .
- ومن الذي بكى أمامك العله الدوق ؟
- انه عاشق لا ريب فيه ولكنه لا يبكي فإن الشيوخ تنضب الدموع من
- عيونهم ولا يبكي الا الشبان .
- إذن فمن هذا الشاب ؟
- اصغي الي أيتها الصديقة فاني اتيته لالتمس منك إجراء عمل خيري .
- قولي ما تشائين لقد شغلت بالي .
- ان هذا الشاب الذي تكلمت عنه سيبرح فرنسا غداً ويفارقها فراقاً
- أبدياً بل فراق رجل قنط من الحياة وأراد ان ينسى أحزانه وأشجانه في البلاد
- الذائبة فأتى وانطرح على أقدامي .
- واختلج فؤاد المركيزة وعلمت انها تريد شاروبيم ولكنها لم تبت صامتة

فقالت الأرملة : انك قد علمت لا شك من هو الشاب الجسور والجبان في وقت واحد وهو رجل يحبك حباً شديداً منذ عهد بعيد ولكنه ما زال يكتّم هذا الحب في صدره حتى كاد يفتك به وقد تجرأ أخيراً فبأح لك بشيء من هذا الحب فأنذهلت المركيزة وقالت لها : أتعرفين هذا ؟

- نعم فلقد باح لي بكل شيء

فأطرقت المركيزة برأسها الى الأرض وعادت الأرملة فقالت : ان هذا الرجل التمس بل هذا الرجل القانط قد بعثني اليك الآن وغادرته يسكي بكاء الأطفال .

نظرت اليها المركيزة نظرة المستغرب وقالت : لا شك ان دموعه قد أثرت عليك تأثيراً شديداً حتى انك أتيت إلي بمثل هذه المهمة فلقد نسيت كما يظهر ان لي زوجاً وان كل نظرة او كلمة من رجل آخر تكون اهانة لهذا الزوج .

فاستدركت الأرملة وقالت لقد أسأت بي ظنك أيتها الصديقة فأني ما أتيت اليك من أجله بل من أجل امه ثم أخرجت من جيبها الكتاب الذي أملاه روكامبول على شاروبيم كما يذكر القراء وقالت لها اقرأي .

قرأته المركيزة وكانت تظهر ملامح التأثر بين وجهها حين تلاوته فلما أتمت قراءته قالت : ليكن ما تريدن وسأذهب غداً الى لقائه في منزلك ، فقبلتها الأرملة شاكرة وأقامت عندها هنيئة ثم انصرفت فلقبها روكامبول واخبرته ان المركيزة ستحضر في الأجل المضروب .

وفي اليوم الثاني وردت رسالة الهندية الى المركيز وهي الرسالة التي أملاها عليها روكامبول ومآلها انها تدعو المركيز اليها لاطلاعه على البرهان فعادت اليه الهواجس وحاول مراراً ان يدخل الى امرأته فيحملها بالكراه على الاقرار غير انه ذكر اليمين التي أقسمها لابنة عمه وهي ان لا يبوح لامرأته بشيء فرجع عن غيه وكانت الغيرة تنهشه وتعض فؤاده بأنياها حتى لم يعد يطق صبراً على احتمال حالته الشديدة .

وقد خطر له انه اذا ثبتت الجريمة على امرأته وقتلها يقتل نفسه أيضاً ثم تذكر انه اقسم لابنة عمه انه يتزوجها بعد قتل امرأته ولكنه قال في نفسه ، ان الموت يحمل من كل عهد فعزم على الانتحار الأكيد ودخل الى غرفته فكتب وصيته موصياً بجميع امواله للفقراء ، ثم ختمها ووضعها في درج ونادى أقدم الخدم عنده وقال له : يوجد في هذا الدرج أوراق مالية قيمتها ٥٠ الف فرنك وكتاب مختوم فاذا غبت عن باريس ار اذا مت فانك تأخذ المال لك وتأخذ الكتاب الى المسجل ولكني اسألك ان تكتم السر فاننا لا نعلم ما يكون .

ثم أعطاه مفتاح الدرج وانصرف ذاهباً الى ابنة عمه الهندية كي يسمع منها ذلك البرهان .

وكان روكامبول وفانتير خادماً الأرملة عند الهندية حين قدوم المركيز فلما علمت الهندية بقدمه قالت لروكامبول : هوذا المركيز قد قدم فهل نحن متأهبون لكل شيء ؟

— نعم ، استقبلي المركيز وأنا ذاهب فلا أعود اليك إلا في الساعة العاشرة وسيدبقى خادماً الأرملة عندك كي يدل المركيز على المنزل ، ثم تركها وانصرف فأمرت الهندية خادماً الأرملة ان يدخل المركيز الى قاعة الاستقبال فامتثل .

ولما دخل المركيز ذهل لما رأى ابنة عمه ولشعوب وجهها وكأنها علمت سبب انذهاله فقالت باسمه : ان ما تراه من الشعوب في وجهي هو من آثار السم فقد المركيز يده وأراها الخاتم في أصبعه وقال : اذا كنت قد قلت الحقيقة فان شفائك بهذا الخاتم .

— اني أؤيد قولي بالبرهان

فاقترب المركيز وقال : هاتي برهانك ان كنت صادقة !

— أتعرف ذلك الشاب الجميل الذي يلقب بشارويم لفرط جماله ؟

فاجفل المركيز وتذكر انه رآه مرة يلاطف امرأته في قصره وقال : نعم أعرفه .

- انه هو الذي أعنيه وان امرأتك لم تخنك إلا من أجل هواه .
 واشتد غضب المريكيز وقال : البرهان البرهان .
- انه يقيم في منزل مجاور لمنزل الأرملة ملايس صديقة امرأتك الحميمية ،
 وقد جرح مرة في مبارزة وكانت إمرأتك تزوره في كل يوم .
- واعاد المريكيز قوله بصوت يتهدج من الغضب : البرهان . البرهان .
 - أصبر ستعلم كل شيء فإن هذه الأرملة واقفة على سر العاشقين وان
 المريكيزة كانت تحسب انها في مأمن من انتشار هذا السر واصبر أيضاً فسأعطيك
 برهاناً آخر . ثم قرعت بجرس كان على الطاولة ، فدخل فانتير في الحال .
- وقالت الهندية للمريكيز حين دخوله : هوذا خادم الأرملة .
 ونظر المريكيز اليه نظرة احتقار وقال لابنة عمه . ما حاجتي بهذا الرجل ؟
 . انه الرجل الذي يخبرك بأنه رأى امرأتك عند الأرملة وانها كانت تجتمع
 في منزلها بشاروبيم ..
- فزاد احتقار المريكيز وقال ليس هذا بالبرهان ولا أقدانى اسماع شهادة
 خادم يتهم امرأتي .
- وابتسمت عند ذلك الهندية ابتسامة هائلة وأخرجت من صدرها رسالة ،
 وهي الرسالة التي أملاها روكامبول على الأرملة وخلاصتها ان الأرملة تدعو
 المريكيزة إلى الاسراع للقاء 'اروبيم الذي تمواه قبل أن تحمله الغيرة على
 الفتك بزوجها .
- ولما قرأها المريكيز قالت له الهندية أنتشكك بعد ذلك فيما أقول ؟
 - نعم .. لا اقتنع إلا إذا رأيت الاثنين مجتمعين .
- إذا اقتبع هذا الرجل إلى منزل الأرملة الآن تجد شاروبيم جانياً أمام
 امرأتك وقد خلا المنزل ولم يبق فيه سواهما .
- إذن لقد دنا زمن العقاب والانتقام .
- وصاحت الهندية عند ذلك متألمة من تأثير السم وقالت : اسرع أيها الحبيب

لإني سأموت .

فقام المركيز وأخرج الخاتم من أصبعه ودفعه إليها وهو يقول : إنك إذا كنت صادقة فهذا الخاتم ينقذك من الموت ، وإذا كنت كاذبة فلإني أعود إليك حيث تموتين بالخنجار لا بالسم . ثم أمر الخادم أن يسير أمامه وقال استغفر ربك على الطريق فلأنك إذا كنت كاذباً قتلتك على الأثر .

وخرج الاثنان وركبا مركبة وسارت بهما حتى بلغت منزل الأرملة وقاده الخادم الى غرفة الأرملة وخبأه فيها ولما خرج فانتير من الغرفة لقيته الخادمة فإني على بابها وقالت له على مسمع من المركيز وهي تتجاهل انه موجود في الغرفة أبق هنا إلى أن أعود فإني ذاهبة لإخبار شارويم بأن المركيزة آتية . فاضطرب وزالت كل ريبة لديه من كذب ابنة عمه وعزم على قتل امرأته وعشيقتها .

أما فانتير فإنه خرج مسرعاً وهو يقول في نفسه لقد قتت بواجباتي فلمية قتلها كما يشاء ، وبينما هو خارج لقي مركبة قد وقفت على الباب كأنها تنتظر أن تعود بصاحبها ميتة خارجة من عالم الأحياء .

- ٤٧ -

ولنعد الآن الى شارويم ، لقد تركناه في موقف تهلع له قلوب الجبابرة من الخوف وقد صوب الكونت مسدسه على رأسه وقال له : لقد خسرت الرهان ولا بد لك من الموت ، فجعل شارويم يرتجف من الخوف وينظر اليه نظرة المتوسل فقال الكونت : اني أمهلك ثلاث دقائق كي تستغفر الله وتستعد للموت .

وكان شارويم قد عاد اليه صوابه في هذه المهلة فقال : لا أنكر اني خسرت الرهان ولكن لا بد لي من ملاحظة أبيديها وهي أنه بدلاً من ان تقتلني وتعرض

نفسك لمعاقبة القوانين الفرنسية ، اقتلني تحت ظاهـر المبارزة وامام شاهدين
كما اتفقنا من قبل فتبلغ غرضك من قتلي دون أن يعاقبك الشرع ، وذلك أننا
نتبارز بغدارتين أحدهما محشوة وتكون لك والأخرى فارغة وتكون لي .
.. أية فائدة لك من ذلك إذا كنت مقتولاً في الحالتين ؟ أما أنا فلنني أرضى
أن أكون مسؤولاً لدى الشرع .

- ان فائدتي اني أريد أن أموت موت الأشراف في ساحة مبارزة لا
مقتولاً قتل المجرمين .
ولم يجبه لكن باكاراً ضحكك ضحكاً عالياً ثم قالت : انتكلم عن
الأشراف وأنت لا صلة بينك وبين الشرف .

فنظر إليها نظرة منكورة وقد علم انها هي التي قضت عليه بالموت وليس
الكونت ، اما باكاراً فلم تحفل به وقالت : ان الشريف لا يبارز سوى الشريف
وقد راهنك الكونت حين كان منخدعاً بك منذ أيام ، أما الآن فهو يعلم انك
عضو عامل في عصاة لصوص . ثم التفتت الى الكونت قائلة : أيها الصديق
أقتل هذا الأثيم فلأن قتله قد يسر المركيزة فان هوب .

ولما سمع شاروبيم لاسم المركيزة علم أن باكاراً واقفة على كل الدسيسة وصاح
قائلاً : رحماك انني التمس العفو .
أما الكونت فلأنه أخرج مسدسه من جيبه وقال : لقد انتهى زمن المهلة
اركع واستعد للموت .

فركع شاروبيم أمام قدمي الكونت وقسال وقد اصطكت أسنانه من
الخوف : رحماك يا سيدي الكونت واعف عني فما أنا الا خائن أثم وانني أستحق
ان تحقرني وتدوسني بقدميك فاحتقرني كما تشاء واصفح عن دمي فاني أفارق
هذه البلاد فراق الأبد . ثم جعل يبكي وينظر نظـر المستعطف المتوسل الى
الكونت والى باكاراً ، فدنت باكاراً عند ذلك منه وقالت : قل أتريد أن تعيش ؟
- انني أصنع لك جميع ما تريد ان اذا أبقيت على حياتي .

- إذن فإنك تستطيع أن تشتري حياتك بشرطين أحدهما أن تقول لنا أية علاقة لك بالمركيظة فان هوب .

فقال شاروبيم بفرح : نعم .. نعم اني أقول كل شيء على شرط أن تحميني منهم فإنهم يقتلونني دون ريب .

- من هم الذين يقتلونك ؟

- أعضاء الجمعية السرية ؟

فقالت باكارا : أعلم قبل كل شيء اني واقفة على جميع أسراركم فلا تكتم شيئاً ، وإذا أردت أن تعيش أحبك من هذه العصابة

- نعم يا سيدتي اني أقول كل شيء ، ثم اندفع في القول فباح بجميع ما عرفناه من علائق هذه الجمعية ومحل اجتماع أعضائها وأسماء أولئك الأعضاء وشدة خضوعهم لرئيس مجهول لا يعلم اسمه سوى روكامبول ثم باح لها بجميع ما عهد اليه أن يصنعه مع المركيظة فان هوب والفتح الذي نصب لها وحديث ملايين الهندية إلى غير ذلك مع جميع ما كان يعرفه .

ولما فرغ من كلامه قالت له باكارا : اني أعرف جميع ما ذكرت ولم يبق علي سوى معرفة اسم الرئيس ، ولا يمكن العفو عنك إلا إذا بحت بهذا الاسم فاستمخرط شاروبيم بالبكاء وقال : اني أقسم بالله العظيم اني لا أعرف اسم الرئيس ، وان الفيكونت دي روكامبول هو الذي يعرف كل شيء .

-- حسناً .. سنرى إذا كنت كاذباً .

ونفض شاروبيم وهو يحسب انه قد نجح فقالت له باكارا : انك لم تنج بعد فإنك لم تنفذ إلا الشرط الأول وقد بقي الشرط الثاني .

- اني مستعد لتنفيذ جميع ما تريدن .

فأخرجت باكارا زجاجة العطر من صدرها وقالت له : ماذا يوجد في هذه الزجاجة ؟

وكان شاروبيم يعلم من أمرها غير ما لقنه إياه روكامبول فقال لها : إنها

تتضمن عطاراً هندياً يهيج الأعصاب .

— أليس فيها سم ؟

— كلا .

— إذن أجربها بك ..

فقبل شاروبيم وهو لا يخطر له في بال أن اندريا قد ملأها من السم النقيع
بغية قتل باكارا .

وأعطته باكارا الزجاجاة وقالت : فض ختمها وتلشق منها إذا كنت
صادقاً ، فإني هياج الأعصاب لا يضر .

وامتثل شاروبيم وفتح الزجاجاة ثم جمل يتلشق رائحتها وهو لا يعلم أنه
يتلشق الموت ، ولما فرغ من ذلك قالت له باكارا : اجلس الآن هنا تحت
حراسة الكونت إلى أن أصدر لك أمراً جديداً فأني لا أستطيع إطلاق
سراحك لأني أخشى بعد أن بحث بأسرار العصابة بأن تخبرها بما أكرهت
على فعله .

ثم خرجت وهي تقول للكونت . احرص عليه أشد الحرص وبرحت منزلها
وركبت مركبة وقالت للسائق : اذهب بي إلى قصر المركيزة فان هوب .
وكان الليل قد انتصف فلما بلغت إلى القصر طلبت مقابلة المركيزة .

فقال لها أحد الخدم إنها نائمة يا سيدي .

— لا بأس أيقظوها فاني قدمت اليها لأمر خطير .

ولم يجد بداً من الامتثال وبعد هنية أمرت المركيزة بادخالها اليها .

ودار بينهما حديث طويل أطلعتها باكارا على جميع الدسيسة وعلى جميع ما
صنعت لانقاذها إلى آخر ما تعلمه من أسرار هذه المكيدة الهائلة .

واضطربت المركيزة وقالت لا بد أن يكون المركيز بأشد حالات القنوط

— لا بأس لأنه سيفرح غداً فاني قد ملكت جميع أعضاء هذه العصابة ولم

يبقى سوى واحد .

ثم مرت يدها على جبهتها كأنها ذكرت امرأ وقالت لها : يجب عليك طاعني في كل شيء إذا أردت السلامة لك ولزوجك ومعاينة أولئك الأشرار وأول ما ابدأ به هو اني اسألك أن تعطيني ذلك الخاتم الذي يلبسه زوجك كل يوم وهو الخاتم ذو الفص الأزرق .

— لماذا ؟

— انه سر لا أستطيع أن أبوح به الآن .

— انه يخلعه عادة كل ليلة قبل النوم ولكني إذا أخذته فلا بد له من طلبه

في الصباح .

— أليس له بين الخواتم الكثيرة خاتم يشبه هذا الخاتم .

— نعم .. اصبري إلى أن أبحث .

ثم تركتها وذهبت تبحث في صندوق المجوهرات الى أن عثرت بخاتم يشبهه أتم الشبه ، فدخلت الى غرفة ملابس الماركيز دون أن يشعر بها وأخذت ذلك الخاتم ووضعت مكانه الخاتم الذي يشبهه ثم عادت به إلى باكارا فأعطتها إياه .

فقالت لها باكارا بقي أمر واحد يا سيدتي وهو انه لا بد لك الآن من مغادرة هذا المنزل والذهاب معي إلى منزلي إلى أن اكشف تلك الأسرار في الغد . ودهشت الماركيزة وقالت : كيف أبرح منزلي في منتصف الليل وماذا عسى أن يقول الماركيز ؟

— ليقبل ما شاء فان حياتك في خطر وذلك أن الهندية لا بد أن تقول الماركيز بأنك ستقابلين شاروويم في الساعة الثامنة من مساء الغد .

— ولكني لا أذهب الى هذا اللقاء المشؤوم .

.. لقد أصبت ولكنك لم تعرفي بعد أخلاق الرجال فقد تهيج الفيرة في صدر زوجك فيقتلك قبل أن يقف على البرهان ثم يقتل نفسه كي يستريح .

وارتعدت الماركيزة وقالت اذن اني أذهب معك حيث تشائين .

ثم خرجتا وذهبتا الى منزل باكارا دون أن يشعر بهما أحد غير وصيفة

المركيزة، غير أن المركيزة كانت تثق بهذه الوصيفة فأمرتها أن لا تذكر أمام المركيز شيئاً من زيارة باكارا وأمرت الخادم مثل هذا الأمر قبل انصرافها وبينما كانت باكارا عند المركيزة ، كان السم قد أثر بشاروبيم فجعل يبوح للكونت أرتوف بجميع أسرار حياته وهو يضحك ويتعب شأن السكران ودام على ذلك مدة ساعة الى أن باح بجميع مكنونات فؤاده ثم استحال هذا الزهو والسرور الى انقباض شديد عقبه نزاع اليم وصراخ شديد ، فلما طال به الأمر حق سقط صريعاً على الأرض. فعلم الكونت ان الفتاة اليهودية قد صدقت بجميع ما قالت وان الزجاجة لم يكن عطرها غير سم هائل .

فلما عادت باكارا والمركيزة وعلمتا من الكونت ان شاروبيم قد مات من السم قالت باكارا للمركيزة إننا قد صفحنا عن حياته ولكن الله اراد أن يرميه بالفخ الذي كان يريد لي الموت فيه فلنستغفر الله . ثم ركعتا بالقرب منه وجعلتا تصليان عن نفس هذا الأثيم المنكود

- ٤٨ -

تركنا المركيز فان هوب في الغرفة التي خبأ فيها فانتير خادم الأرملة ، فأقام فيها متربصاً وبيده المسدس لقتل امرأته التي كان هائماً بحبها منذ اثني عشر عاماً ، فكان يحس بالعرق البارد ينصب من جبينه حين يسمع أقبل حركة بالقرب منه .

وقد خطر له لفرط ما أصابه من العذاب ، أن يقتل نفسه . ولكنه تراجع عن هذا القصد لاعتقاده انه يخدم امرأته وعشيقها أجل خدمة بانتحاره ، إذ تزوج به بعد موته فهاجت بصدرة الغيرة حق عول على قتل الاثنين .

ودقت الساعة الثامنة ، وهو الأجل المضروب ، ولم تحضر حتى فرغ صبره ، وعزم على الخروج من مخبأه فسمع ان الباب قد فتح ، ونظر من ثقب باب الغرفة التي هو فيها ، فرأى امرأة علم من ملابسها أنها خادمة المنزل .

وكانت هذه الخادمة فاني . وقد أدخلها أندريا في خدمة الأرملة لأنها كانت منخرطة في سلك العصابة . فجلست تلك الخادمة على كرسي بالقرب من باب الغرفة المختبئ فيها المركيز وجعلت تناجي نفسها بصوت يسمعه المركيز وبلهجة المتأففة المغضبة فتقول اف لهذه الخدمة ما أتعيبها وما أكثر مشاقها . فإنه اذا كانت هذه الأرملة تمتحن شر المهن فاني أمتن ايضاً أشدها تعباً ، وذلك لأنني اضطر ان أنتظر على الباب ساعة كل ليلة . وماذا علي الآن إذا ذهبت فان هذه المركيزة قد تعرف ان تدخل وحدها فقد كاد يقتلني البرد .

فأجفل المركيز وعض شفتيه من الغيظ ، لأنه علم أن سر امرأته بات مضطرب في فم خادم وخادمة فذهب من فؤاده كل حنوا لامراته وعزم على قتلها بفظاعة منكرة وفيما هو على ذلك فتح الباب ودخلت امرأة فقالت : هوذا المركيزة .

ولكنها ما لبثت أن رأتها حتى تراجعت منهذرة الى الوراء ، وكادت تسقط من الخوف .

ونظر المركيز من ثقب الباب وهو يحسب ان الداخلة كانت المركيزة ، فرأى انها امرأة حسناء ولكنها غير امرأته . أما تلك المرأة فانها كانت باكارا ، فلما دخلت الى الغرفة خلعت رداها الذي كانت متشحمة به ، وتقدمت من فاني وهي خادمتها القديمة التي خدعتها في المستشفى كما يذكر القراء في الرواية السابقة ، فقبضت على خناقها وضغطت حتى كادت تخنقها فصاحت صيحة شديدة من الألم فأفلتتها باكارا وقالت لها . إذا أردت النجاة

من الموت فاجلسي أمامي نتحدث
فجلست فاني وهي تضطرب من الخوف وقالت لها ماذا تريدان ؟
- أريد ان أحادثك فقول لي ماذا تعملين هنا ؟
- إني أنتظر سيديتي .
- كذبت فان سيدتك قد خرجت من المنزل وهي لا تعود اليه إلا في منتصف الليل .
فعلمت فاني انها واقفة على شيء من السر ، فقالت بسل إني أنتظر صديقة لسيديتي .
وقد دار بينهما الحديث الآتي فقالت باكارا :
- ومن هي هذه الصديقة ؟
فترددت فاني عن الجواب ، فأخذت باكارا خنجراً من صدرها وجردته من غمده ثم أدنته من الشمعة الموقدة حتى ظهر بريقه وقالت لها : أتعرفين هذا الخنجر ؟
وحاولت فاني ان تهرب ولكن باكارا قبضت عليها بيد من حديد وأجلستها في مكانها مكرهة ثم قالت قولي من هي هذه الصديقة ؟
- المريضة فان هوب
- إنتمهي جيداً الى ما ستجيبيني اليه فإني سأسألك كما يسأل القاضي المجرمين وحذار ان تكذبي بحرف .
فعلمت فاني انها تقتلها دون شك فقالت سليبي ما تشائين فإني اجيب .
- لقد قلت ان المريضة فان هوب هي صديقة لسيديتك .
- نعم .
- وهي ستجيء في هذا المساء ؟
-- نعم وقد كان حقها ان تحضر الآن
ماذا تأتي لتعمل في هذا المنزل إذا كانت سيدته غائبة عنه ؟

- إنها تأتي اليه لتجتمع فيه بشاب

- من هو هذا الشاب ؟

- هو شاروبيم

- لماذا تريد الاجتماع به ؟

- لأن المركيزة قد وصل اليها كتاب منه وقد أوصلت الأرملة ملاسييس هذا الكتاب اليها أمس .

- ماذا يتضمن هذا الكتاب ؟

- لا أعلم حقيقة فحواء غير ان الذي علمته ان شاروبيم يريد أن يهاجر فرنسا بحيث لا يعود اليها ، وهو يلتمس من المركيزة أن تقابله بحضور الأرملة.

فهزت باكارا الخنجر بيدها وقالت : أتحب المركيزة شاروبيم ؟

فأيقنت فاني من دلائل إنذارها انها واقفة على كل شيء وإنما إذا كذبت أقل كذبة تقتلها دون شك فأجابتها : كلا إنها لا تحبه .

- إذن فما الغرض من قدومها الى هذا المنزل ؟ ثم قالت لها : إحدري من الكذب فليس في هذا المنزل من يشاهدني . بحيث انك اذا كذبت أقتلك دون إشفاق .

- إذن فاعلمي الحقيقة وهي ان سيدتي الأرملة تخدع المركيزة لخدمة شاروبيم ولشاروبيم فائدة من إغواء المركيزة . غير انه لما كانت المركيزة امرأة شريفة فقد حسبوا ...

- من هم الذين حسبوا ؟

- مدام ملاسييس وخادمها فانتير وآخرون .

- قلت لك لا تكتمني أمراً فلا وقت لنا للتردد

ثم هزتها بيدها وأشهرت عليها الخنجر ، فارتفعت فساني وباحت لباكارا بجميع أسرار الدسييسة . إلى ان انتهت من كلامها فأشارت بيدها إلى

الغرفة المختبىء فيها المركيز ، وقالت لها : إن زوجها مختبئ الآن في هذه الغرفة .

وعند ذلك فتح باب الغرفة وبرز منه المركيز وهو أصفر الوجه والدموع تجول في عينيه فتقدمت منه باكرا وقالت له : إن الله يا سيدي أبى ان يعين أهل الشر والفساد ولقد سمعت كل شيء كما ظهر لي فما أنت في حاجة بعد إلى برهان على طهارة إمرأتك وعفافها ، على انك إذا أردت أيضا برهانا آخر إتبعني الى حيث انا ذاهبة .

- ٤٩ -

بينما كانت هذه الرواية تمثل في منزل الأرملة كانت رواية أخرى أبلغ منها في التأثير تمثل في منزل الهندية. وذلك انه عندما برح المركيز وفانتير منزلها شمرت الهندية بألم السم فأخذت الخاتم الذي أعطاها إياه المركيز ووضعت في كأس من الماء حتى إذا انحل الفص الذي فيه شربت مزيج الماء وشفيت من أعراض السم .

وقد وضعت الخاتم في الكأس وتشاغلت عنه عشر دقائق الى ان يتم المحال له ثم عادت ونظرت الى الكأس فرأت ان ماءها لم يتغير ، وان فص الخاتم لا يزال على حاله فخافت وخشيت أن يكون الحجر قد فقد تأثيره لانتقاله من بلاده الى بلاد غريبة أو لتقادم عهده . ولكنها لبثت تنتظره وهي محدقة بماء الكأس حتى مرت بها ساعة وهي في هذا الموقف الشديد دون ان يتغير الماء ، فأدركت انها مائتة لا محالة ونسيت المركيز وغرامها القديم لتعلقها بأهداب الحياة ، ومثل الموت لديها بأقبح الصور ، فصاحت صيحة شديدة وسقطت على مقعد بالقرب منها وقد هتت رجلها لفرط ما

أصاها من اليأس .

وعند ذلك فتح باب الغرفة التي كانت فيها ودخل منه رجل تصحبه امرأة مقنعة بهنناع كفيف .

وكان هذا الرجل الكونت ارتوف والتي تصحبه المركيزة ، فدهشت الهندية لمرآها أما الكونت فإنه مشى الى المنضدة التي كان عليها الكأس ونظر الى الخاتم فيها ثم التفت الى الهندية وقال لها اليس هذا الخاتم الذي وضعت في الكأس هو الذي تركه لك المركيز ؟

- نعم .

- اليس محلول حجره يشفي من السم الذي شربته ؟

- نعم .

- لقد أخطئت يا سيدتي . فان حجر هذا الخاتم لا تذيبه المياه ولا يشفي السموم فافه جوهره من الجواهر العادية أعطاك إياها المركيز وهو يحسبه انه ذلك الخاتم الذي أحضره من الهند غير انه أبدل بشبيهه وإذا أردت زيادة في البيان والتفصيل فسلي هذه السيدة تخبرك بكل شيء .

فرفعت المركيزة عند ذلك البرقع عن وجهها وكانت الهندية قد رأتها مرة حين قدومها الى باريس فطبعت صورتها في مخيلتها .

ولا يسع الكاتب وصف ما لقيته هذه الهندية من التأثير حين رأت عدوتها اللدودة . فانها نسيت موقعها الهائل وإنه لم يعد لها نجاه من الموت لاستبدال الخاتم بسواه ، ولم تذكر غير أمر واحد وهو ان هذه المركيزة التي كانت تحسبها في عداد الأموات لا تزال حية ، وانها ألت إليها كي ترى نزاعها الأخير وان الدسيسة لم تفلح ، وانها وقعت هي في الشرك الذي نصبته لسواها . فأتقنت عينها ، وخرج منها شرر الانتقام ، فقالت لعدوتها . إذن لا تزال حية ؟

فأجابتها المركيزة بلطف . إن الله قد أنقذني وقد أثبت اليك كي أغفر لك

يا سيدتي وأصفح عما أسأت به إلي .
فاضطربت الهندية وقالت : أنت تغفرين لي ؟ إني أؤثر كل الموت على هذا
الغفران . ولا شك ان زوجك قد غفر لك جريرتك ، أما أنا فاني أموت . ولا
أصفح عنك

ثم نظرت الى ما حولها تلتمس خنجرأ او آلة قاتلة فلم تجد فأطبقت يدها
منذرة وهجمت عليها تريد تمزيقها بأسنانها ، ولكنها لم تستطع ان تبلغ اليها
وهوت من تأثير السم وخرج الزبد من شديها .

فدنت منها المركيزة وقالت لها بلهجة حنو : إنك في حالة نزاع أتموتين هكذا
دون أن تستغفري الله ؟

فاشتد هياج الهندية الهندية وقالت : إني لا أعتقد إلا بسميها إله جهنم
ولا التمس منه الا ان يرسل ناره على رأسك ويحيط بك بأبالسته .

فلم تغضب المركيزة لكلامها وقالت لها : انك يا سيدتي في حالة شديدة ولا
تؤاخذين فيما تقولين ولكنك اذا كنت تحبين الحياة فقولني كلمة واحدة . قولي
انك رجعت عن بذضي والحق علي فتحيين .

فأجابتها بالشتائم والسباب وقالت : قبحت حياة تكون من عندك .
إلا ان المركيزة لبثت على سكونها ووداعتها فأخرجت من جيبها خاتم
المركيز الأصلي المحتوي على ترياق السم وقالت : هوذا شفاؤك في يدي وقد أتيت
لأنقذك من الموت .

وكان هذه الكلمات قد جذبت اليها آمال الحياة ، فحدقت بالمركيزة
تحديقاً طويلاً ثم ضحكت ضحكاً عالياً مؤثراً وقالت : إذن فلن الترياق
معك وحياتي بين يديك .

— نعم وأنا ما أتيت إلا لإنقاذك .

— لقد ذهبت مساعيك عبثاً فانصرفني في شأنك . . اني أؤثر الموت على حياة
تدب إلي منك لأنني أكرهك وأنفر منك نفور الظلمة من النور .

ثم أنت أنين المومع فخرج أنينها من صدرها كزئير السباع .
وعند ذلك فتح الباب ودخلت منه باكرا والمركيز ، فلما رأت الهندية
ابن عمها قالت له : ألعلك خفت واضطربت يدك . . فرجعت عن قتل
هذه الأثيمة ؟

فصاح بها المركيز : أسكتي أيتها الخائنة ، فإنها من الملائكة الأطهار وما
أنت إلا رسول جهنم على الأرض .

ثم رجع الى امرأته ، فركع أمامها وقال : إن هذه المرأة قد نمت
بك ، ووشيت عليك أقبح وشاية ، فاغفري لي إساءة ظني واغفري لها
فإنها ستموت .

فأكبت المركيزة عليه تعانقه باكية وهي تقول : لقد ظهرت براءتي وعلمت
الآن اني جديرة بحمل اسمك الشريف وقد صفحت عن هذه المسيئة الى واليك
فاصفح عنها انت ايضا وانقذها من الموت .

فنهض المركيز وقال : ليكن ما تريد

ثم أخذ منها الخاتم والقاه في كأس ماء وقال لابنة عمه : هوذا الترياق في
الماء فاذا أردت الحياة فالتمسي العفو من تلك المرأة الشريفة التي أردت تدنيسها
بوشاياتك .

- كلا ، لا أطلب عفواً ولا أريد مرحلة فالمرحمة الموت خير من الحياة .

ثم جعلت تنقلب على مقعدها وتئن من آلامها أنيناً موحشاً ، والجميع
ينظرون اليها مشفقين معجبين من هذا الحقد الدفين . الى ان زادت آلامها
عن حد احتمالها وجعلت تصيح صياحاً منكراً وتتلوى تلوى الأفغوان فعاد اليها
رشدها وتثلث لها لذة الحياة وضاق صبرها عن احتمال آلامها فقالت : هات
الكأس . . . أسقني الترياق

فأسرع المركيز اليها بالكأس وقال : هوذا الكأس . بقي ان
تسألها العفو .

فامتثلت صاغرة والتمست منها العفو ، ثم مدت يدها تريد أخذ الكأس ، فأسرعت باكارا واختطفته من يده وقالت : اذا كانت هذه الفتاة تريد الحياة فلتقل لنا أسماء شركائها بالجريمة الذين أرادت ان تدفع لهم الملايين الخمسة .

فقالت الهندية بصوت خافت من النزاع : انهما إثنان .

فقالت باكارا : اذكرني اسميهما .

— إن أحدهما يدعى الكونت روكامبول .

فاضطرب المركيز وذكر روكامبول وقال : ان هذا سيموت من يدي .

فقالت باكارا : اذكرني اسم الآخر . . اسم الزعيم .

فقالت الهندية ، وقد أطبقت عينيها وخفت صوتها : عرفته . . في فيوبورك .

-- اذكرني اسمه .

وكانت ترجو ان تذكر أمام جميع الحاضرين اسم السير فيليام فيفتضح أمره أمام الشهود وتبلغ منه في إقناع أخيه ما تريد .

ففتحت الهندية فيها لتتطرق باسمه ، غير ان صوتها اختنق . فمدت يدها الى الكأس دون ان تستطيع الكلام . فعادت باكارا الى الالحاح بذكر اسمه ومنعت عنها الكأس . فحاولت الهندية ان تذكر الاسم غير ان قواها خانتها فصرخت صرخة منكرة وانقلبت مائتة دون أن تتمكن من الاباحة باسم أذريا ، كأن إله الشر لا يزال باسطاً حمايته عليه .

- ٥٠ -

وبينا كانت الهندية يقطع السم أحشائها وقد عقدت آمالاً خائبة على خاتم

المركيز ، كان أندريا ملتفتاً بردائه وواقفاً في زاوية بالقرب من منزل الأرملة متربص ، فخرج الخادم فانتير ومر بالقرب منه دون أن يراه . فعلم أندريا ان المركيز يختبئ في الغرفة وجعل ينظر متوقفاً من حين الى حين أن يسمع دوي مسدس هذا الزوج الغيور .

فمرت الساعة الثامنة والنصف ثم التاسعة دون أن يسمع هذا الصوت الذي يكسبه خمسة ملايين . فخطر السوء في باله ، وأول ما تبادر الى ذهنه باكارا فصبر عدة دقائق أيضاً ثم عول على الدخول الى المنزل ، وذلك بعد ان خرجت منه باكارا والمركيز بزمان وجيز فدخل ولم يجد أحداً ، فجعل يحتاز من غرفة الى غرفة حتى بلغ الغرفة التي فيها فاني ، فوجد تلك الخادمة القديمة في خدمته جالسة على كرسي وهي قد وضعت رأسها بين يديها وأطرقت إطرانق من أصيب بخبط جليل ، ثم رأى خنجراً على مائدة بقرها فوجف فؤاده وأيقن أنه من آثار باكارا فأخذه ودنا من الخادمة فلما رآته فاني حسبت أنه آت لقتلها فانطرحت على قدميه تستجير منه به . أما أندريا فانه قبض على شعرها ووضع الخنجر على عنقها وقال : قولي أين شاروبيم ؟

- إنه لم يحضر .

- وباكارا ؟

- إنها ذهبت مع المركيز .

- إلى أين ؟

- إلى منزل الهندية .

فعلم أندريا انه فقد كل رجاء وان هذه الخادمة قد خانتها فطمعها بخنجره طعنة بلغت الى قلبها ثم غادرها مخضبة بدمها وانطلق وهو يقول : إذا نجوا جميعهم من قبضي فإن ارمان لا ينجو .

ومشى مشي المفكر المهموم ولكنه بدلاً من ان يفر من أعدائه ذهب للقاءهم فتزيا بزي قوته وانطلق الى منزل الهندية .

ويذكر القراء ان روكامبول برح منزل الهندية على ان يرجع اليها بعد ساعة فذهب الى النادي وأقام فيه ساعة وهو يحلم بالملايين الى ان حان الموعد المعين فخرج مسرعا عائداً الى منزل الهندية وهو يغني في طريقه غير مكترث بشيء حتى بلغ الى المنزل فدخل دخول الآمن المطمئن ومشى الى الغرفة المقيمة فيها الهندية فدخل وهو لا يخطر له في بال انه يجد فيها هذا الخليط من أعدائه فلما تجاوز عتبة الباب ورأى الهندية ميتة والمركز وامراته والكونت وماكارا يحيطون بها علم ان نجمه قد هوى فصاح صيحة المندعش وقالت باكارا : هوذا واحد منهما قد سقط في الشرك .

أما المركز فإنه دنا منه وقال : اني لا يصدني شيء عن قتلك الآن ولكني لا أريد قتلك إلا بمبارزة فانزل معي الى الحديقة .

غير أنه قبل ان يثوب روكامبول الى رشاده من هول ما رآه وقبل ان يتمكن من إجابة المركز فتح مصراع الباب بشدة وانقض رجل منهما انقضاض الصاعقة على روكامبول فطعنه بخنجره في صدره طعنة قوية القته على الأرض يتخبط بدمائه وقال ايها اللص اني اطارذك منذ شهر وكل ما عثرت بك تنجو مني ، أما الآن فقد قضي عليك وقضي على هذه الجمعية السرية الهائلة من بعدك إذ لم يعد لها رئيس .

وكان هذا الرجل القاتل المتلبس بالتوبة والصلاح اندريا ذلك الرجل الزاهد الناسك رئيس بوليس أخيه ارمان فلم يبق ريب لدى الحاضرين بصلاحه وصعقت باكارا لخلدائها ولما رأت من جرأة هذا الرجل الذي يعرف أن يبلغ النصر من طرق الفشل والخلدان وقالت في نفسها : لقد انتصر الشر على الخير ايضاً ، غير أن باكارا كانت تثق بالله وكان الله معها .

ندخل الآن في القسم الأخير من هذه الرواية الهائلة ولا بد لنا أن ندع بعض أشخاصها للاهتمام بأرمان دي كركاز فنقول :

بعد ثلاثة أشهر مضت على الحوادث المتقدمة كان رجل طريح الفراش في منزل صغير وأمامه امرأة عجوز تنظر اليه بحنو ، فنظر اليها العليل وقال لها :
بأي يوم نحن يا أماء ؟

- في الرابع عشر منه .

- أتعلمين اني طريح هذا الفراش منذ ثلاثة أشهر ؟

- نعم فإن نجاتك من الموت كانت من المعجائب الخارقة .

- إن الأبالسة قد أخذت بيدي فإن ساعتي لم تحن بعد ولكني لا أجد بداً من الخروج للتنزه فقد سئمت العيش في هذا الفراش .

- إن النزهة تفيدك يا بني ، ولكنك لا تستطيع الخروج قبل أن يحضر

الرئيس .

- تباً له من رئيس فلقد كاد يبعث بي الى الدنيا الآخرة ولكنه رجل نابغة وأنا أجد لذة في الامتثال له .

وكان هذا الشاب روكامبول بعينه وتلك العجوز التي يناديه بأمه لم تكن إلا مدام فيبار . وحكايته انه بعد ان طعمه اندريا تلك الطعنة الهائلة سقط على الأرض مغشياً عليه أمام الهندية المائتة ، ثم انصرف جميع من كان في غرفتها وهم الكونت الروسي وبكارا والمركيز والمركيزة واندريا كل في شأنه وخلا المكان للخدم فسرقوا كل ما عثروا عليه من أمتعة الهندية وحليها حتى أنهم جردوا روكامبول من ملابسه فسلبوها أيضاً وفروا بها .

وفي اليوم التالي اتصل الخبر برجال الحكومة ، فأقبلوا الى المنزل ورأوا الهندية مائتة والمنزل مسروقاً ، وروكامبول طريحاً بالقرب من الهندية وفيه

بقية رمق ، ففتشوا جيوبه علمهم يجدون بها ما يدل على اسمه ، فلم يجدوا شيئاً فحملوه الى المستشفى وهم يؤملون ان يعلموا حقيقة الأمر بعد ان يعود الى رشده .

غير ان الحقيقة بقيت مكتومة عنهم . فإن روكامبول حين عاد الى رشده اتصل به هذيان الحمى ، فكان كلما أتاه رجال التحقيق يجدونه في هذيانه فلا يعلمون منه أمراً . ولم يكن هذيان روكامبول طبيعياً بل انه كان يتكلفه تسكفاً كي يتنصل من رجال البوليس وذلك لأنه عندما صبحا من غشيانه جعل يتذكر ما مضى فذكر انه رأى الهندية مائنة وان أعدائه كلوا محيطين بهما . وإن رجلاً هجم عليه وطعنه بخنجر ، ولكنه لا يعرف من هو هذا الرجل ولم يعلم شيئاً سوى ذلك من سر هذه الحكاية ، وما كان من تقول الناس عنه بها الى ان سمع ممرضتين في المستشفى يتباحثان بشأنه وهما تحسبان انه نائم ، فكانت إحداها تقول للأخرى لا أخال رجال التحقيق يقفون على شيء من أمر هذا الجريح فإنه أصبح دائم الهذيان .

فأدرك روكامبول ان البوليس يترقب ان يصحو كي يستنطقه ويقف على الحقيقة منه فجعل عند ذلك يتكلف الهذيان تسكفاً حذراً من البوليس وهو يتوقع ان يأتيه الفرج من باب يحمله

وطال به العهد حتى يش الأطباء من شفائه وقنط رجال البوليس من استنطاقه الى أن أتت يوماً امرأة عجوز الى المستشفى ، وادعت ان الجريح ولدها فأدخلوها اليه ، وكانت هذه العجوز مدام فيبار . فلما دخلت اليه وضغطت على يده وقالت له وهي تعانقه باللغة المتعارفة بينهما : إحذر من ان تخالفني فيما أقول .

فطن روكامبول للامر وجعل يكلمها بلهجة الولد وتكلمه بلهجة الأم .

واتصل الأمر بالبوليس فأقبل يسأل تلك الأم عن هذا الولد فلفقت لهم حديثاً طويلاً مآله ان ولدها كان خادماً في أحد القصور في الهند ثم اتصل

بفتاة هندية فشغفت به شغفاً شديداً ، وكانت تغار عليه غير عجيبة وتتهمه
تهماً باطلة وتخاصمه في كل يوم ثم يصطلحان ، فما كان يسمعه إلا الامتنان لها
لفرط ثروتها إلى ان قالت : وكان آخر عهدي به انه كان مع هذه الهندية
في باريس وقد قرأت في إحدى الجرائد ان فتاة هندية وجدت ميتة في منزلها
ووجد شاب جريح أمامها فما زلت أبحث عنه حتى علمت انه في هذا المستشفى
فأتيت اليه .

فصدقها رجال البوليس لما رأوه من انطباق قصتها على قضية الفتاة ثم حملته
من المستشفى الى منزلها وأقامته فيه .

وقد عرف القراء من حديث روكامبول مع مدام فيبار انها كانت تلتظر
قدوم اندريا فلم تزل بانتظاره حتى قدم اندريا الى منزلها وكانت المرة
الأولى التي رآه بها روكامبول فدار بينهما عتاب طويل تنصل منه أندريا
وكانت حجته في طعنته النجلاء أنه رآه محاطاً بأعدائه وانهم لا بد لهم من
قتله فسبقهم اليه وهو يرجو بذلك أمرين أحدهما أن لا تكون الطعنة قاضية
عليه وثانيهما انه اذا لم يكن له بد من الموت فخير لأندريا ان يموت من يده كي
تنقي عنه تهمة الاشتراك بالجريمة لكي يفيد الشركة في مماته كما كان يفيد في حياته
أما إذا قتله أعداؤه فإنه لا يفيد ولا يستفيد .

فاقتنع روكامبول او تظاهر بالاعتناع ، فأطلق اندريا سراح مدام فيبار
وأقام مع تلميذه يضع له خطة جديدة شراً من الأولى للفتك بأخيه الكونت
أرمان دي كركار ، فبدأ روكامبول يشكو من حارة البيت المقيم فيه ،
فقال له أندريا : يجب عليك الشكر ، فإن هذا البيت الحقيق أخفاك عن
عيون باكارا .

وكأن اسم هذه المرأة قد أثار العواصف في فؤاده ، فلمعت عينه بشعاع من
الحقد وقال : إنها قد انتصرت علي ولكننا لا نزال في بدء المعترك وحقيقة الغلبة
لا تكون إلا لمن يفوز الفوز الأخير .

- لا شك عندي بفوزك إنما لا بد لك من الاعتراف بأننا فقدنا سبعة ملايين
أي ملايين الهندية وفرناند
- نعم ولكننا سنغنم ضعفها .
- إن هذا محال وليس كسب الملايين بالأمر السهل الميسور .

فلم يتدان أندريا لجوابه بل قال : إنك كنت كونتاً أسوجياً ففقدته أتحب
الآن ان تعود الى مثل هذه الألقاب ؟
فابتسم روكامبول وقال الحق اني تعودت على القاب الشرف فلم يعد لي
لذة إلا بها .

- إذن فلاني أمنحك لقب مركيز برازيلي وهو أفضل من لقبك القديم
إذ لا بد لك من الترقى لإخلاصك فأنت تدعى منذ اليوم دوق ايليجو والمركيز
دي لوس مونتس وانك من أسرة عريقة في النسب مقيمة في البرازيل منذ مائة
عام ثم انك أسباني الأصل وقد خسر أجدادك ثروتهم في اسبانيا ونال أبوك ثروة
نادرة في البرازيل بتجارة المواشي وأنت آت الآن الى باريس لتنفق فيها
شيئاً مما جمعه أبوك من الملايين .

- لقد رضيت ولكنك اذا منحتني اللقب فكيف لك ان تمنحني المال ونحن
قد أنفقنا النصف مليون الذي قبضناه من الهندية .
- كن آمناً . إذا نفدت ثروتنا فإن ثروة أخي الكونت لم تنضب بعد .

كيف ذلك أطلب اليه أن يمدك بالمال ؟
- كلا، ولكنه أعطاني أمس مائة ألف فرنك كي أنفق منها في سبيل مقاومة
الشُرور ومساعدة البائسين .

فضحك روكامبول وقال من هم أولئك البائسون ؟
- نحن وهذا المال يكفيننا ثلاثة أشهر اذا اننا ننفقه باقتصاد فلا نشترى
المنازل والأثاث حسب عادتنا بل نستأجرها وبدلاً من ان نقيم في قصر خاص
فإنك تقيم في فندق عظيم شأن كبار النزلاء وسأجد لك خادماً اسود يكون من

أتباعك أي اني سأصبح فانتير فقد أخرجته من خدمة الأرملة ملاسيس ثم اني سأحصل على كتاب توصية بك لأخي العزيز الكونت أرمان كي تستطيع الدخول الى منزله متى شئت بما ينبغي لمقامك من الإكرام لأن جميع أعمالنا ستكون في منزله وسنخصص عنايتنا به دون سواه .

وسر روكامبول بهذا المشروع الجديد وقال : لقد أحسنت غاية الاحسان بهذا الشخص .

- أتعلمت ضربة السيف التي أمرتك أن تتمررن عليها ؟

- أتم التمرين ..

- اذهب وتأهب للسفر في الساعة العاشرة الى الهافر وأقم فيها الى أن

تصل اليك أوامري .

ثم أعطاه ما يلزمه من المال لهذا السفر فقبضه روكامبول وقال له : بقي أن تقول لي مقدار حصتي من الغنيمة متى قتلت أخاك الكونت ووصلت اليك أمواله ؟

- اني أملكك ايراداً سنوياً قدره ٤٠ ألف فرنك وجواز سفر للبلاد

الأميركية .

- كيف ذلك أفتارقني متى استغنيت عني ؟

- نعم لقد عولت متى ورثت أخي أن أرث منه كل ما لديه من المال

وامرأة وولد حتى عزمت على أن أرث أيضاً طباعه فأصبح من رجال الخير ،

ومتى أصبحت صالحاً فأية حاجة لي بلص مثلك ؟

فضحك الاثنان ثم افترقا فذهب اندريا الى منزل أخيه وتزيا روكامبول

بزي فقراء العمال وسار الى الهافر كما أمره أندريا

بعد ثمانية أيام مرت على سفر روكامبول عاد الى باريس راكباً مركبة بديةة وقد غير ملاحظه فأصبح لون وجهه كلون النعاس وكان جالساً وراء مركبته عبد أسود لم يكن الا فانتير ، فوقفت المركبة على باب أحسن فندق في باريس ، وأسرع فانتير ونادى الخدم باللغة الاسبانية ، وأمرهم أن يحملوا أمتعة سيده الى خير مكان من الفندق .

أما روكامبول فكان أول ما اهتم له انه نادى وكيل الفندق وطلب اليه أن يرسل رسالة اعطاه اياها الى الكونت أرمان دي كركاز وهذا نص الرسالة « سيدي الكونت

» أسألك المعذرة للخطئة التي سأسلكها بازائك لأنني لا أعلم اذا كانت تنطبق على المصطلحات الفرنسية ، لقد أتيت من البرازيل الى باريس كي اقيم فيها بضعة اشهر واعطاني صرافي في ريو دي جانيرو حوالات على عميله في الهافر وهو المسيو اربان مورتونت ، فأخبرت هذا العميل اني لم أعرف أحداً في فرنسا فأعطاني كتاب توصية اليك .

» وقد وصلت يا سيدي الكونت الى باريس منذ ساعة فتجرات على الكتابة اليك ملتماً أن تؤذن لي بزيارتك كي أسلمك هذا الكتاب «
« المركيز دون اينيجو دي لوس مونتس »

فذهب الرجل بكتاب روكامبول الى ارمان وبعد ساعة أقبل أندرياموفداً من قبل أخيه للسلام على هذا المركيز والأتيان به اليه ثم أخذه وسار به الى قصر ارمان .

ولما كانا على الطريق جعل أندريا يتأمل تلميذه ويعجب بحسن اتقانه

التقليد فقال له كأنك قد خلقت أميراً فانك لا تفرق في ملاحك عن الأمراء .

فأجابه روكامبول : ذلك لأنني تخرجت في مدرستك .

— وما يسرني منك انك أتقنت تقليد أهل البراريل بحيث تجوز الحيلة على ارمان اذ لا يوجد اقل شبه بينك الآن وبينك حين كنت تدعى الكونت كامبول .

— نعم الا اني اخشى ان تعرفني باكارا اذا رأني .

— لا خوف علينا منها بعد الآن وقد باتت تعد في مصاف القديسين .

— أوافق أنت من ذلك ، ثم اذا كنت واثقاً فهل غفرت لها .

فضحك أندريا ضحك الساخر وقال : كيف اغفر لمن خسرت بسببها سبعة ملايين ، واثني عشر مليوناً أخرى

— اذن فما اعددت لها من العقاب ؟

— اعددت لها عقاباً لا يخطر في بال انسان وسأخبرك عن جميع ذلك متى حان وقت الانتقام ، اما الآن فلا يستطيع التفكير الا بأرمان فهل انت واثق من نفسك انك اتقنت ضربة السيف التي امرتك بتعلمها .

— كل الثقة ولكني معجب لأمر وهو انك تعرفني بأخيك وتصادقني معه

ثم تأمرني بقتله فلماذا هذه الصداقة اذا كان لا بد بعدها من القتل ؟

ولم يتدان أندريا الى مجاوبته على ما سأل بل قال : اعلم يا حضرة الماركيز انك شاب جميل ويحول في عروقلك الدم الاسباني اي انك كثير الشهوات ، ثم ان امرأة ارمان دي كركاز شقراء جميلة ، ولا بد اذن للماركيز دي انجو من ان يحب الكونتس دي كركاز ، ثم يجب على هذا الماركيز ان يكون نذلاً خسيساً جسوراً مقداماً لا يحفل بفضائل النساء ولا يكثر لشرف الأرواح ، ويتحتم عليه ان يظهر غرامه لتلك الحسناء .

فأجفل روكامبول وقال : ماذا اسمع وكيف تغريبي على حب الكونتس

امرأة اخيك وأنت مشغوف بها كما تقول ؟

فتنهذ اندريا وقال انك لا تزال غراً أبله ، افلا تعلم ان القصد من ذلك ان اتدخل في الأمر وبارزك فأكون قد دافعت عن شرف امرأة اخي بدمي فيجمل صنمي لدى اخي ولدي امرأته وابلغ منها بعض ما اريد . فقال روكامبول وكيف اذن تريد ان اقتل اخاك ؟

- انه لا يعلم بأنني بارزتك من اجل امرأته الا بعد حين وعندما يعلم ذلك فهو لا يقابلك الا بالحسام .

وأطرق روكامبول رأسه الى الأرض وقال : لقد اصبت فاني قصير النظر في الأمور والحق انك من النوابغ .

وعند ذلك وصلا الى قصر ارمان فنزلا من المركبة ودخلا اليه .

- ٥٣ -

ولنعد الآن الى باكارا والكونت ارتوف فنقول انه بعد حادث الهندية خلت باكارا بالكونت في منزلها وقالت له : انك تعلم الآن حقيقة ما كنت اسعى اليه ، فلقد اخبرتك كل شيء ولذلك بقيت وحدك غير واثق من توبه اندريا دون الجميع .

- ذلك لأنهم لم يروا ما رأيت ولم يعلموا ما علمت من امره .

- نعم فان حراً هذا الرجل لا تقف عند حد وبعد ان قبضت على رفيقه وأوشكت ان اظفر به واحمله على الاقرار باسم رئيسه الأثم خرج اليه فقتله كي يأمن اقراره ويظهر للمحاضرين بمظاهر الصلاح . اما سمعته حين اقبل يعاتبني بعد تلك الطعنة لأنني اردت مطاردة الجمعية السرية وحدي دون ان اعتمد عليه ؟

فقال الكونت : اننا اخطأنا منذ البدء فقد كان يجب علي ان اقتله حين

ظفرنا به المرة الأولى .

- نعم .. كنا منعناه عن ارتكاب آثام جديدة .
- التحسين أنه يعود إلى الشر بعدما لقيه من أخطاره ؟
- انه فطر عليه وان مر يوم لا يرتكب فيه إثماً لا يعده من أيامه . ثم أن هذا الرجل لا يكثر المال ولكنه ظمآن للانتقام من أخيه .

-- التحسين انه يقتله ؟

- يطمع بأكثر من حياته فانه يريد ثروته وامراته وولده كما فعل أبوه من قبل بأبيه وفوق هذا فانه لا يطيب له خاطر الا بقتلي فقد كشفت دسائسه وحبطت مساعيه مرات كثيرة فهو لا يغفر لي .

- إذن يجب أن يموت .

- فابتسمت باكارا وقالت . انك رجل شريف غير انه لا سبيل لنا الى قتله الآن وأخص ما يجب أن أسمى اليه أن ادعه يثق بي ويحسبني واثقة من إخلاصه في توبته وهو ما سأظفر به بعد ساعة
- كيف ذلك ؟

- ذلك انه سيزورني الآن كما أخبرني في رسالة بعثها الي ولا أعلم القصد من هذه الزيارة سوى اني أظن انه يريد سبر غوري للوقوف على حقيقة ظني به وسيلقي كفوؤاً له في السياسة فاني سأدعه يخرج مقتنماً بوثوقي من توبته وهو سيحضر قريباً فاخترى في هذه الغرفة المجاورة حيث تسمع كل ما يدور بيننا من الحديث

ولم تكذب كلامها حتى دخلت الخادمة تخبرها بقدوم أندريا فأمرتها بادخاله وأسرع الكونت الى الاختباء

ودخل أندريا وكان بلباس التوبة فجلس بالقرب من باكارا ودار بينهما الحديث الآتي فقال أندريا :

- اني أتيت يا سيدتي لباحثك في أمور خطيرة .

— قل ما تشاء يا سيدي فاني مصغية اليك

— لا بد لي قبل أن أذكر شيئاً من سابق احوالي وأحوالك فلقد كنت من بنات الهوى ثم ارتجعت عن هذا العيش الذميم وعشت عيشة صلاح ، ولقد كنت أشعر منك فاني كنت لصاً قاتلاً سفاكاً الا اني عدت أيضاً بالهام من الله مثلك الى التوبة ، ولكني رأيت بين الناس من لم يثق بتوبتي ومنهم أنت ، وذلك انه بينما عهد الي أخي ارمان مطاردة تلك الجمعية السرية الهائلة رأيت من ملامح وجهك ما استدلت منه انك غير واثقة بصدق توبتي .

فأطرقت باكارا بعينيهما إلى الأرض إطراف النادم وقالت : انني اعترف بصحة ما تقول .

— ولقد أوتيت بي شكوكك الا انني حسبته عقاباً لي من الله وعلمت انه جل جلاله لم يغفر لي بعد ومن يعلم فلقد يكون جال في ظنك ايضاً انني واحد من رجال تلك العصابة الشريرة .

هو ما تقول يا سيدي الفيكونت فلقد ظننت هذا الظن .
ولهذا فلقد طاردت رجال العصابة كما كنت أطاردهم دون ان تشركيني بشيء والغريب اننا وصلنا إلى غاية واحدة دون أن أعرف الطريق التي سلكتها فيها .

— أتريد يا سيدي ان اعترف لك بكل شيء ؟
— تكلمي .

— انك قتلت أمس بخنجرك ذلك الرجل في منزل الهندية فكان خير برهان للحاضرين على صدق توبتك الا انني لا أزال على ريب منك والتمس منك ان تزيل مني هذا الريب ببرهان دامغ فانه يثقل علي .

— ان ظنونك هي يد الله التي تعاقبني على آثامي السابقة فأنا لا أحاول اقناعك بل انحني صائراً امام هذه اليد المنتقمة ولا أهرب من عقاب الله .
فتظاهرت باكارا بالتأثر الشديد وقالت رباه ، ماذا أسمع فانك إذا كنت

صادقاً فيما تقول فان الندم على سوء ظني بك سيقتلني لا محالة .
ففرح اندريا فرحاً شديداً دون أن يظهر عليه شيء من آثاره وقال لها
إذا حلفتك يميناً أتبرين باليمين ؟

— اني أبر بيمينتي ولو حلفتها للمص اثم .
إذن فاقسمي لي انك لا تبوحين بالسر الذي سأؤمنك عليه .
. أقسم لك اني لا أبوح بسر .
— اذن فأبحثني في أعماق قلبك الذي نفذت اليه مدة اشعة الغرام الصحيح
تعالين حقيقة السبب في توبي .

— ماذا اسمع الملك أصبحت من العاشقين ؟
نعم فاني بعد ان فقدت جميع آمالي السابقة شعرت ان قلبي الحجري
يحب واني أحب تلك المرأة التي أردت تدنيسها حب احترام لا حد له
ثم أطرق برأسه وقال : هذه المرأة هي امرأة اخي ارمان .
فصاحت باكارا صيحة الندم وقالت : أسألك العفو فلقد زالت الآن
ظنوني .

ثم ركعت امامه تستغفر عما اساءت اليه من قبل ، ونظر اليها اندريا فرأى
دمعة تسيل على خدها فلم يشكك بحسن اعتقادها فتسكف هيئة المنقبض الحزين
وقال : لقد علمت الان متاعب هذا الوحش الضاري الذي كاد يفترس الفتاة
الوحيدة التي احبها ومقدار ندامته بعد التوبة .

فتنهدت باكارا ومدت يدها اليه وهي تقول : نعم لقد عرفت كل شيء
وبقي أن اظهر لك برهاني ايضاً عن ثقي بتوبتك .

ثم أخرجت مسدساً من جيبها وقالت : انك عندما ارسلت لي كتابك في
هذا الصباح تخبرني فيه انك تريد زيارتي كنت لا أزال مشككة بك
وحسبت انك تريد قتلي فتسلحت بهذا السلاح للدفاع عن نفسي والآن فاني
ادفعه اليك دلالة على ثقي بتوبتك وحسن ظني بك .

فرجع اندريا بدوره امامها وشكرها شكراً بالغاً ، ثم بكى امامها وأسال من عينيه نفس الدمع الكاذب الذي اسالته باكارا من قبل .
ولم يكن حائراً بين الداهيتين غير الكونت ارتوف فانه لم يكن يعلم أيهما أشد في هذه الحرب الشديدة التي كان سلاحها السياسة ولم يعلم أيهما أقنع الآخر أما باكارا فانها انقضت اندريا وقالت له : لنبحث الآن بالأمور الحدية فقد وثق كلانا بالآخر ، ولنعد إلى ذكر الحادثة فانك طعنت الرجل الذي كان يدعى الكونت كامبول بمخبرك ولكنه لم يت بل نقل الى المستشفى .

- اني أعرف ذلك ولكن حياته وعقله في خطر .
- هو ذاك ولكنه في عنفوان الشباب فقد يتغلب صباه ويشفى مما هو فيه وعندي ان لهذا الأثم شريكاً بل شركاء في آثامه وانه يجب ان نحمله على الاقرار باسماء شركائه .

- اني أرى رأيك ولا بد لي من مطاردته أين ذهب فان بوليسي رابض على ابواب المستشفى وجواسيسي في داخله يقيمون عليه كل كلمة يقولها فلا تخفى خافية من أمره .
- وأنا سأفعل فعملك .

ثم اتفق الاثنان على ذلك وافترقا فخرج اندريا وهو يعتقد انه خدع باكارا او انه بات في مأمن منها لوثوقها من توبته .

ولما اجتمع الكونت ببكارا قال : لقد عجبت بجميع ما فعلته انما اشكل عليّ أمر لم أعلم قصدك منه .
- ما هو ؟

- كيف خابرتة بشأن الجريح وكيف عهدت اليه مراقبته ونحن نسمى للقبض عليه وابعاده عنه لأنه شريكه ؟

- أني خابرتة بشأنه كي تزيد ثقته بي وعهدت اليه مراقبته كي يعودا إلى الاجتماع وكيد المكائد فيتيسر القبض عليها متلبسين بالخيانة لا سيما وهو قد

بات لا يخشاني الآن ويحسب ان الجو قد خلا له ، ثم أشر كتمه في البحث عنه كي يتردد علي دائماً وهو لا بد فاعل لانه قد توله بحب الفتاة اليهودية التي هي عندي وهي التي تجرّه إلى افتضاح أمره ولا يستطيع ان ازيدك الآن شيئاً على ما قلت على أنني أقول لك ان هذا الأثم لا يفلت هذه المرة من قبضي . فاطرق الكونت مسلماً بما تقوله دون ان يجيب .

- ٥٤ -

وكان الكونت أرمان مقيماً في منزله الصيفي خارج باريس وهو منزل جميل تكتنفه الأشجار واقع في قرية صغيرة بمعزل عن المناسزل فكان يزوره روكامبول في مصيفه ثلاث مرات في الأسبوع ولقد أعجب الكونت بذكائه وما كان يتكلفه من البساطة في أقواله غاية الإعجاب خلافاً لامراته فانها كانت تنفر من هذا المركز الجديد وتوجس منه شراً ولكنها كانت تكتم مخاوفها عن زوجها .

وكان لاندريا غرفة خاصة في هذا المنزل ولكنه كان يبيت اكثر لياليه في باريس ، واتفق ان ارمان اضطر ليلة الى المبيت بباريس لدعوة وردت اليه من أحد المحتاجين اليه ولم تكن هذه الدعوة إلا من ابتكار اندريا فكلف الكونت أخاه التائب أن يبيت في المصيف كي لا تبقى امرأته وحدها فامتثل وكان عندها في المساء .

وتعشيا سوية ثم سهرا الى الساعة العاشرة ودخل كل الى غرفته فاخذت زوجة ارمان كتاباً وجعلت تقرأ فيه ، وانسل اندريا من غرفته فخرج من المنزل وجعل يمشي على تلك الرمال حتى أبصر عن بعد شعباً نائماً فقال في نفسه : لا شك انه روكامبول وانه مقيم في المكان الذي عينته له فلما وصل اليه رآه انه هو بعينه فسر به وقال له : يعجبني انك حريص على الأوقات .

- نعم فهل أنت مستعد ؟
- أتم الاستعداد فهل حفظت ما علمتك إياه ؟
- طب نفساً فسأقول لها جميع ما علمتني أن أقوله ..
- إذن اتبعني !

ورجع الاثنان إلى منزل الكونت أرمان فسر أندريا حين رأى النور لا يزال في غرفة امرأة أخيه وان باب مشرف الغرفة المطل على الحديقة لا يزال مفتوحاً لاشتداد الحر في تلك الليلة .

وكان في تلك الحديقة شجرة باسقة تتصل أغصانها بذلك المشرف فسدله أندريا عليها وقال له : إن طريقك من هذه الشجرة ، والآن فاصبر هنيهة إلى أن أعود إلى غرفتي وبعد ذلك اصنع كما علمتك ..

وتركه أندريا ودخل إلى المنزل فصعد إلى غرفته دون أن يشعر به أحد أما روكامبول فإنه صبر خمس دقائق ثم تسلق هذه الشجرة حتى دنا من مشرف الغرفة ودخل منه إلى الغرفة التي تقيم فيها حنة .

وكانت حنة جالسة على كرسي طويل وبيدها كتاب تطالع فيه وهي تنقطع عن القراءة من حين إلى حين مفتكرة بزوجه أرمان ولما رأت هذا الرجل قد هبط عليها من الشجرة جمد الدم في عروقها من الرعب ثم تبينت أنه هو الماركيز اينجو فحاولت أن تستغيث ولكن الخوف عقد لسانها فلم تنبس بحرف ولبثت جامدة في مكانها دون عراك .

أما هذا اللص فلم يتأثر لهذا الموقف بل انه انحنى أمامها مسلماً وقال لها : اني التمس عفوك يا سيدي واعتذر عن دخولي اليك كما دخلت ثم أسألك أن تأذني لي باظهار السبب في هذه الخطة الغريبة التي سلكتها .

فحسبت انه صادق في اعتذاره وانه لا بد من سبب خطير دفعه إلى فعل ما فعل ، الا أنها لم تطمئن لكلامه ولبثت في مكانها لا تستطيع أن تفر ولا ان تستغيث ، ووضع روكامبول يده إلى صدره وقال : سيدي اني رجل نبيل أعلم

بما يجب على مثلي من الاحترام لمثلك فلا تحكمي عليّ قبل أن تسمعي ما أقول واعلمي اني لم ادخل إلى منزلك في منتصف الليل دخول اللصوص إلا لسبب خطير ودافع عظيم لا يغلب وأنا أجثو أمامك واستحلفك بأقدس الأسماء واحبها اليك أن تسمعي في أمري فلا تطرديني من حضرتك ولاتنادي أحداً من أتباعك قبل أن تسمعي كلامي .

وكان يتكلم بلهجة المستعطف المتوسل وبلهجة احترام شديد انست منه حنة شيئاً من الاطمئنان فحلت عقدة لسانها وقالت له تكلم .

فقال روكامبول : ان الذي سأقوله لك يا سيدتي هو سر دقيق لا يمكن لأحد أن يطلع عليه الآن وقد تعذر علي الحضور مع زوجك الكونت وخشيت إذ لم أطرق باب منزلك في هذه الساعة المتأخرة أن يسوء ظن من في المنزل لاسيما ان زوجك غائب عنه . ثم وضع يده على قلبه وقال : ان هذا السر في هذا القلب وقد اوشك ان ينفجر منه إذ لم يعد له طاقة على احتماله .

وكان حنة قد علمت ما يريد أن يقول فارتجفت اعضاؤها وقالت له بعظمة وكبرياء : ماذا تريد بهذا القول ؟

ولم يكثر لها روكامبول بل ركع أمامها وقال سيدتي ، اصفي الي . . أما هي فلم تجد قوة للاستغاثة لما داخلها من الرعب ووقفت جامدة دون حراك كالواقف في ساحة قضاء ينتظر تلاوة الحكم عليه بالاعدام .

فقال روكامبول ، دون أن يغير شيئاً في لهجة احترامه : اني خلقت ياسيديتي في بلاد حارة المناخ ونشأت بين قوم كنت كالملك عليهم وكانوا كالعبيد لي فنشأ بي حب الأثرة وعدم المبالاة بالصعاب لأنني لم ألق في حياتي من يعترضني فيما اريد وقد أتيت حديثاً إلى باريس كي ابحث عن شريكة لي تشاركني في هذا الملك الذي لا حد لسلطانه وهذه الشهرة التي لا حد لاتساعها .

وحسبت حنة ان هذا الشاب يحاول الزواج حقيقة وان يتلمس مساعدتها في طلب تلك الزوجة التي اختارها فقال روكامبول: ولقد وجدت الآن هذه المرأة

وأنا أعبدها كما يعبد المؤمن ربه ، غير ان مصطلحات الناس قد وضعت بيني وبينها هوة عميقة بحيث يتعذر اجتيازها ولكني ياسيدي في مقتبل الشباب وقد تعودت أن لا أحتفل بالمصائب فلا عبرة عندي بالمستحيل ، ثم ان هذه المرأة التي تحول بيني وبينها الشرائع والعادات قد أقسمت على أن تكون لي وعلى أن أذهب بها فأعيش تحت سماء بلادي الصافية الزرقاء وان أضع لها صولجان الملك على عبيدي وأعيش مدى العمر عبداً لها

ولم يبق ريب لدى حنة في قبحته وجرأته عليها ، فأوقفته عن تنمة حديثه بإشارة وقالت : المثل هذه الأقوال الفاسدة قد أتيت الي ؟

— قد تكون فاسدة يا سيدتي ولكنها صادقة صادرة عن قلب تنبض فيه عروق الاخلاص والحب الصحيح .
— ولكنك قد نسيت من أنا ، وغفلت عن ان زوجي الكونت ارمان دي كركاز قد فتح لك أبواب منزله .

— كلا ، والأسفاه فلاني لم أنس شيئاً من ذلك ..

ثم ركع أمامها وقال : والآن يا سيدتي فلا بد أن تكوني عرفت تلك السيدة التي أبذل الحياة في سبيل رضاها وأعبدتها عبادة الالهة . ان تلك السيدة التي أقسمت على أن أفوز بحبها وأحكمها في قلبي هي أنت .
ونفض بعد هذا القول ومشى خطوة اليها يريد تقبيل يدها فارتجفت حنة منزعرة وصاحت بصوت خنقه الخوف : الي الي ..

ولم تكذبتم استغاثتها حتى فتح الباب بعنف وأسرع رجل منه الى روكامبول فصفعه صفعة شديدة على خده وهو يقول : تباً لك من نزل أثير !

وكان هذا الرجل الذي أرسلته العناية لاغاثة حنة ، بل الذي أرسل نفسه لنصرتها هو أندريا وقد احمرت حدقاته من الغضب ونفض غبار الزهد والمسكنة عن وجهه ، فظهر بمظاهر الأبطال الأشداء حتى حسبت حنة انها ترى زوجها أرماني فاطماني فؤادها وقالت : الف شكر لأنك انقذتني .

أما أندريا فلم يكثر لهذا الشكر وقال لها : قبل كل شيء يجب أن يبقى سر هذه الاهانة مكتوماً بيننا .

ثم التفت الى المربي ، أي الى روكمبول وقال : إنك نذل أثم .
فلم يجب روكمبول بشيء ولكنه تظاهر بالخوف الشديد ، فأخرج أندريا مسدسه من جيبه وقال له ببرود : إختر الآن بين أن تموت موت اللصوص أو بين ان تصغي لي .

فخضع روكمبول للقوة وقال : بل إني أصفي فقل ما تشاء .
- إن هذه السيدة التي تجاسرت على إهانتها هي امرأة أخي أريد بذلك انه لم يعد بد لأحدنا من الموت .

فأنحنى روكمبول إشارة إلى الامتثال ، ثم تابع أندريا : بقي ان مبارزتنا لا يجب أن يعلم سببها أحد . وإن حياتك الآن بين يدي ، فأنا لا أبقى عليك إلا اذا أقسمت لي بشرفك أن لا تبوح بسر سبب المبارزة لأحد من الناس .

- أقسم لك بشرفي على الكتمان .

- ثم ان المبارزة لا يجب أن تكون إلا بعد غسد ، كي لا يسيء أخي ظنه بك . فإنه يعلم إني أبيت الليلة هنا ، وأخشى إذا تبارزنا غداً أن يعلم شيئاً من السر .

- ليكن ما تريد .

– والآن .. فاخرج كما دخلت ، وانزل من هذه الشجرة دون أن يشعر بك أحد

فامتثل روكامبول وخرج دون ان ينظر الى حنة . ولما خلت حنة باندريا شكرته شكراً جزيلاً فقال لها : لا سبيل الى الشكر فقد دافعت عن شرفي بدفاعي عن شرفك والان فنامي مطمئنة إذ لا خوف عليك وانا في جوارك .

– إني داخلة ولكني التمس منك كما تلتمس الأخت من أخيها ، أن لا تبارز هذا الرجل .

– حينذاك إرضاء لك ولكن المباراة لا بد منها .

– كلا ، فإني لا أطيع أن تخاطر بحياتك . فاذا أصررت على هذه المباراة فإني أخبر أرمان بحقيقة أسبابها لأنني لم أتقيد بيمين على الكتمان .

– إذن فانك تعرضين زوجك لأخطارها ، لأنه إذا علم بحسرة المكين فلا يقعد ساعة عن مبارزته . واعلمي الان اني لا احب إهراق الدماء ، ولا أميل الى المبارزات التي تحرمها الأديان ، غير انه قد يعترض المرء من الحوادث ما يكرهه على الخضوع لتلك الشريعة السامية التي يسمونها الشرف . ولو أخلاق الرجال كما عرفت لما سألتني الرجوع عن المباراة فلن هذا المكين إذا لم يعاقب على جرأته فإنه يجعل اسمك مضغة في الأفواه ، ويتحدث بما جرى في جميع النوادي .

فدعرت حنة وقالت : يا للخيانة !

فضغط أندريا على يدها وقال لها : أتريدن أن يبارزه ارمان ، ذلك الرجل الشريف الذي إن أصيب بمكروه ولا سمح الله يقع هذا المكروه بكثير من العائلات التي تميش من بره ، أما أنا فأية فائدة من حياتي بعد ان تدنس بالأثم وأصبحت فرداً لا عائلة لي .

فقالت له حنة ما هذا القول؟ اليس لك في هذا المنزل أخ وأخت يجبانك؟

فوضع أندريا يده على جبينه ثم قال : إنك نبيلة وانه نبيل ، ولكنني كيف أستطيع أن أنسى ذلوبي الماضية . وإذا بارزت هذا الرجل ، فلماذا أن أقتله فأعاقبه على جرأته أو يقتلني فأموت من أجلك ، ويكون قتلي خير كفارة عن ذلوبي .

وقبل أن تجيب قال لها لصغي ألا تسمعين صوت مركبة ؟

- نعم .

- إنها مركبة ارمان دون شك ، فأسرعي الى غرفتك إذ لا يجب أن يرانا سوية ، ولكنني أسألك قبل الافتراق ، أن تتعهدي بكتان ما جرى في هذه الليلة .

- سأكتم كل شيء .

- وأن تأذني بالمبارزة .

- إن الأمر شديد .

- ولكنه واجب .

- أأذن فاذهب وسأدعو لك الله وعسى ألا أخيب .

وافترق الاثنان فذهب كل الى غرفته . إلا ان المركبة لم تكن مركبة أرمان كما وهم أندريا لأن أرمان لم يعد إلا في الساعة الخامسة من الصباح .

ونام أندريا نوم المطمئن الراض من فوزه في الدسيسة ، لا سيما بعدما رآه من إشفاق حنة عليه . وفي اليوم التالي برح القرية الى باريس ، فكان اول ما أجراه أنه غير هيئته وذهب الى الفندق الذي يقيم فيه روكامبول ، فلقبه في انتظاره ولكنه كان مقطب الجبين عابس الوجه ، فضحك أندريا وقال : العلك غاضباً لصفعة أمس ؟

- وإذا دقت في حسابي فلاني أضيف اليها ضربة الخنجر .

وقد قال بلهجة جد خشي أندريا عواقبها فقال له : العلك تمزح ؟

- كلا ، فلقد دنا الزمن الذي ينبغي أن أقر فيه معك على حال .

- ماذا تريد بذلك ؟ الملك تنوّه عن حصّتك من الغنيمة ؟
 - هو ذاك فأني أريد أن يكون بيدي ما استند عليه بعد الفوز في الحصول
 على الايراد الذي وعدتني به وهو الخمسون الف فرنك
- إن طلبك حق وعدل . غير انه كيف يمكن أن أدفع لك قبيل
 أن أقبض .
- لقد فكرت بذلك ، فرأيت حل المشكلة سهل ميسور . وذلك أن
 تكتب لي صكاً عليك بقيمة مليون فرنك ، وتوقع عليه باسمك الحقيقي وهو
 أندريا ، وصي ابن المرحوم الكونت أرمان دي كركاز ، ثم تجعل التاريخ عن
 السنة القادمة .
- لقد أصبت فان الأمر سهل .
- إذن أكتب لي هذا الصك ؟
- نعم ، ومتى أردت .
- إني أريده الان .
- فأجابه أندريا : كلا ، بل أكتبه لك بعد غد ، لأن من ينتظر قبض مليون
 فلا بد ان يكون حكيماً وأنا في حاجة الان الى حكمتك .
- فامتثل روكامبول وقال : ليكن ما تريد ، فسأنتظر الى بعد غد .

- ٥٦ -

ورجع أندريا الى الكونت فأخبره باضطرابه الى مبارزة المركيز لسبب
 خطير ، وان المركيز قد أهانه إهانة لا سبيل بعد الى المسالمة ولا تفتسل إلا
 بالدماء . ثم طلب اليه ان يكون شاهده ، وان يجد له الشاهد الاخر . فبذل
 الكونت جهده كي يقف منه على السبب ، غير ان اندريا كان مهراً على الكتان

فعلم الكونت ان هذا الزاهد الورع لم يقدم على المبارزة وقتل الأرواح ومخالفة الشرائع الدينية إلا لأمر خطير وان هذا الماركيز قد أهانه إهانة لا تغتفر فرضي أن يكون شاهده وذهب الى صديقه فرناند روشي يلتمس منه ان يكون الشاهد الثاني فوجده في منزله ووجد عنده باكارا .

وكانت هرمين زوجة فرناند قد أحبت باكارا حباً شديداً ، بعدما علمت أنها أنقذت زوجها من القتل والحرب ، فأصبحت تثق بها ثقة غريبة وتمسك اليها بتوزيع حسناتها على السائسين . وقد دعتها اليها في ذلك اليوم لمثل هذه الأعراض . فلما دخل أرمان طلب الى فرناند ان يختلي به لشأن هام ودخل وإياه الى غرفة مجاورة للقاعة التي كانوا فيها ، فأوجست باكارا خيفة من هذه الخلوة وأظهرت مخاوفها لهرمين ، ثم استأذنت منها ان تقف على باب الغرفة فتسمع ما يقوله ارمان ووقفت مصغية على الباب فعلمت أن اندريا يريد مبارزة الماركيز وان ارمان وفرناند سيكونان شاهديه . فدهشت لما سمعت وأخبرت هرمين بما سمعته بعد ان طلبت اليها ان تكتم ذلك . ثم ودعتها وذهبت الى الكونت الروسي فأخذته وذهبت به الى منزله ، فدعت الفتاة اليهودية ونومتها وسألته عن المبارزة وعن اندريا والماركيز ، فكانت تجيب بكلام متقطع محصله ان هذا الماركيز أشقر اللون وليس هو أسمر كما يبدو من وجهه ولكنه متنكر لأنه لا يريد قتل اندريا بل قتل أرمان .

فأجفلت باكارا وقالت للكونت لا شك ان هذا الماركيز هو روكامبول ، فاننا فقدنا أثره منذ خمسة عشر يوماً ولكنه اذا كان كما أظن فما الذي يحمله على المبارزة مع اندريا الا اذا صدقت الفتاة وكان يريد قتل ارمان

فقال لها الروسي ان هذا محال فإن الشهود يقفون في معزل عن المتبارزين فاذا أصاب احدهم رصاص المبارز فلا يحمل على محامل الخطأ بل على سوء القصد وفوق ذلك فانه اذا كان اندريا يريد قتل أخيه فلا يقتله على هذا الشكل العامي المبتذل بعد صبره الطويل ، ولا بد ان يكيد له مكيدة لا

دخل له فيها بالظاهر .
 . ربما كنت مصيباً فان كلام الفتاة كان مبهماً غير جلي وفي كل حال فاني
 احب ان احضر وإياك هذه المباراة .
 — ذلك مستحيل اذا لا يحضرها غير الشهود .
 — نعم ويحضرها خدامهم .
 — ماذا تريدون بذلك ؟
 — عرفنا شاهدي اندريا فهل تعرف شاهدي المركز
 — علمت اليوم ان أحدهما صديقي البارون دي مينرف وهو الذي عرفني
 بك اذا كنت تذكرين .
 فصفتت باكارا بيديها من السرور وقالت : لقد بلغنا المراد اذ ان هذا الصديق
 لا يخالفك في مراد فاتفق معه على ان تكون أنت سائق المركبة وأنا خادماها
 ومتى تنكرنا فلا يعرفنا أحد .
 سأفعل ما تريدون وسأذهب اليه الان .
 وفي اليوم التالي اجتمع الخصمان والشهود في إحدى غابات باريس فصعد
 الكونت الروسي مع باكارا الى شجرة عالية كي لا يفوتهما شيء من المباراة فلما
 نظرت باكارا الى روكامبول عرفته من عينيه .
 وأخذ الشهود غدارتين فحشوهما وفيما هم يشتغلون بحشوها انفرد اندريا
 بأخيه وقال له : اني قد أكون في عداد الأموات بعد عشر دقائق فهل لك ان
 تجيبني الى طلبي الأخير .
 وكان أرما يحبه حباً شديداً فأوشك ان يضمه الى صدره من الحنو والجزع
 عليه ولكنه تجلد وقال : العلك تشك باجابتي ؟
 — أقسم لي على تنفيذ ارادتي ؟
 — أقسم بأقدس ايمان .
 . ان ارادتي الأخيرة ايها الأخ العزيز هي أن تذهب بامرأتك وولدك بعد

قتلي الى قصر ك في كارلوفان فتقيم فيه شهرين لا تعود في خلاصها الى باريس ولا أستطيع الان ان أظهر لك مرادي بهذا الطلب ، ولكني كتبته وهو في طي هذا الغلاف. فاذا قتلت فلا يحق لك فتحه الا في كارلوفان واذا لم أقتل أرجعته لي دون أن تعلم ما فيه .

ثم أخرج غلافاً ضخماً من جيبه وأعطاه اياه وعاد الى ساحة المبارزة . وعند ذلك أعطى الشهود كلاً من الخصمين غدارة وأوقفوهما في موقفهما بعد ان خططوا المسافة بينهما ثم صفق فرناند بيديه ثلاثاً اشارة الى بدء المبارزة فاندفع الاثنان وجعل كل منهما يزحف الى الآخر زحفاً بطيئاً الى ان بدأ روكامبول فأطلق الرصاصة الأولى على خصمه فأخطأه ثم أطلق الثانية فوقعت على الأرض دون ان تصيب واحدة منها أندريا .

ولم يكن لكل واحد منهما حق بأن يطلق أكثر من ثلاث طلقات فأيقن الحاضرون أن أجل المراكز قد دنا وباتوا يتوقعون له الموت في كل لحظة . أما أندريا فإنه مشى الى خصمه أي شريكه مشياً بطيئاً حتى بلغ اليه فوضع غدارته في صدره وقال : ان حياتك الان بين يدي وأنا أهبك اياها على شرط. فقال له روكامبول مغضباً . انه يحق لك قتلي فاقتلني لأنني لا اعتذر ولا التمس الغفران

- اني لا أسألك الاعتذار ولكني اشترط عليك شرطاً تستطيع قبوله .
- ما هو ؟

- هو أن تقسم بشرفك على أن لا تذكر السبب في مبارزتنا مدى الحياة وان لا تعود إلى مثل هذا السبب .

- قد رضيت وأنا أقسم لك بشرفي على ذلك .
فأطلق أندريا غدارته في الفضاء ثم قال : لقد انقضى كل خلاف بيننا وأنا اعتبر الآن حضرة المراكز من الأشراف .
فسر الجميع لما أظهره أندريا من مكارم الأخلاق .

وخلا أرماني بأخيه قائلًا كيف عفوت عنه بعد المقدرة ؟
- ليغفر عني الله

أما باكارا فلإنها عادت مع الكونت الى منزلها وهي تعلم ان المباراة خدعة وان هذين اللصين متفقان على امر خطير ولكنها لم تستطع أن تدرك شيئاً من هذه الألغاز فقررت أن تنصب فخاً تقتنص به روكامبول كي تحمله على الاقرار. وكان في باريس امرأة شهيرة بالجمال وهي من بنات الهوى وكانت من خير صديقات باكارا أيام غوايتها فدعتها اليها وافقت معها أمام الكونت الروسي على أن تعطيهما مائة ألف فرنك على أن تساعداهما في ما تريده من هذا المركز وقبلت الفتاة وافقت معها باكارا على أن تحيي ليلة راقصة يكون فيها المركز أي روكامبول من جملة المدعوين اليها بواسطة أحد أصدقائه ثم اخبرتها ان هذا الرجل متشكر، ولكن يمكن معرفته من اثر جرح كبير في صدره فاذا تمكنت من الكشف عن صدره وتحقيق هذا الأثر ، ونقدتها مائة ألف فرنك فرضيت الفتاة شاكراً وخرجت تسعى في إعداد الحفلة ، وخرج الكونت في أثرها الى صديقه البارون منيرف، وقد كان شاهد روكامبول في المباراة والتمس منه أن يدعو المركز الى تلك الحفلة الراقصة .

ولنعد الآن إلى أندريا فإنه ركب مركبة أخيه وعادا الى المصيف فبرحا باريس ، وفيما هما على الطريق طلب اليه أندريا ان يرجع اليه الغلاف فقال له ارماني : إذن فلا سبيل للاطلاع على ما فيه ؟

- كلا يا أخي وستقف على جميع ذلك في مستقبل قريب ، والآن فإنني أسألك أن تفني بوعدي لي وتسافر مع امرأتك وولدك وأنا معكم إلى كارلوفان.
- سأفني بوعدي ونسافر صباح الغد
ولما وصلا الى المنزل سرت حنة بسلامة أندريا سروراً عظيماً كاد يفضح

سرها ، وأخبرها أرماني بما اقترحه عليه من السفر في الغد . فعلمت انه يريد ابعادها عن المريكز ، ووافقت راضية على هذا السفر .

وبعد الغد رجع أندريا إلى باريس وهو واثق من نجاح مقاصده ، فتنكر بزي الانكليز وذهب إلى الفندق الذي يقيم فيه ووكامبول فوجده ينتظره فيه ودار بينهما الحديث الآتي فقال أندريا :

— أملك خفت في الصباح ؟

— الحق اني خفت بعض الخوف ..

— اصغ الي لقد خطري لي اني لما كنت واقفاً وحدي على جميع أسرارك فقد أردت ان تتخلص مني لأنك قد خطر لك خاطر الاستقلال

— وأنا أقول الحق ايضاً انه خطري لي هذا الخاطر وما أرجعني عنه سوى حي لك .

— بل حاجتك الي فادك لا تستطيع الاستعناء عني ولا سيما في هذه الأيام ، وإذا أردت فأنا أعترف لك ايضاً بأنه قد خطري لي ان اقتلك ..

— كيف خطر لك هذا الخاطر ؟

— لأنني لا أزال أشعر بألم خنجرك في صدري ، وأنت تعلم اني احسن الرماية فلو أردت قتلك لما أخطأت المرمى .

— ولكن كيف تعيش دوني أيها التعميس ؟

— هو السبب الوحيد الذي ارجعني عن قتلك .

— إذن فمن أكله ... كلانا لا يستغني عن الآخر فلنبحث الآن بأموثنا الخطيرة فاني مسافر غداً إلى كارلوفان لاتفقد ذاك القصر لأنني أريد ان اقيم فيه بعد زواجي بالكونتس حنة دي كركاز .

— وأنا ما ينبغي أن أفعل ؟

— تقيم في باريس ثلاثة أيام ثم تسافر منها الى سانت مالو حيث تنتظر فيها تعليماتي .

- وماذا أفعل في هذه الأيام الثلاثة ؟
- تتمرن على ضربة السيف التي أمرتك ان تتعلمها ثم تهتم بأمر باكارا .
- الملك دبرت المكيدة ؟
- مكيدة هائلة فاسمع انك تبدأ قبل كل شيء باختطاف الفتاة اليهودية التي عندها .
- وأين اضعها متى اختطفتم ؟

- أصنع إلي اني لقيت في الهافر حديثاً رجلاً من لندرا كان منخرطاً في سلك عصابتي حين كنت فيها وقد نجح بأعماله بعدما فارقه حتى أصبح الآن صاحب سفينة تجارية وهو ربانها وقد خطر لي أن ارسل باكارا على سفينته هذه إلى جزائر المريكز وهناك يلقيها الربان بين تلك القبائل المتوحشة التي تتباهى بكل لحوم البشر فيجعلها زعيم تلك القبيلة وليمة في أحد الأعياد .

- انه انتقام جميل ولكن كيف السبيل إلى تنفيذه ؟

- ينفذه جون ايرد ربان السفينة فإنه سيشتعن بضاعة من الهافر إلى استراليا وهو خاضع لي مع بحارته وانه الآن في باريس فقد قدم اليها أول أمس وقد لقيته أمس واتفقت معه على أن يحمل باكارا إلى تلك الجزائر فقبل ، وهو أما ان يلقيها في إحدى صحارى تلك البلاد أو يبيعها ببيع السلع إلى زعيم تلك القبيلة .

- كل ذلك حسن معقول ، ولكن كيف السبيل إلى تسليم باكارا إلى ربان السفينة ؟

- أن ذلك سيكون عملك في مدة هذه الثلاثة أيام فتبدأ أولاً باختطاف اليهودية وتودعها عند مدام فينبار بعد أن توصيها بالاحتفاظ عليها والعناية بها وعندما تصبح في قبضتها ترسل رسالة دون توقيع إلى باكارا تخبرها فيها أن أحد العبيد قد اختطف الفتاة وانه ذهب بها إلى الهافر ثم تكتب في الرسالة أن هذا العبد سافر على سفينة انكليزية اسمها فولر وهي ذاهبة إلى اوسيانكا ،

فلما تقف باكارا على هذه الرسالة تسرع بالسفر إلى الهافر فتعلم هناك أن هذه السفينة قد برحت ميناء الهافر إلى سانت مالو ، فتذهب إليها وتجد السفينة فيها ، وعندئذ فلا بد من النزول إلى السفينة لترى فتاتها فيفعل الربان الباقي

- كن واثقاً من الفوز وسافر فسأصنع جميع ما تريد ، ولكن بقي سؤال أحب ان أسألك أياه وهو لماذا اردت ان ترسل باكارا الى سانت مالو وأنت قادر على انزالها إلى السفينة من الهافر ؟

- ذلك لأن سانت مالو لا تبعد غير غلوة عن قصر أخي الذي سأكون فيه بعد غد ومق وصلت السفينة إليها أكون فيها إذ لا بد لبكارا ان تعرف من هو المنتقم .

- لله درك ما أشدك في الانتقام .

- نعم فان الانتقام مسرة الآلهة ، والآن فاسمع منك ستختطف الفتاة من منزل باكارا وتودعها عند مدام فيبار ، وبعد ثلاثة ايام تحضر الى سانت مالو مع ربان السفينة وفانتير وهناك أهىء لك اسباب مقابلة ثانية مع امرأة أخي حيث يباغتكما أرمان .

- كفى فقد عرفت كل شيء .

- بقي دور واحد وهو انه يجب ان تعرف جون إيرد ربان السفينة ، وبعد ذلك اذهب إليه غداً عند الصباح واذكر له اسم السير فيليام علامة للتعارف ثم دله على الفندق النازل فيه .

وفيا هو يتأهب للذهاب إذ وردت على روكامبول دعوة البارون دي منيرف الى الليلة الراقصة التي اعدتها باكارا لاقتناص روكامبول ، عرضها على اندريا مستأذناً أياه بالذهاب إليها .

- لا بأس من ذهابك ، بل يجب ان يعرفك كبار القوم كي لا يبقى لأحد مظنة فيك وانصرف في شأنك .

بينما كان اندريا وروكامبول في اختلاعهما ، كانت مدام الفونس وهي تلك الفتاة الحسنة التي استحضرتها باكارا لاعداد الليلة الراقصة في منزلها قد قدمت الى باكارا وقالت لها ان الحفلة أعدت ووزعت أوراق الدعوة وقد اثبت الآن كي تخبريني بما ينبغي ان أفعل .

فلفقت لها باكارا حديثاً طويلاً خلاصته أن هذا المركيز متنكر وأنه حين كان في شكله القديم كان من ألد اعداء الكونت الروسي وأنه لص سفاك وأنه لم يتنكر إلا بغية قتل الكونت وقتلي ؟

- وماذا تريد أن أصنع به ؟

إننا لا نزال في ريبة من أمره ولا نستطيع معرفته إلا إذا تمكنا من الكشف على صدره فإذا كان صدره سليماً لا أثر فيه للجراح كنا مخطئين بسوء ظننا به ، وإذا كان في صدره أثر جرح حديث كان هو ذاك اللص السفاك ، فبتنا منه على حذر وقبضت المائة ألف فرنك التي وعدك بها الكونت في كل حال .

- سأفعل ما ترين ، وغداً يرد اليك مني كتاب ثم ودعتها وذهبت فلبثت باكارا في منزلها وهي واثقة من الظفر وحمل هذا الشقي على الإقرار .

- ٥٧ -

وفي اليوم التالي أرسلت مدام الفونس إلى باكارا تقول فيها أن المركيز ، أي روكامبول تمادى في السكر تلك الليلة وهو لا يزال نائماً عندها ، وأنها كشفت عن صدره فראت أثر جرح كبير في الجهة اليمنى من صدره وأن هذا الجرح حديث ، ثم اغتنمت فرصة سكره فوضعت على منديلها مادة روحية دلكت به يده فظهر أن لون بشرته فاصع البياض ، وأن لونه الأسمر لم يكن غير دهان ثم ختمت كتابها عما يجب أن تصنعه .

ولما وقفت باكارا على هذه الرسالة فرحت فرحاً لا يوصف لصديق ظنونها
وخرجت مسرعة إلى الكونت أرتوف فأطلعته على الرسالة وقالت له : يجب
الإسراع قبل فوات الأوان .

- ماذا تريد أن نفعل ؟

- نبدأ وندعو الينا مدام الفونس .

فوافقها الكونت ودعوا فلما أتت قصت عليهما جميع ما كتبتة بالتفصيل .
فقال لها باكارا : والآن ألا يزال في منزلك ؟

- قد ذهب منه منذ ساعة ولكنه عاهدني على الرجوع في هذه الليلة .

- هل بعث منزلك خارج باريس .

- كلا . . فهو لا يزال لي .

- إذن . . إكتبي لهذا المركز كي يوافيك اليه في هذه الليلة واخبريه أنك

ما فعلت ذلك إلا لحوفك من عشيقك لشدة غيظه عليك

وامتثلت مدام الفونس وكتبت الرسالة بشكل لا يوجس منه روكامبول
أقل ريب ، ثم ختمتها وأرسلتها اليه فقالت لها باكارا : إذهي الآن إلى
منزلك خارج باريس وسأوافيك اليه بعد ساعة مع الكونت فأتنكر أنا بصفة
الخدامات ويتنكر الكونت بزي سائقي المركبات ومتى اجتمعنا أخبرك بما
يجب أن نصنع .

ولنعد الآن إلى روكامبول فإنه بعدما افترق عنه أندريا ذهب لمقابلة الربان
فقال له أنه لم يعد فأقام ينتظره مدة طويلة حتى عاد فتعارفا وجعل الربان
يعتذر عن تأخره عن الموعد المعين ، وأفتتح اعتذاره بقوله انه يوجد اثنان
أخلص لهما أشد الاخلاص وهما السير فيليام والرجل الذي أعافني عن موافاتك
اليوم ، أما هذا الرجل فإن قصتي معه غريبة تشبه الحكايات الموضوعة فاصنع

إلى أقصها عليك .

وأصغى إليه روكامبول وهو يرجو أن يستفيد من حكايته فقال الربان :
كنت في السنة الماضية في أمستردام وقد شحنت سفينتي بضائع إلى الهند وكان
معي في السفينة فتاة بورتوغالية أحببتها وأحبتي حباً ليس بعده حب ولما كنا
في أمستردام أنزلتها إلى المدينة وأقمته في أجل فندق إلى أن يتم شحن السفينة .

وفما أنا في ليلة جالس على ظهر السفينة إذ استوقف نظري شوب نار هائلة
في الشارع الذي كانت فيه الفتاة ، ونظرت بالنظارة المكبرة فرأيت النار تشب
في نفس الفندق الذي نزلت فيه حبيبتى وعند ذلك أسرعته مهرولاً كالجانين
إلى البر ، ولما بلغت الفندق رأيت النار قد شبت في جميع أطرافه ونظرت
تلك الفتاة تصيح وهي واقفة على الشرفة ، صياح اليأس ولا سبيل إلى انقاذها
فهلج قلبي لصراخها ، ونظرت حولى عساي أجد منفذاً إليها ، ورأيت سلماً
خشبية نصبت على الجدار المحترق ، ورجلاً في مقتبل الشباب تسلق تلك السلم
غير مكترث الموت حتى بلغ إلى الشرفة ، فاحتمل الصبية وعاد بها وخشب
السلم يلتهب تحت قدميه حتى وصل بها الأرض ، وقد أغشى عليها من الرعب ،
فأكبر الناس بسأله وجعلوا يهتفون له معجبين بهذه المروءة ، أما أنا فإني اقتحمت
الجمع حتى وصلت إليه فجعلت أقبل يده شاكراً ودموع الفرح تنهل من عيني
وكانت المرة الأولى التي خرجت فيها الدموع من عيني كما كانت أول مرة دخل
فيها الحب إلى قلبي ، وحثمت على نفسي أن أسفك دمي في خدمة هذا الرجل
وأن أكون له عبداً ما حييت ، ولهذا لو سألي السير فيليام أن أتخلى له عن
سفينتي وجميع أموالى لفعلت ، ولكنه سألي هذا الكونت أن أقتل السير
فيليام لما تأخرت

فأجفل روكامبول وقال له : من هذا الكونت ؟

- هو شاب غني روسي يدعى الكونت أرتوف .

فوقع هذا الاسم على روكامبول وقع الصاعقة وقال في نفسه : قدر لأندريا

أن يفشل حين الانتصار وأن تأتيه الخيبة والعثرات من حيث لا يدري ولكنه
كظم ما به وسأله : كيف لقيت الكونت ؟
- لقيته اليوم اتفاقاً قبل أن أجيء اليك .

فقال في نفسه : قبح من اتفاق فما فسد أعمالنا غير الصدفة فإنه إذا رأى
هذا الربان بشأن اختطاف الفتاة اليهودية الى أن استقرا على أمر واتفقا على أن
يتقابلا في المساء .

وعاد روكامبول الى الفندق فدعى اليه فانتير واخبره بما عزموا عليه من
اختطاف اليهودية ، ثم أمره أن يذهب إلى مدام فيبار ويخبرها ، ثم يبحث
واياها عن أنجع الطرق لاختطافها ، وأن يأخذ التعليمات اللازمة عن منزل
باكارا وعن طريقة البلوغ إلى الفتاة

وذهب فانتير وعاد اليه في المساء واخبره ان مدام فيبار ذهبت الى المنزل
بصفة متسولة ، وعلمت جميع غرفه ومنافذه حتى أنها طبعت أقفال أبوابه
بالشمع كي تصنع مفاتيح لها وتدخل المنزل دون أن يشعر بها أحد ، وفوق
ذلك فقد علمت أن باكارا لا تعود الى المنزل قبل انتصاف الليل وأنه لا يوجد
فيه سوى اليهودية والخادمة والخدام كهل ، فسر روكامبول وأمر فانتير ان
يذهب إلى صانع الأقفال ليصنع المفاتيح ، ثم يذهب إلى مدام فيبار ويأمرها
أن تراقب في الغد باكارا كي تعلم متى تخرج منه .

وبعد ذلك ذهب روكامبول لمقابلة ربان السفينة وقد خطر له حين ذهابه
هذا الخطر وهو انه إذا شاركنا الربان في اختطاف الفتاة عرف البيت وقد
يتفق أن يرى فيه الكونت وباكارا ، وفوق ذلك فإن من العار على من بلغ هذا
المبلغ في مهنتنا أن يحتاج إلى ثلاثة أشخاص لاختطاف صغيرة ، ثم انسا إذا
استغفينا عن مساعدة الربان في اختطاف الفتاة فإننا لا نستغني عنه في إيصال
باكارا إلى القبائل المتوحشة ، ولما كانت باكارا لا تفارق هذا الكونت الروسي
فقد وجب قتل الكونت في الحال .

ولما فرغ من الخطوة وصل إلى المسكان الذي ينتظره فيه الربان واخبره ان اختطاف الصبية اصبح ميسوراً لأنها تخرج وحدها من المنزل ، ووافقه على مقابلته في الغد ، ثم رجع الى الفندق ولقي فانتير وسأوه على الكونت بعشرة آلاف فرنك يدفع نصفها مقدماً والنصف الآخر بعد القتل ووضعها الخطوة اللازمة لليهودية .

- ٥٨ -

في الساعة التاسعة من تلك الليلة قدم الى منزل باكارا روكامبول وفانتير وهو في صباغه الأسود ومدام فيبار . وكان فانتير قد أحضر مفاتيح المنزل ، فأخذها روكامبول وجعل يفتح الأبواب ، ودخل الثلاثة دخول اللصوص ، تتقدمهم مدام فيبار ، لأنها كانت عارفة بخفايا المنزل ، ولما بلغوا الى صحن الدار وقفوا يتشاورون فقال روكامبول : أين غرفة الخادم ؟ فقالت مدام فيبار : انها في الطابق العلوي . لا خوف علينا منه وأين غرفة الخادمة . - هي أمامك . - إذن لندخل اليها أولاً إذ لا خوف علينا إلا منها .

ثم دخل الثلاثة الى غرفة هذه المسكينة ، فاستيقظت مذعورة وحاولت أن تصيح ، واطبق عليها روكامبول أطباق القضاء وتناولوا جميعهم على ربط فمها بمنديل وقيدوا رجليها ويديها ، ثم ربطوها الى سريرها كي لا تستطيع أن تزحف الى الخارج ، ودخل الثلاثة الى غرفة اليهودية فانتبهت أيضاً من رقادها وهبت من سريرها واجفة الفؤاد من الذعر ، فبادرتها المعجوز قبل أن تصيح وأسرعت الى ربط فمها ، ثم تراجع الثلاثة بأمر روكامبول الذي قال : كيف

السبيل الى الذهاب بها فائننا إذا وضعناها في مركبة فلا نأمن السائق ان ينم بنا ، وإذا حملناها فلا نمشي بها خطوات حتى تتنبه الينا الشرطة

فقال العجوز : لا دواء الا الارهاب . ثم أخذت خنجر فانتير ودنت من الصبية ففكت رباط فمها ووضعت الخنجر على عنقها وهي تقول اننا لا نريد بك شراً ويجب ان تتبعيني الى منزلي وإذا فمت بكلمة واحدة على الطريق فان هذا العبد يقتلك بهذا الخنجر .

ثم أعطت الخنجر لفانتير فأخذه ووقف أمام الفتاة فقالت لها العجوز البسي ثيابك في الحال .

وجعلت تلبس ثيابها ورجلاها تضطربان من الخوف حتى أتمت لباسها ، فتأبط روكامبول ذراعها وخرج بها الى الطريق ، فمشى فانتير ورائعها ومشى العجوز امامها وقادتها في طريق لا ينتابه الناس ، سيما في الليالي الممطرة وما زالوا يسرون حتى بلغوا منزل العجوز ، فسلمها روكامبول الفتاة وعاد مطمئناً آمناً لمقابلة الربان فألفاه ينتظره في المكان المعين فأخبره باختطاف الفتاة وودعه على ان يقابله في سفيلته يوم تصير فيها باكارا .

ثم ذهب إلى الفندق فلقى فانتير ينتظره فيه فقال له كيف حال الفتاة؟
- أنها على أسوأ حال من النكد والخوف ولكن مدام فيبار بأذلة جهدها في ملاطفتها .

فقال روكامبول : انها ستأنس بها فقد تعودت هذه مؤانسة الفتاة وأنت مذ فرغت مهمتك من اختطافها لم يبق عليك غير قتل الكونت - وانت بقي عليك دفع الثمن .

- هاك نصفه وسأدفع لك النصف الآخر بعد القتل حسب الاتفاق فقبض المال وانطلق يكم للكونت .

أما روكامبول فانه لما فرغ من جميع هذه المشاغل ذكر الرسالة التي أرسلتها اليه مدام الفونس تدعوه فيها إلى موافاتها في منزلها خارج باريس فجعل يتردد

في الذهاب اليها فتتمثل له بجهاها النادر وذكر انها تخدع حبيبها من أجله وانها أظهرت له من اللطف والأيناس في الليلة الراقصة ما يزال مؤثراً فيه ثم رأى انه لم يعد لديه عمل يعمل فحن إلى لقائهما وبرز الفندق فركب مركبة وأمر سائقها أن ينطلق به اليها .

وبعد ساعة كانت تسير به المركبة سيراً حثيثاً حتى وصلت إلى المنزل المطلوب فاطلق روكامبول سراحها وهو غير حاسب لشيء وطرق الباب الداخلي ففتحت له صبية بملابس الخادومات وأوصلته إلى القاعة التي كانت تقيم فيها مدام الفونس ثم تركته ومضت في شأنها دون أن يتمكن روكامبول من النظر إلى وجهها .

فلما دخل إلى القاعة رأى مدام الفونس متكأة على مقعد طويل فابتسمت له وشكرته لقدمه اليها في هذه الليلة الممطرة وجعلت تناديه ويناديهما حيناً إلى أن قطعت عليه الحديث وهي تنفرس في وجهه وقالت له : ما هذا الشبه الغريب ؟

فاضطرب روكامبول وقال : أي شبه تعنين ؟
فلم تجبه ولكنها جعلت تحديق به هنيهة وقالت : لولا لحيتك وشعرك الأسود ... ثم توقفت عن الكلام وعادت إلى التحديق به .

فستهم روكامبول وقال : أي شبه تعنين يا سيدتي ؟
- انك على سحرة وجهك وسواد شعرك تشبه شبيهاً عجيباً رجلاً أبيض البشرة أشقر الشعر .

فزاد اضطراب روكامبول وقال من هو هذا الرجل ؟
- رجل اسوجي يدعى الكونت دي كامبول .
فقال دون اكتراث : اني لا أعرفه .

- انه برح باريس منذ ثلاثة اسابيع وقد ظهر انه كان من الأشقياء ، وان له حديثاً غريباً تعرفه خادمتي ولكنه كان متصلاً بشروعه وإثامه بكثير من

الأسرات النبيلة فقد كان يزور قصر المركيز فان هوب .
وكانت هذه المرأة تقص عليه هذه الأقوال كأنها تقولها اتفاقاً ، غير أن
روكامبول شغل باله لحديثها وقال في نفسه ، ما عساها تريد من هذا الحديث
فعمدت المرأة إلى حديثها وقالت : وقد أصيب هذا الكونت بضربة خنجر
كادت تؤذي بجياته قبل احتجابه وقد كانت الطعنة هنا في هذا المكان من
الصدر وأشارت بيدها إلى أثر الجرح في صدره .

فاجفل روكامبول وقال لماذا تقصين علي سيرة هذا الرجل ؟
-- لأنه يشبهك .

كيف يشبهني اذا كان أبيض اللون وأنا اسمره واذا كان شعره أشقر كما
تقولين وشعري حالك السواد ؟

- لكن خادمتي تقول غير ذلك رستى !
ثم قرعت يجرس امامها ففتح الباب ودخلت منه باكارا المتنكرة بزي
الخادومات فدنت منه وقالت له بلمهجة الساخر ، على الكونت دي كامبول
السلام ؟

فوجف فؤاد روكامبول لأنه علم انها باكارا وقال في نفسه : لقد وقعت في
الشرك ولكنه اطمأن حين أفنكر انه مسلح وانه لا يرى أمامه إلا امرأتين
غير أن هذا الاطمئنان لم يطل فانه بينما كان ينظر منذعراً إلى باكارا رأى ان
باباً آخر قد فتح ودخل منه الكونت أرتوف الروسي وهو حامل بيديه
غدارتين ، فلم روكامبول انه لم يعد له نجاة من قبضة باكارا ، ولكنه قال في
نفسه : إذا قتلت فسينتقم لي فانتير بقتل الكونت. ويلتقم لي اندريا بارسال
باكارا إلى القبائل المتوحشة فكان ذلك اكبر عزاء له في الساعة الهائلة .

وكان روكامبول ثابت العزيمة شديد الجرأة إذا أصر على انكار أمره فلم
يحفل بالوعيد ولو رأى الموت نصب عينيه غير انه كان وافر الحكمة شديد
الدهاء ، فقال في نفسه بسرعة التصور انه لم يعد لي سبيل إلى انكار نفسي بعد

أن عرفوني ولا أرى سبيلاً للنجاة إلا بالاقرار فأنا أعترف لهما بكل شيء دون حديث قتل الكونت وارسال باكارا على سفينة جون ايرد إذ لا يعلمان شيئاً من ذلك ، إذا قتل الكونت وسافرت باكارا فلا يخشى شيء من اقرارى وعند ذلك دار بينهم الحديث الآتى .

فقالت باكارا كفالك يا حضرة الكونت تنكراً فقد عرفناك وأجبنا على ما نسألك عنه إذ لا فائدة من ضياع الوقت .

— ليكن ما تريد .. فسلي ما تريد ..

— أتذكر ان آخر مرة تشرفنا فيها بلقائك كانت في منزل داني ناتسا الهندية ؟

— أذكر ذلك ولا أنساه فأني كنت عشيق تلك الهندية وقد لقيتها ميتة وأصبت بطعنة خنجر .

— كذبت فانك لم تكن عشيق تلك الفتاة ولم تكن عشيقتك .

— كيف تعرفين ذلك ؟

— أعرفه كما أعرف انك لست بابن تلك المعجوز التي أخرجتك من المستشفى .
— ذلك أكيد .

— ولست ايضاً الكونت دي كامبل فان الأشراف لا يغيبون اسمائهم ويشتركون مع اللصوص ولا ينخرطون في سلك تلك العصابة السرية التي كان يرأسها السير فيليام .

— إذا كنت تعرفين ذلك فماذا تريد ان تعرفني مني ؟

— ستعرف ما أريده منك ، ولكن عليك أن تعلم قبل كل شيء انك في قبضة يدنا وان هذا المنزل معازل عن الناس وان الليل قد انتصف فـ إذا استغثت فلا يحيبك إلا الصدى .

— إذن فأنتم تريدون قتلي .

— ربما قتلناك إذا امتنعت عن الاقرار .

بماذا ينبغي أن أقر .

— بحقيقة ما تعلمه عن السير فيليام فاذا سلمتنا هذا الرجل فقد نفعو عنك
إذ أن سجل حياتك معقود بإقرارك .

— ماذا تريد أن أقول عن الفيكونت أندريا الذي تدعونه السير فيليام ،
فإن طعنه إياي بالخنجر أعظم برهان على أني ليس لي أقل اتصال به .

فالتفتت بأكارا عند ذلك إلى الكونت ارتوف قائلة : ان هذا الرجل لا
يريد أن يقر فاقتل دون تأخير .
— ليكن ما تريد .

ثم فتح زناد الندارة وصوبها إلى رأس روكامبول فهلج قلبه وقال : قف
سأقول كل شيء .

— إذن أسرع بالقول .

— سلفي أجيبك ..

— أكان السير فيليام شريكك ؟

— نعم ..

— أتقر هذا الاقرار أمام أخيه الكونت دي كركاز .

— غير ان الكونت قد سافر إلى كارلوفان مع أخيه .

— إذن فاكتب اقرارك كما أمليه عليك .

فلم يسع روكامبول الا الامتثال وجلس قرب المائدة فأملت عليه ما يأتي :

« هذه آخر ساعة من ساعات حياتي ومن كان في هذا الموقف فلا يستطيع
الكذب والبهتان ، ثم ان الكونت ارتوف واقف فوق رأسي وغدارته مصوبة
إلى قاي وهو يطلب ان أعترف بذنوبي وأبوح باسم الرجل الذي يقودني منذ
عهد بعيد في طريق الآثام فأنا أعترف الآن ان هذا الرجل الذي يتلبس بلباس
الثائمين وحشو قلبه المكر والدهاء . ان هذا الرجل الذي كان رئيسي وكننت
يده العاملة حين حاول أن يحمل ليون رولاند على قتل فرناند روشي بواسطة

الفيروزية ، وحمل المراكيزه فان هوب على قتل إمرأته . إن هذا الرجل الأثيم الذي دفعني في سبل الجرائم والذنوب هو الفيكونت أندريا شقيق الكونت أرمان دي كركاز ، .

ثم أمرته أن يوقع على الرسالة فوقع عليها وأخذتها باكارا وقالت للكونت : انه إذا أطلع عليها أرمان لا بد أن يفتح عينيه ويعلم حقيقة امر أخيه .

— ربما ومع ذلك فسأقول أنا كل شيء .

فقالت له باكارا : لقد خدعت فإنك لا تستطيع أن تقول شيئاً .

واستنكر روكامبول قائلاً : لماذا ؟

— لأنك ستموت ..

فاصفر وجهه وعلم انه كتب لنفسه الموت إنما كتبه بهذا الاقرار .

فقالت له باكارا : لقد أسأت إلى نفسك فيما كتبتنه إذ لولا كتابتك لما كنا نجد بدأ منك لإقرارك أمام الكونت أرمان ، أما الآن فان خطك يكفي ولا بد لك من الموت .

فقال لها روكامبول بصوت المتهمك : إنك تتعجلين يا سيدتي بقتلي .

— أعمل لديك ما تقوله ؟

— لدي سر يسوى أكثر من حياتي .

— قل وسري .

— اني أعتبر هذا السر عظيماً ولهذا فقد قلت انه يساوي اكثر من حياتي

وأنا الآن أريد بيعه لكما .

.. إننا نشتره بحياتك إذا كان خطيراً كما تقول .

— ذلك لا يكفي فاني أردتم قتلي فاقتلوني ولكنكم لا تعلمون شيئاً .

— إذن سنقتلك

— غير أنكم ستندمون الندم الشديد لرفضكم ما طلبته حين ترون ان الصاعقة

قد انقضت على رجل تحبونه وكنتم قادرين على انقاذه .

وارتعشت باكارا وخشيت أن يكون ذلك الرجل فرناند وعادت إلى مسألمته وقالت :

— ما زلت سائراً في سبيل الموت فقل عن الثمن الذي تريد لإفشاء هذا السر .

— مائة ألف فرنك ومق علمتم السر فانكم أراف من أن تقتلوني .

— أهذه كلمتك الأخيرة ؟

— نعم !

— إذن فأنت تريد أن تموت ؟

— اني أفضل ألف موت على أن أبيع سرأ دون ثمن ..

— وإذا لم يكن شرك مساوياً لهذا الثمن ؟

— إنه يساوي أكثر من المبلغ الذي عينته .

— قبلت فقل الآن إذا كان لك وراث لأدفع لهم المال ..

واضطرب روكامبول ولم يعد يشكك بموته وقال : إنكم لم تفو بعهودكم فإني لم أطلعكم على السر كي أورث الناس من بعدي .

وصوب الكونت الفدارة إلى صدره قائلاً : لم يبق لك في هذه الحياة سوى دقيقتين فاذكر اسم الذي تريد أن يقبض المال .

وبينما كان روكامبول ينظر اليه وقد جمدت عيناه من الرعب إذ فتح باب ودخل منه رجلان عظيمي الجثة هائلا المنظر ووفقا موقف الخدم أمام الكونت ينتظران أمره ، ولم يعد يشكك بدنو الأجل .

كان هذان الرجلان اللذان دخلا من خدم الكونت قد أحضرهما معه من

روما للمحافظة عليه ، وهما من أشد خدامه خضوعاً له وقد رأهما روكامبول يحملان كيساً عظيماً حين دخولهما ، فخطر له ان الكونت يريد ان يقتله حسب النمط الشرقي فيضعه في الكيس ويلقيه من نافذة المنزل إلى النهر الذي كانت تتكسر أمواجه على جدرانها .

وقال له الكونت وهو ينظر إلى الكيس : قلت لك انه لم يعد لك سوى دقيقتين في الحياة فاذا كر لي اسم وريثك كي أدفع له المال .

فنظر اليه روكامبول نظرة الحائف القانط دون أن يجيب ، وعند ذلك تقدمت باكارا من الكونت وسارت به الى آخر الغرفة وسألته : لا تقتل هذا الرجل فقد يحمله الخوف على الإقرار بأسرار أخرى .
ابك أعطيتني في هذا الصباح سلطاناً مطلقاً ودعيني أفعل ما أشاء واخرجني الآن مع هذه المرأة التي سينغمى عليها ودعيني أفعل ما يجب .
لا تقتله لأنني لا أريد .

— اذهبي لأنه ينظر اليك

فخرجت باكارا مؤملة بشفقة الكونت لأنها لم تطق ان تكون السبب في قتل هذا الشاب .

أما الكونت فانه رجع إلى الخامين وأشار لهما إشارة خاصة ففعل أحدهما قيود الكيس ودنا الثاني من روكامبول وقبض عليه بيد من حديد وعاد الكونت وقال لروكامبول : قل لمن تريد أن أدفع المال .

وقد خطر لروكامبول خاطر غريب يخطر لهؤلاء اللصوص عند الشدة ونظر الى الكونت أرتوف وقال له أملكك تريد قتلي غرقاً ؟

— إن نهر المارن بعيد الغور ولا بد أن تكون قتلت في حياتك الأثيمة بعض الأبرياء مثل هذه القتلة فاذا كر اسم وريثك .

فقال روكامبول : اني لا أقداني إلى طلب العفو منك ولا أريد أن يكون وريثي غير الصدفه .

— ماذا تريد بالصدفة ؟

انك ستلقى بي إلى المياه أليس كذلك ؟

— نعم . وستلقى اليها حياً ضمن هذا الكيس ، بعد أن تسد عليك منافذه

— مينة شرقية ولكن نهر المارن ليس له عمق البوسفور ، أريد بذلك أن

جثتي قد يعثر بها أحد الصيادين ؟

.. وبعد ذلك ..

.. ومتى عثر الصياد بجثتي فهو لا بد أن يبحث في جيوبي فيري فيها الحوالة

التي أعطيني أياها على بنك روتشيلد فيقبضها ويكون وريثي .

— انه فكر حسن وليكن ما تريد ، ثم جعل يحادث الخادمين باللغة

الروسية ، ونسي روكامبول المال وجعل يفتكر بذلك الخاطر الذي خطر له

وأمل فيه النجاة ولم يعد يخشى إلا أمر واحد وهو أن يقيدوه قبل وضعه

في الكيس .

ولما فرغ الكونت من حديثه مع الخادمين نظر إلى روكامبول قائلاً . يعجبني

منك ما تظهره من عدم الاكتراث للموت مما يدل على بسالتك ومن له مثل هذا

الصبر على الخطوب فلا بد من مراعاته بعض المراعاة في مثل هذه المواقف .

فقال له بلهجة الساخر : أشكرك لكرم أخلاقك .

فقال الكونت : جرت العادة باغراق المجرمين أن يقيدوا أيديهم وأرسلهم

ومنهم من يدعونهم مطلقاً الأيدي ، إذ طلبوا ذلك وأريد مراعاتهم فمن أي

فريق أنت ؟

.. من الفريق الثاني ..

— إذن تدخل الكيس من تلقاء نفسك دون أن يمسه أحد.

وتكن روكامبول من اخفاء فرجه وقال : نعم

وعند ذلك كلم الكونت الخادمين باللغة الروسية فتركا الكيس في الارض

وابتعدا عنه .

وحاول روكامبول أن يزع نفسه فيه فسأله الكونت : ألا تؤمن بالله ألا
تصلي قبل الموت ؟
- نعم . لقد أصبت ثم ركع وجعل يتمم هنيئة ونهض فسلم سلام الأبطال
القدماء ودخل في الكيس وأشار الكونت الى الخادمين وربطوا الكيس من
فوق رأسه رباطاً وثيقاً وذهب أحدهما إلى النافذة المطلة على النهر وفتح مصراعها
وحمل الثاني روكامبول ضمن الكيس والقاه من النافذة ، فشق عباب الماء وكان
له دوي شديد
أما الكونت فانه أمر الخادم أن يقفل النافذة فأقفلهما ثم امره أن يفتح الباب
ففتحه ودخلت منه باكارا ولما علمت انه القاه في النهر قالت له بصوت المونب
أعصيتني وقتلته ؟
- نعم . فاذا كان قد مات فلقد عاش بوته كثيرين .

- ٦٠ -

بعد ذلك بساعة خرجت باكارا من منزل مدام الفونس يصحبها الكونت
أرتوف وكانت نفسها منقبضة لقتل روكامبول فقد كانت تحب ان يبقى عليه
الكونت بعد اقراره لاعتقادها انه لم يكن غير آلة بيد اندريا ، ومما زالت
تسير بها المركبة حتى بلغت الى منزلها فاستوقفتها وودعت الكونت ارتوف
وحاولت الدخول اليه ، فوجدت الباب مفتوحاً خلافاً للعادة فأرجست شراً
ودخلت الى الفسحة الخارجية ، ورأت ان باب المنزل الداخلي مفتوح أيضاً
ونادت الخادمة فلم تجب فأعادت النداء دون أن تسمع من مجيب ، وعند ذلك
وقفت تصغي وقد ساد السكون بعد انتصاف الليل ، فسمعت أنيناً صادراً من
غرفة تلك الخادمة ، فعلمت انه قد فاجأها مصاب ، ولم تجزع لفتح الأبواب ،
وما سمعته من الأنين بل انها دخلت الى المنزل ببسالة تنذر في الرجال حتى

بلغت الى غرفة الخادمة فسمعت ذلك الأنين ونادتها فلم تجب ، وحاولت أن تفتح الباب فوجدته مقفلاً فرفسته فبرجلها فتحت ، وأثارت الغرفة فوجدت تلك المسكينة مقيدة اليدين والرجلين مكومة الفم على ما تركها روكامبول ، فأسرعت الى حل رباطها وسألها منذرة : ماذا حدث .

- لقد اختطفوا الفتاة يا سيدتي بعد أن تركوني كما رأيت

من هم الذين اختطفوها ؟

- ثلاثة وهم امرأة عجوز وشاب وعبد أسود .

فصاحت باكارا صيحة منكورة : ان هذا العبد خادم الماركيز وشريك روكامبول وقد أصبت فإن هذا الشقي مات دون ان يعترف بكل شيء .
إلا ان باكارا كانت منخدعة فان روكامبول لم يمت بل انه أفلت من كفنه واليك البيان :

انه بينما كان الكونت ارتوف يلح عليه بذكر اسم وارثه ليدفع له المائة الف فرنك ، وبينما باكارا تلتمس من الكونت ان يبقى عليه كان روكامبول يقول في نفسه ان لدي خنجرأ خبأته تحت صدرتي وان الكيس الذي سيضعوني فيه متسع بحيث لا يعيق يدي عن الحركة ، ثم انهم سيلقونني في نهر المارن من موضع مرتفع ، ولكن هذا النهر بعيد الغور ، فسأصل الى غوره سحياً وعند ذلك أشق الكيس بخنجري واصعد منه الى سطح الماء فألجؤ .

فلما دخل إلى الكيس وجعل الخادمان يربطان فم ذلك الكيس أدخل روكامبول يده من تحت صدرته وقبض على قبضة الخنجر ثم لبث واقفاً دون حراك حتى اذا القوه في الماء أخرج الخنجر قبل أن يبلغ اليها فوصل الى منتهى عمق النهر بمشر توان ومزق الكيس وهو من المشمع بخنجره ، فأخرج منه يديه ورجليه دفعة واحدة وحين اصبح حراً ضرب الأرض برجليه وذهب صعداً حتى بلغ الى سطح المياه فتنفس الهواء وغاص مسرعاً حذراً من ان يروه من النافذة ولكن الظلام كان مشتت الحللك وقد اقفلت النوافذ حين القائه منها .

وكان روكامبول من الماهرين في السباحة لأنه ربي بين الأنهار ، فما زال يسبح غائصاً تحت الماء . وكلما انقطع نفسه صعد متنفساً حتى بلغ الى الشاطئ فصعد اليه وهو لا يصدق بالنجاة . وجعل يبتعد عن هذا المنزل وهو يلتفت في كل حين حذراً من أن يتبعه أحد الى أن وصل الى صخر مرتفع ، فاختم وراءه وجلس يراقب المنزل الذي كان فيه . وأقام ساعة مبتل الثياب وأعضاؤه ترتجف من البرد حتى رأى ان الأنوار قد انطفأت . ثم لم يمض على ذلك هنية حتى سمع مركبة خرجت من ردهة المنزل فعلم أن من فيه قد رجعوا الى باريس . وجعل يركض مقاومة لتأثير البرد الى جهة خزانة كان رآها حين قدومه الى المنزل حتى وصل اليها وهو لا يزال بلباسه المكيذية الدالة على السعة والثروة . فاحتفل به صاحب الحانة ، إذ لم يتعود ان يتشرف بزيارة مثل هؤلاء النبلاء . فأخرج روكامبول ديناراً من جيبه ودفعه اليه ، فأمر أن يعد له ناراً للتدفئة وان يحضر له شيئاً من الشراب ، ثم طلب اليه أن يعطيه ما لديه من الثياب . فأعطاه ثوباً من ثيابه فخلع المبتل بعد أن أخذ منه الحوالة ولبس ثوب الحانة . وقد أخبره انه سقط في النهر اتفاقاً .

ثم تركه وجعل يمشي الى ان لقي مركبة فركبها وذهب الى مدام فيبار ، فأيقظها ورأى اليهودية قائمة عندها . فأخبرها بجميع ما حدث له . وكان الصباح طلع فأمرها ان تذهب وتتردد حول منزل الكونت ارتوف كي تعلم اذا كان قتله فانتير ، وأن تكتم حديثه أمام أعوانه لأنه عزم على الا يعود الى فندقه بل يسافر رأساً الى لقاء أنديا . فذهبت المعجوز بعد ان أقفلت الباب وراءها حذراً من فرار الصبية ونام روكامبول في سريرها .

وفي الساعة التاسعة أقبلت المعجوز فأيقظته وقالت له : أظن أن الكونت قد قتل .

- كيف ذلك ؟

- ذلك لأنني رأيت فانتير والانكليزي الربان خارجين من الفندق الذي كنت

فيه في الساعة الثامنة وعليها ملامح السرور .
فطرب روكامبول وأجاب فلاذهب للقاء السير فيليام ، إذ لم يبق لي ما
أعمله في باريس .

ونفض فمخرج من منزل المعجوز ، وذهب توأ الى بنك روتشيلد ، فقبض
المائة الف فرنك حوالة على بنك لندرا ، وذهب الى حيث ينتظره أندريا

أما أندريا فكان مقيماً مع أخيه في كارلوفان يدهشه بظواهر قداسته
ويظهر له كل يوم آية جديدة من آيات توبته . وكان أرمان يذوب تشوقاً الى
معرفة سر مبارزة أخيه مع المركيز . وفي كل يوم كان يسأله عن هذا السر
فيماطله الى ان أخبره أخيراً أن المركيز قد تجرأ على امرأته ودخل ليلاً الى
منزلها الى آخر ما يعرفه القراء من هذا الحديث ، فغضب أرمان غضباً شديداً
وأقسم انه لا بد له من قتل هذا الرجل السافل الذي يتجرأ على أظهر امرأة
فطيب أندريا خاطره وغادره وهو فرح القلب كي يقابل روكامبول ويعلمه كيف
يقابل امرأة أخيه مرة ثانية .

وكان اتفاقه مع روكامبول ان يقابله في سانت مالو ، فلما بلغ اليها وجده
ينتظره في المكان المعين فسر به اندريا وأثنى عليه فقال له روكامبول : أتعلم من
آين أنا آت ؟

— الست قادمًا من باريس ؟

— كلا ، بل أتيت من دار الأبدية .

فضحك أندريا وقال : لا أظنك أتيت ، إذ لا أجد في وجهك أثرًا من
آثار الأبالسة .

— ربما كان ذلك لأنني لقيتك فأزالت بركات قدسك من وجهي تلك الآثار .
ولكني ما أتيت إلا من قعر نهر المارن .

— الملك غرقت فيه ؟

— لا بل أغرقوني

ثم قص عليه جميع ما جرى له بالتفصيل فاصفر وجه اندريا الى أن أخبره بما علمه من المعجوز عن قتل الكونت أرتوف فطاب خاطره ولم يعد يخشى لقائه مع جون ايرد فقال له : يجب السرعة الآن ، فاذا كان الكونت قد قتل فإن جون ايرد سيقضي على باكارا فلا يبقى علينا غير قتل ارمان .

ثم جعل يعلمه كيف يصل الى مقابلة امرأته حنة ، فدله على المنزل وأرشده الى مدخل الغرفة التي تقيم عادة فيها ، وهي غرفة مجاورة لغرفة يشتغل فيها زوجها بحيث لو نادته بأخفض صوت لسمع نداءها وقال : إذا احتجت الى أن تكلمها كما كلمتها المرة السابقة . ولكنك لا تحتاج الى الكلام ، فإنها ستصبح حين تراك فيسرع اليك زوجها ، وهو رجل شريف ويشق بأذك شريف أيضاً ، فيبارزك وتطعمه بالسيف تلك الطعنة الايطالية التي تعلمتها . فاذهب الآن على بركات الأبالسة .

— إني لا أؤمن ان يقبض علي خدام الكونت حين يرون اني قتلت سيدهم ويسلمونني للشرطة .

— وماذا عليك منهم فانك قتلت خصمك بالمبارزة وهي غير ممنوعة .

— وماذا أصنع بعد قتله ؟

— إنك تذهب الى سانت مالو حيث توافيني فيها .

— أين ؟

— في سفينة الربان الانكليزي إذ لا بد لي من وداع باكارا .

ثم أطلعه على رسالة وردت اليه من الهافر من جون ايرد يخبره فيها بالفوز ، وانه سيسافر ببكارا الى جزائر المريكز .

وافترق الاثنان فذهب اندريا الى سانت مالو ، وذهب روكامبول الى قصر كارلوفان .

وكان الظلام قد خيم والخدم في القصر يتأهبون لاعداد العشاء ، وحنة جالسة في غرفتها تملهى بالتطريز وتلتظر قدوم زوجها اليها كي يذهب بها الى

المائدة . وبينما هي على هذه الحال ، إذ طرق باب غرفتها فحسبت ان الطارق
أرمان وقالت له : أدخل .
ولما فتح الباب ورأت ان الداخل لم يكن زوجها بل كان المريكز صاحبت
صبيحة ذعر وصرخت تقول : إلي يا ارمان . . .

فركع روكامبول أمامها وقال لها : لماذا تخافي أيتها الحبيبة وأنا موقف
حياتي في سبيل رضاك ؟
ولكن لم يكذب يتم حديثه حق انقض عليه رجل انقضا الصاعقة وهو
يزيد من الغضب لإزباد الجمال وكان هذا الرجل أرمان .

أما روكامبول فقد كان يتوقع هذه المباغته ، فمد يده الى جيبه وقبض
فيها على غدارته للدفاع . ولم يكن في يد أرمان سلاح ولكنه كان قوي المصعب
والعضل ، وقد زاده الغضب قوة وبأساً فقبض على روكامبول بيد من
حديد وأنهضه بعد أن كان راكعاً وكان الغضب قد أضاع صوابه فقبض على
عنقه يريد خنقه فجعل روكامبول يصيح بلء صوته إلي . إلى القاتل . . .
إلى السفاك . . .

فلما سمع الكونت كلمة السفاك عاد اليه رشده ، ورفع يده عن عنقه
وترجع عنه خطوة الى الوراء وهو ينظر اليه بعينين تتقدان من شرر الغيظ ،
وقال له : لقد أصبت ، فإنك وإن كنت قد دخلت الى منزلي دخول
للصوص ، فإنني لا أقتلك دون ان يكون لك سلاح تدافع به عن نفسك .

ثم هجم عليه وصفعه باحدى يديه على وجهه وأخذ باليد الأخرى سيفين
كانا معلقين على الجدار .

وعند ذلك تراكض الخدم مسرعين الى الغرفة ، فأمر الكونت بعضهم أن
يمتني بامراته التي أغمي عليها ، وأمر الآخرين أن يذهبوا بالأنوار الى
الحديقة . وخرج يتبعه روكامبول الى الحديقة التي جعلها ساحة لهذا
المعترك . وهناك قال للخدم : انه إذا قتلتني هذا الرجل ، فلا يقبض

أحد عليه .
ثم أخذ الاثنان يتقارعان بسيفهما لا يحضر مبارزتهما غير الخدم

- ٦١ -

وبينما كان الكونت وروكامبول يتبارزان ، كان أندريا يسير آمناً مطمئناً الى سانت مالو وهو يلتفت من حين الى حين الى قصر كارلوفان فيخفي البعد ألواره حتى احتجبت تلك الأنوار عن عينيه فقال في نفسه : هوذا قد أطفأ آخر نور من عائلة كركاز . وابتسم ابتسام الأبالسة وهو يقول : لقد ظفرت بعد صبري الطويل

ثم نظر الى جهة البحر فرأى أن سهماً نارياً عقبه أسهم جعلت تشق كبدا السماء فانتعش جسمه من الفرح وقال . هوذا الربان قد ظهر بباكارا وحبسها بالسفينة ، وهذه الأسهم هي الإشارة المصطلح عليها بيننا .
وانطلق مسرعاً الى الميناء وعزم على ان يذهب الى السفينة في اول قارب يصادفه . ولما مشى قليلاً سمع صوت رجل يناديه ، ونظر اليه منذهلاً فاذا هو جون ايرد ربان السفينة فحياء الربان باحترام وقال له : قد أتيت لأذهب بك الى السفينة فانهم ينتظرون فيها .

ففرح اندريا وقال : أوقع الطير في الشرك ؟

- نعم بحسن تدبيرك .

- كيف رأيت جمال باكارا ؟

- إنها تستحق ان تكون ملكة لتلك القبائل المتوحشة الذاهبة اليها .

- بل لني أثر ان يمزقوها حية ويولموا عليها اللائم .

- ربما كان هذا نصيبها أفلا تزورها وتودعها بكلمة ؟

— إني ما أتيت إلا لهذا . إمض بنا .
ثم ركب الاثنان قارب السفينة وجرى بهما حتى بلغ الى السفينة فصعد اليها
فقاذه الربان الى قاعة فيها وقال له فسأرسل اليك باكارا .
ولم يمض هنيهة حتى دخلت باكارا وقالت له أهذا أنت يا سيدي
الفيكونت ؟
فضحك أندريا ضحكاً عالياً وقال لها لست بسيدك الفيكونت بل أنا
السير فيليام الذي عرفته من قبل .
فنظرت اليه باكارا باحتقار وقالت له : إني أعرف ان تلك التوبة لم تكن
غير كاذبة وان نار انتقامك كانت كامنة تحت رماد الغش والتدليس ثم اني
أعلم ان هذا الرجل بل هذا الوحش الضاري الذي أحبطت جميع مساعيه
الشريرة وأمانيه الأثيمة يكرهني الى ان يتمنى لي الموت .
— لقد أصبت ايها العزيرة فان جميع الذي لفظت به حق لا ريب فيه .
— واني أعلم ايضاً انه اختطف تلك الفتاة التي كنت أربيهما في منزلي وكان
يحبها حب الفجار الفاسقين .
— إنها جميلة هذه الفتاة وان مدام فيبيار ستربيهما في باريس بدلاً منك .
فقال له ربان السفينة الذي كان يسمع الحديث : لقد أخطأت يا حضرة
السير فيليام لأن الفتاة ليست في باريس بل هي في سفيني .
ونظرت باكارا الى اندريا فرأته يصفر ويضطرب فقالت له بلهجة الهازيء :
لقد صدق المثل القائل ان لكل صارم نبوة ، فلقد كنت رجلاً لا يحتفل بالنظام
الإنساني ولا يكثرث للشرائع المقدسة ولا قيمة لديه لحياة الناس بل كنت تمشي
الى غايتك لا تلتوي عنها مشي الظل الزاحف . فما كنت تجد في سبيلك حجر
عثرة تصدك عن قصدك غير ان الله نظر الى شرك وأراد ان يوقفك عند حد في
أفامك فوضع نصب عينيك هذه الفتاة التي كان يضطرب لها فؤادك على خلوها من
عواطف الانسان .

فضحك اندريا ايضاً وقال للربان : إذا كانت الفتاة هنا فلماذا لا تحضرها لي للسمع حديثها بدلاً من حديث هذه المرأة .
فأجاب : ها انا ذاهب لاحضارها .

ولما خلا اندريا ببها كارا قال لها : لقد خسرت بمسألة فرناند خمسة ملايين ولو لم أتمكن من الفرار لكنت قتلتك .

— كان ينبغي ان تقتل .
— ربما ولكني لم أجد بداً من مكافأتك ، فلقد أعددت لك جزاءً غريباً
أتعلمين ما هو ؟

وردت باكارا دون اكتراث . كلا فما هو ؟

— إنك الآن في سفينة تدعى فولر ، ربانها من رجالي وستسير هذه السفينة اليوم الى اوسيانكا . أما جزاؤك فهو اني أمرت هذا الربان ان يلقي بك في إحدى جزر القبائل المتوحشة حيث يصنعون كل يوم وليمة على قطعة من جسدك الترف الناعم .

ثم قمقه ضاحكاً وهو يحسب ان باكارا ستصيح صياح الرعب وتسقط متوسلة على قدميه . غير انها كانت تسمع حديثه متبسمة ، ولما فرغ منه قالت له : لقد أخطأت يا حضرة المنتقم فلست انا التي سأذهب الى هذه القبائل المتوحشة بل انت .

وحين انتهت الى هذه الكلمة أزيح الستار عن باب الغرفة وولج منه رجل وقال له : لقد كنت تحسبني ميتاً فيما أظن .

ورجع اندريا منذعراً الى الوراء لأن هذا الرجل كان الكونت ارتوف .

ولنظهر الآن السبب في قدوم الكونت ارتوف فنتقـول انه حين القى
روكامبول في البحر عاد مع باكارا ومدام الفونس الى باريس ، فأوصل
باكارا الى منزلها وذهب بـمـدام الفونس الى منزله كي يدفع لها المائة الف فرنك
حسب الاتفاق .

وقد تقدم لنا القول ان فانتير كان قبض من روكامبول نصف اجرته عن
قتل الكونت ارتوف وتمهد ان يقتله في تلك الليلة فتربص له على باب النادي
الذي كان يسهر فيه الى الساعة الحادية عشر ، فلم يخرج ثم رأى سائق مركبته
يعود بها في طريق منزله دون ان يكون فيها الكونت ، فحسب انه يريد
أن يسهر في منزل باكارا . وللاحوال ركض حتى أدرك المركبة فتعلق بها ثم
دخل تحتها مستنداً على قاعدة الدواليب . ولما بلغت المنزل فتحت البواب الباب
الخارجي ودخلت الى الردهة ودخل فانتير فيها فأقام مختبئاً بين دواليبها ساعة
حذراً من ان يعود السائق لغرض من الأغراض ، وبعد ذلك طلع من مخبأه ،
وكان يعرف منزل الكونت لصداقته مع الخدم ، فانسل دون ان يشعر به
أحد من الخدم لأنهم كانوا نياماً ، وفتح الباب بمفتاح خاص ثم ولج الى غرفة
مجاورة للغرفة التي ينام فيها الكونت وتربص مختبئاً فيها .

ولبث في مكانه حتى عاد الكونت مع مدام الفونس ودخل الى غرفته
وسمع فانتير صوتها ونظر من ثقب الباب فرأى مدام الفونس وعلم انها المرأة
التي ذهب اليها روكامبول ، فعجب لهذا الاتفاق وأنصت لحديثهما كي لا تفوته
كلمة منه فرأى ان هذه المرأة جلست على مقعد جلوس المضطرب وقالت :
أمر فظيع هائل

فقال لها الكونت : لا أنكر ما تقولين . ولكنه كان واجباً لا بد منه
فقد رأيت بعينيك وسمعت باذنك فعلت ما أعلمه من آثام هذا الرجل .

– وأنا لا أنكر ايضاً انه أنيم ولكن أكان يجب قتله لهذه الآثام ؟
فاضطرب فانتير في ممكنه وقال : عن أي رجل يتكلمان العله روكامبول ؟
ثم سمع الكونت يقول معترضاً : كيف لا يجب قتله ولو أبقينا هذا المركيز
الكاذب أما كان قتل الكونت ارمان ؟

فجعل العرق البارد ينصب من جبينه وقد أيقن أن روكامبول مات وأنه لم
يعد له رجاء بقبض المال منه .
أما مدام الفونس فإنها أعيت عن الجواب ، ولكنها لبثت مستنكرة للقتل
فقال لها الكونت : إنك ستكتمين هذا السر في كل حال .
– لا بد لي من كتمانته لأني شريكة لكما بقتل هذا المسكين .
– بقي أن أدفع لك المائة الف فرنك التي وعدتك بها .

ثم ذهب الى خزانته ففتحتها وأخرج منها أوراقاً بهذه القيمة وهو يقول :
ليس لدي اليوم غير هذه القيمة فخذيها .
– كلا ، فإن هذا المال ثمن دم ذلك المسكين وهو ورثني الشقاء .
والح عليها فأبّت فقال لها : إذن خذيها وضعيها في صندوق الصدقات المعلق
على باب كنيسة نوتردام ، وهذه مركبتى انها توصلك الى الكنيسة ثم تذهب
بك الى منزلك .
– أحسنت فإن التبرع بهذا المال على الفقراء سيكون كفارة عن ذنوبي .
وأخذت المال وودعته وانصرفت .

وبينما كان الكونت ينزع ثيابه لينام كان فانتير يقول في نفسه : إن
روكامبول مات بعد ان أباح بأسرار السير فيليام ، ولا بد ان يكون الكونت
وباكارا قد اتخذوا الوسائل اللازمة لانقاذ ارمان دي كركاز من مخالب أخيه فاذا
قتلت هذا الكونت فلا أستفيد من قتله شيئاً لا سيما وانه لم يبق في خزانته شيء
من المال وخير لي ان اتفق مع هذا الكونت فقد يعرض علي ما خسرت بهوت
روكامبول .

وعند ذلك فتح باب الغرفة المختبئة فيها ، ودخل وبيده الغدادة على الكونت . وكان الكونت قد خلع ثيابه وصعد الى سريره وأخذ يقرأ في كتاب ، فلما رأى هذا الأسود داخل اليه وبيده غدادة بصوبها اليه دعر لمنظره غير أنه تجلد ولم يظهر شيئاً من دلائل الخوف بل قال له بسكينة : من أنت وماذا تريد ؟

فوضع فسانتير الغدادة على المستوقد ، ودنا من سرير الكونت ، ووقف بإزائه وقال :

- إنك يا سيدي الكونت رجل شريف لا تخل بوعده ولو صدر هذا الوعد منك الى لص .

- ذلك لا ريب فيه ولكن من أنت وماذا تريد ؟

-- أنا لص وقد أوشكت ان اكون قاتلاً . أما ما أريده فلا انطق به إلا اذا تعهدت لي ان تسمعي دون أن تنادي خدامك فيطردوني .

- ١٠ - انا أتعهد لك بسماع جميع حديثك

ذلك يا سيدي الكونت دخول اللصوص ولكني لم أكن ، ما هو أعز من المال .

ريد قتلي ؟

سم يرد دمت مدفوعاً الى قتلك باجرة معينة قدرها عشرة آلاف فرنك قبضت نصفها مقدماً

وابتسم الكونت وقال : احب ان أعرف اسم هذا الرجل الذي يقدر حياتي بهذه القيمة .

- إنها قيمة زهيدة يا سيدي الكونت ولكنك من الأغنياء .

وابتسم الكونت أيضاً وقال : لقد علمت الآن السبب في عفوك عني ، فلقد قلت في نفسك ان الكونت غني وقد يمنحني ضعف هذه القيمة فاذا كان ذلك فاني أمنحك عشرين ألف فرنك فاذهب بسلام .

- أشكرك يا سيدي جزيل الشكر إلا إنني لم أتشرف بالمثل أمامك لهذا السبب وحده .
- لأي سبب ؟
- إنك يا سيدي تراني أسود اللون غير اني إذا اغتسلت بالماء الساخن ودهنت جسمي ببعض المواد صار أكثر بياضاً من جسمك .
- ماذا أسمع الست إذن عبداً أسود ؟
- كلا يا سيدي ولكن دخولي في خدمة المركيز دون اينجو اضطرني الى ان أصبغ جسمي بلون اسود .
- أنت كنت في خدمة هذا الرجل ؟
- نعم .
- وهو الذي دفع لك خمسة آلاف لتقتلني ؟
- نعم .
- لقد أحسنت اذن برجوعك عن قتلي لأذك لو قتلتني لحسرت الخمسة آلاف الأخرى .
- لقد عرفت يا سيدي لأني سمعت ما كنت تحدث به تلك السيدة .
- إذن أخبرني الآن بماذا تريد ؟
- إنك وعدتني أولاً بأن تمنحني عشرين ألف فرنك ، ثم تسمع جميع حديثي .
- سأفي بالشرطين
- إذن ، اعلم ان لهذا المركيز الذي قتلته اسماً ثانياً .
- عرفت ذلك .
- إنما بقي امر ثان لم تعلمه وهو اننا لذي سر هائل يختص بشخص تحبه فاذا وقفت عليك فانك تساومني بمشتراه
- فاضطرب الكونت وقال : من هو هذا الذي احبه ؟

— أعيده عليك يا سيدي ما وعدتني به من إطلاق سراحني بعد الوقوف على أسرارني ثم أذكرك اني رضيت بعشرين الف فرنك مقابل رجوعي عن قتلك إلا ان السر الذي سأطعمك عليه يساوي اكثر من هذا الثمن وسأذكر لك اسم الشخص كي تعلم خطورة هذا السر إنه باكارا .

وانذرع الكونت وقال : باكارا ... العلمها مهددة بخطر ؟

— وبخطر عظيم .

— وهل تستطيع الإجابة به ؟

— دون شك

— إذن اذكر المبلغ الذي تريده وقل لي

— لا تظن يا سيدي اني أطمع بك . ولكن الخطر الذي يتهدد باكارا أشد من الموت . ومثل هذا السر لا يباح بأقل من مائة الف فرنك ، فهبني هذا المبلغ وأنا أعاهدك على ان أسلمك ايضاً هذا الرجل الذي تطارداه دون أن تتمكن من القبض عليه ، والذي لم يكن روكامبول او المركيز سوى آلة في يده .

— الملك تعفي السير فيليام ؟

— نعم .

فأشار الكونت الى منضدة وقال له : ادنّها مني كي أكتب لك حوالته على بنك إذ ليس لدي شيء من المال

فامتثل فنتير وبينما هو يدني من المنضدة ، إذ فتح الباب بفتحة ودخلت منه باكارا وهي منذرة شاحبة اللون فقالت قبل ان ترى فانتير : إنهم دخلوا الى منزلي في الليل واختطفوا الفتاة .

ثم رأت فانتير فصاحت صيحة منكورة لأن الخادمة روت لها ان بين الذين اقتحموا المنزل كان يوجد رجل أسود

أما الكونت فانه وثب من سريره ولبس عباءة وأسرع الى باكارا ووضع

يدها بين يديه وقال لها : لا تخافي ان هذا الرجل . .
وقاطعه فانتير قائلاً : هذا الرجل هو أحد الذين اختطفوا الفتاة . ثم
قال لباكارا : لا تخشني يا سيدتي إن الفتاة ترد اليك سالمة في الغد

وعند ذلك قدم المنضدة حتى وضعها قرب الكونت ، فقال له : أعلم يا
سيدتي السفاك إنك لو عاهدت رجلاً من عوام الناس لحنت بعده معك ، إن
هذه السيدة الآن بقربي ولا خوف عليها ، ولكني من النبلاء ولا يحنت النبيل
بما يعد

فابتسم فانتير وقال ان وجود السيدة باكارا بقربك لا يبعد عنها الخطر
الهائل الذي ينذرهما اذا لم أتكلم واذكر اسم ذلك المنتقم .

فقال باكارا : من هو هذا الرجل وما شأنه ؟

فروى لها الكونت بجميع ما كان بينه وبين فانتير فقال اني أعيد
عليك ما قلت وهو اني اذا ذكرت لك اسم رجل لا يعلم بوجوده في
باريس سواي ، تتلاشى عن السيدة كل المخاطر ، وتقبض على السير
فيليام كما تشاء .

فأجابته الكونت بأن وضع ورقة وكتب عليها حوالة على بنك روتشيلد
بمائة الف فرنك ودفعها اليه ، فوضعها فانتير في جيبه والتفت الى باكارا
قائلاً : لا أعلم يا سيدتي ماذا فعلت مع السير فيليام فاستحقيت منه هذا الكره
الوحشي واعلمي الآن انه لو لم يحسن إلي الكونت ارتوف ويعطيني من النقود
ما يكفيني لأن أعيش سيئة صالحة الى نهاية أيامي لتمكن السير فيليام من
ان ينفذ بك انتقامه الهائل ، فان لديه الآن رجلاً يحكم على عصابة لصوص تعهد
للسير فيليام ان يحملك على سفينة الى جزائر المركيز ويلقبك فيها بين مخالب
قبائلها المتوحشة .

وان هذا اللص السفاك مدين لرجلين يخلص لهما إخلاصاً شديداً وأحد هذين
الرجلين السير فيليام وهو يقتل نفسه من أجل السير فيليام ، ولكنه يقتل السير

فيليام من أجل ذلك الرجل الثاني .
فسأله الكونت مندهلاً : من هو هذا الرجل ؟
- هو أنت يا سيدي .
فزاد عجباً وسأله : من هو هذا اللص وما اسمه ؟
- إنه رجل أنقذت حبيبته من النار .
فتذكر تلك الحادثة وسأله : أهو ربان إنكليزي ؟
- نعم ، وهو يدعى جون ايرد . فاذا أمرتني يا سيدي احضرته اليك من
فندقه حالاً .
فنادى الكونت أحد الخدم قائلاً : خذ باحدى مركباتي هذا الرجل الى
حيث يريد وارجع به إلي .
فذهب فانتهر الى الفندق الذي يقيم فيه الربان وأيقظه من رقاده قائلاً : هل
انت مستعد لاختطاف السيدة ؟
- نعم ، لأنني لا اعصى امرأ للسير فيليام .
- ولكنك اذا عرفت من هي هذه السيدة فانك ترجع عن طاعته .
... من هي ؟
- هي حبيبة الكونت ارنوف .
فدعر الربان بما سمع واجاب : إذن لا بد لي من قتل السير فيليام لانه
اقترح علي مثل هذه الخيانة .
- ان الكونت يتوقع منك احسن من ذلك فهو يريد ان تذهب بالسير فيليام
إلى هذه القبائل المتوحشة بدلاً من باكارا .
فأجاب الربان بهرودة الانكليز : ليكن ما يريد الكونت :
- اذن لنذهب اليه .
وذهب الاثنان إلى الفندق الذي يقيم فيه روكامبول ، وذلك لأنه خطر
لفانتير ان يسرق جميع ما يحده لدى روكامبول بعد أن علم بقتله ، ولما خرجا

من هذا الفندق شاهدتهما مدام فيبار رعلى وجهيهما علائم السرور فأيقنت ان فانتير قتل الكونت أرتوف، واخبرت روكامبول بما تقدم ، وبعد هنيئة وصلا إلى الكونت أرتوف فأمرهما أن يختطفيا الفتاة اليهودية من منزل المعجوز ففعلا وعاد بها إلى باكارا ، وفي اليوم التالي ذهبوا جميعهم إلى باخرة الران ما عدا فانتير فإنه أخذ الأموال التي منحه اياها الكونت وسافر بها إلى لندرا .

- ٦٣ -

لقد تركنا ارمان وروكامبول يتلاحمان على ضوء المشاعل التي كان ينيرها الخدم ، وكان روكامبول معتمداً في مبارزته على الضربة الايطالية التي تعلمها وهو واثق من التغلب على الكونت ، فكان يقاتله بسكينة وبرود خلافاً للكونت فإنه كان هائجاً أشد الهياج ، فلما ضاق ذرع روكامبول ورأى ان خصمه خبير بفنون القتال وانه يوشك أن يتغلب عليه عمد إلى الضربة الايطالية إلا انه ما لبث أن بدأ بمقدماتها حتى علم الكونت قصده وصاح به خست اياها الغادر فأبى تعلمت هذه الطعنة قبلك ، ثم انقض عليه انقضاض الصاعقة وضربه ضربة شديدة وقعت في أعلى صدره فصاح روكامبول صيحة ألم وسقط على الأرض .

وعند ذلك رمى ارمان سيفه الى الأرض وسكن ثائر غضبه فأسرع إلى خصمه فضمده له جرحه وأمر الخدم أن يحملوه إلى غرفة في فناء القصر ثم أمر أخدم ان يسرع باحضار الطبيب وكأنه قد نسي جميع ما كان من خصمه فجلس بازاء سريره يعتني به ويعامله معاملة الصديق الرؤوف .

ولما حضر الطبيب كان روكامبول مغمياً عليه لفرط ما نزع من دماثه

فاستفاق من اغماؤه وسمع الكونت يسأل الطبيب : أعمل الجرح خطير ؟

— انه شديد الخطورة يا سيدي قد يفضي إلى الموت

ورأى الكونت ان روكامبول قد فتح عينيه ، فأشار للطبيب بالصمت .

ودنا الطبيب وجس نمض روكامبول ثم أشار لأرمان أن يتبعه فتبعه إلى نهاية الغرفة وجعل يحادثه بشأن الجريح .

أما روكامبول فانه اضطرب اضطراباً شديداً من الموت وذكر ان اندريا كان السبب في جميع ما أصابه من الشدائد وما يلقاه الآن من خطر الموت فمحق عليه وقال في نفسه : لا بد لي من الانتقام من هذا الرجل الذي لم يقتلني غير مبالغتي بالاعتماد عليه ، فكان يتنارعه عاملان وهما الخوف من الموت وكره اندريا الذي جرعه هذا الكأس .

وفيا هو على هذه الحالة من الاضطراب دنا الكونت من سريره وقد فرغ من محادثة الطبيب وقال له كيف أنت الآن ؟

فأجابه روكامبول أود يا سيدي الكونت أن أخلو بك ساعة فأبوح لك بسر خطير لا أحب أن ينزل معي إلى القبر .

فأشار ارمان الى الطبيب فانصرف وقال لروكامبول : قل فاني مصغ اليك — اني سمعت الطبيب يا سيدي يقول ان ساعاتي باتت معدودة فأردت أن تعرف من أنا وكيف اتصلت بك قبل أن أموت ، فساعلم يا سيدي اني لست المركيز دون أينجو ، وما أنا من أهل البرازيل .

فسأله ارمان منذهلاً : اذن من أنت ؟

— اني الآلة المنفذة لأغراض رجل يدعوونه الآن السير أرثير .

فاضطرب أرمان لأنه ذكر انه سمع هذا الاسم . وتابع روكامبول : وأنا

يا سيدي الذي تبارزت مع فرناند روشي وكان اسمي في ذلك الحين الكونت دي كامبول ، وحملت فرناند مع السير أرثير إلى منزل الفيروزة ، ثم قص عليه جميع ما جرى في منزل الفيروزة إلى أن أخبره كيف أن باكارا أحبطت جميع مساعي السير أرثير واضطرته إلى الفرار .

فاضطرب أرمان وقال له . من هو أرثير هذا وكيف لم يعلم بأثامه أخي؟ فابتسم رو كامبول وقال له : اصنع لي يا سيدي فلان السير أرثير هذا كان له كثير من المشروعات الأثيمة وقد اشركني في جميع أثامه فكان الرأس المرشد وكنت اليد العاملة . وقد خطر له يوماً أن يدع المركيز فان هوب يقتل امرأته كي يزوجه بابنة عمه الهندية .

- كيف ذلك ؟ أهى تلك المرأة التي وجدت ميتة في قصرها أمام عشيقها الذي قتلته .

لقد خدعتم ياسيدي فلان هذا المشيق السكاذب لم يكن إلا أنا ، ولم يكن الذي طعنني بالخنجر غير السير أرثير . ثم ذكر له تفاصيل جميع هذه الحكاية وهو يذكر له أندريا باسم السير أرثير ، إلى ان تولد الشك في نفس ارمان فقال له وقد فرغ صبره : من هو ارثير هذا ومن أين أتى ؟

- سأشرح لك عنه ما تريد فامهلني الى ان أتم حديثي واعلم ان هذا السير عندما حبطت جميع آمانيه بقي له رجاء واحد وهو ان يتزوج السيدة حنة دي كركاز متى أصبحت ارملة ولهذا قد علمني هذه الطعنة الايطالية وأمرني أن اقتلك .

وصاح ارمان صيحة رعب مما سمع ، وعاد رو كامبول إلى حديثه فقال : واعلم يا سيدي اني ما تجاسرت على حب السيدة دي كركاز ولا رفعت اليها نظري مرة لحسابي الخاص .

فقال أرمان بصوت يضطرب : إذن ما هذه المباراة مع أخي اندريا ؟

- أمعن بي النظر يا سيدي لعلك تعرفني ، وسأعينك على معرفتي ، ألا تذكر تلك الليلة في بوجيفال حين وضعت خنجرى على عنقي وطلبت الى أن أرشدك إلى حيث تقيم حنة وسريز .
فذكر ارمان لالحال تلك الليلة الهائلة وقال : لقد عرفتلك فأنت رو كامبول .

- نعم يا سيدي وأنا أيضاً ذلك الرجل الذي كان بين خدمك والذي كان يركب وراك في المركبة حين لقيت أخاك أندريا منطرحاً على الطريق كأنه على وشك الموت ، أما السير أرثير فقد كان يدعى من قبل السير فيليام وأنت تعلم ان السير فيليام هو الفيكونت أندريا وصاح ارمان صيحة منكزة وكاد يسقط من فرط تأثره .
فقال رو كامبول : وهو يا سيدي الذي يعلمني الطعنة الإيطالية منذ ثلاثة أشهر ، وهو الذي داني منذ ساعتين على الطريق التي أصل بها الى غرفة امرأة اخيه .

فذكر ارمان جميع ما قالته له باكارا عن أندريا وقال : تباً له من خائن .
- أن ما قلته لك يا سيدي صحيح لا ريب فيه على إنك إذا كنت مراقباً في صفة ما قلته فإن لدي برهاناً دامغاً ولكني لا أقوله لك مجاناً بل أبيعك إياه ببعاً ، ولا تحسب يا سيدي ان الندامة دعتنني إلى الإباحة بأسرار اندريا بل هو الانتقام لأنني ما أحببت أن أموت وحدي .
فقال ارمان : إذن قل برهانك .

- ان باكارا مهددة الآن بخطر هو شر من الموت فإذا بحت بهذا السر سلمت من الخطر وإلا فانها تقع في شرك السير فيليام .
- اسرع وقل ما تريد ثمن هذا السر

- أن تعدني أولاً انه إذا أخطأ الطبيب ولم أمت فلا تسلمني إلى الشرطة
- أقسم لك بشرفي على ان تخرج من منزلي حراً .

— ثانياً أن تعطيني يوم أخرج من منزلك مائة ألف فرنك وجواز سفر
الى انكلترا .

— سأعطيك ما طلبت فقل ..

فأخبره عند ذلك بجميع ما كاده أندريا لباكارا وأنها لا بد ان يكونا
الآن في سفينة الربان الانكليزي .

فهلع فؤاد ارمان من الخوف على باكارا ونادى أحد الخدم وطلب اليه
ان يسرج له جواداً في الحال ، وبعد عشر دقائق ركب جواده وسار ينهب به
الأرض الى الميناء . فقال روكامبول في نفسه : مت أيها الشقي وعزائي اني لا
أموت وحدي .

لنعد الان الى السفينة فلقد غادرنا اندريا منقلب السحنة منسدر الفؤاد حين طلع عليه الكونت ارتوف وهو يحسب ان فانتير قد قتله كما اخبره روكامبول ، فلما رآه ضاع صوابه وجعل يقلب طرفه بين الكونت وباكارا وينظر اليها نظرات اليأس لما كان يعلمه ان اجتماع هذا الكونت بالربان يقضي عليه فعلم للحال انه وقع في الشرك الذي نصبه وساد سكوت هائل بين الثلاثة فلم يتكلموا إلا بالنظر .

ولقد كان يحول في ذهن اندريا القاء نفسه الى البحر والفرار أو الهجوم بخنجره على باكارا أو الانتقام منها بالقتل ، الا انه لم يستطع تنفيذ شيء من ذلك لأن قوته قد تلاشت وفقد رشده شأن كبار المجرمين حين يباغتون بخطر لا يتوقعونه ، فبدأت باكارا الحديث فقالت بصوت هادئ ثابت خرج من فمها كالكضاء المبرم : لقد دنت ساعة العقاب يا حضرة الفيكونت أندريا ويا جناب السير فيليام .

فرفع اندريا رأسه وحاول ان يجيب فانقض عليه الكونت ارتوف انقضاض الصاعقة فقبض على عنقه بيد من حديد ووضع خنجره على صدره ينسدره بالموث فجعل اندريا يصيح بصوت مختنق : الي . يا جون . . الي ايها البحارة ثم حاول ان يجرد خنجره فلم يخرج نصف نصاله حتى القاه الكونت على الأرض ووضع ركبته فوق صدره ولم يعد يستطيع حراكا .

وعند ذلك أتمت باكارا حديثها فقالت . لقد قلت لك يا حضرة الفيكونت ان حبك الفاسد لهذه الفتاة اليهودية كان السبب في سقوطك ، فلقد اشركت في اختطافها جون ايرد وروكامبول ، وعهد هذا الأخير

شريكتك بالآثم الى فانتير ان يقتل الكونت ، ولكن فانتير خانكم جميعاً
وكان ذلك بقضاء من الله كي تنقطع شرورك من الأرض .

فأن اندريا أنين الموضع السقيم وجعل الزبد يخرج من شديقه فقالت باكارا :
كان جون ايرد شقيماً لصاً مثلك ولكنه كان له بين جنبيه قلب يعرف الامتنان
وقد أحسن اليه الكونت فاخلص له وانقلب من خدمة اللصوص إلى خدمة
الاشراف ، أعلمت الآن كيف وقعت في الشرك ؟

وقال له الكونت : انك تستغيث فلا يغيثك أحد وتطلب الاشفاق عليك
فلا تجد مشفقاً لأنك لم تشفق على أحد فاستسلم للموت فسينفذ فيك قضاء الله .
وعلم اندريا انه مقضي عليه فجعل يستعطف ويقول رحماً
فقالت له باكارا وهي تبتسم ابتسام المتهم : أملكك كنت رحمتني لو وقعت
في قبضتك .

فهاج الحقد بصدر اندريا حتى انساه موقفه الحاضر وقال : كلا .
— أما أنا فلو كنت أسأت إلي وحدي لكنت صفحت عنك ، غير أن الذين
أسأت اليهم كثيرون .

فلمعت عيناه ببارق من الأمل وعاد إلى التوسل والاستعطاف .

غير أن أملة لم يطل فأن باكارا قالت : لست أنا التي أحكم عليك الآن بل
الكونت ارتوف بل جميع اولئك الذين أسأت اليهم ، فانظر

وحين قالت هذا القول ازيج الستار عن باب الغرفة فارتعش أندريا حيث
انه رأى على مقعد طويل المركيز فان هوب وعلى يمينه الكونت ماييلي وعلى
يساره فرناند روشي ووراءهما ليون ورولانند والفيروزة التي جنت وهي تضحك
وتبكي في حين واحد وبالقرب منها الفتاة اليهودية .

فلما رأى اندريا هذا المنظر الهائل صاح يقول رحماً

نظرت باكارا اليه وقالت : هوذا الذين أسأت اليهم قد اصبحوا قضائك

الآن . ثم نظرت اليهم جميعهم وقالت لهم من اراد منكم ان يعفو عن هذا الاثم فليرفع يده ؟ فلم يرفع يده بينهم غير الفتاة اليهودية . فقالت باكارا : أنظر الى هذه الفتاة التي أردت أن تدنسها فانها وحدها التي صفحت عنك ولذلك فانك لا تموت ولكنك اذا سلمت من الموت فلا تسلم من العذاب .

وعند ذلك تولى الكلام عنها الكونت ارتوف فقال : نحن الان في البحر وصاحب هذه السفينة حاكم فيها تطيعه النووية كما تطيع الجنود قوادها وانت أيها الخائن قد اخترعت لنفسك العقاب فستقذف بك هذه السفينة إلى أحد شواطئ جزيرة المريكز فتلقى من توحش قبائلها جزاء ما جنته يداك غير انه لما كنت قادراً على الشر بحيث يخشى لفرط دهائك أن تغفلت من السفينة وتعود الى أوروبا ثم لما كان الأفعى ينزعون اسنانه حين يخشون نفث سمه القاتل فقد رأيت أن أنزع منك تلك القوة كي لا يكون لك بعد ذلك سبيل إلى الشر . ثم تكلم كلاماً باللغة الروسية فدخل الروسيان اللذان عرفهما القراء في حادثة روكامبول حين القياس في النهر وكان احدهما يحمل غدارة محشوة والاخر يحمل موسى فامرهما الكونت فقبضا على اندريا ثم تراجع فجلس على المقعد الذي كان يجلس عليه فرناند ورفاقه فقال الكونت انك كنت تغري النساء بجهالك وتغري رجالك فصاحه لسانك فسيشوه هذا الوجه ويقطع هذا اللسان كي تصبح عبرة لبني البشر .

وفيا هو يقول ذلك إذ دخل جون إيرد وقال اسرعوا فلقد اقبلوا
فقال الكونت : من هم ؟

— لا أعلم إني رأيت أربعة رجال يسرعون إلى سفيني بقارب .
قالت باكارا : لعله أرمان .

فهاج الحقد بصدر اندريا وقال : ان أرمان قد قتل .

فدعر الجميع لهذا النبأ ، ما خلا الكونت وباكارا فانهما كان يحسبان أن

روكامبول قد مات .

قال لها اندريا : انكما تحسبان روكامبول ميتاً وقد نجا من الكيس الذي
القيتم فيه في نهر المارن وقتل الكونت منذ ساعة وفر .

فدعرت باكارا وقالت : إذا كان ما تقوله صحيحاً فاستعد لأفزع موت
ثم خرجت مسرعة الى ظهر السفينة ، فأخذت منظر الربان ونظرت به إلى
القارب فرأت أرمان فيه على نور المشاعل : فرجعت مسرورة الفؤاد وقالت :
كذبت ايها الخائن فهوذا أرمان قد اتى ولكنه اتى بعد فوات الأوان فلا
تؤمل ان يشفع بك .

وعند ذلك أصدر الكونت اشارة إلى خادميه الروسيين فسقط الستار بين
الحاضرين وبين اندريا ، إذ لا يجب على القضاة أن يحضروا تنفيذ
العقاب .

- ٦٥ -

ولم يكن يصعد الحاضرون إلى ظهر السفينة حتى رأوا أرمان مسرعاً اليها مع ثلاثة من خدامه ، وكلهم مسلحون ، ولكنه ما لبث أن رأي باكارا حتى تراجع منذهلاً إلى الوراء قائلاً : ماذا أرى ؟

- إن الله معنا يا سيدي الكونت فلنشكر الله

- واندريا الحائن أين هو ؟

- انه يلقي العقاب الذي يستحقه .

ثم أخذته بيده الى حيث كان الجالسون على المقعد فسمع أندريا يئن أنيناً يخرج من صدره كزئير الوحوش ، فتقطع قلبه من الاشفاق وذكر ان أمماً واحدة حملتها فاسترسل إلى عواطف حنوه ونظر إلى باكارا قائلاً : انه أخي ...

ولم يكذب هذا القول حتى انقطع الأنين وخرج صوت غدارة يدوي في جوانب السفينة .

فسائلهم أرمان : ماذا أسمع العلمهم قتلوه .

- كلا . تمال وانظر .

ثم أزاحت الستار فتراجع أرمان منذهراً لما رآه ..

ذلك أن أحد الخادمين قطع لسانه بموسى فجعل الدم يسيل من فمه فيخضب الأرض ، وأطلق الآخر غدارة محشوة بارود فسقط على وجهه فشوهته تشويهاً هائلاً وفقأت إحدى عينيه ...

وعند الفجر سارت السفينة بأسيرها المشوه إلى القبائل المتوحشة .



أما أرمان فإنه عاد إلى منزله والحزن ملء فؤاده ، فأخبر روكامبول بما كان ، وقال له : انه مهما يكن من سابق شرورك فاني سأفي بوعدى لك

ومنحك المائة الف فرنك التي وعدتك بها ، فمتى خرجت من قصري معافى
تقبضها من الوكيل .
ثم برع كارلوفان مع امرأته وولده وعاد إلى باريس .
وتمكن روكامبول في خلال معالجته من الوصول إلى غرفة أندريا فسرق
جميع أوراقه .
وبعد شهر تزوج الكونت أرتوف بباكارا وسافر بها إلى روسيا .
وفي اليوم نفسه سافر روكامبول إلى لندرا بأموال أرمان دي كركاز
وأوراق استناذه أندريا .

انتهت رواية « التوبة الكاذبة »
ويليها الجزء الثالث من روكامبول « الغادة الاسبانية »

الجزء الثالث

الغادة الاسبانية

الفادة الاسبانية

- ١ -

كانت الباخرة الفرنسية مويث ، وهي من البواخر التجارية قادمة من
لفربول إلى الهافر .

وكان النسيم بليلاً والجو صافياً والبحر ساكناً هدأت مياهه فباتت كمياه
البحيرات ، فكان ربان تلك الباخرة يسير على ظهرها ذهاباً وإياباً وهو ينظر الى
ما يكشفه الفضاء من الصفاء نظرة رضى ، اذ لم يكن يكدر ذلك الجو
الرائق غير دخان سيمكاه الكثيف ثم كأنه قد تعب من المسير فجلس على
مقعد قرب أحد المسافرين وقال له : إذا لبث الطقس على ما هو عليه الآن فأننا
نصل صباح الغد الى ميناء الهافر فأرى فرنسا بعد فراقى لها اربعة أعوام .

وكان لباس المسافر وجوده يدلان على انه من الانكليز ولهذا فقد كلمه
الربان بالانكليزية ، غير ان المسافر جعل يحادثه بالفرنسية الفصحى فأجابه :
اذن اتظن اننا نبلغ الهافر صباح الغد ؟

- نعم .. إلا إذا ثارت عاصفة او فاجئتتنا الأقدار بمصيبة لا نتوقعها .
ثم أخذ الربان منظاره وجعل يراقب فيه جهات الفضاء الأربع وقال :
إن السماء صافية والمياه هادئة فسأعهد بقيادة السفينة الى الربان الثاني وأنام

الليلة مطمئن البال . وبعد هنيهة ودع المسافر وانطلق إلى غرفته فبقي المسافر وحده على المقعد فجعل ينظر إلى مغيب الشمس حتى توارت في حجابها ثم أسند رأسه إلى يده وأخذ يناجي نفسه فيقول :

« ما قلبي قد اضطرب لمغيب الشمس ، وما هذا التأثير الذي أجده حين أرى أشعة القمر الذهبية ترقص فوق هذه المياه وقد عهدت قلبي خلواً من الاحساس ، وما أنا من عالم الخيال أو الشعراء . وبعد فما هذا التشوق للوطن وما هذا الارتياح الذي أشعر به حين قربي من هذا الوطن بعد طول الغربة فأني أحترق من يشكو وحشة الاغتراب بالحنين إلى الأوطان ، بيد أني أشعر بأن قلبي يخفق سروراً حين أعلم أننا سنبلغ غداً إلى الهافر ، العلي أصبحت شريفاً لطول عسرتي للاشراف ، وأصبحت ذا قلب يحن بعد اختلاطي مع ذوي العواطف .. كلا ولكن هذا القلب الصخري لا يخفق هذا الخفق لقرب وصولنا من الهافر ، إلا لأن هذا الميناء لا يبعد سوى خمس ساعات عن باريس . »

وقد ذكر باريس كما يذكر الطفل اسم أمه ثم قال : أيتها العاصمة الجميلة أنك بلد رجال الجرأة والاقدام فلا يفوز فيك غير رجال المطاعم والنوابغ من اهل المكر والدهاء ، فلقد اقامت اربعة اعوام في بلد الضباب اي عاصمة الانجليز لا اغض عيني الا على رجاء ان تتمثل لي بالحلم باريس تلك العاصمة الزهراء مرشح المطاعم وميدان اصحاب العقول الراجحة .

ثم تنهد وقال : نعم اني اقامت في لندرا اربعة اعوام ، وقد حانت لي الان ان اعود الى بلادي ، ولقد نسي سكانها اني كنت ادعى الفيكونت دي كامبول ، والمركزيز دون اينجو ، ورئيس الجمعية السرية ، وتلميذ السير فيليام .

ثم نهض رو كامبول وكان هو بعينه ونزل الى غرفته في السفينة واخذ ملفاً من الأوراق وجعل يقلب فيها ويقول : اف للمسير فيليام وللمغته الهيروغليفية

ومن لي بحل رموزها، فلقد كان يكتب لشدة دهائه بلغتين فيطلبني على اسرار
الواحدة ويكتتم عني الأخرى . فلقد مضى بي أربعة أعوام أقرأ هذه الأوراق
دون ان أتمكن من حل طلاسمها وكلما دنوت خطوة من أسرارها بعدت ميلا .
مثال ذلك اني أقرأ بهذه الأوراق التي سرقتها ما يأتي

« يوجد في باريس في قصر .. في شارع ... »
وقد كتب اسم القصر والشارع باللغة السرية التي لا أفهمها ، ثم أقرأ
ما يأتي :

« إن هذا القصر يسكنه المركيز والمركيزة دي . وابنتهما ويبلغ المركيز
من العمر ستين عاماً والمركيزة خمسين وابنتهما ثمانية عشر . أما المركيز فهو
غني يبلغ إيراده مليوناً في العام ، ولهذا المركيز ولد إذا كان لا يزال في قيد
الحياة فإن عمره يبلغ الآن أربعة وعشرين عاماً . ولهذا الولد قصة وهي
انه عندما كان عمره عشر سنوات أدخل في سفينة إنكليزية من بواخر شركة
الهند بصفة نوتي ولم يظهر شيء من أثره بعد ذلك بحيث لا يعلمون إذا كان
ميتاً او هو في قيد الحياة ، فإن المركيزة تجهل مصيره ولا تعلم أين هو
سوى المركيز . ولا بد له من ان يدفن هذا السر معه ، فانه لم يفارق ولده
في عهد الطفولة ويرسله نوتياً في البحار ويكتتم أمره عن إمرأته إلا لسبب
عظيم ، إلا ان أمه لا توال ترجو ان تراه ، فإذا رجع هذا الولد فإنه يرث
ثلاثة أرباع ثروة أبيه حسب نظام تلك العائلة ويبقى الربع لأخته . وعلى ذلك
فيمكن أن ... »

إلى هنا انتهت الكتابة الواضحة ، وقد كتبت تمة الحديث باللغة
الهيروغليفية الخاصة بالسير فيليام ، فكأنه يقول لي : يوجد في لندرا في منزل
مشرف على الشارع كنز مدفون وأين لي ان أعرف هذا المنزل فأجد
ذاك الكنز !

ثم دفع هذه الأوراق مغضباً لاهامها وقال في نفسه : إن غاية ما أعرفه

أنه يوجد مركيزة ترجو ان يعود اليها ولدها ، وان ما يمكن الاستفادة به من ذلك ان أكون ذلك الولد ، فإننا بعمر واحد وقد غادرته طفلاً فهي لا تعرفه الآن . ولكن كيف أفعل هذا وأنا لا أعرف اسم المركيزة ولا اين تقيم ولو ذكر لي السير فيليام اسم الشارع على الأقل لكان الأمر ، ولكنه حمل سره معه الى جزائر المركيز .

ووالله اني أشفق على هذا الرجل وأحسده في حين واحد . أما إشفاقي عليه فلأنه ما شرع في مكيدة إلا بناها على أمتن دعائم الحكمة وحسن التدبير ، ولكنه لم يفلح بأمر لما خص به من نكد الطالع . وأما حسدي له فلما أوتيه من الدهاء وبعد النظر في الأمور . ومن أين لي عقل هذا النابغة .

وما أوشك روكامبول ان يتم هذه المناجاة ، حتى سمع صوت ضجيج وتهافت المسافرين الى ظهر السفينة وصوت الربان يصدر أوامره الشديدة الى البحارة . فقال في نفسه : ما هذا الانقلاب ؟ إني غادرت الربان منذ ساعة آمناً مطمئناً ، وهو الآن يضطرب وينادي البحارة . فما معنى هذا الانقلاب ؟

ثم برح غرفته وصعد الى ظهر السفينة ، فوجده يلقي الأوامر والبحارة يطوون الشراع وعلائم الذعر بادية في وجوه المسافرين ، وسمع ذلك فلان البحر كان لا يزال على سكونه والجو على صفائه فلم يفقه روكامبول معنى هذا الهياج ودنا من أول مسافر لقيه وكان يلبس لباس رجال البحرية وسأله : أتأذن لي ياسيدي ان أسألك عن السبب فيما أراه من ذعر المسافرين واهتمام البحارة بطي القلوع

فأجابه المسافر : ذلك لأن العاصفة ستفاجئنا .

- أين العواصف وأنا لا أجد سحابة في السماء ؟

- إنك لا تراها لأنك لست من رجال البحرية ، فخذ هذا المنظار وانظر الى

أسفل الجهة الغربية من الأفق .
وأخذ ، وكامبول المنظار ووجهه الى الجهة المشار اليها ، ورأى غمامة
صغيرة تشبه الشراع فقال : ما عسى ان يكون وراء تلك الغمامة ؟

— ما وراءها سوى العاصفة ، فإنها ستوسع وتمتد حتى تعم بعد ساعة جميع
هذا الفضاء فتنبض منها الصواعق وتزيد مياه هذا البحر الساكنة فترقص السفينة
على أمواجها كما تضطرب أشعة القمر الآن فوقها بحيث لو أفل شراع دون طي
غرقت السفينة لا محالة .

وكان الرجل يتكلم بما يدل على خبرته في فن البحار فعجب روكامبول
وسأله . أمثل هذه الغمامة الصغيرة تحدث هذه الأنواء العظيمة ؟

فابتسم المسافر وأجاب : إني بحري والبحارة يندر ان يخطئوا بما يبدو لهم
من أدلة الأنواء .

-- إذن فلا بد من العاصفة .

نعم وستكون شديدة هائلة .

أنحن في خطر أكيد ؟

— ربما ، إلا اذا أراد الله لنا السلامة ، فإنه يبدد هذه العواصف إلا اني
أرى الخطر جلياً وقد أكون مبالغاً فيما قلت على ان الذي يحملني على
الرجاء ما أراه من اهتمام الربان وحسن طاعة السلاحين ودربتهم . فاني اذا
كنت الآن مسافراً فقد كنت بحاراً مثل هؤلاء وقد تعلمت هذا الفن في سفن
شركة الهند .

فاضطرب روكامبول لما سمعه ، وتذكر اوراق السير فيليام الذي كان
يقرأها منذ حين فقال للمسافر ، كي يجره الى الحديث : أعرفت مدينة
الهافر من قبل ؟

— كلا ، وانا ذاهب الى باريس لأرى فيها أمأ واختاً لم أرهما منذ ثمانية عشر
عاماً ، أي منذ سافرت بحاراً في سفن الهند ، ولم يكن لي في ذلك العهد من

العمر سوى عشرة أعوام .

فلما سمع روكامبول هذا الكلام نسي العاصفة وأخطار الغرق ، بل نسي الوجود وانصرف يجملته الى التأمل بهذا الشاب ، ولم يصب في حياته بما أصيب به من التأثير حين كشف له هذا البحار دون ان يعرف أسرار تلك الأوراق وتراءى له ان أبواب المستقبل قد فتحت أمامه وان الصدفة أقبلت تبسم له أجل ابتسام . ولكنه ضبط اضطرابه وقال له بلمحة سرور : إذن انت فرنسي ؟

وهز البحار رأسه وأجاب : إنك تعجب كيف أشتغل في سفن الهند وأنا فرنسي إلا ان لذلك سرأ عائلياً لا يعني إفشاؤه .

ثم أمسك منظاره من يد روكامبول وقال : أرجو ان تأذن لي يا سيدي بمبارحتك الآن ، لأني ذاهب الى غرفتي كي أجعل اوراقتي في مأمن من المياه اذا نكبنا بغرق السفينة فاني قد وضعتها في حقيبة من الحديد الرقيق وسأمنطق بها وان القيت نفسي الى الماء لا تبطل .

ولما انصرف خاض روكامبول في عباب تصوراته ، وقد جعل جعل قصده التزلف الى هذا البحار بصدقة تحمله على الوثوق به والاباحة له بجميع سره . وقد سار في مجال هذا التصور الى مدى بعيد ، حتى انه خطر له أن يكون بدل هذا البحار عند أمه واخته ، ولكنه اضطرب حين بلغ الى هذا الحد من التصور وكأنه لم يحس على قنمته . ثم اشتدت عزمته حين تذكر السير فيليام الذي لم يكن يشفق على أحد وذكر ما كان يقوله له : (وهو ان الحياة معترك ولا بد للفوز في المعارك من القتل وان عزائنا على قتل الناس كثرة الناس في الأرض) .

ولبت واقفاً على ظهر السفينة غير مكثرت لما يكتنفها من المخاطر وجعل يردد في تفكيره هذه الكلمات . (إنه فرنسي ... إشتغل في إحدى سفن شركة الهند .. ترك باريس منذ ثمانية عشر عاماً ... دخل الى السفن وهو

في العاشرة من عمره كي يتعلم فن البحارة) .
إن جميع ما سمعته من هذا الرجل ينطبق أشد الانطباق على ما قرأته في أوراق السير فيليمان .

وفيا كان روكامبول غارقاً في لجج تصوراته ، كانت تلك الغمامة التي لم تكن ترى إلا بالمنظار تمتد وتتسع ، كما تنبأ به المسافر . حتى ملأت ذلك الفضاء الواسع وتوارى القمر في ضبابها المتلبد ، ثم هبت الرياح فكانت خفيفة في بدء هبوبها ولكنها جعلت تزيد وتضعف تباعاً حتى أوشكت أن تكسر الصواري .

وكان صوت العاصفة يصل من بعيد فيبلغ إلى السفينة كزئير الأسود ، والناس قد هلعت قلوبهم ، وبات دوي أصواتهم يمتزج بين دوي الرعود وبين رجال يحارون إلى الله بالدعاء ، ونساء تعول وتنتحب ، فيطبق صراخها الفضاء ، وبحارة يصيحون وهم يتسلقون الصواري ليطووا القلوع ، فتصدهم زواجع الهواء .

وكان روكامبول واقفاً بين هذا الخليط مشتمت البال ، منشفة لا عن اضطراب الناس من حوله بما كان يحول في خاطره من أمر هذا المسافر . وبقي على هذا الدهول إلى أن رده إلى هداه المسافر نفسه فاحتك به قائلاً :
أرأيت ما كان من أمر هذه الغمامة ؟

والتفت روكامبول ورآه بقربه وقد خلع ما كان عليه من الثياب فلم يبق سوى قميصه وبنطلونه ، وكانت حقيبة أوراقه مشدودة إلى وسطه بمنطقة من جلد فقال له : إني أراك قد بالغت في الحذر ، لأنني لا أجسد ما تجده من مخاطر الفرق .

— أراك نسيت أننا في بحر المانش وعلى عشر مراحل من الشواطئ . وقد تدفع الرياح سفينتنا فتلتطم برصيف أو بصخر فتتخطم ، ثم ألا ترى السرعة التي تسير بها السفينة من الشمال إلى الجنوب مع أن القلوع مطوية ؟ إنصغ إلى

صوب الربان ، وهو قديم في هذه المهنة ، كيف أن أوامره التي يصدرها تدل على القنوط .

ولم يكذب هذا البحار يتم قوله ، حتى سمع الربان يقول : إقطعوا الصاري الأكبر !

وجعل البحارة يضربونه بالفؤوس حتى سقط ، وكان له دوي شديد . وفي الوقت نفسه صاح صيحة رعب : هوذا الأرض !

أما روكامبول فلم يبد عليه شيء من علائم الخوف

- ٢ -

ولكنه حين رأى ان الخطر محقق بالسفينة ، والخوف سائد على جميع ركبها ، رأى ان من الحكمة أن يقتدي برفيقه المسافر ويتحذر فمادته وأسرع الى غرفته فخلع ما عليه من الثياب الخارجية وأخذ ما لديه من النقود وأوراق السير فيليام ووضعها جميعها بمنطقة من الجلد لا ينفذ اليها الماء وشدها الى وسطه وصعد الى ظهر السفينة والتقى برفيقه ولارمه وهو يقول في نفسه : إما ان نفرق معاً او ننجو معاً

وكانت السفينة لا تستقر على حالة من القلق ، تتقاذفها الأمواج كما تشاء العواصف ومهاب رياحها فتندفع كالجواد المطلق الجامح لا يثنيه شيء عن اندفاعه ، فقال البحار وهو ينظر الى الجو المرید : لقد قضي الأمر .

وأجاب روكامبول : كيف ذلك ؟

- أنظر الى آخر الأفق في الجنوب ، ألا ترى غمامة أقل سواداً من

بقية الغمام ؟

- نعم .

- إن الأرض هناك وهي تبعد عنها ثلاث مراحل ، ولا بد لسفينتنا من الالتطام بها .

ولم يكذب يتم حديثه حتى ارتجت السفينة ارتجاجاً عظيماً لاصطدامها بأحد الصخور العظيمة الناتئة ، فصاح الربان بالبحارة : أسرعوا الى إنزال القوارب .

إلا ان البحار لم ينتظر إنزالها بل اشار الى روكمبول ان يتبعه ، والقى بنفسه الى تلك اللجج الشائرة . واندفع روكمبول في اثره وجعل الاثنان يسبحان الى جهة البحر نحو ساعة حتى تعب روكمبول وتأخر عن رفيقه ، والتفت اليه وشجعه قائلاً : تجلد ، لقد بلغنا الى صخر قريب نستريح عليه .

فتشجع روكمبول وجعل يبذل ما بقي له من الجهد وهو يؤنب نفسه لتقصيره قائلاً : ما هذا الوهن ؟ أأجعل طعاماً للأسماك على بعد ميل من البر ؟ وأضعف عن اللحاق بهذا الرجل الذي سأكون بعده أغنى مريض .

إلا ان جهده لم يطل فانه لم يصبح مسافة وجيزة حتى شعر بان قواه قد نهكت فصاح يستنجد برفيقه وجعل يفوص تحت الماء ويرتفع فوقها الى ان شعر بيد قبضت على شعره ثم أغمى عليه فلم يع على شيء .

وعندما صبحا من اغماؤه قلب نظراً حائراً فيما كان يراه حواليه ، فرأى ان أشعة الشمس قد بددت جيش الظلام ، وان العاصفة قد استبدلت بالسكينة ثم رأى انه لم يكن غريقاً في اعماق الأوقيانوس بل كان ممدداً على رمال بلغت اليها حرارة الشمس وجففت ثيابه المبتلة من الأمواج .

ونفض وجعل يمشي على تلك الرمال ، ورأى نفسه فوق صخر عظيم متسع يحيط به الماء من جميع جهاته . وذكر ان رفيقه اشار له الى هذا الصخر وانه قبض على شعره حين استنجد به ، ولم يعد يذكر شيئاً . ولكنه أيقن ان رفيقه البحار اي المريكيز قد أنقذه ثم قال في نفسه حين لم يجده : العله

وضمعي في هذه الجزيرة وأتم مسيره الى الميناء القريبة . فإذا كان ذلك فكيف أجده ؟

وكان هذا الرجل الهائل نسي موقفه الشديد وانه في جزيرة صغيرة قد يموت بها جوعاً قبل ان يجد بها أحداً فلم يفتكر الا باطباعه بالفتك بهذا الرجل الذي أنقذه من الموت .

وجعل يمشي في أرض هذه الجزيرة المقفرة مشي العاجز السقيم لفرط ما لقي من عناء السباحة ، ويتفقد هذه الجزيرة كي يعلم مقدار بعدها عن البر . وفيما هو يمشي إذ سمع عن بعد صوت انسان يستغيث فأسرع الى الجهة التي خرج منها الصوت حتى بلغ الى هوة عميقة سمع ان الصوت صادر منها وعلم انه صوت رفيقه البحار فدنا منها ورأى عمقها نحو ستة أمتار .

ولما رأى روكامبول يطل عليه صاح صيحة الفرح وقال : لقد خشيت ان أموت ولا تسمع ندائي .

- معاذ الله ان يحل بك مكروه فقد أنقذتني من الموت وسأبذلك منه .

ثم جعل روكامبول يتأمل بالحفرة وعمقها ويبحث بحث المدقق ، فعلم انه اذا لم ينجده منها فلا سبيل له الى الصعود وانه يموت فيها جوعاً دون شك فانقذت عيناه ببارق الفرح الوحشي وقال في نفسه : ان الأقدار خادمة لي والصدفة من عبيدي .

أما المركز فقد قص على روكامبول السبب في سقوطه فقال : إني بينما كنت متمدداً بالقرب منك أعالجك كي تستفيق من إغمائك شاهدت سفينة تسير في عرض البحر فوقفت وجعلت أركض الى الشاطئ وأنا أشير بيدي اليها وأنا دي رجالها .

وبينا انا أركض غير منتبه وعيناي شاخصتان الى السفينة سقطت في هذه الحفرة ولو لم تسمع ندائي لهلكت من الجوع .

فأجاب روكامبول: طب نفساً أيها الأخ المشفق فقد وجدت أخاً مشفقاً مثلك

إلا انه كيف السبيل إلى إنقاذك فأني لا أستطيع ان أنزل اليك وليس لدي حبل أرفعلك به ؟

— إنك تجدد على مسافة عشرين خطوة من هذه الحفرة قرب المكان الذي كنت نائماً فيه غدارتي وحقيبة أوراقك ومنطقة من جلد ، وهي طويلة كنت الف بها وسطي خمس مرات فاذهب وأت بها فانها كافية لانقاذك فارك ترسل إلي أحد طرفيها لأتعلق به وتسحبني بالطرف الثاني

— ليطمئن بالك وها أنا ذاهب حالاً .

ثم ذهب روكامبول يمشي الهويناء وهو يخاطب نفسه : إن هذا الصخر مقفر قد لا يمر به الصيادون مرة في العام . وإذا لم أنقذه من الحفرة فلا يجد من ينقذه ، وعلى ذلك فاذا أخذت أوراقه وسبحت الى هذا البر القريب أصبح مركزاً غنياً لا ريب فيه . وبعد ، هل أنا رميته في الحفرة لأنقذه منها ؟ إن الصدفة قد عرضت لي فلأتسك باهدائها لأنها لا تعرض في كل حين ، وفي كل حال فانه ان كان قد أحسن إلي في هذه الحياة وأنقذني من الموت وأعطاني لقبه وماله ، فسأنفعه في الآخرة لأن الله سيسجل اسمه في دفتر الشهداء .

وبعد ان قال هذا القول ذهب الى المكان الذي دل عليه فوجد الحقيبة والمنطقة والغدارة . فجلس على الرمال وبدأ يفتح الحقيبة وأخذ يفحص ما فيها من الأوراق مطمئناً فكانت اول ورقة عرضت عليه شهادة مركز من شركة سفن الهند وهي مكتوبة باسم فريدريك البرت دي شمري ولد في باريس في ٢٥ يوليو سنة ١٨٠٠ وله من العمر ٢٨ عاماً .

فخاطب روكامبول نفسه : لقد علمت الآن اني صرت أدعى فريدريك دي شمري واني اشتغلت في سفن الهند . فلأنظر في بقية الأوراق .

ثم أخذ رسالة طويلة مكتوبة بخط رفيع متطاوّل فعلم انه خط امرأة . وكان عنوان هذا الكتاب (ولدي العزيز) والتوقيع عليه (المركيزة دي

شمري) . ففسال روكامبول : الحق يقال ان السير فيليسام قد خدمني في حياته وفي مماته . ولولا أوراقه لما غدوت الآن مركيزاً في مقسام النبلاء ثم قرأ تحت التوقيع (شارع فالو نمرة ٢٧ في القصر) وبعد ذلك أخذ في تلاوة هذه الرسالة وهذا نصها :

« أرسل هذا الكتاب الى وزارة البحرية الانكليزية ورجائي أن يصل اليك ولو بعد حين ، وان تسرع بعد تلاوته الى أمك وأختك ، كما يرجو أبوك الذي ندم عند احتضاره لسوء ظنه وإني لم أعلم يا ولدي العزيز إلا الآن بذلك السر الذي دفع أباك الى الإساءة إلي وإبعادك عني ، والييك الحديث :

« كان المركيز دي شمري يقيم منذ ١٦ عاماً بعيد أعني لا يكلهني ، وكان يرسل إلي راتباً في كل شهر أنفقه علي وعلى أختك . وقد طالما بكيت أمامه وتوسلت اليه ان يطلعني على سر هذا الجفاء ، فلم أفر منه بهراد علي اننا كنا في عيون الناس نتشارك بالسعادة والهناء ، وفي الحقيقة كنا من أشد الناس نكداً حق حسبننا ان أباك أصيب بضرب من الجنون . أما سر هذا الجفاء فهو ان أباك لم يكن منذ ثلاثين عاماً على شيء من الثروة سوى انه كان كولونيلا في الجيش وكنت أنا فقيرة مثله ، فتزوج بي زواج غرام وكنت اول ثمرة من ثمرات هذا الزواج . وعندما بلغت الخامسة من عمرك ، تغيّرت حالة أبيك فجأة ، فإن ابن عمه كبير هذه الأسرة كان أغنى الأغنياء فقتل في مبارزة .

« وقبل ان يموت هذا المركيز ببضعة أعوام ، اضطر أبوك الى السفر في حملة الجرائر فأقامني عند قريبته المركيزة دي شمري في قصره خارج باريس ولما عاد أبوك اضطر الى الاستقالة بحيث بلغنا بعد استقالته الى أقصى درجات الفقر ، فخدم في إحدى المناجم بصفة كاتب . ولكن عهد شقائنا لم يطل فان

المركيز هكتور شمري جرح جرحاً خطيراً في مبارزة ضمان بعد ان كتب وصيته وقد اوصى بجميع ماله الى أبيك وحرم أخناً له وهي ابنة المركيز دي شمري من غير زوجها فحققت هذه المركيز حقداً عظيماً علي ووشيت بي وشاية هائلة لم أعلم بها إلا أمس .

« وحكاية هذه المركيزة انها تاملت وهي في عنفوان الشباب ، وكانت ابنها هكتور لا يزال طفلاً فلم تستطع الزواج لأن زوجها اشترط عليها في وصيته ان لا تتزوج بعده او هي تحرم من حق الارث ، إلا انها ارتكبت هفوة ولدت بعدها بذناً وأخفتها في البدء عن العميون ، ثم جاءت بها إلى قصرها وكانت تقول إنها يتيمة وقريبة لها . أما أخيها المركيز فقد علم سرها ولهذا فإنه حرم اخته من الارث وأورث ماله لأبيك . ومن ذلك العهد بدأ انتقام تلك المرأة .

« وقد اتفق انه بعد قتل هذا المركيز بثلاثة أشهر ولدت أنا أختك وكان عمرك خمسة أعوام ايضاً ماتت هذه المركيزة فذهب أبوك اليها وحضر ساعة احتضارها فقالت له اقوالاً أملاها عليها الحقد الدفين وكانت علة شقائي أعواماً طوالاً لأنها كانت السبب في إبعادك عني . »

فقال روكامبول في نفسه ما هذا الكتاب ؟ إنه يشبه الحكايات الموضوعة فلا تتم قراءة هذه الحكايات .

واندفع في قراءة تنمة الرسالة فقرأ ما يأتي

« أعلم يا ولدي العزيز ، انه بعد ان عاد أبوك من عند المركيزة بثمانية أيام خطفوك من منزلي وبقي سر اختطافك دهرأ طويلاً مكتوماً عني حتى حسبتك في اعداد الأموات .

« وكان عمرك حين اختطافك عشرة أعوام وكنت تحب في ذلك العمر أن تنام في غرفة وحدك .

« وفي احد الأيام دخل الخادم الى غرفتك كي يوقظك ويمرنك على ركوب الخيل

كما كنت تحب فلم يحبك فيها وبحث عنك في الحديقة وفي كل مكان من القصر دون ان يقف على أترك .

« وكان أبوك غائباً عن باريس في تلك الليلة ، وأخبرت البوليس بامر اختطافك فذهبت أبحاثه عثماً وكتبت الى أبيك اخبره بهذه المصيبة فوردني منه كتاب لم يظهر فيه شيئاً من عواطف الوالدين . على انه عاد من سفره بعد شهر فرأيت ان شعوره قد ابيضت ، وحسبت ان ذلك كان تأثير تلك المصيبة ولكنه منذ ذلك العهد لم يكلمني كلمة الا امام الناس ، ولم ينظر الى اختك نظرة حنو ولم يذكر اسمك مرة في خلال هذه المدة الطويلة التي بلغت ستة عشر عاماً .

« وفي أوائل العام الماضي لزم الفراش لانحراف ألم به ، ثم اشتدت وطأة علته فلم يكن يؤذن لي ولأختك أن ندخل الى غرفته الى ان وسطت في ذلك أحد القسيسين ، فأذن لي بالدخول اليه وهو في حالة الاحتضار وقال : لقد دنت ساعة الموت ولا أحب ان القى الله وفي قلبي أثر من الحقد ، ولذلك فإني أصفح عنك .

« فاضطربت حواسي وقلت له : إن الصفح يكون عن المجرمين ، فأبي ذنب ارتكبه ؟

« وقد كانت لهجة الصدق ظاهرة من ملامحي فتأوه وقال رباه العمل المركيزة كانت كاذبة غامة ؟

« ثم أخذ رسالة من بين أوراقه كتبتها اليه المركيزة قبل وفاتها بيومين ودفعها إلي وهو يقول : إقرئي هذه الرسالة . فأخذت الرسالة بيد مرتجفة وقرأت فيها ما يأتي :

« يا ابن عمي العزيز

« إن ولدي العزيز هكتور قد جعلك وريثاً لجميع أمواله فحسبت البساطة قلبك انه جعلك الوريث الوحيد دون اخته ودوني ، لأن هذا الارث من

حقلك ، على انه لم يخصك بارثه لهذا السبب ، بل انه اراد ان يحرم
اخته التي اربها في منزلي بصفة قريبة ، وما هي في الحقيقة إلا ابنتي . ثم
ان هناك سبباً ثان وهو انه كان يحب امرأتك ، وهو لم يدفع أمواله اليك
بل لابنته التي تحسب انها ابنتك . اما وقد اعترفت لك بالحقيقة فأرجو
أن تعتني بأمر ابنتي من بعدي ، فإنها باتت صبية ، وما تركته لها قد
لا يكفيها .

« المركيزة دي شمري »

« أعلمت الآن يا ولدي السبب الذي دعى اباك الى احتقاري ، فقد كان
يحسبني من احط النساء العايشات بالواجبات ، ويحسب ان اختك عار عليه
لاعتقاده انها بذت الجريمة وذلك لأنني ولدتها في منزل المركيزة التي ارادت
لحقدتها علي ان تدنس شرفي قبل موتها فلقيت اشد العذاب لحفاء ابيك في ذلك
العهد الطويل .

« ولما قرأت هذه الرسالة الكاذبة جثوت راکعة امام سرير ابيك وسألت
الله ان يلهمه الى سبيل السداد فيثيق ببراءتي قبل ان يموت وقد اراد الله ان
يجيب ندائي فان اباك ايقن بما رآه وسمعه مني بطهارتي فسألني الصفح بدلاً من
ان يصفح عني وفاضت روحه الكريمة وهو يباركني .

« وقد اخبرني قبل ان تحضره الوفاة انه هو الذي اختطفك وسوى ذلك
من التفاصيل التي علمت منها محل وجودك ، فعد ايها الحبيب الى احضان امك
لأنها تلتظرك بفارغ الصبر » .

إلى هنا انتهت رسالة المركيزة الى ولدها ، فتناولها روكامبول ووضعها
مع اوراق الشهادة ، ثم بدأ يقرأ الاوراق الباقية في الحقيقة ورأى بينها
مذكرات كتبها البحار عما لا يزال عالماً بذاكرته عن اختطافه وكيف ان
اباه اخذه من الغرفة التي كان نائماً فيها وذهب به الى الهافر وهناك سلمه الى

ضابط إنكليزي في احدي السفن الى غير ذلك من المذكرات التي قرأها روكامبول بإمعان شديد .

ولما اتم قراءتها جميعها قال : ان جميع هذه الأوراق تثبت ان هذا البحار هو ابن المركيز دي شمري ، ولكنه لا يستطيع الخروج من الحفرة الا بإذني ثم اني لا اجد فائدة من قتله فإن هذا السجن الذي هو فيه كاف لقتله .

وعند ذلك ارجع الأوراق الى الحقيقة وشدها بالمنطقة الى وسطه وذهب الى الشاطئ ، فرأى ان البحر عاد الى السكون ، وان ارض فرنسا لا تبعد عنه اكثر من ساعة فألقى نفسه في البحر وراح يسبح مجدداً اليها .

٣

في الساعة الثالثة بعد ظهر احد ايام المرافع كان شارع سانت كاترين بباريس غاصاً بالناس ، الا ان اجتماعهم في ذلك الشارع لم يكن لفرجتهم على ملك المرفع ولا على الذين يرون افواجا وهم بلباس تستوقف الأبصار ، بل انهم كانوا محتشدين امام ملعب صغير يسمعون فتاة حسناء تدعوهم الى الدخول للفرجة على سلطان القبائل المتوحشة ، وتحكي لهم عنه حكاية عجيبة تدفعهم الى الدخول فيدخلون ويخرجون افواجا .

وقد مرت في ذلك الحين مركبة ثقل شاباً جميل الطلعة عليه ملامح النبل والذكاء فلما رأى الناس محتشدين على باب هذا الملعب أوقف المركبة حتى إذا سمع الفتاة تقص حكاية زعيم القبائل المتوحشة نزل من المركبة ودفع للفتاة ٢٠ فرنكاً دون أن يتداني إلى إرجاع الباقي مما زاد عن أجرة الدخول فسأعجبت الفتاة بكرمه ، ودخل وهو غير مكترث لها إلى حيث كان هذا الزعيم فرأى

منظراً تتأثر له القلوب القاسية

ذلك انه رأى على منصة الخشب ، رجلاً مشوه الخلقة تشويهاً عجيبيماً وقد وشم وجهه بنقوش مختلفة الألوان ، بين أزرق وأخضر وأحمر ، وفي خديه وسائر وجهه ندوب ، بل أخاديد توشك أن تبرز منها العظام ، وفي مكان عينييه حفرتان إحداها عظيمة ذهببت بعينه يحملتها ، والثانية أصغر من اختها الا أنها أبقت على شيء من العين الأخرى ، وقد شقت أنفه فعلقت فيه حلقة نحاسية عظيمة وهو فوق هذه النكبات أبكم لا يتكلم ، ولكن الذي يعرضه للفرجة كان يقول انه يفهم اللغة الانكليزية .

ومما زاد في منظره غرابية ذلك اللباس الذي كان يلبسه فقد كان يلبس ثوباً مرقعاً جمع بين معظم أصناف الأجواخ والأصواف على اختلاف أصنافها وألوانها ، ولبس في رأسه قبعة جعلت بشكل تاج وزينت بريش الطيور واذناها وعلى الجملة انه كان لا يفرق عن الحيوان إلا بأنه لا ذنب له ولكن منظره كان يحمل على الاشفاق والذعر معاً ، فلا يراه المتفرجون حق يتراجعوا عنه مندعرين ويخرجوا من ذلك الملعب مستعينين .

ولما دخل الزائر الجديد جعل يتأمله ساعة ، وكلما زاد تفرساً به زاد ذهوله وبقي يتفرس به والمتوحش منشغل عنه بطعامه إلى أن تفرق الناس من حوله فنادى صاحبه وقال : لقد سمعتك تقول انه يفهم اللغة الانكليزية حقيقة ما تقول ؟

-- نعم يا سيدي وإذا شئت فامتحنه .

فدنا المتفرج من المتوحش وقال له بالانكليزية : على أية سفينة عدت إلى أوروبا : أعلى فيلتون أم برسفرانس أم فولر ؟

ولما سمع المتوحش اسم السفينة الأخيرة ارتعش وتزعزع لاضطرابه عن المنصة التي كان جالساً عليها ، فعلم المتفرج ما أراد ان يعلمه من هذا السؤال وخرج الى الفتاة وقال لها : ما يكون منك هذا الرجل الذي يعرض المتوحش

للفرجة ؟

فأطرقت عينها وقالت : انه زوجها
فعلم المتفرج أنه خليلها فقال لها : أتريدين ان تكسبي مائتي فرنك ؟
- لا أحب الي من هذا الكسب ؟

- متى أراك وأين ؟

- تراني في هذا الملعب متى أقفلت أبوابه في الساعة الثانية .
فألقي اليها ديناراً وذهب .

وفي الساعة الثانية عاد اليها فرآها تنتظره في إحدى غرف الملعب وهي
جالسة على كرسي وبالقرب منها المتوحش نائم على الأرض لا غطاء له سوى
ثوبه الرقيق فسأها : أتعرفين اللغة الانكليزية ؟

- كلا .

فدنا عند ذلك من المتوحش وايقظه وقال له بالانكليزية لا تخف فـ...اني
صديق لك ، ولا بد انك تذكر تلميذك القديم روكامبول .

فظهر على المتوحش من علائم السرور ما لا يحيط به وصف .
فقال له المركيز دي شمري أو روكامبول : اني أبكيك منذ خمسة أعوام
ويسوؤني أن القاك على هذه الحالة إلا اني انعزى بأني سأخفف شقاءك .

ثم عاد إلى الفتاة وقال لها ألعلمكم تكسبون من عرض هذا المتوحش كثيراً ؟
- كلا . بل ان إيرادنا منه لا يفي بنفقتنا عليه لاسيما في هذه العاصمة
فان كل من رآه ينفر منه ولا يعود . ولم يعد لي طاقة بالانفاق عليه والانتقال
به إلى بلدة أخرى .

- اني أكفيكم مؤونته بل اشتريه منكم إذا أردتم بيعه فاني أسفقت عليه
وأحب أن أعالجه . عليه يطيب من هذه الندوب .

ففرحت الفتاة وباعته المتوحش بألف فرنك دفعها لها على الفور مع المائتي
فرنك التي وعدا بها ثم لبسه لباسه من ثياب الفتاة وخرج به فركب معه

المركبة التي كانت تنتظره على الباب وأمر السائق أن يسير الى شارع
سير سانس

- ٤ -

ولما خلا روكامبول باندريا ، لأن هذا المتوحش لم يكن غير السير فيليام ،
أي الفيكونت اندريا ، الذي تقدم ذكر عقابه في رواية التوبة السكاذبة ، وكان
اجتماعها في أحد منازل روكامبول السرية ، فقال له روكامبول : لقد خلا لنا
الجو الآن فاصنع لي كي أخبرك بانك إذا كنت وهبتني لقب مركيز مستعار
فقد صيرت نفسي مركيزاً ثابتاً لا ريب فيه إذ اني ادعى الآن المركيز
دي شمري .

ولهذه المركيزة الجديدة حديث طويل ، ولكن اعلم ان أخاك الكونت
أرمان دي كركاز .

فاضطرب اندريا حين سماعه اسم أخيه ، ومصر روكامبول لمساره من
اضطرابه فقال له : يسرني ان أراك عائد من جزائر المركيز بحمدك القديم
لأن ذلك يدلني على انك لا تزال السير فيليام ، فلا أعدم فوائد دهائك فاعلم
أيها الصديق القديم انني عندما بارزت أخاك الكونت وكنت أرجو أن اظفر
به بتلك الطعنة الايطالية ، رأيت انه يعلم دقائقها أكثر مني فانجلت المباراة
على ظفري بي فجرحني جرحاً بالماً ، وكان من احسانه انه عاجلي في قصره ،
فاغتنمت تلك الفرصة وسرقت أوراقك من غرفتك في ذلك القصر وهي التي
اعانتني على الدخول في سلك النبلاء وصيرتني كما تراني مركيزاً من أغنى الأغنياء .
ثم قص عليه جميع ما فعله من حديث السفينة والفرق وكيف ترك المركيز
الحقيقي في الحفرة إلى ان قال وعدت سباحة إلى ان بلغت الشاطئ الفرنسي

وأموالي وأوراق المركيز معي ولما أعملت الفكرة وجدت أن هذه الأوراق بعد بُعد المركيز عن أمه وأخته ثمانية عشر عاماً ومشاهيتي أياه بعض الشبه وكوننا في عمر واحد كل ذلك لا يكفي لاثبات مركيزي بل يجب أن اكون بحاراً ماهراً وأن أعرف الهند وأخلاق قومها وعاداتهم وشيئاً من لغتهم إلى غير ذلك مما كان يعرفه المركيز فعدت في اليوم التالي إلى لندن وهناك اتفقت مع أحد التراجمة الذين يسافرون إلى الهند ، سافرت معهم اليها وأقمت فيها ستة أشهر وكنت في كل يوم اختلط مع البحارة والضباط حتى عرفت كل ما ينبغي عرفانه ، اطلقت سراح الترجمان وعدت إلى فرنسا فوجدت تلك الأم المسكينة قد ماتت قبل وصولي بيومين ولعلها ماتت من الفرح فقد كتبت اليها اخبرها بقدمي ورأيت شقيقتي وهي غضة الصبى بارعة الجمال فعاذتها عناق الأخ وعرفتني بخطيبها ثم دفعت إلي أموال أبي المركيز فصرت من ذلك العهد أدعى المركيز دي شمري .

أما هذا المنزل الذي أتيت بك اليه الآن فهو أحد منازلي السرية التي استخدمها لأغراضي وسأقيمك في منزلي الخاص كي تكون بقربي في كل حين غير انه لا بد لي من أن ادعو طبيباً ينظر في وجهك فعساه يتمكن من إزالة هذا الوشم الكريه .

وعند ذلك دعا خادمه وأمره أن يدعو له أحد الأطباء الأخصاء بهذه العاهات .

انطلق الخادم مسرعاً وذهب روكامبول إلى المطبخ فاحضر لأندريا ما تيسر من الطعام ، جعل يزدرد به بشراهة تدل على شدة جوعه إلى أن حضر الطبيب فلفق له روكامبول حكاية خلاصتها ان هذا الرجل كان بحاراً تحت أمرته وكان له عدو شديد ، احتمال عليه حتى تمكن من ابقائه على شاطئ إحدى الجزر المتوحشة ففعل به أهلها ما فعلوه ثم باعوه إلى أحد البحارة فباعه إلى أحد أصحاب الملاعب إلى أن عثر به هذه الليلة فرفه واشتراه وقدم به كي يعالجه ،

ثم سأله إذا كان يمكن إزالة هذه الندوب والوشم من وجهه ، ففحصه الطبيب فحسباً مدققاً وقال لا ريب ان هذا الوشم من آثار تلك القبائل المتوحشة وأظن اني أستطيع إزالته .

— والندوب ؟

— ان آثارها لا تزول .

وعيناه ؟

— ان احدهما طفئت فلا رجاء منها والثانية في أشد حالة من الخطر وفي

كل حال سأعود غداً في الساعة العاشرة افحصه على نور النهار .

— حسناً وستراني بانتظارك ، فودعه الطبيب وانصرف .

عاد روكامبول الى اندريا وقال : اننا سنفرغ جهدنا بإزالة هذه الآثار من وجهك فلا تطمح ان تعود الى سابق حالك فتغوي بجمالك الكونتس حنة دي كركاز امرأة أخيك ولكننا نحاول ان نخفف شيئاً من قبح هيئتك .

ارتعد أندريا عندما سمع اسم شقيقه وابتسم ابتساماً هائلاً ، فقال روكامبول : طيب نفساً سأصنع لك جميع ما أستطيعه ، والآن اسمح لي بفراقك ان المراكز دي شمري اختاً وصهرأ يسكن معها فلا بد له من العودة الى قصره فرأى على مائدته رسالة وردت اليه في المساء وهذا نصها :

« ان الدوق والدوقة دي سالاندريرا يتشرفان بدعوة المراكز البرت دي شمري » الى طعام العشاء عندهما يوم الأربعاء .

فقال روكامبول في نفسه : ان أعمالي مع هذه الأسرة جارية في أحسن مجري ، ثم نام نوم المطمئن الآمن من الحاضر والواقع بالمستقبل .

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ذهب الى المنزل الذي أقام فيه اندريا فوجد الطبيب قد سبقه وفحصه الفحص الدقيق ، فقال روكامبول : ماذا شاهدت ؟

— اني أستطيع إزالة بعض الآثار من وجهه بحيث يظهر بعد ذلك كأنه قد

انفجر مرجل أمامه ، فأصابه رشاش مواده وشوّهته ، إلا أني أخشى أن يذهب ما بقي من بصره ويصبح أعمى بعد هذه المعالجة .

فتركه روكامبول ودخل إلى الغرفة المقيم فيها أندريا ووضع أمامه أدوات الكتابة وسأله . ألا تزال قادراً على الكتابة ؟

فأخذ أندريا القلم وكتب هذه الجملة اني شديد الظمأ للانتقام واذكر كل شيء ..

فأجاب روكامبول : إذن أغض عينك وأكتب لأرى إذا كنت تستطيع الكتابة في الظلام ، إذا لا يمكن أن تحدثني إلا بالكتابة وقد تضطر إلى المحادثة في الليل .

فأطبق أندريا عينه الوحيدة وكتب : « إنني إذا سميت أعرف أعدائي باللمس بل بالوحي » .

— إذن تمرن على الكتابة وأنت مغمض العين .

ثم تركه وعاد إلى الطبيب وقال : اشرع في معالجته فلا حاجة له بالبصر .

- ٥ -

بعد هذه الحوادث المتقدمة بشهر كان أندريا في قصر روكامبول الذي يقيم فيه مع شقيقته وصهره ، وقد وفي الطبيب بما تعهد به وأصلح وجه أندريا إلا أنه أعمى .

ودخل روكامبول إليه وجعل يعزيه لفقد بصره ، غير أن أندريا كان قد قنط من كل شيء فلم يعد له عزاء إلا بفوز تلميذه والانتقام له من أعدائه فقال له روكامبول : اني لا أعلم إذا كنت تفتكر كما أفتكر إلا اني لو كنت في مقامك لكنت أقول في نفسي اني قد تمتعت بجميع ملاذ الدنيا ، وطالما

انتصرت على الناس وفتكت بهم كما شئت مطامعي الى أن ظفر بي أعدائي
فشوهوا وجهي وقطعوا لساني واعموا عيني مما يحلو معه القنوط والموت غير
اني لا أحب الموت قبل الانتقام من هؤلاء الأعداء .

فهر أندريا رأسه إشارة الى الموافقة على هذا الكلام ، فتابع روكامبول :
اني سأنتقم لك من أعدائك وهم أعدائي أيضاً متى لاحت لنا فرصة الانتقام ،
والآن فاني أصبحت بفضل اوراقك كما كنت أنت في اول عهدك ، أي رجلاً
في مستقبل الشباب . وافر المطامع ، لا يروق لي غير المسابقة في حلبة هذه
الحياة والبلوغ إلى أقصى ما توحيه الي الأمانى فإذا أرشدتني بمقياس ذكائك
وأوضحت لي السبل بدعائك فزت بفوزي وسررت لسروري فأكون عزاء
لك وسلوى عما أنت فيه .

فهر أندريارأسه أيضاً مرات كثيرة إشارة إلى المصادقة فقال له روكامبول :
إنما يجب أن تعلم اني إذا كنت قد انقذتك من الملعب بصفتي روكامبول ، أي
تلميذك القديم فقد أحسنت بعمل ما تدعوني اليه واجبات الإخلاص ، فما أسأت
أيضاً فيما صنعت بصفتي المركز الهرت دي شمري ، ولو كان رجل سواي فعل
ما فعلت لقال في نفسه : اني قد اخطأت فيما صنعت ، اذ لا يجب أن يقف أحد
على سري الهائل ، الا اني أرى سوى هذا الرأي ، وأقول ان السير فيليام
رجل شديد الدهاء وافر الذكاء ، فإذا كان مرشدي في ما أطمع بنييله من
الآمال بلغت ما أريد ، وربما وصلت إلى منصب السفارة والوزارة ، بل ربما
بلغت الى العرس ، فإن أطباعي لا تقف عند حد وذاكوك لا ينتهي عند غاية .

فاختلج أندريا على كرسية عند سماع هذه الكلمات وظهرت على وجهه
علائم الرضى فتابع روكامبول : والآن أيها الصديق بل أيها الاستاذ المرشد
اني سأقص عليك مشروعاتي وانت تشير عليّ ، ولا أخرج عن أرائك غير انه لا
بد لي قبل الشروع بذلك أن أبدي لك فكراً جديداً ربما كان صواباً ، لقد
كننا نجري في أعمالنا السابقة على قاعدة تبين لنا خطأها بعد الاختبار ، وهي

انذا كنا نستعين على الشر برجال الشر ، وعندى انت خير كفيل للفوز بصنع الشر أن نستعين على تنفيذه برجال الخير والصلاح فإن ذلك أضمن في الفوز وفي نيل الأغراض لبعده الشبهات .
فتهلل وجه السير فيليام وهز رأسه كأنه يقول أحسنت .

وتابع روكامبول : انى منتحل اسم المركيز دى شمري ، ومنذ أربعة اشهر تحيط بي شقيقتي وهي من النساء الأشراف ، وزوجها رجل شريف ومعظم أصحائي من نخبة الأسرات النبيلة ، وسأقص عليك علاقتي مع هؤلاء الأشراف فتجد بعد ذلك سبيلا إلى استخدامهم فيما تريد فإن الشر والمكائد لا يخطران لهم في بال وأبدأ بذكر قصتي فأقول :

« انى حين أتيت باريس ماتت أمي المركيزة فكان موتها من حسن حظي لأن الأم قد تعرف ابنها ولو غاب عنها عشرين عاماً ، وكانت شقيقتي مخطوبة ولما مضت ثلاثة أشهر على وفاة أمي تزوجت شقيقتي خطيبها وأقام الاثنان عندي إلى أن تنتهي مدة الحداد أما أنا فإني تصرفت تصرف النبلاء كأني خلقت مركيزاً من بطن امي ولا جرم لقد مثلت على مسرحك كثير أمن الأدوار وأصبحت علاقتي كثيرة مع أشهر أسرات باريس وغيرها من الأسرات العريقة بالنسب كمائلة الدوق دي سانديريرا الاسباني فان هذا الدوق من عظماء الاسبان وليس له سوى فتاة في نضارة العمر وهي التي سترث أمواله التي لا تحصىها أقلام الحاسبين . »

« وقد كثر ترددي على هذا البيت ، وفي كل يوم القى دليلاً جديداً من الفتاة على ميلها لي ، حق لقد بت أحسب انها تحبني ، وكذلك أمها الدوقة فإنها ترحب بي ترحيباً عظيماً كلما ذهبت اليهم ، ولم يبق علي سوى هذا الدوق . »

فهز اندريا رأسه بشكل خاص كأنه يقول سوف نرى في أمره . فقال :
والآن فإن لدي مشروعات خطيرة قد يدعو فوزي بالواحد منها الى فوزي

بالآخر . أحدهما مشروع زواجي بهذه الغادة الأسبانية النبيلة ، والثاني إن صهري الجديد ربما ورث في عهد قريب إرثاً عظيماً سنبحث فيه عند نبيله فإن لي فيه مأرب .

ولنعد الآن قليلاً الى أعدائك بل أعدائي ، فإننا بتنا واحد كما أرى ولنبدأ باخيك ارمان دي كركاز .

فظهرت على وجه اندريا علائم الحقد الهائل كأن إحسان أخيه وتقادم العهد على ما كان بينهما لم يطفئ ذلك الحقد السكمن في صدره كمون النار في الحجر ، فقال روكامبول اني وجدت ارمان لا يزال من رجال الصلاح يقضي معظم وقته في صنع الخير ولا تزال امرأته تحبه ولا يزال ابنه بقربه وبحشت أيضاً عن باكارا فعلمت انها قد تزوجت بالكونت ارتوف ولكن سبب هذا القران سر غامض لم يقف عليه احد .

ورأى روكامبول ان علائم الحقد والرعب قد ظهرت على وجه اندريا حين ظهر له اسم باكارا فقال له : ان حقدك على أخيك وسعيك للانتقام منه كان السبب في هلاكك مرتين فخير لك ان تتخلى عنه وتنصرف الى الانتقام من باكارا فإنها علة مصابك في حين ان أخاك لم يكن يريد لك إلا الخير ثم اني لا بد لي من مقاومة باكارا للانتقام منها ولخوفي من ان تحول دون ما أبتغيه من القران بالاسبانية فان هذه المرأة قد أحبطت جميع آمالي حينما كنت الفيكونت دي كامبول فأخشى ان تحول دون مقاصدي وتفسد علي أمري وأنا أدعى المراكز دي شمري .

وكان روكامبول يخشى باكارا وهو لا يعلم أنها في باريس ، ولا يعلم كيف انها تستطيع أن تحبط مساعيه في قرانه . وسنوضح كل ذلك في مكانه من هذه الرواية الهائلة .

ولا بد لنا قبل الخوض في حديث باكارا أن نذكر شيئاً من حكاية هذا الدوق الأسباني وفتاته لشدة علاقته بهذه الرواية فنقول :

كان هذا الدوق من عظماء الأسبان وأعظم أغنياء تلك البلاد ، ولم يكن له وريث غير فتاة بارعة في الأدب والجمال فكان يقدم بها كل عام وبأمراته الى باريس فيقيم فيها ستة أشهر ثم يعود الى بلاده .

وكان لهذا الدوق ابنا أخ أحدهما يدعى الدون بادرو والثاني يدعى الدون جوزيف ولما رأى انه لم يرزقه الله مولوداً ذكر يرث اسمه النبيل عزم على ان يزوج ابنته بابن أخيه الدوق كي ينحصر الارث بالعائلة .

وكان الدوق جوزيف يجيء معهم كل مرة الى باريس ، ويزورهم في كل يوم ، فكان الناس يتحدثون انه هو الذي سيتزوج الصبية . غير انه تعاقب على هذه الزيارات عامان فجعل الناس يقولون انه لا بد من حائل يحول دون هذا الزواج فتهاقت الخطاب على قصر الدوق وكلهم من علمية القوم وكبار النبلاء ولكن الفتاة كانت ترد جميع خطاياها وتعتذر بانها لا تزال صغيرة ولا رغبة لها بالزواج .

وكان الحائل بينهما مرض أخيه الدون بادرو ، فإنه كان عليلاً منذ أربعة أعوام وقد أصيب بمرض غريب عضال عجز عنه الأطباء وقنط الدوق من سلامته . فانصرف بأمياله الى ابن أخيه الدوق جوزيف وأراد ان يزوجه ابنته بعد وفاة أخيه لأنه كان يحبه . إلا ان الفتاة كانت تكرهه ، لأنها كانت تحب اخاه . وكان كرهها له ظاهراً لم يخف على عين روكامبول النقادة ، حتى انها كانت اذا التقت في منزلها بروكامبول والدون جوزيف تظهر ميلها الى روكامبول ، وتنهر من ابن عمها بقدر ما تسمح لها قيود المجاملة وروابط النسب . ولولا حب أبيها له لما اقتصر في النور منه عند

هذا الحد .

فترجح لدى روكامبول انها تحبه وكان كلما حاول ان يكشفها بفرامه يستشير أندريا فيقول له : إصبر فإن الثمرة لم تنضج بعد ، وإذا كانت تكره ابن عمها وتحبك كما تقول فلا بد ان يحملها كرهه وحبك الى ان تكون البادئة في بشك هواها وعند ذلك أجد لك حيلة لاقناع أبيها .

فيمثل روكامبول ويقتصر على مناجاتها بلغة العيون ، وهي أنفذ رسول الى القلوب .

إلا ان نبوءة اندريا قد صدقت فانه لم يمض على ذلك اسبوع كان روكامبول لا ينقطع في خلاله عن زيارة الدوق ، حتى لقيه خادام الفتاة يوماً وهو خارج من منزلها ودفع اليه رسالة ففضها روكامبول فاذا هي من ابنة الدوق تدعوه فيها الى التنكر عند منتصف الليل وموافاتها الى حديقة القصر من باب سري أرسلت اليه مفاتيحه ، فأخذ روكامبول الرسالة وأسرع الى اندريا ، وهو يكاد يطير من الفرح وأخبره بشأنها . فقال له ، بعد ان تأمل ملياً (وكان يخاطبه بالكتابة) : ليس هذا اللقاء لقاء غرام ، فان مثل ابنة الدوق لا تدعوك اليها عند انتصاف الليل الا لأمر خطير ، ومن هنا ستمبدأ روايتك . فاحرص على ان تظهر أمامها بظاهر كبار النبلاء ، واحذر من ان تبدر منك بادرة أو أن يدفعك غرور الصبي الى المجاهرة بما لا يستحب ، فان عظماء الأسبان شديداً التمسك بالشرف ، ولهم فيه كثير من التقاليد فلا يغفرون زلة

فاتعظ روكامبول بمواعظ استأذه وغادره الى النادي الذي يجتمع فيه بأصحابه حتى اذا دنا الأجل المضروب ذهب الى منزله السري فتنكر وانطلق الى الحديقة ففتح بابها بفتاحه وجعل يمشي تحت أشجارها مشية السارق حتى بصر بها جالسة تنتظره على مقعد من الرخام في ظل شجرة فتعارفا وجلسا بالقرب منها وجعل يكلمها بلء الاحترام .

وبعد أن اعتذرت له بصوتها الرخيم عن الخطأ التي سلكتها معه واجتماعها به في منتصف الليل في خلوة سرية قالت له : إني لم أفعل ما فعلت إلا لثقتي بنبلك وقد دعيتني هذه الثقة الى أن أعتد عليك في أمل جمل ، فهل تكون موضع ثقتي ؟

- بل سأكون من أخلص خدمك .

- إذن خذ هذه الأوراق فقد كتبت فيها تاريخ اسرتي وبعض حوادثها ، فمتى وقفت عليها وتمعن بها تعد إلي لأخبرك بما أريد منك .

ثم أعطته الأوراق ، فتناولها روكامبول قائلاً : ومتى تأمريني أن أعود اليك ؟

غداً في مثل هذه الساعة .

- أين تجتمع ؟

في هذا المكان .

وقبل روكامبول يدها ثم انحنى أمامها بماء الاحترام وخرج فانطلق مسرعاً إلى منزله السري فخلع ثياب التنكر وذهب إلى قصره وصعد إلى الغرفة التي ينام فيها اندريا فأيقظه وأخبره بما كان وقال : إسمع كي أتلو عليك هذه الأوراق .

وجعل يقرأ عليه جميع ما كتبه الغادة الاسبانية .

وكانت خلاصة هذه الأوراق ان الفتاة أظهرت فيها أخلاق أبيها وعزمه على أن تبقى القابله وأمواله منحصرة في أسرته ولهذا فقد أراد تزويجها بالدون بادرو شقيق الدون جوزيف . ثم ذكرت انها تهوى ابن عمها هذا وأنه مريض منذ أربعة أعوام . وهنا أخذت تقص حكاية غريبة حصلت لها ان الدون جوزيف حسد أخاه الدون بادرو على خطبته لها وقرب تمتعه بأموال أبيها ، فاتفق مع بدوية يهاها اسمها فاطمة دست السم لأخيه في الطعام ، فأصيب على أثره بهذا الداء العياء . وقد ذكرت كيف وقفت على الدسياسة فقالت : إنها كانت

جالسة في ليلة اشتد حرها تحت شجرة في حديقة قصر أبيها في اسبانيا وبينما هي تستلشق اللسيم من حفيف الأوراق إذ سمعت صوت الدون جوزيف وفاطمة يتحدثان في تلك الحديقة دون ان يراها بشأن هذا السم وبدء أعراضه فكانت تقول له فاطمة : طب نفساً ، إن أخاك قد يعيش أربعة أعوام ولكنه يعيش عليلاً وتزداد علته في كل يوم الى ان يتلاشى . فارتفعت الفتاة مما سمعت وأسرعت الى ابن عمها إلا ان الدون جوزيف حين رآها وعلم انها سمعت حديثه مع فاطمة انفرد بها وقص عليها قصة أقطع من هذه وهي ان أباهما الدوق قتل أخاه اي والد الدون جوزيف قتلاً سرياً وان أباهما لا يريد ان يزوجها بابن اخيه الا ترضيه له عما فعله بأبيه ثم قال لها : إنك اذا بحت بسرّي بحت أنا بسر أبيك فاختراري بين الفضيحةتين .

ومما جاء في هذه الأوراق ان الدون بادرو حين رأى نفسه عليلاً وان الأطباء عجزوا عن شفائه التمس من عمه ان يزوج ابنته لأخيه الدون جوزيف فأجابته الدوق الى هذا الملمس ، وكان بينه وبين ابنته نزاع شديد أسفر عن اضطرار الفتاة الى قبول الدون جوزيف زوجاً لها بعد وفاة اخيه وهي تعمل نفسها بأن تجد مخرجاً لها من هذا الزواج الشائن إلى ان علمت أخيراً بأن بادرو أصبح في حالة النزاع وانه لم يعد لها مناص من الزواج بهذا القاتل ، فالتجأت إلى المراكز دي شمري وهي تؤمل ان يجد لها وسيلة تنقذها مما هي فيه .

هذا ملخص لأوراق الغادة الأسبانية . وكان روكامبول يتلوها معجباً بهذه الأسرار واندريا يصغي اليه اشد الاصغاء ، حتى اذا أتم تلاوتها سأله : ماذا ترى ؟

فكتب على اللوح الحجري يجيب : أرى أن يجب ان تقصر اهتمامك على اقتفاء أثر الدون جوزيف والترصد له في كل مكان حتى تقف على جميع أسرارته فلا بد ان تكون حياته محاطة بالأسرار ، ومتى تمكنت من الوقوف على شيء منها

أسرع إلي وأخبرني .

— وماذا أجيب الفتاة بعد تلاوة الأوراق ؟

— إذهب اليها غداً في الوقت المعين وأظهر لها أنك أهل لكتمان سرها وجدير

بإعانتها وانهج معها أحسن مناهج الاحترام .

فودعه رو كامبول وولج الى غرفته ونام نوم المطمئن . وفي الليلة التالية ذهب في الأجل المضروب الى الحديقة فلقبها تلتظّره فبدأ معها بخطاب طويل أظهر لها فيه تأثره من مصابها وإكراه أبيها لها على زواجها برجل سفاك يقاتل ثم وعدّها بأن ينقذها منه في أقرب حين فأجفلت الفتاة وقالت : العلك تريد قتله بالمبارزة ؟

فتنهّد رو كامبول وأجاب : أجنون أنا فأقدم على قتله بمبارزة يتضح أمرها لجميع الناس فتقصيني عنك ؟

فتبسّمت الفتاة وقالت : إني إذا كنت الآن باخلاصي أحسن فتاة فساكون احسن امرأة إذا لجوت من هذا القاتل .

— إطمئني يا سيدتي فلا يمر اسبوعان حتى يلقي جزاءه وتصيح حين حرة مطلقة من عهود أبيك .

وإنما توغل بهذا الوعد لشدة ركونه الى السير فيليام واعتماده على قريحته الجهنمية . ثم قبل يدها باحترام وودعها وانصرف .

٧

أما هذا الدون جوزيف فقد كان من دهاة الرجال وكان عاشقاً لامرأتين إحداهما فاطمة النورية وهي التي شاركته في تسميم شقيقه . وقد أتى بها من اسبانيا إلى باريس فأقامها في بيت محتجب في احد الشوارع الحظيرة وحصرها

فيه لغيرة عليها بل لحدرة من ان تختلط بالناس فتفشي سره ، وكانت توافقه على هذا الاحتجاب لشدة شغفها به فانها لم يدفعها الى مشاركته بالجريمة غير الحب ، فكان يذهب اليها كل ليلة متنكراً في الساعة العاشرة فيقيم عندها الى منتصف الليل . وقد عين لخدمتها عبداً أسود وعجوزاً فكان هذان الخادمان رقيمين عليها .

أما المرأة الثانية فقد كانت من بنات الهوى ، وهي محطية لأحد الأغنياء الروسيين وقد اضطرت هذا الفتى الى السفر ثلاثة أشهر وسمعت باسراف الدون جوزيف وفرط ثروته وشدة دهائه ، فأرادت ان تقتنصه بالخدعة واحتمالت عليه حيلة غريبة ، وهي أنها كتبت اليه كتاباً دون توقيع قالت له فيه : إن امرأة شريفة مشغوفة به تريد ان تحاذر ايضاً من ان يعرف منزلها ، فإذا أحب أن يأتي اليها معصوب العينين فلينتظر في شارع عيلته له الى ان يوافيه خادمها الذي يعرفه فيأتي به اليها .

فلما وقف الدون جوزيف على هذا الكتاب هاج به شوق غريب الى معرفة هذه المرأة فقبل بشروطها وذهب اليها معصوب العينين .

فلما تقابلا رأى من جمالها وأدبها ودلائل انشغافها به ما أدهشه . ثم زاد ميلاً اليها حين أخبرته أنها زوجة كونت روسي شديد الغيرة شرس الطباع ، وانه جاء بها من بلاده الى فرنسا ، وهي بها منذ زمن طويل دون ان تتمكن من معرفة أسرة من امراتها لفرط احتجابها وغيرة زوجها . ثم لفقت له حديثاً طويلاً أخبرته فيه انها رأت في الأوبرا عدة مرات وانها علفت به وعرفت اسمه من وصيفتها فما زالت صابرة على هواه الى ان سافر زوجها حديثاً فكتبت اليه هذا الكتاب .

وكان من أمره أنه عشقها عشقاً مبرحاً نسي بعده حبه لفاطمة ، ولكنه لبث يزور فاطمة متنكراً كل ليلة ، يزور عشيقته الأخرى معصوب العينين ، ويختلف الى ابنة عمه في النهار لوثوقه بأنها ستكون امرأته بعد موت

أخيه ، الذي كانت ترد الأخبار عنه في كل بريد مشيرة الى انه أصبح على
وشك الموت

* * *

ولنعد الآن الى روكامبول ، فلقد تقدم لنا القول أن اندريا أشار عليه
بمراقبة جوزيف فامتثل لنصيحته وخرج في تلك الليلة الى منزله السري ،
فتنكر وذهب الى منزل الدوق الأسباني فكن له عند الباب في الزمن الذي
يخرج فيه . ولم يطل انتظاره حتى رأى الدون جوزيف خارجاً من المنزل وهو
يمشي مطرق الرأس . فاقتفى أثره وجعل يتبعه الى أن دخل الى منزل ،
وكان هذا المنزل خاصاً بالدون جوزيف ، فصهر روكامبول وهو لا يعرف انه
منزله نحو نصف ساعة الى ان رآه خرج منه وقد غير زيّه فلبس ملابس العمال
ووضع قبعة كبيرة على رأسه سترت بعض وجهه ، غير أنه لم يخف على
روكامبول وقال في نفسه : لقد صدق أندريا ، فإن حياة هذا الرجل مكتنفة
بالأسرار فلا تعقبه .

ومازالا يسيران وكلاهما متنكر بزي يستتر حقيقته عن العيون حتى بلغ
الدون جوزيف الى منزل في شارع حقير فأخذ مفتاحاً من جيبه وفتح به باب
المنزل ثم ولج اليه من دهليز طويل فقال روكامبول لا شك ان له خلية في
هذا المنزل يغار عليها .

وأقام يتخطر ذهاباً وإياباً في ذلك الشارع وهو يراقب الباب الى ان عيل
صبره وانتصف الليل . وعند ذلك سمع صرير المفتاح في قفل الباب فرأى الدون
جوزيف خارجاً منه وسمع صوت فتاة تودعه اللطف وداع .

فقال روكامبول في نفسه : إن الليل قد انتصف وهو عائد لا شك الى منزله
فلأدعه يذهب في شأنه ولأفحص هذا البيت .
ثم دنا من المنزل فقرأ نمرة وجعل يرود في أكنافه ، حتى علم جميع

ما ينبغي ان يعلمه ثم عاد الى اندريا وأخبره بكل شيء ، وتلقن منه
العمليات اللازمة .

- ٨ -

مضى على ذلك يومان ، لم تفترفيهما همة روكامبول عن تعقب الدون
جوزيف والوقوف على دخائل منزل فاطمة . وكانت تنتظر عشيقها الأسباني
في كل ليلة .

ولقد يتبادر الى الذهن حين ذكر هذه النورية انها كانت عيجوز شطاء
ترجم بالغيب ، وتكشف الخبيثات ، شأن أمثالها من النوريات . غير أنها كانت
فتاة باهرة الجمال غضة الصبى ، وكانت في بدء عهدها راقصة في المسارح .
فطافت أوروبا ورقصت بمسارح العواصم الكبرى ، فكانت تحوم حولها
الأبصار إلى ان رآها الدون جوزيف فعلق بها وما زال بها حتى شغفت بهواه
وتركت المسارح من أجله . فكانت ساكنة في اسبانيا وإذا قدم الى باريس
قدمت معه اليها .

وكان الدون جوزيف قد تأخر تلك الليلة عن ميعادها ، فلما جاءها
استقبلته عاتبة غضبي لتأخره ، فأذكر عليها عتابها ودار بينهما الحديث الآتي
فقالته النورية :

- لقد طال غيابك حتى حسبت انك غير عازم على الحضور .
- أسبق لي عهد ايتها الحبيبة بالتخلف عنك ؟
- ذلك أكيد ولكني لا أنكر عليك ما أشعر به من الغيرة .
- أتغارين علي ومن تغارين ؟
- أغار عليك من كل مجتمع تختلط به ولا أستطيع أن أكون معك بل أغار

من خدمك الذين يستطيعون ان يروك في كل حين بل أغار عليك منك ومن الهواء الذي تتنشقه بل . .

فقاطعها الدون جوزيف وقال ضاحكاً : ما هذا الجنون ؟

— هو جنون كما تقول . . . ولكنك لو كنت مثلي سجيناً في هذا المنزل بل في القفص المذهب ، وقد حظر عليك الخروج منه ومنعت من الوقوف في المشرف ومن الاطلاع من النافذة ، وكنت أنا في مكانك أتدشق الهواء المطلق ، وأعاشر من اردت ، وأعرض جمالي على جميع الناس . أما كنت تنفّر علي ؟

— ربما ولكنك تعلمين اني لا أحب سواك في هذا الوجود .

فقالته بصوت المنهمك : حق خطيبتك ؟

فهز كتفيه وقال : العلك تعلمين انها تكرهني وتحتقرني . ثم أنظنين بأنها تغفر لي قتل أخي خطيبها . واذا غفرت لي ، فهل أغفر لها ذلك الكره ؟

— إنني أرجو على الأقل ان لا يحصل هذا الغفران .

— إطمئني أيتها الحبيبة . وثقي بأنني لا أتزوجها إلا لطعمي بمرکز أبيها إذ لا أحب سواك

— إنني أصدقك في جميع ما تقول حين تكون بقربي ، وحين تنظر إلي عيناك الجميلتان . ولكنك حين تكون بعيداً عني فأخال ان النساء الجميلات يحطن بك من كل جانب . . ولا أتمنى إلا ان يكون لهؤلاء النساء رأس واحد .

فقال الدون جوزيف باسم : لماذا ؟

— لأقطع هذا الرأس .

— إذن فأنت تعيسة في باريس ؟

— نعم ، ولا سيما حينما أكون بعيدة عنك . فلاني أذكر أيامي الماضية

وأسري الحاضر ، الى أن تجيش عيناى بالبكاء . ولكنى لا آسف لئلك الأيام
الخوالي لأني احبك . ولا أطلب الخلاص من أسري لأنك بقري غير
أني لم أعد أطيع الإقامة في باريس ، لشدة ما ألاقه من متاعب الوحدة
والضجر . .

— صبراً أيتها الفتاة ، فإننا سنبرحها في القريب العاجل ، فتعودين الى
ربوعك .

فسرت البدوية وقالت : أحق ما تقول . . ؟ ومتى نبرحها . . ؟ والى أين
نسافر . . ؟

— إلى قاديكس

فأمعنت الفتاة وقالت : لقد علمت الآن السبب في رجوعك . اليس هو لأن
أخاك الدون بادرو على فراش الموت ؟

فابتسم الدون جوزيف ابتساماً هائلاً دون أن يجيب فقالت له النورية : لو لم
أحبك أبلغ حب لما ارتكبت معك جريمة تسمي أخيك

وفيما هي تكلمه نظرت الى منديل كان يعبث به بيده ، ورأت حرفين
مكتوبين عليه . فأجفلت أيما إجفال واستحالت تلك الغزاة الأنيسة الى
لبوة ثائرة . فاخطففت المنديل من يده ، وركضت الى المستوقد وأخذت
خنجرأ كان عليه ، فجردته من الغمد وهي تقول : أيها الخائن . . قل من
أية امرأة وصل اليك هذا المنديل ، او أشك هذا الخنجر بصدرك ؟

فاصفر وجه الأسباني وتلعثم لسانه ثم قال قولاً متقطعاً : إنه منديلي .
كذبت ، فانه منديل امرأة وما هذان الحرفان المكتوبان فيه من
حروف اسمك ؟

فتمالك روعه وقال : صدقت ولكنك لو أمعنت النظر بهما لعلمت من هي
صاحبة المنديل .

— قل من هي وإلا قتلتك ، فانك لم تعرف بعد من أنا .

فضحكك الدون جوزيف ضحكاً عالياً وقال إنك مجنونة دون شك
ألا ترين هذين الحرفين يوافقان الحرفين الأولين من اسم خطيبتي ؟

فأعادت فاطمة النظر اليهما ثم سقط الخنجر من يدها وقالت : إنك فزت
بإيجاد هذا البرهان والا فانك كنت في عداد الأموات .

— إن البرهان لم أتكلف لإيجاده فان ما قلته هو الحق . وفوق ذلك فاني
لا أخاف وعيدك .

.. لقد أخطأت في عدم خوفك ، فانك تذكر دون شك حين أحببتك
ورضيت ان أودع جميع ملاذ الحياة ، وأكون عبدة لك ، ذلك القسم الذي
قسمته وهو اني متى رأيت دليلاً على خيانتك اقتلك دون إشفاق .
— أذكر .

.. أتحسب اني أحنت بيميني ؟
— كلا .

— إنك مهما انغمست في الشر والخيانة ، لا بد ان تكون مؤمناً بالله ،
فاذا كان ذلك فاقسم لي بهذا الإله الذي نعبده نحن البدويات ، إنك لم
تخن عهدي .

.. اقسم لك بالله اني ما خنتك ولا اخونك .

— ولكني رأيت في الليلة السابقة حلماً لا أزال موجسة شراً منه الى الآن
وهو اني رأيتك في مرقص تحاصر امرأة وانك كنت تحب هذه المرأة وتهمس
في أذنها أحاديث الغرام .

.. وهل تصدقين الأحلام ؟

.. وهل أنا إلا نورية ؟

— صدقت . فانكم السابقون في حلبة الأرواح ولكن هذه الفتاة التي تمثلت
لك اني أخاصرها في الحلم لا يمكن ان تكون إلا أنت ؟
— كلا ، فانها كانت لابسة صليباً في عنقها ، وما أنا بمسيحية فألبس

صليبا !.

— إذن فان حلمك كاذب لأنني لا أحب سواك .

— يمكن ان يكون كلامك صادقا .

فضائق صدره من كثرة غيبتها وقال : نعم فهاذا تريدان بعد ذلك ؟

فاستاءت لجوابه وقالت : أريد ان تعلم ان الوثائق الذي بيننا لا يحل .

— ذلك لا ريب فانه وثائق الحب .

— كلا ، بل وثائق الجريمة . واصنع لي الآن فانك كنت مطلقاً من هذا

الوثائق الى اليوم الذي دفعني فيه هواك الى الاشتراك معك بقتل اخيك أما الآن وقد غمست يدي في دمه كي تحظى بخطيبته فلم يعد لك براح من يدي ، وأصبحت لي يحميتك كما أنا لك بحملي وذلك الى آخر العمود فان قيود الجرائم لا تحل .

— ما دخل الجرائم الآن بيننا وما بالك لا تحذيني باحاديث الغرام إذ هي

ألد للسمع من هذه الاحاديث وفوق ذلك فما أنا قتلت أخي ولا انت بل اخوتك الذين دسوا له السم في الدسم

— صدقت فانهم اشرار يرتكبون كل ذنب من أجل المال ، ثم انهم لم

يقتلوه من تلقاء أنفسهم ، بل كانت ذلك بمالك وبواسطي فنحن القاتلان ، واني اذا أمرتهم ان يقتلوك فلا يتأخرون ، وأقول ذلك تحذيراً لك من خيانتني .

فنهض الدون جوزيف وقال لا شك إنك جنذت لعدم ثقتك بي وباليمين

التي حلفتها .

ثم التفت بردائه وقبل جبينها وخرج فخرجت معه وشيعته الى الباب فذهب

وهو يقول في نفسه : إن هذه المرأة واقفة على سري وهي تنذرني في كل حين فلا بد إذن من قتلها .

أما فاطمة فانها وقفت هنيهة على الباب تشيعة بالنظر حتى بعد عنها فعمادت

الى القاعة التي كانت فيها ولكنها ما لبثت ان دخلت اليها حتى تراجعت
منذرة لانها رأت فيها رجلاً كأنه قد صعد اليها من جوف الارض لان المنزل
ليس له غير باب واحد .

وكان هذا الرجل واقفاً وسط الغرفة وهو مشهور الخنجير الذي سقط من
يد النورية. فذعرت المرأة وقالت له : من أنت ؟
- صديق .

- وماذا تريد مني ؟

- أريد ان اكلمك عن الدون جوزيف .

ثم أشار اليها إشارة الأمر ان تغفل الباب . فامتثلت فاطمة لما تولاها من
الرعب ، وأقفلت الباب وعادت اليه . وقالت : قل .. ماذا تريد مني ؟
لاني مصغية .

ثم دار بينهما الحديث الآتي ، فقال الرجل الغريب :

- أتدعين فاطمة وأنت خلية الدون جوزيف ؟

- نعم الملك تعرفه ؟

- لاني أعرف المرأة التي يحبها ويخونك من اجلها .

فاحتدمت فاطمة غيظاً وهاجت مكان من غيرتها فقالت له : انك كاذب
فيا تقول .

- إصغي الآن فاني متى بحت لك بأسرار تحسبين أنك واقفة عليها وحده
تثقي حينئذ باقوالي .

- قل فاني مصغية اليك .

- فاطمة ان للدون جوزيف أخاً يدعى بادرو .

فقالت وهي تضطرب : أتعرفه ايضاً ؟

- ربما وان هذا الاخ في حالة النزاع الآن وسيموت قريباً اي انه سيموت
مسموماً والناس يحسبون انه مصاب بمرض شديد .

- فرفعت فاطمة عينيهما الى هذا الرجل ونظرت اليه نظرة اندهال وهي تقول : أتعرف هذا السر ؟
- أعرف انك والدون جوزيف قتلتما الدون بادرو .
- فركعت فاطمة أمامه وقالت : عفواً ومرحمة . كأن هذا الرجل قاضياً ، وكأنها في موقف قضاء .
- فضحك الرجل ضحكاً عالياً ثم قال :
- إن هذا الامر لا يعنيني وسيان عندي إذا عاش الدون بادرو او مات فلا تخافي .
- إذن فماذا تريد مني ؟
- أما كنت تقولين الآن للدون جوزيف ...
- وكيف عرفت أكنت معنا ؟
- لا تهتمي بذلك ويكفي اني عرفت والآن أما كنت تقولين له انك إذا خنتني أغمد خنجرى في صدرك .
- نعم قلت هذا القول وأقسمت على قتله إذا خانني .
- إذن اذا كنت تهرين باليمين التي حلفتها فاني أريك الدون جوزيف يخاصر المرأة التي يحبها .
- فهاجت الغيرة في فؤادها وقالت : متى وفي اي مكان ؟
- بعد ثمانية ايام في حفلة راقصة .
- ماذا اسمع ؟ ان ما تقوله قد رأيته في الحلم . ومن عسى تكون ايها الرجل المهلك شيطان ؟
- فضحك وقال : ربما
- انت الشيطان نفسه .
- وماذا يفيدك ايتها الفتاة ان تعلمي إذا كنت الشيطان نفسه .
- وكان يقول هذا القول وهو ينظر اليها نظرات غريبة ويضحك فخافت

الفتاة وحاولت الهرب .

فأسرع واجلسها على كرسيها وقال : لماذا تخافين مني وأنا صديق لك ؟

- أنت صديقي ؟

نعم ..

- ولكنني لم أرك في حياتي .

- أما أنا فقد عرفتكَ منذ عهد طويل وها أنا أقص عليك امرُكَ مع الدون

جوزيف فإنك جئت إلى باريس منذ عام لأن الدون جوزيف كان فيها .

- هذا أكيد ..

- وكان هذا الاسباني يحبكَ في ذلك العهد ويغار عليك من العيون فأمرَكَ

أن تدخل إلى باريس في ظلام الليل .

- وهذا أكيد ..

- وإنك تقيمين في هذا المنزل مع امرأة عجوز كانت حاضنة لك ومع

خادم أسود ، وقد كان الاثنان في خدمتك حينما كنت في اسبانيا وكانا يخدمانك

في أغراضك الغرامية قبل ان تحبي الدون جوزيف .

- وهذا أيضاً أكيد .

- والآن فان الدون جوزيف قد اشتراها بالمال فباتا أطوع له من البنان .

- وهل يخدعاني ؟

- ستعلمين ذلك فيما بعد ، والآن فاصغي الي ، انك منذ عام ، أي منذ

دخولك الى هذا المنزل لم يدخل اليه الا الدون جوزيف وذلك لفرط انشغافك

فيه ، اما حاضنتك فهي تشيع أمام جيران منزلك انك مصابة بداء السرطان

وانك جئت الى باريس كي تتعالجي فيه وهم يحسبون انك طريحة الفراش منذ

ذلك العهد الى الآن لأنهم لم يروك ، والآن فهل كففاك ما قلته لك وهل

تثقين بكلامي .

- لا بد لي من هذه الثقة لأنني اراك واقفاً على جميع أسرارِي .

- وإذا ثبت لك ان الدون جوزيف يهوى سواك ويخونك أتصدقين ؟
- ربما صدقتك ورثقت من اقوالك الا انه لا بد من البرهان في كل حال .
- سأقدم لك هذا البرهان بعد ثمانية أيام .
- فأطرقت فاطمة برأسها الى الأرض ولم تجب ، فقال لها الرجل باحتقار :
- لقد أخطأ ظني بك فلقد كنت أحسب ان لك قلباً يتأثر ، ويلذ له الانتقام ، ألم تقولي انك عارمة على قتل الدون جوزيف اذا أثبت لك خيانتته فما بالك الآن ضعفت واصبحت على وشك الاغناء ؟
- . انك منخدع بي ولا تعلم من انا .
- فابتسم ابتسام الهازيء المستخف وقال : بل أعرفك حق العرفان فإليك امرأة ضعيفة تقيد فؤادها بسلاسل الغرام .
- قلت لك ان فراستك قد اخطأت بي فانك ترى بشري تشف عن العروق الزرقاء ، ولكن تحت هذه العروق اعصاب قدت من الفولاذ وان اليوم الذي تطعن يدي صدر الدون جوزيف بخنجر يخترق هذا الخنجر صدره النصاب .
- هذا الذي كنت اود ان اسمعه منك ..
- انما هات برهانك على خيانتته وأنا اقتله لا محالة .
- لا اصدقك الا إذا اقسمت .
- فرفعت النورية يدها باحترام ثم قالت اننا معشر النور لما ديانة سرية لا تشبه الدين المسيحي ولا الاسلامي في شيء ، وقد تلقنت أسرار هذه الديانة التي يحملها جميع الناس لحرص النور على كتمانها وانا أجعلها كل الاجلال ولذلك فإن كل لوري يقسم بمعتقد السري ، وهو لا يحنث بيمينه ولو دفعه البر به إلى الموت ، فأنا اقسم لك بمعتقد آبائي وهذه الديانة السرية التي لا يحق لنا الاباحة بسرها الا لمن يعتقد بها اني اطعن الدون جوزيف بخنجر حزين أراه مع غريمي .
- إذن فاني اثق بقولك بعد هذا اليمين .

- وانا انتظر البرهان

- سترينه غير انه يجب ان تعلمي ان الانتقام لا يفلح الا حين يسير مع صفة
ينبغي ان تكون ملازمة له وهي الحكمة ، ثم انه يجب ان يكون الانتقام
مقرون بالكمات .

- أعرف ذلك .

- وينبغي ان تكوني دائما باسمه الثغر طلقة المحيا كي لا يداخله فيك اقل
ريب واعلمي انه لم يرني احد دخات اليك ولا يعرف احد الطريق التي سلكتها
وسأعود اليك لأراك بعد ثلاثة ايام .

- أعود الي بالبرهان ؟

- ربما ..

- إذن فسأتكل عليك .

- اصفي الي فاني لم أتم نصيحتي بعد واحذري من الحاضنة ومن هذا الخادم
الأسود كما تحذرين من الموت .

لماذا ؟

- ستعلمين ذلك فيما بعد اذ لا استطيع ان اخبرك به اليوم ثم ذهب إلى
المستوقد وكان عليه آنية صينية فرفعها وقال لها . اني سأضع لك في كل ليلة
رسالة تحت هذه الانية في الوقت الذي تنتظرين فيه قدوم الدون جوزيف
فاقرأها تجدي بها تعليماتي والان فاني منصرف ولا يجب ان تعرفي كيف اذهب
وكيف أتيت ..

ثم اخذ من جيبه عصا حمرى وقال لها : يجب ان اعصب عينيك .

وتعاضم ذهول النورية ولكنها لم يسمعها الا الامتثال فقالت . افعل .

فعصب عينيها وقال لها : عدي على اصابعك الى المائة وخمسين ومتى اكملت
عدها ارفعي العصا .

وجعلت تعد على اصابعها الى ان اتمت العد فأزاحت العصابة فما رأت امامها
احداً فرفعت يديها الى السماء وقالت : لا شك انه شيطان .

- ٩ -

في الساعة العاشرة من الليلة التالية ذكرت فاطمة وصية ذلك الرجل الذي
باتت تعتقد انه الشيطان ورفعت الانية عن المستوقد ووجدت تحته رسالة وحقاً
صغيراً فخفق فؤادها ولم يعد لديها شك انه الشيطان بعينه ثم فتحت الرسالة
فرأت مكتوباً فيها ما يأتي :

« انك تجدين بجانب هذه الرسالة حقاً صغيراً فيه رشاش ابيض ، ذوبيه
في كأس واشربه واذا لم تفعلي حين اطلعك على الرسالة وقبل مجيء الدون
جوزيف فإنك مائة لا محالة . »

ففتحت فاطمة الحق ووجدت فيه ذلك الرشاش ، فما ترددت عن شربه ولم
يكن امثالها حذراً من الموت كما جاء في الرسالة غير انها قالت في نفسها : ان
هذا الرجل الذي تمثل لي لم يكن الا الشيطان بعينه وهو الذي ارسل لي هذا
الرشاش لقصد أجهله ، ولكن لا شك عندي بأن الشيطان يحميني فإنه معبودنا
نحن معاشر النور الذين لا نعبد سواه .

ولم تكذب تشرب الرشاش مندفعة الى شربه باعتقادها انه مرسل اليها من
معبودها حتى سمعت وقع اقدام الدون جوزيف فوجف فؤادها لأنها باتت
واثقة من انه يخونها ، وخطر لها ان تفتك به ولكنها ذكرت وصية الذي
تعتقده الشيطان فهدأت روعها واستقبلت عشيقها بمظاهر البشر والسرور .

أما الدون جوزيف فانه لم يستقر به المقام حتى اخرج من جيبه زجاجة
وقال : لقد وردني اليوم هذا الشراب من اسبانيا وهو من افخر انواع الشراب .

ثم نادى الخادم وقال احضر كأسين فاني اريد ان اشاطرها الشراب .

* * *

ولنعد الآن خطوة الى الوراء لنبسط ما كان من الدون جوزيف بعد ان غادر فاطمة فانه خرج من عندها مغضباً عليها وقد عول على قتلها لأمرين : انه لم يعد يحبها بعد ان نشبت في فؤاده خالب تلك المرأة التي كانت تدعي انها زوجة الكونت الروسي ، والثاني انه بات يخافها خوفاً شديداً ولا يحسر على تركها لأنها واقفة على جميع اسراره .

وكان لهذا الاسباني خادم بل مستشار يدعى زامبا ، وحكاية هذا الخادم انه حكم عليه بالاعدام في اسبانيا لجرمة ارتكبتها ففر من القضاء والتجأ الى الدون جوزيف ، فأمنه وادخله في خدمته ، وعند ذلك تنكر هذا الخادم كي لا تعرفه الشرطة واصبح مقيداً بحريته وبات اطوع للدون من بنانه .

وكان الدون جوزيف يثق به ثقة شديدة لوثوقه من انه لا يستطيع خيانتة حذراً من ان يسلمه مولاه الى القضاء ، وكان يأتمنه على اسراره ويستخدمه في جميع اغراضه ، حتى اصبح مع مرور الأيام مستشاراً في السر ، وهو في الظاهر خادم غرفته ، وذلك لما لقيه من رجاحة عقله وحسن استنباطه وشدة مقدرته في المكر والدهاء .

ولما برح الدون جوزيف منزل فاطمة ذهب الى منزله فلقي فيه خادمه زامبا ينتظره وحكى له ما كان من امر فاطمة وتصميمه على قتلها فأشار عليه زامبا ان يقتلها بالسم واعطاه سمّاً قاتلاً مزجه بذلك الشراب الذي حاول الدون جوزيف ان يشرب ويسقي فاطمة منه .

اما فاطمة فانها اخذت الزجاجة وفضت ختمها بيدها ثم صبت شرابها بالكأسين واخذت كأسها ، ولما ادنته من فمها داخلها الشك وقالت في نفسها

انه ربما كان يريد قسميمي ولكنها اطمأنت حين رآته قد شرب ما في الكأس وشربت كأسها .

واقام عندها يحدثها بأطيب الأحاديث وهي تجامله احسن مجاملة الى ان انتصف الليل فودعها وهو يقول : اياك والغيرة عليّ لأني لا احب سواك في هذا الوجود .

ثم خرج ولما صار في الطريق رثى لتلك الفتاة وقال: مسكينة انها ستموت في عنفوان الشباب ولكنني لم اقتلها الا عملاً بناموس تنازع البقاء اذ لم يكن بد لأحدنا من الموت .

وكانت فاطمة قد خرجت معه حسب عاداتها الى الباب الخارجي ولما عادت الى القاعة التي كان فيها ، تراجمت منزعرة لأنها رأت فيها ذلك الرجل الذي كانت تعتقد انه الشيطان وكان جالساً على المقعد ينتظر عودتها فمد يده دون ان يحفل بانذعارها الى الزجاجة وقال لها : اشربت من هذا الشراب ؟ نعم ا .

وكان معلقاً بالجدار قفص فيه ببغاء جميل فقام الى القفص واخرج منه الببغاء ثم اخذ قطعة سكر عن المائدة وصب فوقها بضع نقط من فضلة الكأس التي شربت منه فاطمة وقدمها للببغاء ، فأكلها وقالت له فاطمة وقد عجبت لصنعه : ماذا تفعل ؟

ولم يجبها ولكنه اشار بيده الى الببغاء فرأت انه جعل يصفق بجناحيه برهة ثم انقلب مائتاً لا حراك به .

وقال لها الرجل عند ذلك : ان هذا الشراب يقتل الانسان بلملة فان الدون جوزيف قد سقاك اقل السموم ، وهو انما اراد قتلك كي يخلو له الجو مع التي يحبها .

فصاحت صيحة منكرة ثم قالت : لا بأس فاني سأحيى الى الغد واقتله .
— واية فائدة لك من قتله اذا كان قد شرب السم معك فلا بد له ان يموت

حين تموتين .

- لقد اصبت ولكن لماذا قتلتني اذا كان يريد ان يموت هو ايضاً .. لقد طاش رأسي في بوادي هذه الأسرار فضحك من اضطرابها وقال : ان كشف النقاب عن هذا السر سهل ميسور وهو انه شرب ضد السم الذي سقاك اياه قبل ان يشربه فشرب وهو آمن مطمئن .

- أواه ! لقد عرفت الآن كل شيء ولكنه لم يحسب حساب خنجرني ، واذا لم يكن لي بد من الموت .. فقطاعها وقال لقد اخطأت أيضاً ، فاذك لا تموتين .

- كيف لا أموت وقد شربت هذا السم ورأيت فعله في البهائم ؟
- ذلك لأنك شربت ضد السم وهو الرشاش الأبيض الذي وضعته تحت الأنية .

فركعت فاطمة وقد رسخ في ذهنها انه الشيطان وقالت له : لقد علمت انك أبيع .

- كيف ذلك ؟

- أليست الشيطان .

فأدرك في الحال اعتقادها وقال : ربما .. وفي كل حال فأنت مـدينة لي بحياتك وبانتقامك من هذا السفاك .

- سأقتله دون رحمة اذ قد ثبت لي الآن انه كان يريد قتلي فبهمن لي عن خيانتته واذكر لي اسم تلك الخلية التي يهاها لتعلم اني أبر بيمينني .
- سترين هذا البرهان قريباً .

فقال له بالحاح ، متى .. فقد نفذ صبري عن قتل هذا الخائن .

- صبراً فان الساعة قد دنت واصغي الي ، فان هذا الخائن قد سقاك السم بيده ، وعلم انك مائتة في الغد ، ولكنه لم ينجل من ان يمسد بده الى

وداعك ويقول لك الى الغد ، وهو يعلم انه سيرالك جثة باردة فاذا رآك غداً حية ترزقين فلا بد له من ان يسعى في قتلك بطريقة أخرى واذا رأى ان السم لم ينجح فهو سيدجأ الى الخنجر ولكن لا تخشي فاني بقربك احملك انما يجب ان تتمي تمثيل دورك .

- كيف ذلك ؟

- ذلك ان تظهري له الحنو والانعطاف وتبالغي باظهار الغرام كما كنت تصنعين من قبل .

- ولكنه سيعلم اني شربت ضد السم .

- ذلك لا ريب فيه ، وهو سيتهم خادمه لأنه لا يعلم مقدرتي وسلطاني ، ولكنك ستزيلين شكه فتنامي غداً الى الساعة الثالثة بعد الظهر فاذا جاء الدون جوزيف اظهري له انك تشكين الماء في الرأس وتشاقلا في الأجفان ثم تقولين له انك شربت افينوناً وان ذلك من تأثير الأفيون ، فان الأفيون يكون تريقاً لبعض السموم . والآن فاني ذاهب فاقتربي مني لأعصب عينيك ولا تنسي ان تبقي العصاة الى ان تعدي مائة وخمسين .

ثم عصب عينيهما وقال لها : احذري من خادميك أشد الحذر

- ١٠ -

كان من عادة الدون جوزيف انه متى خرج من منزل فاطمة يعود الى منزله فيتنكر بزي جديد ثم يأخذ خادمه زامبا ويذهب الى شارع مقفر فيرى هناك رجلاً ينتظره بركبة فيطلق سراح زامبا ويدلو من الرجل ، فيعصب عينيه ويسير به الى تلك المرأة التي كان يهاها وهي احدي بنات الهوى كما قدمناه غير انها كانت توهم الدون جوزيف انها امرأة كونت وانها تعصب

عينيه كي لا يعرف منزلها فلا يزورها إلا حين تدعوه اليها مغتمة فرصة خلو المنزل .

وكان الدون جوزيف قد ولع بالفتاة واحبها حباً عظيماً ليس بعده حب لمعشوق وقد علمت من سائق مركبتها ان الدون جوزيف كان يأتي الى الشارع المقفر مصحوباً بخادمه فأنكرت عليه صحبة الخادم حذراً من أن يقف على شيء من سرها ، وأكد لها انه واثق منه . واندفع مع تيار حبه فباح لها بسر هذا الخادم وكيف انه محكوم عليه بالاعدام في اسبانيا! وقد هرب من الموت ولجأ اليه فدخل في خدمته بعد ان تنكر بحيث بات آمناً منه اشد الأمان .

ويذكر القراء ان روكامبول عندما اخبر استاذة اندريا بالكتساب الذي ارسلته اليه ابنة الدوق قال له : يجب ان تقتفي اثر الدون جوزيف وتترصده حتى تقف على جميع اسراره وان روكامبول تبعه مرة فعلم انه يذهب متنكراً الى فاطمة ثم تبعه في ليلة أخرى فرآه قد عاد الى منزله فتنكر بزي جديد وذهب الى ذلك الشارع المقفر الذي كان ينتظره فيه السائق ثم رأى ان السائق قد عصب عينيه وسار به في مركبته فركب مركبة وسار في أثره حتى عرف المنزل الذي دخل اليه وفي الليلة نفسها عرف صاحبة ذلك المنزل وعاد الى استاذة فأخبره بجميع ما رآه وتزود بتعليماته .

وفي اليوم التالي ذهب إلى تلك الفتاة وهو متنكر وأخبرها بما رآه ثم اتفقوا عليها على ان تخدمه في بلوغ أغراضه من الدون جوزيف وفي مقابل ذلك فإنه يطلق لها السراح بسلبه على ما تشاء ويزيدها من عنده مبلغاً من ماله فرأت هذه الومس انه قد وقف على سرها وان شروطه موافقة لها فرضيت بها في الحال وأخبرته بجميع ما عرفت من اسرار الدون جوزيف وفي جملتها سر خادمه زامبا .

فعلمها روكامبول ما ينبغي أن تصنع ، ثم تركها ومضى إلى لقاء زامبا

فقرصده أمام منزل سيده إلى أن خرج فناداه وقال له: أنت الذي يدعى زامبا؟

— نعم .

— أنت في خدمة الدون جوزيف ؟

— نعم .

— وهل أنت مخلص له ؟

— دون شك .

— إذن تعال معي إلى هذه القهوة القريبة فأني أحب أن احدثك بأمر خطير ، فامثل له زامبا وسار الاثنان الى قهوة قريبة فجلسا بمكان منفرد منها ودار بينهما الحديث الآتي ، فقال روكامبول .

انك تدعى زامبا كما تقول واما الدون جوزيف فقد جعلك في خدمته كي تنجو من الاعداء .

فاختلج فؤاد زامبا ووهت رجلاه حتى أوشك ان يسقط على الأرض إذ لم يخطر في باله ان الدون جوزيف يبوح بسرّه لأحد ، فقال روكامبول :

انه لم يمض على فرارك غير ستة أعوم وهذه المدة غير كافية لانقاذك من حكم الاعداء أي ان كلمة واحدة تصدر مني الى بوليس باريس تدعه يقبض عليك ويسلمك مكتوف اليدين الى الحكومة الاسبانية فينفذ فيك الاعداء ومهما يكن من نهوض مولاك فانه لا يستطيع انقاذك

— قل ما تريد مني ، وقد علم ان هذا الرجل لا يبيع حياته بثمان بنخس .

— يوجد اثنان بأيديهما حياتك او مماتك ، الأول هو الدون جوزيف

— والثاني ؟

— هو أنا، اعلم الآن ان الدون جوزيف لم يكتف سرك ودليل ذلك اني أعرفه فتهدد زامبا القضاء بقبضته وقال سأنتقم شر انتقام .

— إذن فان اخلاصك له لا يدوم .

— كيف تريد ان يدوم بعد هذه الخيانة ؟

- وإذا كنت مخلص له في الخدمة فما ذلك إلا من قبيل الخوف .
- هذا لا ريب فيه .
- وإذا طلبت اليك ان تخونه .
- أنت ؟

فابتسم روكامبول وقال : نعم أنا ، اني أشد من الدون جوزيف وأريد أن اسحقه ولا أستطيع أن أصل الى هذه الغاية إلا اذا ساعدتني عليها ولا تحسب اني سأعتمد على هذا السر الذي أعلمه عنك فأبجسك حقك بل اني أدفع لك فوق ما تطمع به ، ولنبدأ الآن بالحساب ، فقل لي كم يبلغ كسبك من الدون جوزيف .

- الف ريال في العام
- وكم تسرق منه ؟
- عشرة آلاف فرنك على الأقل .
- وماذا تؤمل منه ؟
- اني أرجو متى تزوج الدوق أن أكون مدير منزله فأمر بامواله كما أشاء .
- اب أملكك سيحبط لأن الدوق جوزيف لن يتزوج ابنة الدوق وإذا تزوجها فانه يقتل في ليلة الزفاف .

وبرقت عين زامبا وجعل يتأمل روكامبول تأمل لص يختبر لصاً مثله ، وأدرك أن محدثه أشد منه دهاء ، غير أنه لم يخطر له أن الذي يريد قتل الدون جوزيف هو نفس ذاك الطامع بزواج ابنة الدوق بل أيقن أن هذا الرجل يخلص اخلاصاً عظيماً لتلك المرأة البولونية التي يهاها الدون جوزيف ، وان الغيرة قد دفعته الى استخدامه .

وقال روكامبول : انه إذا بقي الدون جوزيف حياً فهو لا يعلم شيئاً من خيانتك ، وإذا مات تقبض من المال ما يعزبك عن فقده واعلم الآن انه متى أخبرتني بما يصنعه مولاك في شارع روضة كل ليلة أنقذك عشرة آلاف فرنك ،

ومتى أصبح زواج الدون جوزيف بابنة الدوق مستحيلاً أدفع لك مائة ألف فرنك وفي خلال ذلك فاني أدفع لك راتباً قدره ألف فرنك في كل شهر .

ثم أخذ ورقة قيمتها ألف فرنك وقال : هذه الورقة على الحساب .
وعند ذلك أخبره زامبا بحديث فاطمة فما أبقي على شيء من اسرار العاشقين وكان روكامبول يصغي اليه أشد الاصغاء ، ولما فرغ من حديثه سأله عن المواعيد التي يذهب بها اليها ، وعن مداخل المنزل ، وأخبره بكل شيء وزاد عليه انه يوجد في منزلها مدخل سري لا يعرفه غير زامبا والدون جوزيف ، وذلك لأن الدون جوزيف كان شديد الغيرة عليها حين قدمت إلى باريس ، ولم يكتف بالخدامين الذين وضعها في منزلها جواسيس عليها . بل انه بنى ذاك المنفذ إلى غرفة نومها ، وجعل بينه وبين الجدار محلاً سرياً يقف فيه فيسمع كل حديث يجري في الغرفة دون أن يراه أحد ، وإذا أراد الدخول إلى الغرفة ضغط على زر فينفتح باب يؤدي إلى الغرفة .

وقال له روكامبول . أريد أنت تذهب بي إلى هذا المنفذ وتجعلني ذاك المكان السري .

— متى ؟

— غداً حين يكون الدون عند فاطمة .

وقد عرف القراء الآن كيف توصل روكامبول إلى الدخول إلى منزل فاطمة دون أن تراه ، ويسمع كل حديثها دون أن تراه ، وينقله اليهنا حتى باقت تعتقد أنه الشيطان الذي يحميها . أما عزم الدون جوزيف على تسميم فاطمة فقد عرفه روكامبول من زامبا وهو الذي أعطاه ذاك الرشاش وهو ضد السم وقد وجدته فاطمة تحت الآنية وشربته فأمنت الموت .

في اليوم التالي لتسميم فاطمة ذهب الدون جوزيف اليها ودخل إلى غرفتها حسب العادة قبل أن يرى الخادمة ، فأجفل حين رأى خليلته تستقبله باسمه ، وهو يحسب انه سيراه جثة باردة ، أما فاطمة فانها لم تظهر شيئاً من انفعالها

علا بوضعية شيطانها وجلست تناديه وتمازحه غير ان الدون جوزيف كان يتكلف المباشرة لانشغاله بالسم ، وكيف أنه لم يقتلها على ثقة من تأثيره ونظر إلى وجهها ورأى عليه أثر الضنك وقال لها : ما بالك متعبة العلك لم تنسامي ليلة أمس ؟

— كلا .. بل ذاك من كثرة النوم فإنك تعلم اني متعبودة شرب الأفيون غير اني أفرطت أمس في شربه فطال نومي ، ولما صحوت أصبت بصداع شديد. وأقام عندها هنيهة وخرج وهو يحسب أن السم لم يؤثر بها لأنها شربت بعده ذاك الأفيون وعول على قتلها بطريقة أخرى .

ولما خرج من عندها ذهب إلى منزله فتنكر بزي جديد وانطلق إلى منزل البولونية حسب العادة فوجدها حردة غضبي ، وأجفل من غضبها لأنه كان يحبها حباً مبرحاً ، وما زال يلح عليها بالسؤال عن سبب غضبها حتى أخبرته بانها عالمة بحبه لفاطمة ، وانه لا يطمئن لها خاطر بل لا تقبله في منزلها إلا متى عاد اليها بمنديل مصبوغ بدم الفتاة .

وكان روكامبول قد علمها أن تسأل هذا السؤال ، أما الدون جوزيف فلم يستاء لطلبها لأنه كان معول على قتل الفتاة ، ولكنه خرج من عندها مفكراً مهماً إذ لم يهتد لطريقة تضمن له قتلها .

ولما بلغ إلى منزله وجد زامبا ينتظره فيه فأخبره بما كان من نجاة فاطمة واقترح البولونية ، وسأله رأيها بقتلها فأشار عليه بأغراء خادمها الأسود على قتلها بالمال ، واعداده له ، فوافقه على هذا الرأي

وفي صباح اليوم التالي دعى اليه الخادم الأسود واتفق معه على قتلها في المساء ، وانطلق زامبا إلى المكان الذي يجتمع فيه مع روكامبول وأخبره بجميع ما كان

أما روكامبول فإنه سر من هذه الجريمة الجديدة وقال في نفسه لقد قبضت على الدون جوزيف وفزت بآبنة الدوق

ثم ذهب إلى منزله وتنكر بالزي الذي كانت تراه فيه فاطمة وذهب إليها من المنفذ السري ؛ وبينما هي جالسة على مقعدها إذ التفتت فرأته وراءها دون أن تعلم ، فاستعاذت منه به وخرت له ساجدة لاعتقادها أنه معبودها

فقال قلت لك أن تحذري من خادمك وخادمك والآن خلدي هذه الحبة وتدبري في حيلة تستطيعين بها ان تدعي الخادمة تبتلعها عند المساء دون أن تعلم ثم احرصي أشد الحرص من الخادم أما أنا فسأعود اليك في المساء واعصبي عينيك حسب العادة لأني أريد الذهاب فعصبتها وعدت للمساء وخسین ثم أزاحت العصاة فلم تجد ذاك الشيطان .

ولما توارت الشمس في حجابها أخذت تلك الحبة فوضعتها بتينة يابسة أخذتها من صحن كان أمامها فيه تين ونقل ، ودعت خادمتها وجعلت تشاغلها بالحديث وهي تأكل ثم أعطتها التينة التي وضعت فيها الحبة ، فأخذتها الخادمة واكثتها وهي لا تحسب حساباً لما فيها .

وبعد ذلك بساعة عاد إليها روكامبول وعلم منها ان الخادمة قد نامت من تأثير المخدر الذي شربته . وسألها : وأين الخادم ؟

- هو في المطبخ .

- حسناً فلنحمل هذه الخادمة إلى سريرك .

فانذهلت فاطمة وقالت . ما هذه الأمرار ؟

- ستعلمين كل شيء .

ثم ذهبوا بها فحمل الخادمة ووضعها على سرير فاطمة في غرفتها واطفاً روكامبول المصباح وخرج بفاطمة إلى الغرفة المجاورة وقال لها : ان الدور جوزيف أغرى خادمك الأسود على قتلك بالخنجر ، والآن فإن هذا الخادم سيدخل إلى غرفتك فيقتل الخادمة شريكته بالمؤامرة عليك وهو يحسب انه يقاتلك ولا يدري ، وإنما اطفأت المصباح لأن السود يخافون ارتكاب الجريمة على النور ويؤثرون القتل في الظلمة فقفي بازائي واحبسي أنفاسك إذا استطعت

فسترين المعجب

وكانت النار موقدة في المستوقد فيخرج منها نور ضعيف ورأيا من نوره هذا العبد الأسود يدخل إلى غرفة سيدته وهو يخفف الوطء حذراً من إيقاظها وبيده خنجر عريض النصل ، فما زال يثشي وعليه ظواهر الخوف الى أن وصل إلى السرير وسمع غطيط الخادمة فما شكك أنها فاطمة وطعنها بخنجره طعنة شديدة غرق في جنبها إلى النصاب واخترق قلبها فماتت دون أن تنتبه أو تصيح صيحة ألم لتأثير الخدر .

أما الخادم فإنه ترك الخنجر مشكوكاً بقلبها وأثار شمعة كي يتحقق قتلها ويسرق ما يخف حمله من غرفتها ولكنه ما لبث أن أثارها حتى شعر بيد قوية قبضت على عنقه وسمع صوت سيدته تقول له لم تقتلني أيها التمس بل إنك قتلت شريكك بالجريرة .

ووضع روكامبول خنجره على عنقه وقال : إذا كنت تريد الحياة فقل الحقيقة .

فهلع فؤاده من الخوف وقال : رحماك فاني أقول كل شيء .

— من أمرك أن تقتل سيدتك ؟

— الدون جوزيف !

— اثبت ذلك أمام القضاة إذا وعدتك بالإبقاء عليك ؟

— إني أقسم لك بأعظم الأقسام على الامتثال لما تريد .

والتفت روكامبول إلى فاطمة وقال لها : أسمع

ثم عاد إلى الخادم وقال له : ألم يعطيك الدون جوزيف منديلاً .

— نعم .. وما هو .

ثم أخرجه من جيبه

فأخذه روكامبول وأراه لفاطمة وقال لها : اليس هذا المنديل شبيهاً بالذي

كان معه وقال لك أنه منديل إبنة عمه ؟

فأملتة وهي تكاد تميز من الغيظ وقالت : انه يشبهه أتم الشبه
- إذن فاعلمي انه منديل خليلته وليس منديل ابنة عمه كما قال .
ثم عاد الى الخادم فقال : لماذا أعطاك الدون جوزيف هذا المنديل ؟
- لأصبغه بدماء سيدتي وأحملة اليه .

- إذن اصبغ المنديل بدماء الخادمة ، وإذا أردت الحياة فاذهب به الآن
إلى الدون جوزيف ولا تقل له كلمة عما جرى بل دعه يعتقد انك قتلت
سيدتك ، وبعد أن تعطيه المنديل تهرب إلى حيث تشاء ، واعلم انك إذا
خالفته بشيء مما أمرك به فلا مناص لك من القضاء .

- سأفعل ما تريد يا مولاي .
أما روكامبول فانه تركه يغمس المنديل بدماء الخادمة وقال لفاطمة :
خذي الآن مجوهراتك وكل شيء ثمين لديك في هذا المنزل واتبعيني .
- الى اين ؟

- ستعلمين متى وصلت .
وبعد ذلك بعشر دقائق خرج روكامبول وفاطمة وتبعهما الخادم فصار إلى
منزل الدون جوزيف ورأى زامبا ينتظره على الباب فقال : ما فعلت ؟
- قضى الأمر ثم أعطاه المنديل واركن إلى الفرار .

- ١١ -

بينما كان روكامبول يسير بفاطمة إلى حيث لا تدري وبينما كان الخادم
الأسود يذهب الى منزل الدون جوزيف ليعطيه المنديل المصبوغ بدماء
الخادمة كان الدون جوزيف ينتظر بذهاب الصبر قدوم زامبا اليه بهذا
المنديل

وكان الخوف قد بلغ مبلغاً عظيماً من الدون جوزيف لأنه كان يعلم شدة
غيرة فاطمة وبات يخشى ان تفاجئه ليلة اقترانه بابنة عمه وتدفعها الغيرة الى
ان تبوح بسرّه أمام جميع الحضور وتقول هوذا قايين الذي قتل أخاه وانا كنت
شريكة له بهذه الجريمة ، لأنه كان يعلم أنها لا تصبر على حبه وأنها جديرة بأن
تقدم على اكثر من هذا الاقرار ، فقرر قتل فاطمة منذ خطر له هذا
الخطر الخفيف .

وما زاده إصراراً على قتلها ان البولونية التي يهاها طلبت اليه قتل فاطمة
ثم أنها أرسلت اليه في اليوم التالي تقول فيها :

« ان المركبة ستنظرك عند منتصف الليل حسب العادة فاذا أعطيت
سائقها المنديل مصدوغاً بدم . فاصعد اليها واحضري والافد من حيث اتيت »
وبينما كان الدون جوزيف غارقاً في لجج هواجسه اذ دخل عليه زامبسا
فأعطاه المنديل وهو يقول : قضي الأمر وستحظى بلقاء امرأة الكونت .

ففرح الدون جوزيف فرحاً وحشياً ، وأخذ المنديل بلهف وطواه مع
الرسالة التي وردت اليه ، ووضعها بجيبه . ثم ترك خادمه وذهب الى
لقاء السائس ، الذي كان ينتظره حسب الاتفاق ، فقال له السائس : ما
لون مندليك ؟

— أحمر .

— إذن فاصعد .

ثم عصب عينيه حسب العادة وانطلق به الى منزل البولونية . فلما وصل
اليها لم يجدها فيه بل وجد وصيفتها ، فدفعت اليه كتاباً من مولاتها كتبت اليه
فيه ما يأتي :

« لا أعلم إذا كنت وفيت بوعدك فقدرت ان تأتي إلي في الموعد المعين .
وفي كل حال فانه يستحيل علي ان أراك في هذه الليلة ، لأن زوجي الظالم
قد عاد فارت الحالي ، وأعلم بأن حبي لك يفوق كل حب . ثم إنني لا أعلم اذا

كنت أستطيع ان أراك غداً ، ولكني أرجوك ان تبقى في منزلك ولا تخرج منه ، من الصباح الى الساعة الخامسة ، ولا تستقبل أحداً من زائريك وأطلق سراح جميع خدمك طول النهار ، لأنني إذا رأيت أنك وفيت بوعدك ، وأحضرت إلي ذلك المندبل فقد أزورك مبرقة الوجه ، فتفتتح لي باب منزلك بيمدك . وإذا لم أحضر في النهار في الساعة الخامسة فاذهب حيث تشاء وعد في الساعة العاشرة فقد يمكن ان أزورك في الليل وفي كل حال أطلق سبيل خدمك في النهار والليل »

فاختلج فؤاد الدون جوزيف عند قراءة الكتاب وقبله مراراً ثم وضعه في جيبه ودفع المندبل الى الوصيقة ورجع الى منزله فأخبر زامبا بما كان وأمره أن يطلق الخدم غداً وينطلق معهم .

ذاك ما كان من الدون جوزيف ، أما روكامبول فإنه أخذ فاطمة التي كانت تنقاد اليه انقياد الأطفال ، فركب معها مركبة وعصب عينيها ومسا على الطريق ، وذهب بها الى منزله السري ولما دخل بها الى القاعة أزاح العصابة عن عينيها وقال لها : أنظري الى ما حولك فإنك في حبس جميل .

- العمل لإقامتي تطول في هذا المكان ؟
وجعل روكامبول يحسب ويعد على أصابعه ثم قال : أربعة أيام
لماذا ؟

- كي تلتظري فيه ساعة الانتقام واحذري من ان تخرجي من المنزل أو تطلي من النافذة ، وسأأمر خادمي ان يقتلك ، إذا فعلت شيئاً من ذلك .

- سأفعل كما تريد ولا يصعب علي سجن أربعة أيام فقد تعودت الحبس في عهد الدون جوزيف .

وتركها روكامبول ودخل الى غرفته ، وأقام فيها ربيع ساعة ثم خرج

متنكرأ بزي جديد . ولما رأته فاطمة أنكرته ولكنه تبسم لها وكلمها فعرفته من صوته وزادت وثوقاً من انه الشيطان بعينه ، فقبلت يده قبلة عبادة وقبلها في جبينها قبلة حنو ، ثم حذرهما ثانية من الاطلاع من النافذة وخرج فنادى خادمه وأوصاه بالعناية بها والاحتراس عليها ، وان لا يجيبها بشيء إذا سأله عنه بل يقول أنه حديث العهد بخدمته ثم سأله إذا كان ذهب الى قصره وأحضر له رسائله فقال : نعم ولا يوجد غير رسالتين . فأخذهما روكامبول وفض الأولى وكانت من ابنة الدوق فقرأ ما يأتي :

« سيدي الماركيز »

« إننا سنسافر بعد ثمانية أيام الى اسبانيا ، وربما حضرنا فيها ماتم ذلك المريض المنكود . ولما كان لا بد لنا من وداع معارفنا في باريس فقد قرر أبي أن يدعو جميع أصحابنا الى مأدبة في يوم الأحد وأنت من جملة المدعوين فأرجوك أن تحضر لأنني أحب ان أراك . »

فوضع روكامبول الرسالة في جيبه وقلبه مفعم فرحاً . ثم فتح الرسالة الثانية فكانت من البولونية التي يهواها الدون جوزيف تخبره فيها بانها لم تستقبل الدون جوزيف في هذه الليلة كما أمرها وأنها تنتظره في الساعة الحادية عشرة حسب الاتفاق . فكشف روكامبول عن ساعته ورأى ان الوقت قد دنا فأسرع إلى لقاءها فوجدتها تنتظره فقال لها أسرعي وارسلني السانس الى لقاء الدون جوزيف

— لعله قتلها وعاد بالمنديل ؟

— إنه عاد بالمنديل مصبوغاً بدم كلب وهو يظن انه دم فاطمة ، وسأخبرك بكل شيء . اما الآن فاكتبي ما أمليه عليك .

ثم أملا عليها الرسالة التي أخذها الدون جوزيف من الوصيقة كما قدمناه وخطاها فقال : لا بد لي الآن ان أطلعك على السر فاسمعي . ولم يكن تلميذ السير فيليام من الذين يبهجون بأمرارهم لبنات الهوى ،

ولكنه بعد أن حملها بالمال والوعيد على أن توافقه بالمؤامرة على الدون جوزيف لفق لها حديثاً فقال : إننا بعد أن بلغنا الى ما نحن عليه الآن لم يعد يخلق بأحدنا ان يكتم شيئاً عن الآخر ، فاعلمي إذن ان الذي يدفعني الى كيد الدون جوزيف هو انه سلبني مرة خلية لي كنت أحبها فأغواها بالمال ، فأقسمت في البدء على أن أنتقم منه . ثم اني لما علمت انه عازم على الزواج بابنة عمه راهنت أحد الأعيان بمائة الف فرنك على ان أبطل هذا الزواج ، واذا فزت وكسبت الرهان كان المبلغ لك وعشت به سعيدة مدى الحياة دون أن أكون خسرت شيئاً ثم انك تذكرين أني انا الذي علمتك كيف تحتالين عليه وتغرينه على قتل فاطمة

وقاطعته البولونية قائلة : العلمها المرأة التي كنت تحبها ؟
- ربما . ولما عولت على الانتقام منه رشوت جميع خدامه وهم الآن خدامي بالباطن ، يطمعونني على أعماله . فلما أغرى الخادم الأسود أخبرني الخادم بالأمر وأمرته ان يقتل كلباً ويغمس المنديل بدمه ، ففعل وهو الذي ساعدني على اختطاف فاطمة .

فضحككت البولونية ضحكاً عالياً وقالت : إنها خير خدعة . ولكم لم تقل شيئاً عن غرضك من هذا الكتاب الذي أملكته علي للدون جوزيف .
- أردت به أن يبقى في منزله بانتظارك ولا يعلم شيئاً مما جرى في منزل خليلته ثم أردت ان يزيد ولوعه بك حين يضطر إلى انتظارك فما حاج الحب مثل حدوث المصاعب فيه .

- هو الحق ما تقول غير ان الدون جوزيف لا بد له أن يعلم ان خليلته لم تقتل وان الدم كان دم كلب .

.. إنه سيعلم ذلك . أما أنت فيجب أن تبقي واثقة من قتل فاطمة .
- أأراه غداً ؟

- نعم وسأخبرك غداً بما يجب أن تفعله .

— ولكنني لا أعلم إلى الآن كيف يكون انتقامك ؟ وكيف تستطيع إبطال زواج الدون جوزيف ؟

— ذلك ان فاطمة أسيرة عندي الآن وقد وعدتها أن أريها الدون جوزيف يرقص معك في الليلة الراقصة التي سيحييها الجنرال الأسباني فإذا رآته فاطمة يخاصر كتنقض عليه بغدارتها .

فأجملت البولونية وقالت : إن هذا الانتقام لا يوافقني لأنني أخشى أن تدور الدائرة فيه علي .

— لا شك إنك بلهاء . إنني لا أريد بالانتقام القتل ، بل أريد به الفضيحة ولذلك فإنني سأحشو الغدارة بيدي ولا أضع فيها غير البارود .

فاطمأنت وقالت : إنها ستكون فضيحة هائلة .

— وأية فضيحة أبلغ من ان يوجد الرجل أمام خطيبته في محفل حافل بالسيدات النبيلات وهو محاط بخليلتين تتنازعان وتتماصمان عليه والآن إنني ذاهب وسأراك غداً كي أخبرك بما يجب ان تفعله .

ثم تركها وذهب الى منزله ودخل إلى غرفة اندريا وأخبره بكل شيء وبعد أن قلقت تلميحاته دخل إلى غرفته ونام .

وفي اليوم التالي ذهب في الساعة الخامسة الى قصر الدوق إجابة للدعوة ، ووجد هناك معظم نبلاء باريس . وكان فريق منهم ملثف حول ابنة الدوق وبينهم الدون جوزيف فدخل روكامبول وجلس بالقرب من ابنة الدوق مع الحاضرين . وكان الحضور يتحدثون بأحاديث مختلفة الى أن قطع الحديث أحدهم وقال : أعلمتم بالمقتل الفظيع الذي جرى أمس في الشوارع المجاور لهذا القصر ؟

فصدقت عيون الجميع بالمتكلم وقالوا : كلا ، لا علم لنا بشيء . . . وأي مقتل تعني ؟

فأخرج المتكلم جريدة من جيبه وقال : اسمعوا . إنني سأأتلو عليكم تلك

الحكاية الغربية .

فنظر روكامبول نظرة سرية إلى ابنة الدوق وأشار إليها إشارة خفية كأنه يقول لها إصفي إلى الحديث .

واندفع الرجل يتلو حديث فاطمة والقتل الذي جرى أمس في منزلها ، وكانت هيئة الدون جوزيف تستلقت الانظار وكان كلما اندفع الرجل بالقراءة يشير روكامبول إشارة إلى ابنة الدوق التي علمت ان للدون جوزيف علاقة عظيمة بالحادثة

وما زال الرجل يقرأ عليهم الى أن قال ولم تكن القتيلة تلك الفتاة النورية المقيمة في ذلك المنزل ، بل كانت خادمتها . وقد وجدت مضرجة بدماؤها على سرير مولاتها .

وعند ذلك اضطرب الدون جوزيف اضطراباً شديداً ، حق أوشك أن يسقط لفرط ما ألم به من ذاك الخبر الذي انقض عليه انقضاء الساعة ، لأنه كان يحسب أن فاطمة قد زجت في هوة الأبدية ، فإذا هي لا تزال حية تسمى .

وكان روكامبول قد تمكن في ذلك الوقت ، من الدون من ابنة الدوق فقال لها همساً : إن القتيلة هي وصيفة فاطمة وإن القاتل هو العبد الأسود ، وإن المغربي على القتل هو ابن عمك . وقد طعن الخادمة في الظلام وهو يحسب أنه يطعن فاطمة .

ثم اختلط المدعوون وتمكن روكامبول من الاختلاء مع ابنة الدوق هنيهة قال لها فيها إن الدون جوزيف قتل أخاه بالاشتراك مع فاطمة كي يصل اليك وأراد قتل فاطمة كي لا تحول بينه وبينك فإذا أردت أن أنقذك ينبغي عليك أن تطيعيني طاعة لا حد لها .

- إنني أقسم لك أن أطيعك بكل شيء .

-- إذن يجب أن تحضري الليلة الراقصة التي سيجيها الجنرال الاسباني

— إنني مدعوة اليها وسأحضر .
— وتصحبين معك هذا الوحش المفترس الذي يسمونه الدون جوزيف
— سأفعل كل ما تريد .

وفي الساعة التاسعة تفرق المدعوون فخرج الدون جوزيف وهو ضائع
الرشد واجف الفؤاد ، تتمثل له فاطمة وخناجرها وإخوتها بكل خيل ، الى
أن بلغ الى منزله ودخل الى غرفته وأول ما رآه على طاولته كان كتاباً عرف
من عنوانه أنه من فاطمة . فأسرع الى فضه وقرأ فيه ما يأتي

« لا تضطرب ولا تخش تلك الفتاة التي أردت قتلها ، والتي أحبتك حباً لا
يحيط به وصف . وإنك وإن كنت قد أسأت إلي إساءتين بالشغالك عن حيي
وبعزمك على قتلي ، ولكني أحبك ولن أحب سواك . وإذا كنت لا أنتقم
منك فذلك لأن حيي القديم يشفع فيك . ثم إنني أصفح عنك لأنك لم تعتمد
قتلي إلا لخوفك من أن أقتلك ، وذلك لما بدالك من غيرتي حين شهرت
عليك خنجري .

« والان ، إنني سأكتم عنك كيف تخلصت من الموت ، وسأحمل معي هذا
السر لأنك لن تراني بعد في هذا العالم وعندما يصل اليك كتابي أكون برحت
باريس وبعد ثلاثة أيام أكون قد غادرت فرنسا ولا أعود اليها ، فإذا أردت ان
تبقى حياً وأن تعيش سعيداً فلا تبحث عني ولا تحاول أن تعرف اين انا بل إقتدي
بي لأنني لا أبحث عنك وإذا بدر منك شيء مما حذرتك منه فإن خناجر إخوتي
لا تزال مسنونة .

« الوداع وكن سعيداً مع البقي أحللتها بحلي من قلبك أما أنا فسأحاول ان
أنساك واطمئن فإن السر الذي كان يوثقنا بقيوده لا يخرج من صدري ولا يعلم
أحد اننا اشتركنا في تسميم اخيك الدون بادرو »

« الوداع الى الأبد » « فاطمة »

فقرأ الدون جوزيف هذا الكتاب مراراً وهو غير مصدق ان هذه الفتاة

التي كانت تغار عليه من النسيم تصفح عنه هذا الصفح ، الى ان وثق اخيراً من انها لا تزال تحبه ، وإن هذه الرسالة لم تكن خدعة . فطمأن باله ونظر عرضاً الى الساعة المعلقة امامه ، فرأى انها قد اوشكت ان تبلغ الحادية عشرة ، فخطرت له حبيبته البولونية وخشي ان تكون قد أتت في مدة غيابه . فأسرع وهو واجف القلب الى البواب ، وسأله اذا كانت قد أتت امرأة مبرقة .
لا .

ألم تر مركبة وقفت بقرب الباب ؟

وفيا هو يقول ذلك إذ سمع صوت مركبة قادمة فوقف ينتظرها الى ان دنت من المنزل فوقفت وخرجت منها فتاة مبرقة علم الدون جوزيف انها صاحبتة فطار لبه سروراً وصاح صيحة فرح . ثم تأبط ذراعها ودخل وإياها الى المنزل ، وقد نسي فاطمة وجميع حوادثها

ودار بينهما حديث طويل ، وأقامت عنده هنيئة ثم خرجت بعد أن اتفقت معه على أن يحضر لها تذكريتين لحضور الحفلة الراقصة التي يحييها الجنرال الاسباني لها ولوصيفتها ، لأن الدون جوزيف كان لا يزال يعتقد أنها امرأة كونت روسي

- ١٢ -

في الليلة المعينة لتلك الحفلة الراقصة التي كان يحييها الجنرال الاسباني ، كان قصره غاصاً بالمدعوين وكانت الجموع تفد اليه من الرجال والنساء وجميعهم بلباس التنكر . غير انه لم يكن بد للدخل من تقديم ورقة الدعوة على الباب فما كان يقرأ من تولى استلامها غير أسماء الكونتات والبارونات والدوقات

وأعظم نبلاء الباريسيين .
ولم يكن أحد يعرف الآخر بتلك الأزياء الغربية إلا من كان منهم على اتفاق
مع صديق أو صديقة فيخبره عن الزي الذي سيتنكر به فيعرفه به

وكان روكامبول قد اتفق مع البولونية على اللباس الذي تلبسه ، وعلم من
إبنة الدوق لباسها ولباس الدون جوزيف . فلما كانت الساعة العاشرة وقد
تكامل عدد المدعويين ، جاء روكامبول مع فاطمة وكان متنكراً بزي امرأة
وهي متنكرة بزي غريب يستلفت الأنظار . فأدخلها إلى المرقص وأوقفها في
مكان وقال لها . لا تبرحي هذا المكان حتى أعود اليك .

وذهب إلى البولونية وقال لها : هوذا الدون جوزيف وقد عرفته لا شك
من لباسه الذي أخبرتك عنه .

— نعم .

— إذهي اليه وخذيه إلى هذا الرواق وعاتبيه عتاباً غرامياً . فإذا رأيت
هذه الفتاة ، وأشار إلى فاطمة ، مرت بكما فارغمي صوتك ودعي أحاديث
عتابك تصل إلى مسامعها .

— أهذا كل شيء ؟

— نعم .

فتركته وانصرفت إلى الدون جوزيف .

أما روكامبول فإنه ذهب إلى فاطمة وقال لها أنظري إلى هذين
المجتمعين في الرواق ، فإن أحدهما الدون جوزيف والثاني هي خليلته التي
تخلى عنك من أجلها . فإذا أردت أن تشفي غليلك من الانتقام فأطيعيني في
كل ما أريد

— إنني لا أخالفك بشيء بعد ان علمت انك معبودي .

— إذن إذهي ومري بالقرب منهما كي تسمعي باذنك ما يقولان وإياك ان
تصنعي شيئاً قبل ان يصل اليك أمري .

فامتثلت فاطمة وذهبت تسمع ما يقوله العاشقان ولما دنت منها رأتها
البولونية تذكرت وصية روكامبول فجعلت تعاتب الدون جوزيف بصوت
مرتفع عتاباً هاج كوامن الغيرة والحق في صدر فاطمة حتى أوشكت ان تبطش
به ولكنها ذكرت قول شيطانها فابتعدت عنهما وجعلت تلتظر روكامبول وهي
تسكاد تجن من القنوط

أما روكامبول فانه حين تركها ذهب إلى إبنة الدوق وقال لها : أنظري
يا سيديتي إلى ابن عمك الدون جوزيف ، ألا ترينه يتكلم مع امرأة في
ذاك الرواق ؟

— نعم .

— إنها خليلته . ثم انظري إلى المرأة الثانية الواقعة بقرنها الأترين علانم
الجزع واليأس بادية عليها من حركاتها وتمايلها ؟

— نعم .

— إنها خليلته الثانية التي هجرها والتي أراد قتلها أي انها فاطمة ، وهي
آتية للانتقام منه .

فتأففت إبنة الدوق واشمأزت من هذا الرجل السافل الذي يمد يده لقرانها
وهو منغمس في الرذائل . فقال لها روكامبول : أستحلفك بالله يا سيديتي أن
تدعي الاعتلال وتبرحي القصر ، لأنه ستحدث فيه أمور هائلة لا طاقة
لك باحثها .

فارتعشت إبنة الدوق وقالت : ما عسى ان يجري العله يقتل ؟

— كلا بل ستضربه يد الله ضربة قاضية .

— رباه إني أعفر له فاصفح عنه أنت .

— لقد فات الأوان يا سيديتي وقضي القضاء المبرم

ونظر روكامبول إلى فاطمة فرأى انها تنظر اليه كأنها تقول له لم يعد لي
طاقة على الصبر فقال لابنة الدوق : أستحلفك بالله يا سيديتي وبكل عزيز لديك

أن تعودني إلى منزلك في الحال .

— ليكن ما تريد وما أنا ذاهبة إلى أمي فأعود بها في الحال .

فشكرها روكامبول وافترقا . فذهبت ابنة الدوق إلى أمها وشكت لها صداها مؤلماً أصابها ، وانها لم تعد تستطيع البقاء فأخذتها أمها وخرجت بها عائدة إلى منزلها .

ولما رأى روكامبول إنها خرجت دعى اليه فاطمة وقال لها : ماذا سمعت من هذين العاشقين ؟

— سمعت ما كنت أؤثر الف موت على سماعه ولو لم يصدر إلي امرك بالصبر لما صبرت لحظة على قتله فقد سئمت الحياة
— إن ساعته قد دنت فاتبعيني .

فتبعته فاطمة إلى إحدى الغرف ، فأخذ من جيبه زجاجة فيها سائل أحمر وقال :

— إشربي ما في هذه الزجاجة فانها تشدد ساعدك .

— إن ما بقلبي من الانتقام يغنيني عن كل شدة ولكني أشربه لأنني لا يخلق بي أن أخالف لك أمراً .

ثم أخذت الزجاجة فشربت ما فيها جرعة واحدة والقتها على الأرض ، وعند ذلك أخذها روكامبول وسار بها يبحث عن الدون جوزيف حتى رآه في قاعة منزولاً مع البولونية ، وفي هذه القاعة بعض المدعويين فقال لها : إني أسلمك إياه الآن فافعلي به ما تشائين .

ثم تركها وهرول مسرعاً فبحر القصر عائداً إلى منزله وهو يقول في نفسه : لقد ساءني قتل هذه الفتاة ، فانها كانت تطيعني طاعة لا حد لها ، ففجعتها سماً يقتل شاربه بربع ساعة . ولا أنكر أنه عمل وحشي ، ولكن الحوادث قد قضت عليها لأنها إذا قبض عليها بعد قتل الدون جوزيف فقد تقر أمام المحاكم بأنه قتل أخاه كي يتزوج بابنسة الدوق ، وهو إقرار شائن

لأسرتها يقصيني عنها أما إذا ماتت على أثر قتلها الدون جوزيف يموت هذا
السر معها وأتزوج أنا إبنة الدوق

- ١٣ -

في اليوم التالي لهذه الحفلة الراقصة كان المركز دي شمري أي روكامبول
يتناول طعام الغداء في النادي الذي يجتمع فيه مع أصحابه ، وهو جالس
على مائدة وعلى مائدة أخرى أربعة من أعضاء هذا النادي وقبل أن يتم
طعامه دخل شاب جديد من أعضائه فجلس على مائدة روكامبول وقال له
بصوت سمعه الجميع : العلك كنت امس في مرقص الجنرال الاسباني ؟
.. نعم وأنت ؟

فقال له الشاب : كيف تسألني هذا السؤال ، ولا يبدو عليك شيء من
أثر الاهتمام ؟

لماذا تريد أن أهتم ؟

- كيف ذلك العلك لم تعلم بما جرى ؟

علمت أن الحفلة كانت حافلة .

- أهذا كل ما علمته ؟

وأن امرأة الجنرال أزاحت البرقع هنيئة عن وجهها فكانت من أبدع ما
تراه العيون .

- أبقىيت في الحفلة إلى انتهائها ؟

- كلا بل إنني بارحتها عند منتصف الليل .

لقد علمت إذن ...

- أما أنا فلم أعلم .

- أريد ان أقول إني علمت السبب في جهلك لما حدث .
 - ماذا عسى ان يكون حدث ؟ العلة صاحبة الحفلة أغمي عليها أم ان زوجها
 غار من أحد الملتفين حولها فأظهر هذه الغيرة ؟
 - بل حدث ما هو أبلغ من ذلك والحق ايها الماركيز إني لا أرى أبسط منك
 ولا أكثر سلامة من قلبك .

فصاح الجميع وقد فرغ صبرهم : قل لنا ماذا حدث ؟
 -- حدث ان الدون جوزيف ابن اخ الدوق سالانديررا قد قتل امس في
 تلك الليلة الراقصة التي انقلبت إلى مأتم
 فصاح الجميع منذعرين : كيف قتل ومن قتله ؟

- قتلتها امرأة . وتفصيل هذه الحكاية ان الدون جوزيف كان يهوى
 امرأتين ، وكل منهما تغار من الأخرى عليه ، وقد اتفق ان الاثنتين كانتا في
 المرقص . فبينما كان الدون جوزيف يكلم إحداهما إذ دنت منه الأخرى
 وأزاحت البرقع عن وجهها وقالت له : أعرفتنى أيها الخائن ؟ ثم استلمت
 خنجرأ وطعنته به في قلبه طعنة نجلاء خر على أثرها صريعاً على الأرض
 دون أن ينبس بكلمة . فأسرع الناس واحتاطوا بها من كل جانب ، وقد
 حسبوا في البدء انها مجنونة ، وبينما هم يسألونها أسئلة مختلفة إذ اصفر وجهها
 وصاحت صيحة عظيمة ثم سقطت على الأرض لا تعي .

فقال روكامبول : العله أغمي عليها ؟
 - كلا ، بل إنها ماتت مسمومة . فقد وجدت زجاجة فارغة فيها
 بقية من سائل أحمر ، حكم احد الاطباء الذين كانوا في الحفلة ، إنه سم
 نقيع قاتل .

فقال روكامبول بهرود : لقد عاقبت نفسها كي لا يعاقبها القضاء .
 - ولكن الغريب في هذه الحادثة التي تشبه الروايات المحزنة انها ختمت
 بفصل مضحك .

فقال الجميع : كيف ذلك ؟

- إن الفتاة الاخرى التي كان يحدثها الدون جوزيف عندما رأت قتل حبيبها سقطت مغمياً عليها . فلما فرغ الناس من الاهتمام بالقاتلة عادوا اليها ونزعوا الحجاب عن وجهها ، فأجفل بعض من عرفها من الشبان وصار كل واحد منهم قول للآخر : البولونية . . البولونية . ولم يكن النساء يعرفنها وكن يعجبن لمعجب الشبان حتى اخبرهن اوقعهم بانها اشهر بنات الهوى واتصل خبرها بالجنرال فغضب غضباً شديداً وقال لها : كيف تجاسرت على الدخول إلى منزلي وانت كما يقولون ؟

قالت : إنك انت الذي دعوتني اليه واخبرته ان الدون جوزيف احضر لها ورقة الدعوة .

فطردها من القصر . ثم حضر البوليس فحملت القتيلة الى دار الحكومة وحمل القاتل إلى قصره ، ثم تفرق الناس ونزل الستار على آخر فصل من هذه الرواية .

فمعجب الجميع لهذا الاتفاق الغريب . اما روكامبول فانه نهض وقال : إذن لا بد لي من تعمية الدوق لوفاة ابن اخيه العزيز .

ثم تركهم يتحدثون بهذا الحديث وذهب الى قصر الدوق كي يعزيه على قتل ابن اخيه فأخبروه انه لا يقابل احداً ، فترك رقعة الزيارة وانطلق إلى استاذة السير فيليام .

- ١٤ -

عندما وصل روكامبول إلى منزله رأى صهره الفيكونت فابيان ، وهو زوج اخته المركزية ، فقال له الفيكونت : أما علمت بما جرى في حفلة

الجنرال الاسباني ؟

— نعم وقد كنت في الحفلة .

— عجباً أأكون عارفاً مثل هذه الحوادث الخطيرة ثم تكتمها عني وأنا إياك

في منزل واحد ؟

— إنما كتمتها عنك لاني برحت الحفلة قبل الحادثة ، ولم أعلم بها

إلا الآن ! .

— ان الدون جوزيف قتل قتلاً فظيماً غير ان عزاؤك في موته انه خطيب

إبنة الدوق . قل لي ألا تزال تحب تلك الفتاة ؟

فتظاهر روكامبول بالخجل وقال : إنكم تهموني بحبها وأنا لم يخطر لي

حبها في بال .

— إني أعلم منك أكثر ما تعلمه عن نفسك ، وسواء أنكرت هذا الحب

أم بحت به ، فسننظر في امرك لان الخطيب قد مات موتاً شائناً بين خليلتين

وخلا لك الجو .

فأطرق روكامبول وقال : ولكن قبره لا يزال مفتوحاً .

فابتسم الفيكونت وقال : إنه سيغلق فساطمئن ، فسأخدمك أجل

خدمة .

ثم دخل الإثنان إلى المنزل فذهب صهره إلى امرأته وذهب روكامبول إلى

أندريا فأوقفه على جميع ما حدث وسأله تعليقاته فكتب له على اللوح الحجري :

« إصبر إلى ان يردك كتاب من إبنة الدوق او تقابلها » .

فدخل روكامبول إلى غرفته واقام ينتظر فيها هذا الكتاب إلى الساعة

الثامنة ، فلم يحضر فذهب إلى النادي ولبت فيه إلى منتصف الليل . ثم

خرج منه فلقي عند بابه رجلاً عرف انه خادم إبنة الدوق فأعطاه رسالة

وانصرف . فأخذها روكامبول والفرح ملء قلبه ، وركب مركبة وسارت

به تنهب الأرض إلى المنزل حتى إذا بلغه ذهب تواء إلى غرفة أندريا ففرض

الكتاب وتلاه عليه .

وخلاصة هذا الكتاب انها ذكرت فيه كيف انهم اتوا بالدون جوزيف قتيلا إلى القصر ، وانها وإن كانت تعتقد أنها القاتلة لأنها أغرت روكامبول على قتله فإنها لا تستطيع أن تخفي ما نالها من التأثير الشديد ، ثم ذكرت له انهم وجدوا في جيب الدون جوزيف كتاباً من فاديكس يشير إلى موت أخيه الدون بادروا ، وانها لا تنكر على الدون جوزيف ان يحضر إلى المراقص في الليلة التي يرد فيها نعي أخيه لأنها تعلم انه سفاك أثم ، وانه هو الذي قتل أخاه بالسهم فلا يكثر بموته ، ثم طلبت اليه أن يحضر اليها لأنها تريد أن تراه .

ولما أتم روكامبول تلاوة الكتاب قال لأندريا : ماذا ترى ؟

فأخذ أندريا لوحه الحجري وكتب عليه : لقد خطوت خطوة كبيرة فإن ابنة الدوق تحبك وخطيبها قد مات ، ولكن ..

وهنا قطع الكتابة وجعل يفتكر فقال له روكامبول : ولكن ماذا ؟

فكتب أندريا . « ان الدون سالانديرا من عظماء الاسبان ومن كبار الأغنياء لاسيما وان ثروته ستزيد أضمافاً بما سيرثه من الدون بادرو والدون جوزيف ، أما أنت فأنك مركز غني ولكن شتان بين ثروتك وثروته ومقامك ومقامه » .

فقال روكامبول : وما عليّ من التباين بين الحالتين إذا كانت تحبني ؟

— أصبت .. إنما أحب أن أعلم إذا كان قد تقدم لطلبها أحد غيرك من النبلاء .

فقال روكامبول : نعم فلقد خطبها من قبل رجل عرفناه في أدوارنا السابقة وهو الرجل الذي كنت تغريه على إغواء هرمين أي الكونت دي مايلي الذي أصبح الآن دوقاً بعد موت قريبه الدوق الذي مات دون ان يتزوج الأرملة غير ان طلبه قد رفض .

فقال اندريا : ذلك لأن الدون جوزيف كان خاطباً للفتاة وكان لا يزال في قيد الحياة ، أما الآن فقد يمكن بعد شهر أو شهرين ان يعود إلى هذا الطلب ويفوز وهنا كل الخطر .

فقال روكامبول : لقد أصبت غير اني لا أخشى الدوق دي مايلي بل اني أخشى باكارا لاتصالها بأسرته .

فاضطرب أندريا عندما سمع اسم باكارا وبدأت علائم الغضب على وجهه المشوه فقال روكامبول : لقد قلت لك ان باكارا باتت تدعى الكونتس أرتوف وهي الآن في روسيا مع زوجها غير انها ستعود في أوائل الشهر القادم ولقد رأيت كثيرين من الناس الذين عرفوني حين كنت أدعى الكونت دي كامبول وحادثتهم فما عرفني منهم أحد وأنا أحمل لقب الماركيز ، الا اني أخشى أن تعرفني باكارا فان تنكري لا يخفى عليها ، أما باكارا وزوجها فقد عرفا الدوق سالانديرا منذ سنتين في مياه ويسبادن وبات الكونت أرتوف صديقا للدوق وباتت باكارا صديقة لابنة الدوق وأما وعلى ذلك فاني أخشى ان يكون الكونت أرتوف هو الذي طلب ابنة الدوق للدوق مايلي وان تحبط باكارا مساعينا كما أحبطتها من قبل إذ لم نبالغ في الحذر ، لذا فاني أرى ان الاهتمام بشأن باكارا أولى من كل اهتمام ، فان الدوق وامراته وابنته لا بد أن يسافروا بجثة الدون جوزيف الى اسبانيا .

فوافقه أندريا بهز رأسه مرات متوالية فقال روكامبول : وأعلم بسأني لا أخرج عن أمرك في شيء ، بقي أن تعلم اني لا أستهجن كرهك لأخيك الكونت دي كركاز فقد كان السبب الأول في شقائك غير أنه يحمل بك الآن أن تتخلى عنه مؤقتاً فلأنك لو تدبرت في ماضيك لعلمت ان كرهك له ومحاولتك الانتقام منه كانا علة حبوطك في جميع مساعيك ولو كنت قد تخليت عنه من قبل وجعلت كل اهتمامك في باكارا لما فقدت لسانك وبصرك ولكنك ظفرت بتلك الفتاة اليهودية التي أحللتها في أعظم محل من قلبك .

فأصفر وجهه أندريا عند ذكر اسم اليهودية ورأى روكامبول ذلك الاصفار
فعلم أنه لا يزال يحبها فقال له : إذا ساعدتني على الانتقام من باكارا ومنعها
عن التعرض لي فزنا عليها وكانت لك تلك اليهودية مكافأة لأعمالك .
فظهرت على وجهه أندريا علائم الفرح الوحشي ووافق روكامبول على كل
ما قال ، فغادره روكامبول ومضى وهو واثق من الفوز .

وفي اليوم التالي ركب مع صهره مركبة مجلدة بالسواد وذهب إلى قصر
الدوق لحضور جنازة الدون جوزيف . فقد تقرر أن يصلى عليه في الكنيسة
ثم تحنط جثته كي تدفن في اسبانيا .

ولما كانوا في الكنيسة والناس منشغلون برش المياه المقدسة على الميت دنا
خادم ابنة الدوق من روكامبول وأعطاه رسالة منها ، فأخذها روكامبول
ودسها في جيبه ثم انتظر الى أن انتهت المراسيم .

ثم عاد مسرعاً الى استاذة أندريا وقرأ عليه هذه الرسالة وهي كما يأتي :
« اننا مسافرون غداً إلى سالانديريرا نحمل جثة الدون جوزيف اليها لدفنها
في مدفن العائلة ولا أريد بل لا أطيق السفر قبل أن أراك فأحضر الليلة عند
منتصف الليل الى الحديقة في المكان المجهود » .

فلما أتم قراءتها قال : ماذا ترى ؟

- أرى انه يجب أن تذهب للقائها .

- ما هذا الذي أعنيه بل اني أسألك رأيك في الرسالة ، فكتب أندريا ان
رأيي هو انه يجب ان تحتفظ بجميع هذه الرسائل حتى اذا نستك وهي في
اسبانيا او تزوجت بالدوق مايلى او دوق سواه تضع له هذه الهدايا في العلبة
التي تضع فيها هدية العرس ، فضحك روكامبول وتحدث معه هنيئة ثم تركه
وانصرف إلى النادي فاقام فيه إلى انتصاف الليل وعند ذلك ذهب للقاء ابنة
الدوق فوجد انها تلتظره في الحديقة .

ودار بينهما حديث طويل افتتحته ابنة الدوق بشكر روكامبول عن خدمته

الجليلة ثم أخبرته أن أباهما بات يقيم في البلاد الأسبانية لكثرة ما لقي فيها من المصاعب وأنه سيقم في باريس ، وما زالوا ينتقلان من حديث إلى حديث ويتناجيان باللاحظ إلى أن ناب اللسان عن العيون فتشاكيا وتناجيا وتوافقا على الحب إلى الموت ، ثم افترقا وقد اتفقا على المراسلة ، فودعها روكامبول وهو يسح دمعته عن خده لا ندري من أين نزلت ، فشبهت ابنة الدوق بالبكاء وهي تقول أحبك ، وذهب روكامبول وهو يتأوه ويتنهد .

- ١٥ -

خرج روكامبول والفرح ملء قلبه وهو يقول في نفسه : لقد ظفرت بما ابتغيته وأصبحت هذه الأموال الأسبانية في قبضة يدي ، ثم جعل يمشي وهو غارق في بحار هذه الهواجس غير مكترث بالمطر المتساقط عليه ولا زال يمشي إلى أن أيقظه من سبات تصورات صوت امرأة تستغيث فاسرع إلى المكان الذي خرج منه الصوت فرأى امرأة تحاول أن تتخلص من رجل وهو يسك بها فيجرها ثارة ويضربها بحمق كلما امتنعت عن اللحاق به ، ولا ندري ما دفع روكامبول إلى انقاذ تلك الفتاة وما هاج في صدره تلك المروءة إلا أن يكون قد طمع بغنم من هذا الانتصار فيجرد خنجره وصاح بالرجل صيحة أربسته فذعر كما يذعر اللصوص عندما يفاجئهم مفاجيء ، ثم لما رأى الخنجر يلعب في الظلام بيد روكامبول ترك الفتاة وأركن إلى القرار فدنا روكامبول منها وقال : اطمأني لا خوف عليك وأنا بقربك .

ف قالت له الفتاة بصوت الحائف : بربك لا تتخلف عني ولا تدعني وحدي فإنه يعود إليّ ويقتلني دون شك .

فارتعش روكامبول عند سماع صوتها وقال في نفسه اني سمعت هذا

الصوت قبل الان ، غير ان الظلام كان مدلهما فلم يستطع أن يرى وجهها ولكنه مسك يدها وقال لها : لا تخشي وهلمي معي فاوصلك إلى محل تأمينين فيه فمشت المرأة معه إلى ان بلغا الى مركبة واقفة في الشارع فتبين وجهها على نور مصباحها وارتجع منزعجاً الى الوراء وهو يقول . . باكارا ...

وكان ذهول روكامبول عظيماً حتى انه لم يتألمك رشده ونسي انه اذا تظاهر بمعرفة باكارا امامها فكأنه يدعوها إلى ان تعرفه غير أن المرأة اجابته وهي منذهلة أيضاً : انك واهم يا سيدي فما أنا بصاحبة هذا الاسم الذي ذكرته فجعل روكامبول يتفرس في وجهها بامعان فرأى انها باكارا بعينها وشفتيها وطولها وشعرها وصوتها وكل ملاحظها غير انها كانت أهزل من تلك التي تدعى منذ أعوام بالكونتس ارتوف وهي لابسة أحقر الملابس فوقف روكامبول بازائها ساكناً باكتاً وهو يقول في نفسه : أما ان تكون تشابهها وهو من غرائب الاتفاق واما ان تكون هي باكارا بعينها فانها كانت تتذكر أحياناً حين تحوجها بعض الأعمال الخيرية إلى التنكر ولكنها اذا كانت باكارا فما شأنها مع ذلك الرجل السكير الخامل الذي كان يكلمها كمن له السلطان عليها مما يدل على علائق سابقة بينهما وكانت ظواهره تدل على الاضطراب الشديد غير ان المرأة لم يظهر عليها أنها انتهت إلى شيء من ذلك ، ففتتح روكامبول باب المركبة ودفعها اليها وهو يقول : لقد خدعت فانك تشبهين شبيهاً غريباً امرأة عرفتها من قبل .

-- لا شك بالخداعة لأنني ما رأيتك مرة في حياتي .

ثم دخل في أثرها إلى المركبة وقال لها إلى أين تريدان أن أذهب بك ؟ فاحمر وجه تلك المرأة وقالت ليس لي منزل يا سيدي فقد كنت مقيمة مع هذا الرجل الذي أنقذتني منه ، ولكنه كان يسيء الي اساءة لا تحتمل حتى اضطررت إلى الفرار منه في هذه الليلة وجعل يبحث عني حتى لقيتني وكان يبني وبينه ما عرفت

- لا بأس .

ثم همس في اذن السائق اسم الشارع الذي كان فيه منزله السري ففسار بهما وعند ذلك سألهما روكامبول عن اسمها فقالت : ريببكا ..

- أيهودية أنت ؟

- كلا غير أن امي كانت يهودية ؟

- وأبوك ؟

فتلجلج لسانها وقالت : ما عرفت أبي غير مرة واحدة فاني ابنة الحب الشائن وقد أرتني إياه امي مرة وكان معه امرأته الشرعية وفتساءلة صغيرة شقراء تشبهني أتم الشبه وربما كانت المرأة التي عرفتها وحسبتي إياها

- أكان أبوك غنياً ؟

- كلا . بل كان من العمال وكانت أمي تحبه كثيراً وكان تهاديها في غرامها أساءه ففادرها مع طفلتها وهي أنا وتزوج بسواها زوجة شرعية .

وكان روكامبول يعرف حقيقة تاريخ باكارا وسريز فقال في نفسه : لا يبعد أن تكون ريببكا هذه اخت باكارا . ثم قال لها . قلت ان أباك كان من العمال أتعلمين ما كانت مهنته ؟

- نعم فقد كانت تقول لي امي انه حفار .

- أتعلمين اين كان يشتغل ؟

- في معمل أنطوان .

- لم يعد شك عندي الآن بأن تلك الفتاة الشقراء التي أخبرتني عنها هي اختك .

- أهى المرأة التي تعرفها ؟

- نعم .

فهاج مكان حقد دفين في صدر ريببكا ظهر بإتقاد عينيها وقالت . إذن فاعلم ان تلك التي تدعوها باكارا هي اختي حقيقة وهي التي جردت أبي من

كل عاطفة حب لي وهي التي زجنتني إلى الحضيض الذي انا فيه فساء أصبحت من بنات السبيل وسرت إلى ذلك السير الشائن ؟

— كم عمرك الآن ؟

— ٣٢ عاماً ..

وقال روكامبول في نفسه : انها اكبر من باكارا بعامين وسنرى ما يقول اندريا وكيف يستفيد من هذه اللقطة العجيبة .

وعند ذلك وقفت المركبة عند باب منزله فنزل وانزلها وقال لها : ادخلي معي فاني سأحدثك بأمر تسرك . ثم دخل بها إلى قاعة فاخرة الرياش فأجلسها بازائه ودار بينهما الحديث الآتي فقال روكامبول :

— قصي علي الان تاريخ حياتك يحملته فقد بات يهمني كثيراً .

فابتسمت ابتسام الحزين وقالت : ان من كان مثلي لا يروق سماع قصته .

.. لا بأس فقصي علي كل شيء إذ قد أكون عوناً ارسلني اليك الله فلو قد قلت انك ابنة غرام وان امك كانت تحب اباك حباً شديداً .

— بل كانت تعبد عباداً ولما هجرها كنت طفلة لا يزيد عمري عن عام ثم ماتت امي وعمري خمسة أعوام فتولت تربيتي جارة لنا إلى أن بلغت الخامسة عشرة من عمري .

— وبعد ذلك ؟

— نهجت في مناهج امي وسرت في ذلك السبيل الشائن الذي تسير فيه كل فتاة تربت في مهد الرذيلة ولم تجد من يردعها فأحببت اول شاب ابتسم لي وقال انك حسناء .

— من كان هذا الشاب ؟

— تلميذ من التلامذة الأغراب فكنت أذوق حلاوة العيش مرة وأمج علقمها مرات ، ثم جعلت انفض من هوة فأسقط في غيرها حتى صرت إلى هذا الرجل الذي انقذتني منه .

- إذن أنت تكرهين أختك باكارا التي تشبهك هذا الشبه الغريب ؟
- كما أكره الموت .
- وأنا أيضاً . . .
- أنت تكرهها أيضاً ؟
- لأنني أحببتها كثيراً وقد داسني بقدميها فإذا كنت تكرهينها كما تقولين وهيات لك وسيلة للانتقام منها أتقبلين ؟
- فقالت وقد ظهرت عليها مظاهر الفرح الوحشي : كيف لا أقبل وإذا لم أستطع أن أحب فاني أريد ان اكره ، وإنما يعيش المرء كيما يضر وينفع ولكن كيف لي أن أنتقم ؟
- سأساعدك وأخدمك أجل خدمة .
- أقسم بشرفك ؟
- سأفعل خيراً من ذلك وهو اني سأهيك هذا المنزل الذي أنت فيه الآن ومق عرفت ذلك فلا يبقى لديك شيء من الريب .
- فنظرت اليه نظرة المذهل قائلة : أصبح ما تقول ؟
- إني أعيد عليك ما قلته وهو أن هذا المنزل لك والخادم الذي فيه تحت مطلق سلطانك وأنا سأزورك في كل يوم .
- كيف ذاك ؟ ألك منزل آخر غير هذا تقيم فيه ؟
- نعم فلاني غني وستدوقين معي حلاوة العيش ، ونهض وقال : إني ذاهب الآن وسأعود اليك غداً .
- ثم دعى الخادم وقال له : انك ستكون طوع أمر هذه الفتاة إنما تكون مسؤولاً عنها فلا تدعها تخرج من هذا المنزل .
- فانحنى الخادم إشارة إلى الامتثال ووقفت ربييكا حائرة لا تعلم كيف أرسلت لها الأقدار هذا الرجل أما روكامبول فإنه ركب مركبة وانطلق الى منزله ودخل إلى غرفة أندريا الذي كان ينتظر عودته بذهاب الصبر ليعلم

ما جرى بينه وبين ابنة الدوق فقص عليه روكامبول جميع ما كان بينهما ، وما حدث من تبادل العهود ، وسفرها إلى اسبانيا واتفاقها على المكاتبة بالسر إلى أن تعود مع أبيها إلى باريس ، فكانت علائم السرور تبدو على وجه أندريا ، ولما فرغ من حديث ابنة الدوق أخبره بأمر ريبيكا ، وانها تشابه أختها باكارا كما تشابه نقط الماء ، وانه حصرها في منزله السري إلى أن قال والآن فقد أتيت أستشيرك في شأنها لأنني لا أعلم كيف أستفيد من هذه اللقمة وما حبستها في منزلي إلا لعلني بأنك من رجال القرائح النابغة ، واذك لا بد أن تجد فائدة عظيمة من هذا التشابه الغريب ، لاسيا وأن ريبيكا تكره أختها باكارا ولا أحب اليها من الانتقام منها .

فأطرق أندريا يفكر وقد خاض في بحار تأملاته عدة دقائق وروكامبول لا ينبس بحركة كي لا يقطع عليه تصوره إلى أن فرغ أندريا من التفكير فأخذ اللوح الحجري وكتب فوقه « إذهب الآن ونم مطمئناً وعد الي عند الصباح » .

الملك اهتديت إلى السبيل ٢

— « اني لا أزال في الطريق ولا بد لي من الوصول »

فانصرف روكامبول طائعا ممثلا لأستاذه وهو واثق أشد الوثوق من قريحته الجهنمية ، وعاد اليه في صباح اليوم التالي فوجد أن اندريا لم ينم بعد وقد صرف ليله بالامعان والتفكير فقال له : أملك اهتديت ؟

— نعم .

ثم كتب على لوحه يسأله متى تعود باكارا من روسيا ..

— بعد ثمانية أيام ..

— أأنت واثق مما تقول ؟

— بعض الثقة .

إذن فاعلم أنه لا بد من إيجاد شاب حاد المزاج ضعيف العقل بحيث يمكن أن يحب امرأة الكونت أرتوف ، أي باكارا حباً صادقا شديداً ، ومتى

وجدت هذا الشاب نبلغ من باكرا ما نريد .
فأجاب روكامبول يخال لي اني حذرت خطتك الهائلة ، أما هذا الشاب
فسأجده دون شك وأنا ذاهب لأراه عند اختي في ساعة الغداء .

- ١٦ -

إن الذي جعل روكامبول يفتكر بأخته وهذا الشاب الذي يتغذى عندها
هو انه عندما كان عائداً أمس مع صهره من جنازة الدون جوزيف قال له
صهره : إن صديقك رولاند دي كابلت هو الآن في باريس وقد أرسل لي كتاباً
اليوم يقول فيه انه سيزورني غداً ويتغذى عندي فلتأكل غداً في النادي
حسب عادتك .

فأجابه روكامبول بالقبول دون أن يفتكر بهذا الشاب إذ لم يخطر له في بال
اقتراح اندريا ، فلما غادر اندريا ذهب الى اخته فوجدها مع زوجها ورولان
في قاعة الاستقبال فقال له صهره : لقد جئت في الوقت المناسب فلنك ستسمع
قصة رولاند وهي جميلة دون شك كجميع حكايات غرامه ، ألم تقل لي بالأمس
ان العشاق لا يكتبون الى أصدقائهم ؟

- نعم . وهذا ما أرتاب به ؟

- ولكنك غطىء فإن رولاند كتب لي ..

فالتفت روكامبول وقال له : ألا تزال عاشقاً أيها الصديق ؟

فتنهده قائلاً : نعم وأسفاه .

فقال الفيكونت فابيان : ولكنه لا يعيش أمياليا كما تعهد بل ان حباً
جديداً طرد ذلك الحب القديم .

فقال روكامبول : مثل المسمار يدفع المسمار ويحل محله .

- هذا ما جرى لصديقنا رولاند فانه برح باريس واليأس ملء قلبه عله يجد سلوى عن غرامه بالسياحة والأسفار فشفي من هذا الداء بعد ثلاثة أشهر ، غير أنه شعر في بدء الشهر الرابع ان قلبه بات خلياً وانه لا يستطيع أن يحيا دون غرام فعاد من المانيا مكبلاً بقيود حب جديد .

فقال روكامبول : العله شغف باحدى الألمانيات ؟
- كلا .. فإن التي يحبها روسية ، ولا أعلم التفاصيل ، ولكن رولاند سيقصها علينا .

فاختلج فؤاد روكامبول عندما سمع كلمة روسية ، وقال رولاند : يسوؤني اني في حاجة إلى هذه التفاصيل أكثر منك
فقال روكامبول : أملك تهزأ بنا .
- كلا .. فإن المرأة التي أحبها ..
ثم توقف متردداً إلى أن قال : إن هذه المرأة لم أرها غير مرة .

- أحببتها من نظرة ؟

نعم .. حباً يشبه العبادة ..

فقال روكامبول بلهجة الهازيء : إنك هربت إلى روسيا كي تنسى حب الفرنسية ، وقد رجعت إلى باريس كي تنسى حب الروسية .

- اني لم أكد أراها حتى جننت بها ولم أكلها كلمة واحدة
- لا أجد لك شياً إلا الإناء ملئ بالبارود إذا دنت منه الحرارة هب والنهب ، وأنت كذلك فان نظرة واحدة تشير منك مثل هذا الغرام ، والحق ان مثل هذا الحب لا يوجد إلا في الروايات .

- وان حبي حكاية ..

- ايمكن أن أقرأها ؟

- بل انك تسمعها لأنني سأقصها عليك وهي بسيطة محزنة كسائر حكايات الغرام فاني كنت قادماً من حديقة بادن فرأيتها فيها وكنت قد شفيت من

غرامي القديم وعزمت على الرجوع إلى باريس فعداني أحد أصدقائي إلى حفلة راقصة وقال لي: تعال معي فسأريك الليلة أجمل امرأة وهي الكونتس أرتوف فاضطرب روكامبول اضطراباً شديداً لم يلتبه إليه أحد ، وأتم رولاند حديثه فقال ثم أخبرني صديقي بحديث هذه الكونتس فقال لي انها كانت تدعى باكارا ، وهي من أشهر موسسات باريس وقد قدر لها أن تنقلب من الشر إلى الخير فأحبها الكونت أرتوف الروسي وتزوج بها . فلما سمعت اسم باكارا وكنت سمعت بشهرتها أحببت ان أراها في تلك الحفلة ورقصت معها فما انتهى الرقص إلا وقد ذهبت بعقلي .

فقال روكامبول وقد أخفى اضطرابه : أهذا كل الحديث ؟ - كلا ، فأني عندما خرجت من تلك الحفلة سكرت كأني مصاب بحمى شديدة ، فلم أتم طول ليلتي وهي تتمثل لي بكل خيل حتى خشيت أن أكون جننت . فقال فابيان : لا يجب أن تخشى شيئاً ، فإنك منذ عهد بعيسد محسوب من المجانين .

فابتسم رولاند وعاد الى حديثه فقال : وفي اليوم الثاني أقسمت على ان ألحقها حتى أحملها على حيي ولو اضطرت الى ان أصيغ النجوم لها عقوداً . فأخذت أطوف في ذلك اليوم المنتزهات علي أراها ، فما وقفت لها على أثر . وفي الساعة الخامسة ذهبت إلى الفندق الذي كانت مقيمة فيه فقبل لي انها سافرت إلى هلدبرج فذهبت اليها في ذلك المساء .

فقال روكامبول : العلك رأيتها ؟

- بل أنقذتها من الموت !

فقاطعه روكامبول قائلاً : لقد تقدم لك القول انك ما رأيتها غير مرة وانك لم تكلمها كلمة واحدة فكيف تقول الآن انك أنقذتها من الموت ؟ - إن ما أقوله حقيقة لا ريب فيه .

فقال فابيسان : وأنا أقول ان جنونك لم يعد جنون غرام ، بل جنون أكيد .

إنك عندما تسمع حكايتي ترجع عن كلامك هذا .
فصاح الجميع : إذن لنسمع الحكاية .

وجعل بعضهم يمزأ وبعضهم يسكت الهازئين ، إلى ان استراهم روكامبول السمع وقال : لنسمع الحكاية ، فقد قلت ايها الصديق انك لم تكلمها كلمة .
- لم أرد بذلك إني لم أكلمها على الاطلاق ، فقد كلمتها بضع كلمات حين كنت أراقصها .

فقال روكامبول ولكنها كلمتك دون شك فقد سمعت عن هذه المرأة انها كانت كثيرة الكلام حين كانت تدعى باكارا .

- لقد كانت كذلك حين كنت أراقصها ، ولكنها لم تفه بكلمة حين أنقذتها من الموت لأنها أغمي عليها .

وعندما عادت إلى رشدها ألم تشكرك ؟

- لم تجبني لأنني سافرت . ولكني لم أسافر طائفاً مختاراً ، بل إنهم طردوني

فمجبب الجميع ببده قصته وطلبوا اليه ان يقص عليهم الحديث بحملته فقال : إن باكارا أو الكونتس برحت مدينة بادن في صباح الليلة الراقصة ، وذهبت مع زوجها إلى هديلبرج فاقتفيت أثرها في الحال ، وذهبت الى تلك المدينة وعلمت ان زوجها قد سافر الى فرنكفورت ، وانها مقيمة في منزل جميل على شاطئ البحر ، ثم علمت انها ستنتظر هناك زوجها مدة شهر إلى أن يعود .

وقد رأيت انه لا يليق أن أزورها لأنني ما رأيته غير مرة واحدة في تلك الحفلة الراقصة ، فجعلت أترقب الفرص كي أراها ، فعلت في اليوم التالي أنها تخرج إلى قارب صغير تتنزه فيه ، ومعها اثنان من القوزاق هائلا

الجثة تلوح عليهما ملامح الفظاعة والشراسة ، فعلمت ان زرجها قد جعلها حارسين عليهما .

فذكر روكامبول هذين الرجلين اللذين قد وضعاه في الكيس والقياه إلى النهر ، واختلج جسمه لهذه الذكرى . وتابع رولاند قائلاً : وقد ترصدها عدة مرار وتصديت لها في طريقها ، فاذا سلمت عليهما من بعيد ردت السلام ببرود وقلة اكتراث فصبرت وجعلت كل يوم أركب قارباً وأتنزه مثلها بازاء قاربها إلى ان اتفق يوماً ان الرياح عصفت فجأة ، فانقلب القارب وسقطت منه باكارا إلى البحر ومعها الرجلان فألقيت بنفسي وقلت هوذا الفرصة قد دنت وما زلت أصادم الأمواج حتى بلغت اليها قبل البحارة فأخذتها وهي موشكة الى الفرق وسحبته بها مغمياً عليها إلى القارب .

وكان البحارة قد أسرعوا اليها جميعاً فاحتملوا القوزاقين وباكارا إلى قارب وسحبته أنا إلى قاربي وقد أنقذتها من الموت

فلما كان اليوم التالي لبست أفخر ملابسني وتطيبت وذهبت لأزور تلك التي كانت مدينة لي بحياتها وانا واثق من حسن استقبالي . فلما طرقت الباب فتح لي أحد هذين الرجلين فما لبث ان رأيته حتى أقفل الباب بوجهي ولم يرد علي بحرف . على اني عدت إلى منزلي وأرسلت اليها رسالة هنأتها فيها بالسلامة فكتبت لي تقول ان الكونتس ارتوف لا تنسى انها مديونة بحياتها للمسيو رولاند دي كايوت وانها تؤمل ان يزورها بعد أسبوعين في باريس لتفقيه تشكراتها . فلما قرأت رسالتها علمت انها تقول بعبارة صريحة انها لا تريد ان تراني في هديلبرج . وفي الوقت نفسه ورد لي كتاب من عمي يستعجلني فيه بالحضور الى باريس ، فلم أجد بداً من الحضور وما أنا الآن بينكم أنتظر رجوع هذه الفاتنة بفارغ الصبر ، ولكنها ستعود قريباً ولا بد لي ان أراها ولا بد لها ان تحبني .

ولما انتهى من حكايته وعلم روكامبول انه مغرم مقتون ببباكارا ترك الحفلة

وأُسرع إلى اندريا وقال : لقد وجدت الرجل المطلوب .

-- الرجل الذي سيحب باكارا ؟

: بل الذي يحبها .

فابتسم اندريا ابتساماً هائلاً وقال : وأنا وجدت أيضاً ، فاسمع .

ثم خط له خطة هائلة سيقف عليها القراء في الفصول التالية .

- ١٧ -

بعد ان خلا روكامبول باندريا خلوة طويلة سرية ، تركه وانصرف الى ريبيكا اخت باكارا ، وكانت هذه الفتاة لا تزال بين مصدقة ومكذبة لما رآته فإنها بعد ان كانت تجول في الأزقة تلمس قوت ليلة من طرق النكد وبعد ان كاد عشيقتها السكير يقتلها أصبحت في منزل أنيق وفرش فاخر ولديها خادم يقف أمامها بملء الاحترام ويناديها بالقب السيادة .

وكان روكامبول يقول في نفسه وهو قادم اليها : إنني إذا البست هذه الفتاة شالات باكارا وملابسها الثمينة فلا تعود تفرق شيئاً عنها لشدة ما بينهما من التشابه وهي ذكية الفؤاد مثلها فلا بد لخدعة اندريا ان تنجح . فلما وصل اليها استقبلته شاكرة فرحة فساءلها عما اذا كانت قد سرت بهذا المنزل فقالت : اني سررت سروراً لا يوصف ، ولا أتمنى إلا أن يكون لي مثله .

-- إنني أعددت لك خيراً منه فهمي معي الى المنزل الجديد .

فوجف قلب الفتاة وخشيت ان يكون هازئاً بها ثم تبينت من وجهه الصدق وقالت في نفسها : قد يكون وقع في غرامي .

فاطمأنت وسارت معه حتى بلغ بها الى منزل في شارع باسي ، تكتنفه

حديقة صغيرة وعليه ملامح الجلال ثم دخل بها اليه وأدخلها الى قاعة الاستقبال فاذا هي مفروشة من أجل فرش ، وجعل يذهب بها من غرفة الى غرفة وهي مندهلة لما تراه وتحسب انها حاملة الى ان ذهب بها الى غرفة خاصة بلباسها فجلس وإياها وقرع جرساً فأسرعت خادمة بارعة في الجمال وقالت : العمل مولاتي تدعوني ؟

— نعم . إنها تريد ان تلبس ثيابها وغداً تأتي اليها الخياطات .

ثم نهض وقال لريبيكا : انك الآن في منزلك وأنا ذاهب ولكني سأعود اليك في المساء فأتعشى معك . واعلمي الآن انه لديك في هذا المنزل طبخة ووصيفة وخادم وسائق مركبة وجوادلان .

ثم قبل جبينها وخرج فبهتت ريبيكا وقالت : لا شك انه فتن بي وسأخلص له الحب لأنه يعرف طرق قلوب أمثالي .



وللمسبق الآن روكامبول وندخل قبله الى منزل الدون جوزيف الذي استقبل فيه البولونية قبل ان يقتل فنقول ان جثته لم ترسل الى منزله كما يعلم القراء ، بل أرسلت الى منزل الدوق

وكان زامبا ينتظر مولاه في تلك الليلة التي قتل فيها حتى اذا انتصف النهار ولم يعد ذهب الى قصر الدوق ليسأل عنه فأخبروه انه قتل . فعلم للحال ان ذلك من صنع الرجل المتنكر اي روكامبول ، وجعل يقول في نفسه انه لو عاش سيدي وتزوج ابنة الدوق لكان جعلني وكيل منزله ، اما الآن وقد مات ماذا أصنع ؟ أسرق ما في منزل الدون جوزيف وأفر هارباً ؟ ولكني قد لا أنجو من القضاء . وهب اني نجوت فليس في منزله مما يسرق أكثر من عشرة آلاف فرنك وهي لا تكفيني شر العوز في المستقبل . وخير لي ان أترلف للدوق فانه كان يحب الدون جوزيف ، وربما أبقاني في خدمته فقد استفيد

فائدة عظيمة لوقوفني على سر هذا الرجل المتنكر الذي لم يعد لدي شك انه هو الذي أغرى على قتل الدون جوزيف كي يتزوج ابنة الدوق ولكن ما بال هذا الرجل المتنكر لم أراه منذ ثلاثة أيام ؟ العله لم يعد في حاجة إلي بعد ان أدرك قصده ؟

وفي كل حال فلا بد لي من البقاء في منزل الدون جوزيف أتولى حراسته الى أن ارى ما يكون .

وكان قد عاد الى المنزل وجعل يفتش في خزائن القنيل ويسرق ما فيها من المال . وفيما هو على ذلك إذ سمع قرع الباب الخارجي فبادر الى إقفال الخزائن ، وأسرع الى الباب ففتحه فرأى ذلك الرجل المتنكر ، الذي كان يفكر فيه .

ولم يكن هذا الرجل غير روكامبول ، فانه عندما ترك ريببكا ذهب الى منزله السري فتنكر وقدم الى منزل الدون جوزيف كي يرى زامبا . فلما رآه انحنى مسلماً عليه حتى كاد يبلغ الأرض ، فقال له روكامبول : هل أنت وحدك ؟

— نعم .

فدخل وأمره ان يوصد الباب فأحكم ايصاده ودخل الاثنان الى احدى الغرف ودار بينهما الحديث الآتي :

فقال روكامبول أتقدر ان تخبرني عن قتل الدون جوزيف ؟

— عجباً كيف تسألني هذا السؤال وانت أعلم بالتفاصيل مني !

— لا بأس أخبرني بكل شيء .

— ان الدون جوزف مات قتيلاً بخنجر فاطمة واظن انك انت الذي وضعت

في يدها هذا الخنجر .

— ربما كان ذلك ولكن اتعلم السبب فيه .

— كلا .

- ذلك لأن الدون جوزيف كان ينبغي الزواج بابنة الدوق .
- اذا كان هذا الزواج قد ساءك فأنت تخدم دون شك رجلاً آخر يريد ان يتزوج بها اذ لا اظن انك انت الراغب بزواجها .
- ارى انك رجل نبه ذكي الفؤاد فقد أصبت وانا اخدم سواي في هذه المهمة كما كنت تخدم سواك فلنتفق اذن اذا امكن الاتفاق
- . فجلس زامبا جلسة الواصل من شدة الحاجة اليه وقال : كل اتفاق ممكن بين عاقلين .
- انما اسألك قبل كل شيء ان لا تنسى اني واقف على شرك وانك محكوم عليك بالاعدام واني استطيع ان ابعث بك الى المشنقة حينما اريد .
- وانا التمس منك ان تكون كريماً ورحيماً .
- سأكون كما تريد فاعلم الآن ان طمعت ان تكون وكيل منزل ابنة الدوق وستكون وكيلها بعد زواجها غير انه يجب من اجل ذلك ان تخدم في الوظيفة التي سأعينها لك الى ان يتم هذا الزواج .
- اخدم اينما اردت .
- لي صديق يثقل وجوده علي واحب ان اضع في منزله من يراقبه ، وهو الدوق دي مايلي .
- عرفت هذا الدوق بالنظر .
- وغداً ستذهب اليه ويكون لديك كتاب توصية من ابنة الدوق .
- من ابنة الدوق وكيف لي ان احصل على هذا الكتاب ؟
- سأرسله لك بالبريد .
- ثم تركه روكامبول ومضى إلى منزله السري فدعا خادمه وقال : لقد أعفيتك من خدمتي وضاعفت راتبك .
- فأجفل الخادم وقال : كيف ذلك يا مولاي ؟
- ذلك اني سأعينك في خدمة رولاند دي كايلت لمراقبة أحواله وستذهب

اليه بهذا الكتاب .
ثم كتب اليه كتاباً إلى صديقه رولاند يوصيه بهذا الخادم الأمين وأعطاه
للخادم وقال له : انصرف بهذا الكتاب اليه وعد الي غداً لأخبرك بما يجب
أن تصنع .

فأخذ الخادم الكتاب وهرب فرحاً بهذا المورد الجديد .
وفي الساعة السادسة من المساء ذهب روكامبول إلى ريبيكا فوجدها تنتظر
وقد أصبحت بلباسها الجديدة فتنة للعيون وفيما هما يتعشيان قال لها : لا بد
أن يكون قد خطر لك باني أحببتك واني أريد أن أتخذك لي خلية .

فمجمبت ريبيكا وقالت . ما عسى أن يكون قصديك إذن مما تنفقه علي ؟
— اني أريد أن أجعلك من النساء النبيلات وان تكوني جديدة بالاسم الذي
تدعين به ؟

فزاد عجب الفتاة وقالت : العلي تقمصت وصار لي اسم جديد ؟
— نعم .. فانك تدعين منذ الآن الكونتس أرتوف ، أي باكارا شقيقتك
العزيزة .

- ١٨ -

كان رولاند دي كايلى فتياً لم يتجاوز عشرين عاماً وكان على حداثة سنه
كثير الغرور يجماله ، وشديد الاعجاب بنفسه ومقدرته على فتنة النساء ،
ولكنه كان على هذا الغرور ضعيف العقل كثير الخيلاء ، لا يراعي حرمة النساء
حق انه يندر إذا كلم امرأة أو رأى منها ابتسامة ان يسلم عرضها من فلتات
لسانه ، فيتباهى أمام اخوانه بأن فلانة تتمنى رضاه وفلانة تذب هياماً به
شأن كثير من يأخذ بهم الغرور من الشبان فيجعلون فضيلات النساء

مضغة الأفواه وسحر النوادي والويل لمن قبسهم لهم ابتسامة رضى وتكلمهم كلمة حلوة فانها لا تنجو من مخترعات غرورهم .

وهذا كان شأن رولاند فإنه عندما عاد إلى باريس يحمل بفؤاده حب باكارا الجديد جعل يطوف على اصحابه وكل ما عثر بواحد منهم حدثه بحديث الكونتس أرتوف يحملة وقال له : انه سر أودعك إياه فلا تبج به لأحد وما زال على ذلك حتى شفى غليله واتصل هذا السر بنحو ثلاثين من أولئك الأصحاب .

وكان يقيم وحده في منزله وليس معه فيه غير الخادم جرمين الذي أرسله اليه روكامبول ، وقد طاف يوماً كاملاً فلم يجد صديقاً جديداً يزوج له بفراشه الجديد حتى إذ عاد إلى منزله لم يجد أمامه غير خادمه فجعله في زمرة أصدقائه وباح له بسرهم ثم عهد اليه أن يراقب مجيء الكونتس فجعل الخادم يذهب كل يوم بحجة الاستفسار عن رجوعها من خدامها ويذهب إلى روكامبول فيأخذ منه التعليمات اللازمة .

وقد مضى على دخوله في خدمته سبعة أيام دون ان يحدثه بأمر جديد عنها ، إلى أن عاد رولاند إلى منزله في اليوم الثامن وسأل خادمه إذا كان يعلم أمراً جديداً ، فقال : لقد علمت من خدام الكونتس انهم ينتظرون عودته بعد ثمانية أيام ..

- والكونتس ؟

- لو كنت تعلم يا سيدي بما أتيتك به من الأنباء لكنت تجازيني خير جزاء فإن الكونتس لا تعود مع زوجها ؟

- ويحك ماذا تعني ؟

- أعني أنها الآن في باريس وحدها .

فاختلج فؤاد رولاند سروراً وقال : اين أقامت في قصرها ؟

- كلا . بل انها استأجرت منزلاً في شارع باسي وأقامت فيه ، متنكرة

وقد علمت ذلك من وصيفتها التي تحبني وأحبها ولكنني لا أزال أجهل نمرة المنزل. ولا بد لي أن أعرفها في هذا المساء .
فطار فؤاد رولاند سروراً وقال لخادمه صنيعة روكامبول : انك إذا عرفت نمرة المنزل أجازيك خير الجزاء .

وفيما هما على ذلك إذ طرق الباب ودخل صديق جديد يدعى اوكتاف كان غائباً عن باريس وكان من أخص أصدقائه فسر رولاند بقدمه وأخبره بجميع أمره مع باكارا إلى أن أخبره بحديث خادمه فقال له صديقه : انها لم تتنكر وتأتي إلى باريس قبل زوجها إلا بقصد ان تراك وفي جميع ذلك مما يدل على انها مفتونة بك ، وكيف لا تحبك بعد أن انقذتها من الموت ، بل كيف لا تهواك وقد خصك الله بحمال بت فيه فتنة النساء . فسر رولاند وجعل يقتسل شاربيه مختالاً

وفيما هما يتحدثان إذ دخل الخادم يحمل كتاباً إلى مولاه فأخذه رولاند وفضه على عجل فقرأ فيه ما يأتي :

« إذا كان رولاند دي كايلت هو ذلك الرجل النبيل الذي تدله عليه ظواهر أعماله ، وإذا كان خليقاً باسمه وبذلك الحب الذي غرسه في قلب المرأة المدينة له ، فليركب جواداً في الساعة الحادية عشرة من المساء وليذهب إلى شارع باسي وينتظر » .

فلما أتم قراءته عرف انه من باكارا فدفعه إلى صديقه وهو لا يصدق ما يراه من القرح فقرأه اوكتاف وقال لم يعد شك أنها مفتونة بك .

— نعم غير ان الخط ليس خطها

فهرأ به اوكتاف وقال : الا تظن ان لها وصيفة تأمنها على سرها وتستكنبها مثل هذه الرسائل الخيرة فاقتنع رولاند وخرج مع صديقه إلى النادي لمناولة الطعام .

وكان هناك روكامبول وصهره فابيان فدار الحديث بسين الحضور على

أبحاث شقي إلى أن عاد رولاند إلى حديث غرامه فجعل يخلو بكل واحد من أصدقائه ويخبره بحديث الرسالة إلى أن أفضى الدور إلى فابيان ، ولما باح له بكل شيء جعل يؤنبه لما يبديه من الطيش والغرور وقال اذك والكونت من أصدقائي وقد بحث لي بسرك مع امرأته فسأوقفتني أصعب موقف على اني لا أزال أشكك في هذه الرسالة وأعتقد ان أحد أصدقائك أراد ان يمازحك فكتبها اليك ، وفي كل حال فان الكتمان أجدر بك وإلا فإنك تعرض نفسك لمبارزة الكونت أرتوف .

فهاجت الكبرياء بصدر رولاند وقال : أتخسب اني أخشى مبارزته ؟
- كلا .. ولكنك تخشى مقابلة تلك المرأة بعد ان تقتل زوجها ، وفي كل حال فانه يجدر بك صيانة عرض تلك المرأة إذا كنت تحبها كما تقول وإلا فأني حب هذا ؟

فأطرق رولاند وهو لا يعلم بماذا يجيب وما صدق ان دخل بعض اعضاء النادي إلى الغرفة التي كان فيها حتى غير الحديث ثم أفلت من فابيان ونصائحه واندمج مع أصدقائه الآخرين وهو لا يلويه شيء عن الافتخار بهذا الحب الجديد وما زال في النادي الى ان حان الموعد المضروب فخرج من النادي وركب جواده وانطلق للقاء باكارا وهو موجس خيفة من تحذير فابيان وهو ان هذه الرسالة قد يكون كتبها له أحد أصدقائه على سبيل المزاح .

- ١٩ -

وكانت الليلة ممطرة ولكن رولاند لم يبال بالمطر لما كان يتأجج بصدره من نار الوجد فجعل يسير مسرعاً بالجواد إلى ان وصل إلى الشارع المسمى فوقف ينتظر فلم ير احداً وقد اقفر الشارع من المارة لانهار المطر .

وما زال يسير ذهاباً وإياباً في مسافة محدودة لا يتعداها إلى أن حان منتصف الليل أخذ يرجع ظنون فابيانت وسئم من نفسه لباحته بسره للجميع أصدقائه حتى جعلهم يمزأون به هذا الهزء ولكنه بقي له شيء من الرجاء فلم يخب رجاءه ففيا هو واقف في الطريق والمطر ينهمر عليه إذ لقي مركبة قدلو منه حتى وصلت إليه فواقفها سائقها ونزل منها رجل فدنا منه وقال له : أملك رولاند دي كايلى ؟

— نعم .

— تفضل إذن بالتخلف عن جوادك والركوب في هذه المركبة إلى حيث ينتظرونك ، أما جوادك فساأحتفظ به إلى حين عودتك ، فامتثل رولاند وهو لا يصدق ما يسمع ودخل في تلك المركبة فاقفل بابها من الخارج وانطلقت به مسرعة إلى منزل الحبيب .

وبعد مسير عشر دقائق وقفت المركبة على باب منزل كبير فأراد رولاند أن يفتح باب المركبة فوجده مقفلاً من الخارج فحاول أن يرى من زجاج نافذتها فراه مصبوغاً بدهان بحيث لا يستطيع أن يرى شيئاً فعلم أن باكارا أرادت بهذا الحذر أن لا يعرف طريق منزلها .

ولم يطل انتظاره فان باب المركبة فتح من الخارج ورأى رولاند خادماً يقول له : تفضل يا سيدي واتبعني ، فتبعه إلى قاعة مفروشة بأجل الرياش منورة بنور ضعيف فادخله الخادم إليها وانصرف فرأى رولاند رينيك التي تمثل دور باكارا جالسة قرب المستوقد فلم يشكك رولاند أنها امرأة الكونت لشدة الشبه بينهما ودنا منها فاخذته بيدها البيضاء فقبلها باحترام وقال لها : ما أرق قلبك وما ألطف شعورك

فابتسمت له ابتسام الحزين بعد أن جذبت يدها من يده باضطراب وقالت : تفضل يا سيدي بالجلوس بقربي ، وكان رولاند يعتقد أنه يحب امرأة الكونت ارتوف حباً شديداً فتلجج لسانه عن الكلام حين رآها ، كذلك رينيك فانها

كانت تمثل دور الغرام فلم تنبس بحرف كأنها لا تجسر ان تفتح الحديث .
وكان روكامبول قد علمها دورها حق اتقنته فلما رأت رولاند يضطرب
ولا يجسر أن يتكلم ، بدأت هي بالحديث ، فقالت باسمه : إذن أنا مدينة
لك بحياتي .

فقال رولاند وقد حلت عقدة لسانه : حبذا يا سيدتي لو تمكنت من أن
أجعل حياتي في كل ساعة فداءك .
فابتسمت وقالت : انك لا شك مجنون
- ذلك لأنني جننت بحبك .

فتنهدت وقالت . أريد أن أقول ان كلينا مجنون إني أحبك ايضاً ، ثم
غطت وجهها بيديها فخيّل لرولاند انه رأى دمعة نفذت من خلال أصابعها ثم
مسحت تلك الدمعة وكأنها ذكرت انها امرأة الكونت ارتوف وانها مقيدة
بقيود الواجبات فقالت لرولاند وكان لا يزال واقفاً أمامها : أجلس على هذا
الكرسي يجاني وأحذر أن تبدو منك ما انكره عليك وإلا . .
- وإلا ماذا ؟

فقالت بلهجة الممازح : وإلا أقصيتك عني فلا تعود تراني .

- فاطمأن رولاند للهجتها وامتلأ لها فجلس بقربها فوضعت يدها بيديه
وقالت : لننتحدث .

- أي حديث يا سيدتي يفصح عما أجد من غرامك ؟

- تريد أن تقول انك منذ لقيتني لم تعرف طعم الرقاد وانك لم تتم إلا على
أمل أن ترى طيفي في الأحلام .

فوضع يده على قلبه وقال هو ما تقولين أيتها الحبيبة ، فانني لقيت ما لا
تقوي النفوس على احتماله

- وقد وصلت رسالتي فتلوها مراراً واتيت إلي وأنت كالشم من شدة
الرجاء انك تريد أن تقول لي جميع هذه الجمل التي أسبقك إلى قولها فانك ترى

اني جريت في حلبة هذا العمر شوطاً بعيداً وقرأت جميع تواريخ الغرام فباتت فقراته وفصوله في محفوطي .

— لا أرى إلا انك فتنة العيون واني احبك

فابتسمت وقالت : لو لم اكن واثقة من حبك اكنت تراني في خلوة معك اما وقد عرفت سر قلبي فلا بد لي من ان اوقفك على شيء من أسرار حياتي فاعلم اني لم اخلق ببيلة كما تراني ، بل انني قبل ان اكون امرأة الكونت ارتوف كنت ادعى باكارا ، ألم تسمع ببكارا ؟

- ذلك سيان عندي فاني احبك

— اصغ الى تلمة حديشي فسانت باكارا عرفت انها لا قلب لها يشعر بالحب ، ولكن الحب نفذ الى قلبها يوماً كما تنفذ اشعة الشمس الى الانيسة فتملأها شعاعاً ، فلما تبثت عن عيشي السابق واصبحت امرأة الكونت ارتوف اقسمت على ان احترم اسمه الشريف وان اكون من اطهر النساء فما نكثت بهذا العهد واحببت زوجي اربعة اعوام حباً يشبه العبادة .

ثم غطت رأسها بيديها وتظاهرت انها تضطرب وبعد حين نظرت اليه بعين يترقرق الدمع فيها وقالت : كيف اعترضتني في سبيلي وكيف لقيتكم وما لقيت منك فاني مسالبت ان رأيته حتى اختلج فؤادي وعلمت ان لك سلطاناً علي لا يغلب فبينما انا الكونتس ارتوف إذ غدت فجأة باكارا وبات هذا الكونت النبيل الذي طالما احببته سمحاً في عيني حتى لم اعد اطيع النظر اليه . ثم جعلت تبكي بعد هذا القرار بكاءً شديداً وتقول رباه مساه هذا الحب وما اصعب مواقف الغرام .

فذهب عقل رولاند ولم يدر ما يقول فجثا أمامها وجعل يقبل يدها وهو يقول بلسان متلجلج : أحبك .

غير ان ريبيكا رأت انه يحمل بها الاندفاع فجذبت يدها من يده بلطف وقالت رولاند ان زوجي سيحضر بعد ثلاثة أيام .

فتنهه وقال : ثلاثة أيام فقط ؟

— نعم .. وأسفاه فقد أصبحت امقته اشد المقت فارث لحالي فان هنائي بصحبته اربعة اعوام سينقلب الى شقاء شديد لا قبل لي باحتماله فتحمس رولاند وقال : اتربين معي ؟

— إلى أين فأننا لو ذهبنا إلى آخر المعمورة لأدركني وقتلني شر قتلة .
— أتحشينه وأنا بقربك ؟

— انه يقتلك أيضاً وأنا لا اريد لك الموت بل ان تعيش لي وتحبني ، فلنبق هنا الى ان اجد سبيلاً يجمعني وإياك ولكنك ستدفن سري في اعماق قلبك اليس كذلك ؟

— اعنذك شك بهذا ؟

وقد نسي في تلك الساعة ان سره يتحدث به ثلاثون من اصدقائه .
قالت : ولا تأسف حين يكون زوجي في باريس اذا لم استطع ان اراك كل يوم بل اصبر كما انا صابرة .

— سأصبر الى ان نجد وسيلة كما تقولين

— إذن فاذهب الآن وسنجتمع غداً ..

— اين ؟

— في هذا المنزل ، فتأتي إلى الشارع على جوادك وتنتظر إلى ان توافيك المركبة التي وافتك اليوم .

فامتل رولاند وقبل يدها بلهف ثم خرج فشيخته باسمه الى الباب فلقى المركبة تنتظره فركب فيها وانطلقت به الى حيث كان ينتظره الخادم بجواده فامتطى الجواد وانطلق يعدو به إلى النادى حيث كان يرجو ان يجد فيه احداً من أصدقائه ، فيبوح له بهذا السر الذي كاد ينفجر بقلبه ولكنه لم يجد احداً منهم فانقلب راجعاً إلى منزله يمشي مشية الحزين لضيق صدره بهذا السر مع انه لم يكن في حياته على ما هو عليه من الفرح بهذا الاجتماع .

ونام فلم يحلم تلك الليلة إلا ببكارا وظل نائماً الى الظهر فلما فتح عينيه سمع جرس الباب الخارجي يدق فظن ان صديقه اوكتاف قام لزيارته ولكن ظنه اخطأ فان القادم كان المركيز دي شمري ، اي روكامبول . فدخل الى غرفته وقال باسماء : اتدري لماذا اتيت لزيارتك ؟
- كلا !

- اني اتيت لطفي بانك في حاجة الى صديق وفيمن يهتم سررك ويعينك باخلاصه على ما انت فيه .

- لقد احسنت فان لدي سرأ سيقتلني دون شك إذا بقي مدفوناً في قلبي .
فجلس روكامبول على طرف سريره وجعل رولاند يقص عليه ما جرى له في ليلة أمس ..

- ٢٠ -

وكان الصدفه ارادت ان تخدم روكامبول اجل خدمة وذلك انه في اليوم التالي لتلك الليلة التي كانت رينيكامثل فيها دور الكونتس ارتوف ، كانت هذه الكونتس ، أي باكارا ، سبقت زوجها الى باريس بيومين فقدم هو عن طريق الرين وبلجيكا لقضاء بعض المهام ، وقدمت هي عن طريق ستراسبورج ولورين وهي اخصر الطرق الى باريس ، وقد ذهبت توأ الى قصرها ، وكان الخدم متأهبين لاستقبالها وجلست هنيهة الى ان استراحت من مشاق السفر ثم طلبت رسائلها التي وردت فجعلت تطالعها حتى رأت بينها ورقة نعي ففتحتها ورأت انها نعي الدون جوزيف الذي كان يحول بين الدوق مايلي وبين ابنة الدوق دي سالانديررا ، فاختلج فؤادها عند تلاوتها هذا النبأ وقامت في الحال الى مكتبها فكتبت الى الدوق مايلي تعلمه بقدومها وتدعوه

اليها وأرسلت كتابها مع أحد الخدم ثم كتبت كتاباً آخر إلى اختها سريز تخبرها بحضورها وجعلت تلتظر حضور الدوق .

وكان الدوق ماييلي يبلغ الثلاثين من العمر وهو وافر الثروة عريق النسب جميل الطلعة وكان يحب ابنة الدوق سالانديريرا حباً عظيماً وتعرض لخطبتها غير أن أباهما رفض لعزمه على تزويجها بالدون جوزيف .

فلما أتى الدوق ماييلي وجد باكارا تلتظره في غرفة أشغال زوجها وأمامها منضدة عليها دفتر ملئت صفحاته بخط تدل ثخانة حروفه على انه خط رجل فقال لها . كنت أحسب يا سيدتي أنني سأرى معك الكونت .

— ان زوجي لا يحضر إلا بعد ثلاثة أيام ولولا هذا النبأ الذي علمته منذ ساعة لكنت انتظرت حضوره فدعوتك إلي ثم أعطته ورقة نعي الدون جوزيف ، فاصفر وجهه ولم تخف حالته على باكارا ، فقالت له ألا تزال تهوى ابنة الدوق ؟

— نعم وأأسفاه وانما أناأسف لأنه حب لا رجاء فيه .

— اني أراك قانطاً على انك لو قرأت هذا الدفتر الذي تراه أمامي لتبدل بأسك بالرجاء .

فذهل وقال : ما هذا الدفتر ؟

— صبراً الآن وأجبني على أسئلتى أليس لعائلتك فرع في روسيا ؟

— نعم في أودسا ان أخ جدي وهو الشفاليه دي ماييلي ذهب في عهد لويس الخامس عشر مع الدوق دي شوازيل الذي تعين سفيراً افرنسا في بطرسبرج فأحب فتاة من حاشية الامبراطور كانت وافرة الثروة وتزوج بها فعين عند ذلك كولونيل في الجيش الروسي وقد ولد له ثلاثة بنين استوطنوا روسيا ونسوا انهم فرنسيون فلم يعد لهم أقل علاقة بنا وأذكر أن عمي لقي في حربها مع روسيا سنة ١٨١٢ كولونيل روسياً يدعى باسم عائلتنا وتقاتل معه .

— اني اريد أن احدثك عن هذا الكولونيل نفسه فانه هو الذي أعطاني

هذا الدفتر اليك وقد لقيناه هذا العام في أودسا وقد دعانا إلى حفلة راقصة في قصر الحاكم فلما سمعنا باسمه ذهلبنا فاخبرنا انه من أصل فرنسي وحكى لنا هذا التاريخ الذي حكيت به .

ثم استحكمت حلقات الصداقة بينه وبيننا وبعد زيارات كثيرة أخبرته بأمرك وانك تحب ابنة الدوق سالانديررا ولكنهم يرفضوا طلبك فاندهل عمك وقال : كيف يرفضون طلبه ؟ قلت لأن الدوق سالانديررا لم يخلف مولوداً ذكراً وهو يود أن يورث ألقابه واسمه لأن أخيه الدون جوزيف قال : انه مصيب في ما يرتثيه ولكن الدوق ماييلي هو قريب الدوق سالانديررا .

ارتعش الدوق وقال : أنا قريب سالانديررا ؟
ربما ، ثم أتمت حديثها متبسمة وقالت ألم يكن أحد أجدادك من أركان الحرب في عهد لويس الخامس عشر .

— نعم .
— ألم يكن من فرقة الشرف التي سارت الى اسبانيا مع الملك فيليب الخامس ؟
— يظهر انك تعرفين تاريخ عائلتي كما أعرفه .
— بل أكثر مما تعرفه فانك لم تكن تدري ان أحد أجدادك هذا تزوج في العاصمة الاسبانية .
— كلا .

— إذن إقرأ هذا الكتاب الطويل الذي كتبه اليك عمك الروسي قبل سفرنا فتعلم ما كنت تجهله .

أخذ الدوق ماييلي الدفتر وجعل يقرأ ما فيه بلهف شديد حتى أتمه وهي حكاية طويلة يظهر منها ان لعائلة ماييلي اتصالاً شديداً بعائلة سالانديررا غير ان هذا النسب مكتوم عن الناس ولكن عمه الروسي قال له في آخر كتابه : ان لديه كتاباً بخط والده الدوق دي سالانديررا وكتاباً آخر بخط رئيس الأساقفة يشتمان هذا النسب وانه مستعد لارسال الكتابين اليه إذا كان زواجه بالتي يحبها

متوقفاً على اثبات هذا النسب .
فلما أتم الدوق قراءة هذه الحكاية لبث هنيئة مفكراً مطرقاً ثم قال : إذا
لم يبق حائل بيني وبين هذه الفتاة بعد موت خطيبها ؟

- ان هذا لا ريب فيه فان الدوق لم يرفض طلبك إلا لوجود من هو أقرب
اليه منك وهو الدون جوزيف ، والآن فلم يبق لدينسا غير أمر واحد وهو
الحصول على هذين الكتابين اللذين أشار اليهما عمك لاثبات النسب ومق وردا
اليك أتعذ بنيل ما تبتغيه من زواج ابنة الدوق ، فاذهب إلى منزلك واكتب
لعمك عن اضطرارك إلى هذين الكتابين ، ثم أرسل لي كتابك هذا فاني أبعث
به مع واحد من خدامي القوزاق
- مق يرد الجواب ؟

- بعد اسبوعين ومضى ورد الكتابان وعادت عائلة سالانديرا الى باريس
أتولى المخبرة عنك في هذا الشأن الخطير على ثقة من النجاح فيه .
فودعها الدوق وخرج وهو يحسب نفسه حالماً لقرب تحقيق آماله

أما باكارا فانها عادت الى قاعة الاستقبالات فأتت أن اختها سريز تنتظرها
فكان سرور الأختين بالتقائهما لا يحيط به وصف فلما سكنت عوامل شوقهما
قالت لها سريز : عجباً كيف تكتبين لي انك وصلت منذ ساعة وأنا
رأيتك أمس ؟

فذهلت باكارا وقالت : أين رأيتني ؟

- رأيته أو خيل لي اني رأيتك أمس في الساعة الثانية في الشارع الكبير
وكنت راكبة في مركبة يحرها حصان واحد فما تماكنت حين رأيتك من أن
أصبح صبيحة دهش واستغرب .

- اني كنت في هذه الساعة قادمة من نانسي وكان بيني وبين باريس عدة
أميال ولا بد أن تكوني رأيت امرأة تشبهني فقد كان منذ ستة أعوام يوجد
امرأة تشبهني أتم الشبه .

فأطرقت سرير وقالت : ربما كانت « هي » .
وقد أشارت بقولها هي الى اختها دون ان تجسر على التصريح باسمها ،
فلم تكترث باكارا لذلك وقالت : إن الخلق يتشابهون .
ولم يخطر لها في فكر ما ستجره عليها هذه المشابهة من بلاء .

- ٢١ -

وفي اليوم التالي لاجتماع باكارا بالدوق مايلي ، بينما كان روكامبول جالسا
في المكان السري ، وهو متنكر بالزي الذي كان يلقي به زامبا ، إذ طرق
البواب ففتح للقادم وكان زامبا الذي عينه روكامبول في خدمة الدوق كما عين
خادمة في خدمة رولاندي لا تخفاه خافية من أعمال الاثنين .

فدخل زامبا وهو يبتسم تبسم الظافر ، فأدرك روكامبول معنى هذا الابتسام
وقال له . ما وراءك من الأخبار ؟
جئتكم بخبر هام .

— ما هو ؟

— تعلم أنه بات للدوق ثقة عظيمة بي بعد ان أعطيته كتاب توصية الغادة
الاسبانية ، فجعلت أدرس طباعه منذ ثلاثة أيام حتى عرفتة حق العرفان ، فهو
يحب ابنة الدوق يا مولاي حبا شديداً وأصبح كل ما لقيني يسألني عنها أسئلة
متواترة تدل على شغفه غير اني كنت أثبت من أسئلته انه لم يكن طامعاً بزواجها
وبقي على هذا اليأس الى ليلة أمس .

فوجف قلب روكامبول وقال : ماذا حدث أمس ؟

— وردته أمس رسالة من الكونتس أرثوف تدعوه فيها اليها . فاضطرب
الدوق عند تلاوتها وهرب مسرعاً الى زيارتها وعاد بعد ساعتين وعليه ملامح

التأثير ولكنه تأثير فرح وصفاء .

— العلك عرفت لماذا ؟

— كلا ، ولكننا سنعرف السبب إذا فتحنا هذا الكتاب الذي عهد إلي الدوق بارساله إلى الكونتس أرتوف قبل أن ينام ، ولا يزال نائماً إلى الآن فإنه صرف ليلته بالقراءة .

— وماذا كان يقرأ ؟

— دفترأ ضخماً ربما جيء به من عند الكونتس .

— سوف نرى .

ثم أخذ الكتاب من زامبا وفتح درجاً فأخذ منه غلافاً يشبهه ، فكتب عليه عنوان باكارا مقلداً خط الدوق أتم التقليد ، وفض الكتاب فرأى في طيه كتاباً آخر إلى ابن عمه في اودسا وكان فحوى كتاب باكارا انه يسألها فيه مراجعة كتابه الى ابن عمه حتى إذ رأته موافقاً أرسلته مع خادمها الى اودسا كما وعدت وكان فحوى كتابه الى ابن عمه انه يطلب اليه إرسال الشهادتين الدالتين على نسبه وقرباه من عائلة سالانديررا .

فلما قرأهما روكامبول اصفر وجهه ولكنه لم يعلم حقيقة هذا اللغز ، فقال لزامبا لا بد لي من قراءة هذا الدفتر الذي أتى به من عند الكونتس .

— غداً يكون عندك لأن لدي مفاتيح جميع خزائن الدوق .

فاطمأن روكامبول وأعطاه كتاب باكارا وذهب به اليها . وفي اليوم التالي عاد اليه بالدفتر فأخذه روكامبول وانطلق به مسرعاً إلى استاذة أندريا فتلاه عليه وأخبره بكتاب الدوق الى باكارا ، ففكر اندريا ملياً ثم كتب على لوحه الحجري : لا بد للدوق مايلي من فوزه مع حليفته باكارا ، إلا إذا استحال على باكارا مساعدته ، وبذلك يجب ان تتم الدور الذي شرعنا بتمثيله

— سنتمه كما تريد .

- لا يلبغني ان يموت الكونت أرتوف لأن موته يدفع باكارا الى الاهتمام بامر الدوق كي تتمزى عما هي فيه .
- إذن فما نفع الدور الذي تريد أن نمثله ؟
- ستعلم النتيجة يوم مبارزته مع رولاند .
- فنظر روكامبول اليه نظرة ارتياب وقال أرى ان الحزن والشقاء قد ذهبوا بصوابك .
- فابتسم أندريا إبتسام الساخر وقال : إنك لم تغير عهدي فيك ، فإنك لا تزال غراً أبهلاً جاهلاً بدقائق أسرار المهنة على طول تمرتك فيها .
- فاستاء روكامبول وأجاب إذا كنت لا تريد قتل الكونت أرتوف فلماذا تريد حمله على المباراة ؟
- ذلك لي أريد أن أصيره مجنوناً في ساعة المباراة .
- أرى اني أنا الذي سيفقد مجنوناً لأنني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .
- ستفهم كل شيء حين الأوان . والآن فان باكارا لا بد ان تكون أرسلت رسولا إلى اودسا للحصول على أوراق نسب الدوق مايلي ، ولا بد لهذا الرسول ان يعود بالأوراق قبل شهر . فلما يرجع لن تستطيع باكارا أن تهتم بالدوق مايلي لانشغالها بزوجها وجنونه وتلطيف سمعتها غير أنها حين ترد اليها الأوراق ترسلها الى الدوق ومضى وصلت اليه عرضها على الدوق سالانديررا إذا فلا بد من الحصول على هذه الأوراق
- لا نستطيع الحصول على الأوراق إلا إذا قتلنا الرسول .
- إن الكرة الأرضية غاصة بسكانها فلا تؤثر عليها نقص واحد او اثنين .
- حسناً وبعد ذلك ؟
- يجب قتل الدوق مايلي .
- فأجفل روكامبول وقال : العلك تريد إرسالني الى المشنقة ؟
- حقا أ تكون معلقاً عليها منذ عهد بعيد ، ولكنك ستنجو منها الآن

كما نجوت من قبل ، وما عليك الآن إلا أن تنفذ أوامري دون أن تعترض علي في شيء .

- ماذا تريد أن أفعل ؟

- أريد ان تذهب إلى ريديكا وتملي عليها هذا الكتاب :

« حبيبي رولاند

« لا أستطيع وأأسفاه أن أكون حرة في هذه الليلة غير اني أرجوك ان تكون في منزلك غداً في الساعة الخامسة فسأزورك فيه » .

« التي تحبك »

فأجاب روكامبول : هذا كل ما ترومه ؟

- هو كل ما أطلبه اليك الان فاذهب عني لأنني أحب ان أستريح .

-- ٢٢ --

فتركه روكامبول ومضى إلى ريديكا ، فأملى عليها الكتاب المتقدم وأرسله إلى رولاند . فذهب رولاند حسب عادته الى جميع أصحابه وجعل يخبرهم بأمر الرسالة ، وكان من الذين أطلعوا على هذا السر روكامبول ، أي صديقه المركيز دي شمري فلما ذهب روكامبول الى منزله لمناولة الغداء لقي صهره فابيان فخلاه به وقال له : أتحب رولاند ؟

- إنني أحبه حباً شديداً ، وفوق ذلك فاني مسؤول عنه أمام والده فإنه يكتب إلي في كل اسبوع يوصيني بالعناية به والحرص عليه

- إذن فاعلم انه سيوقفك بعد اسبوع في أشد موقف لأنه سيدعوك لتكون أحد شاهديه في قتاله مع الكونت ارتوف .

فهم فابيان كنفه وقال : إنني لا أصدق حرفاً من حديث حبه

للكونتس .

- إنك مخطيء في زعمك . فقد زارها أمس في منزل سري في شارع باسي
ثم انها ستزوره اليوم في منزله فانها كتبت اليه .
- لا شك ان الكتاب مزور .

- ربما كان ذلك ، وفي كل حال يجب رده عن تماديه فقل جمل عرض
الكونت مضغة الأفواه ، ومتى عاد الكونت واتصل به شيء من هذه
الأحاديث يقتله لا محالة . والذي أراه أنه يجمل بك الآن أن تذهب اليه
في منزله فانه ينتظرها فيه وتردعه عن هذه الخطة المنكرة فإنك مسؤول
عنه كما تقول :

- أحسنت وها انا ذاهب اليه الآن وعسى ان أوفق لردعه .

ثم افترقا فذهب روكامبول الى النادي وانطلق فابيان الى منزل رولاند
فوجدته وعلائم الجزع بادية عليه فقال له : ما بالك قلقاً ، العلك تلتظر
زيارة أحد .

- إنني أنتظرها أي الكونتس .

- لقد قلت أيها الصديق إنك منخدع ، فان التي تحبها وتزعم انها تحبك
ليست الكونتس ارتوف .
- ومن عسى تكون ؟

- ربما تكون إحدى بنات الهوى لقيتك في بادن فانتعلت هذا الاسم كي
تتمكن من إغوائك .

- وكأن رولاند قد مست كبريائه فقال له : أتريد أن تعلم الحقيقة ؟
- نعم .

- إن الكونتس ارتوف ستكون هنا بعد عشر دقائق ، وسأجتمع بها في
هذه القاعة التي نحن فيها . فاذا أردت ان تتأكد بأنني غير منخدع فادخل
إلى هذه الغرفة المجاورة وانظر اليها من ثقب القفل ، فتعلم الحقيقة إذ تراها

مرأى العين

وما أوشك ان يتم حديثه حتى قرع الباب الخارجي ، فارتعش رولاند وقال : إنها أتت فإذا شئت ان تراها فأسرع الى هذه الغرفة المجاورة .

— نعم اريد ان أراها فأظهر لك انخداعك .

— إذن أسرع بالاختباء .

فامتثل فابيان ودخل الى الغرفة ، ثم أغلق بابها ووضع عينه على ثقب القفل .

وبعد هنيهة دخلت الى القاعة امرأة مبرقعة الوجه وقالت لرولاند :
الملك وحده ؟

فاختلج فابيان لسماعه هذا الصوت وحقق النظر من ثقب الباب ، وكانت قد أزاحت البرقع عن وجهها فكد يسقط على الأرض لدعشه ولشدة تأثيره لأنه رأى الكونتس بعينها ولم يعد لديه شك بما كان يقوله رولاند ، وإنما خدع لشدة الشبه بين باكارا ورببيكا ، حتى ان الناقد البصير لا يستطيع التمييز بينهما إلا اذا كانتا باراء بعضهما . فلما أيقن من انها امرأة الكونت رجع عن الباب فجلس على كرسي في آخر الغرفة كي لا يرى ولا يسمع وهو يقول في نفسه إن المرأة اذا سقطت في هوة الرجس وتدنست بالاثام فلا رجاء باصلاحها ولا تكون مظاهر توبتها غير كاذبة ، فما أشد شقاء من ينخدع بهذه المظاهر ويتزوج إحدى هؤلاء التائبات فان الوحل يحف اذا أصابته أشعة الشمس فيستحيل الى تراب ، ولكنه لا يلبث ان يعود وحلا عند اول رشاش يصيبه من المطر .

أما رببيكا فانها جلست بازاء رولاند وهو يوشك ان يطير سروراً بها وقالت
أتعلم ان الكونت سيحضر غداً ؟

فهدد رولاند الفضاء بقبضتيه وقال : يا ويله اذا اجتمعنا ، فلا يلاقى غير الموت .

- حبنا ما تقول ! ولكن أتدوم على حبي متى أصبحت مطلقة القياد .
- بل أعبدك عبادة وكيف لا أحبك وأنا أريد ان أقتله من أجلك .

فأخذت يده بين يديها وقالت . لعلمي أجد طريقة تجمعني وإياك الى الأبد ،
أما الان فليس لي من سعادة لقياك غير ليلة واحدة سأصرفها برمتها معك ،
ولأجل هذا أتيتك فاذهب الان الى الأوبرا واستأجر اللوج الأول فيها
وأنا وأففيك اليه في الساعة العاشرة ، ثم نعود سوياً الى محل نستتر به حبنا
عن العيون .

- الملك ذاهبة الان ؟

- نعم ، فقد صحبتني امرأة تنتظرني على الباب بالمركبة ، وما هي إلا
رقيبة علي فلا أحب أن أحملها على الرينة بي اذا أطلت الإقامة عندك .
ثم أفلتت من يديه إفلتات الظبي وخرجت وهي تقول : لا تنس الأوبرا .
وبعد ذلك دخل فابيان ، فقال له رولاند أسمعت بأذنك ورأيت
بعميليك ؟

- نعم ، وبشئت الساعة التي علمت فيها هذه الحقيقة الهائلة . والان
فلم يبق لي إلا ان أسديك النصيحة وهي أن تكتنم هذه الحقيقة عن جميع
إخوانك لا إشفافاً على عرض هذا الكونت المسكين ، بل رحمة لنفسك فانه
رجل شديد .

ثم خرج دون ان يسلم عليه لفرط تأثيره . فلما وصل الى منزله رأى فيه
المركيز البرت فريدريك دي شمري ، فسأله عما رأى ، وكأنه لا يعلم شيئاً
عن هذه الحوادث .

فأجاب رأيت ان رولاند لم يكن منخدعاً وان امرأة الكونت أتت بنفسها
اليه وستجتمع به هذه الليلة في الأوبرا في لوج واحد وربما رفعت برقعها وعرضت
وجهها للجميع الحضور .

فرد روكلامبول : إنها قد تقدم على أكثر من هذا ، وعندي ان رولاند

بات مقصياً عليه لا محالة ، فان الكونت أرتوف سيدري بخيانة إمرأته أثر عودته ، فبقتلها ويقتله ثم يقتل نفسه ، غير مكترث بالحياة بعد فقد الشرف .

وعند ذلك دخل الخادم ودفع كتاباً لروكامبول فاصفر وجهه إذ رأى عليه طوابع أجنبية وعلم انه من إبنة الدوق فاستأذن صهره وذهب الى غرفته ليطلع هذا الكتاب

وكان الكتاب من إبنة الدوق وهو يتضمن تفصيل سفرها ، وشدة تأثير أبيها لفقد قريبه . وانقسام حبل أسرته . ثم ذكرت له انه بعد ان خفت لواعج أبيها كاشفتها أمها بأمر الزواج ووصفت لها الدوق دي مايلي مثنية على آدابها ، واشترك معها أبوها فذكره أمامها بالخير مما يدل على رضاه عنه غير ان إبنة الدوق ختمت كتابها بتجديد علائق الحب مع روكامبول وعادت إلى شكره لإنقاذها من الدون جوزيف كأنها تطلب اليه لإنقاذها من الدوق مايلي أيضاً .

فلما أتم تلاوته ذهب به لأندريا وقرأه عليه ، فأخذ لوحه الحجري وكتب عليه : يجب أن تسرع بشأن باكارا ، وان لا تهتم بشأن إبنة الدوق إلى ان تعود .

— ماذا يجب ان أصنع بشأن باكارا ؟

— يجب ان تجد ذلك الطبيب الذي عالجني فانه خبير بجميع أنواع السموم وان بين هذه السموم سماً لا يقتل شاربها ولكنه يذهب بمقله الى حين فاذا تمكنت من الحصول منه على هذا السم بلغتك ما تريد .

— ماذا تبغي ان أصنع بهذا السم ؟

— ستعلم ذلك حين احضاره .

فذهب روكامبول ممتثلاً وهو يفكر في حيلة تمكنه من إغراء هذا الطبيب على إعطائه السم المطلوب .

- ٢٣ -

ولنعد الان الى رولاند فانه ذهب في الساعة التاسعة الى الأوبرا واقام في اللوج الذي اتفق مع ريبيكا أن ينتظرها فيه . وكان جميع أصحابه قد علموا بهذا الموعد فجاءوا الى الأوبرا كي يتأكدوا صدق رولاند . فلما كانت الساعة العاشرة رأوا ان امرأة أدخلت إلى لوجه وجلست بازائه ، ولكنهم لم يتبينوا وجهها لأنها أقامت إلى انتهاء التمثيل دون ان تزيح برقعها . غير ان الفضول دفعهم الى معرفتها فتصدوا لها ولرولاند عند خروجها من اللوج ووقفوا في ممرها ، وكان معهما روكامبول . فلما خرجا ونظرت اليهم أشار اليها روكامبول إشارة خفية فأزاحت البرقع كأنها تريد إصلاحه ، فرآها الجميع وأيقنوا أنها الكونتس أرتوف لشدة ما كان بينها وبين باكارا من الشبه ، ثم اقتفوا أثرهما إلى ان رأوها دخلا إلى منزل رولاند فرجعوا وكلهم يمججون بما رأوه ويتوقعون لرولاند القتل العاجل .

أما روكامبول فانه انفصل عنهم وفي اليوم التالي تشكر وذهب إلى منزله السري ، وأقام فيه ينتظر قدوم زامبا اليه بخبر جديد ، فما طال انتظاره حتى جاءه هذا الخادم وأخبره ان الكونت أرتوف وصلت إلى باريس في هذا الصباح وان امرأته أرسلت الى الدوق مايلي هذه الرسالة فتصفحها روكامبول فاذا هي تخبره فيها بقدوم زوجها وأنها ينتظرانه في هذا المساء وان زوجها ظال اشتياقه الى باريس ونواديها ، فهو ينتظر زيارة الدوق مايلي ثم يذهب وإياه إلى ناديه . فلما أتم قرائتها ردها إلى زامبا وقال له : يجب أن أقف على أخبار سيدك ، كل يوم بالتفصيل . وإذا تعذر عليك القدوم إلي ، فاكتب لي .

فانصرف زامبا ممتثلا ، وبقي روكامبول فجعل يضحك ويقول في نفسه : لقد كنت أبحث عن طريقة أتمكن بها من جمع رولاند بالكونت أرتوف ، وقد

وجدت هذه الطريقة نفسها ، فان الدوق دي ماييلي و رولاند مشتركان في ناد واحد ، وسيأخذ الكونت صديقه الكونت أرتوف إلى هذا النادي فيجتمعان .

ثم غير زيه وذهب الى ريبيكا ، فجلس إلى منضدة وأخرج من جيبه رسالة من خط باكارا فقد خطها تقليداً عجبياً ، وكتب رسالة بهذا الخط المقلد الى رولاند وأعطاهما لريبيكا وقال لها : إذهبي بها في الساعة العاشرة إلى منزل رولاند .

— أليكون فيه ؟

— كلا ، بل يكون في النادي . لكنك تعطين هذه الرسالة إلى خادمه وتأمريه ان يذهب بها إلى سيده في النادي فيمثل أما أنت فلأنك تدخلين الى المنزل وتنتظريه فيه الى ان يحضر فتقيمين معه ساعة ثم تذهبين دون ان تحددى له موعد آخر .

— أهذا كل شيء ؟

— نعم ، وتقولين ايضاً ان زوجك الكونت أرتوف قد ذهب الى النادي مع الدوق ماييلي فاغتنمت هذه الفرصة للحضور اليه ثم أعطاهما الرسالة وعاد الى منزله فتلبس بلباس الماركيز ومضى الى منزل اخته المراكزة .

وفي الساعة العاشرة من المساء ذهب مع صهره فابيان الى النادي وكان فيه رولاند وأوكتاف ومعظم أعضاء ذلك النادي الذين كانوا واقفين على سر رولاند . وفيما هم جالسون على طاولة اللعب اذ ورد كتاب الى فابيان من الكونت أرتوف يقول فيه أنه قادم الى النادي مع الدوق دي ماييلي وهو يرجو أن يراه فيه . فأوقف فابيان روكامبول على هذه الرسالة وقال له : إن الكونت سيلتقي الآن برولاند ، وعندى أنه يخلق بنا إبعاد رولاند تلافياً لهذا اللقاء

فأجاب روكامبول وماذا عليه من هذا اللقاء ، أحسب ان رولاند سيقول
للكونت اني أحب امرأتك ؟
. كلا ، ولكنه سيقف معه موقف الوقح المنتصر فيشير منه الظنون فقير
له ان تحتال في إبعاده

— إن ذلك محال ، فإنه يلعب الآن وفوق ذلك فإنه يخسر فلا سبيل
الى إخراجهم .
فالتفت فابيان الى جهة الباب وقال : لم يعد سبيل الى ذلك فان الكونت
قد حضر .

ولم يتم كلامه حتى دخل الكونت أرتوف والدوق دي ماييلي فأقبل الجميع
يهنئون الكونت أرتوف بعودته وينظر بعضهم الى بعض ويتغامزون . وقام
فابيان فسلم عليه وقام له روكامبول فاحتفل به الكونت احتفالاً عظيماً ،
وقد تنكر عليه فلم يعلم ان هذا المراكز الجديد قد وضعه منذ خمسة أعوام
في كيس والقاه في النهر . ثم جاء به الدوق ماييلي الى طاولة اللعب التي كان
عليها رولاند وعرفه بجميع من كان حولها حتى انتهى الى رولاند فحيياه
الكونت باحترام وقال له . إني أغتم هذه الفرصة لشكرك يا سيدي باسم امرأتي
التي أنقذتها من الموت فإنها مدينة لك بحياتها .

فتناظر الحضور نظرات الهزء . أما رولاند فإنه اكتفى بأن يقول له : اني
عملت واجباتي .

وعاد الى اللعب وعلائم عدم الاكتراث بادية عليه فهمس روكامبول باذن
صهره وقال ما هذا الأبله ؟

فتنهده فابيان وقال . إنه يسعى الى حنقه بظلمه ، إذ لا بد أن
يقتله الكونت .

ولما رأى فابيان قحة رولاند خشي وخامة العاقبة فاقترح على الكونت
كي يشغله عن مراقبة الحضور ان يدخل معه ومع روكامبول والدوقة الى

غرفة فائبة فيلمعون بالورق ، فقبل الكونت شاكرأ ودخلوا جميعهم الى الغرفة وبدأوا باللعب .

وخلا الجو لرولاندررفقائه فجعلوا يبحثون في شأن الكونت ورولاندر كما يريدون من هازيء به ومشفق عليه ، كل ذلك ورولاندر يبتسم ابتسام المنتصر الى أن قال أحدهم : لا شك ان الكونت غير مرتاب بشيء وإلا لما وقف الأمر عند هذا الحد .

فقال آخر : ولكن رولاندر اصفر وجهه عندما رآه حتى يقال انه اضطرب وخشي من ان ينظر اليه .

فتحمس رولاندر وقال : لقد أخطأت أيها الصديق ، بل اني سأبحث عنه وأجلس وإياه على طاولة واحدة كي تعلم اني لا أهاب نظراته .

ثم ترك اللعب وذهب يبحث في غرف النادي حتى انتهى الى الغرفة التي كان فيها الكونت ، فدنا من الطاولة التي كانوا يلعبون عليها وجلس تجاه روكامبول واشترك معهم باللعب وكان الكونت جالسا في الجهة المقابلة له ، غير انه كان منهمكا باللعب فلم ينتبه الى ما كان يظهره رولاندر من القحة والميل الى إظهار العداء ، ولم يكن يخشى سوء عاقبة هذا الاجتماع غير فابيان .

وفيما هو يلعب مع اللاعبين إذ دخل خادم النادي وقدم له كتابا ففضه والقى الغلاف الى الأرض ثم ما لبث ان تلاه حتى ابتسم ابتسام الطافر وأعطاه لروكامبول وهو يقول له بصوت منخفض : إنه منها كأنه نسي أن الكونت مقيم بينهم .

فعلم فابيان أن الكتاب من باكارا ، فنهض عن كرسيه وأسرع فاختطف الكتاب من يد روكامبول وقال لرولاندر بصوت المؤنب المازح : إنك لا تشفق على أحد . اليس من الظلم أن تشلم عرض هذه الممثلة ، وانت تعلم انها ذات زوج ؟

وبينما رولاند في انذهاله من هذه المفاجأة ولا يعلم أيغضب ام يضحك لقول صديقه أدنى فابيان الرسالة من الشمعة وأحرقها بحيث لم يبق من أثرها غير الغلاف الذي القاه رولاند على الأرض ثم قال له: إذهب ايها الصديق الى موعدك وكن حريصاً على الأعراض .

فقام رولاند وقد نسي كل شيء عند ذكر الموعد وسلم بملء القعدة وخرج فذهب للقاء ريبيكا التي يحسب انها باكارا وعاد اللاعبون الى اللعب غير ان الكونت كان مقطب الجبين لا سيما من كل ما أجراه رولاند .

وبعد ساعة فرغوا من اللعب فذهب فابيان والدوق دي ماييلي الى منزلها وبقي روكامبول والكونت فأخذ كل منهما جريدة من جرائد المساء وجعل يطالع أنباءها ، وكان روكامبول يقرأ ويراقب الكونت فيراه ساهي الطرف والجريدة بيده كأنه يفكر بتملك الرسالة وإسراع فابيان الى اختطافها وإحراقها الى أن أبعد كرسيه ورجع بها الى وراء ، فالتفت وهو يصلحها الى الأرض فرأى غلاف الرسالة فأنحنى وأخذه وما كاد يقع نظره على خطه حتى اصفر وجهه اصفراراً شديداً ، وأوشك ان يسقط من اضطرابه ، فقال روكامبول في نفسه : لقد قضى الأمر وعرف الخط .

ثم ترك الغرفة وانصرف وهو فرح القلب بنجاح مساعيه وهو يقول في نفسه : إن الليل قد انتصف فإذا لم يحدث شيء فوق الحسبان فإن الأمور تجري على ما أريد وذلك ان باكارا اما تكون قد عادت من عند اختها أو ان تكون باقية عندها فاذا كانت قد عادت فان الكونت قد تدفعه الغيرة والغضب الى قتلها ، واذا كانت لم تعد فلا بد للكونت من الذهاب الى رولاند وفي كلتا الحالتين فان الفوز لي .

أما الكونت ارتوف فانه كان كما أعاد النظر الى خط الغلاف يزيد اضطراباً فانه يقن ان الخط خط امرأته وانها هي التي راسلت رولاند ثم يقن ان هذا الرجل أنقذها من الغرق وانه كان يرسلها وقد حاول ان يزورها عدة

مرات وان فابيان بل جميع أعضاء النادي واقفون على سر علائقتها مع رولاند وخطر له ان فابيان لم يحرق الرسالة الا لأنه يعلم بما فيها وان نظرات اصحاب رولاند وتغامزهم لم تكن الا عليه فهاجبت به الغيرة حتى اوشك ان يجن واسرع الى الخروج من النادي الى منزله .

ولما وصل اليه رأى مركبة على الباب فسأل البواب : لمن هذه المركبة ؟ فأخبره انها لامرأته .

— متى عادت ؟

— الآن .

فصعد الكونت الى غرفتها وكانت لا تزال بالملابس التي كانت فيها عند اختها سريز وهي باسمة الشعر طلقة الحيا وعليها جميع دلائل السرور ولكنها ما لبثت ان نظرت الى زوجها حتى راعها اصفراره فقالت له : ما بالك العلك لعبت ففسدت ؟

— العلك نقص مالي ينقص من حبك لي .

ثم وضع يده على جبينه كمن يريد ان يفتكر قبل ان يقدم على امر هائل ، فأعاد هذا التفكير بسكينه وقال لها : اتسمعين لي ان اضع يدي على قلبك ؟ فلم تفهم باكارا شيئاً من مراده واخذت يده ووضعتها على قلبها فكان ينبض النبض العادي وكانت شفتاها تبسمان فقالت له : ما بالك ايها الحبيب وما هذه الأمور التي تجريها العلك جننت ؟

— كلا ، ولكنني على وشك الجنون . اتسمعين لي ان أسألك بعض الأسئلة ؟

فابتسمت وقالت سل ما تشاء ، يا حضرة قاضي التحقيق والسري ، فلعلني مذنبه !

فقال الكونت ببرود : لا اعلم فقولي لي متى عدت ؟

— الآن .

— من عند اختك ؟

- دون شك فاطرق الكونت يفكر ثم نظر إلى باكارا فرآها هادئة ساكنة لا أثر في وجهها للاضطراب . فقالت له باكارا ، يظهر انك غيور .
- هذا اكيد .

- إذن فتصرف بما أعطيته من سلطة الزواج وسل ما تشاء .
- أما قلت لي مرة أن رولاند دي كايلت أرسل لك عدة رسائل كاشفك فيها بغرامه ؟

- نعم ، وقد فعل ذلك في بادن ثم عاد اليه في مدينة هلدبرج حين أنقذني من الغرق .
- يظهر انه بات له عليك حق انقاذك من الموت .

- إنني أعرف هذا الشاب فهو في مستقبل العمر كثير الغرور فقد لا يبعد أن يكون روي حادثة غرقى وانقاذي رواية خدشت سمعي واتصلت اليك غير اني التمس منك أمراً .
- سلي ما تشائين

- انك دعوت بعض الاصدقاء إلى شرب الشاي عندك في مساء غد فاذن لي أن أدعوا هذا الفتى فنشكره لأنقاذي من الغرق وبعد ثمانية أيام يرسل اليك بطاقة زيارته حسب العادة فترسل له رقعته وبنتفضي كل شيء كما أرجو . فانسا مدينون لهذا الرجل .

- أهذا كل ما تريد أن تقوله ؟

- وما أقول غير هذا ؟

- ألم تنظريه بعد عودتك إلى باريس ؟

فقالت بلاء السكينة : كلا .

فاقتنع الكونت بعض الاقتناع لما رآه من سكينتها ولكنه قال : انه أمر غريب .

فأخذت باكارا يده بين يديها وقالت : أوضح لي كل شيء أيها الحبيب انك

طاهر القلب ذبيل وأنت تعلم اني أحبك حباً شديداً فلا يخلق بي أن أقف أمامك موقف المجرمين .

- وهذا الذي يسؤني .

فاجفلت باكارا وقالت بلمجة السيادة اني أسألك بدوري فاجبني من أين أتيت ؟ وماذا سمعت ؟ وماذا قيل لك ؟ ..

- اني أتيت من النادي الذي ذهب بي اليه الدوق دي مايلي وقد لقيت فيه رولاند دي كايلت ولقيت من قمحة ما لا أنساه

- لا ينبغي أن تعجب من قمحة فقد تجاسر أن يرسل لي رسائل غرامه وهو لا يكاد يعرفني أهذا كل شيء ؟

- كلا فقد كان هذا الفقى مع فريق من اصحابه وكلهم على شاكلته فسكانوا ينظرون إلي نظرات تهكم ويتغامزون .

- انه لأمر خطير كما يظهر فلا بد أن يكون رولاند قد اختلق عني ما يمسني وفي هذه الحالة فلا بد من تأديبه ، وبعد ذلك .

- وبعد ذلك فانه بينما كان رولاند جالساً على طاولة اللعب أحضر له خادم النادي رسالة ففحصها وقال : ان هذا الكتاب ورد اليه من سيده لها مقام كبير وهي تلتظره في منزله ثم رمى الغلاف إلى الأرض وأعطى الرسالة إلى المريكز دي شمري الذي كان في جواره فاسرع فابيان إلى اختطافها واحراقها وبعد ذلك ذهب اللاعبون وذهب رولاند فلما وجدت نفسي وحيداً في الغرفة أخذت المغلف عن الأرض وعدت به اليك وهذا هو .

فأخذته باكارا وما اوشكت ان تقرأ العنوان وتبين الخط حتى اصفر وجهها ثم وثبتت عن كرسيها منذرة كأنما لسمعتها أفعى وقالت : رباه ماذا أرى فان الخط خطي لا ريب فيه فمن زور هذا العنوان ومن كتب بيدي ؟ ثم سقطت على كرسيها وهي قريبة الاغماء وكانت جميع مظاهر اندعارها واضطرابها صادقة لا سبيل إلى الارتياب فيها حتى أن الكونت جثا أمامها

على ركبتيه وقال أسألك العفو فإني تجامرت على إساءة الظن بك .
فأنقضته باكارا وقبلته يمينه ثم قالت له وكيف لا تشكك وبيدك مثل
هذا البرهان ؟

— مهما كان من أمر هذا البرهان فما كان ينبغي ان أشك بك على ان هذا
الرجل التمس لا بد ان يموت غداً ، وها أنا ذاهب لآعين شهودي ونتفق على
موعد المبارزة .

فأوقفته باكارا وقالت : بل إبق هنا واصنع لي فتعلم لي غير خطئة .
— قولي ماذا تريد ان أصنع ؟

فأخذت باكارا الغلاف وقالت : إن هذا الخط يشبه خطي شهماً غريباً ،
فإذا ان يكون رولاند قد تمكن من تقليد خطي كي يفتخر أمام إخوانه
بملائقته معي ، وإذا ان يكون هذا التشابه من قبيل الاتفاق كما يتفق
تشابه الوجوه . ويكون رولاند يحب امرأة يشبه خطها خطي من قبيل
هذا الاتفاق

— إن هذا مستحيل .

— لا شيء مستحيل في الأرض .

— إذا كان رولاند يحب امرأة يشبه خطها خطك فما معنى هذه النظرات
من إخوانه وما معنى تغامزهم علي ؟
— هل انتقدت على هذه النظرات قبل ان تعثر بالغلاف ؟
— كلا .

— إذن فقد أثار بك الغلاف هذه الهواجس ، ومثل لك هذه النظرات
تغامزاً عليك . على اني لا أزال أقول ان رولاند إما ان يكون تعساً مجرمًا
وفي هذا المقام فلا بد من عقابه شر عقاب بعد إظهار جريمتيه للجميع ،
وإما ان تكون هذه الخيانة من عند الصدفة والاتفاق ... انظر إلي أيها
الحبيب ، وسل نفسك : أيكن لامرأة رفعت مقامها حق بلغت اليك

وتجاسرت على حمل اسمك الشريف ، أن تبليغ من نكران الجيسل الى حد الخيانة .

ثم شهمت بالبكاء فعن الكونت اليها وضما إلى صدره وقال : إني أريد ان أعرف العالم أجمع إنك خير امرأة على الأرض .

ثم سكت الاثنان سكوناً قصيراً الى ان بدأت باكارا الحديث فقالت :
أتأذن لي ان أتولى هذا الأمر بنفسى كما كنت تأذن لي من قبل .
— نعم فافعلي ما تشائين .

— إني سأدع رولاند الى شرب الشاي عندنا غداً وانت تراقبه كما تريد حتى اذا تجاسر على ان يخرج عن حدود الاحترام سلمته اليك .
— حسناً فليكن ما تريد .

فقامت عند ذلك إلى منضدة وكتبت الى رولاند هذه الرسالة :

« سيدي

« لم أنس إني مدينة لك بالحياة ، فأذن لي ان أشكرك بذلك وان ادعوك الى زيارتنا مساء كي تشرب الشاي عندنا مع بعض الأصدقاء كي أظهر لك شكري وامتناني » .

« الكونتس ارتوف »

ثم طوت الرسالة وتركها على المنضدة كي يأخذها الخادم صباحاً الى رولاند وبعد حين ترك الزوجان الغرفة التي كانا فيها ودخلا الى غرفة النوم وكل منهما يفكر في شأن .

وفي الوقت نفسه فتح باب ودخل منه زامبا فانقض على الرسالة وقرأها ثم نسخها وأخرج دون ان يشمر به أحد . فذهب توأ الى منزل روكامبول السري إذ قال له انه ينتظره فيه الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل فلما رآه روكامبول علم انه يحمل خبراً جديداً ، فقال له : ما وراءك من الأخبار ؟ فأطلعه زامبا على نسخة الرسالة فسر روكامبول سروراً عظيماً بها ، لأنه

لو لم يقف عليها لذهبت جميع مساعيه أدراج الرياح ، ثم أطلق سراح زامبا وواعده إلى الغد ، وانطلق بعد ذلك إلى ريبيكا فأمسى عليها كتاباً لرولاندا وانصرف .

- ٢٤ -

وفي اليوم التالي أقبل اوكتاف على صديقه رولاندا قبل ان يخرج من منزله فقال له : إني أراك باسم الشجر فرح القلب ، فما شبك إلا فرنسوا الأول الذي كان ينام على مركبة المدفع ليلة القتال .

- كيف ذلك ؟

- ذلك لأنني أراك قريبا العين ناعم البال كأنك غير خائف من شيء .

- وما أخاف ؟

- من الكونت ارتوف .

- لا أعلم لماذا يجب أن أخافه .

- لأنه سيعلم قريباً بكل شيء فتتبارزان وقد روي عنه أحاديث كثيرة تدل على شدة هوله في المبارزة فإنه ما بارز خصماً إلا قتله .

- أنا سأقتله فإن الشواذ من لوازم كل قاعدة .

وفياهما على ذلك إذ دخل الخادم يحمل كتاباً إلى رولاندا فأخذه وفضه مسرعاً لأنه عرف الخط وقرأ ما يأتي :

« حبيبي رولاندا

« إني اكتب اليك في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل مغتمة فرصة رقاد زوجي الظالم لأخبرك بأنه قد ثارت عاصفة وستنقض على رأسي ، كأن الليالي قد غيظت من تساقينا الهوى فدعت بأن نغص وذلك في أخطأت خطأ

عظيماً حين كتبت لك أمس بخط يدي الحذري من وصيفي التي استكتبها
فحرقته رسالتي ، ولكنك أبقيت الغلاف فوقع بيد زوجي الكونت وعرف
الخط ، وجاء إلي وهو يتميز من الغضب وكنت قد رجعت من عندك حق
خشيت ان يقتلني ولكني قد تشجعت وهبت لي قوة عظيمة تجاه هذا الموقف
الخطر فكذبت وأنكرت وقلت تشابه الخط من قبيل الاتفاق وهو يتشابه
كما تتشابه الوجوه فصدقتي ولكنه بقي له شيء من الريبة بي ، فطلب إلي ان
أدعوك كي تشرب الشاي عندنا مساء غد وغرضه من هذه الدعوة ان يراقبتنا ،
ويتمعن بمحركاتنا ونظرنا فاحذر من ان تبدر منك بادرة ايها الحبيب فان نظرات
الحبين لا تخفى على الحاذقين ولا تتجاوز معي حد الاحترام وأنا سأكون كذلك
فأمثل البساطة والطهارة خير تمثيل فاذا اقتديت بي وكنت حكيماً نجوتنا وعدنا
إلى ما كنا فيه .

« والآن فلنني استودعك الله الى الغد . كلا فلنني سأكون غداً غريبة عنك
إذن استودعك الله الى لقاء تمده لنا الصدفة ... احبك . »

وكانت هذه الرسالة خالية من التوقيع فلما أتم رولاند تلاوتها دفعها إلى
اوكتاف فقرأها وقال : إني اود ان أخسر سنة من حياتي وأكون مدعو إلى تلك
الحفلة كي ارى ما يكون منك فيها .

وعند ذلك طرق الباب مرة ثانية ودخل الخادم بكتاب آخر وكان هذا
الكتاب من باكارا الحقيقية تدعوه فيه إلى شرب الشاي في منزلها كما اتفقت على
ذلك مع زوجها .

وفي الساعة التاسعة من المساء ذهب رولاند إلى منزل الكونت ، وكان
عدد المدعوين قد تم وبينهم روكامبول وصهره . فكان روكامبول خائفاً من أن
تعرفه باكارا ، ولكنه اطمأن لأنه حين قدم لها باسم المريكز دي شمري حادته
بأمور كثيرة فلم يظهر منها شيء يدل على ريبتها به . أما رولاند فانه كان
يعامل باكارا ببلء الاحترام والكونت يراقبه ، فلم ير منه ما يدل على شيء من

آثار الحب . فلما انقضت السهرة وانصرف المدعوون كانت رولاند آخر المودعين فقبل يد باكارا في أشد حيرة لأنها لا تعلم ما كان يعنيه بهذا الامتنال إذ لم تأمره بشيء ولكنها قالت في نفسها إنه ربما كان يريد بذلك انه لم يزرني في مدينة هدمبرج لأنني لم أدعه فعند ذلك امتثالاً .

ولما انصرف الجميع عادت الى زوجها فقالت له : ماذا رأيت ؟
- رأيت اننا ظلمنا هذا الشاب بريبتنا به ، فإني لم أر منه إلا كل احتشام وأدب .

وفي اليوم التالي خرج الكونت يتنزه بعد الظهر على جواده حتى وصل الى محل تباع فيه أشهر المرطبات ، وهي حديقة مقسمة الى غرف صغيرة يفصل بينها خشب رقيق . فدخل إلى إحدى هذه الغرف وطلب كأساً من الشراب ، وفيما هو يشربها سمع صوتاً من الغرفة المجاورة لغرفته عرف انه صوت اوكتاف الذي تعرف به أمس في النادي ، فأصغى بالرغم عنه الى حديثه مع رفيقه فسمع اوكتاف يقول : كنت أود أن أكون أمس في الحفلة التي كانت في منزل الكونت أرتوف .

فأجاب رفيقه : لا بد ان يكون رولاند قد تصرف بحشمة وأدب .

فارتعش الكونت وقال في نفسه : لماذا يتكلمان عن رولاند في معرض الكلام عني ؟

فقال اوكتاف يحدث رفيقه : إني لقيت رولاند اليوم فأخبرني ان كل شيء قد تم على مرامه .
- كيف ذلك ؟

- ذلك ان رولاند كان يمثل رواية في ما أبداه من مظاهر الحشمة ولكني أعجب من الكونتس كيف انها كانت باسمه الشجر ماهرة باظهار عدم الاكتراث وإخفاء مظاهر الحجل ، حتى انها كانت تحدث رولاند كأنها قد رأته للمرة الأولى .

فقال له رفيقه : لا تثق بأقوال رولاند فإنه كثير الغرور مهذار .

— بل أنت ثق بأن الكونتس تحبه .

— رأيتهما في منزله ؟

— كلا ولكنني رأيتهما معه في الأوبرا .

— أكانت مسفرة عن وجهها ؟

— كلا ، ولكنها عند خروجها من اللوج الذي كانت فيه مع رولاند

تصدت لها في الممر ورأيتهما قد أبعدت البرقع عن وجهها فعرفتھا

فشعر الكونت ارتوف عند سماعه هذا الكلام ان العرق البارد ينصب من جبينه . أما اوكتاف فإنه أتم حديثه فقال : وفوق ذلك فاني صديق رولاند وهو لا يكتف عني امرأ ويطلعني على جميع رسائله ، وقد علمت منه ان الكونتس كانت تستقبله في منزل في شارع باسي ، ثم اني كنت عنده في صباح أمس فورد اليه كتاب أوقفي عليه . وكان من الكونتس وقد قالت له فيه : انها ارسلت كتاباً آخر غير هذا يتضمن دعوته الى منزلها غير ان هذا الكتاب كان بخط وصيقتها ، والكتاب الآخر المتضمن للدعوة كان بخطها . فان باكارا تعرف ان تحذر .

— ولكن رولاند يسمى إلى حتفه بظلمه فان خصمه قوي شديد

فقال اوكتاف : لقد قلت مثل هذا القول لرولاند وان من يحسر على الزواج

بباكارا لا بد أن يكون من الأشداء .

غير ان اوكتاف قبل ان يتم كلامه سمع من ورائه صوتاً شديداً صاعق له فالتفت فرأى أمامه الكونت ارتوف وقد اصفر وجهه فأصبح كالأموات وجعل الشرر يقذف من عينيه وانقض على اوكتاف وشد عليه فألقاه على الأرض راکعاً ثم قال له بصوت يتهدج من الغضب : أنا هو الكونت ارتوف ولا ينبغي عن قتلك الآن غير ما أجده من حداثة سنك وانه لا بد أن يكون لك أم تبكي عليك ثم لا ينقذك من قبضي غير امر واحد .

وكان هياج الكونت شديداً حتى ان هذين الغلامين باقا يرتجفان أمامه كما يرتجف التلميذ المسيء أمام معلمه وجعل أوكتاف يعتذر فأنهضه الكونت وقال له : إنك لا تنجوا مني إلا اذا أقسمت لي بأنك تذهب الى منزلك فتقيم فيه يوماً وليلة لا تخرج منه ولا ترى رولاند .

فأقسم أوكتاف فقال الكونت : إحدرك من أن تنكث عهدك إذا أردت أن تسلم من الموت فأني لا أريد قتلك بل قتله .
ثم أطلق سراحه ، فأنصرف مع رفيقه وهو يقول : لقد قضي على رولاند القضاء المبرم

٢٥ -

يذكر القراء ذلك الطبيب الذي عالج أندريا وأزال عن وجهه آثار ذلك الوشم الذي كان يشوهه أيما تشويه وقد كان لهذا الطبيب شهرة بعيدة في باريس وفي المنتديات العلمية ، ولا سيما بالسموم ، إذ كان من أشد الأطباء خبرة بها وكان هذا الطبيب واسمه صموئيل يقيم في منزل واسع تكتنفه حديقة غناء ، فيصرف معظم أوقاته بالبحث والمطالعة والوقوف على الدقائق العلمية .

ففي اليوم نفسه الذي كان فيه الكونت أرتوف يتنزه وقد لقي أوكتاف وسمع منه تلك الكلمات الهائلة كما تقدم ، كان روكامبول قد ذهب لزيارة صموئيل الطبيب ، فأوقف مركبته خارج الحديقة ودخل به الخادم الى الغرفة التي كان يشتغل فيها الطبيب وكان يدعوها غرفة السموم لوجود جميع أنواعها فيها بين قاتل ومشوه ومنغن وذاهب بالعقل الى غير ذلك .
ولما دخل روكامبول كان الطبيب جالسا على طاولة وعليها كثير من

الكتب صف بعضها فوق بعض ، بحيث باتت تحجبه عن عيون الداخلين ، وكان يفحص بنظارة إحدى الأوراق السامة فحصاً مدققاً حول انتباهه اليها بحيث لم يشعر بدخول المركيز اليه الا حينما نبهه الخادم وأعلن له اسم المركيز دي شمري . فأسرع الطبيب لاستقباله وقابله بمقابلة تسدل على علو مكانته عنده فقال له روكامبول أسألك المذرة عن مضايقي لك في أشغالك ولكني مررت ببابك فذكرت أني مدين لك باصلاح هذا البحري المسكين (يشير الى أندريا) وإني تأخرت عن إظهار امتناني لك الى الآن فأنتيت كي أصلح هذا الخطأ .

ثم أخذ من جيبه ورقة مالية بقيمة الف فرنك ووضعها بلطف واتضاع على الطاولة . ثم لما انتهى من حديث المجاملة قال له روكامبول : ألا تزال عاكفاً على طاب العلم والتنقيب عن غوامضه ، ألم يكفك ما بلغت اليه وأنت اليوم إمام العلماء وحجة الأطباء ؟

فأجابه الطبيب باتضاع ورفق : إن هذا العلم يشبه أعماق الأوقيانوس الهندي التي يطلبها الغواص لاستخراج اللؤلؤ . فهو كلما غاص فيه يزيد عثوره على غبائته ، ثم يخرج لسطح الماء وقد كادت أنفاسه تنقطع فلا يلبث ان يملأ رئتيه من الهواء ويستريح حتى يعود الى ما كان فيه من الغوص واستخراج اللؤلؤ الثمين . وهكذا العلماء فإنهم يغوصون في لجج هذا العلم ، فكلما اكتشفوا شيئاً بدت لهم أشياء لم يروها من قبل فلا يزالون على ذلك الى أن تتلاشى قواهم ولا يستطيعون أقل جهد .

فقال روكامبول إذن فما نقول نحن الجهلاء إذا قضي علينا أن نندمج معكم ونفوص في هذه اللجج كل يوم ؟

فابتسم الطبيب وعاد روكامبول الى الكلام فقال : لقد كنت أمس في مجلس دار فيه الحديث على العلم والعلماء ، فجعلتك سمر هذا الحديث وقلت ان لديك مجموعة من السموم الهندية لا يوجد منها في أوروبا، منها ما يميت ومنها

ما يشفي من الموت .

فابتسم الطبيب وقال : بل منها ما يذهب بالعقل ، ومنها ما يشفي من الجنون .

— إنى أعرف هذا السم الذي يذهب بالصواب .

— إن هذا الذي تعرفه مشهور في أوروبا ، ثم إن الجنون الذي يحدثه لا يكون إلا وقتي .

— وقد سمعت أحدهم يذكر سمًا هندياً من مدينة جافا يقول انه إذا شربه المرء جن جنوناً طويلاً .

— إن لدي منه في مجموعتي أتريد ان تراه ؟

— لا بأس فقد رويت حكاية عن تأثير هذا السم تشوقت بعدها أن أراه .

فقام الطبيب الى واجهة معلقة في الجدار وأخرج الزجاجاة الثلاثة من الصف الأول وجاء بها الى روكامبول فرآها تحتوي على رشاش يشبه الدقيق فحكى له الطبيب تاريخ هذا السم وقال : انه ورق شجرة لا تنبت إلا في جافا يؤخذ ورقها فيجفف ويسحق حتى يفقدو كما تراه . فإذا وضع درهم من المسحوق في كأس ماء او شراب وشربه المرء جن وبقي مجنوناً مدى الحياة . غير أن الغريب في هذا السم انه الداء والدواء في حين واحد ، فإن شارب لا يشفه منه إلا به ، وذلك بأن يسقى منه ثانية مقادير لا سبيل إلى بيانها لتعلقها بحالة المسموم به وأعراض جنونه ومدتها إلى غير ذلك مما لا يفهم تفصيله غير الأطباء .

فأظهر روكامبول عجباً شديداً بملء البساطة وذهب الدكتور فأرجع الزجاجاة الى محلها . وفيما هو عائداً الى روكامبول ، إذ فتح باب الغرفة بعنف ودخل اليها خادم الطبيب ووراءه اثنان عليهما ملامح الذعر وهما يصيحان : أدركنا ..

— ماذا حدث ؟

فقال أحدهما إن أحد خدم البيوت الكبيرة لطمته مركبة فسقط على باب منزلك وهو لا يعي

فاعتذر الطبيب وقال له لقد عيملتك حارساً لغرفتي الى ان أعود .

ثم خرج في أثر الجماعة لمعالجة الخادم المغمي عليه على باب الحديقة الخارجي حتى وصل إلى هذا الرجل المغمي عليه فنزع عنه ثيابه وفحصه فحصاً مدققاً فلم يجد به أثراً لرض أو جرح . فأمر ان ينضحوا وجهه بالماء البارد ويدلكوا صدغيه بالخل ففعلوا ووقف بينهم ينتظر النتيجة . ولم تمض هنيهة حتى استفاق الرجل كأنه لم يصب بشيء . ولم يكن هذا الماكر إلا زامبا ، صنيعة روكامبول .

بينما كان الطبيب يعالج هذا المريض الكاذب كان روكامبول وحده في غرفة الطبيب وقد عرف موضع الزجاجة فأسرع اليها وأخذ منها المقدار السكافي لجرعتين او ثلاث . ثم وضع هذا الرشاش في ورقة وطواها كما يطوي الصيدلي مثل هذه الأوراق ووضعها في جيبه ، وبعد ذلك أرجع الزجاجة الى موضعها وجلس على كرسيه ينتظر عودة الطبيب وهو يقول لقد أجاد زامبا غاية الإجادة في تمثيل دوره ، ولا سيما انه ترك لي الوقت اللازم لمباحثة الطبيب ، وسأجازيه خير جزاء . ومهما أعطيته يكون قليلاً بالقياس إلى ما سأقبضه من ملايين ابنة الدوق فإن درهماً واحداً من هذا الرشاش يشغل باكاراً بزوجه وجنونه .

وما زال يعمل النفس بهذه الأمانى إلى ان عـاد الطبيب فجالسه ساعة وانصرف عائداً إلى منزله وهو يحسب انه نال السعادة بهذا الرشاش حتى إذا وصل الى منزله رأى على بابه مركبة ، فسأل الخادم . من الذي قدم فيها ؟

الكونت أرتوف جاء لزيارتك وهو الآن في القاعة مع صهره .

فأسرع روكامبول الى القاعة وقد أيقن ان الكونت قد عرف كل شيء .

فلما دخل رأى الكونت واقفاً وعيناه متقدتان ، ورأى فابيان مضطرباً أشد الاضطراب ولكنه سر عندما نظر روكامبول كأن عينيه كانتا تقولان لقد أتيت في حين الحاجة اليك . فوقف روكامبول في باب القاعة وجعل ينظر الى الاثنين نظر الفاحص المنتقد واليك السبب في زيارة الكونت .

بعدما لقي الكونت أرتوف أوكتاف ، وعرف منه خيانة امرأته على ما تقدم ، خرج من الحديقة فأمر الخادم ان يذهب بجواده الى منزله وركب مركبة وأمر سائقها ان يذهب به الى منزل الماركيز دي شمري وكان غرض الكونت ان يرى فابيان ، لأنه تذكر ان فابيان اختطف الرسالة التي وردت لرولاندي في النادي وأحرقها فقال في نفسه : انه لا بد ان يكون فابيان واقفاً على سر رولاندي فان هذه الحادثة وما علمته من أوكتاف وتغامز أعضاء النادي جميع ذلك كان يثبت خيانة باكارا أتم الثبوت

ولكنه كان لا يزال يحب امرأته حباً عظيماً ، فأراد ان يقف على الحقيقة من فابيان لشدة وثوقه بنبيله ، ولهذا فإنه لم يذهب الى منزله بعدما علمه من أوكتاف حذراً من ان يدفعه الغضب الى قتلها ، وكان لا يزال يحبها الى الآن ولكن حب قنوط .

وكان فابيان في ذلك الحين مقيماً في غرفته يكتب فيها بعض الرسائل . فلما دخل عليه الكونت أرتوف ورأى ما كان عليه من الاضطراب أجفلس لرؤيته وخف لاستقباله ، غير ان الكونت بقي واقفاً في مكانه وقال له : إني أثبت لأحدثك بشأن خطير ايها الصديق ، فقل لي الست بصديق رولاندي دي كايلى ؟

فاختلج فؤاد فابيان لذكر اسم رولاندي وقال : نعم ولا ، وذلك لأن بيني وبين هذا الفتى عشرة أعوام فلا يصح ان يكون عشرين ولكن أباه صديق لأبي وقد أوساني به خير وصاية .

— لكنك صديقي الحميم منذ سبعة أعوام .

- هذا لا ريب فيه وسأحفظ لك عهد الصداقة ما حييت . ولكن ما بالك مضطرباً إلى هذا الحد ؟
- ذلك لأن الكونت أرتوف وروланд سيقتل أحدهما غداً ، في مثل هذه الساعة .

فوقف فابيان وقد بدت عليه علائم الاضطراب وقال : ماذا حدث ؟
- أحب قبل ان أجيبك ان أسألك بعض أسئلة ورجائي ان تجيبني عليها لما بيننا من روابط المودة .
... سأجيبك فسل عما تشاء .
- إنك أول أمس اختطفتم رسالة وردت إلى رولاند في النادي وأحرقتموها فلماذا تصرفتم هذا التصرف ؟

- ذلك لأن رولاند فتى كثير الغرور .
- ليس هذا الجواب الذي أطلبه أيها الصديق .
- إن رولاند كان يحاول مس عرض امرأة ، بعرض رسالتها إليه على أصدقائه .

فقال الكونت وقد سكن جماشه ، ولكن كما يقر الأسد قبل الوثوب وكما يسكن الجو قبل انقضاض الصاعقة : لا شك انك عرفت تلك المرأة أيها الصديق ولولا ذلك لما تعرضت لإحراق رسالتها .

- ذاك أكيد
- وليس انت وحدك الذي عرفتها بل كان يعرفها كل من كان يلعب معنا من أعضاء النادي .

- ذاك أكيد أيضاً فان رولاند لا يعرف أن يكتم سراً
- إذن لم يعد فائدة من إحراق الرسالة ما زال جميع الحضور يعرفون تلك المرأة . بقي ان زوج تلك المرأة كان بينكم وهو لا يعلم أمراً من خيانة إمرأته اليس ذلك أيها الصديق ؟ اني أستحلفك بشرفك ان تقول الحق

فأطرق فابيان استحياء وقال هو الحق ما تقول .

— اني لا أسألك اسم هذا الزوج التمس المنكود الذي أصبح شرفه وعرضه مضغة في أفواه الصبيان ، بل أسألك أن تصغي إلي فاسمع انني بعد ذهابك من النادي بقيت فيه وحدي فأخذت غلاف الرسالة الذي ألقاه رولاند إلى الأرض وتمننت في خطه فرأيت انه خط امرأتي فذهبت إلى منزلي وأعطيتها هذا الغلاف فذعرت له وصاحت صيحة دهش بدت فيها علائم الصدق التي لا تنقض حق وثقت من براءتها وأيقنت أن هذا المنافق قد قلد خطها لغرض سافل دنيء .
فحسب فابيان أن الكونت ليس له غير هذا البرهان فقال : ان هذا ممكن فان رولاند يقدم على كل شيء .

فقال الكونت : اصغ إلي فسأني لم أتم بعد ثم قص عليه جميع ما علمه من أوكتاف بالتفصيل إلى أن فرغ من الحكاية

فقال : اني كنت منذ ساعة مشككاً أحسب أن رولاند قد زور الخط أو ان تشابه الخطين من قبيل الاتفاق ولم يكن يشكل علي غير السبب في احراقك للرسالة أما الآن فقد علمت انك عارف الحقيقة بجهلها وقد أثبت اليك كي أقف منك على هذه الحقيقة بتفاصيلها .

قال فابيان : أتراني مضطراً مكرهاً إلى قول كل شيء ؟

- هذا ما أراه والا فانك تدعوني إلى قتل رولاند دون مبارزة .
فصاح فابيان صيحة انكار .

فقال الكونت : إذا أثبت لي أنت الذي أحترمه وأجله خيانة امرأتي فاني أقاتل رولاند قتال مبارزة وأقتله قتل الأشرف ، وإذا قلت انها بريئة فاني أثق بكلامك وأرجع عن كل شيء .

فأصبح فابيان في شر موقف يتصارعه عاملان من الشرف والاشفاق ولكن الشرف تغلب عليه فقال بصوت مختنق أرسل شاهديك اليه أيها الكونت .
جد الدم في عروق الكونت ووهت رجلاه اذ أنقض عليه هذا التأكيد

انقضاض الصاعقة ولكنه ضبط نفسه وقال اني واثق مما تقول أيها الصديق ولكن أليس لديك برهان تقوله لي ؟

— وأسفا، أيها الصديق اني رأيت الكونتس في منزل رولاند وفي هذا الموقف الحرج وقبل أن يتم فابيان جملته المتقدمة دخل روكامبول فلما رآه الكونت كظم غيظه ومد يده فسلم عليه متكلفاً الابتسام ثم أرتد إلى فابيان وقال : انك كنت صديقي وقد برهنت لي الآن انك لا تزال ذلك الصديق .

— بل سأكون صديقك إلى آخر العمر .
— إذن لا أسألك لتأييد هذا القول برهاناً مستحيلاً كأن أطلب اليك أن تكون شاهدي في مبارزتي لرجل هو من أصحابك .
فقال فابيان باشمزاز : لقد كان صديقي من قبل ، أما اليوم فاني أحتمره بقدر ما كنت أميل اليه .

— بل أطلب اليك ما هو أيسر من ذلك فاني لأحب أن أعود اليوم إلى منزلي وأرجوك أن تخفييني هنا إلى الغد .
فقال له روكامبول انك يا سيدي في منزلك ونحن الضيوف فيه .

فشكره الكونت وجلس أمام طاولة فكتب الى امرأته ما يأتي :

« سيدتي »

« كنت بالأمس مشككاً والآن فلم يبق في نفسي أثر للريب فلا تلتظري عودتي إلى المنزل إذ لا أعود اليه بل لا تلتظري ان تريني إلى الأبد فاني أرجو أن أقتل غداً رولاند دي كايلى واذا سلمت من الموت فاني أغادر فرنسا بعد ساعة . »

إنني أحببتك من قبل وأنا أصفح عنك الآن ،

« كونت ارتوف »

ثم طوى الرسالة فاعطاها لفابيان وقال له : اني سأغيب ساعة وأعود

وتركها وانصرف ذاهباً إلى منزل رولاند .
 وكان رولاند في منزله وقد وصلت له رسالة من ريبيكا وهو يحسبها من
 باكارا حسب العادة تثني عليه فيها لحسن تصرفه في حفلة أمس وتدعوه إلى
 انتظارها في منزله إلى الساعة الخامسة إذ انها ترجو ان تزوره . فبقي في منزله
 حتى انه أطلق سراح خادمه كي يخلو له الجو . وفي الساعة الثامنة طرق
 باب منزله فرقص فواده سروراً لاعتقاده ان باكارا قادمة اليه فأسرع وفتح
 الباب ولكنه ما لبث ان رأى الكونت أرتوف حق دعر وتراجع الى الوراء ،
 فقال له الكونت : إني أتيت يا سيدي لأبحثك في شأن هام فأذن لي ان أدخل
 إلى منزلك فان مثل حديثي لا يقال على الأبواب .

ثم دخل قبل أن يحيطه فدخل أول غرفة لقيها مفتوحة ووقف ينتظر فيها
 رولاند الذي تأخر عنه لاقفال الباب .

وكان رولاند ثاب من دهشته وذهب اضطرابه بزوال أعراض الدهشة
 الأولى فعاد اليه رشده وعلم من لهجة الكونت ومن اتقاد عينييه أسباب زيارته
 له وانه عارف بكل شيء . فأدخله إلى الغرفة التي كان فيها وهو شامخ الرأس
 وسلم عليه وهو يبسم ابتسام الاحتمار ، ثم قال له : أريد سيدي الكونت
 ان يعلمني بالسبب الذي شرفني من أجله بهذه الزيارة ؟

فأجابه الكونت : كلمة واحدة تفصح عن السبب . وهي اني عارف
 بكل شيء .

فلم يتكلم رولاند الاحتجاج او الإنكار بل قال له إني رهن أمرك وسأقبل
 كل شروطك .

- شرطي ان تقباز اولاً بالمسدسات ثم بالسيف اذا اقتضت الحال إذ لا
 يخفأك انه يجب ان ينطرح أحدنا ميتاً في ساحة القتال .

. ليكن ما تريد .

-- وستبازر غداً في الساعة السابعة صباحاً وسنلتقي في غابة فانسان بدلاً

من غابة بولونيا.

— حسنًا وستجدني مع شهودي .

وعند ذلك أحنى الكونت رأسه مودعاً وخرج، فشيعة رولاند إلى الباب وهناك نظر كل واحد منهما إلى الآخر نظرة حقد كانت أنفذ إلى قلوبهما من السهم المسنون .

أما رولاند فإنه كتب إلى صديقه اوكتاف بما حدث وكلفه ان يدعو صديقاً له فيكونان شاهديه .

وأما الكونت أرتوف فإنه ذهب إلى صديقه الدوق دي مايلي وقال له : أرجوك أيها الصديق ان تكون غداً شاهدي ، فإني سأبارز رولاند دي كايلى.

فدعر الدوق وقال : لماذا هذه المبارزة ؟

— لا بد أن تعلم السبب فهو اني كنت أحسب نفسي أمس إلى صباح اليوم من أسعد البشر فعلمت الآن اني من أشقاهم .

— ما هذا اليأس وأي شقاء تعني ؟

— لا شيء سوى اني محب غير محبوب وقد كنت أحسب ان المرأة إذا ثابتت عن ذنوبها تصبح من ملائكة السماء ، ولكني أخطأت في هذا الزعم فان المرأة متى سقطت في هوة الفساد فلا بد لها منها بلغ من توبتها ان تعود إلى هذه الهوة .

— ربه ! ماذا أسمع أيمكن ذلك ان يكون ؟ أيمكن ان الكونتس ...

فقاطعه الكونت بإشارة وقال له : لا تذكر اسمها أمامي فقد محتها الجريمة من صفحات قلبي .

بينما كانت هذه الحوادث تتوالى ، كان يجري في قصر الكونت ارتوف حادث أشد تأثيراً منها ، وذلك انه بعد ان خرج الكونت ارتوف من منزله يتنزه كما تقدم خرجت باكارا في أثره لشراء بعض حاجات لها ولم تعد إلا في الساعة الثالثة فوجدت فيه رسالة لها .

ولم تكن هذه الرسالة من الكونت ارتوف كما يتبادر الى أذهان القراء ، بل كانت من رولاند فقد كتب لها ما يأتي :

« يا ملاكي المحبوب

« إن الذي يحبك ويحبك الى الأبد يقيم منذ ساعة على أحر من جمر الغضا ولولا خوفاً من ان تكوني قتيلة لأسرعت اليك ، فقد خرج زوجك الآن من عندي وقد عرف كل شيء وسنتبارز غداً مبارزة لا تنتهي إلا بموت أحدهما وكنت أتمنى ان أموت من أجلك لولا ما أخشاه عليك من انتقام هذا الظالم على اني سأحسبكي أحميكي . فاكتبي لي كلمة كي أطمئن عليك . كلمة واحدة بحق السماء . »

(رولاند دي كايلى)

وكان أحضر هذا الكتاب خادم رولاند وهو خدام روكامبول ، فجاء به إلى المنزل وأعطاه الى الخادم فقال له : إن هذا الكتاب الى الكونتيس من أختها سرينز ، ولكنها أوصتني ان أسلمه لها يداً بيد ، فهل تتعهد عني بتسليمه على هذا الشرط ؟

— لا شك في ذلك فان سيدتي قد وصلت الآن وهي وحدها في المنزل .

ثم أخذ منه الكتاب وأعطاه لبأكارا بعد ان قال لها انه من أختها سرينز ولكنها قبل ان تفض ختمه وتقرأ ما فيه سمعت صوت مركبة وقفت على الباب فأطلت من النافذة وهي تحسب انها مركبة الكونت ، ولكنها اندهلت

أشد الذهول لأنها رأت أختها سرىز نزلت من المركبة ، فانشغل قلبها
لزيارتها وأسهرت لاستقبالها ، والكتاب لا يزال مختوماً بيدها فقالت لها :
ويحك أجننت ؟

— لماذا ؟

— أفتكتبين لي كتاباً ثم تحمين في أمر الكتاب ؟

فانذهلت سرىز وقالت : أي كتاب تعنين ؟ فإني لم اكتب لك شيئاً .
— هذا الكتاب الذي في يدي أما أنت أرسلتيه إلي وأمرت الخادم ان يسلمني
إياه يدأ بيد .

— كلا ، فلم يكن شيء من ذلك .

فأسهرت باكارا إلى فض الكتاب ، وأول ما وقع نظرها على توقيع
مرسله وقرأت اسم رولاند دي كايلى . ثم قرأته فانذهرت ووقع الكتاب
من يدها وهي تقول : رباه ! أفي يقظة أنا أم في حلم ؟

فأخذت سرىز الكتاب من الأرض وقرأته ايضاً وقالت : إني لا أفهم شيئاً
من هذه الألغاز يا أخي ومن هو رولاند هذا ؟

— إني ما رأيته غير مرتين ، وما كلمته أكثر من جملتين . فماذا يعني
بهذا الكتاب ؟

— ومن هو هذا الرجل الذي سيبارزه ويخشى عليك منه ؟

فلم ترد عليها باكارا وجعلت تقول : رباه ! ما هذا المصائب فلقد اوشكت
أن أجن !

وعند ذلك فتح الباب ودخل الخادم برسالة وقال : إنها من الكونت .

فأخذتها باكارا بيد ترتعش . فلما تلمتها صاحت صيحة القانطين وسقطت
مغمياً عليها ، وقد عرف القراء فحوى هذه الرسالة التي كتبها الكونت في
منزل فابيان .

وبعد ربع ساعة أفاقت من إغمائها ولكنها كانت شبيهة بالجهانين ، فقالت

لأختها بصوت ختنيق : هلمي معي فإني أريد ان أذهب إلى هذا الرجل الذي
 قد خطي وبلغ من السفالة إلى هذا الحد .

ثم خرجت معها فركبتا مركبة وسارنا إلى منزل رولاند وكانت باكارا
 في الطريق لا تفوه بكلمة . فلما وصلت المركبة إلى منزل رولاند نزلت سريرز
 وقالت لأختها : أنتظري في فسأقابل هذا الرجل وأعود اليك بما يكون .

ثم تركتها وصعدت إلى منزل رولاند فطرقت بابه وهي تضطرب .
 ولم يكن خادم رولاند في المنزل ففتحت لها رولاند وانذهل حين رآها ،
 فقالت له إني أدعى يا سيدي مدام ليون رولاند ، وأنا أخت الكونتس
 أرتوف .

فاندعش رولاند لهذه الزيارة واستقبلها خير استقبال فقالت له : إن اخي
 يا سيدي تنتظري في المركبة الواقفة على بابك الخارجي .

فظهرت على رولاند علائم السرور وقال : ألم يقتلها؟ أسلمت من شره؟ الحمد
 لله والف شكر لك يا سيدي فلقد كدت أجن من الخوف عليها .

فقالت سريرز كأنها لم تسمع ما قاله : إن اخي في المركبة وهي لا فرق بينها
 وبين الجانين لأنها لم تعلم شيئاً من رسائله .

— العل زوجها لم يعد الى المنزل ؟

— إنها لم تفهم شيئاً من كتابك ولا من كتاب زوجها .

ثم عرضت عليه كتاب الكونت فقرأه وقال : لقد عرفت سبب اضطرابها
 ولكن لتعلم يا سيدي اني سأحميها لأنني أحبها .

فقالت سريرز وقد طاش رأسها : أعلم يا سيدي أنه إما ان يكون هناك اتفاق
 غريب خدعت به او انك من أشد الناس حطة ونذالة فإن اخي ما نظرتك غير
 مرتين وما أحببتك ولم يكن لها بك أدنى اتصال .

فقال رولاند ببرود : عفوك يا سيدي ، فلقد كنت أحسب ان أختك
 أوقفتك على أسرارها بدليل قدومك إلي ، وانها تنتظرك على باب منزلي .

وفي كل حال فلا يسمعي ان أتغاضى عن شتمك لي ، فما انا بنذل وان اختك تستقبلني في منزل لها في باسى منذ ثمانية أيام وقد أتت بنفسها إلى منزلي هذا ثلاث مرات

فصاحت مريز صبيحة اشمئزاز وهي تحسب ان الرجل قد جن ، كأنما هذا الإقرار قد أثر بها تأثيراً شديداً ، حق أنها لم تعد تدري ماذا تجيب ولكنها أسرع إلى الخروج من غرفة رولاند ونزلت على السلم مهرولة حتى بلغت إلى حيث اختها فأمسكتها بيدها وجرتها وهي تقول : إصعدي معي إلى هذا الحسيس فإنه يقول انه ذهب اليك في باسى وأتيت اليه في منزله . أسرعي فان الرجل لا شك مجنون .

فهاجت هذه التهمة ببها كارا ووثبت من المركبة فصعدت السلم مقتفية أثر أختها ، وكان رولاند لا يزال واقفاً على باب منزله الداخلي . فلما رأى باكارا صاح صبيحة الفرح وأسرع إليها وقد فتح ذراعيه لضمها إليه ، فصدته باكارا بعنف وقالت له : إنك رجل سافل او إنك معتوه لا عقل لك ويحك باى حق تريد معانقي ؟

فراجع رولاند وقال عفواً أيتها الحبيبة ا فما انا بسافل وما جننت إلا بهواك وخطئي الوحيد هو اني كنت احسب أختك واقفة على سرنا .
- وأي سر تعني ؟ ومتى كان بيني وبينك أسرار ايها الرجل ؟

فأطرق رولاند لحظة ثم نظر إليها وقال : إني أسألك بدوري اذا كنت قد جننت أم أنك تمثلين دوراً لا يخطر لي بهال .

فسقطت باكارا واهية القوى على كرسي وغطت رأسها بين يديها وهي تقول : يا لك من رجل سافل .

فدنا منها رولاند وهو واثق أشد الثقة من انها المرأة التي يهواها لأنها لا تتميز عن ربيكا إلا بصفاء عينيها . غير انه لقيها بحالة اضطراب شديد لم يعد بعده سبيل إلى معرفة ذاك الفرق ثم قال لها بصوت منخفض : اذكري

أيتها الحبيبة اجتماعنا في باسي ، بل اذكري انك كنت اول امس جالسة على نفس الكرسي الذي أنت جالسة عليه الآن ، وإني كنت جاثياً على ركبتي أمامك .

فانقذت عينا باكارا بلهيب الغيظ ورفعت يدها تريد صفعه .

وعند ذلك خطر خاطر لسرين فأمسكت يد أختها وقالت : لقد علمت كل شيء يا اخي فاطمئني واذكري تلك المرأة التي تشبهك والتي خدعت بها فحسبتها إياك حين رأيتها .

فانتعش فؤاد باكارا وقالت : رباه عسى ان يكون ذاك صحيحاً .

وعند ذلك استحال الى السكينة بعد ذاك الغضب ، وأخذت يد رولاند وقالت له بلهجة الاستعطاف هوذا وجهي معرض للنور ، فتمعن فيه جيداً تعلم أنك عشقت امرأة تشبهني وان هذه المرأة قد قلدت خطي أنظر إلي جيداً ... إني أتوسل اليك والتمس منك هذا التمعن راكعة أمامك على ركبتي .

وكانت نبرات صوتها تشف عن صدق أكيد ، حتى ان رولاند تسأف وارتمش ، ولكنه ما لبث أن قال : كلا ان التشابه إلى هذا الحد محال ، فان الصوت والوجه والشعر واحد ، وفوق ذلك فهذه الرسائل التي أرسلتها إلي بخطك ، وهذه التي أرسلتها بخط وصيفتك . ألم تكتبي لي في هذه الرسالة جميع ما حدث بينك وبين زوجك حين عودته من النادى .

ثم أعطاهم الرسالة ، فلما قرأتها باكارا علمت ان كل شيء يدل على انها مجرمة ، وان فكراً حاذقاً قد دبر هذه المكيدة فصاحت صيحة يأس وسقطت مغمياً عليها ، فأسرع رولاند وسرين إلى إنهاضها عن الأرض وجعلت سرين تصيح وتستغيث ، أما رولاند فقد تززع اعتقاده لما رآه من دلائل الصديق على الأختين

وقد أسرع خدام المنازل المجاورة عندما سمعوا صوت الاستغاثة فطلبت

اليهم سرير أن يساعدوها بنقل أختها قبل ان تستفيق الى المركبة فحملوها اليها ، وعند ذلك قالت لرولاندا : التمس منك يا سيدي ان تأتي الى منزلي بعد ساعة فإنه لا بد من وجود سر هائل يجب ان نكشفه .

فوعدها رولاندا بالذهاب وقد اشتد اضطرابه حتى انه خشي ان يكون قد أساء الى هذه المرأة إساءة لا تغتفر .

أما سرير فانها ذهبت الى منزلها باختها وهي مقمى عليها حذراً من ان يفتك بها الكونت حين يراها .



بينما كانت المركبة تسير بسرير وأختها ، خرج رجل من مركبة كانت واقفة منذ حين على مسافة ٥٠ خطوة من منزل رولاندا ، فدفع أجرة المركبة ودخل الى منزل رولاندا . ولم يكن هذا الرجل إلا روكامبول ، وكان باب رولاندا لا يزال مفتوحاً ، فدخل روكامبول وهو يقول في نفسه : إن المقابلة كانت من غرائب المضحكات .

وتقدم الى القاعة التي يجلس فيها رولاندا ، فألقاه ضائع الرشد ، - مشتت البال فقال له لقد عرفت كل شيء ايها الصديق ، فان الكونت أرتوف زارك في منزلك ، وإنكما ستبصارزان غسداً ، فلم أجد بداً من زيارتك . وقد علمت من حكاية الكونت أرتوف ، ان صديقك أوكتاف كان علة هذه القضية .

فقال له رولاندا دون ان يهتم لحديثه : لقد علمت كل شيء كما تقول فهل علمت ان الكونتس أرتوف خرجت من هنا قبل دخولك .

فتظاهر روكامبول بالاندهال واجاب : رباة ! ماذا أسمع أتبلغ جسارتها الى ذاك الحد ؟

— بل قد حدث ما هو أشد من ذلك .

ثم قص عليه ما جرى بينه وبين باكارا وسريز وهو يميل بحكايته الى تصديق الأختين الى أن أتم حديثه ، وكان روكامبول يصغي اليه أتم الإصغاء فلما رأى اعتقاده قد تززع قال له وهو يبتسم : كم عمرك يا رولاند ؟
— أربعة وعشرين عاماً .

— إذن فان عذرك ظاهر لأنك لا تزال صغيراً تجهل مكائد النساء فاذا كنت عرفت شيئاً من حبهن فقد غابت عنك من مكائدهن أشياء .
— ماذا تريد بهذا القول ؟

— أريد ان باكارا واختها قويتان وانها قد عبتنا بك إذ لا يوجد شبيهة لباكارا كما تزعمان وهي نفسها التي أحبتك ثمانية أيام باتت عدوة هائلة لك في مدة ساعتين .
فذهل رولاند وقال : كيف ذلك ؟

— ذلك حين علم الكونت كل شيء لم يذهب الى منزله بل كتب الى امرأته فأ سرعت باكارا مع اختها اليك وقد اتفقتا على تمثيل هذا الدور ونجحتا فيه كما يظهر لأنك أصبحت تعتقد كما أرى ، انه يوجد شبيهة لباكارا ولو لم يتفق قدومي اليك لكنك تماديت في اعتقادك هذا حتى تحسب نفسك مخطئاً الى الكونت ، فتعذر اليه غداً ، ثم تقول له إني ما عرفت الكونتس ولم يكن لي بها اتصال غرام ، بل كنت منخدعاً بامرأة تشبهها . فاذا شئت ان تقتلني فافعل . ولكني أقسم لك بشرفي أن امرأتك طاهرة بريئة ! وعند ذاك يلقي الكونت حسامه الى الأرض ، وتبطل المباراة . ثم تبحث وإياه عن تلك المرأة ، التي لا توجد إلا في خيلة باكارا ، فلا يجداها .

— ومنزل باسي ؟

فأجاب روكامبول بلهجة الاستغراب : العلك عرفت هذا المنزل ؟ أما كنت

تذهب اليه في مركبة مقفلة مسدودة النوافذ ألا يمكن ان يكون المنزل في غير هذا الشارع ؟

فأطرق رولاند وقال : لقد أصبت

فقال روكامبول متمماً حديثه : إنه بعد ان تبحث أنت والكونت ثلاثة أو أربعة أيام دون أن تجد شبيهة باكارا يخف غضب الكونت ويعود إلى الثقة بطهارة امرأته .

— ولكننا لا نجد شبيهة باكارا فتراجعه الظنون .

— كلا فان باكارا تكون في خلال هذه المدة قد أثبتت لزوجها براءتها كما تكون قد أثبتت له أيضاً انك أنت المذنب وانك أنت الذي أردت إخفاء شبيبتها كي تبقى الشبهات متمكنة في نفوس أصحابك من انك تحب الكونتس حقيقة وانك اختلقت هذه الحكاية كي تنفذها .
-- ولكن ذلك عمل سافل لا تقدم عليه باكارا .

— بل انك فتي غر لا تعرف شيئاً من مكائد النساء وأحقادهن فان باكارا لا تصفح عنك إلى الأبد ولا تلسى انك أنت الذي دنست سمعتها بافشاء سرها أمام أصحابك

فأطرق رولاند هنيئة يفتكر ثم أجاب : لقد أصبت أيها الصديق فانها تلعب بي كما يلعب الغلمان بالكرة فاطمئن لأنني قد وقفت في مواقف الحذر .

وبعد أن تركه روكامبول كتب رولاند إلى سريز يعتذر اليه عن عدم حضوره ثم أعطى الكتاب لخادمه وذهب إلى النادي كي يرى أصحابه بل يخبرهم بجميع امره .

٢٧ -

أما روكامبول فانه ذهب إلى منزله فوجد فيه الكونت أرتوف وصهره فابيان ، وكان الكونت بعد ان ذهب الى رولاند والدوق دي مايلي وبعد أن كتب الى باكارا ذلك الكتاب الذي صمغها عاد الى فابيان فكتب عدة رسائل وفابيان جالس أمامه لا يحسر ان يفتح الحديث فلما فرغ الكونت من كتابه قال لفابيان : إني أحب ان أجعلك منفذ وصيقي ألك ما يمنعك عن قضاء هذه المهمة أيها الصديق ؟

فنظر اليه فابيان منذهلاً وقال : ماذا يدعوك الى كتابة وصيتك الآن وأنت واثق من قتل خصمك ؟
- ولكنني قد أقتل .

- إن الله أرحم من ان يحازيك هذا الجزء إذ لا بد للفضيلة ان تلتصر ولو بعد حين

- أصبت على ان كتابة الوصية محدودة في كل حال .
فاجاب فابيان وقد تبين قصداً هائلاً من ملامحه : إنك لا تزال تحب هذه المرأة يا كونت .
- نعم وعلى الكره مني .
- وإذا لم يقتلك خصمك فماذا تصنع ؟
- أقتل نفسي !

ثم تنهد وقال : إصغ إلي فاني قسمت تركتي الى قسمين : القسم الأول وهو أملاك في روسيا وسيرتها أهلي من بعدي ، والقسم الثاني أملاك في فرنسا فان إيرادها يبلغ مائة ألف فرنك في العام ، وأنا أريد ان أجعلك منفذاً لوصيقي عن هذا القسم ... لا تقطع علي الحديث ايها الصديق ، لأنني أعلم ما تريد أن تقول لي ، واعلم اني إذا لم أقتل في المباراة غداً فسأقتل نفسي لأن

سعادتي كانت متعلقة بهذه المرأة التي ما أحببت سواها ، فسلأت جميع فراغ قلبي فلم يعد لهذا القلب رجاء بالحياة بعد أن سحقتته تلك الحيانة ، فاذا قتلت غداً هذا الفتى فانه قد قتلني قبل ان أمد له يداً . فاعجب لقاتل يقتله مقتول أما الموت فهو أشهى الأمور لدي وكفى به معزياً عما أنا فيه . والآف فهل تكون منفذ الوصية .

فتنهذ فابيان وقال : نعم .

— إذن سأدع هنا وصيقي وجميع رسائلي فاذا كان الغد ...
وعند ذلك دخل رو كامبول ، فأجاب فابيان بإشارة يريد بها انه فهم المقصود .

أما رو كامبول فانه دنا من الكونت وقال له : لقد أمرت الخدم يا سيدي ان يهيئوا لك غرفة بازاء غرفتي .

فشكره الكونت وقال إذن لنذهب اليها ولنندع فابيان مع امرأته فقد حان وقت العشاء ولا أحب ان أظهر أمامها بمظهر الاضطراب .
ثم خرج رو كامبول بالكونت وصعد به الى منزله فقال له : أتريد أن نجلس على مائدة الطعام ؟

فابتسم الكونت ابتسام الحزين وقال : لا أجد شهية للأكل .
— انه لا يعمل بك ان تبديت فارغ المعدة ، وانت مضطر الى المبارزة في الصباح .
— أصبت . وامثل امثال الأطفال .

وولما فرغا من الطعام أقامها الخادم بالقهوة فقال له رو كامبول : أنصحك نصيحة ، وهي ان لا تشرب هذه القهوة ، بل اشرب كأساً من هذا الشراب .

وأشار الى زجاجة على المائدة ، فقال الكونت : لماذا اخترت ذلك الشراب دون سواه ؟

— لأنه يساعدك على النوم ، وأنت محتاج الى الرقاد في هذه الليلة المراحة .

— بل للنسيان ، فهات من شرابك .

فصب له روكامبول كأساً وصب لنفسه من شراب آخر فسأله الكونت :
لماذا لا تشرب أنت من شرابي ؟
فضحك روكامبول وقال : لأنني لست محتاجاً للنوم مثلك .

ثم شرب الاثنان ، وعند ذلك نظر روكامبول الى الساعة المعلقة وقال
في نفسه : اننا في الساعة السابعة الآن ، وفي الساعة السادسة من الصباح
ستكون المباراة .

وبعد ان اقاما على المائدة هنيئة ، دخل الكونت الى الغرفة التي أعدت
له ، وذهب روكامبول الى استاذة اندريا فقال له : لدي أيها الأستاذ كثير
من الأمور التي تحب ان تقف عليها ، فان باكارا شبيهة بالجهانين ، وقد
قابلت رولاند . ولولاي لسكان اعترف ذاك الأبله للكونت بأنه يهوى
شبيهة لمرأته .

ثم قص عليه جميع ما جرى . فلما اتم حديثه سأله : أوافق أنت من
تأثير السم الذي سقيته للكونت أرتوف ، وأنه يتم جنونه بعد اثنتي
عشرة ساعة ؟

فهز أندريا برأسه إشارة المصادقة .

— وإذا اتفق ان المباراة حدثت قبل الجنون ؟

فكتب اندريا على لوحه الحجري : يكون ذلك لنكد رولاند . العلك
مشفق عليه ؟

— إنك لم تعلمني الإشفاق .

فكتب أندريا كن مطمئناً فان أعراض الجنون تظهر في الساعة السابعة
وتحول دون المباراة .

وفي صباح اليوم التالي نهض روكامبول باكراً وأيقظ الكونت فشكره الكونت وارتدى ثيابه مسرعاً ولكنه شعر بدوار في رأسه فلم يكثر له ، وخرج فركب مركبة وذهب بها الى الدوق دي مايلي شاهده في المبارزة . وسار الاثنان الى المكان المعين فلقيا رولاند وشاهديه فسلم كل فريق على الآخر باحناء الرأس وبعد اتفاق الشهود وقف الحصان موقف القتال .

وكان روكامبول قد سبقها الى محل المعركة متنكراً ، ووقف بحيث يرى جميع ما يجري دون ان يراه أحد . وكانت عند ذلك الساعة السابعة بينما كان الشهود ينتظرون بدء القتال رأوا ان الكونت قد حمل سلاحه ومشى الى رولاند فظن الجميع انه سيقتل خصمه دون شك ولكنه بدلاً من أن يطلق عليه النار جعل يكلمه خلافاً للواعد المعروفة في المبارزات ، فكان اول ما قاله : إننا يا سيدي في موقف لم يعد ينفع فيه الاعتذار ، ولا بد لأحدنا من الموت .

فأجفل روكامبول وخاطب نفسه : العل اندريا والطبيب يهزآن بي فان الوقت قد حان ولا أرى عليه شيئاً من أعراض الجنون .

فقال رولاند مجيباً الكونت : لقد صدقت يا سيدي ، وما أنا مستعد لقتالك .

فقال الكونت بسكينة وأدب : ما تظن يا سيدي بفتى ضعيف العقل احب امرأة لم تهواه على الإطلاق .

فأنكر عليه رولاند هذا الكلام وقال : ما لنا وللعود الى تلك الأبحاث ؟

— عفوك يا سيدي ودعني اتم كلامي .

فهمز رولاند كتفيه إشارة الى عدم المبالاة وقال : قل ما تشاء

— إن تلك المرأة لم تكن تهواه فعول على الانتقام منها بالنميمة عليها وتحديث سمعتها فجعل يظهر لجميع اخوانه الأغرار ان المرأة تهواه .

فأوقفه رولاند وقال : إنك تتبادى في القول يا كونت ، فقف عند حدك .
فأجابه الكونت بصوت الملتبس : بالله دعني أتم حديثي .

فانذهل رولاند وجميع الشهود لأن الكونت كان يخالف نظام المبارزة مخالفة ظاهرة لا تخفى على أحد ، فدنا الشهود منه بضع خطوات . أما الكونت فإنه أتم كلامه فقال : لحسن الحظ يا سيدي ان الرذيلة مهما تمكنت من النفس فإن أضعف شعاع ينفذ اليها من أشعة الفضيلة يتغلب عليها ويلقي صاحبها في مهاوي الندامة .

فنفذ صبر رولاند وقال له مغضباً : ماذا تريد بهذه الأقوال ؟

فتحسس الكونت وقال له : إصنع الي بحق السماء فان تنمة حديثي يتعلق عليها شرف إمرأتك .

فجمد رولاند من الدهول وقال له إمرأتي ؟

فسقطت الدموع من عيني الكونت وقال نعم يا سيدي الكونت أرتوف فلقد وشيت بإمرأتك الكونتس أسفل الوشايات فاصفح عني .

فوقعت هذه الكلمات الأخيرة وقع الصاعقة على رولاند وعلى الشهود . أما الكونت فإنه عاد الى حديثه فقال : إني يا سيدي الكونت أدعى رولاند دي كايلت ، كما انك تدعى الكونت أرتوف ، وكلانا شريف نبيل و ..

فقاطعه رولاند وقال : أنا الكونت أرتوف وأنت رولاند دي كايلت ؟ لا شك يا سيدي إنك مجنون !

— لقد كنت يا سيدي في عداد المجانين حين تجاسرت أن أرفع نظري إلى تلك المرأة الجميلة النبيلة . ولكنك ستصفح عني دون شك فتصافحني وقبّل اعتذارى .

ثم جثا على ركبتيه أمام رولاند ، وهو يقول : عفوك يا سيدي الكونت .

فصاح الشهود منذعرين : إنه مجنون !
وفكر روكامبول في نفسه . لا شك ان اندريا من الأنبياء ، فها هو قد جن
عند الساعة السابعة تماماً كما قال .

ودعا الدوق دي مايلي من رولاند وممس في أذنه قائلاً : إقبل جميع
أعداء هذا المسكين . فإنك لم تعد الآن أمام الكونت أرتوف بل أمام
تعمين منكود ، ذهب صوابه بذهاب شرفه ، وداست إمرأته على عقله بأقدام
حبها السافل .

وبعد ذلك ببضع ساعات كان روكامبول يحدث اندريا بجميع ما رآه من
جنون الكونت أرتوف الغريب فقال له إنه لا يزال يعتقد انه رولاند وقد
ركب إلى جنبه رولاند في مركبة واحدة ، وأراد الذهاب معه إلى منزله
كي يعتذر إلى باكارا التي يعتقد انها زوجة رولاند فكان يعتذر إليه طول
الطريق إلى أن بلغوا إلى منزل الكونت أرتوف فلم يجدوا باكارا فيه فحبسوه
في قصيره وذهب كل في شأنه ، والآن فقل لي أية فائدة لنا من جنون
الكونت أرتوف ؟

فأجابه أندريا بلوحه الججري : إن الأطباء سيصفون له السفر مداواة
لجنونه ، فلا بد لبأكارا من السفر معه ومغادرتها باريس فيخلو لك الجو
وتأمن شرها .

- وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك تضعف قوة الدوق دي مايلي ونستطيع التفرغ له آمنين
مطمئنين .

- الملك قررت أمراً بشأنه ؟

-- نعم .

- أطلعني على الخطة التي رسمتها ؟

- كلا ، فاكثف الآن بتنفيذ أوامري ولا تناقشني في شيء ، بل

اطمئن ... فليس الدوق دي مابيلي الذي سيمنعك عن الزواج بغسارتك
الاسبانية .

- ٢٨ -

بعد ذلك بثلاثة أيام ورد إلى الكونت مابيلي من باكارا الكتاب الآتي :

« أيها الدوق العزيز

« ان امرأة دنس بنو الشر شرفها وضربت بها يد القضاء ضربة لا قيام لها بعدها
تكتب اليك لتودعك وداعاً ربما كان أبدياً ولست أدري إذا كنت في عداد
الذين يشقون بخيانتني ولكنك رجل نبيل طاهر القلب عف الضمير ، إذا كنت
تتهمني كما يتهمني الناس بتلك الخيانة التي اختلقتها قريحة جهنمية فانك تحفظ لي
دون شك شيئاً من العهد القديم لا سيما حين تعلم انك كنت الرجل الوحيد الذي
افتكرت به حين خروجي من باريس .

« اننا نساغر غداً فقد وصف الأطباء السفر لزوجي العزيز وقال ان هواء
سويسرا ومناظر جبالها قد يعيدان اليه صوابه وما أسعد ذلك اليوم الذي
تصدق فيه ظنون الأطباء على اني عالمة بأن زوجي حين يعود اليه صوابه
يطردني من داره طرد المحرمات ويأنف من أن ينظر إلي لأني لم يعد لي أقل
أثر في قلبه بل ربما قتلني أيضاً ولكني لا أهتم لحياتي وسأخاطر بكل شيء
في سبيل شفائه لأنه لا يزال في عنفوان الشباب ولا بد لجرحه أن يندمل
بتقادم الأيام .

« ومع كل ما أنا فيه أيها الصديق (أو اه دعني أرجو أن تسمح لي بأن
أناديك بهذا اللقب) فلا أحب أن أغادر باريس دون أن أهتم بأمرك فقد
وردني اليوم كتاب من قريبك في روسيا يقول فيه انه وصل اليه رسولي الذي

يحمل كتابي وانه سيرسل معه بعد ثلاثة أيام الأوراق التي تثبت علاقة نسبك بالدوق سالانديررا .

« وعلى ذلك فسيصل هذا الرسول قريباً اليك ويعطيك هذه الأوراق التي تبلغك ما تريد من الزواج بابنة الدوق ، أما أنا فسأكتب للدوق سالانديررا وأخبره بأمر نسبك وأعيد عليه ما كتبته من قبل وهو أن تكون زوج ابنته ولا شك ان الدوق لم يصل اليه بعد نبأ شقائي وسأكتب اليه بلمهجة المرأة التي لا تزال سميذة فانتبه لنفسك وأعمل ما يجب عليك فقد علمت أنا ما يجب علي .
« الوداع أيها الصديق فارث لحالي ولا تحتقر دعائي لك فاني لا أزال طاهرة بالرغم عن المرجفين »

(الكونتس أرتوف)

فتأثر الدوق عند قراءته هذا الكتاب وقال في نفسه : أن قلبي يحدثني انها غير مجرمة وفي كل حال فاني لا اسمع لأحد أن يهينها أمامي .
وكان الدوق يحاول الخروج من منزله عندما ورد اليه هذا الكتاب فلما فرغ من تلاوته أعاده إلى غلافه ووضعه على طاولته وانصرف وكان زامبا يراقبه فلما خرج سيده دخل إلى غرفته فنسخ الكتاب وذهب بنسخة إلى روكامبول في منزله السري الذي كان هذا الأخير ينتظره فيه وهو متنكر بالشكل الذي يعرفه فيه زامبا وكان منهمكاً بتلاوة كتاب ورد اليه من ابنة الدوق تقول فيه . أن أباهما يعهد اليها بعد موت الدون جوزيف اختيار الزوج الذي ترضاه وأنهم عائدون من اسبانيا فيصلون إلى باريس بعد ثلاثة أيام وفي الختام طلبت اليه أن يجيئها إلى الحديقة عند منتصف الليل حسب العادة .

فلما دخل زامبا أخفى روكامبول كتاب ابنة الدوق فاطلمه على نسخة كتاب باكارا إلى الدوق دي مايلي فاجفل لهذا الخبر وقال في نفسه : لقد أخطأ ظن أندريا فان باكارا لم يشغلها جنون زوجها عن خدمة الدوق ولكنه أخفى اضطرابه وقال لزامبا أن يعود اليه في الساعة الثامنة فانصرف وبعد

ذهابه غير روكامبول شكله وذهب يستشير استاذة اندريا .

وبينما مركبته تسير به وهو يعن الفكرة بكتاب باكارا إذ قطع خيط تصوره صياح السائق بقوله أحذر وروجوعه بالمركبة إلى الوراء فالتفت روكامبول عندما تبين هذا الرجل لأنه عرف أنه فانتير وكيل منزل الأرملة مالاسيس الذي خان أندريا وأفشى سره للكونت أرتوف ، فكان السبب في قطع لسان اندريا كما تقدم في رواية التوبة الكاذبة . فجعل فانتير يشتم السائق دون أن يرى من فيها ، لأن روكامبول احتجب في داخلها حذراً من أن يعرفه ، واستمر السائق يمشي هنيئة فأوقفه روكامبول ونزل وقال له : إذهب بالمركبة الى المنزل ، أما انا فسأعود ماشياً . ذلك لأنه خطر له أن يقتفي أثر فانتير كي يعلم حقيقة حاله

ولما شفى فانتير غله من شتم السائق جعل يمشي في الشارع ، واقتفى روكامبول أثره حتى بلغ الى منعطف الطريق فأسرع اليه وسأله أن يولع سيكارتته من سيكارتته ، قد أراد بذلك ان يعلم اذا كان يعرفه بالنظر اليه ، فأعطاه فانتير سيكارتته ونظر اليه دون اكتراث فأيقن روكامبول انه لم يعرفه وما زال يتعقبه حتى وصل إلى منزله في شارع حقير فأخذ مفتاح غرفته من البواب وصعد اليها وبعد حين عرف روكامبول من هذا البواب ان فانتير يدعو نفسه جوناتس وانه في أشد حالة من الشقاء حتى ان صاحب الغرفة طرده منها عدة مرات لامتناعه عن دفع الأجرة

ولما عرف روكامبول جميع ما يريد معرفته عاد الى منزله وذهب توأ الى أندريا فأخبره بكتاب الغادة الأسبانية ، وبكتاب باكارا الى الدوق ماييلي وبلغائه بفانتير . فأمعن اندريا الفكرة طويلاً ثم قال له بلوحه الحجري : يجب أن يكون فانتير من رجالنا كي نرسله بشأن خطير الى اسبانيا .

فدهش روكامبول وسأله : ماذا يصنع في تلك البلاد ؟

— يذهب لسرقة كتاب باكارا الى الدوق سالانديررا من كيس البوسطة قبل

وصوله الى الدوق .

- وإذا كان الكتاب قد وصل الى الدوق ؟

- ذلك غير ممكن فإنه قد برح اسبانيا أمس اما الكتاب فإنه يسير الى اسبانيا والدوق خارج منها فيمقابلان على الطريق .
- لقد فهمت قصدك وسيكون ما تريد ان يكون .

- ٢٩ -

بينما كان فانتير عائداً الى منزله في اليوم التالي ، ناوله البواب كتاباً باسمه ، عليه علامة المريكز . فاندهل فانتير وقال : العمل أحد النبلاء في حاجة إلي ؟

ثم فض الكتاب بلهف وأسرع بنظره الى التوقيع ، فاصفر وجهه وخارت قدماء ، ذلك انه قرأ « السير فيليام » وبعد ان ملك روعه أخذ يقرأ الكتاب فقرأ ما يأتي .

« عزيزي فانتير .

« بل أيها اللص القديم الخبير بالساليب المهنة . إني عدت الى باريس من سفر طويل بعد ان طفت حول الأرض ، وانا الآن في خير حالة بفضل مؤازرة بعض إخوان ، غير اني أصبحت بعين واحدة . ولكن إذا كانت باكارا قد قطعت لساني فإن ذلك لا يمنعني عن ان اصدر الأوامر بالكتابة ، فاعلم الآن ان عصاقي تهتم منذ شهرين في البحث عنك . وقد بحثت في جميع أنحاء لندرا وباريس ، حتى عثرت بك وأصبحت الآن في قبضي بحيث استطيع ان أبلغ منك ما أشاء وأشويك شيئاً على النار واقطع لسانك انتقاماً منك لأنني أعلم ما يعانیه المرء من الشقاء بعد قطع لسانه ،

ولكني لا أصفح عنك بعد خيانتك لي إلا إذا رضيت ان تدخل في خدمتي وتكون لي عبداً ، فإذا قبلت فتنزه الليلة أمام باب منزلك ، وإذا أبيت فاستعد لما أذرتك به .

(السير فيليام)

فضعض هذا الكتاب رشد فانتير اشدة خوفه من أنذريا ، وأول ما خطر له أن يهرب من انتقامه ولكنه قال في نفسه . لا بد ان يكون قد وضع الجواسيس من حولي فلا سبيل الى الفرار ثم انه لو لم يكن في حاجة الي لكان قتلي دون ان يرسل إلي مثل هذا الانذار

وعندما خطر له هذا الخاطر اطمأن باله وجعل يتمشى أمام منزله ذهاباً وإياباً كما أوصاه السير فيليام في الكتاب .

وبعد ساعة اتى رجل من ورائه وهمس في أذنه : السير فيليام ا

وكان هذا الرجل روكامبول ، فالتفت اليه منزعراً ، وجعل يحدق به دون أن يعرفه فخطابه روكامبول بلمحظة العادية : هلم بنا يا فانتير إلى هذه القهوة نتحدث فيها .

فعرفه فانتير من صوته وصاح منزعراً : روكامبول ؟

— أجل أنا هو . وقد بعثني اليك السير فيليام لترصيد حساب قديم بيننا . ورأى فانتير المسدس بيد روكامبول فخاف خوفاً شديداً وجعل يعتذر اليه عن الخيانة السابقة بأنه اضطر اليها مكرهاً وأنه مستعد للدخول في سلك العصابة متعهداً أن لا يخونها حتى الموت .

فتظاهر روكامبول بقبول عذره وذهب به الى قهوة منعزلة فأخبره بالمهمة التي يقتضيه اليها وهي سرقة الرسائل الذاهبة من فرنسا الى أسبانيا باسم الدوق سالانديررا ، وأرشده الى طريقة سرقتها من كيس البريد ، ثم أعطاه الفبي فرنك ليستعين بها على رشوة حامل البريد إذا تعذرت لديه الوسائل ووعده بعشرة آلاف اخرى إذا نجح في مسماه . ففرح فانتير بهذه المهمة

الجديدة التي أنفذته من مخالف اندريا ومن نكد الفقر وقسالة له : اقتل إذا اضطرتت الى القتل ؟

— لا بأس ولكن تجنب إهراق الدماء ما أمكنك .

فسافر فانتير لساعته الى اسبانيا ، وعاد روكامبول الى اندريا ، فأخبره بما كان ثم قال له : إني لا أعلم الى الآن ، أية فائدة لنا من سرقة هذا الكتاب ؟

— ذلك أن الدوق مايلي يضطر بعدها الى ان يخبر الدوق سالانديرير بانسبه الجديد والشهادات التي تثبت قرابته منه .

فرد روكامبول منذعراً : وإذا وصلت هذه الشهادات الى الدوق مايلي ؟

فضحك اندريا وأجاب : إن الذي سيحضر بها من روسيا خادم باكارا اذا شئت ان يصل اليه سالماً فافعل .

فأدرك روكامبول قصده وأجاب : حسناً .. فسنكن له منذ الليلة ، في الطريق .

بعد ذلك بثلاثة أيام عاد فانتير يحمل كتاب باكارا وهو فرح القلب بنجاح مسعاه ، وفي اليوم نفسه دخل روكامبول الى أندريا يحمل جريدة وسأله : أتريد أن أقرأ فضلاً من هذه الجريدة ؟

فمز أندريا رأسه إشارة الى الرضى ، وقرأ روكامبول ما يأتي بعنصوان جريمة هائلة :

« حدثت جريمة هائلة منذ يومين في غابة سنارت ، وذلك انهم وجدوا في الطريق العام جثة منطرحه على بطنها وهي جثة رجل ظهر من ملابسه انه قوزاقي وقد حسبوا في البدء ان الموت لحادث او مرض ، غير انه تحقق بعد ذاك ان

ان الرجل كان مطعوناً بخنجر في قلبه وأنه مات على الأثر ، وقد ثبت أن قاتله من اللصوص لأن لم يوجد شيء في جيبه من النقود ، فأخذ البوليس في البحث عن الجاني الخ .

ولما فرغ روكامبول من تلاوة هذه القطعة أخذ من جيبه ملفاً من الأوراق وخاطب أندريا . اسمع لاقرأ لك هذه الأوراق التي تثبت نسب الدوق دي مايلي وقرابته من الدوق سالانديرا قبل أن احرقها .

وبعد ان أتم قراءتها قبض اندريا على يده بيسراه وكتب باليمين على لوحه الحجري إحفظ هذه الأوراق وإياك ان تحرقها .

فانذهل روكامبول وسأله أية فائدة لنا من إبقاء الدلائل على قرابة العائلتين ؟

فابتسم أندريا وكتب : إن العاقل يجب ان يتوقع كل شيء ، فان ابنة الدوق مهما كانت تحبك الآن فقد تتغير عليك بل قد تضطر الى عدم الزواج بك ، وعدا ذلك فان الدوق مايلي يدفع أكثر من مليون فرنك ثمن هذه الأوراق .

— لقد أحسنت ولكن ماذا أصنع بالأوراق ؟

— إحفظها

— واذا فتشوا منزلي وعثروا عليها عندي ، ألا تثبت جريمة القتل علي ؟

— إنك قد نسيت انك تدعى الآن المركيز دي شمري لا روكامبول وانك

بعيد عن الشبهات .

فاقتنع روكامبول ووضع الأوراق بجيبه ثم خرج من عند أندريا كي يخفي الأوراق بمحل أمين في منزله ، ولكنه قال في نفسه إني قد أموت فجأة او أقتل في حادث ، ولا أحب ان يهان اسمي بعد الموت ، وخير لي ان أخبئها في منزلي السري ، فاني معروف فيه باسم آخر فعزم على تخبئتها في المنزل السري .

وفي المساء عاد روكامبول الى منزله فوجد فيه رسالة من ابنة الدوق تخبره فيها انها وصلت في الصباح مع أبيها وأمها الى باريس ، ودعته الى موافقتها في الحديقة في الموعد المعين . فلما انتصف الليل ذهب الى لقائها فوجدها تنتظره على مقعد خشبي تظلمه شجرة كبيرة ، فأسرع اليها روكامبول وأخذ يدها فقبلها قبلة حارة مزج فيها الحب بالاحترام ، وجعل الاثنان ينظر كل منهما الى الآخر ، وهو لا يعرف كيف يفتح الكلام ، الى أن تظاهر روكامبول بأنه تغلب على تأثره من هذا اللقاء فقال : هذه أول ساعة منذ شهر ، شعرت أن لي قلباً يعرف لذة الحياة ، فاني لم أكن عاشقاً إلا بالتذكّار .

فضغطت ابنة الدوق على يده ، بينما تابع كلامه إلى بعد سفرك كنت أعد الأيام ، ثم لما علمت بمزمك على الرجوع صرت أعد الساعات ، ثم لما وردني كتابك اليوم أصبحت الدقائق عندي أعواماً . فمساءً أتعب الحب وما أهناه .

- مهما كان من جزعك فانت لم تبلغ به بعض ما كان ، وذاك لأنه كانت تردك رسائلي في كل بريد فتعلم كل أخباري ، أما أنا فلم يردني شيء منك ، وكنت في أشد حالة من الجزع لانقطاع أخبارك حتى كنت أتمادى في ظنوني عندما كنت أناجيك في خلواتي ، وأحسب أنك قد نسيت عهدي .

فقال روكامبول بلهجة المعاتب : أهكذا تسيئين ظنك بمن يموت من أجلك وهو باسم الثغر ؟

وجرت بين العاشقين معاتبات حلوة ، إلى ان ختما على هذا الحديث بقبلات الغرام . ثم تنهدت الفتاة وقالت : إني أقيت الى باريس وأنا أثقل بين الخوف والرجاء وهما رجاء لقيالك والخوف من ذلك الخطر الجديد الذي يتهددني .

فأجاب روكامبول بلهجة المتحمس اي خطر تخافين وانا بقربك ؟
 - إنك أنقذتني من مخالف الدون جوزيف ، ولكنك لا تستطيع إنقاذني
 من إرادة أبي ، فإنه بعد ان سمح لي ان أختار الزوج الذي تميل اليه روحي ،
 كما كتبت لك رجع عن عهده . وهو الآن يرغب إلي ان أقترن بالدوق دي
 مايلي ، لأنه شديد التمسك بالألقاب ، والحرص على الاتصال بالأسرات
 القديمة .

فتمتد روكامبول وأجاب : لقد فهمت أيتها الحبيبة ، فإنه لا ينظر إلي
 بالعين التي ينظر بها الى الدوق دي مايلي ، فما أنا دوق وبيني وبينه تفاوت عظيم
 في مراتب الثروة .

- إني أهواك وكفاني بقلبك النقي ، ونفesk الطاهرة ثروة لا تنضب
 ومجداً لا يبارى .

فأجاب روكامبول ، وقد رأى ان الوقت قد أزف للتظاهر بالكرم
 والمروءة . لصغي إلي ياسيدي وافحصي في أعماق قلبك ، فلعلك لا تجددين فيه
 حب ولده حب الاعتراف بالجميل .

فأنكرت الفتاة قوله وقالت : أنجسر على هذا الظن ؟

- أجل ، فقد تكونين حسبت انك مقيدة بحبي لأني أنقذتك من رجل
 تكرهينه .. لا تنظري إلي هذه النظرات أيتها الحبيبة ، وكوني حكيمة
 عاقلة . فإذا كان أبوك يريد ان يزوجه بهذا الدوق النبيل ، فلا
 تخالفيه .

فدعرت الفتاة من كلامه وقالت : ما هذه القسوة ألا تعلم أي أهواك ؟

- إجتهدى ان تنسيني ، ايتها الحبيبة ، كما اني سأجتهد لاكره قلبي
 على نسيانك .

فأخذت الفتاة يده على يديها وقالت . إني أهواك هوى لا ينسى فاحفظ
 عهدي كما أنا حافظة عهدك . ألا تعلم اني أقسمت يمينا على هواك ما حييت واني

لا أتزوج سواك .

ثم فاضت عينها بالدموع . فركع روكامبول أمامها وأقسم لها مثل يمينها فجدد العاشقان العهد ، وأقسما على ان يهربا الى أقصى البلاد إذا لم يكن بد لهما من الافتراق .

وبعد ساعة خرج روكامبول وسار وهو مطرق الرأس ، يفكر بهذه السعادة الجديدة ، ولا ينظر إلى شيء مما حوله حتى بلغ إلى ضفة نهر السين وهو سائر إلى منزله .

وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، فانتبه لغناء بعض النوتية في قارب ثم نظر أمامه فرأى امرأة عجوزاً تسير وهي تحمل مصباحاً ، فأخرج سيكارة من جيبه ودنا من تلك العجوز وسألها ان يولع سيكارة من مصباحها فلما سمعت العجوز صوته ورأت عينيه صاحت صيحة فرح قائلة ولدي روكامبول كيف عدت ومن أين أتيت ؟

فدعر روكامبول وعرف انها مدام فيبار . ثم أيقن أنها عرفت من صوته ومن عينيه ، فلم يجد سبيلاً للإنكار ولفق لها حكاية طويلة عن حاله ، ثم سألها عن حالها فأخبرته أنها لا تملك قوت ليلة ، وأنها تشتغل مع فانتير ولكنهما لم يرزقا شيئاً منذ أمد بعيد لشدة تيقظ الشرطة

فأجفل روكامبول من ذكر علائقها مع فانتير ، لاسيما وقد عرفته بهيئة الركيز ، فخطبها : لا بأس عليك يا أماء ، فسأئقذك مما أنت فيه من العسر ! .

ثم أخرج من جيبه دينارين وقال : خذي الآن هذه النقود وسأزورك غداً فأناظر في أمرك .

وبينما كانت مدام فيبار تأخذ الدينارين مبتهجة بهما وتضعهما في جيبها قبض روكامبول على عنقها وضغط عليه ضغطاً شديداً ، فصاحت صيحة اختناق ثم سكنت فحسب انه قضى عليها ، وكان قريباً من ضفة النهر فحملها

بين يديه والقاهما فيه ، ثم أسرع الخطى الى ان بلغ الى شارع فركب مركبة وانطلقت به مسرعة الى المنزل .

- ٣٠ -

في اليوم التالي لاجتماع روكامبول بابنة الدوق ، دخل زامبا على سيده الدوق دي مايلي ولفق له حديثاً خلاصته ان ابنة الدوق سالانديررا كانت تكره الدون جوزيف كرهاً عظيماً وانها كانت إذا ذكر لها الدوق دي مايلي يعقب وجهها إشارة الى انها تهواه . وقد أنهى هذه القصة الملفقة بقوله : ان الدوق قد وصل إلى باريس مع امرأته وابنته منذ أمس .
فسر الدوق سروراً عظيماً وقام من مكتبه فكتب الى الدوق سالانديررا الكتاب الآتي :

« سيدي الدوق

« إني أكتب اليك هذا الكتاب وفي يقيني ان الكونتس أرتوف قد كتبت اليك عن القريبى التي تصل بيني وبينك وهو ما أرجو بعده ان تسمح لي بزيارتك لأوقفك على حقيقة هذا النسب الجديد »

« الدوق دي مايلي »

ثم أعطى هذا الكتاب لزامبا وقال له : أسرع به الى الدوق ، وائتني بالجواب .

فأخذ زامبا وانطلق به مسرعاً الى روكامبول في منزله السري . فأطلع عليه روكامبول وقال له : يجب ان تجري مع ابنة الدوق على ما علمتك ثم يجب ان تحرق ذاك الدفاتر الذي أعطته باكارا للدوق دي مايلي فلذلك تعلم أين خبأه سيدك .

- نعم ، فإنه وضعه في صندوق خشبي صغير ، يضعه عادة فوق طاولة الكتابة .

- إذن ، فاذهب الآن الى الدوق الأسباني يجوابه وارجع إلي لأخبرك ما يجب ان تصنع ولا تلس ابنة الدوق .

فذهب زامبا تاركاً روكامبول ينتظر عودته ، إلى منزل الدوق الأسباني . فطلب اليه خادم الغادة الأسبانية ان يستأذن له مولاته بمقابلتها ، ففعل وأذنت له فدخل ورأى عندها وصيفتها ، ونظر اليها نظرة فهمتها إبنة الدوق فصرفت الوصيفة . وعندها وقف زامبا أمامها موقف الخشوع والاحترام وقال : أنا ذنبن لمجرم ان يسألك العفو والرحمة ؟

ثم ركع أمامها فقالت مندهشة : أي ذنب ارتكبته ؟
- إلى خنتك يا سيدتي .

- كيف تستطيع خيانتني وما أنت بخدمتي ؟

- ذاك اني كنت خادماً للدون جوزيف وقد جعلني رقيباً عليك لا تأنفي من النظر إلي يا سيدتي فإن الخيانة عظيمة ولكنني كنت مخلصاً لمولاي وقد وجب له علي الخضوع .

- أراقبتني ؟

- أجل واذا سمعت لي سيدتي أخبرتها كيف كان ذلك .

- تكلم .

- إن الدون جوزيف كان يعلم انك لا تحبينه وانك لم ترض به خطيباً إلا امتثالاً لإرادة أبيك ، ثم انه كان يعلم او كان يظن بانك تهوين سواه فمهد إلي ان اراقب الطريق في جوار المنزل ، لأنه كان يعتقد انك قد تكوني تهوين الدوق دي مايلي .

فظهرت على وجه الفتاة علائم الاشمزاز ، غير ان زامبا لم يكثر لذلك وأتم كلامه قائلاً .

— بينما كنت ليلة اراقب حسب عادتي رأيت رجلاً دخل من باب الحديقة وقد قاده خادمك الى داخلها .

فغضبت وقالت : اسكت أيها الشقي كفى !
— التمس من سيدي ان تسمع حديثي الى نهايته فقد تصفح عني متى علمت كل شيء . ولاني رأيت هذا الرجل فأقام ساعة وخرج منها يسبقه خادمك كما دخل .

فاصفر وجه الفتاة وقالت : أعرفت الرجل ؟
— كلا ولكنه لم يكن الدوق دي مايلي .

ولما رأى زامبا انها تنهدت تنهد الفرج تابع : فأخبرت الدون جوزيف في اليوم التالي بما شاهدت فقال : ما دام ذلك الرجل هو غير الدوق الذي أكرهه كرهاً لا يوصف فلا أخاف مزاحاً غير اني آمرك ان تراقبه وتعرفه غير ان الدون جوزيف قتل في اليوم الثاني ولكن .
ثم توقف عن الكلام فقالت : أتم حديثك .
— ولكنني عرفت الرجل الذي قتل سيدي وسأنتقم منه شر انتقام .
فاصفر وجه الفتاة وخشيت ان يكون واقفاً على حقيقة السر فقالت من هو القاتل ؟

— هو الدوق دي مايلي يا سيدي .
فكادت الفتاة تقول له : كلا ليس هو القاتل !

ولكنها خشيت عاقبة هذا الانكار وان يعلم هذا الخادم انها واقفة على سر القتل ، فاطرقت برأسها الى الأرض وسكتت فقال زامبا : اني حين أيقنت ان الدوق قتل سيدي أقسمت ان أنتقم منه ولذا ترينني جاثياً على ركبتني أمامك .

فذهلت وقالت : إنك لم تخدعني في شيء ايها الرجل ، فإني خدمت سيديك ولا أعلم عن أي خطأ تريد مني ان أصفح عنك

— سيدتي اني تجاسرت على تزوير كتاب توصية لي الى الدوق دي مايلى كي
أتمكن من الدخول في خدمته .
.. أقبل ان يستخدمك ؟
— أجل وانا الآن خادم غرفته .

فاشمازت وحاولت ان تطرده ولكنها فكرت ان ذاك الرجل مضطلع على
بعض سرها وانه رأى رجلاً يدخل اليها من الحديقة فسكتت هنيهة دون ان
تجيبه بشيء ، ثم قالت : حسناً اني لا أنكر ذاك الكتاب إنما قل لي ماذا
تريد ان تصنع بالدوق ؟
— أريد ان أنتقم منه وأمنعه عن القران بك .

فوجف فؤادها وقالت : العله لا يزال يفتكر بي ؟
— بل انه لا يشغله شاغل عنك ولا يحلم إلا بقرانك ، وإذا أذنت لي يا
سيدتي ان أقمادى بالكلام أظهرت لك من دناءة هذا الرجل ما ينفر منه كل
طبيع شريف .
— قل .

— إن الكونتس ارتوف وذاك الدوق قد اتفقا من ثمانية أيام على
طريقة تسهل للدوق أسباب الزواج بك . وذلك قبل نكبة الكونتس
الأخيرة .
— أية نكبة تعني ؟

— الحق انت لا تعلمين شيئاً لأنك كنت مسافرة ، وحكاية هذه النكبة ان
زوجها علم بأنها تخونه مع شاب يدعى رولاند دي كايبت فاتفقا على المباراة
واشتهرت الفضيحة في جميع باريس ، غير ان المباراة لم تحدث لأن الكونت
ارتوف أصيب بالجنون في ساحة القتال .
فأجفلت الفتاة لأنها كانت تعتقد ان باكارا مثال الصلاح وقالت : ما ذاك
الأمر الهائل ؟

- إصغني إلي يا سيدتي فستعلمين من أحوالهما ما هو أشد منه . فارت
هذه المرأة كانت مرتبطة اشد الارتباط مع الدوق دي مايلي كما يظهر ،
وقد أتت الى منزله من ثمانية أيام ، وكنت أنا في الغرفة المجاورة للغرفة التي
كانت فيها مع الدوق بحيث سمعت بعض حديثها ، فانها حين دخلت جلست
قربه دون كلفة وقالت له لقد خطر لي اليوم خاطر عجيب وهو ان أجعلك
دوقاً اسبانياً

- لقد حاولت هذا الأمر مدة فلم تنجحني .

- ذاك لأن الدون جوزيف كان في قيد الحياة . أما وقد زال هذا الحائل
الآن ، فقد خطر لي خاطر غريب ، وهو ان أجعلك من انساب الدون
سالانديرا ، وذلك اني الفق حكاية سرية عائليية ، بلسان عمك المقيم
في روسيا .

ثم اقتربت منه وجعلت تكلمه بصوت منخفض فلم أعد أسمع شيئاً .

فارتفعت ابنة الدوق لما سمعته من هذه الأسرار ، ولم تحب بشيء . فقال
لها زامبا : إذا كنت تثقين بي يا سيدتي ، فاني أفصح هذا الدوق أعظم
فضيحة .

وعند ذلك دخلت الوصيفة وقالت لزامبا : إن سيدي الدوق يأذن لزامبا
بالذهاب اليه .

فانحنى زامبا أمام ابنة الدوق وقال لها : ستريني مرة أخرى .
وذهب بكتاب مولاة الى الدوق ، فأخذ الدوق الكتاب منه وقراه مراراً
وهو يظهر العجب والاستغراب لانه لم يفهم شيئاً ، وبعد ذلك أرسل اليه
الكتاب الآتي :

« سيدي الدوق

« لم يصلني كتاب من الكوندتس ارتوف كما تقول ، وقد يكون كتابها
قد أرسل إلى أسبانيا ، ثم يعود إلي منها الى باريس ، وفي كل حال فاني

لا أعلم أي قرابة تعني . وأنا أنتظرك في منزلي للوقوف منك على هذه التفاصيل ،

« الدوق سانديريرا »

فاخذ زامبا هذا الكتاب وانطلق به الى روكامبول الذي كان ينتظره فلما قرأه قال له . هل كان الدوق دي مايبي لابساً ثيابه حينما تركته ؟
- كلا ، بل كان بلباس النوم .
- أين يضع مفاتيحه عادة ؟
- على مائدة الكتابة

- اذهب إذن وأعطه هذا الكتاب واغتنم فرصة انشغاله بتلاوته ولبس ثيابه فأسرق المفاتيح حتى إذا شاء أن يأخذ الدفتر لا يجد مفتاح الصندوق الموجود فيه فيذهب إلى الدوق ويعده باطلاعه عليه وبعد ذهابه تحرق الدفتر والصندوق ثم تضع النار في جميع أثاث غرفته وتخرج فتصيح النار كي لا يشكك بك ويعلم ان احتراق الدفتر كان قضاء وقدرأ .

- فهمت كل شيء وسأمتثل لكل ما تريد ، ثم تركه وانصرف مسرعاً بالرسالة إلى مولاه .

وكان الدوق دي مايبي ينتظر زامبا بفارغ الصبر فلما عاد اليه بكتاب الدوق اضطرب وقال : أسرع باعداد ملابسني وقل للسائق يعد المركبة ثم دخل إلى غرفته فلبس ثيابه بسرعة ، فسرقت زامبا المفاتيح في خلال ذلك غير أن الدوق لم يفتن بالمفاتيح والدفتر بل ركب مركبته وأمر السائق أن يسرع به إلى منزل الدوق الأسباني فخلا الجو لزامبا وأخذ صندوق مولاه فسرقت ما فيه من الأوراق المالية وأخذ الدفتر فألقاه في المستودع وأضرم النار في الصندوق وفي ستائر الغرفة وأثاثها ثم أقفل باب الغرفة وخرج إلى حيث كان يقيم الخدم فجعل يحادثهم مطمئناً نحو ربع ساعة إلى أن تصاعد الدخان وعللوا باحتراق غرفة الدوق فأسرع بعضهم إلى اطفالها وهرع آخرون لاختبار رجال المطافيء

وفي مقدمتهم زامبا .

أما الدوق دي مايلى فانه لما وصل الى منزل الدوق الأسباني استقبله خير استقبال فأخبره الدوق دي مايلى بجميع ما عرفناه من نسبه الجديد فأظهر الدوق الأسباني دهشاً عجبياً وسروراً عظيماً للنبا، غير أنه بقي مشككاً لعدم وجود أثر له في أوراق فانتير فقال : اني أخشى أنها الدوق ان تكون منعداً، وحبذا لو أطلعني على كتاب قريبك الروسي .

ان ذلك سهل ميسور فان الكتاب في منزلي ، ثم استأذنه وخرج لاحضار الدفتر فلم يطل غيابه وعاد مصفر الوجه وعلائم الاضطراب الشديد بادية عليه فدعر الشيخ لهيئته وقال : ما أصابك ؟

- ذهبت الى منزلي لاحضار الدفتر فرأيت النار ملتهبة فيه ورجال المضخات يشتغلون باطفائه فلم يحترق منه غير تلك الغرفة التي وضعت فيها ذلك الدفتر .

وكان الصديق بادياً في لهجته فطيب الدوق خاطره وقال : لا بأس من احتراق الدفتر فان عمك الروسي لا يزال على قيد الحياة وهو سيرسل اليك سواء

- بل اني انتظر منه ما هو خير من ذلك أي الأوراق المثبتة هذا النسب ويسووني ان الرسول قد أبطأ فقد كان ينبغي ان يكون هنا منذ يومين .

- لا بد له ان يحضر فأقام عنده ساعة وكانت الفتاة حاضرة اجتماعهما فلما انصرف ودعه الدوق الأسباني الى الخارج وقال له: متى وردت هذه الأوراق أسرع وأخبرني بها .

ولما خلا الدوق بابنته أخبرها بمحدث الدوق وقال لها : إذا ثبتت هذه الأوراق كنت من أسعد البشر وكنت امرأة ذاك الدوق

فظهر النفور منها وأوشكت ان تبوح بما حدثها به زامبا ، غير انه دخلت إحدى الزائرات فكففتها مؤونة الإباحة لأنها أخبرت الدوق الأسباني وامراته

بحكاية باكار وجنون الكونت ارقوف .
فأجفل الدوق للحكاية الغريبة وبدأ الظن بالدوق دي مايلي وحسب لعلاقته
مع باكارا الف حساب
أما إبنة الدوق فانها دعت اليها روكامبول وأخبرته بجميع ما جرى
وحكت له حكاية زامبا فطيب خاطرهما وقال : إذا كان ما قاله زامبا صحيحاً
فلا بد لي من إظهار خداع ذاك الدوق .

٣١ -

ولنعد الآن الى فانتير الذي أرسله روكامبول لسرقة كتاب باكارا الى
الدوق من البريد الأسباني . فانه بعد ان تمكن من سرقة ذاك الكتاب وعاد
به الى باريس جعل يفكر بأمره ويقول في نفسه إن روكامبول لا يدفع
عشرة آلاف فرنك في سبيل الحصول على ذاك الكتاب إلا إذا كان
يتضمن سرّاً عظيماً يعود عليه بفائدة تساوي أضعاف هذه القيمة .

فخطر له ان يفتحه وهو في الحطة ولكنه ذكر أندريا فوجف فؤاده من
الخوف وجعل يتردد في أمر فتحه وهو سائر الى منزله حتى بلغ اليه ودخل
الى غرفته فدهش لأنه رأى امرأة ممددة في سريره .

فلما شعرت المرأة بوقع اقدامه انتهت جالسة في السرير فصاح فانتير مندهشاً
مدام فيبار ، كيف أنت نائمة في سريري ومن أين أتيت ؟

— أني آتية من نهر السين ، وقد قت من بين الأموات ، أن روكامبول
ذاك الشقي الخائن الذي رببته وأحسن اليه احسان الأمهات قد ألقاني في
النهر وهو يحسب انه اماتني خنقاً ، فلما سقطت فيه اسرع إلي بحسارة كلوا
يصيدون في قارب فانقلدوني فكتمت أمر روكامبول وجئت أختبيء في دارك

كي لا يشك في موتي لأني أريد أن أضربه الضربة القاضية .
 انت تقولين ما لا تفعلين ، فإنك لا تلبسين أن تريه حق يعاودك الحنو
 وتلنسي جميع إساءته اليك .

— كلا ، فلقد ذهب كل حنو من قلبي بعد ما لقيته من خيائته لا سيما وأنه
 حسن الحال ، فقد رأيتُه متختماً بالماس ، وعليه دلائل الثروة الواسعة ،
 لا شك أنه مقدم على أمر عظيم ، وقد خشني مني حين رأي عرفتُه .
 - أحادثه ؟

- بلى ، فلقد ذكر لي أنه عاد بثروة واسعة من لوندرا ، وإن أندريا
 قد مات .

فقاطعها فانتير ، وقد بدت على وجهه ملامح السرور وسألها : أقال لك أن
 أندريا مات ؟
 - نعم .

فأطرق فانتير هنيهة ثم قال : لا بأس فسنجد طريقة للانتقام منه ، والآن
 فاطمئني لأن لدينا ما ننفق مدة طويلة وخذي الآن فاشتريني لنا ما نأكله فإني
 أكاد أموت جوعاً

ولما خلا المكان بفانتير قال في نفسه : إن أندريا قد مات وروكامبول لا
 أخافه فلأفتح هذا الكتاب فقد يكون لي منه خير جزيل .

ثم ففتح الكتاب وقرأ فيه جميع ما كتبته باكارا الى الدوق الأسباني ،
 ففكر في نفسه : يظهر أن باكارا تريد تزويج الدوق دي مايلي بأبنة الدوق
 سالانديرا ، وإن روكامبول يريد منع هذا الزواج بدليل اهتمامه بسرقة
 الكتاب ، وأنه لا شك بأذن جهده بالحصول على الأوراق التي تثبت حقيقة
 نسب الدوق دي مايلي وقربائه من الدوق الأسباني . ولا يبعد أن يكون
 روكامبول قد تقمص كونتاً أو مركيزاً وأنه يريد الزواج بأبنة هذا الدوق .
 إذن فإن الحرب ستكون شديدة بين باكارا وروكامبول . أما أنا وقد وقفت

على هذا السر فلم إلى أي الفريقين أنضم ... لنبدأ بروكامبول فلم إلى لو ختمت هذا الكتاب وعدت به إليه ، فإنه لا يعطيني إلا بقية العشرة آلاف فرنك هذا إذالم ينتبه إلى أني فتحت الكتاب ، وإذا انتبه فلا يعدم وسيلة يتمكن بها من قتلي بعد أن يعرف أني اطلعت على سره

وأما باكارا فإنها قد تكون جاهلة عودة روكامبول وأنه يحاول الانتقام منها فإذا انضمت إليها وأطلعتها على السر فقد أكسب منها ثروة تغنيني عن هذه الأعمال الشائنة .

ولما رأى أن كفة باكارا قد رجحت وضع الكتاب في جيبه وعند ذلك عادت مدام فيبار فأكل معها وتركها على أن يعود قريباً ثم ذهب توأ إلى منزل الكونت ارقوف ، وسأل بواب المنزل عنه فلم فانتير منه نكبة باكارا وجنود الكونت وقنط قنوطاً شديداً لذهاب آماله أدراج الرياح وفكر في نفسه : لا بد أن يكون لروكامبول يد في جنود الكونت وحادث باكارا .

ثم قال في نفسه بعد الامعان الشديد : إنه إذا كانت باكارا مسافرة فخير لي أن أرى الدوق دي مايلي نفسه وأطلعه على ذلك السر .

ولكنه رجع عن هذا العزم وقال : إنني أنفقت العمر وأنا أشتغل لغيري فلا أشتغل الآن لنفسي لأن هذا الدوق قد يعلم مني السر ثم ينفخني بقليل من النقود لا يسد عوزاً ولا يغني من فقر .

وعند ذلك دخل إلى القهوة في الشارع الذي كان فيه ، وخطر له أن يبدأ بالكون أمام منزل الدوق سالانديررا كي يعلم إذا كان روكامبول يزوره ثم أخذ جريدة وجعل يقرأ فيها فأصاب نظره إعلاناً مفاده أن الدوق دي مايلي يحتاج إلى سائق إنكليزي لمركبته ، فصفق بيديه سروراً وقال : هوذا الصدفة قد بدأت تخدمني ، فاني أعرف اللغة الانكليزية كأبنائها وقد احترفت هذه المهنة عشرة أعوام . فلأذهب الآن إلى الدوق وربما قدت يوماً

مركبة عرسه

ونهب في الحال وذهب الى الدوق مايلى ، بعد ان تشكر وتقلد الانسكليز ،
فعرض عليه خدمته وقبله على سبيل التجربة فنزل فانتير الى الاصطبل يفحص
الجياذ وذهب الدوق في زيارته الخصوصية .

وبعد ذلك دخل زامبا غرفة مولاه وجلس فيها يتأول بما صار اليه أمره
وفيا هو على ذلك إذ دخل عليه أحد خدام المنزل فقال له : يوجد رجل على
الباب يريد ان يراك .

— من هو ذاك الرجل ؟

— لا أعلم !

ثم وصفه له ، فعلم زامبا أنه سيده الحقيقي أي روكامبول وأمر الغلام ان
يدخله في الحال فجاء به الغلام وانصرف .

فلما خلا روكامبول بزامبا قال له : إنني جئت لك لأمرين خطيرين عندي
أحدهما أن تطرد السائس من الاصطبل ، وتعين السائس الجديد الذي
سأرسله اليك .

— هذا سهل . فما أمرك الآخر ؟

— الثاني هو أن تستلقت أنظار الدوق حينما يعود الى هذا الفصل المنشور
بهذه الجريدة .

ثم أعطاه الجريدة فأخذها زامبا وأجاب : وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك تنظر ما يكون من أمر الدوق بعد تلاوته هذا الفصل وتأتي

إلي فتخبرني بجميع ما يحدث

ثم تركه وانصرف فشيعه زامبا بملء الاحترام إلى الباب الخارجي .

وبعد هنيهة عاد الدوق فلقى زامبا ويده الجريدة فسأله : ما هذه الجريدة

التي بيديك ؟

فتظاهر زامبا بالاضطراب وأجاب : قد اشتريتها لك يا سيدي

خاصة ، لأنها تتضمن مقالة عن تفصيل مقتل رجل في غابة سنارت ، بين ميلين وباريس .

-- ولماذا يعني هذا القتل ؟

- ذلك لأنني أخشى ان يكون ذاك الرجل المقتول نفس الرسول الذي ينتظره مولاي الدوق من روسيا .
فاضطرب الدوق اضطراباً شديداً ، وأخذ الجريدة وجعل يقرأ المقالة بلاء الاهتمام .

وكانت خلاصة تلك المقالة ان هذا الرجل قتل بخنجر وان جثته عرضت في ليوسانت فلم يعرفها أحد وأنه يوجد في صدره وعلى يديه وشم وأنه كان قادماً من روسيا ، ولكنه لا يوجد في جيوبه من النقود مما يظهر على ان اللصوص قتلوه .

فلما أتم الدوق تلاوتها تأمل برهة ثم قام الى مائدة الكتابة فكتب الى الدوق الأسباني ما يأتي :

« لا أعلم كيف أحاطت المصائب بهذه الأوراق التي أنتظر ورودها من أودسا لأنني حين عدت الى منزلي قرأت في جريدة المحاكم ان رجلاً قتل في غابة سنارت ، وأخشى ان يكون رسولي . ولذا فاني مسافر الى ليوسانت حيث تعرض الجثة الآن . وأرجو في كل حال ، أن أعثر على هذه الأوراق وأرسلها اليك غداً صباحاً ، لأنني مسافر وأعود دون أن أتوقف » .

ثم ختم الرسالة وأعطاهما لزامبا قائلاً : اذهب بهذه الرسالة الى الدوق .

ثم ركب جواداً من الاصطبل وانطلق يعدو به الى روكامبول .

أما فانتير فانه صعد الى الدوق فراه على اشد حالة من الاضطراب وبيده جريدة المحاكم فحفظ اسم الجريدة ووقف ينتظر أمر مولاه فقال له الدوق : تأهب للسفر في الحال الى ليوسانت .

فامتثل فانتير وخرج فأمر السائس ان يعد المركبة ، وأسرع إلى بائع
جرائد بالقرب من القصر فاشتري منه تلك الجريدة وقرأ فيها تلك المقالة فقال
في نفسه: إن يد روكامبول منغمسة في هذا الدم المسفوك دون شك وهو الفصل
الثاني من الرواية لأنني انا مثلت الفصل الأول بسرقة الكتاب وهو مثل الفصل
الثاني بسرقة الأوراق

وبعد هنية أقبل الدوق وكانت المركبة قد أعدت فركب بها وأمر السائق
ان يسير حتى إذا مر بمنزل الكونت ارتوف أوقفه ودعا البواب اليه وسأله :
أعرفت الرسول الذي بعثته الكونتس الى روسيا ؟
- أجل وهو لم يعد الى الآن .

- أتعرفه جيداً ؟
- أجل إنني أعرفه منذ عشرة أعوام وأنا أدخلته في خدمة الكونت .

- أرأيت صدره عارياً في مدة عشرتك له ؟
- أجل رأيته مرات كثيرة وفيه كثير من الوشوم وعلى جنبه الأيسر وشم
آخر يمثل رجلاً عارياً الى وسطه وهو يحمل مدفعاً بيديه .

فاكتفى الدوق بما سمع وأمر فانتير ان يواصل السير فما زال يسير حتى
وصل الى ليوسانت بعد منتصف الليل فدخل إلى فندق وسأل صاحبه عن
الجريمة التي حدثت وعن المكان الذي عرضت فيه الجثة فذهب به يدله عليها
وذهب فانتير في أثرهما .

فلما رآها الدوق وفحصها رأى ذلك الوشم الذي أخبره به بواب منزل
الكونت ارتوف ، فأيقن انه رسوله ووقف وقفة الحائر المضطرب وهو لا يعلم
إذا كان هذا القتل بسبب الأوراق أم انه كان من قبيل الاتفاق ، غير ان
فانتير لم يدع له وقتاً لإطالة التمعن فانه ما أوشك ان نظر الجرح حتى عرف
الخنجر فدنا من الدوق وقال له بالانكليزية : لقد عرفت الجرح وعرفت السلاح .
فارتعش الدوق وحاول ان يسأله غير ان فانتير أوقفه بإشارة وخاطبه بصوت

منخفض : لا تقل كلمة أمام هؤلاء الحراس .

ثم خرج الدوق وفانتير فقال فانتير : لم يعد لنا شغل في المكان فلنعد إلى باريس ، فأجفل الدوق من لهجة فانتير إذ كان يكلمه بدون كلفة ونظر إليه نظرة المستغرب ، فقال فانتير : لا يستاء مولاي اني اكلمه بهذه اللهجة واذا أذن لي ان اكلمه بحرية واراد ان ينسى هنيئة اني سائق مركبته انه لا يندم عما فعل .

- إذن تكلم .

- ليس هنا يا سيدي فان الحديث يطول ، فزادت دهشة الدوق ومشى أمامه إلى المركبة .

ركب فانتير بازائه وسارت بهما المركبة يقودها الدوق فبدأ فانتير الحديث وتكلم باللغة الفرنسية ، قال :

- لم يمض علي ليلة في خدمتك بعد ومع ذلك إني أعرف نصف سرّك واول ما ابدأ به هو انك عاشق لابنة الدوق سالانديرا .

فقال له الدوق بمظمة : ماذا تقول ؟

ليعلم مولاي اننا نسير في ظلام ليل دامس فاذا كلمني دون كلفة فلا يحد من يواخذة إذ لا يحد من يراه ولو سمح لي ان اتكلم لشرحت له حقيقة موقفه وربما فرجت ازمته الحاضرة - قل ما تشاء .

قلت لك يا سيدي انك تعشق الغادة الاسبانية .

- هذا اكيد .

- وان الكونتس أرتوف التي كانت تدعى من قبل باكارا خطبتها لك فرفض أبوها .

- وهذا أكيد أيضاً

ولكن باكارا عرفت بعد ذلك قريباً لك في روسيا فعرفت منه انه

يوجد قربي بينك وبين الدوق سالانديرا .
 فزاد افذهال الدوق وقال : كيف عرفت جميع هذا ؟
 من الكتاب الذي ارسلته باكارا إلى الدوق الأسباني فوصل إلي قبل ان
 يصل اليه وهو لا يزال معي
 فذعر الدوق وقال : كيف هذا ومن أنت أيها الرجل ؟
 اني ياسيدي ذاك الرجل الذي سينقذك من خطر عظيم فعندك أعداء لا
 تعرفهم جعلوا أقصى مرادهم ان يحولوا دون زواجك بابنة الدوق .
 - من هم أعدائي ؟
 - ستعرفهم بعد حين وارجو أن تكتفي الآن بان تعلم بانهم هم الذين سرقوا
 كتاب باكارا وهم الذين قتلوا الرسول القادم من روسيا وسلبوه الأوراق .
 فغضب الدوق وقال : أتعرف هؤلاء الأسافل وتشاركهم في سرقة الكتاب
 ثم تدخل في خدمتي ؟
 - اني ما دخلت في خدمتك وما تشكرت بهذا الزي الذي تراني فيه إلا
 لأفضح أمرهم انهم أشداء يجب معهم الحرص الشديد .
 - وأية غاية لك من فضيحتهم بعد ان كنت في عدادهم ؟
 - لا غاية لي غير أن أحصل منك على مكافأة تغنيني في مستقبل أيامي عن
 مثل هذه الأعمال الشائنة وأعلم ياسيدي انك الآن لا تعلم سوى أن لك أعداء
 ولكنك لا تعرف شيئاً من أمرهم ولا تدري كيف تقيمهم فاذا كنت لا أخلص
 في خدمتك فانك لا تتزوج ابنة الدوق على انك إذا عملت بما أقوله لك واتبعت
 مشورتي فلا بد لك من الزواج .
 - قل ما تريد ان يكون جزاؤك
 - قبل أن أعين المال اسأل مولاي أن يتعهد لي بابقائي في خدمته سائماً
 لمركباته وأن لا يعلم أحد من الناس بما يدور بيني وبينك وان تتبع مشوراتي
 وان لا تسألني أقل سؤال عما أجريه .

- اني أتعهد لك بجميع ذلك
- إذن فلنبحث بأمر الجزاء ، اعلم يا مولاي أني كهل قد ناهزت الخمسين وقد فطرت على الكسل بحيث لا أستطيع احتمال تعب الأعمال فأنا أطلب من مولاي إيراداً سنوياً قدره ٢٦ ألف فرنك
- أي أنك تريد خمسمائة ألف فرنك .
- هو ذاك يا سيدي غير أني لا أقبض منك فرنكاً قبل ليلة زفافك ، فإذا بلغت مترادك من هذا الزواج دفعت لي هذا المال وإلا فاني لا اطالبك بشيء .
- لكن ما تريد على شرط أن ترجع لي الأوراق المسروقة .
- سأجدها .
- كيف ذلك ؟
- ليدكر مولاي ما تعهد به فإذا كان يريد أن يصل إلى نتيجهته المطلوبة فلا يسألني عن شيء .
- ليكن ما تريد ولكني أسألك مسألة واحدة فقط وهو أيطول الزمن الذي تجدد فيه هذه الأوراق ؟
- لا أستطيع أن أعين الزمن غير انه لا يقل عن اسبوع .
- وهنا انقطع الحديث إلى أن بلغت المركبة إلى مكان تظهر منه مياه نهر المارن على أشعة القمر فقال فانتير : أنظر إلى هذا النهر يا سيدي فإني أحد أعدائك القوي فيه ضمن كيس منذ خمسة أعوام ولكنه مزق الكيس بخنجره قبل أن يبلغ إلى العمق وتمكن من النجاة ومثل هؤلاء الأعداء الأشداء ينبغي معهم كل حذر فاني ما أقدمت على مقاومتهم والانضمام اليك وإلا وأنا مخاطر بحياتي أشد الأخطار .

- ٣٢ -

ولما وصلت مركبة الدوق إلى منزله كان جميع من في القصر نياماً ، فدخل فانتير إلى الأصطبل بعد أن قال للدوق أحذر من جميع من في منزلك .

أأحذر من زامبا أيضاً ؟

— منه على الأخص فان جميع ما أراه منه يحملني على الريبة به .
فتركه الدوق وصعد إلى غرفته فرأى على مائدته كتاباً عرف أنه من الدوق
الاسباني ففضه للحال وتلا فيه ما يأتي :

« سيدي الدوق

« اضطرت إلى السفر سفيراً فجائياً مع عائلي بضعة أيام وأنه قد عرض
لنا من الحوادث التي لا يسعني ذكرها ما يدعوني إلى الرجوع عن ذلك الاتحاد
الذي نوبنا على اجرائه أرجوك أن لا تلج علي بعد في هذا الشأن وأن
تقبل احترامي »

(الدوق سالانديررا)

وقد دعا الدوق الاسباني إلى قطع علائقه مع الدوق مايلي ما رآه من كذبه
في انبائه فقد أخبره أن باكارا أرسلت اليه كتاباً فلم يصل الكتاب وأخبره أن
عمه أرسل له دفترأ حكي له فيه قصة اتصاله بمائلة سالانديررا فلما طلب اليه
الاطلاع على هذا الدفتر قال له . انه أحترق ، وأخبره أخيراً أنه أرسل رسولاً
إلى روسيا ليحضر له الأوراق التي تثبت نسبه ، ثم قال : أنت الرسول قتل
فدعت جميع هذه الأسباب مع ما عرفه أخيراً من خيانة باكارا وأنها كانت في
سابق عهدها من بنات الهوى إلى أن يرسل الدوق الاسباني هذا الكتاب إلى
الدوق مايلي ، أما ما أشار اليه في كتابه من أمر السفر وهو أنه عازم على شراء
أرض في ضواحي باريس من فابيان صهر روكامبول فهو حقيقي .

فلما اطلع الدوق مايلي على هذا الكتاب ورأى أن قطع العلاقة ظاهرة

فيه لا يحتمل الشك سقط الكتاب من يده لفرط تأثره ولكنه ما لبث أن عاد إليه الأمل بفانتير ، فأخذ الكتاب ونزل إلى حيث كان فانتير ، فأشار إليه أن يدنو منه .

ثم لما خرجا من الأصطبل ناوله الكتاب دون أن ينبس بكلمة فأخذه فانتير وقرأه ثم جعل يتأمل الغلاف والختم بامعان وقال : لا بأس فلا بد أن تحين الساعة تعرف فيها الحقيقة ، ولكني أرجوك أن تخبرني عن الذي أحضر لك هذا الكتاب .

- زامبا دون شك .

- إذن اعلم ان هذا الرجل يخونك إن الكتاب قد فتح قبل أن يصل إليك وهي حقيقة لا تخفى على من كان مثلي من أرباب المهنة ولكنها تخفى عليك .

فاجفل الدوق وقال : أتري لأجل من يخونني ؟

- لا أعلم ولكني أرجح انه يخدم أعداءك الذين سرقوا كتاب باكارا وقتلوا الرسول لأن أعداءك لا يمكن أن يعملوا بكتاب باكارا وبأنك تلتظر الرسول من روسيا إلا من رجالك .

- لقد أصبت ، ثم خطر له في الحال إحراق غرفته وإحراق الدفتر فيها فأيقن أن زامبا يخونه وقال : لا بد لي من طرد هذا الخائن وعقابه .

- كلا ، بل يجب أن تبقيه .

- كيف أبقى هذا الخائن في منزلي بعد ثبوت خيانتته ؟

- نعم ، ولو عشت مثلي بين أولئك الأشرار لعلمت الفائدة التي يمكن نيلها من عدو متستر وهو يحسب أنك واثق به .

- إذن افعل ما تريد

- بل أنت افعل ما أقوله لك ، اصعد الآن إلى غرفتك وأجلس في سريرك وعندما يدخل زامبا أظهر امامه أنك بأشد حالة من اليأس وأنا اتكفل بالباقي .
ألا أكتب للدوق الاسباني ؟

- كلا .

- لكنه يسافر .

ليسافر .

فاضطرب الدوق وقال : إني لا أفهم شيئاً من هذه الألفاظ .

- لا ينبغي ان تفهم فإني قد وضعت خطتي وليعلم مولاي أن تفهم لا يكون إلا بزواجه

فرجعت ثقته بفانتير وأجاب : لقد أصبت . إفعل ما تشاء .

ثم تركه وانصرف فانتير لينام .

وفي الساعة نفسها التي أحضر فيها زامبا كتاب الدوق الأسباني الى الدوق دي مايلي المتضمن لقطع الملائق ، كان روكامبول جالساً أمام استاذة أندريا يخبره بشأن الكتاب وبمزم الدوق الأسباني على السفر ، فقال له اندريا بلوحي الحجري : لقد أحبطت مساعي الدوق ، ولكنك لم تخبرني شيئاً عن فانتير ، ألم يعد بعد ؟

- كلا فإن غيابه يشغل بالي

ففكر أندريا هنيهة ثم تابع : إن هذا الرجل قد خائنا كما خائنا من قبل ، ولكنه لا يستطيع أن يستفيد بشيء من الكتاب لأن باكارا سافرت ، على أنني أخشى ان يتصل إلى غيرها . وفي كل حال فانه يجب أن نفرغ من أمر الدوق دي مايلي

فارتعش روكامبول وقال له : ألق قول لي شيئاً عن خطتك التي أنفذها كآلة الصماء ؟ وماذا تبغي من إدخالني سائساً في اصطبل الدوق دي مايلي ؟

- إني لا أقول لك شيئاً لأنك لا تزال على غرور الصبي ولم تمرنك التجارب

- بعد ، إكتف بتنفيد أوامري .
- ليكن ما تريد . فماذا أفعل غداً ؟
 - تتناول أولاً الطعام مع أختك وصهرك .
 - وبعد ذلك ؟
 - تذهب وتتنزه .
 - وبعد ذلك ؟
 - تتوجه الى النادي وتسلي نفسك بالمقامرة .
 - أراك تهزأ بي !
 - هو ما تقول . ولكن بعد أن تعود من النادي وقبل ان تذهب لوداع ابنة الدوق تعال إلي لأخبرك لماذا يحتاج الدوق دي مايلي الى سائس مثلك في إصطبله .
 - فانصرف روكامبول ففعل كما أوصاه . وفي اليوم التالي عاد اليه وسأله :
اني فعلت جميع ما أوصيتني به ، فهل تقول لي الآن لماذا يحتاج الدوق الى سائس ؟
 - أجل ، فهل سمعت بهذا المرض الذي يسمونه « الجفرة الفارسية » ؟
 - إنه مرض قتل يصيب الخيل والأبقار فيفتك بها .
 - وهو إذا أصاب الناس قتلهم أيضاً .

- ٣٣ -

لقد تركنا الدوق جاعلاً كل اعتماده على فانتير في أزمته التي ضاق صبره عن احتمالها . أما فانتير فإنه لما أصبح وحده جعل ينظر في موقفه ويقول :
إن اثنين يتنازعان على هذه الغادة الأسبانية وهما الدوق دي مايلي وروكامبول

ولكني لا أدري إذا كان روكامبول يشتغل لغيره او لنفسه . فقد تعود هذا الجسور ان يتقمص كل يوم في نفوس الكونتية والبارونات . وهنا السر ، إذا كان يشتغل لنفسه فأني مركيز هو الآن ؟ وماذا يدعى ؟ وكيف لي ان أعلم ذلك ؟ وإذا كان يشتغل لغيره فاني أبحث منذ يومين ولا أهندي شيء ، ولا يعلمون أن أحداً طلب ابنة الدوق غير الدوق دي مايلي . على أن مدام فيبار أخبرتني انها رأت روكامبول قادماً من الطريق المؤدية إلى منزل الدوق الأسباني وأنه كان لابساً أفخر لباس ، إذن لا بد ان يكون قادماً من ذلك المنزل حين رآته وقد يتفق ان ابنة الدوق أحبته وأنه يكيد هذه المسكائد من أجل زواجها ، وعلى ذلك لا بأس من ان أكن له في تلك الطريق ليلتين او ثلاثاً لعلي أهندي الى حل ذلك اللغز .

ثم قام لساعته فتشكر وذهب الى الشارع الذي كان فيه منزل الدوق فجعل يسير فيه ذهاباً وإياباً وهو يراقب الباب . ولبت في مكانه الى منتصف الليل فرأى رجلاً قدم الى باب الحديقة ففتحه بفتاح خاص ودخل وأقفله من ورائه فقال فانتير : لا أعلم إذا كان هذا الرجل روكامبول او سواء ولكنسه عاشق ابنة الدوق دون شك وسنعلم من هو هذا المزاحم .

وبعد ساعة خرج الرجل نفسه كما دخل من باب الحديقة ، فرأى فانتير ان رجلاً شيعه إلى الباب فمد الرجل ، وكان روكامبول ، يده إلى جيبه وأخرج منها نقوداً فأعطاهما للرجل الذي شيعه . فسمع فانتير ان الرجل شكره ودعاه بمركيز ، ثم أقفل الباب ومضى روكامبول في شأنه ذاهباً الى منزله السري فدخل اليه وأوقد شمعاً فقال فانتير في نفسه : لقد عرفت الآن أين تسكن أيها المركيز وسنري في أمرك . ثم صبر هنيهة الى ان أطفئ النور ، فحسب أنه دخل الى سريره لينام ، فذهب في شأنه . اما روكامبول فإنه اطفأ الشمعة وخرج من باب آخر يؤدي إلى شارع آخر غير الشارع الذي كان واقفاً فيه فانتير .

وفي اليوم التالي ذهب فانتير متذكراً بملاص الحسدم الى منزل روكامبول
 السري وقال للبواب ، اين حضرة المريكز اني احمل كتاباً له ؟
 - اي مريكز تعني ؟ فليس في هذا المنزل من يلقب هكذا
 - اريد به ذلك الشاب الذي يسكن في الطابق الأول
 - إنه يدعى المسيو فريدريك .
 لا بأس فهو الذي اعنيه العله في منزله ؟
 - كلا لقد سافر منذ ساعة وهو لا يعود إلا بعد ثلاثة ايام .

وكان فانتير يكلم البواب ويفحص المنزل ، فرأى ان له منفذين فترك
 البواب وهو يقول في نفسه : لا شك اني ابله ، لقد حسبت امس انه نام حين
 اطفأ الشمعة ولكنه خرج دون شك من الباب الآخر ، فان من يطمع بزواج
 ابنة الدوق سالانديرا لا يسكن مثل هذا البيت الحقير ، ولا يكون اسمه
 المسيو فريدريك .



ولنعد الى روكامبول فانه بعد ان امر زامبا ان يطرد السائس من اصطبل
 الدوق مايلي وبعد ان امثل زامبا كما امر ، قدم روكامبول بزي سائس
 فأدخله زامبا في الخدمة بدلاً من السائس المعزول . فلما تقرر قبوله استأذن
 السائق وهو فانتير كي يذهب لإحضار ملابسه ، فأذن له ولم يعرف احدهما
 الآخر لمباالغتهما في التنكر .

اما روكامبول فانه ذهب الى منزله فقير زيه وانطلق الى اندريا فأخبره
 بما فعل ، وسأله تعليماته فقال له : يلبغي عليك الآن ان تذهب الى غرفتك
 فتأخذ دبوساً غليظاً وتضعه في علبة ثم تذهب في الصباح فتتنزه في جهة
 مونتفوكون .

فطن روكامبول انه يهزأ به فقطب جبينه وقال : ما علاقة الدبوس

وتنزهني في هذه الجهة بدخولي في صفة سائس في اصطبل الدوق ؟
 - سوف تعلم فانك تذهب الى تلك الجهة التي يلغون فيها الخيول المصابة
 بالحمرة الفارسية ، ولا بد ان تلقى فيها جواداً اصيب حديثاً بهذا الداء فاذا
 عثرت به خذ الدبوس من العلبة وشكه ببطن الجواد ثم ارجعه الى الملبسة
 واقفلها ، واحذر ان يكون في يدك اقل خدش حين تمس هذا الدبوس المغموس
 بدم الجواد .

فهرقت عينا روكامبول وقال : اظن اني علمت مرادك .

- كلا انك لا تعلم شيئاً فاسمع انك بعد ان تغمس الدبوس بدم الجواد المريض
 تذهب به الى منزل الدوق دي مايلي .
 - أشك به الدوق ؟

فهز اندريا رأسه هائلاً واجاب كلا بل تشك به بطن الجواد الذي يفضل
 الدوق على سائر جواده .

- لماذا تريد ان يسري ذلك المرض الى جواده دونه ؟

فغضب اندريا وقال له بلوحه الجعري : قلت لك مراراً لا تسألني عن
 شيء بل اكتفي بتنفيذ اوامري .

فاجاب روكامبول اني لا اصفح عنك لاحتقارك لي إلا اذا تزوجت
 ابنة الدوق .

- إنك لا تحرم زواجها إلا اذا قضي علي بموت فجائي ، والآن اذهب لم
 يعد لي ما اقوله لك .

فذهب روكامبول ممثلاً الى تلك الجهة فلقى جواداً مصاباً بهذا الداء
 وغمس دبوسه بدمائه . ثم عاد مطمئناً فذهب الى النادي واقام فيه الى ان
 حان موعد اجتماعه بابنة الدوق فذهب اليها ، واخبرته انها مسافرة مع
 ابوها وامها الى قرية في جوار باريس وذلك ان ابها يريد شراء ارض في تلك
 الضواحي .

لقد عرفت هذا فان الأرض ارض صهري ، وهو سيذهب معكم
تصبحه اختي

فسرت سروراً عظيماً وسألت : إذن ستذهب معنا ؟
— كلا بل سأقبعكم بعد اربعة ايام كي يكون صهري واخي قد رشعاني
لخطبتك لدى أببك وامك فقد علمت اخي بسرنا

ولبت العاشقان ساعة ثم افترقا ، وفيما كان روكامبول عائداً يسير على
ضفة النهر إذ رأى كثيراً من الناس محتشدين في المكان الذي القى فيه مدام
فيبار فأسرع الخطى واختلط بين المحتشدين فرأى ان فريقاً من البحارة
مجتمعون حول فتاة أنقذوها من الغرق ، فسأل احدهم : ما شأن
هذه الفتاة ؟

— لا ندري ؟ سوى ان هذا الأسبوع قد بات موسم الانتحار عند
النساء . فأننا خلصنا الآن تلك الفتاة ومن ليلتين خلصنا امرأة عجوزاً كانت
مشرفة على الاختناق

فأجفل روكامبول وسأله وكيف انتحرت تلك المعجزة ؟ وما
هي صفاتها ؟

— لقد قالت لنا انها انتحرت لفقرها وبأسها ، فجمعنا لها من النقود
ما تيسر . ثم وصف له صفاتها فوجف قلب روكامبول ، وأيقن انها
مدام فيبار ، وقال في نفسه : لاني لم اجهد عليها حين خنقتها لثقتي انها
ستموت غرقاً .

ثم اسرع الى اندريا وكان قائماً فأيقظه وأخبره بما سمع عن مدام فيبار
فأطرق اندريا ملياً ثم قال : ألم تعلم شيئاً عن فانتير الى الآن ؟
— كلا وقد بت أخشى ان يلتقي بدمام فيبار وهي تعرفني إذا رأني .

— لا بأس إنك سوف تجدها لأن الشارع الذي تقيم فيه غير متسع الأرجاء
والآن قل لي اذهبت الى موندفوكون ؟

- نعم . .
 - أغمست الدبوس بدماء الجواد المصاب ؟
 - نعم .
 - إذن فاذهب الآن ونم وعند الصباح إذهب الى اصطبل الدوق وشك
 دبوسك ببطن جواد الدوق .
 وفي صباح اليوم التالي ذهب روكامبول بعد ان تنكر بزي سائس إلى
 اصطبل الدوق وفعل ما أمره به اندريا .

- ٣٤ -

في الساعة العاشرة من الليلة نفسها كان فانتير كامناً أمام منزل روكامبول
 السري وفي جيبه حلقة علق بها عدة مفاتيح مختلفة وبعض الآلات التي لا
 يستغني عنها اللصوص لفتح الأبواب ، ثم جعل يخطر ذهاباً وإياباً أمام ذلك
 المنزل يترقب غفلة بوابه للدخول اليه بعد أن أيقن ان روكامبول قد سافر منذ
 الصباح كما أخبره البواب الى ان دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل فوثق ان
 روكامبول قد سافر حقيقة إذ لم يعد حسب عادته . واغتتم فرصة موافقة فدخل
 الى المنزل وفتح بابه بأحد المفاتيح التي كانت معه ودخل فرأى الظلام سائد
 ولا أثر لوجود أحد في البيت ، ولكنه قال في نفسه : لا بد ان يكون في هذا
 البيت خادم او طباح .

فأخذ من جيبه شمعة فأشعلها وأخذ بيده الأخرى غدارة وجعل يمشي على
 رؤوس أصابعه فيفحص كل غرفة حتى تفقد جميع البيت وأيقن انه لا يوجد
 فيه أحد ، فأضاء مصباحاً نهالاً وجده في غرفة المائدة وأطفأ شمعته ثم قال في
 نفسه : لأبحث الآن عن هذه الأوراق التي تثبت نسب الدوق مايلي ، لا بد

أن يكون روكامبول قد خبأها في هذا المنزل .

وعاد يتفقد الغرف حتى بلغ الى غرفة المكتبة فلقي فيها صندوقاً ضخماً فعالجه حتى فتحه وبحث فيه فوجد كثيراً من النقود وأشياء مختلفة فلم يحفل بها ولكنه لم يجد أثراً للأوراق فشغسل قلبه وجعل يفتش في جميع الخزائن دون ان يعثر على شيء حتى خطر له ان يفتش المكتبة وقال في نفسه : اني أعرف كثيرين من الذين يخبئون الأوراق المالية بين صفحات الكتب ولا يبعد ان يكون روكامبول فعل مثل ذلك .

فأخذ يفتش كل كتاب في المكتبة فيمسكه من طرفيه ويهزه فلا يسقط منه شيء . وفيما هو على ذلك إذ سمع صرير مفتاح في قفل الباب فأقفل المكتبة في الحال وأطفأ المصباح واختبأ وراء ستارة الغرفة ثم سمع وقع أقدام في الرواق ثم سمع احتسكاً عود من الكبريت فاشعلت شمعة ودخل بها ذلك القادم الى المكتبة وهو يغني فعرف فانتير من صوته انه روكامبول وكان ينظر اليه من خلال الستارة وييده الغدارة محشوة فحار في أمره لأن صوته يدل على انه روكامبول وهيئته لا تدل على شيء من ذلك إذ إنه كان متقمصاً بهيئة الماركيز دي شمري .

أما روكامبول فانه وضع شمعته على المائدة وفتح المكتبة فأخرج منها كتاباً ضخماً أحمر الجلد ففتح أول ورقة منه فتفقدتها ثم أعاد الكتاب الى محله فقال فانتير في نفسه : لقد فتشت الكتاب فلم أجد فيه شيئاً ولا بد ان تكون الأوراق فيه وقد تفقده ليطمئن على كنزه الثمين .

وبعد ان اطمأن روكامبول على الأوراق اطفأ الشمعة وخرج وهو يغني فلما سمع فانتير إقفال الباب صبر هنيهة الى ان تحقق بعد روكامبول ثم اضاء الشمعة وأخرج ذلك الكتاب وهزه فلم يسقط منه شيء فجعل يقلب صفحاته بيده صفحة صفحة ، حتى وصل الى الصفحة البيضاء في آخره فرأى انها ثخينه - غير متناسبة مع اوراق الكتاب فرقص فؤاده من الفرح وأيقن ان الأوراق

مخبوءة بين ورقتين .

وعند ذلك أخرج مدية رقيقة الشفرة من جيبه وحاول ان يفصل بينها ولكنه خشي ان يחדشها وخطر له ان لا يبقى أثراً لسرقته فأسرع الى المطبخ وغلا الماء على النار حتى تصعد -اعد بخاره فوضع ورقة الكتاب فوق البخار هنيئة حتى سال غراه ففصل الورقتين وأخرج من بينهما تلك الأوراق المثبتة للنسب الدوق وهي شهادتان مكتوبتان على ورق رقيق فحقق قلبه سروراً وهو يحسب انه ملك زمام السعادة وقراها حتى إذا أتم قراءتهما وضعهما في جيبه وأخذ ورقتين تناسبهما من الورق الأبيض ووضعهما بين صفحتي الكتاب بدلاً من الشهادتين ، ثم الصقهما بصمغ كان على الطاولة ، وأعاد كل شيء إلى مكانه ، وخرج من ذلك المنزل بعد أن أطفأ النور وبلغ منه ما يريد .

وكانت الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، فأسرع الى قصر الدوق كي يعطيه الشهادتين غير انه لم يستطع ان يراه لأنه كان نائماً فقال في نفسه : لا بأس فسأعطيه إياها في الصباح .

ودخل الى الاصطبل ليستفقد الجياد ، فرأى جواداً نائماً على الأرض والزبد يغطي شذقيه ، فنادى أحد البيطريين وقال له : ماذا أصاب الجواد ؟

فأجاب : لا أعلم لأنه أصيب بعارض فجائي منذ خمس ساعات ، وهو بعض نفسه ولا يستقر على حالة وقد أتى الدوق بنفسه فتفقدته عدة مرار .

فدنا فانتير منه ، وفحص الجواد فحصاً مدققاً ، دون أن يمس يديه ، فعلم انه مصاب بالجمرة الفارسية ، وقال : لا خير منه ولم يعد يصلح إلا للمجزرة

وكان روكامبول قد شك بطن هذا الجواد بالدبوس الحامل لمكروب هذا
الداء ، كما ذكر القراء



لنعد الآن قليلاً الى ذكر ما حدث على اثر ذلك فانه بعد ان فعل روكامبول
بهذا الجواد ما فعل قدم زامبا وأمر السائس أي روكامبول ان يسرج للدوق
جواداً فأسرج له في الحال الجواد المطعون ، فركبه الدوق وذهب ليتنزه وبعد
ذلك دنا روكامبول من زامبا وقال : سر بي الى الغرفة التي يقيم فيها الدوق عادة
لكتابة رسائله .

فامتثل زامبا وسار امامه حتى دخل اليها فرأى طاولة للكتابة وأمامها
كرسي ضخم مجلل بالخمél فقال : أجلس على هذا الكرسي حين يعود ؟
- نعم ، وهي عادة مطردة له في كل يوم حين يعود من النزهة بهذا الجواد
الذي حبه حباً عظيماً يدخل إلى هذه الغرفة فيجلس على هذه الكرسي
ويكتب رسائله .

- أفي كل يوم يفعل هذا ؟

- هي قاعدة باتت مطردة لديه لم يتحول عنها منذ عرفته .

- حسناً ، ثم أخرج من جيبه علبة ملأى بالدبابيس وجعل يشكها في
اطراف الكرسي من الجهات التي تسند اليها الأيدي حتى فرغ ، ثم خرج مع
زامبا وعادا إلى الأصبيل .

وعند الظهر عاد الدوق من نزهته وجلس على كرسيه يكتب رسائله ، فلما
فرغ منها وضع يديه على طرفي الكرسي مستنداً عليها كي ينهض فشكت
الدبابيس يديه فصاح صيحة ألم ثم نادى خادماً غرفته زامبا وقال له مغضباً :
كان ينبغي أن تضع هذه الدبابيس في مكانها حين تفرغ من استعمالها لا أن
تشكها في ساعدي الكرسي ، فاطرق زامبا متظاهراً بالخبيل ورأى أن كف

الدوق قد خدش وجالت منه نقطة دم .
 أما روكامبول بعد أن وثق من أن الدوق قد خدشت يده قال في نفسه :
 لم يعد لي ما أعمله في هذا المنزل الآن فلاذهب للتفتيش عن مدام فيبيار وعن
 فانتير فانها أصبحت خطراً علي ، ثم خرج وذهب إلى داره واقام فيه إلى أن
 أقبل الليل فسار إلى منزله مدام فيبيار فلم يجدها ، ثم ذهب إلى المنزل الذي يقيم
 فيه فانتير فطرق الباب كمن يستأذن في الدخول لأنه كان مفتوحاً من الداخل
 فسمع صوت مدام فيبيار وهي في سريرها تقول ادخل ، فولج وأقفل الباب
 من الداخل ثم اسرع إليها وهي في سريرها وقبض على عنقها وهو يقول :

— أنا روكامبول فاحذري من أن تصيحي لأني لا أريد بك سوءاً بل أريد
 أن أتباحث معك ، فلم تستطع المعجوز أن تقول كلمة لما تولاه من الرعب .
 فقال روكامبول : قلت لك اني لا أريد بك سوءاً بل أريد لك كل خير ، فقد
 ندمت لما ظهر مني من قبل وذكرت ما لك علي من حق التريمة فاثبت استغفر
 منك ، إذا كنت لا تريد أن اسيء اليك إحذري من الصباح وإلا قتلتك
 في الحال .

فحلت عقدة لسانها وقالت : رحماك لا تقتلني .

فلطف روكامبول لهجته وقال . لا تخشي يا اماء وانظري إلي ألا تجدني
 بين عيني ما يدل على الندم وها أنا أرفع يدي عن عنقك ولكني أحمل بيمسي
 هذا المسدس وأحذري من الصباح .

فهدأ روعها قليلاً وقالت : ماذا تريد مني بعد أن أردت قتلي والقيمتني
 في الشهر ؟

— انك تعلمين يا اماء اني احبك حباً صادقاً ولكنك حينما لقيتيني تلك الليلة
 ناديتني بصوت مرتفع وأنا الآن مركيز .

فصاحت المعجوز مندهلة : كيف ذلك أتكون مركيزاً ثم تترك امك تعضها
 انياب الجوع بل تقتلها كي تتخلص منها ؟

- بالله يا اماء لا تذكرني لي تلك الجريمة ففقد بكيت كثيراً ولا ازال كلما
ذكرتك أبكي ، ثم طوقها بذراعيه وجعل يقبلها .
فحن قلبها وقالت : إذن ندمت ؟
- كل الندم .
- وبكيت أيضاً ؟
فتهدج صوت روكامبول وقال وهو يحش بالبكاء : نعم ولا ازال أبكي .
وكانت هذا المعجوز التي عاشت بين الدماء والجرائم لا يحن قلبها إلا
لروكامبول ولا تحب سواه في الوجود لأنها ربه وهو في المهد وتبنته ففقدته
بلبانها ، فلما سمعت اقواله حملها حبها له على تصديقه وغلبها الحنو وبكت ،
فقال لها روكامبول : إذن فقد صفحت عني ؟
فقبلته بدورها وقالت : كل الصفح . والآن قل لي هل أنت حقيقة
مركيز ؟
- نعم ، وفوق ذلك فإن ثروتي تعد بالملايين .
- أرجعت عن العيش السابق ؟
- وأي فائدة لي بعد من ارتكاب الموبقات وإني غني نبيل
- أتحنني دائماً ؟
- لولا ذلك لما أتيت اليك ، وسأهبك ثروة تعيشين بها أرغد عيش
مدى الحياة .
- إذن اسمع إني سأحدثك بأمر هذا الخائن فانتير الذي يتعقبك ويحاول
تسليمك للشرع .
ثم قصت عليه جميع ما عرفناه من أمر فانتير معها وكيف انه قدم منذ
ثلاثة أيام ، وفض ختم كتاب كان معه ، وكيف انه عاهد على الفتك
بروكامبول .
وكان مما قالته له انه دخل سائقاً في منزل الدوق ، فاضطرب روكامبول

وذكر في الحال ان السائق الذي رآه في اصطبل الدوق دي مساييلي يشبه فانتير بالقامة وضخامة البطن وتقاطيع وجهه بعض الشبه وانه رآه يعرج بالرجل اليمنى عرجاً خاصاً بالذين يحكم عليهم بالليمان والقيسد بالسلاسل ، ثم ذكر أيضاً ان ذلك السائق لم يدخل في خدمة الدوق إلا منذ يومين ، فأيقن انه فانتير .

ولما أقمت المعجوز حديثها قال لها روكامبول : لا بأس يا أماء فسننظر في أمر هذا الرجل الذي يريد قتلي ، فاذا جاء إنقذهي من ان تقولي له شيئاً عني بل تجاهلي أمامه انك رأيته ، وكوني معه على ما يريد . والآت خذي هذه النقود واشتري بها خير ما تحتاجين اليه من اللباس وسأشتري لك في هذا الأسبوع منزلاً كبيراً تعيشين من إيراده مدى الحياة .

ثم أعطاه ورقة بنك قيمتها الف فرنك وقبلها مودعاً ثم وعدا ان يزورها في الغد وخرج وهو واثق منها

وكان الليل قد انتصف فذهب توأ الى منزله السري حين كان فانتير فيه يبحث عن الأوراق فلم ينتبه روكامبول اليه كما تقدم ، وغادر المنزل فسرق فانتير الأوراق وذهب آمناً كما قدمناه .

غير ان روكامبول قبل ان يصل الى منزله خطر له ان يعود الى منزله السري لبعض الشؤون فدخل اليه بعد خروج فانتير ، وأشعل عوداً من الكبريت كي ينير به المصباح فرأى ان المصباح في غير الموضع الذي تركه فيه ، فأجفل وخطر له ان سارقاً دخل الى البيت ، فأخذ المصباح واسرع الى غرفة المكتبة فرأى نقطة ماء على المائدة وهي من الماء الحار الذي استعان فانتير بحرارته على فتح صفحتي الكتاب فطاش رأسه وأيقن من السرقة فبادر الى المكتبة في البدء وأخرج الكتاب الذي كان محتبئاً فيه الأوراق وفتحه فرأى أثر الصمغ الذي فيه ، ففتح الصفحتين وأخرج الورقتين اللتين كانتا بينهما فإذا هما من الورق الأبيض وضعنا بدلاً من الشهادتين فكاد يضيع

صوابه من الغيظ ، ولا شك ان السارق فانتير ، ولا شك انه سائق مركبات الدوق . والآن لم يبق لي غير رجاء واحد وهو ان يكون الدوق نائماً لئلا يصل اليه فانتير .

عند ذلك أسرع الى غرفة الملابس وتنكر بزي السائس وانطلق بعد ان تسلم بغدارتين وخنجر الى منزل الدوق دي مايلي ، فلقني في الاصطبل فانتير واثنين من السائس منهمكين بشأن الجواد المصاب ، وسمع فانتير يقول لأحدهما : إن الجواد مصاب بضر الامراض ، ولكني لا ادري كيف اتصل به هذا الداء لأنه لم يخرج من الاصطبل منذ يومين .

فوافقه السائس على استغرابه وقال له : ربما كان ذلك من صنع السائس الذي طردتموه اخيراً ففعل ما فعل بالجواد على سبيل الانتقام . ولم يحفل فانتير بتعليقه وأجاب : أأتى الدوق لتفقد الجواد ؟ -- نعم إنه حضر مرتين في المساء .

— وهل مسه بيده ؟
- جملة مرار لأن الجواد لم يكن يأنس إلا به فكان يمسح الزبد عن شذقيه بمنديله ويمسح جلده بيده .

فارتعش فانتير وقال . ألم يعضه ؟
- بل كان يلحس يده بلسانه .

وكان روكامبول يسمع كل هذا الحديث فقال في نفسه : لا شك ان فانتير لم يقابل الدوق بعد ولا شك ان أوراقى لا تزال معه . وفي ذلك الحين دخل زامبا الى الاصطبل وسأل عن الجواد فأجاب فانتير : إنه على وشك الموت ، قل لي أтам الدوق ؟

أجاب زامبا : إن الدوق مريض
— أهو الذي أرسلك لتسأل عن الجواد ؟
- نعم .

- أيمكن ان أراه لأخبره بحقيقة أمره ؟
 إنه في سريره وسأسأله إذا كان يريد ان تذهب اليه .
 ثم خرج من الاضطبل ولما بلغ الى الرواق رأى روكامبول قد تصدى له وأمره
 بصوت منخفض : إقبعني .
 فامتلل وسار معه حتى اجتازا الرواق ولم يعد يراها أحد . فخاطبه
 روكامبول : إذا لم تنفذي أوامري في الحال خسرت كل شيء .
 فأجفل زامبا وسأله ماذا حدث ؟
 - حدث انه إذا قابل هذا السائق الدوق ، ذهبت أتعابنا أدراج
 الرياح . . .
 - إن ذلك ميسور ، سأعود اليه وأقول ان الدوق مريض لا يستطيع ان
 يقابل أحداً .
 - قل لي كيف حاله ؟
 إنه مصاب بحمى شديدة وقد تورمت يده .
 - أدعي اليه طبيباً ؟
 - كلا .
 فوقف روكامبول يفكر هنيهة ثم قال له : انه يوجد ثلاث غرف متسعة
 قبل غرفة الدوق ، إذا تكلم أحد بصوت مرتفع في الغرفة الأولى أيصل كلامه
 الى غرفة الدوق ؟
 - كلا إن المسافة بعيدة .
 - حسناً ، إصعد الى مولاك وقل له ان الجواد بحالة حسنة ولا تذكر كلمة
 عن السائق وخذ بي الى الغرفة الأولى
 فامتلل زامبا وصعد أمامه السلام حتى وصل إلى الغرفة ففتح بابها وقال
 له أدخل . فدخل روكامبول قائلاً : إذهب الآن الى الدوق ، وعد إلي
 في الحال .

وبعد هنيهة عاد زامبا فخطابه روكامبول : إنزل الى الاصطبل وقل للسائق ان الدوق يريد ان يراه واصعد به إلى وامش أمامه وبميدك شمعة منورة . فمضى دخلت الى هذه الغرفة اطفأ الشمعة والحقا الى الأرض ، ثم اقبض على ذراعه على هذا النمط كما أفعل بك الآن . وهنا علمه كيف يقبض عليه وقابع : إذ ذهب في الحال قبل ان تفوت الفرصة .

وانطلق زامبا مسرعاً فوجد فانتير ينتظر عودته بفارغ الصبر فقال له .
هلم معي لأن الدوق ينتظرك .

ولم يكن فانتير يعرف بعد مداخل القصر وخارجه ، فسار في أثر زامبا حتى دخل به الى الغرفة التي كان فيها روكامبول ، فاطفأ الشمعة وانقض عليه فقبض على ذراعيه كما تعلم . وفي الوقت نفسه ، وقبل ان يتمكن من الصياح شعر بيد وضعت على فمه ، وخنجر وضع على عنقه ، وسمع صوتاً منخفضاً يقول له : أنا روكامبول ، أيها الأبله ، فاذا نطقت بكلمة فانك مقتول .

- ٣٥ -

لما سمع فانتير صوت روكامبول وشعر بوخز خنجره في عنقه وهت ركبتاه من الخوف وضاع رشده حين أيقن بالخطر المحدق من حوله فجعل يقول بالله اعف عني ولا تقتلني .

أجاب روكامبول . اصمت ولا تفه بحرف .
وقال لزامبا : أمسكه جيداً .

ثم عاد يخاطب فانتير بتهكم قائلاً : إن من كان لصاً خائناً مثلك فهو لا يخلو من السلاح .

وجعل يفتش في جيوبه وأخرج منها مسدسين ثم أخرج من حزامه خنجرًا عرفه من قبضته فقال له : إن هذا الخنجر لي وقد سرقتني منه ساعة أما الآن وقد جردتك من سلاحك فلنحدث قليلا .

فعاد فانتير الى النوسل والاستعطاف وهو يختلج من الرعب ، فقال له روكامبول : إذا فمت بكلمة دون أن أمرك بالكلام قتلتك في الحال . ثم خاطب زامبا أطلق الآن إحدى يديه وخذ الخنجر وضعه بين كتفيه وإذا بدرت منه حركة اقتله بسرعة .

ووضع روكامبول خنجره في فمه كي يستخدم كلتا يديه ثم أخذ قماش الستائر ومزقه قطعاً طويلة وربط بها رجلي فانتير ويديه وأخذ منديله فكم به فمه كي لا يستطيع الاستغاثة وبعد ان انتهى من جميع ذلك قال لزامبا : دعه الآن وأتر المصباح .

فلما أضاءه قال له ضع المصباح على المستوقد ، واقفل جميع الأبواب واذهب بسلام وانتظري خارج الباب فامتثل زامبا وأقفل الأبواب وخرج .

ولما خلا المكان بهذين اللصين دنا روكامبول من فانتير وخنجره بيده ففك رباط فمه وقال بلهجة الهازيء المتهمك : يجب قبل كل شيء ان اخبرك بحقيقة الحالة : إن الدوق دي مايلي الذي لا بد ان يكون قد وعدك بمبلغ جزيل ثمن الرسالتين اللتين سرقتها من عندي لا يستطيع ان يستفيد منها بشيء ، لأنه لم يعد له في الحياة غير ساعات معدودة ، إذ انه مصاب بالحمرة الفارسية كجواده . فخير لك ان ترد لي الرسالتين حالا لتشتري بهما حياتك . ثم اني اخبرك ايضا ان رامبا هو عبد لي يخضع لي في جميع ما أريده ، ولهذا تراني أتصرف في المنزل كأنه منزلي ، فان لم تسلمني الأوراق التي سرقتها من عندي منذ ساعة أقتلك واذهب في شأني ولا خوف علي من احد لأن زامبا وبواب منزلي السري لا يعلمان من أنا .

أجاب فانتير : إنك مركيز
ولما سمع روكامبول كلمة مركيز رفع خنجره وقال : قل من أنا .. أسرع
وقل اسمي إذا شئت ان تسلم من الموت .

فدعر فانتير لما رآه من اضطراب روكامبول وأجاب : مولاي عفوك فاني
أعلم انك مركيز ولكني لا أعرف اسمك .
فتنهذ روكامبول تنهد المنفرج بعد ضيق وقال له : لقد عرفت ما أريد
أن أعرفه منك . وما دمت تجهل اسمي فإنك تجهل منزلي وعلى ذلك فانت
الوقت فسيح أمامي وسأقتلك حينما أشاء .

فزاد اضطراب فانتير وقال : ماذا تريد مني ؟
— الأوراق .

— خذها إنها في بطانة صدرتي .

فظل روكامبول ماسكاً الخنجر بيده اليمنى ومديده اليسرى الى بطانة
صدره فانتير وأخرج منها الأوراق وبعد ان فحصها فحوصاً مدققاً وقال له :
أتريد أن أبرهن لك عن ان دي ماييلي لم يبق له غير ساعات معدودة في الحياة
أنظر إلي .

ثم أدنى الشهادات من الشمعة فاحرقها وقال إن هذه الشهادات لا قيمة
لها إلا عند دي ماييلي وحرقي لها دليل على انه ماثت ولم يعد الآن ما يمنعك عن
الإقرار التام .

— إني اعترف لك بكل شيء على شرط ان تصفح عني ولا تدعني وشقائي
سلفي عما تريد .

— ماذا فعلت في أسبانيا ؟

- قتلت مأمور البريد وسرقت الكتاب ، ثم عدت الى باريس وفتحت—
فعلت كل شيء .

- كيف عرفت اني مركيز ؟

— من مدام فيبار .

ثم قص عليه جميع ما دار بينه وبين مدام فيبار من الحديث والمؤامرة عليه فلما وثق روكامبول من صدقه قال له : لم يبق عليك إلا شيء واحد وهو ان تنضم إلى أتباعي ، فان من لا يستطيع ان يكون قائداً فخير له ان يعود جندياً .

— الملك تستفيد مني بشيء ؟

فضحك روكامبول ضحك الساخر وأجاب : لو لم يكن لي فائدة منك لقتلتك بسرعة لأنك تستحق القتل لخيانتك لي ولرئيسي .
— إذا كان ذلك إني أقسم بالله اني لا أخونك بعد ذلك
وعند ذلك دنا روكامبول منه ففك قيوده وقال : هلم بنا .

أما فانتير فانه رأى بعينه ان الشهادتين قد أحرقتا وان الدوق في حالة النزاع فعلم انه لم يعد له بد من الانقياد الى روكامبول ، فسار في أثره حتى بلغ به الى منزله السري فقال له : لو تلبهت قليلاً وأرجعت المصباح الى مكانه لما علمت بسرقتك .

فتنهذ فانتير ولكن روكامبول أشفق عليه وقال : إطمئن إن سرقتك لم تكن لتنفعل لأن الدوق مسموم منذ يومين .
والآن اجلس على المائدة واكتب ما أمليه عليه الى مدام فيبار .
ثم أملى عليه ما يأتي :

« إن مسألتي مع روكامبول تمنعني عن ان أراك اليوم ولكني سأزورك في هذا المساء ، فنامي في سريرك ودعي المفتاح على الباب ، لأنني سأحضر بعد منتصف الليل » .

ولما انتهى من الكتابة ووقع باسمه على الرسالة أظهر اندهاله وقال ماذا تريد بهذه الرسالة الغريبة ؟
— سترى ما هو أغرب من ذلك لأنني سأعود الى ربط رجلتيك ويديك وم

فمك لتبقى في هذا المنزل أسيراً إلى مساء غد .
 فذعر فانتير وبدأت عليه ملامح العصيان فاستل روكامبول خنجره
 وقال له أتريد ان تعود الى ما كنا فيه من الخلاف بعد ان اتفقنا ؟
 فخاف فانتير وقدم يديه للتقيد ، فشد روكامبول وثاقه وأقفل الباب
 عليه وخرج .

- ٣٦ -

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي دخل روكامبول الى غرفة استاذ
 أندريا وقال : أتذكر. حين لقيتك وأنقذتك مما كنت فيه ما قلت لك بعد
 اجتماعنا ؟ إني قلت لك يومئذ انك من النوابغ ، ولكنك على سمو عقلك وشدة
 دهاك ، ليس لك غير عيب واحد كان السبب في جميع ما تقدم لك من الفشل
 والخذلان وهو انك تستخدم رجال الشر لتنفيذ الشر ، ولو كنت تستخدم
 رجال الخير لهذا القصد السبي لكنت من الفائزين لأن الكريم الشريف لا
 تخطر له المفاصد في بال خلافاً للماكر الشرير ، فإنك إذا استخدمته لغرض
 فطن لقصدك ، وكان اول ما يحول في خساطره أن يستأثر بالنفع دونك .
 مثال ذلك :

فانتير ، إنك ركنت اليه في المرة الأولى فخانك وقطع لسانك وذهب
 ببصرك ثم ركنت اليه في المرة الثانية فكاد يصعد بي الى المشنقة لو لم أنتبه له
 ويخدمني الاتفاق في إحباط سعيه .

ثم قص عليه حكاية فانتير ومدام فيبار بجميع تفاصيلها الى ان أخبره بأنه
 غادره عنده مكبلاً موثقاً .

فضحك أندريا ثم افكر هنيهة وأخذ لوحه الحجري وكتب عليه ما يأتي:

إن الدوق دي مايلي في حالة النزاع ولم يعد لك حاجة بزامبا ، وفانتير خائن وقد أحبطت جميع مساعيها فلا نستطيع ان نأمنه بعد الآن ، ومدام فيبار عرفتك ولا يحمل بك ان تكون عبداً لها. أي يجب ان تتخلص من هؤلاء الثلاثة مرة واحدة .

فصفق روكامبول بيديه وأجاب : هذا ما خطري واني أفتخر ان يتوارد خاطري مع خاطرك . غير اني لا أعلم كيف يكون هذا القتل و اين تمثل هذه الرواية .

— إنها ستمثل في غرفة مدام فيبار . أما طريقة قتلهم سأخبرك عنها ، إذ ذهب الآن إلى مدام فيبار وانظر اذا كان يوجد تحت غرفتها قبو وتفق ذلك القبو ثم أخبرني بتفاصيله ، لأن عهدي بهذه المنازل ان يكون فيها أقبية واسعة .

فامتثل روكامبول وذهب توأ الى مدام فيبار فالحاها تلتظره فلاطفها وجدد وعد لها بشراء البيت الذي باتت ليلتها طامعة به ونفحها بمبلغ آخر من النقود فبكت من سرورها ثم حادتها بشأن الانتقام من فانتير .

واتقدت عينها بشر الغضب وقالت : اين هو الخائن الذي يريد ان يفجعني بك لأمزقه بأسناني ؟

— سنري الآن إفتحني لي هذا القبو الذي في غرفتك ، لأني أحب ان أفتقده .

فقامت مدام فيبار وأزاحت خشبة كبيرة كانت تغطي مدخل القبو عند باب الغرفة فأنكشف عن هوة عميقة فقال لها : هاتي السلم اني أحب ان أنزل اليه .

فامتثلت وأحضرت السلم فأنزله روكامبول حتى استقر على أرض القبو ، وأسندته الى الحائط وأضاء شمعة ونزل وحده وجعل يتفقده .

وكان القبو خاوياً خالياً إذ لا مؤونة لهذه العجوز لتخزنها فيه . وبينما

كان روكامبول ينظر في جدرانها إذ رأى أحدها مبتلا بالماء دون سواء . فقال في نفسه : لا بد ان يكون لهذا الجدار شأن .

وأقبل يفحصه فحصى دقيقاً فرأى الماء يخرج من ثقب رفيع في أنبوبة في جوف الجدار يسيل منها الى المجاري العمومية . فخطر له في الحال خاطر هائل وأخذ خنجره وأزاح الطين المتلبد فوق الأنبوبة حتى انفرجت له وظهر ثقبها الرفيع فشق تلك الأنبوبة بخنجره ووسع ثقبها فجعل الماء يخرج منها بقدر ثخانة الإصبع .

وأقام في ذلك القبو ساعة يفحص انصباب الماء فيه حتى غمرت المياه قدميه فقال في نفسه : اذا دام انصباب الماء على هذا القياس ولا بد ان يدوم فانها ستبلغ عند منتصف الليل الى نصف علو القبو اي علو مترين ، وهذا القدر يكفي .

ثم صعد السلم مطمئناً حتى بلغ الى الغرفة فأخرج السلم وأعاد الخشبة وهي باب القبو الى ما كانت عليه .

أما مدام فيبار فإنها كانت منذهلة لا تعلم شيئاً من قصد روكامبول ولم يتوانى روكامبول الى إخبارها بل قال لها : إنتظريني الليلة فسأحضر اليك وأخبرك عن الذي سنصنعه بفانتير .

— وإذا أتى قبل ان نحضر فما أخبره ؟

— إنه لا يحضر وكوفي واثقة من ذلك . إنما لا تخرجي من غرفتك .

ثم تركها وعاد لمنزله فغير ملابسه وعاد الى اندريا وأخبره بجميع ما صنع فأخذ اندريا لوحه الحجري وكتب عليه سطوراً كثيرة . كان روكامبول يقرأها وهو واقف وراءه . ولما أتم كتابته كتب تحتها : أفهمت ؟

— نعم ويا له من فكر هائل .

فابتسم اندريا معجباً بأفكاره الجهنمية وذهب روكامبول مطرق الرأس يتمعن بانفاذ هذه الخطة .

وفي الساعة السادسة من المساء قابل روكامبول زامبا وسأله عن حالة الدوق فأجاب : انه في أسوأ حالة ، وقد قنط الأطباء من شفائه .

-- أعلم الآن ان سيدي الذي يريد ان يتزوج بابنة الدوق أمرني ان أبلغك رضاه عنك وهو سيجعلك وكيله بعد الزواج دون شك ، ثم أمرني ان أمنحك الفري فرنك على سبيل المكافأة عن حادثة الدوق والدبابيس ذلك عدا عن المكافأة العظيمة التي ستناها بعد الزواج . غير انه يسألك ايضاً قضاء أمر لا بد منه .

— إني مستعد لكل أمر فقل أطلع .

— انه يريد الانتقام من هذا السائق الانكليزي الذي دخل في خدمة مولاك وكاد يحبط جميع مساعيها .

— أريد قتله ؟

— ذلك لا بد منه .

— متى وأين ؟

— إذهب بعد ثلاث ساعات الى القهوة التي كنا نجتمع فيها فأذهب بك لأخبرك بما يجب ان تصنع ولا تنس ان تحضر معك احسن خنجر عندك .

- ٣٧ -

وفي الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة قدم روكامبول الى بيت مدام فيبار وطرق بابها فدنت من الباب وقالت بصوت منخفض : من أنت ؟

فذكر روكامبول اسمه ففتحت ودخل يصحبه زامبا فقال لها: لقد أحضرت هذا الرجل لأنه يريد ان نتحدث قليلاً مع فانتير .

ثم أقفل الباب وقال لزامبا : أطلعك على المهمة التي انتدبتك اليها

والتي تكون بعدها وكيل من يتزوج ابنة الدوق .

فقلت مدام فيبار متحمسة : إن المهمة هي قتل فانتير .

فرد زامبا مندهلاً : أيدعى السائق فانتير ؟

أجاب روكامبول : نعم انه اسم لا يشير الى ان صاحبه من أصحاب النفوذ .
غير انه اذا بقي في قيد الحياة فهو يحول دون تحقيق أمانيك وربما القى بك في
هوة السجن المؤبد لتعيش بقيمة عمرك مقيداً بالسلاسل .
فهلج قلب زامبا لهذا الانذار ورد : اذن سيموت .

وأمر روكامبول مدام فيبار ان تضيء المصباح وتحضر سلم القبو فامتثلت
وهي لا تعلم شيئاً من خطتها . ففتح روكامبول باب القبو وأنزل السلم اليه
ثم أخذ المصباح بيده ونزل درجات السلم حتى بلغ الى نصفها وشعر بالماء
وقال في نفسه : إن علو الماء قد بلغ مترين وهو يكفي لإغراق انسان .
ورأى ان الماء لا يزال يخرج من الانبوبة بمعدل الأول ، فاطمأن خاطره
وصعد وقال لزامبا : انك ترى هذا القبو الذي نزلت اليه ، اصنع الى الآن
انك ستقتدي بي وتنزل الى هذا القبو كما نزلت ، وهو ملآن بالماء لأن الامطار
الاخيرة نفذت اليه وجعلته بشراً .

فأجفل زامبا وقال : أيمن للمرء ان يفرق فيه ؟

أجاب روكامبول مبتسماً : إنه يفرق ولا يفرق . وذلك انك ستنزل الى
القبو انت وفانتير ، فيفرق هو وأما أنت ستصبح وكيل من يتزوج
ابنة الدوق .

— اني لا أفهم شيئاً مما تقول .

— اني موضح لك هذا اللغز ألا ترى السلم في القبو ؟

— نعم .

— ألا ترى ان مدخل القبو عند عتبة الباب ؟

— نعم .

— إنه عندما يأتي فانتير يكون الظلام سائداً وباب القبو مفتوحاً فإذا فتح الباب ودخل سقط في الهوة أعلمت الآن ؟
— نعم علمت وأما أنا لماذا أعمل بالقبو ؟

— إنه شديد المهارة بالسباحة وإذا ترك وشأنه في القبو فهو يعموم فوق المياه عدة ساعات ويستغيث بصوته العالي إلى أن يردده المدد ولذلك ينبغي أن تخمد أنفاسه ولا تبقي له طعاماً في الحياة .
— سأعمل ولكن بأية وسيلة أخمد أنفاسه ؟

— إنك تقف على آخر درجة متصلة بالماء من درجات هذا السلم فتسقط فانتير في الماء أول ما يخطر له أن يلتمس ما يتمسك به ولا يجد غير السلم ، وإذا دنا منه ومسك به تطعمه بخنجرك طعنة نجلاء تقضي عليه ، ثم تصبر هنية إلى أن تعلم أنه مات فتنادي ، وعند ذلك أنير لك الطريق لتصعد .

— إذن اني مستعد للنزول ، وهذا خنجر بيدي ، وكن واثقاً من قتله

وعند ذلك أثار له روكامبول منفذ القبو ، ونزل زامبا درجات السلم حتى بلغت رجله إلى الماء فنزل درجة ووقف ، وعند ذلك اطفأ روكامبول المصباح وانزوى في الغرفة مع مدام فيبار فقالت له : أنت واثق ان فانتير سيحضر ؟

— كل الثقة فقد كان أسيراً عتدي أطلقت سراحه ووعدته ان اعطيه خمسين الف فرنك .

— لماذا يأتي إلي ولماذا تعطيه خمسين الف فرنك ؟
— جزاء قتلك إذ أنه يحسب بأنه آت لقتلك .

ارتعشت العجوز وقالت : يقتلني أنا ؟
— ألا تعلمين انه خائن يبيع بنيته بالمال ، قد وعدك بجزاء حسن إذا ساعدته

على فضيحتي وأنا وعدته بجزاء حسن إذا ساعدني على قتلك فانطلت عليه الحيلة ووقع في الفخ الذي نصبه لي .

وفيما هما على ذلك إذ سمعا وقع أقدام اضطرب فؤاد روكامبول وقال : اسكتي ، ها هو قد حضر ، ثم سمعا صوت المفتاح في القفل ، ثم فتح الباب فمشى فانتير ثلاث خطوات وكانت خطواته الرابعة في الهوة المفتوحة فسقط في القبو وصاح صيحة عظيمة ، أسرع روكامبول إلى باب القبو ووضع أذنه على مدخله ونام فوقه كي يسمع ما يجري بين زامبا وفونتير .

كان أول ما سمعه أن فانتير جعل يقذف الشتائم واللعنات لا يجيبه غير صدى هذا القبو المتسع المظلم ، ثم جعل يسبح بيديه ورجليه وقد قنط من بلوغ صوته إلى المسامع لما سمعه من تجاوب الصدى وبقي يسبح ويقذف نحو عشر دقائق ثم انقطع الصوت ووقفت الحركة ، قال روكامبول في نفسه : انه قد عثر بالسلم وسنرى ما يكون من زامبا ، ولكنه لم يكذب يتم مناجاته حتى سمع صرخة قوية عقبها صوت سقوط جسم ضئيل في المياه ثم انقطع الصوت ، قال روكامبول : لقد قضي أمره وانتهى الفصل الأول من هذه الرواية ، فلنباشر تمثيل الفصل الثاني .

ثم نهض فلقيته مدام فيبار فقالت : ماذا جرى ؟

- لقد مات دون شك ، انني لا أسمع له حساً ، وبعد حين وجيز سمع صوت زامبا يناديه ، أمر المعجوز أن تضيء المصباح ، ففعلت ثم ذهب به إلى باب القبو وفتحه وقال لمدام فيبار : تعالي وانظري يا أماء ، قرفصت المعجوز على حافة الهوة وجعلت تحديق على نور المصباح لتتنظر جشة فانتير ، لما رأتها قالت : لقي هذا الخائن جزاء خيائته .

وضع روكامبول المصباح امامه وقال : لم أقتله لهذا يا أماء ، بل لأنه كان واقفاً على اسراري .

فدعرت المعجوز وحاولت ان تقف لما تولاها من الخوف ، غير ان روكامبول

كان أسرع منها فإنه ضغط على عنقها بيديه ضغطاً قوياً وهو يقول : انك لا تسلمين هذه المرة ، وبعد ان أتم خنقها قذف بها إلى القبو ، سقطت في الماء جثة جامدة لا حراك فيها .

وعند ذلك قال لزامبا : أصعد الآن فقد انتهى كل شيء ، فجعل زامبا يصعد درجات السلم وهو فرح القلب بنجاح مهمته وكان روكامبول من ورائه فلما ظهر رأسه من القبو بادره روكامبول بطعنة خنجر قوية بين كتفيه ، صاح صيحة ألم وانقلب عوي فوق رقيقه . وتم بذلك تمثيل الفصل الثالث من هذه الرواية .

أما روكامبول فإنه أخرج السلم من القبو بأتم سكينسة فوضعه في مكانه ووضع الباب فوق القبو ثم أطفأ المصباح وخرج من الغرفة وانسل إلى الشارع العام دون ان يراه احد وهو يقول : اني لم اجد بين هؤلاء الثلاثة أشد بلها من زامبا لاعتقاده باني ارضى ان يكون وكيلى بعد ان اتزوج بابنة الدوق وأغدوا من عظماء الأسبان .

وذهب إلى منزله السري فقير زيه وعاد مركباً نبيلاً ، ثم انطلق إلى النادي ودخل وهو يغني غير مكترث لشيء كأن يده الأثيمة لم تنغمس بقتل ثلاثة منذ ساعة ، وهناك علم ان الدوق دي مايلى قد مات مسموماً ورأى الأسف بادياً على جميع الوجوه فلم يسمعه إلا إظهار الأسف معهم وأقام بينهم إلى الساعة الأولى بعد منتصف الليل ثم برح النادي إلى منزله فوجد على المائدة كتاباً من الغادة الاسبانية أرسلته اليه من القرية التي ذهبت اليها مع أمها وأبيها وصهره فابيان واخته . وكانت خلاصة الكتاب ان اخت روكامبول قد ذكرت أمام الدوق الاسباني ولحمت تلميحا عن حب أخيها لابنته ، فأظهر الارتياح وهي تدعوه إلى موافقاتهم في تلك القرية راجية ان يعودا منها زوجين شرعيين .

ففرح روكامبول بهذا الكتاب فرحاً لا يوصف ودخل إلى غرفة اندريا وأخبره

بجميع حوادث الليل وموت الدوق ماييلي وبكتاب الغادة الأسبانية ، فظهرت
علائم السرور على وجه اندريا وقال لتلميذه الهائل بلوچه الحجري: تأهب للسفر
صباحاً واعلم انه يجب ان اسافر معك .
— ما شأنك معي في هذا السفر ؟

— قال ذلك كي أوقع على شروط زواجك وان قلبي يتحدثني انه اذا لم أكن
معك لا يعقد هذا الزواج .
فلم يعبأ روكامبول بكلامه وأجاب : أتظن ان حديث قلبك يصدق ؟
— لا أظن بل أؤكد . وخذ عني هذه الكلمات واطبعها على ذاكرتك
بحروف من نار وهي انا النور الذي يضيء نجمك فإذا لم أكن موجوداً ينطفئ
نور هذا النجم .

- ٣٨ -

بينما كانت هذه الحوادث التي رويناها تتوالى في باريس كانت تجري في
مدينة نيس حادثة لها علاقة شديدة بهذه الرواية
ويذكر القراء ان باكارا قد ذهبت بزوجها المنكود الى تلك المدينة كما
وصف له الأطباء ، فاستأجرت منزلاً جميلاً على شاطئ البحر ، وكان يصحبها
طبيب خاص حكم على الكونت أرتوف ان يعتزل الناس ما أمكن وان لا
يفارق امرأته لاعتقاده ان هذه الطريقة تعجل في شفائه ، على ان حالة
الكونت لم تتغير وما زال يعتقد انه يدعى رولاندي كايلى ، وليس
الكونت أرتوف . ثم اتسع هذا الاعتقاد منه حتى بات يحسب ان الكونت
أرتوف طلق امرأته ، وان باكارا تبعته بعد طلاقها من زوجها الى نيس
لشدة شغفها به .

وكان بين الأجانب المقيمين في نيس ضابط إنكليزي خدم مدة طويلة في الهند وكان يرى باكارا وزوجها كل يوم حين خروجها للنزهة فتوصل الضابط إلى السلام عليهما لكثرة التقائه بهما .

وبينما كانت باكارا جالسة في غرفتها صباح يوم إذ دخلت خادمة غرفتها تحمل اليها رقعة زيارة الضابط الانكليزي ، فدهشت لهذه الزيارة ولكنها خرجت لمقابلته واستقبلته في القاعة الكبرى وجلست بازائه فبدأ هذا الضابط بالحديث وقال : أرجو ألا يسوء سيدتي ما تراه من أقدامي على زيارتها ولم يدفعني اليها غير الرجاء بنفعها لما علمته من جنون زوجها واعلمي يا سيدتي ان هذه المدينة لا يأتي اليها غريب حتى تتجه اليه الأنظار ولا يمضي عليه زمن يسير حتى يعلم الغرباء أمثاله بجميع أمره .

قالت باكارا : إذن لقد عرفوا حكايتي .

- نعم يا سيدتي لقد عرفوها بتفصيلها وانقسم الناس بشأنك قسمين بين مصدق ومكذب ، وخاضوا في تأويل أسباب جنون الكونت الى ان قدم أمس احد الاعيان من باريس فأخبرنا ...

ثم توقف عن الحديث وقال : عفوك يا سيدتي فإنك لو بحثت في أعماق قلبي لما رأيت غير الاحترام .

فقالت باكارا وهي لا تعلم الى اين يريد أن يصل بحديثه : إنني أعلم بما حدثوك واسمح لي قبل إتمام حديثك ان أقول ان رجلاً شقيماً لا مبدأ له ولا شرف زج بنا الى هذا الشقاء بنميمة كاذبة .

- لم أشكك لحظة يا سيدتي بما تقولين . واسمحي لي ان أكلمك عن زوجك وجنونه ، فلقد ذكر لنا هذا الباريسي أمراً غريباً وهو ان جنون الكونت كان فجائياً لا يتقدمه شيء من العوارض المعروفة ، وقد ظهر الجنون في ساحة المبارزة .

- ذاك أكيد .

— وان جنونه حمله على الاعتقاد بأنه هو خصمه وان خصمه يدعى الكونت أرتوف .

— وأأسفاه يا سيدي إنه لا يزال يعتقد هذا الاعتقاد .

— ولكن الغريب في هذا الجنون انه غير عادي .

— إنه كان يحبني وقد اعتقد أخيراً انني .

فقاطعها الضابط قائلاً : كلا يا سيدي فان زوجك قد سقي سمًا فجن .

فاندهمت باكارا وأجابت : كيف عرفت ذلك ثم أوجد بين السموم ما يذهب بالعقل

— نعم يا سيدي . إني خدمت بالهند وأقيمت سنة في مدينة جافا وعلمت انه يوجد في هذه الجزيرة شجرة إذا جففت أوراقها وطحنت كان شرها داعياً الى الجنون وقد رأيت كثيرين من الذين جنوا بهذا السم ومن أخص ما رأيته من الأعراض ان الجنون به ينكر نفسه ويحسب انه سواء وهذا ما أصاب زوجك .

فارتعدت باكارا وقالت : إن زوجي لم يذهب الى الهند ولا يعرف أحداً في باريس من الهنود .

— أعرف ذلك يا سيدي غير ان من تجاسر على النسيمة بك وكاد مثل هذه المكائد لك فهو يحسب أيضاً على تسميم زوجك .

فوجف قلبها وقالت إذا صح ما تقول فلإني أخشى أن لا يكون لهذا التسمم دواء .

— بل إني أعرف طبيباً حاذقاً بشفاء هذا الجنون ، وهو طبيب قال شهرة واسعة في الهند ، وقد لقيته منذ شهر في باريس وعلمت انه يقيم فيها منذ عهد طويل ، وان له شهرة عظيمة في فرنسا أيضاً ، وقد اشتهر خاصة بمعالجة تشوه الوجوه وإزالة الوشوم والشفاء من الجنون شهرة خاصة وهو يدعى صموئيل البرت ، فإذا دعوته يا سيدي لمعالجة زوجك فلإني أرجو أن

يشفيه سريعاً .

فظهرت علائقهم الرجاء على محيا باكارا وقالت : كلا لا أدعوه إلي بل أنا
أسير اليه كي لا يطول انتظاري

— لقد أحسنت يا سيدتي واحذري من ان تثقي بغير هذا الطبيب واعلمي
ان الأطباء يتحاسدون ولا تقولي شيئاً أمام طبيب الكونت بل اختلعي حجة
أمامه للسفر بزوجهك الى باريس .

فشكرته باكارا شكراً جزيلاً وودعها الضابط وذهب في شأنه .
وفي اليوم التالي ركبت باكارا مع الكونت مركبة اليريد وبرحت نيس الى
ليون وركبت منها السكة الحديدية الى باريس .



بينما كانت باكارا ذاهبة بزوجه الى باريس كان رولاند دي كايلى عازماً
على السفر من باريس الى الريف ، إذ قد ورد اليه نعي عمه فرأى ان الفرصة
موافقة للبعد عن باريس بعدما رآه من ابتعاد الناس عنه أثر حادثة الكونت
واحتقار أصحابه له بحيث لم يبق له بينهم غير اوكتاف لاتفاقه وإياه في
مبادئ الغرور .

ولما وصل اليه نعي عمه تأهب للسفر وذهب لوداع صديقه اوكتاف
قبل الرحيل ، وفيما هو سائر بمركبته شعر ان المركبة وقفت لازدحام
المركبات ووقفها عن المسير لمور موكب ، حتى ان معظم الذين كانوا في
تلك المركبات نزلوا منها ، فأطل رولاند من مركبته وجعل ينظر الى الناس
والى ازدحام المركبات ورأى بالقرب منه ريبيكا التي يحسبها الكونتس
أرتوف فصاح صيحة دهش سمعتها الفتاة ، والتفتت اليه فما وسع رولاند إلا
أن يحني رأسه مسامحاً عليها ، فردت تحيته بابتسام ولم يعد لدى هذا المسكين
من شك انها تحبه حباً أكيداً ، وانها اضطرت أمام اختها أن تمثل دورها

ثم رآها وضعت سبابتها على فمها تشير اليه بالصمت غير ان رولاند تجاهل قصدها ونزل من المركبة للقاءها ، فأمرعت الى مركبة في الطريق ، فصعدت اليها وقالت للسائق بصوت مرتفع كي يبلغ الى مسمع رولاند : إلى شارع باسي بغيره ٤٣ .

فأرتجف رولاند وقد علم انها تريد ان يزورها في ذلك المنزل ، وذهب الى صديقه اوكتاف وأخبره بهذا الاتفاق حين اضطزاره الى السفر فقال له صديقه : خير لك ان تسافر لتقضي مهمتك وتعود بعد غد لأن ابتسامتها لك يدل على انها لا تزال تهواك . فهي تنتظرك الليلة . ومضى . رأت انك لم تحضر فلا بد لها أن تكتب اليك وتكون في ذلك الحين قد عدت إلى باريس وقضيت شؤونك التي لا يمكن تأجيلها .

فامتثل رولاند لنصيحة صديقه اوكتاف وركب القطار الذي يخرج من باريس في الساعة الثامنة ولما بلغ الى المحطة الأولى وصل اليها ايضا في الوقت نفسه القطاران الخارج من باريس والداخل اليها في أول محطة ووقف القطاران دقيقتين للنزول والركاب وصعدهم .

وكان هذا القطار قادماً من ليون ، فجعل رولاند ينظر الى الركاب دون اكتراث ، حتى أصاب نظره ركاب الدرجة الأولى ، فصاح صيحة منكرة لأنه رأى بين أولئك الركاب باكارا وزوجها الكونت وهو قد رآها منذ ساعة تسير الى شارع باسي ، فأوشك ان يضيغ رشده وأسرع الى النزول من القطار الذي كان غائداً ببكارا الى باريس ، ولكن القطار كان قد سار فلم يستطع إدراكه .

- ٣٩ -

وصاح منبه القطار يدعو الركاب الى الصعود اليه ، ثم نظر إلى رولاند فرآه محققاً بذلك القطار المسافر ، فنبهه الى الصعود غير ان رولاند قال له : إني عذمت على الرجوع الى باريس ، وسأنتظر القطار القادم في هذه المحطة .

فصفر المنبه بصفارتة وانطلق القطار سائراً الى الريف .

أما رولاند فإنه انتظر هنيهة الى ان قدم قطار فركب به وعاد الى باريس ولما وصل الى المحطة سأل عن رئيس القطار الذي قدم رأساً من ليون فأرشد اليه فقابله رولاند وقال له . أنت رئيس القطار الذي قدم الآن من ليون ؟

— نعم وقد وصلت به منذ نصف ساعة .

— أرايت بقطارك امرأة شقراء جميلة كان معها رجلان ؟

— نعم وهم الكونتس أرتوف وزوجها وطبيبه .

فاضطرب رولاند وقال : إني أرى على صدرك إشارة تدل على انك منعم عليك بوسام ، وانك من رجال الشرف ، ولهذا فاني أستحلفك بهذا الوسام الذي تتقلده ان تقول لي هل الكونتس أرتوف حضرت بهذا القطار من ليون .

— نعم يا سيدي ، وأنا الذي أعنتها على الصعود اليه في محطة ليون .

فشكره رولاند وخرج وهو شبيه بالجهانين ، فركب مركبة وأمر سائقها ان يسرع به الى شارع باسي نمرة ٤٣ فذهب السائق الى ذلك المنزل ، فأطلق رولاند سراحه ودخل فقرع الباب وأجابه صوت امرأة من الداخل : من أنت ؟

فلم يجب بل جعل يقرع الباب الى ان فتحت له خادمة ، فقال لها :

أين سيدتك ؟

فتلجلج لسانها وأجابت : انها لم تعد بعد .
- لا بأس فسانتظرها .

. غير انه رأى من عين تلك الخادمة انها غير صادقة في قولها فنظر اليها نظرة المتوعد وقال لها : إختاري بين أن أنقذك عشرة جنيهات وبين أن تذهبي معي الى رئيس البوليس حيث يسألك عن بعض الشؤون .
فتظاهرت الخادمة بالخوف وقالت : إن سيدي تطردني من المنزل اذا أدخلتك اليه - ادون اذن ، غير اني سأخاطر لأجلك هذه المخاطرة فاتبني ...

فسار رولاند في أثرها وصعدا الى الدور الثاني من هذا المنزل ، حتى انتهت به الخادمة الى غرفة نوم ريبيكا فقال لها : دعيني وحدي وذهبي بشأنك . فتركته وانصرفت .

أما رولاند فانه دخل إلى غرفتها دون استئذان فوجدتها نائمة ، فوضع يده على كتفها فهبت من رقابها منزعرة ، ثم ثابت الى رشدها حين رأت رولاند فقالت : كيف أتيت ؟ وكيف جسرت على الدخول الى غرفتي دون اذني ؟

- ذلك أيتها الحبيبة لأنك اخبرتي اليوم بنمرة منزلك حين ذكرتها للسائق بصوت مرتفع .

فأنكرت ريبيكا ثم قالت له : لا بأس وحيث قد اتيت فاجلس أمامي .

فجلس رولاند أمامها وقال لها بلهجة المتهمك أتريدن يا سيدي الكونتس ان تخبريني بشيء عن حالة زوجك الكونت .

- انه لا يزال مجنوناً وقد أرسلته الى نيس .

- أقيم فيها زمناً طويلاً ؟

- لا أعلم فإن ذلك مناط بطبيبه .

— لقد أصبت ، ويظهر ان طبيبه استحسن ان يعود به الى باريس فعاد في هذا المساء

من الذي عاد زوجتي ؟
.. كلا بل الكونت ارتوف وكانت تصحبه امرأته الكونتس

وكانت ريبكا شديدة الجراءة غير انها لم تستطع ان تقاوم نظرات رولاند وجعل وجهها يحمر ويصفر في آن واحد لما تولاها من الاضطراب ، وعند ذلك نهض اليها رولاند وقال لها : لقد انقضى زمن التضليل ، وأصبحت عالماً الآن انك لست الكونتس ارتوف ، بقي علي ان أعرف من أنت ؟ فاذكرني اسمك .

وكان رولاند ينظر اليها نظرات إنذار علمت بعدها انه لم يعد لها حيلة وان الانكار لا يجديها نفعا ، فضحكت ضحكاً شديداً دون ان تجيب فصاح بها رولاند صيحة شديدة وقال أيتها الشقية اذكرني اسمك او أقتلك في الحال دون إشفاق .

ثم قبض على عنقها وضغط عليه فصاحت : رحماك لا تقتلني ... إني ادعى ريبكا .

فرفع رولاند يديه من على عنقها وقال : من أية عائلة ؟

— لا عائلة لي وإنا من بنات الهوى .

— من الذي دعاك الى تمثيل هذا الدور الشائن ؟

— رجل لا أعرفه .

فاحتدم رولاند غيظاً وعاد الى التهديد فقال : لقد كذبت .

— أقسم بالله اني لا أعرفه .

ولكن رولاند لم يبال بقسمها فقال : إذن انك تريد الموت .

ثم عاد الى الضغط على عنقها فصاحت الفتاة وقالت : دعني فسأخبرك بكل شيء ، ولكنني أقسم لك اني لا أعرف اسم هذا الرجل ، فقد لقيني ليلة

فقداني الى منزل لا أعرفه، ثم جاء بي في اليوم التالي الى هذا المنزل وقال لي ينبغي ان يكون اسمك من الآن فصاعداً الكونتس أرتوف .
فأفرج عنها رولاند وقال لها : أتقولين جميع ذلك للكونتس الحقيقة ؟

فدعرت الفتاة وقالت : كلا .

فلما قالت هذا القول نظر الى ما حوله فرأى سكيناً على المائدة بقرب سريرها واختطفها وأسرع اليها فوضعه على صدرها وقال : إختاري بين الموت وبين ان تذهبي معي الى منزل الكونتس
وكانت صعبة وعيد رولاند بادية في عينيه فأيقنت الفتاة انها لا ينقذها منه غير الامتثال فقالت : ليكن ما تريد هلم بنا .

وبعد هنيهة خرج الاثنان فركبا مركبة سارت بهما الى منزل الكونتس أرتوف . وكانت ريبيكا تقص على رولاند جميع ما تعلمه من أمر روكامبول الى أن وصلت المركبة الى منزل الكونتس فنزل منها رولاند مع ريبيكا وسأل الخادم عن الكونتس فقال له : إنها أتت في هذا المساء . وهي الآن عند اختها فإنها لم تعد بعد .

- لا بأس ... فسأنتظر عودتها مع هذه السيدة ، لأنني أتيت اليها بشأن خطير .

فأدخلهما الى قاعة الانتظار وكان على وجه ريبيكا نقاب كثيف .

- ٤٠ -

أما باكاذا فإنها بعد ان وصلت الى باريس غادرت زوجها في المنزل مع طبيبه الخاص ، وذهبت الى أختها سرين فأخبرتها بالسبب الذي دعاها الى

الرجوع الى باريس . ثم ذهبت وإياها إلى الطبيب صموئيل ، فاستقبلها
خير استقبال .

وكان الطبيب عالماً بحكاية باكارا وجنون زوجها فقال لها : أظنك يا سيدتي
آتية إلي بشأن زوجك .

- نعم وأأسفاه لأنه لا يزال على حاله ولم يفده الطب إلى الآن . في شيء وأنا
أرجو ان تتمكن من شفائه لما بلغت اليه من الشهرة .

- لا أستطيع ان أحكم في شيء قبل ان أرى الكونت وأعلم بالتفصيل كيف
بدأت معه أعراض الجنون .

- إن جنونه كان فجائياً وهو يعتقد انه ذات الرجل الذي كان يريد مبارزته .
ولا يزال ينكر نفسه إلى الآن .

ثم أخذت باكارا تذكر جميع أعراض الجنون إلى ان انتهت إلى قصة الضابط
الانكليزي فأخبرته ان هذا الضابط يعتقد ان زوجها مسموم وإنه هو الذي
أشار عليها بعرض أمره على الطبيب صموئيل .

فارتجف الطبيب عندما سمع لفظة التسمم وقال : أنه لا يوجد غير نوعين
من السموم يحدثان الجنون أحدهما مشهور في أوروبا ، ولكن الجنون الذي
يحدث عنه لا يكون خطراً ، ولا تنطبق أعراضه على ما ذكرته لي من
أعراض جنون زوجك ، والنوع الثاني غير معروف إلا في الهند ولا يوجد منه
في أوروبا إلا في منزلي وعجيب ان تلك الأعراض تنطبق على أعراضه فهل ذهب
زوجك إلى الهند ؟

- كلا .

- الله يعرف أحداً فيها ؟

- كلا .

ففكر الطبيب هنيهة ثم قال : إذا صح ما قلله الضابط الانكليزي ولا بد
أن يكون الكونت قد شرب السم قبل زمن المباراة بليلة ثم لا بد ان يكون

بات تلك الليلة في المنزل .

كلا يا سيدي إنه لم يبت في المنزل ، ولكني أرجح انه بات في منزل
الدوق دي مايلي فإنه كان شاهده في المبارزة وهو يقول اننا كل شيء .
- الملك تجهلين يا سيدي ان الدوق مات أمس ؟

فهبت باكارا منذرة وهي تقول: كيف مات الدوق وهو غض الصبى وفي
ريمان شبابه ؟

فلم يحبها الطبيب ولكنه أخذ جريدة كانت أمامه ودلها على خبر نعيه فيها
فقرأته باكارا ثم ضغطت على الجريدة وقالت والدمع يحول في عينيها : كيف
مات هذا المنكود ؟

-- بالجرة الفارسية وقد سرت اليه العدوى من جواد كان يحبه

وساد السكوت هنية الى ان عاد الطبيب الى محادثتها بشأن زوجها
فقال : مما يزيد عجي ان هذا السم الذي شربه الكونت لا يوجد منه إلا في
جافا وعندي ، وليس لدي منه غير ثلاث اوراق طبية فكيف توصل هؤلاء
الأئمة اليه ؟

. ثم نهض الى الخزانة الزجاجية الموجود فيها هذا السم وأشار بيده إلى
حق فيه رشاش فاعم فقال : هذا هو السم .

- إذا كان لا يوجد منه إلا عندك كما تقول ، ألا يمكن ان يكون قد
سرق من منزلك ؟

- إن هذا مستحيل إذ لا يدخل هذه الغرفة إلا أنا وخادم لي به ثقة شديدة
وفوق ذلك فاني حين أخرج من الغرفة أقفل بابها بحيث لا يمكن الدخول إليها ،
ومع ذلك فقد قلت لك ان لدي من هذا السم ثلاث اوراق وسأزن ما في هذا
الحق فأعلم اذا كان مسروقا .

ثم أخرج من درج مكتبه ميزانا صغيراً وأحضر الحق من الخزانة فأفرغ
ما فيه في ورقة ووزن السم ، فاضطرب واصفر وجهه لأنه وجد انه ينقص

سنة عشر غراماً وقال : لقد سرقت .

فوقع هذا القول عليها وقع الصاعقة ، وجعل الطبيب ينظر تارة الى باكارا وتارة الى السم نظر البلاهة وهو لا يصدق الى ان قال : إن هذا السم لا يمكن ان يسرق إلا إذا نسيت ان أقفل الخزانة وتركت باب الغرفة مفتوحاً وخرجت منها ولم يحدث شيء من هذه الأسباب الثلاثة .

ثم قرع الجرس يدعو خادمه فأقبل الخادم ، وهو رجل عجوز يناهز الستين كان يثق به الطبيب ثقة لا حد لها ، ولكنه سأل : أتعلم ما كان في هذا الحق ؟

- نعم فقد كان فيه سم قاتل .

- لقد سرقوا منه ستة عشر غراماً فاستخدموها لحرية هائلة .

أجاب الخادم بلهجة تبين منها الصدق : أن ذلك مستحيل .

فالتفت الطبيب الى باكارا وقال : أسمعت يا سيدي ؟

- أنا لا أتهم هذا الرجل .

فعاد الطبيب الى الخادم وسأله : تذكر جيداً ، ألا تذكر انه دخل أحد الى الغرفة في مدة غيابي منذ شهر ؟

. كلا .

-- ألم تلاحظ ابي نسيت مفاتيح الخزانة على الطاولة في حين من الأحيان ؟

-- كلا .

- ألا تذكر انه دخل احد الى غرفتي ثم خرجت منها وبقي فيها ؟

- نعم أذكر شيئاً من ذلك ، فلقد زارك رجل منذ اسبوعين او ثلاثة

وفيا هو مقيم معك اضطررت الى الخروج لمعالجة خدام صدمته سيارة ، وكانت الخزانة مفتوحة ، وأسرعت الى الذي صدمته المركبة ، ولم يكن مصاباً بشيء .

- غير ان زائري يستحيل عليه سرقة السم .

فقلت باكارا : لماذا ؟

— لأنه خيرة النبلاء وهو المركيز دي شمري .

— عرفته .. فهو ابن عم الكونت فابيان . وهو قد خدم دهرأ طويلا في الهند .

— هو بعينه .

— إن هذا الرجل شريف لا يمكن اتهمه

— هو ما قلته يا سيدتي .

ثم غرق الطبيب في هواجسه وخطرت له مباحثته مع روكامبول بشأن هذا السم خاصة فقال : لقد ذكرت الآن يا سيدتي اني قد تباحثت مع هذا المركيز بشأن السموم عامة وهذا السم خاصة ، وانه سألني أسئلة كثيرة عن تأثيره وطريقة استعماله وزمن فتكه ، الى غير ذلك حتى انه طلب إلي أن يراه فأريته إياه .

ففكرت باكارا وقالت : إن جميع ذلك يشير الى انه هو السارق غير ان ذلك مستحيل .

— ليس من مستحيل في الأرض ، وإذا صدق فان المركيز هو الذي سقاه للكونت على انه إذا كان جنون زوجك من هذا السم فلني أتعهد بشفاؤه شفاء عاجلا مضمونا .

فأظهرت باكارا من الفرح ما لا يوصف وشكرت الله فقال لها الطبيب : عودي يا سيدتي الى منزلك وسأزورك غداً عند الظهر لأفحص الكونت فحسباً مدققاً وسنجد من الله معونة لمعرفة الأثم الجاني .

فودعته باكارا وانصرفت فأوصلت اختها الى بيتها وعادت الى منزلها وهي تقول في نفسها : إن المركيز دي شمري لا يمكن ان يقدم على هذه الخيانة ، ومهما يكن فإن ثقي بهذا الطبيب باتت عظيمة حتى اني أصبحت واثقة من شفاء زوجي العزيز

ولما بلغت الى منزلها أخبرتها الخادمة انه يوجد في قاعة الانتظار شاب
وسيدة ينتظران عودتها .

-- ما اسمها ؟

-- لا أعلم . غير اني أكرر اني رأيت الشاب مرة في هذا المنزل .

-- والمرأة ؟

-- لم أستطع ان أتبين وجهها لأنها مبرقعة الوجه ، ولكن قامتها تشبه
قامتك أتم الشبه .

فتركتها باكارا ودخلت الى القاعة فرأت رولاند .

وكأنما حية لسعتها حين رأته فصاحت صيحة الدهش وتراجعت مندعة
الى الوراء ، غير ان رولاند دنا منها وركع أمامها . فنظرت باكارا اليه
والى هذه المرأة التي تشبهها اتم الشبه وقالت لروولاند : قم يا سيدي فقد عرفت
الآن كل شيء .

غير ان رولاند بقي راكعاً فعادت باكارا الى ريبيكا وقالت لها : من
أنت ، يا من تشبهيني هذا الشبه العجيب ؟ وكيف تجاسرت على
سرقة إسمي ؟

فقالت ريبيكا بهود . إنني يا سيدتي إبنة أبيك واسمي ريبيكا .

فسكن غضب باكارا وقالت بلهجة الحنو والاشفاق : إذن انت اخي ؟ .
نعم فلقد ذكرت الآن فقد حكيت لي امي حكايتك عدة مرات .

فقالت ريبيكا : يسرني منك ما أراه من إشفافك علي بعد ان سببت لك
من المصائب ما لا يحمل معه من الاشفاق ، فأصبحت اقرب الى عيشة التوبة
والصلاح بفضل هذا الحنو ولا سيما بعد ان دعوتني أختك .

ثم ركعت أمامها بجانب رولاند وقبلت يدها وهي تشرق بالدموع ،
فتأثرت باكارا لما رأته وقالت لها : إنهضي أيتها الأخت العزيزة فقد صفحت
عنك . وأنت يا سيدي فانك لا تزال في مستقبل الشباب ولا شك انهم خدعوك

فان قلبك الصغير لا يسع مثل هذا الشر العظيم ، فأنا أسأحك ايضاً ، غير ان هذه المصيبة التي نكبتي بها لا تذكر بازاء مصيبة هذا الرجل النبيل الذي لقبني باسمه فيجب علينا ان نتعاون للوصول الى معرفة ذلك الجاني الأثيم الذي مثل هذا الدور الهائل وخذعنا جميعنا على السواء .

فنظر رولاند الى ربيكا وقال : انت التي حضرت بك الى هذا المنزل بعد الانذار الشديد قولي الحقيقة الآن .

— نعم سأقول كل شيء .

ثم قصت على باكارا جميع حكايتها مع روكامبول ورولاند بالتفصيل وكانت باكارا مصغية اليها أتم الاصفاء فلما أتمت حديثها سألت باكارا رولاند : كيف كانت تصلك رسائلي ؟

— كان يحملها إلي خادم كان عندي وكان يقول لي ان له علاقة مع وصيفة الكونتس ارتوف فهي تعطيه رسائل سيدتها وهو يوصلها إلي .

— اقلت قلت ان الخادم كان عندك الملك طرده ؟

— كلا بل انه سرقني وهرب

— ومن أدخله في خدمتك ؟

— أوصالي به صديق لي يدعى الماركيز دي شمري .

فدعرت باكارا وقالت في نفسها : ما شأن هذا الماركيز وبماذا أسأت اليه فان جميع القرائن تدل على اشتراكه بهذه الجرائم ؟

وبعد ان افتركت هنيهة قالت لرولاند : إنك يا سيدي إذا كنت لا تزال في طيش الصبي فان لك قلباً شريفاً ورثت دمائه من أبك فهل تقسم لي بهذا الشرف بانك تمثل لي في جميع ما أريد ؟

— إنني أقسم لك بشرفي وبشرف أبائي اني أكون أطوع لك من البنان ، وسأنشر حديث غروري والمخداعي بين جميع سكان باريس كي ..

فقطعت باكارا حديثه وقالت : اول ما أسألك إياه ان لا تفوه بكلمة عن

جميع ما علمته وان تدع الناس على اعتقادهم الأول بي ولذلك فان اخي ريبيكا
ستبرح باريس في صباح غد مبرقة الوجه بحيث لا يراها احد فان ساعة براءتي
لم تحن بعد .

- ٤١ -

في صباح اليوم التالي هب الدكتور صموئيل من رقاده فدخل الى غرفة
شغله وبدأ بمطالعة جرائد المساء فاستلقت نظره مقالة بعنوان : جريمة عظيمة
بدأت كما يأتي :

« كثرت الجرائم في هذه الأيام دون أن يتمكن رجال الأمن من معرفة
الاثمين فقد نشرنا من قبل حادثة مقتل القوزاقي الذي كان قادماً من
روسيا الى باريس . أما اليوم فاننا ننشر حادثة أشد فظاعة وهي ان سكان
إحدى الحارات في شارع مونمارتر رأوا في المساء ان المياه تخرج بفزارة من
باب غرفة تسكنها امرأة تدعى مدام فيبار ، وبعد ان أيقنوا انه لا يوجد
أحد في الغرفة وخافوا خطر المياه المتدفقة أسرعوا الى استدعاء الشرطة .
« فأقبل رجال الشرطة وكسروا الباب فوجدوا ان المياه تخرج من قبو
بعد امتلائه ورأوا رجلاً منزوياً في إحدى زوايا الغرفة والدماء تسييل من
كتفه وهو يحدق بعينيه تحديق المجانين فاخرجوه ونضحوا المياه من القبو ،
فظهر لهم قتيلان أحدهما مدام فيبار صاحبة الغرفة وقد وجدت مخنوقة
والآخر يدعى فانتير ، وهو مطعون بخنجر اما الرجل المجنون فقد
عرف بعد التحقيق انه يدعى زامبا ، وقد كان خادم غرفة الدوق دي
مايلي النخ »

فلما أتم الطبيب تلاوة المقالة شغل باله امران أحدهما جنون زامبا الناتج

عما لقيه من الرعب والثاني مقتل هذا الرجل في نفس اليوم الذي مات فيه سيده الدوق دي مايلي . فذهب الى المحل الذي عرضت فيه جثتا القتليين ، ففحصهما فحسباً دقيقاً ثم ذهب الى المستشفى الذي نقل اليه زامبا وطلب ان يراه فلما أوشك ان ينظره حتى تراجع منذعراً إذ علم انه نفس الخادم الذي ادعى ان العربية صدمته حينما كان المركيز دي شمري عنده فخرج لمعالجته تاركاً المركيز في غرفته كما عرف القراء .

وعند ذلك غادر المستشفى وذهب الى منزل الكونت ارتوف فاستقبلته باكارا وأخذته الى الحديقة حيث كان الكونت جالساً على مقعد وهو يرسم على الرمل بعصاه الحرف الأول من اسم باكارا غير مكترث بشيء مما حوله فاذا أتم رسمه محاه الحرف نفسه وهكذا دون القطاع .

وكان الطبيب يراقبه فلما أيقن انه لا يهتم إلا بأمر واحد علم انه مسموم لا محالة بذلك السم الهندي فالتفت الى باكارا وقال : إطمئني يا سيدتي فاني سأشفيه بأذن الله واسمحي لي ان أسألك سؤالاً واحداً وهو هل كانت علاقاتكم وطيدة مع الدوق دي مايلي .
- نعم .

فأخرج الجريدة من جيبه وطلب اليها ان تقرأ ذلك الفصل الذي قرأه ، فلما قرأته قرأت اسم فانتيير ومدام فيبار جمدت عيناها وقالت : كل ذلك من صنع اندريا .

وكان الكونت لا يزال يرسم رسمه على الرمل ، فلما تابث باكارا من دهشتها أشارت الى الطبيب ان يتبعها وخلت به فقالت : إن كل ما قرأناه وعلمناه يدل على حدوث الجريمة ، ولكن الظلمات تكتمننا فلا نعلم شيئاً أكيداً وينبغي ان نخرج من هذه الظلمات الى النور ولنبدأ بما عثرنا عليه أمس فلقد ثبت لنا ان السم قد سرق من غرفتك هذا لا ريب فيه .

ثم انك أصبحت وانقأ ان السارق هو المركيز دي شمري .
- لم يعد لدي أقل شك ، فلقد ذكرت إلحاحه علي بالحديث بشأن
هذا السم .

-- وقد ثبت لك اليوم ان جنون زوجي كان لشربه السم .
وذلك أكيد ايضاً .

إذن إسمع ما حدث لي .

ثم قصت عليه حديث رولاند وريبيكا بالتفصيل الى ان قالت له : إن
ريبيكا لا تعرف الرجل الذي كان يغويها، ولكنها عرفت المنزل الذي كان قادهما
اليه في أول ليلة لقيها وهو في شارع سوسانس .
فأجفل الطبيب وقال : إن للمركيز دي شمري منزلاً في الشارع يستقبل
فيه باسم فريديريك .

الملك ذهب الى ذلك المنزل ؟

-- عدة مرات فقد كان يدعوني اليه لمعالجة رجل بحار مقطوع اللسان
وشوهدت القبائل المتوحشة وجمه بالوشوم .

فارتعدت باكراً عند سماعها قول الطبيب وقالت . أتقول انه مشوه
مقطوع اللسان ؟

فتمجيب الطبيب لاضطرابها وقال هل تعرفين الرجل ؟

كيف لا أعرفه وأنا التي قطعت لسانه بعد ان لاقيت منه الأهوال الشداد
فان الرجل الذي قال عنه المركيز دي شمري انه بحار إنكليزي ما هو إلا
الفيكونت أندريا أي السير فيليام .

وعند ذلك قصت باكارا عليه حكاية اندريا إلى أن قالت : ان فانتير ومدام
فيبار كانا من أعوانه ولقد حاربت هذا الرجل أربعة أعوام حروباً هائلة كنت
المنتصرة في ختامها ، ولا شك ان فانتير وتلك العجوز لم يقتلا إلا بامره ولا
شك ايضاً ان المركيز دي شمري كان آلة بيد اندريا فانتقم مني بما صنعه

بزوجي وبثلم شرقي غير انه إذا كانت فائدة اندريا الانتقام فأية فائدة لهذا
المركز من هذا الانتقام ؟

انذهل الطبيب مما سمع وقال ان هذا سر غامض ! .

— أنت واثق من أن زامبا الذي رأيته في المستشفى هو نفس الخادم الذي
عالجته عند باب منزلك حين سرق منك السم ؟

— أتم الثقة .

— إذن لنبدأ به ، إنه لا شك شريك السارق ولم يعد لدي ريب الآن ان
الدوق دي مايلي سيد هذا الخادم قد مات مسموماً باليد نفسها التي دس السم
للكونت ارتوف ولا أعلم الآن حقيقة هذا الرابط السري الذي يوثق بين اندريا
والمركز وزامبا غير أن هذا الخادم كان يدعى زامبا حقيقة فقد كان قبل ان
يخدم الدوق خادم الدون جوزيف الذي قتلته خليلته في مرقص الجنرال
الأسباني منذ شهرين ، وقد كان الدون جوزيف هذا خطيب ابنة الدوق
سالانديرا .

فقال الطبيب : نعم لقد سمعت بشيء من هذا .

— لا أعلم الآن لماذا دخل زامبا في خدمة الدوق بعد قتل سيده ، ولكن
هذا اتفاق غريب وهو أن سيده كان خطيب ابنة الدوق وكان الدوق دي مايلي
يحبها أيضاً وقد طلب الاقتران بها وكان ينتظر أوراقاً خطيرة من روسيا تحمل
الدوق الأسباني على الرضى بتزويجه ابنته مق اطلع عليها على اثنا مع جميع ما
عرفناه لا تزال تحيط بنا الظلمات ، أتعرف أين نجد النور الذي يبدد هذا الظلام
ويكشف لنا الغامض عن هذه الأسرار ؟

— أين ؟

— في عقل الرجل المفقود الذي يسمى زامبا أظن ان شفاه من الممكنات .

— نعم ، وقد يشفى بسرعة ، فان جنونه لم يحدث إلا على أثر الرعب
الذي تولاه .

— إذن أعلم انه إذا كان هذا البحري المشوه هو اندريا ، وإذا كان المراكيز دي شمري آلة بيد اندريا وإذا كان الدوق دي مايلى قد مات مسموماً فان الدقائق تعد بالساعات .

— ولماذا ؟

-- يجب السرعة فان قريحة اندريا الجهنمية لا تقف عند حد فضيحة امرأة وقتل رجل .

-- إذن فللتسرع واول ما أطلبه اليك ان تسألني أحد اصحابك من ذوي النفوذ أن يساعدني لدى الحكومة فتأذن لي بمعالجة زامبا في منزلي .

— ان ذلك سهل ميسور ، ثم قامت من ساعتها وكتبت كتاباً مطولاً بهذا الشأن إلى الكونت أرمان دي كركاز وأعطته للطبيب فأخذه وودعها وصار به إلى الكونت أرمان .

وبعد ثلاث ساعات ورد اليها كتاب من الطبيب يقول فيه أنه فاز بمراحه وان الكونت ذهب بنفسه معه إلى دار الحكومة وان زامبا عنده في بيته .

فلما قرأته قالت في نفسها تخاطب أندريا ، انك قد عدت إلى القتال ولكنني سأظفر بك أيضاً وفي هذه المرة لا أبقي عليك ولا اكثفي بتشويه أعضائك بل أريح الأرض من وجودك .

غير أن باكارا أخطأت فليست هي التي ستقتل السير فيليام .

-- ٤٢ --

بعد ثلاثة أيام من الحوادث المتقدمة قدمت باكارا إلى منزل الطبيب صموئيل فاخبرها ان زامبا قد عاد اليه صوابه وانه عازم على أن يبوح بكل شيء

من يذكره بسوء وعندي انه يستحيل ان يكون له أدنى اتصال بمثل هؤلاء
الصوص .

- لم يبق إذن إلا ان يكون روكامبول قد تقمص بالمركيز دي شمري
لأن هذا المركيز فارق أهله صغيراً وعاد بعد أعوام طويلة ، فلا يبعد ان
يكون هذا اللص وقف على سر هذه العائلة وجاءها بصفة ابنها وهو واثق
من موته ، او انه قتله واطلع على اوراقه . فلاني اعرف كثيراً من امثال
هذه الحكايات .

فقال رولاند منكراً عليها هذا الظن : إن كل شيء ممكن ولكنك يا سيدتي
رأيت المركيز وانت تعرفين روكامبول كما تقولين .
- نعم ولكني ما رأيته غير مرة ولم أنتبه اليه ولم يعد لي بد من ان أراه ،
لأن هذا الشك قد تمكن مني فلا يزول .

أجابها رولاند : إن ذلك سهل فلاني أدعوه الى منزلي للطعام وتختبئين في
غرفة لترينه وتسمعين كلامه كما تشائين .

فقال الطبيب : إن ذلك غير ميسور الآن ، لأن المركيز قد غادر باريس
منذ ثلاثة أيام .

فقالت باكارا العله سافر وحده ؟

- كلا بل صاحب معه ذلك البحار المشوه الذي تقولين انه اندريا .

- انه اندريا دون شك . ولكن أعلمت ابن سافر ؟

- نعم . إنه ذهب إلى ارض لصهره يريد بيعها للدوق سالانديريرا ، وقد
ذهبت العائلتان منذ اسبوع ولحق بهما المركيز منذ ثلاثة ايام .

فقالت باكارا : إنني أعرف هذه الأرض ، ولا بد لي ان ارى المركيز .
ثم قالت لرولاند : إحضر إلي في صباح غد واحرص أشد الحرص على ان
تبوح بشيء مما سمعت ، لأن كلمة واحدة تخرج من فمك ، تفسد جميع ما انا
شارعة فيه .

ثم ودعتها وعادت إلى منزلها .

وفي اليوم التالي جاء رولاند حسب الاتفاق ، فذهل إذ رأى باكارا مرتدية بملابس الغلمان ، ومتأهبة للسفر فقالت له : إني تنكرت بهذا الزي كي يسهل اختلاطي بخدام الكونت فابيان ، فأرى المركيز كل حين .

— العلك ذاهبة الى تلك الأرض ؟

— بل إني ذاهبة معك الى أرض عمك المجاورة لها فهم بنا إليها ، وإني أرجو أن أقبين فيها وجه المركيز على ما اشاء .

فامتل رولاند لها وخرج الاثنان فركبا مركبة وسارت بها الى تلك الأراضي غير انها ذهبا بعد الألوان لأن اندريا وروكامبول سبقاها بأربعة أيام جرى في خلالها من الحوادث ما سنقصه على القراء

- ٤٣ -

وليس في هذه الأراضي التي أراد الدوق سالاندريرا شراءها من صهر روكامبول سوى إنها زراعية طيبة المناخ ، وفيها قصر قديم البناء تنبسط أمامه مروج خضراء تلتهمي بواد عميق هائل نشأت الصخور في جوفه واشتهرت تلك الأرض بذلك الوادي .

وكان فابيان وامراته والدوق وابنته أقاموا جميعاً في هذا القصر المتسع وجعلوا يخرجون كل يوم للصيد في الأراضي الفسيحة فيقضي الدوق الاسباني حاجتين وهما النزهة وفحص تلك الأرض التي عزم على شرائها . وقد تمكنت الصداقة في هذه الأيام القلائل بين امرأة فابيان وبين الغادة الاسبانية ، حتى افضت الى ان الغادة باحت لها بحبها لأخيها ، وانها تخشى معارضة أبيها .

وكانت امرأة قايان محب روكامبول حباً شديداً لاعتقادها انه أخوها وهي لم تصحب زوجها بهذه الحيلة إلا تمهيداً لزوجها بابنة الدوق بما تبدله من المساعي في هذا السبيل. فكانت تؤنس الشيخ وتلاطفه حتى مال اليها ميلاً عظيماً وباحثته مراراً بشأن أخيها. بإحاديث مزوقة جعلت لروكامبول مكانة عظيمة في نفس الدوق فرضي عنه كل الرضى .

وكانت تكتم جميع هذه الأحاديث عن الغادة الأسبانية ولكنها كلما خلت بها أملتها خيراً إلى ان قالت لها ابنة الدوق يوماً . أراك تكتمين عني أموراً كثيرة ، وكلما سألتك عما يجري بينك وبين أبي تدعينني الى الصبر وتحمليني على الرجاء .

— نعم ولا أزال ادعوك الى الرجاء

— سأرجو كما تشائين ولكن ألا تقولين لي على أي أمر تعتمدين في هذا الرجاء ، لأن أبي لم يقل لي كلمة بعد عن المركز .
— إذن ، إصفي لي لآني سأخبرك بكل شيء . إن أباك يحبك حباً يقرب من العبادة ، ولا أكتفك الآن ما يحملني على هذا الرجاء ما قاله لي وهو انه سيدع لك الخيار في انتقاء الزوج الذي تهواه نفسك .

فظهرت علائم السرور على محيا ابنة الدوق وقالت أهو الذي قال لك هذا الكلام وبأية مناسبة جرى الحديث ؟

— أتذكرين يوم ذهبت مع أمك وزوجي للزهوة ، وبقيت أنا مع أبيك في القصر .

— نعم .

— بينما كنت أتنزه وإياه في الحديقة سألني : إني أعجب كيف ان أخاك المركز لم يحضر معنا ؟ فاضطربت عند ذلك اضطراباً لم يخف على الدوق ، وسألني عن أسباب اضطرابي فقلت له عند ذلك : ان أخي يحب حب يأس ، وان هذا الحب الذي لا رجاء فيه حال دون قدومه إلى هذه القرية . فمعجب

أبوك وقال كيف ذلك ؟ العل تلك الفتاة التي يهاها مقيمة في القرية ؟ قلت : كلا بل إنها أتت اليها منذ ثلاثة أيام . فلما قلت هذا الكلام الصريح اضطربت اضطراباً عظيماً وكنت احسب ان حياتي متعلقة بتلك الكلمة التي ستخرج من فم أبيك بل كنت أخشى ان يقول لي إن أخاك عظيم الجسارة غير انه لم يقل شيئاً من ذلك ولكنه دهش لسؤالي ثم قال أأنت واثقة بما تقولين ؟ قلت : كل الثقة يا سيدي لأنني أخته . قال : أيحبها حباً شديداً ؟ قلت : ليس وراء حبه حب لأنه عاش في بلاد الهند ولم يعرف الهوى قبل ان يرى ابنتك فملكك شغافه وتمكن حبها من فؤاده اي تمكن حق بت أخشى عليه من الهلاك لأنه يكتن أمره في صدره وهو يعلم ان عائلة سالانديررا أعرق نسباً من عائلته وأبعد شهرة .

فقاطعتني أبوك قائلاً : إن عائلتي يا سيدي أكثر شهرة غير انها ليست أعرق نسباً قلت : وفوق ذلك يا سيدي إن التباين عظيم بين ثروتك وثروته ؛ فابتسم الدوق وقال لي بانعطاف : إننا متى اشتركنا زال التباين ، ثم أضاف بكآبة : إني عزمت يا سيدي عزماً أكيداً أن أطلق لابنتي الحرية باختيار الزوج الذي تريده ، وذلك لأنني اخترت لها ثلاثة خطاب فقضي عليهم جميعاً حتى تشاءمت من نفسي وبت اشفق على من يقع عليه اختياري من الخطاب .

فاحتاج فؤادي عند هذا القول وقلت : إذن إذا كانت ابنتك تحب أخي أيمن أن .. فقاطعتني قائلاً إنها تفسدو دون شك المركيزة دي شمري في أقرب حين . ولكنني أخشى أن لا يكون هذا الحب متبادلاً بينهما وان تكون ابنتي تحب سواه .

فصحت صيحة فرح وقلت : سترى انها تحبه وإذا شئت ان تمتحن ذلك فاذكر اسمه عرضاً ونحن على المائدة ، ثم انظر اليها فترى ما يكون . أجب : حسناً سأمتحن هذا الامتحان .

وقد فعل ذلك فإنكم بعد ان رجعتن من النزهة وجلسنا جميعاً على المائدة

ذكر أبوك اسم أخى ثم نظر اليك ونظرت معه فرأيت أن وجهك قد احمر
احمراراً شديداً ، وابتسم لي أبوك ابتساماً خفياً أشار فيه إلى اقناعه من تبادل
الحب وبعد أن قمنا عن المائدة خلا بي وقال لي لقد أصبت فيما قلته لي فاكتبي
لأخيك ان يحضر وقد كتبت له أمس .

فنهضت ابنة الدوق وأكبت على عنق امرأة فابيان تقبلها فجعلتا تتعانقان
وكل منهما تنادي صاحبتها بأخي .
وكان الكتاب وقد وصل الى روكامبول ، كما يذكر القراء ، فأخذ اندريا
وسافر معه .

وفي اليوم التالي خرج الدوق وامراته وابنته وفابيان وامراته من القصر
للنزهة ، فلم يشوا بضع خطوات حتى سمعوا صوت مركبة قادمة فوقفوا
ينتظرون قدومها لندور قدوم المسافرين الى هذه القرية ، وكانوا كلهم يتكهنون
عن القادمين بها ما عدا ابنة الدوق وامرأة فابيان ، فانهما كانتا موقعتين ان
القادم هو المركيز دون سواه .

ولم يطل وقوفهم حتى وصلت المركبة وكان فيها روكامبول واندريا ،
فلما رأهم روكامبول وثب مسرعاً الى صهره واخته فعانقهما وسلم على الدوق
وامراته وابنته باحترام شديد ممزوج بمظاهر الكآبة ، ثم قال لهم : لاني
أحضرت معي ذلك البحار المسكين لتغيير الهواء ، فقد كان يضمنيه انحباسه
في المنزل .
فقالوا جميعاً : حسناً فعلت .

وعادوا الى المنزل فوضعوا أندريا في غرفة خاصة ، وعينوا أحد خدام
القصر لخدمته ثم خرجوا جميعاً للنزهة ثانية فعلم روكامبول من اخته ومن
ابنة الدوق كل ما تقدم لنا بيانه ففرح فرحاً لا يوصف وأيقن من زواجه بتلك
الغادة الاسبانية التي كلفته إهراق كثير من الدماء وعرضته لأشد الأخطار
وبعد ذلك انضم الى الدوق وفابيان ، وكانا يتحدثان بامور الصيد ، وقد

اتفقا ان يخرججا في الغد لصيد الدب ، فقال لروكامبول : أخرج معنا غداً للصيد ؟

- بله الرضى ، فلاني تعودت صيد الوحوش الكاسرة في الهند ولا أحب إلى من هذا الصيد .

ولما عادوا إلى القصر دخل روكامبول إلى غرفة أندريا ، فأخبره بجميع ما كان . فظهرت علائم السرور على وجه هذا الرجل الذي لم يعرف قلبه الحب الصحيح الى ان . أصيب بتلك النكبة وانقطعت آماله من غرور الحياة فعادت اليه العواطف الإنسانية وأصبح يحن الى روكامبول ويحبه حب الآباء للأبناء فضغط ضغطاً شديداً إشارة إلى ما قواه من الفرح وأخذ لوحه الحجري وكتب عليه كتابة طويلة أرشد فيها تلميذه الى طريقة يعرض فيها حالة الدوق للخطر في الصيد ثم ينقذه من الخطر .

فعامها ودخل الى غرفته فنام نوم المطمئن وهو يحلم طول ليلته بملايين الاسبانية وتاج الدوقية .

وخرج في اليوم التالي الدوق وفابيان وروكامبول بحاشية كبيرة من الخدم وقواد الكلاب . وقد التمس روكامبول من الدوق ان يولييه إدارة هذا الصيد ففعل ، فأصدر روكامبول أوامره للخدم ان يطاردوا الدب في جهة عينها لهم ، إلى أن وصلوا اليها فعين موقف الدوق فجعله بعيداً عن فابيان واختبأ هو على مسافة قريبة منهما بين الأدغال فجعل ينظرون قدوم الوحش بفارغ الصبر وكلهم متأهب على صهوة جواده لقتاله .

وبعد ساعة علانباح الكلاب وقدم الوحش من جهة الدوق ، فصوب الدوق بندقيته عليه وأطلق النار فأخطأه . فهاج غضب الدب فأطلق النار عليه ثانية فجرحه جرحاً بالغاً . غير ان الوحش لم يسقط بل هاج هياجاً عظيماً وهجم على جواد الدوق ، ونشب أنيابه في ساقه فسقط الجواد بفارسه على الأرض وأيقن الدوق من الموت فرمى بندقيته واستل خنجره للدفاع به

الدفاع الأخير ، وشعر بانفاس الدب تهب على وجهه وهو يمزق صدر الجواد ، ولكنه قبل ان يصل الوحش اليه سمع دوي بندقية ورأى ان رصاصة وقعت في ظهر الدب ، فترك الوحش الجواد منذعراً والتفت الى الوراء ليرى هذا العدو الجديد

والتفت الدوق بعده فرأى روكامبول هاجماً عليه بجواده ورأى الوحش هاجماً عليه ، فأطلق عليه روكامبول رصاصة ثانية ثم ترجل عن جواده فاستل خنجره وهجم على الوحش بعد ان أصابه رصاصة يجراح بالغة ، وما زالا يتجولان وروكامبول يحذره ويلتمس منه مطعناً حتى ظفر به وطعنه بخنجره طعنة صادقة بقلبه فانقلب الدب صريعاً يتخبط بدمائه .

وفيا هو يسح خنجره يحلده غير مكترث لشيء إذ دنا منه الدوق وقال له بصوت يتهدج : إركع يا بني واشكر الله معي ، فلقد نذرت اليه نذراً وأجابني الى دعائي .

فقال روكامبول : أي نذر هو يا سيدي ؟

— إني كنت منذ خمس دقائق بين مخالب هذا الوحش الكاسر فنذرت الى الله ان أجعلك ولدآلي إذا سلمت من هذا الخطر. وقد سلمت منه ، وأنت الذي أنقذتني .

فوجف قلب روكامبول وأجاب : أنا ولدك ؟

— نعم يا بني ، عرفت كل شيء فلذلك تحب ابنتي وهي تحبك ولا بد لكما من القران .

وعند ذلك رأى روكامبول ان حسن الدوق والمجاملة يقضيان عليه بالإغماء فتظاهر انه أعغم عليه من السرور وسقط على الأرض لا يعي .

فأسرع الدوق اليه وجعل يفك أزرار ثوبه وينادي فابيان إلى ان أنى لنجدته فرأى روكامبول انه قد حان له ان يفك من ذلك الإغماء الكاذب ، فلما استفاق رأي أمامه الدوق وفابيان ، فقال الدوق لفابيان وهو يضطرب :

مصنع إلى أيها الفيكونت . إن ثلاثة خطبوا ابنتي فلقي كل حقه دون أن يحقق أمانيه من الزواج ، حتى لقد بت أخشى على الماركيز وهو الخطيب الرابع ، ولما كان الماركيز قد أصبح ولدي وكنت مديناً له بالحياة فلنسرع بمعقد زواجه على ابنتي لأن هذا الزواج لا بد منه في القريب العاجل بل اني أريد أن يكون غداً وهو يوم أحد . فتول عني إبلاغ الكنيسة هذا الزفاف الذي سنحتفل بالاعلان عنه غداً دون شك

- ٤٤ -

وفي يوم الأحد أي في اليوم التالي وعظ الكاهن في كنيسة تلك القرية الصغيرة وأعلن الناس أنه سيحتفل قريباً بزواج الماركيز فريدريك البرت أونوريه دي شمري أحد ضباط البحرية في الهند الانكليزية على المدموازيل كسبسيون ابنة الدوق سالانديررا .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر جاء المسجل الى القصر فغلا بالدوق ساعة ثم خرج به الى القاعة العمومية حيث كان ينتظرهما الفيكونت وفابيانت وامراته وامرأة الدوق وأندريا وهو جالس بينهم بلباسه الرسمية وكان روكامبول والغادة الاسبانية جالسين بم عزل عن الحضور يتناجيان الغرام .

فجعل المسجل يكتب شروط الزواج أمام الدوق وفابيانت الذي كان ينوب عن روكامبول ، وقد ذكر فيها ثروة روكامبول وخطيبته ، وان الدوق يحق له ان يرث القابه واسمه للمركيز دي شمري بعد وفاته ، فيتسمى الماركيز باسمه ويلقب بالدوق سالانديررا حفظاً للنسب العائلة ، إذ ليس لها وريث ذكر .

وبعد أن أتم الكتابة أقبل الجميع وفي مقدمتهم روكامبول وخطيبته فوقعا

على صك الزواج ثم تلاهما الباكون الى ان انتهى الدور الى اندريا فقاده روكامبول
الى الطاولة وأعطاه القلم .
فأدمعت عينا أندريا حزناً على تلميذه وجعل القلم يرتجف بيد هذا الرجل
الجهنمي الذي لم يرتجف بيده الخنجر ...

- ٤٥ -

في مساء ذلك اليوم الذي فاز فيه روكامبول بما يبتغيه بعد جده الطويل ،
وبعد ان قتل في هذا السبيل للنورية ومرصعتها والدون جوزيف والدوق دي
مايلي وفانتير ومدام فيبار ، وبعد أن هتك عرض باكارا وذهب بعقل زوجها
وبعد ان قتل المركز شمري وزامبا كما يظن ، كان الليل مدلهماً والحر شديد
والرياح تهب حارة والسماء متلبدة بالضباب وعند منتصف الليل جعل الرعد
يقصف والبرق يتألق في تلك السماء المظلمة .

وكان جميع سكان القصر نياماً ولم يبق صاحباً غير روكامبول ، فكان
يسير في غرفته ذهاباً وإياباً سير المضطرب يتنازع فؤاده عاملان لا يعلم الى
أيها يخضع .

وكان يقف خلال مسيره فيضع يديه على جبهته ثم يعود الى السير بخطوات
غير متوازنة تدل على اضطرابه ، ثم يدنو من زجاج النافذة فيفتحه وينظر
الى ذلك الوادي السحيق الذي يشرف عليه القصر فيترجع منذراً ويعود الى
مشيه المضطرب .

فما أصاب هذا الرجل وقد أدرك أقصى أمانيه فوقع على صك الزواج وتعين
القران الديني في الليلة التالية . العله أصيب بنكبة بعد التوقيع على الصك أم
تأخر الزواج لعارض فجائي ؟

كلا ، إنه لم يصب بشيء من ذلك ولكنه كان مضطرباً لأنه كان يحاول الإقدام على أمر هائل تنازعت فيه مصلحته وعواطفه إذا صح القول بأن لهذا السفاك الجهنمي عواطف إنسان دون أن نهن تلك الكلمة .

وكان يناجيه أثناء سيره المضطرب صوتان : صوت حب الذات والأثرة الوحشية التي كمنّت في فؤاد لص قاتل يريد أن يحو جميع براهين ذنوبه السابقة ، وصوت يقرع ضميره ونفسه ويذكره واجب الشفاق والامتنان وعرفان الجميل .

غير أن لكل نزاع نهاية ، وقد انتهى تنازع نفسه بالاصغاء إلى الصوت الأول ، فرفع رأسه بعد الخفض وقال : لا بد لي من الانتهاء ، فسأغدو من عظماء الأسباب ولا يجب أن يبقى في هذه الأرض من يعرف جرائمه واسمي القديم .

وعند ذلك امتنع تردده فزرر ثوبه ولبس قبعته وفتح باب الغرفة فخرج منه يحمل مصباحاً ودخل الى غرفة أندريا فوجده في سريره ، ولكنه لم يكن قائماً فقال له : أراك مثلي أرقاً العمل الحر منعك عن النوم ؟

فأشار برأسه إشارة إيجاب ، فقال روكامبول : وأنا كذلك وقد زاد على الحر أني سأزوج غداً وكيف يستطيع المرء رقداً ليلة زفافه ؟ ثم اني أتيتك لأحدثك بمشروعاتي في المستقبل .

فابتسم اندريا ابتساماً معنوياً كأنه يريد أن يقول لتلميذه : العلك ملأت الشر بعد بلوغك منتهى ما طمعت فيه ، وأردت أن تكفر عن ذنوبك بصنع الخير ؟

فأدرك روكامبول معنى ابتسامه وقال : هو ما تظن إذ أصبحت في غنى عن ارتكاب الموبقات .

ثم أعطاه سيكارة وقال : هلم بنا نخرج الى السطح فنتحدث ملياً ونأمن شر هذا الحر .

وهب هبة شديدة فتخلص من رو كامبول وحاول الفرار غير انه لم يعلم أين يفر وهو لا يرى فأتى رو كامبول وحمله يريد القاءه الى الهوة فجري بينهما نزاع هائل أسفر عن تغلب رو كامبول عليه فالقاء الى الأرض ووضع ركبته على صدره ويده على فمه وقال له بلهجة المتهمك : لا تقنط لهذا الموت فسنلتقي في جهنم ولا نعدم وسيلة للانتقام .

ثم دفعه الى الهوة فانقلب يهوى في ذلك الوادي السحيق .
فسمع رو كامبول صوت سقوط جسمه وتحطمه على الصخور ثم انقطع الصوت وساد السكون .

وعند ذلك قصف الرعد وأبرقت السماء برقاً متصلاً أنار الأرض كما ينيرها ضوء الشمس فرأى رو كامبول على ضوء البرق المتألق جثة أستاذة أندريا ملقاة في أسفل الوادي وذكر في الحال ما قاله في حياته وهو (انا النور الذي يضيء نجم سعودك فإذا هلك انطفأ النجم) .
فجثا رو كامبول على ركبته وقد هاله ما فعل فقال : رباه ! لقد خفت . .
أنا الذي لم أعرف الخوف .

وحق لرو كامبول ان يخاف فقد أطفأ بيده تلك الشمعة الجهنمية التي كان يسترشد بها في ظلمات الآثام وأما أندريا فقد زجته ذنوبه الى الهوة الأبدية فقتل باليد التي طالما دفعها للقتل وصح فيه قولنا :

هكذا عاقبة الاثم فما لقي الانسان إلا ما صنع
بشر القاتل بالقتل فمن زرع الشر جنى بما زرع

انتهت رواية « القادة الاسبانية »

ويليها الجزء الرابع من رو كامبول « انتقام باكارا »

الجزء الرابع

انتقام با کارا

انتقام باكارا

- ١ -

بعد مضي نحو شهرين على الحوادث التي سبق ذكرها في رواية الفسادة الاسبانية كانت مركبة بوسنة قد سافرت من اورليسان في الساعة العاشرة من المساء تجري في أرض تورين نحو الساعة الخامسة من الصباح على الطريق العمومية المؤدية من تورين إلى مدينة صغيرة تدعى ج... توجد على نحو ثلاثة فراسخ منها أرض اورنجاري التي ماتت فيها منذ ١٨ عاماً المركبة دي شمري أم المرحوم هكتور دي شمري والآنسة اندري برينوت .

وكانت المركبة المذكورة تقل رجلين قد اشتهرا عند القراء وهما الفيكونت فابيان دي اشمول والمركيز فرديريك البرانوري دي شمري أي بطلنا روكامبول .

وكان روكامبول يومئذ كالحيمال الذي لا حراك له أصفر اللون حائر البصر تبدو على وجهه علائم القلق وينبئ منظره انه واقع في شرك حزن قاتل لأن رفيقه كان ينظر اليه فيراه غائصاً في لجة عميقة من الأحزان ينظر إلى جانبيه نظر رجل قد تملك الجزع نفسه وضاعت عليه الدنيا برحها .

قبض الفيكونت على يد المركيز قبضة اشفاق وقال له : ألا تدري أيها

الصديق انك تخيفني .

فتكلف روكامبول الابتسام واجاب : أنا أخيفك أيها الصديق ؟

— نعم .

— وكيف ذلك ؟

— ان رؤيتك على هذه الحالة من القلق والغم منذ شهرين لم أعلم لها سراً .

— ليس في ذلك ما يخيف ، ومعرفة هذا السر سهلة جداً .

— مهما تكن معرفة هذا السر سهلة فأنني لم أدركها بعد .

— أما تعلم انني أحب ابنة الدوق سالانديررا ؟

— وماذا يحزنك من ذلك وأنت ستزوج بها بعد ستة أسابيع .

فهرز روكامبول رأسه وقال : ان نفسي حزينة ضعيفة الأمل وكان صوته مخنقاً حتى لم يكذب فابيان يسمعه .

فقال الفيكونت . اني أشعر انك ضعيف العواطف وليس لك جلد وصبر على حلول المقادير .

— بربك لا تذكر لي هذا الكلام فإنه يزيدني حزناً .

— كنت اظنك أيها الأخ العزيز اكثر صبراً وأقوى جلدأ على تقلبات الأيام وطوارق الحداث ولا سيما ان ما تستعظمه مما ألم بك ليس في الحقيقة شيئاً عظيماً أن يحظك السعيد الذي تطلبه انما قد تأخر إلى ستة أسابيع فستقترن بعدها بابنة الدوق سالانديررا وتكون أسعد حظاً وأوفر سروراً واذا كانت المقادير السيئة قد قضت بموت أبيها في صباح اليوم الذي كان تقرر فيه قرانكما فكان من الضرورة تأخير هذا القران فما ذلك من الأسباب التي توهن عزمك وتضعف أملك لتهرع إلى هذا اليأس الذي أنت فيه وبالله كيف لا يكون من الضرورة تأخير هذا القران وقد التزمت هذه العادة الأسبانية أن تبدل حلتها البيضاء بحلة سوداء حداداً على أبيها وعلى خادمك البحرى أيضاً الذي مات ضحية العاصفة القوية في نفس الليلة التي مات فيها صاحبنا الدوق سالانديررا .

فتنه روكامبول ولم ينبث بكلمة .

فعاد فابيان إلى كلامه وقال . ان الغادة الأسبانية لم تكن تستطيع الأفتران بك في اليوم التالي لوفاة والدها وكان من الضرورة أن يتأخر زمن الزواج طبقاً للعادة المتبوعة عند الأسبانيين في الحداد ولا شك ان هذه الغادة لا تزال تحبك كالحبة السابقة بل أن محبتها تزيد مع توالي الأيام وهل مر عليك يوم واحد لم تحصل فيه على رسالة ودية منذ ضمها مع والدتها قصر سالانديررا حيث احتفل بيجنازة الدوق ؟

— كلا فهي تراسلني كل يوم .

— ومع ذلك فانت حزين قلق البال بدون انقطاع تندفع مع تيار الهواجس الكاذبة حتى كأنك في حلم عميق تصدق فيه كل ما يبدو لك ويمر ببالك ، ولقد مضى بضعة أيام وأنا واختك بلانش امرأتى في قلق وخوف من حالتك الحاضرة .
— انني اقاسي في نفسي عذاباً كعذاب الموت .

أجننت أيها الصديق أما ترى أن يوم سعدك سيحل في القريب ؟
— ومن يعلم ذلك ؟

لفظ روكامبول هذه الجملة الوجيزة والاضطراب أخذ منه أشد مأخذ ثم ما لبث أن تظاهر بالسكينة والدعة ورفع رأسه وهو يتكلف الابتسام وقال :
كأنك أنت لا تكترث للهواجس ولا تضطرب منها .
— كلا ، فلا تأثير لها علي .
— إذن فما أسعد حظك .

— كأن في نفسك شيئاً تريد قوله : وإلا ماذا تعني بهذا الكلام ؟

— أريد أن أقول انني قد طالما علقت الآمال بالسعادة ونيل المنى وما زال يبدو في خاطري انني أنخدع ببارق الآمال ولا أقصد غير السراب وقد حملت حملاً راعني جداً وما زلت موجساً خيفة من مغزاه وقد كان في الليلة التالية لموت الدوق سالانديررا وذلك البعري التيمس ولتر برت .

— وما هو هذا الحلم ؟

— هو اني بعد ان أغمرضت عيناى حملت ان رجلاً يوقظني فاستيقظت في الحلم وإذا برجل يلبس اثواباً بيضاء قد تقدم مني وجلس عند موضع قدمي من السرير ، فحدقت به فرأيتُه البحري ولتر بريت ولكني رأيتُه على غير هيأته الماضية فليس عليه شيء من علائم التوحش وليس أعمى العينين كما كان ، فمنظره جميل وعيناه صحيحتان زرقاويتان وابتسامته ابتسام رجل عظيم ، ثم انه ما لبث أن نظر إلي قائلاً : انني انتقلت إلى الحياة الثانية ، وما أتيت اليك إلا لأخبرك بالمستقبل . . . وأشار بيده إلى السماء من النافذة المفتوحة وأراني بين الغيوم المتكاثفة نجمة زاهرة فهذه النجمة كانت عندئذ سافرة زاهية ثم لم يكن أكثر من لحظة عين حق رأيتها كأنها تضطرب ثم سقطت في الفضاء واضمحلت ولم يبق لنورها أثر .

— ومن الذي لا يضحك عندما تقص عليه هذا الحلم ويعلم اضطرابك منه .

— بالحقيقة انني أعتقد أن هذه النجمة هي نجمة حياتي .

— ما هذا الجنون ؟

— ونفسي تحدثني بأنه من المستحيل أن اقترن بالغادة الأسبانية .

— لو لم تكن عاشقاً لمددتك مجنوناً ، ولكن العشاق تكثر عليهم الهواجس ولا سيما انك قد زاد ما اتفق من موت الدوق وتأخير الزواج هواجس بالك المتغلبة عليك فهرعت إلى الحزن واليأس على انك في الحقيقة ستنال عن قريب غاية مناك وانني متحقق بانك ستقترن بابنة الدوق سالانديرا وهي ستصير المريكة دي شمري قبل مضي شهرين .

فكان كلام فابيان كان يعيد إلى روكامبول بعض الآمال فانتعش قلب روكامبول وقال لفابيان وهو يبتسم عن أمل وفرح ، عسى أن يحقق الله أمني فمن اتكل عليه لا يخيب ، وأنا قد رجعت الآن إلى نفسي فظهر لي أن اليأس الذي جنحت اليه ما كان إلا من كثرة هواجسي الكاذبة وان الأولى بي أنت

أعود إلى الرجاء والاتكال على الله .
فقال فابيان : الحمد لله فان مرادك قريب المنال فـسأجتهد ان تطرد عن
خاطرِكَ كل هاجس كاذب وان تبدو دائماً مستريحاً مطمئناً البال لا يبدو عليك
أثر من علائم الحزن واليأس .
-- سأجتهد في كل ذلك ولا أكون إلا كما تقول ولكن هل نقيم مدة طويلة
في الاورنجاري ؟

- إننا ليس لنا فيها أشغال نروم قضاءها وما يجيئنا اليها إلا للتزده وترويح
النفس ، وأنت لم تذهب اليها منذ أتيت من بلاد الهند ، وأنا قد تركت أشغالي
لأجل الحضور بك اليها فلا غرو إذن إن قضينا فيها أياماً قليلة نشاهد أما كنـها
الجميلة ونشرح الصدر بطبيب هوائها .

فتنهـد روكامبول تنهـد جزع لما سمع ان مدة أيامها فيها ستكون طويلة :
تابع فابيان : لما تنهـد وتجزع فاذني قد أتبعـت نصيحة طبيبـك صاموئيل
اليوت فهو الذي أشار اليّ باطالة هذه السفرة بالاورنجاري من أجل شفاء
نفسك وزوال الهم عن قلبك .
فارتعش روكامبول من سماع هذا الكلام ولم ينطق بكلمة .

فقال فابيان : إن الطبيب الذي عرضت عليه حال صحتك مراراً كثيرة
منذ دخولنا إلى باريس قد انفرد بي منذ أيام وقال لي : إنني أصنع حسناً إذا
سافرت بك من باريس مدة أيام لأجل تغيير الهواء ، وقد أردت تلبية إشارته
وعرضت عليك السفر إلى الأورنجاري فرضيت به .

فقال روكامبول وقد تناول يد فابيان وتظاهر بالسكينة ربما كان الطبيب
مصيباً بما أشار به فإني أشعر ان ضيق الصدر عن الصبر هو الذي يسبب آلامـي
وكثرة الغم تسقمـني وتكثر هواجس نفسي ولكن يجب أن أكون اليوم أبعد
عن الهم من الأمس وأن لا أميل إلى التخيلات الكاذبة التي تشدد عليّ وتسبب
عليّ ثم قال وهو يبتسم : ويجب ان انتظر بكل سكينة أيام سعادتي الآتية .

— أتعديني بذلك ؟

— نعم أعدك به وعداً صحيحاً .

وعند ذلك أراد فابيان أن يغير هذا الحديث ليزيل عن خاطر روكامبول كل شيء يمكن أن يؤثر عليه فقال له : أين نحن الآن من أرض الأورنجازي ؟ وأطل رأسه من نافذة المركبة ليرى الناحية التي هما سائران فيها ففعل روكامبول فعله وجعل لا يرسلان بصريهما إلى جوانب تلك الأرض التي تسير المركبة عليها .

وكان ذلك اليوم من متوسط شهر ابريل والساعة تقرب من الخمسة ونصف من المساء والسماء صافية الأديم خالية الأفاق من الغيوم ، وكانت المركبة التي تقل فابيان وروكامبول تجري عندئذ بين مروج خضراء تتصل بمدينة س . . التي تسكد المركبة تصل اليها وكان ذلك اليوم يوم السبت أو بالأولى يوماً من أيام المواسم وكانت الطريق عندئذ تسكد تزدهم بالذاهبين إلى هذه المدينة من سائر القرى وهم يسرون عليها بين مشاة على الأقدام وركب على الخيول وعلى العربات وقد زادت الطريق ازدحاماً بهم ولا سيما عندما وصلوا إلى قرب المدينة فهناك ظهرت عليهم ملامح المسرعين لمشاهدة شيء عظيم وجعل يزاحم بعضهم بعضاً في دخول المدينة .

وكان يظهر من ملاحظهم وكثرة عددهم أنهم يحضرون إلى المدينة لمشاهدة مشهد عظيم وكانوا كلهم يقصدون ساحة الموسم ، أو ساحة المهرجان وقبل ان يصل راكبوا الخيول والمركبات إلى المكان المذكور كانوا يلتزمون أن ينزلوا عن خيولهم ومركباتهم ويسرون على أقدامهم كي لا تدوس خيلهم أحداً من الجموع المزدحمة في الطرق حول ساحة المهرجان ، فلم يشعر فابيان وروكامبول إلا والمركبة قد رقت ونزل خادم الفيكونت أي خادم فابيان عن كرسيه وتقدم من النافذة وقال : لا تستطيع المركبة التقدم إلى الأمام ومن المحال ان تتقدم عن هذا الحد . فدهش روكامبول وسأله عن السبب ، فأجاب : سيعمل قضاء الموت

بعد خمس دقائق في ساحة المهرجان والأسواق جميعها مزدحمة بالناس والخييل والعربات عند هذا الحد ولا يدعونها تتقدم خطوة إذ لا سبيل لها .

فما كاد روكامبول يسمع لفظ القضاء حتى أجفل واهتز من الجزع فتنهد فابيان وقال : لقد فهمت الآن لماذا يحتشد الناس ويتسابقون إلى دخول هذه المدينة ، فقد كنا ظننا ان كثرة الوفود ناتجة عن كون هذا اليوم من أيام المواسم ولكن مثل هذه الجموع الغفيرة وهذا الازدحام الشديد لا يكون لأجل ذلك .

وبينما المركز والفيكونت يسرحان أبصارهما من نافذة المركبة إذ نظرا على مسافة مئة متر منها آلة قطع الرؤوس مهيئة في ساحة يحيط بها الجنود ثم يحيط بهم من كل جانب جماهير غفيرة من الناس وهم يشخصون ابصارهم في هذه الآلة الخفيفة ويتساءلون عما جرى الأثيم المحكوم عليه بالاعدام ويكادون يرتجفون هولا من شدة العبرة التي نالتهم من رؤية الآلة الهائلة ومنظر هذا المشهد الخيف .

أما فابيان فإنه أمر بأن تساق المركبة راجعة من حيث وصلت فقال له السائق . لا تستطيع العودة الآن ، لأن ورائنا جماهير يتوافدون وهم مزدحمون اردحاصاً بحيث يجب ان ننتظر حلول القضاء الهائل حتى يرجع الناس الذين وراءنا فنكون نحن بعدهم أول الراجعين من الذين امامنا .

فتنهد الفيكونت وقال : بالله ما هذا المشهد الفظيع الذي ستبصره الآن عيوننا بالرغم عن إرادتنا .

أما روكامبول فحين سرح بصره في آلة الاعدام استولى الرعب على قلبه وحول وجهه عن النافذة كي لا يراها فكأنه لم يهرق في عمره دمماً ولم يشهد مشهداً مؤثراً من مشاهد القتل والخنق التي كانت يده آلة في زمـانه السابق وكأن هواجسه الشديدة قد مثلت له ان هذه الآلة إن لم تكن مهيئة له في نفس ذلك الوقت ، فهي ستهيء له قريباً وتهرق دمه بمشهد أشد تأثيراً على الناس من المشهد الذي كان يراه ، وبينما هو وفابيان صامتان متأثران إذ سمعا امرأة بالقرب من المركبة تقول لرفيقتها : الويل لهذا الجاني التعس فان ساعته

قد دنت وسيعدم في الساعة السادسة .
 وكان بالقرب من المرأتين رجل لا يزال راكباً على حماره يدير أذنيه إلى كل
 متكلم ليعرف حقيقة الجريمة التي جناها ذلك الشقي المزعم إعدامه فلما سمع
 كلام المرأة سأها قائلاً : وماذا صنع هذا التمس فاستحق هذا الجزاء الشنيع ؟
 - قتل امرأة تمسة كانت قد ربته كولد لها .

- وكيف قتلها ؟
 - خنقها بيده الفاسية ولم يشفق عليها وهي عجوز لم يبق لها في الحياة غير
 أيام قليلة فقطع حبال أيامها ظمأ غير مكثرت بمعاقة فظاعته .
 فلما سمع روكامبول كلام هذه المرأة اقشعر بدنه وارتجفت أعضاؤه من
 شدة الخوف واصفر لون وجهه حتى كاد يموت خوفاً وجزعاً .
 ثم سأل الرجل المرأة . ولم يبلغ من العمر هذا الشقي المحكوم عليه ؟
 - عمره ثمانية وعشرون عاماً .

فزاد روكامبول ارتعاداً وبأساً وهو مصنع إلى تمة الكلام .
 ولم تكذب المرأة تنتهي من كلامها حق جعل القوم من كل جهة يلفظون
 قائلين : ها هو قد ظهر ، يعنون المحكوم عليه ، ولم يلبثوا ان سادت بينهم
 السكينة وشملهم الهدوء ولم يعد لهم غوغاء تسمع كأنه لم يكن في ذلك المكان
 جموع تضج وتلفظ .

وفي الوقت نفسه بينما كان فابيان منحني الرأس متخشعاً يصلي الى الله عن
 هذا التمس المزعم إعدامه أخذ روكامبول يتكلف هيئة فابيان وعمله فمخائنته
 الحال وشعر في نفسه بقوة غالبية رفعت ابصاره رغماً عن إرادته إلى آلة الاعدام
 وجعل يزداد ارتجافاً من شدة الخوف والعرق البارد يتصبب من جبهته ولكن
 فابيان كان منشغلاً عنه بصلواته فلم يرد .

فأول ما وقع عليه نظر روكامبول سطح آلة الاعدام يقف عليها رجلان
 ما هما غير مساعدين للجلاد بقبض الأرواح ثم لم يلبث أن رأى رجلاً يصعد على

سلم الآلة وهو اصفر الوجه من الخوف يدل منظره انه لا يزال في ريمان العمر وهو حليق شعر الرأس مكشوف العنق لأنه غرض الآلة القاطعة .

وكان الرجل المحكوم عليه بالاعدام يصعد على سلم الموت وهو مرتجف الاقدام واهن القوى من الرعب يعينه على الصعود اثنان من ررائه هما الجلاد والكاهن .

ولم يمض بضع ثوان حتى رأى روكامبول هذا الجاني التمس الذي لا يزال في ريمان الشباب قد ذبلت نضارة وجهه وبان كأنه شمع قد أخذت السنوات من جماله ورونقه كما أخذت من قوته وهو بين الكاهن الذي يدينه الصليب من فمه ويطلب له المغفرة من السماء وبين الجلاد الذي يقف كأنه فارغ الصبر ينتظر الأمر باعدامه .

وما كادت تتوالى بضع ثوان حتى رأى روكامبول ان هذا التمس قد استلمه الجلاد من يد الكاهن وقدمه الى الأمام حيث وضع عنقه تحت شفار الآلة .

فزاد ارتعاد روكامبول واضطرب بصره فجعل يدير في تلك الآلة بصره أقلقاً وفؤاده يخفق خفوقاً قوياً كأنه نفس المقدم للاعدام وعندئذ ضج القوم ضجيجاً مؤلماً من فظاعة المشهد ، وسقط رأس المحرم وروكامبول يهتز من الاضطراب ويكاد يموت من شدة رعبه فأغمي عليه وسقط قرب صهره لا يعي .

- ٢ -

لنترك الان روكامبول وفابيان في هذه السفرة ولنعد الى باريس لنرى ما كان بعد سفر روكامبول عنها ففي ذات ليلة نحو الساعة التاسعة من المساء كانت الكونتس أرتوف جالسة قرب المستوقد بمنزها الكائن في شارع بانينار وكان عندها الدكتور صموئيل اليوت وهو جالس لا يحول معها في الاحاديث ولا يكلمها في شيء ، فنظرت اليه وقالت له بعد ان كانت ساكنة منذ ربع ساعة : أقطم

أيها الدكتور انه الآن قد مضى شهران كاملان على سفري الى فرنش كونتي مع رولاند دي كايلت ؟

— نعم أعرف ذلك .

— ويظهر أنك منذ ذلك الوقت لا تريد ان تسألني عن أمر من الأمور كما كنت أوصيتك

— نعم فقد تبعته إرادتك وما عدت أسألك عن شيء بعدما عرفت أنك لا تريد ذلك .

فتنهدت الكونتس أرثوف وقالت : بالحقيقة إنني لم أطلب اليك ان تعدل عن سؤالي عن كل شيء ، إلا لأنني أرى نفسي امرأة قد قضت أيامها بين الشرور والأعمال الفظيعة ، فهي ترى انه أولى بها ان لا تحدث أحداً بأمر من أمورها ، وان تخفي جميع أسرارها في زوايا صدرها ، وتتوب عن سلوكها الماضي توبة كاملة . ولكنني اليوم أرى انني يحسب بي أن أخفي عنك كل شيء من أماري إلا الأمر المهم الذي لا بد لي من إظهاره لك إذ ذلك أولى بي من إخفائه .

فأخى الدكتور رأسه ولم يجب بشيء .

فأتمت الكونتس كلامها وقالت : أظن ان الساعة قد اتت الآن لأظهر لك فيها هذا السر المهم وأطلعك على ما صنعت وعلى ما أريد ان أصنع لنصل إلى الغاية التي نسعى إليها .

— إنني مصغ اليك فتكلمي .

— أريد ان أخبرك بالتفصيل عن سفرنا الى فرانش كونتي وما كان لنا من الحوادث في هذا السفر حيث تركنا رفيقنا رولاند .

ثم جلست الكونتس جلوساً حسناً شأن من يريد ان يحدث حديثاً طويلاً وأتمت كلامها فنالت : إنك لا تجهل انني سافرت من باريس على مركبة بوسنة مع المسيو دي كايلت ، ولا بد أنك تتذكر انني غيرت زي النساء ، وتزييت

بزري الرجال ، وكان يخالي من ينظر إلي في هذا الزي المستعار شاباً في مقتبل العمر لا يزيد سنو عمره عن الثانية عشرة ، وقد قطعت كل الطريق وأنا أظهار بانني وكيل رولاند

أما القصر الذي مات فيه دي كايلى وأقام ابن أخيه قيمياً عليه فقد كان يبعد منا ثلاثة فراسخ بالطريق العمومية ولا يبعد غير فرسخ ونصف فقط إذا سلكت اليه بطريق مختصرة تمتد بين الغابات المتصلة بقصر هوبا فوصلنا الى كليت بعد ثمانى وأربعين ساعة مضت على خروجنا من باريس .

وقد قضت التقادير أن يذهب الى قصر هوبا المركيز دي شمري والفيكونت والفيكونتس دي اسمول والدوق الأسباني وامراته وابنته ، وقد كنت أظن ويجول في خاطري أن المركيز دي شمري مـا هو إلا روكامبول نفسه ، ولكفى كنت من ذلك بين الشك واليقين . فرأيت من الضرورة أن أتحقق من ذلك ، ففي أول ليلة لوصولنا قلت لـرولاند : يجب أن تذهب الى الفيكونت دي اسمول

فأجابني متعجباً : وماذا تريد بذلك وقد تراخت بيننا العلائق الودية منذ مثلت ذلك الدور الكبير .

– إنك تحتج في زيارتك له بانك إنما أتيت اليه لأمر ذي أهمية يختص بأشغال ناجحة تتعلق به وبك .

– نعم الرأي الذي ارتأيت به فهو موافق غاية الموافقة لأن عمي في السنة الماضية قد اشترى له طاحونة لم يدفع ثمنها تماماً حتى اليوم .

إذن فاذهب اليه بهذه الحجة .

– ولأي غرض ؟

– لكي تأتي به الى هنا مع المركيز فإنه يجب ان أرى هذا الرجل .

.. ولكنه يعرفك .

– كلا فهو لا ينظرني لأنني أختبئ ، فأراه دون ان يراني

أما رولاند فهو منذ عرف حقيقة خطئه إلى صار يطيعني طاعة عمياء وهذا الشاب المعروف بالطيش إلى هذا الحد صار في مدة أيام قليلة تبدو عليه ملامح الكبر كأن هذه البضعة أيام كانت كعشر سنوات مضت من عمره .

فقال لي : إنني مطيع ، فمق تريد أن أذهب ؟
- غداً صباحاً .

ففي اليوم التالي هب باكراً وسار على الطريق ماشياً يحمل على كتفه بندقية فجعل يحوب أرضاً مرملة واقعة بين كليتين وهو با كما يتوغل فيها حتى التقى برجل صياد كان قد رافقه إلى الصيد مراراً كثيرة .

فحين قابل هذا الرجل رولاند تنهد وقال له : لقد فاتك صيد ناجح .

- متى ؟

- قبل أمس أي يوم السبت .

- وأين فاتني ذلك ؟

- في الغابة السوداء حيث كان الفيكونت دي اسمول وصهره الماركيز دي شمري مع رجل اسباني ودوق وهم قد صادوا دباً
- ومن هو هذا الذي صاده منهم ؟

- هو الماركيز وهنا أخبر رولاند كيف تمكن روكامبول من قتل هذا الدب ثم أضاف إلى كلامه ان الزواج قد تقرر .

- وأي زواج تعني ؟

- زواج الماركيز بابنة الرجل الاسباني .

فقال رولاند وقد أخفى الدهشة التي تولته ومتى يكون هذا الزواج ؟
- قرئت أمس ورقة الزواج في الكنيسة بعد الذبيحة التي تقام الساعة الحادية عشرة من الصباح وأظن أن القران سيتم هذا اليوم .

أما رولاند فقد قال لي انه عندما سمع من الرجل هذا الكلام أخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً حتى جعل يرتجف من شدة غيظه ، ولو لم يتمسك بجبل الجلد والصبر

لأسقطت البندقية من بين يديه لشدة ارتجافه ولكن هذا الحبر الذي علمه قد فقه أفكاره وجعله يتبصر فيما أرسلته لقضائه .

ثم ترك الرجل وجعل يواصل سيره وهو يقول في نفسه : إن شقياً نظير المركز دي شمري لا يقدر أن يتزوج ابنة الدوق سالانديرا ولا يمكنني الوقت من الرجوع على الأقدام إلى الكونتس أرتوف لأطلعها على ذلك فأنا أواصل السير لأرى وحدي في هذا الأمر .

وكان يسير سيراً سريعا وهو لا يدري ماذا يصنع ليمنع هذا الزواج أو بالأقل ليؤخره عن ميعاده ولما كاد يصل الى حيث يذهب كان الوقت نحو الساعة الثامنة من الصباح .

وكانت الثلوج قد كست تلك الطرق حلة بيضاء أثناء الظلام ، فلما اقترب رولاند من المكان الذي يقصده ، رأى على الطريق آثار الأقدام باقية على الثلوج ، ورأى أثر أقدام حصان تظهر له على طريق مختصرة تؤدي إلى قصر هوبا .

فخالج فكر رولاند أن آثار هذه الأقدام ما هي إلا من أهل ذلك القصر ، وانهم خرجوا منه باكراً كي يقضوا جميع الأمور اللازمة التي لا بد منها في وقت القران ولكنه لم يكذب يصعد على الأكمة التي يوجد عليها القصر المذكور حتى بدا له راكب عجوز يسير نحوه فتأمل رولاند فإذا به طبيب كبير السن يقيم في بلدة قريبة تدعى أولناي كان يعرفه منذ صغره .

فتقدم حتى دنا منه وحياه وبعد ان تبادلوا التحية سأله رولاند :

— من أين تأتي في هذا الصباح ؟

— من هوبا .

— أشرت فيه مريضاً ؟

فأخى رأسه دلالة على ذلك ثم قال نعم إنني قد زرت مريضاً ولكنني أتيت اليه متأخراً

- وكيف ذلك ؟
- إن الدوق قد مات .
- أمات الدوق ؟
- نعم .
- الدوق دي سالانديررا ؟
- نعم هو .
- وكيف مات ؟
- مات بعملة فجائية شديدة وحين وصلت اليه رأيته يتردد الأنفاس الأخيرة فلم يعد لي حيلة وقد مات على أثر وصولي .
- وأخبر هذا الطبيب رولاند بسبب موت الدوق فقال : أنه قبل أمس قد ذهب للصيد مع آخرين فاعترضهم دب هائل فاستولت رجفة شديدة على الدوق من كثرة خوفه وقد أدت إلى موته .
- نعم وقد التقيت في طريقي بصياد فأخبرني هذا الخبر ولكن كيف أدى ذلك إلى موته ؟
- حين اشتد عليه الخوف وتمكنت منه هذه الرجفة الشديدة أثر ذلك على دمه تأثيراً عظيماً ففسدت دماءه وفاجأه داء السكتة فمات .
- ومتى كان ذلك ؟
- في هذه الليلة نحو الساعة الحادية عشرة من المساء .
- وهل عرفوا به حال وقوع هذا الداء عليه ؟
- لم يعرفوا به حتى الصباح لأنه لم يستطع نداء أحد وحين دخلوا اليه في هذا الصباح وجدوه في حالة خطيرة .
- اليس خادمه الذي دخل اليه أولاً ؟
- كلا فهو المركيز .
- وأي مركيز ؟

— المركيز دى شمري صهر الفيكونت دى اسمول والذي سينزوج ابنة الدوق دى سالانديريرا .

— لقد ذكرت هذا المركيز فلاني أعرفه .

فعاد الطبيب الى حديثه وقال : يظهر ان هذا المركيز ايضاً قد بات بليمة المسوع وحق له أن يارق فانه يحب تلك الغادة الأسبانية وكان يرجو ان يتزوجها في اليوم التالي ، وإذ لا يحق له ان يدخل الى غرفة خطيبته دخل الى غرفة عمه ولكنه ما لبث ان دخل اليها حتى جعل يستغيث وينادي الخدم وسكان القصر فأسرعوا اليه فوجدوا الدوق سالانديريرا قد سقط من سريره إلى الأرض وليس فيه ما يدل على الحياة .

وكان المركيز دى شمري قد خدم في البحرية وهو يعرف شيئاً من فن الجراحة فأسرع الى فصد عمه بساعده وأرسلوا أحد خدام القصر على جواد إلى يدعوني فوصلت ولكن بعد فوات الأوان لأن للفصادة قد تأخر وقتها ولم تفد هذا المريض إلا أنها أخرت موته ساعتين فمات بين يدي .

— ما هذه المصيبة الفادحة .

— لا أنكر أن الخطب عظيم غير انك لم تعلم غير نصف الحادثة .

— لا أفهم ما تقول .

— أريد أن هذا القصر لم يميت فيه واحد بل اثنتان أحدهما الدوق

— والآخر ؟

— الانكليزي النوتي الأعمى الذي أحضره معه المركيز .

فعلم رولاند انه أندريا وقال له : كيف مات هذا النوتي ؟

— يظهر انه سقط عن السطح الى الوادي فان غرفته تشرف على السطح وقد خرج يستنشق الهواء فزلت قدمه وهوى الى ذلك الوادي السحيق فرأى الملاحون جثته مهشمة على الصخور فأخذوه وحملوه الى القصر فماتوا تأثير شديد حتى ان المركيز دى شمري أغمى عليه حين رآه قتيلاً .

فأظهر رولاند اندهاشه لهذه الحادثة وحادث الطبيب هنيهة ثم افترقا فذهب الطبيب بشأنه وبقي رولاند وحده وهو حائر فيما يعمل فانه لم يجد الفرصة مناسبة للذهاب الى قصر الدوق ولكنه وثق من أن موت الدوق سيؤخر زواج الماركيز دي شمري فقال في نفسه : إن الوقت فسيح لدينا . ثم وضع بندقيته على كتفه وعاد الى قصر عمه .

أما أنا فقد انذهمت انذهالاً عظيماً حين رأيته أسرع في عودته وزاد في دهشتي ما أخبرني به من تلك الأحاديث فان حديث رولاند دعاني إلى الامعان فقلت في نفسي بعد هذا التفكير : إنه لا بد لموت الدوق أن يؤخر هذا الزواج ومهما يكن من حب الغادة الاسبانية للماركيز فانها لا تستطيع أن تزف اليه قبل الثلاثة أشهر حسب الاصطلاحات الموضوعية ولا سيما لدى الأسبان فانهم شديداً المحرص على عاداتهم .

فلما رأي رولاند أفكر سألني : على ماذا عولت ؟

— عزمت أيها الصديق على أن نعود إلى باريس .

— ألا تريد أن تنظري الماركيز ؟

. ذلك لا بد منه لاني لا أزال مشككة بأمره وأحسب انه روكامبول ، فاذا صحت ظنوني وكان هذا اللص متقمصاً بالماركيز دي شمري فلا بد أن يكون الماركيز الحقيقي موجوداً ، وبالتالي فلا بد من إيجاد لإظهار حقيقة روكامبول .

— هذا لا ريب فيه . غير اننا نحتاج إلى وقت طويل لإيجاد هذا الماركيز .

— ما دام الزواج قد تأخر ثلاثة أشهر على الأقل بسبب وفاة الدوق فان الوقت فسيح لدينا .

— إذن فكيف عزمت على ان تنظري الماركيز ؟

إني سأتنكر بزي الخدم وسيدفنون الدوق والانكليزي فأرى الرجل دون
أن يراني إذ لا بد له من حضور الجنازة .

٣

قالت باكارا . وفي اليوم التالي غيرت ملابسها بملابس أحد خدام رولاند
وذهبت مع خادم كان رولاند يأمنه وله صحبة مع خدم قصر الفيكونت فابيان
دى اسمول صهر ذلك المركيز الكاذب فاختلطنا مع خدم القصر ونظرت جثة
ذلك الاعمى ثم نظرت المركيز كما أشاء وعدت الى رولاند .

فأسرع الى استقبالي وقال . ما رأيت ؟

- رأيت ذلك الاعمى وهو أندريا ، ورأيت ذلك المركيز وهو روكامبول .

- أأنت واثقة مما تقولين ؟

- كل الثقة لان هيئة هذين الرجلين لا تخفى علي مهما تشوه أندريا وتنكر

روكامبول .

- وماذا يجب ان نعمل الآن ؟

- أما أنت فلا يجب أن تعمل شيئاً بل يجب أن تقسم لي بشرفك على أن

تبقى في القرية ولا تعود الى باريس إلا حينما أذن لك بالرجوع .

- وأنت ؟

- أما أنا فاني سأسافر في المساء إذ يجب ان أعلم ما حدث للمركيز دى

شمري الحقيقي .

وفي اليوم نفسه غادرت رولاند في القرية لا يعلم ماذا يعمل ، ورجعت

الى باريس .

فلما سمع الطبيب صموئيل جميع ما قالته باكارا ، وكان مصغياً اليها أتم

الإصغاء ودهش دمهشاً عظيماً من جرأة روكامبول وقال : إن ما أقدم عليه هذا اللص لا يقدم عليه أحداً ويجب أن نضربه الضربة القاضية ونريح الأرض من شروره .

فقلت باكراً : صبراً أيها الصديق واسمع تنمة حكايتي فاني لم أفرغ بعد واعلم بأنه لا يكفي ان أعلم بأن المركيز دى شمري هو روكامبول ، لان مثل هذا اللص الحاذق لا يتنكر باسم سواه ولا يدخل في عائلة شريفة ولا يختلط بالشعب الباريسي دون ان يكون قد اتخذ الاحتياطات الشديدة وبالم في إخفاء آثاره السابقة التي تظهر اسمه الحقيقي .

ثم انه لا بد ان يكون لديه اوراق وأدلة وشهادات جمة تثبت أنه ذلك المركيز ، الذي إما أن يكون قتله وتنكر باسمه أو انه سرق أوراقه واستخدمها لأغراضه ، فاسمع ماذا صنعت

إني عند وصولي الى باريس أسرع الى الكونت ارمان دى كركاز فرويت له جميع ما سمعت ورأيت .

وكان ذاك الكونت يعتقد ان أخاه السير فيليام قد هلك بين القبائل المتوحشة ، فبعد رعباً عندما علم بشروره الاخيرة وانه مات قتيلاً في واد بضواحي باريس .

ثم سألت الكونت رأيه فقال لي : إن يد الله ورائنا فان موت الدوق سالانديررا في اليوم الذي كانت ستزف فيه ابنته الى ذاك اللص السفاك دليل على ان الله أراد تأخير الزواج كي نتمكن من غل يد ذاك اللص وانه لم يأذن بموت الدوق إلا اجتئنا لمصيبة أعظم ، وهي وقوع الفتاة الطاهرة بين مخالب الوحش الضاري .

— إني من رأيك يا سيدي الكونت ولكني لا أعلم كيف نفل يد ذاك اللص.

فقال الكونت دي كركاز : يجب أن لا نغفل عن أمر خطير وهو أننا إذا فضحنا روكامبول وأظهرنا اسمه الحقيقي فاننا نفضح عائلة شريفة تتناولها أقلام

الجرائد فيظهر للناس قاطبة كيف ان هذه المرأة الطاهرة أحببت لصاً سفاكاً وهي تعتقد انه أخوها ، بل اننا نهين كثيراً من العائلات التي فتحت أبوابها لاستقبال هذا الرجل الذي لا ينبغي أن يكون مقره إلا في أعماق السجون .

— ولكننا لا نستطيع أن ندع هذا اللص يلقب نفسه بالمركيز دي شمري .
— لا ريب في ذلك ، غير أننا قبل أن نبدأ في نزع اللقب منه يجب أن نعلم ما حدث لذلك المركيز الحقيقي الذي اختلس منه روكامبول هذا الاسم .
وكان الكونت دي كركاز مصيباً فيما قال فعزمنا في الحال على السعي في كشف الحجاب عن غوامض هذه الأسرار .

وأول ما خطر لينا هو أن نعلم كيف كانت عودة روكامبول إلى باريس فجعلنا نبحث حتى علمنا بعد يومين إن الذي يدعي أنه المركيز دي شمري وصل إلى باريس يوم وفاة أمه فيها وأنه كان الرجل الوحيد الذي سلم من الفرق لأن الباخرة التي قدم عليها غرقت وذلك منذ ثمانية عشر شهراً .

فلما وقفنا على هذه التفاصيل قال لي الكونت دي كركاز : أنه يرجح أن المركيز دي شمري الحقيقي وروكامبول اتفق وجودهما سوية في تلك الباخرة التي غرقت ، فإذا صح ظني فإنه يسهل علينا أن نعلم الحقيقة وذلك لأن المركيز دي شمري كان عائداً من الهند فلا بد له من المرور بلندرا ولا بد للاوراق الموجودة مع روكامبول أن يكون عليها كتابة من الأميرالية البحرية وبالتالي فلا بد أن نجد في لنندرا ضباطاً يعرفون المركيز من الذين خدموا في الهند سواء كلكيتا أو في بمباي .

— إن ذلك ممكن لاسيما وأنه يرد في كل يوم إلى لنندرا سفن من شركة الهند .
— إن المركيز الحقيقي إذا كانوا رأوه في لنندرا فهو إما انه كان من جملة ركاب الباخرة التي غرقت ، وإما أن يكون قتل قبل سفرها ، فإذا كان الأول يكون قد فقد واستولى روكامبول على أوراقه ، وإذا كان الثاني فإننا نستطيع الوقوف على آثاره في لنندرا .

— لقد فهمت ما تقول وسأسافر إلى لندرا غداً

— وأنا أسافر معك أيضاً فإن رأيين أحسن من واحد .

وفي اليوم التالي سافرت مع الكونت دي كركاز وبعد اثني عشر ساعة وصلنا إلى لندرا فكان أول ما شرعنا به اننا ذهبنا إلى الأميرالية البحرية وسألنا عن المركيز دي شمري فاخبرنا أحد الموظفين انه يذكر بأنه كتب الكتابات المألوفة على جواز المركيز دي شمري منذ ثمانية عشر شهراً وقال لنا انه يذكر أيضاً بأن هذا المركيز ضابط بحري في الهند الانكليزية وهو مستقيل .

واخبرنا ضابط في الأميرالية انه يعرف المركيز وانه خدم وأياه في سفينة واحدة ، فقلنا له أوافق أنت من أن الذي قدم جوازه إلى الأميرالية هو نفس المركيز دي شمري ؟

— كل الثقة وأذكر أيضاً اني سلمت عليه وباحثته في أمور كثيرة ثم أخذ دفترأ ضخماً فقلب صفحاته ونظر فيها وقال : كان يصحبه حين حضوره القائد جو كسن وهو من اصحابه الأخصاء أما هذا القائد فلا بد أن يكون الآن في لندرا لأنه قدم اليها عائداً من افريقيا منذ عشرة أيام فاذا أحببت أن تروه فانكم تجدونه دون شك في فندق جنوا في شارع بلغراف .

فشكرنا هذا الضابط ثم غادرناه وانطلقنا مسرعين إلى هذا الفندق وكان القائد جو كسن موجوداً فيه .

فذهل هذا القائد في البدء لأسئلتنا الكثيرة إلى أن اخبره الكونت كركاز باسمه وانه لا يسأله عن المركيز إلا لأمر عائلي ، فقال عند ذلك ما يأتي :

أن المركيز شمري كان من أخلص اصدقائي وقد سافر منذ ثمانية عشر شهراً من لندرا إلى فرنسا على سفينة شراعية وكنت من الذين ودعوه .

— أتعرف هذه السفينة ؟

— نعم ، اسمها مويات

— أرايته صعد اليها ؟

— بل رأيتها سافرت به وبقيت واقفاً على الرصيف أودعه بالإشارات إلى أن توارت السفينة عن الأنظار .
وكان هذا جميع الذي نريد أن نعرفه إذ ثبت لنا ان المركيز دي شمري الحقيقي سافر دون شك في السفينة التي غرقت .

فلما غادرنا القائد جوكسن وخلوت بالكونت قال لي : لم يعد لدينا شك الآن أن أوراق المركيز قد سرقت سواء كانت السرقة في السفينة أو بعد غرقها فإذا كانت سرقت في السفينة فلا بد أن روكامبول كان موجوداً فيها وإذا كانت بعد غرقها فقد يكون حدث اتفاقاً أن روكامبول كان على الشاطئ متى غرقت فيه السفينة وانه عثر يichte المركيز فسرقت الأوراق .
— هذا لا يمكن احتماله .

— لماذا ؟

— لأن روكامبول لا يعود إلى فرنسا إلا إذا دفعه أمر خطير إلى العودة اليها ، فاستصوب الكونت كلامي

ولم يبق علينا بعد ذلك إلا أن نستطلع بعض الأمور من البوليس فذهبنا إلى إدارة قلم الجوازات وعلمنا منها انه يوم سفر السفينة مويات أخذ منها رجل جوازاً باسم السير ارثير ثم وصف لنا أوصاف هذا الرجل كما هو مبين عنده في الكتاب فوجدنا انها تنطبق أشد الانطباق على أوصاف روكامبول .

وبعد ذلك عدنا إلى الهافر فدقق الكونت كركاز بالاستعلام عن غرق تلك السفينة فعلم انه لم يسلم أحد من ركابها غير انه كانوا يشيرون أن أحد اصحاب قوارب الصيد في ايترات كان يقول ان رجلاً عليه ملامح رجال البحرية قد بلغ سباحة إلى الشاطئ .

فذهبنا من الهافر إلى ايترات ولم تكن حادثة غرق السفينة قد تنوسيت بعد فاخبرنا الصيادون الذين كنا نسألهم أنهم جميعهم يذكرون الحادثة وأن

معظم الغرقى قذفت الأمواج جثثهم إلى الشاطئ .
ولما اوشكننا أن نقنط من معرفة الحقيقة قال لنا أحد الصيادين ، إذا شئتم
أن تعرفوا الحقيقة بتفاصيلها فاسألوا الصياد فانتقال إنه يعلم جميع التفاصيل .
فدعونا هذا الصياد وسألناه عما يعلمه فأخبرنا أنه لم يسلم من ركاب السفينة
غير رجل واحد ولكننا لم نعرف اسمه فانه لم يحدثنا بكلمة بل اكتفى أنه
اشترى منارداً ولباساً .
- وأين ذهب ؟

- ركب مركبة وسار بها إلى الهافر ويظهر انه قضى ليلة قبل وصوله في
جزيرة صغيرة قريبة من الشاطئ ثم انه يوجد شاب آخر قد نجح من ركاب
السفينة ولكن هذا الرجل لم تطلأ أقدامه الأرض

فتعجبنا من البيان وقلنا : ماذا تريد بذلك ؟

- أن لذلك حكاية غريبة وهي انه بعد غرق السفينة بثلاثة أيام كنت
عائداً مع ابني في قارب إلى الهافر فرأينا سفينة كبيرة ذات ثلاثة صواري
عليها علم نرويجي وهي ساحنة خشباً من الشمال ، وكنا قد اصطدنا صيداً
كبيراً وكان البحر هادئاً فاقتربنا من السفينة قصد أن نبيعها سمكاً من صيدنا
فصعد ابني إليها فعرض سمكه على الربان فاشترى منه وقال له أغرق سفينة
حديثاً عند تلك الشواطئ ؟ فقال ابني نعم ، وحكى له عن غرق موبات ،
فسأله الربان ، إذا كان نجح أحد من ركاها ، فقال له : لم يسلم غير واحد ،
فانه نجح سباحة حتى بلغ الشاطئ . فقال الربان ، إذن فان الذين نجحوا اثنان .

ثم أخذ ولدي بيده وذهب به إلى غرفة فرأى فيها سريراً ممدوداً عليه
شاب يناهز الثامنة والعشرين من عمره وهو منطبق العينين كأنه نائم وأمامه
طبيب السفينة .

فسأل الربان الطبيب كيف حاله قال : أرجو أن أشفيه ، ولكن شفاه
يطول وأخشى مقى شفي جسمه يذهب عقله .

وعند ذلك أخبره الربان أن الشاب المنطرح على السرير ضائع الرشد وليس عليه من الملابس غير بنطلون وقميص وجده بحارة السفينة منذ ساعتين مغمياً عليه في حفرة كائنة في جزيرة صغيرة ، وقد كان البحارة نزلوا إليها لجمع الأصداف فعثروا به

ثم أخبره الربان أنهم يرجعون بأنه سقط في الحفرة بالليل وأنهم عندهم ما وجدوه كان في وشك الموت .

فقال الكونت : وأوصلت السفينة النروجية سيرها ؟

- نعم وأصطحبت معها الشاب .

-- أعرفت إسم تلك السفينة ؟

- نعم فإنها تدعى انفسيل ، وكانت رافعة راية نروجية .

فوضع الكونت يده على جبينه كمن يتذكر أمراً ثم قال : لقد ذكرت الآن فلقد قرأت منذ ستة أشهر في جريدة اسبانية أن إحدى البوارج الاسبانية أسرت سفينة نروجية ذات ثلاث صواري وقبضت على بحارتها وهم اثنا عشر رجلاً فحكمت عليهم بالليان .

قالت باكارا : ولما قال الكونت هذا اللقول أعطى الصياد دينارين مكافأة له عن تعليماته ثم قال لي : أظن أننا قد أصبحنا عارفين مقر المركزين دي شمري الحقيقي .

هذه هي الحكاية التي قصتها باكارا على الطبيب صموئيل ، فلم نجد بداً من من ذكر بعضها مما لا غنى عن إيضاحه في سياق هذه الرواية فنقف من حديثها معه عند هذا الحد ونقول انها في اليوم التالي برحت باريس مع الطبيب في رحلة سرية سيعلم القراء تفاصيلها والفرص منها .

ثم نذهب بالقارىء إلى البلاد الاسبانية حيث نجد فيها كثيرين من أبطال هذه الرواية العجيبة .

- ٤ -

هوذا الفجر قد انبثق وتفجرت أشعته اللامعة على قسم الجبال وسكنت مياه البحر ، فكانت نسجات الصباح تنقش على صفحاته زرداً وكانت مياهه لا تزال زرقاء تشبه زرقة السماء التي كسف الفجر أنوار نجومها .

وكانت الجبال الشاخنة تشرف على ذلك البحر الذي كانت فيه السفن الشراعية كالهمائم عائدة بالصيادين مشحونة بالأسماء وبينها مدينة بيضاء القصور بنيت منازلها على الطريقة المغربية وكان أهلها لا يزالون نياماً في ذلك الصباح . أما هذه المدينة فهي كاديس ميناء الأندلس وهي لا تزال حافظة أثر سلطانها المغربي الذي فارقها والدمع ملء عينيه وهو يعلم انه فارق الأقطار الاسبانية فراق الأبدي .

وكان المار في شوارع تلك المدينة الضيقة عند تبلج الفجر يجدها خالية قفراء لأن سكانها كانوا لا يزالون نياماً غير ان باب فندق الأندلس فيها فتح وخرج منه شاب جميل مرتد بلباس يظهر من حسن هندامها على بساطتها انها باريسية وكان يصحب هذا الشاب امرأة حسناء على كتفها شال من الكشمير الثمين وقد تأبطت ذراعه وسار الاثنان إلى جهة البحر فكان الشاب يقول لها :

— ستين يا حبيبتي هرمين أجمل منظر تبتهج له النفوس وهو شروق الشمس وأنت في البحر .

— لقد رأيت هذا المنظر في العام الماضي حين كنا مسافرين من الهافر إلى بليموث .

وكان هذا الشاب فرناند روشي وامراته هرمين اللذين عرفهما القراء فيما تقدم من فصول الرواية .

فابتسم فرناند لزوجته وقال لها : إن الأوقيانوس المحيط يشبه البحر المتوسط كما يشبه الزجاج البراق الألماس ، وإن سماء أوروبا تشبه سماء الأندلس كما تشبه الأشعة المنعكسة نور الشمس .

ثم ذهب الاثنان إلى الميناء وهما يتحادثان .
 وكان فرناند قد رجع إلى زوجته بعد ذلك الهجران القديم الذي دعاه اليه
 شغفه بتلك الفتاة التي كانت تلقب بالفيروزة وكان يسافر في ذلك العهد مع
 امرأته سائحا في اسبانيا ، فبعد أن ذهب إلى غرناطة برحها قادما إلى قاديس .
 وكان يقول لها وهما سائران إلى الميناء : أتعلمين أيتها الحبيبة أن قومندان
 الميناء ، القائد بيدرو هو ابن عم الجنرال الاسباني صديقنا الذي يقدم في كل
 شتاء لباريس .

— كلاً لم أعرف ذلك من قبل .

— إذن فاعلمي إنه عندما كنت منهمكة في ترتيب ملابسك أمس اغتنمت
 فرصة انشغالك وأرسلت اليه كتاب التوصية الذي أعطاني إياه ابن عم الجنرال
 ليلة سفرنا . .

— وهل أجابك على ذلك الكتاب ؟

— نعم ولذا فقد بادرت إلى إيقاظك قبل الفجر كي لا تفوتنا نزهة البحر
 شروق الشمس ، ولكن أتعلمين كيف نتنزه في هذا البحر الهادئ ؟

— في إحدى سفن الصيد دون شك .

— كلاً أيتها الحبيبة في سفينة القومندان نفسه وهو الذي سيصحبنا في هذه
 الرحلة الفجرية .

— يظهر ان هذا الرجل رقيق الحاشية وأنه يبالغ في إكرامنا .

— وستكون بحارة السفينة من الأشقياء المحكوم عليهم بالليمان لاستفحال
 شرورهم .

ورأى فرناند أنها أجفلت وخافت من أولئك الأشقياء فقال لها : اطمئني
 فإنهم سيكونون أشد وداعة من الحمام بمحضرة القومندان .
 وعند ذلك وصلا إلى الشاطئ فرأيا تلك السفينة بانتظارهما ، فلما رآهما
 القومندان هرع إلى استقبالهما وأنزلهما إلى سفينته وكان فيها اثني عشر رجلاً من

أولئك الأشقياء مقيدة أرجلهم بالسلاسل الضخمة وأربعة من جنود البحرية . وبعد أن تبادلوا التحيات المألوفة أمر القومندان أن ترفع المراسي ثم نظر إلى أحد أولئك المجرمين وقال له : لقد وليتك قيادة السفينة يا حضرة المركيز وكان المجرم الذي ناداه القومندان باسم مركيز شاب جميل الطلعة رشيق القد أزرق العينين أشقر الشعر وعلى محياه ملامح الاكتئاب غير ان هيئته كانت تدل على الانفة والسلامة خلافاً لرفقائه المجرمين ، فلما سمع أمر القومندان انحنى أمامه احتراماً وشرع بقيادة السفينة بمهارة فائقة تدل على انه ممرن في فنون البحر .

فقال أحد المجرمين لرفيق له : ان هذا المركيز حسن البخت وقديرات القومندان يحبه ويميزه علينا حتى لقد بت "أخشى أن يطلق سراحه ويولييه مكانه فانتهره رفيقه وقال له : كفك حقدأ على هذا الرجل ، فإنه يفضلنا جميعاً بلين أخلاقه وحسن آدابه ، وانك لا يدفعك للهز به غير حسدك .

فتمتم المجرم بكلمات لا تفهم ثم سكنت خوفاً من أن يسمعه القومندان . وكانا يتكلمان باللغة الاسبانية وفرناند قريب منهما فلم تفته كلمة من حديثهما لأن فرناند كان يعرف هذه اللغة وقد هاج به الفضول إلى أن يعلم السبب في تلقيب ذلك المجرم بالمركيز فدنا من القومندان وكان يحدث امرأته هرمين وقال له :

- إني عجبت لأمر الشاب الذي دعوته بمركيز فكيف أتاه هذا اللقب بل كيف وجد بين المجرمين على ما يبدو منه من ظواهر السلامة والدعة .

فابتسم القومندان وقال لقد تولتني قبلك الدهشة فاني عندما توليت رئاسة الميناء ، وذلك منذ تسعة أشهر ، حكم على هذا الشاب بالسجن والقييد خمسة أعوام .

فتأثرت هرمين لنعكته وكانت تنظر اليه نظرة اشفاق وقالت للقومندان : أي ذنب جناه ، ولماذا حكم عليه ؟

— ذلك لأنه وجد في سفينة قرصان نروجية أسرتها إحدى مدرعاتنا
فحوكم بحارتها ومن جملتهم هذا الشاب في مجلس عسكري وحكم عليهم بالسجن
خمس أعوام .

فقالت هرمين بلهجة ظهر منها عدم التصديق : أيمن لهذا الشاب أن
أن تكون مهنته النخاسة ، فيسرق العبيد ويبيعهم ببيع السلع ؟

— نعم يا سيدي . .

— العله نروجي ؟

— كلا فانه يقول انه فرنسي ولكني أرى من لهجته انه انكليزي .

— اني أعجب كيف تكون هذه الملامح النبيلة في وجه قرصان نخاس .

— بل هو أعظم من ذلك يا سيدي فانه بلغ من التزوير مبلغاً لم يخطر لأحد
من قبل حق لقد كاد يقنعه فيما يدعيه .

— كيف ذلك ؟

فسار القومندان بفرناند وزوجته إلى محل فسيح في آخر السفينة وقال :
تصوري يا سيدي ان رفقاءه لا ينادونه إلا بلقب مركيز .

— أهو مركيز حقيقة ؟

— هذا ما كان يدعيه ويحاول أن يحملني على تصديقه وهي حكاية لطيفة
سأقصها عليكما فاسمعا .

- ٥ -

انه في اليوم التالي لدخوله إلى السجن التمس هذا المركيز ان يقابلني فاشفقت
عليه وأذنت له بهذه المقابلة وقد دهشت كما دهشتا لحسن منظره ولامح نبيله
فقال لي : اني يا سيدي أدعى المركيز البرت أونوريه دي شمري وقد كنت في

البحرية الانكليزية الهندية

فصحت صبيحة اندهال لقوله ولكنه لم يأبه لي فأنتم حديثه وقال : اني ولدت يا سيدي في باريس وفارقت عائلي وليس لي من العمر غير عشرة أعوام فما رأيتمها بعد ذلك

وقد رجعت منذ شهر من الهند إلى لندرا بعد ان استقلت من الخدمة وعزمت على الرجوع الى فرنسا لورود كتاب لي من امي تدعوني فيه إلى الحضور فساشرت من لندرا على باخرة تجارية كانت مسافرة إلى الهافر .

ولما قربنا من الشواطىء الفرنسية هبت عاصفة شديدة فجنحت السفينة فغرق ركابها ونجوت أنا سباحة ، وكان يحاول النجاة معي شاب انكليزي ، فأنقذته من الغرق وصعدت به وهو مغمى عليه إلى جزيرة صغيرة .

وكان الليل حالك السواد وقد أصبت بعمطش قوى فوضعت رفيقي وهو لا يزال مغمياً عليه على الرمل وجعلت أمشي في الجزيرة التمس ما خلفه الشتاء في احدى حفرها وبينما أنا أمشي زلت قدمي وسقطت في حفرة عميقة استحبال علي الخروج منها فبقيت فيها الى أن أشرق الصباح .

ولما رأيت أن سعودي منها محال جعلت أستغيث بملء صوتي راجياً أن يكون رفيقي عاد إلى رشده فيسمعني ، فما أخطأ ظني وأسرع الي فأخبرته بما أصابني وقلت له أني تركت منطقتي وغدارتي وحزامي على الأرض ثم رجوته بأن يأتي بذلك الحزام الي فاتعلق به وأصعد عليه من الهوة .

فذهب الشاب ، وكان هذا آخر العهد به فتوالت الدقائق والساعات ثم أقبل الليل ولم يحضر فتغلب علي الجوع والمطش والقنوط والضعف فانطرحت مغمياً علي ، ولم أعلم ما جرى لي بعد ذلك غير اني حين استفتقت رأيت نفسي ممدداً فوق سرير في سفينة يحيط بي بحارة ما عرفتهم من قبل .

ثم عرفت بعد أن سألتهم أنهم وجدوني بين حي وميت في هوة واني بعد أن فقت من اغوائي أصبت بحمي قوية عقبها هزيان اتصل بضمة أيام ثم نقيت من

علقي فارتأي ربان السفينة أن يجعلني بحاراً لقلة البحارة .
قال القومندان : ولما رأي في هذا المخادع مصغياً اليه متأثراً لكلامه أتم حديثه فقال ولكني علمت بعد ذلك أن السفينة سفينة قرصان غير اني كنت مكرهاً على الخدمة فيها وقد حاولت الفرار فانذروني بالقتل ولما رأى الربان اني ماهر في فن البحارة رقباني إلى درجة نائب ربان وما زلنا نحترف هذه المهنة الشائنة حتى قبضت علينا الحكومة الاسبانية وهذا هو السبب يا سيدي في أن المركيز دي شمري يوجد مع المجرمين مكبلاً بالقيود .

قال الربان : فلما انتهى المركيز الكاذب من حديثه أشفت عليه إشفافاً شديداً لأنني كنت أتبين الصدق الأكيد من لهجته لاسيما وقد قال لي أنه عرض أمره على المجلس الحربي فلم يصغ اليه ولكنه يلمس مني أن أكتب إلى لندرا وباريس في شأنه فوعده عند ذلك أن أكتب .

قال فرناند : وهل كتبت ؟

— كتبت دون شك في اليوم نفسه لوثوقي من صدقه إلى أن ورد الي الجواب فعلمت ان حديثه ملفق وان حكايته كاذبة فإن المركيز دي شمري موجود في باريس حتى انه أوشك أن يتزوج منذ شهرين بأبنة وطنينسا الدوق دي سالانديررا ، ولكن الدوق مات موتاً فجائياً يوم الزفاف فتأجل اقترانه إلى انقضاء مدة الحداد .

فأظهر فرناند إندهاشه من هذه الحكاية الغريبة ، وبينما القومندان يتكلم كانت هرمين تنظر إلى المركيز بامعان وتقول : أيمكن لهذا الشاب ان يكون منافقاً إلى هذا الحد وليس في ملامحه ما يدل على ذلك ؟

ثم دنت من زوجها وقالت له بصوت منخفض أرجوك ان تستأذن لنا القومندان بمحادثة الرجل حين رجوعنا إلى البر فاني أراه نبيلاً بعيداً عن المنكر والنفاق وقد أكون صاهق بظنونني .

قال : لا بأس فسألتمس منه هذا الالتباس .

وعند ذلك أشرقت الشمس تبعث أشعتها الذهبية فتخرق قهقري الجبال
وتبسط على مياه البحر فيلاعها نسيم الصباح وترقص الأمواج احتفاء بها فنسي
الجميع عند ذاك المنظر حديث المركيز معجبين بحال الطبيعة .

- ٦ -

بينما كان الكونت أرمان دي كركاز يطالع بريده بعد هذه الحوادث المتقدمة
باسبوعين أخذ رسالة وجد عليها طوابع إسبانية فاستلقت نظره وفضها
مسرعاً ونظر الى التوقيع فإذا هي من فرياند روشي فقال في نفسه ، ما عسى
أن يريد مني هذا الصديق ، وما دعاه إلى كتابة هذا الكتاب الطويل ثم جعل
يقرأ ما يأتي :

« سيدي الكونت ..

« لو لم نلق من مكائد الخيانة أشدها ونشترك من صروف الدهر بأمرها
ونعمل يداً واحدة في كثير من الأحيان لدفع غارات الزمان ورد كيد الانسان
لما كنت كتبت اليك هذا الكتاب لأن ما أكتبه اليك من أغرب ما خطته يد
الجرائم في هذا الباب فاسمع .

« أعرفت في باريس هذا الشاب الجميل الذي كان في البحرية الهندية
الانكليزية وهو المركيز دي شمري ابن عم الكونت فابيان دي أسمول ؟
« اني عرفته قبل سفري الى اسبانيا فقد عرفني به أحد الأصدقاء .

« فإذا كنت عرفت هذا الرجل أو سمعت بهذا الاسم فاعلم اني وجدت في
قاديس رجلاً يدعى بهذا الاسم وهو يدعي أيضاً انه خدم في الهند في البحرية
وانه أيضاً ابن الكولونيل دي شمري شقيق بسلان دي شمري التي تزوجت
الفيكونت فابيان منذ عام ، ثم يضيف الى هذه الأقوال كثيراً من التفاصيل

بلهجة يتبين منها الصدق ولا تحمل على شيء من الشك .

« إذن فان المركيز الأول هو الآن في قصره في باريس وهو سيستزوج المدموازيل سالانديررا ، والمركيز الثاني في قاديس ولكن أتعلم أين وفي أية حالة ، انه في السجن مكبل بالقيود محسوب في مصاف المجرمين . لا تدهش لما تقرأ واقراء البقية . »

وهنا ذكر له فرناند جميع ما تقدم لنا ذكره من أمر السجين وحكايته للقومندان .

« ولما فرغ من جميع ذلك قال له : اني التمسيت من القومندان بناء على طلب امرأتي أن يأذن لي بمحادثة هذا المركيز لأنها كانت تعتقد انه برىء .

« وقد أذن لنا القومندان وذلك انه دعانا إلى العشاء في منزله واستدعى المركيز فقال له أمامنا : اني قصصت حكايتك في هذا الصباح على ضيفي فاستغرباها ورغبا ان يسمعاهما من فمك .

« وكان المركيز واقفاً يحمل قبعته بيده وهيئة كآبته تقطع القلب من الاشفاق
« فالحنى أمامنا باحترام ثم نظر إلى القومندان فابتسم ابتسام الحزين وقال له : انك أبيت أن تصدقني يا سيدي القومندان ولكني أرجو أن تصدقني السيدة وزوجها وهما مثلي فرنسيان .

« ففز القومندان كتفيه إشارة إلى ان اعتقاده راسخ بكذبه ثم استأذن منا وتركنا وإياه

« فقص علينا المركيز نفس القصة التي قصها علي القومندان بلهجة صادقة ولما اتم حكايته قلت له : ألا تعلم انه يوجد في باريس مركيز يدعى المركيز دي شمري وان جميع نبلاء باريس عرفوه ؟

« - إن ذلك محال إلا إذا . . ثم وقف متردداً .

« قلت . قل إلا ماذا ؟

« - إلا إذا كان الذي انقذته . ثم صاح صيحة قانط وقال : لقد عرفت كل

شيء ، فان الرجل قد سرق أوراقى واختلس اسمى وهو يعتقد انى ميت .
« قلت إن هذا صعب التصديق فان المركيز دى شمري الموجود الآن
فى باريس روي عنه انه حزن حزن الحزناء على أخيها حين وفاة أمه .

« فما قلت هذا القول حتى شمريت كأن الصاعقة قد انقضت على رأس هذا
المسكين فجعل يصيح ويقول أمه .. أمه . أي أمى التي ماتت . وعند
ذلك وهت رجلاه وسقط على الأرض وهو ينتحب ويبكى بكاء الأطفال ويذكر
أمه بأشجى الألفاظ .

« فلم أشكك بعد هذا البرهان الجلى بصدق كلامه وانه هو المركيز الحقيقى
« وفى ذلك الحين دخل علينا الربان فوجدنى مع امرأتى محيطتين بهذا التمس
المنكود نعزيه على مصابه وببكي لبكائه فأجفل لما رآه لأنه كان لا يزال معتقداً
بأنه من الكاذبين ولكنى عندما رويت له ما جرى مال الى التصديق فأخبرته
انى سأكتب اليك ووعدتى انه سيبدل جهده لاطلاق سراح المركيز وهو الآن
قد أخرج من السجن فجعله فى خدمته الخاصة تخفيفاً لشقائه .

« والآن فاعلم يا سيدى الكونت لماذا اكتب لك فان المركيز سواء كان
صادقاً او كاذباً فانه يقول ان لمائلته ارضاً تدعى الأورنجرى وان فيها قصر كبيراً
وهو يقول انه يوجد فى القصر صورة تمثل رسمه وهو فى التاسعة من عمره وانه
قد مثل فى الرسم لابساً لباس الايكوسيين وعلى رأسه قلنسوة عليها ريشة عقاب
وصورة عليها خطوط زرقاء وبيضاء ورجلاه عاريتان الى الركبتين .

« ثم انه كشف امامنا عن ساقه واراناً لطخة حمراء تشبه آثار الحجر على
القماش الأبيض وقال لنا : ان اللطخة مرسومة فى الصورة بشكلمها وحجمها
ولونها كما هي الآن .

« ولذا يا سيدى الكونت قد كتبت لك هذه التفاصيل فاذا رأيت تلك
الصورة وعثرت بهذا الأثر فيها فان المركيز هو المركيز الحقيقى دون شك ،
وان مركيز باريس أعظم منافق خداع عرف الى الآن .

« وأنا أرجو بعد أن تقف على حقيقة هذه التفاصيل أن تشير علي بما يجب أن أصنعه في شأن هذا الرجل فاني لا أقدم على أمر قبل أن ترد إلي مشورتك والسلام » .

(فرناند روشي)

فما أوشك الكونت أن يتم قراءة الكتاب حتى دخل خادم غرفته يخبره بقدوم الكونتس ارتوف فسر الكونت لقدمها واسرع وهو يقول لقد وجدته .

فاندهشت باكارا وقالت : ماذا وجدت ؟

— بينما كنت عازماً على الكتابة إلى اسبانيا أستعلم عن تلك السفينة التي فقدنا فيها آثار المريكيز دي شعري وردتني رسالة من اسبانيا عن هذا المريكيز .

— من الذي كاتبك من اسبانيا ؟

— فرناند .

فارتعشت باكارا عند ذكر اسم فرناند كأنها لا تزال تحبه وقالت :

ماذا عمل ؟

— انه وجد المريكيز الحقيقي ، ثم أخذ الرسالة وأعطاهما أياها فتلتهما بامعان وعلائم الدهشة تبدو عليها حين تلاوة كل سطر ، فلما أتمتها قال لها الكونت أرمان : ماذا ترتئين ؟

— ان الآنسة سلانديريرا لا تزال في اسبانيا والمريكيز الحقيقي فيها فيجب إذن أن اذهب إلى تلك البلاد .

— أنت تذهبين إلى اسبانيا ؟

— نعم وسأصحب معي الطبيب صموئيل وزامبسا خادم الدون جوزيف والدوق دي مايبي المنوفيين .

— إذن فما ينبغي ان اكتب لفرناند ؟

— لا تكتب له شيئاً فاني سأصل الى قاديس في اليوم الذي يصل فيها كتابك اليها لأنني مسافرة غداً فأية فائدة من كتابك ؟

- ولكن هذه الصورة الذي ذكرها فرناند في كتابه ؟
 - سأحصل عليها .
 فقال أرمان : اني تعودت يا سيدتي الكونتس ان أثق ثقة عمياء من فوزك
 بكل ما تفعلين فاذهبي بأمن الله واصنعي كما تشائين .
 - سأسافر غداً كما قلت لك غير اني أرجوك أن تكتب كتاباً ثانيّاً الى
 قنصل فرنسا في قاديس
 - سأكتب له في المساء
 والآن أعطني كتاب فرناند فاني أحتاج إلى مراجعة ما تضمنه من التعليمات
 فأعطاها إياه ، وعند ذلك نهضت فودعته ووعده أن تكتب اليه من
 قاديس ومضت .
 وفي الساعة نفسها بعد ان أخذت الكتاب كُتبت إلى الطبيب صموئيل ترجموه
 ان يحضر معها وقد عرف القراء ما جرى بينهما من الحديث عند اجتماعهما فانها
 عندما أخبرت هذا الطبيب انها ستسافر وإياه في الغد إلى اسبانيا قالت له :
 أتظن أن زامبا قد شفي من جنونه شفاء أكيداً ؟
 - لا ريب عندي في شفائه التام .
 - أيستطيع أن يصحبنا في هذه الرحلة ؟
 - نعم .
 - إذن يجب ان تسأل قاضي التحقيق الذي أذن لك بمعالجته بواسطة الكونت
 كركاز أن يأذن لك أيضاً بالذهاب به إلى اسبانيا وأرسله إلي في المساء .
 - سأفعل ما تشائين ولكنك لم تقولي لي شيئاً عن السبب الذي نذهب من
 أجله إلى اسبانيا .
 - اننا نذهب لنجد الماركيز دي شمري
 - أهو في اسبانيا ؟
 - انه في سجن قاديس فاذهب وأعد معدات سفرك وأرسل إلي زامبا .

-- وماذا نصنع بالكونت ارتوف زوجك ؟

- نصحبه معنا .

- ان هذا محال فانه آخذ في النقااة وأخشى عليه اذا صحبناه معنا أن يلتكس ولكني سأعين للأعتناء به طبيباً من اخواني فيعالجه بطريقي .
وافاقته باكارا على ذلك وانصرف وبعد ذلك بنصف ساعة قدم اليها زامبا وقد عاد اليه صوابه ولم يبق له شيء من أعراض الجنون فسلم على باكارا باحترام ولبث واقفاً ينتظر اوامرهما .

فقالته له باكارا ألا تزال تذكر حالتك وموقفك الخطر ؟ فانك محكوم عليك بالاعدام في اسبانيا وأنت في باريس أسير تحت مسؤولية الطبيب صمويل فاذا بلغ هذا الطبيب الحكومة انك شفيت من جنونك تعود إلى قبضة الحكومة الفرنسية .

فرجع زامبا امامها وقد وجف قلبه لذكر المحاكم والجرائم وقال : ارحمني يرحمك الله .

- ان الحكومة الفرنسية تبدأ بالبحث في قضيتك ثم لا تزال تلتقل من تحقيق الى تحقيق حتى تلتهي الى معرفة حقيقة حالك .

- إذن أنت تريد تسليمي إلى الحكومة ؟

- كلا ، إلا إذا لم تطعني .

- انك تعلمين يا سيدتي بأني سأكون لك أطوع من العبيد .

- لا أريد أن تكون عبدي الآن بل اكتفي ان تكون خادمي في السفر .

- وإلى أين تريد سيدتي السفر ؟

-- إلى اسبانيا .

- ويلاه ان الحكم بالاعدام صدر علي في اسبانيا وهناك القضاة ...

- انك عشت فيها أربعة اعوام في خدمة الدون جوزيف بعد صدور

الحكم عليك .

- هذا أكيد ، ولكن الدون جوزيف ...
- إنك ستكون أيضاً آمناً في خدمتي على نفسك فلا يمسه أحد بسوء .
- فأخني زامبا رأسه وقال : سأمتثل لما تريدن .
- والآن أتعلم لماذا أكرهك على السفر معي ؟
- كلا .
- إن الأنسة سالاندريرا في أسبانيا وأنا أذهب بك إليها لأنني أريد ان تخبرها كيف مات الدون جوزيف والدوق ماييلي
- وإذا فعلت ذلك أنجو من المحاكم ؟
- إنك ستنال العفو في اليوم الذي يقبض فيه على ذلك الرجل الذي جازاك عن صدقك في خدمته بضربة خنجر ، فيرسل إلى السجن او الى المشنقة .

٧

وفي اليوم التالي في الساعة الثامنة من المساء سافرت باكارا وبصحبتها الطبيب صموئيل وزامبا جالسا وراء المركبة .

وكانت باكارا متفكرة بزي الفلماني ، كما فعلت حين سافرت مع رولاند دجي كايلت . فكانت تمثل فتي من الأسرار النبيلة في المستعمرات يسيح في أوروبا مع مؤدبه وخادمه . غير انها لم تكثف بعقد شعرها كما فعلت في المرة الأولى بل انها قصته غير مشفقة عليه وجعلته كشعر الفتيان كي يتم الشبه ولا يبقى مجال للشك .

أما زوجها الكونت أرتوف فانه بقي في باريس وقد عين له الطبيب صموئيل طبيباً يراقبه حسب إرشاداته ، وقد كانت حالته تحسنت تحسناً يميناً .

وفي اليوم التالي لسفرها كانت مركبتها تجتاز أرض التورين وقد وصلت عند غروب الشمس إلى قرية صغيرة فقالت للطبيب :

— إني لم أقل لك بعد إلى أين نحن ذاهبون .

.. كيف ذلك ألم تقولي أننا ذاهبون إلى إسبانيا ؟

— نعم ولكننا سنقف قبل ذهابنا إليها في مكان يبعد مرحلتين عن هذه القرية التي نحن فيها .

— أين ذلك ؟

— في الأورنجري وهي أرض المريكز دي شمري .

فمجبب الطبيب لكلامها ولكنه قبل أن يسأل قاطعته بإشارة وقالت له .
ألم تشر على المريكز ، بل على الرجل الذي اختلس هذا الاسم النبيل أن يذهب إلى الأورنجري كما أوصيتك بتدبيرك للهواء لما أصابه من الهزال .

— نعم وقد قال لي أنه سيسافر .

— أنه سيسافر في هذا المساء من باريس فيصل إلى أرضه غداً ونكون قد سبقناه إليها بليلة .

— ألعننا ننتظره في قصره فيها ؟

— كلا . بل ننام هذه الليلة في القصر .

— لماذا ؟

— ستعلم ذلك فيما بعد واكتف الآن بأن تعلم أن السائق الذي يقود مركبتنا سيسقط المركبة بنا في حفرة واقعة عند مدخل بستان القصر .

وكان الطبيب قد تعود من باكارا أنها تكتم سرها فلا تبوح به إلا عند الاقتضاء ، فلم يلح عليها بمعرفة السر ولم يكثرث لوقوعه في الحفرة .

وبعد ساعة كانت الشمس قد غابت وساد الظلام والمركبة قد دنت من ذلك البستان فاندفعت المركبة بسرعة عظيمة .

وعند ذلك قالت باكارا للطبيب : إحذر فقد وصلنا إلى الحفرة .

ولم تكذب تتم قولها حتى سقطت المركبة في تلك الحفرة .
وكانت باكارا والطبيب قد رجعا إلى الورا وتأهبا فلم يصيبها ضرر خلافا
لزامبا فإنه سقط عن كرسيه من وراء المركبة وجعل يصيح ويستغيث بصوت
مرتفع وكذلك السائق .

وما زال يستغيثان حتى فتح باب البستان وخرج أربعة من الفلاحين يتقدمهم
رجل كهل كان نافذ الكلمة بينهم فأخرجوا زامبا من الحفرة وقد ابتلت ثيابه
بماء وتلوثت بوحلها وخرج الطبيب وباكارا وهي بلباس الغلمان كما تقدم .

ثم أخرجوا المركبة وجيادها، وفيما هم يخرجونها رأت باكارا دولاب المركبة
قد انكسر فأظهرت أسفها ، وبعد أن شكرت زعيم أولئك الفلاحين لاهتمامه
بهم قالت له أن دولاب المركبة قد انكسر ونحن مضطرون إلى اجتياز ثلاثة
مراحل بعد أن نصل إلى المحطة فأين نحن الآن ؟

فأجابها الزعيم وكان اسمه أنطوان : إنكم في أرض الأورنجري ملك المريكز
دي شمري وهذا القصر قصره وأنا وكيله .
فقالت باكارا وهي تمثل دورها أتعن تمثيل : اني أعرف هذا المريكز وقصره
الفيككونت دي أسمول من أخلص أصدقائي .

— إذا كنت تعرف يا سيدي مولاي المريكز فاسمح لي أن أدعوك باسمه إلى
المبيت الليلة في قصره إلى أن يصلح دولاب المركبة .

— لا بأس إنما أرجوك أن تقول لي كم يقتضي من الوقت لإصلاح الدولاب ؟
— عند الصباح يكون قد تم إصلاحه فتستطيعون مواصلة السير .

وعند ذلك مشى أنطوان أمامهم فتبعوه إلى داخل القصر ودخل بهم إلى
القاعة الكبرى المعدة للاستقبال ثم تركهم وانصرف كي يعد لهم عشاء فاخراً
ثم جلسوا جميعاً على المائدة إلى أن حضر الطعام فجعلت باكارا تحدث
أنطوان فقالت له : أياي المريكز دائماً إلى قصره ؟

— انه لم يزره منذ عودته من الهند

إذن فسأنبئك نبأً تسر له ، وهو أن المريكز سيكون هنا غداً فقد كنت وإياه في النادي أول أمس فأخبرني أنه مسافر غداً إلى أرضه في الاور انجري وهو قد برح باريس أمس فلا بد أن يكون هنا غداً كما قلت لك .

ففرح أنطوان فرحاً عظيماً وقال : إذن سأرى هذا المريكز قبل أن أموت فأني ما رأيته إلا صغيراً كما هو ممثل بهذا الرسم ، أي وهو في التاسعة من عمره ثم أشار بيده إلى صورة معلقة في الجدار .

فأخذت باكارا المصباح بيدها ودنت من الصورة فجعلت تتأملها بامعان شديد فقالت في نفسها : انها الصورة التي فصلها فرناند في كتابه وهذه هي البقعة الظاهرة فوق ساقه تشبه لطفة الخمر فوق الثوب الأبيض .

ثم نظرت إلى أنطوان وقالت له عجباً لهذا المريكز ؟
- نعم وهو في التاسعة من عمره وهذه الصورة تمثله أحسن تمثيل .
- إذن فقد تغير تغيراً عظيماً بحيث يستحيل على من لم يره من ذلك العهد أن يعرفه الآن .

- إني لم أره منذ عشرين عاماً ويندر جداً أن تبقى الشبان الملامح التي كانت لهم في دور الطفولية .
وبعد أن تحدثا قليلاً خرج أنطوان لبعض الشؤون ودخل زامبا فقالت له باكارا : إنك لص ماهر أليس كذلك

فانحنى زامبا دون أن يجيب ولكنه كان يشير بالحنائه إلى الامتثال .
فقالت باكارا : إذن سأعهد اليك بمهمة تعود فيها إلى مهنتك القديمة ، أترى هذا الرسم المعلق في الحائط ؟

- نعم .
- يجب أن تسرقه . وأعلم اننا سنبيت الليلة في القصر ونسافر في الساعة الخامسة من الصباح ، فأنزع الرسم من الاطار المحيط به وضعه بين ثيابنا واحذر من أن يراك الوكيل .

- سأفعل يا سيدي ما تريدن .

وعند ذلك عاد الوكيل إلى الغرفة فقالت له باكارا : لقد قلت لك اني صديقي لمولانا المركيز ، ولكني لم أقل اسمي ، فإني شريف برازيلي أسير متجولاً في أوروبا يصحبي مؤدبي وقد أقمت في باريس سنة كاملة فعرفت في خلالها المركيز وكان من أخلص خلاني وهذه رقعة زيارتي .

فأخذ الوكيل رقعة الزيارة ورأى عليها تاج المركيزية فعلم أن صاحبها من النبلاء وانحنى أمامها باحترام عظيم .

- أعتمد عليك باصلاح المركبة بحيث أستطيع السفر عليها عند الفجر .

- كل الاعتقاد يا سيدي فان العمال لا ينامون قبل إنجازها .

ثم رأى الوكيل أن هذا السائح ومؤدبه يريدان أن يناما فنادى خادماً كهلاً مثله وأمره أن يذهب بهما إلى الغرفة التي أعدها للزائرين .

ولما كانت الساعة الرابعة قرع زامبا غرفة باكارا قرعاً خفيفاً وكانت قد استيقظت منذ حين ولبست ملابسها ففتحت له الباب فدخل وقال لها : إن المركبة يا سيدي معدة للسفر .

- والصوره ؟

- في المركبة .

- ألا تخشى أن ينتبه الوكيل لفقدتها ؟

- لا أظنه ينتبه يا سيدي فإنها موضوعة قرب باب الغرفة وباب القاعة يبقى دائماً مفتوحاً بحيث يجيبها وفوق ذلك فإن الوكيل لا يزال دائماً وسئسافر قبل أن يصحو .

وكان زامبا مصيباً في ظنه فخرجت باكارا يتقدمها زامبا إلى أن وصلت إلى المركبة فوجدت الطبيب ينتظرها فيها والسائق متأهب للرحيل .

ولما صعدوا جميعهم إلى المركبة شاهدوا الوكيل يركض مسرعاً اليهم وقد كان نومه ثقيلاً فاضطر الخدم إلى إيقاظه فأسرع إلى ضيوف مولاه يعدو كالجحانين

وهو يخشى أن لا يدركهم
فقال له باكارا : أرجوك أن تهدي سلامي إلى المركيز ثم شكرته لحسن
ضيافته ونفحته بورقة مالية وأشارت إلى السائق بالرحيل فسارت الجياد تنهب
الأرض نهبا حتى تجاوزت القرية وبلغت إلى الطريق العام .

وفي خلال هذه المدة كان الوكيل انطوان عاد الى القصر وهو مهمم بهمة باكارا
أكثر من اهتمامه بقدوم المركيز فدخل إلى القاعة كي يقفل أبوابها وكان لا بد له
عند ذلك من إعادة النظر إلى صورة المركيز الذي سيراه غداً بعد فراق
عشرين عاماً ، ولكنه ما لبث ان رفع نظره اليها حتى صاح صيحة القناط ،
لأنه رأى الإطار ولم ير الصورة .

وعند ذلك دخل عليه أحد الخدم وقال : رأيت هذا الشاب الصغير الذي
بات عندك أمس أني أراهن على ما تشاء بأنه لم يكن غلاماً بل امرأة بزي غلام.
وكان الاضطراب قد بلغ مبلغاً عظيماً من الوكيل فقال له : ليكن ما يشاء
فان الذي أعرفه انه سرق صورة المركيز .

ثم خرج من القاعة وانطلق يعدو وهو يحاول اللحاق بعربة المركيز ولكنها
كانت قد ابتعدت بعداً شامخاً فرجع قانطاً وقد ضاقت به الدنيا على رحبها
وأقبل الخادم يعزيه ويقول : إنها لا شك امرأة وانها عاشقة للمركيز فسرفت
صورته ولا بد للمركيز أن يعرفها فيسترد الصورة منها إذا شاء .

- ٨ -

ولنعد الآن إلى المركيز الكاذب إلى روكامبول الذي غادرناه مغميماً
عليه في المركبة حين رأى آلة القضاء قد قطعت رأس ذلك المجرم .
وقد كان صهره فابيان معه كما تقدم ولكنه حين وقعت الآلة على عنق ذلك

المسكين أغمض عينيه فلما فتحهما رأى روكامبول يجانبه مغمياً عليه فذعر وأمر السائق أن يسرع إلى القصر حتى إذا بلغ اليه نزل فابيان وأمر باحضار طبيب في الحال ، ثم نقلوا روكامبول الى غرفة وهو لا يزال مغمياً عليه .

وبقي على ذلك إلى أن حضر الطبيب ففحصه وعلم السبب في إغمائه فقرر ان هذا الاغماء غير خطر وانه ما دعا اليه غير الرعب والتهيج العصبي الناتج عما أصابه من الانفعال النفساني ، ثم قال : انه سيفيق من نفسه دون واسطة ، غير انه قد يصاب بعد ذلك بحمى يصحبها هذيان موقت لا يحتمل على الخوف .

ومع ذلك فانه لم يجد بداً من وصف علاج كما تقتضيه واجبات المهنة فكتب العلاج وانصرف

ولم يطل تحقيق نبوءة الطبيب فان روكامبول أفاق على أثر ذهابه من اغمائه ففتح عينيه وجعل ينظر نظراً ثابتاً إلى ما حوله فرأى انه في مكان لم يعرفه من قبل ولم ينظر صهره فابيان الذي كان جالساً على كرسي بجانب السرير ثم بدأت الحمى كما قال الطبيب فجعل يقول أين أنا ؟ ويحيل في الغرفة نظراً قلقاً مضطرباً فلا يذكر شيئاً مما هو فيه وحاول أن يجلس في سريره فلم يستطع .

كل ذلك وفابيان جالس بقربه لا يحسر على الدنو منه حذراً من ازعاجه ثم بدأ معه دور الهذيان فوضع يده على جبينه وقال لقد ذكرت الآن .. اني رأيت الجلاد ، نعم رأيتنه وكان عاري اليدين .. فضحك عندما رأيته وأراني الخنجر . ثم جعل يضحك ذلك الضحك العصبي الذي يصاب به من يتولاه الرعب أو القنوط

فدنا صهره عند ذلك وحاول أن يمسك يده فصاح به روكامبول الى الوراء ارجع ولا تدن مني .. أأنت آت كي تقبض علي لأني أنا أيضاً قتلت أمي التي ربتني خنفاً بيدي .. ارجع فاني سأنجو منك ويا طالما أفلتت من أعماق السجون ونجوت من أعماق البحار .. فاني أدعى . . . ان اسمي الحقيقي . . . وهنا توقف عن الكلام كأنما بارق من الصواب قد لاح له حين هذيانه فامتنع

عن ذكر اسمه ولكنه قال : انك تريد ان تعرف اسمي ولكنك لن تعرفه .
ثم عاد إلى ذلك الضحك المؤلم وجعل بعده يبكي وينطق بالفاظ متقطعة وجعل
مقتضبة فكلمها أو شك أن يظهر شيئاً من حقيقة أمره يختلط هذيانه بالصواب
فتقتضب الجمل وتلبس معانيها ثم تراجع إلى الوراء كأنما الرعب قد قولا وجعل
يصيح بصوت مختنق إلى الوراء . أيها الجلال . إلى الوراء واشفق على نفسك .

وقد دامت هذه النوبة نحو ساعتين ثم نام بعدها نوماً هادئاً الى المساء
ولما صبحا من رقاده لم يبق أثر للهذيان وعادت اليه سكينته ولكنه بقي
متعجباً لوجوده في مكان مجهل .

وكان صهره لا يزال في غرفته فلما رآه قد فتح عينيه ورأى ما هو عليه من
السكينة دنا منه فأخذه بيده وقال : كيف أنت الآن يا الهرت ؟
فنظر اليه روكامبول باندهال وقال له : أهذا أنت . . اين نحن الآن ؟
— إننا في قرية ج . على بعد ثلاث مراحل من الأوراجوري .

— ولماذا توقفنا في هذه القرية ؟

— لأنك كنت مريضاً .

— أنا مريض وكيف مرضت ؟

— انك كنت مصاباً بحمى شديدة على اثر إغناء أصابك .

عجباً . ولماذا أعمي علي ؟

فتردد فابيان في جوابه غير ان روكامبول ذكر السبب وقال نعم لقد
ذكرت الآن المقصلة وذلك الرجل الذي قطع رأسه فيها .

فقال فابيان : نعم هو ذاك أيها الحبيب ، وقد هالك ذلك المنظر الهائل حتى
انك لم تطق احتمالاً فأعمي عليك وحملناك وانت فاقد الرشدا الى هذا المكان .

وكان روكامبول قد نفذ عنه غبار الحمى فانقضى هذيانه وعادت اليه الحكمة
فقال : ما هذا الضعف الذي قولاني فكنت أشبه بالنساء ، ولا بد أن اكون
أصبحت بالحمى

— هو ذاك وقد عقب تلك الحمى هذيان
فدعر روكامبول وخشي أن يكون باح بأسراره وهو لا يدري فقال العلي
أصببت هذيان ؟
— كان هذيان شديد حتى أنك كنت تقول أشياء لم أسمع أغرب منها .
— كيف ذلك وماذا قلت ؟

.. إن حديث هذا الرجل الذي قضي عليه بالاعدام وحكوا لنا أمره قبل
إعدامه قد أثر عليك تأثيراً عظيماً حتى أصبحت تحسب أنك أنت هو ذلك المجرم
المقضي عليه .

— ما هذا الجنون ؟
.. ولبشت ساعة كنت في خلالها تحسب أنك أنت الذي خنقت أملك التي
تبنتك وتعتقد ان الجلاد قادم للبحث عنك .

فاضطرب قلب روكامبول وخشي ان يكون صهره قد اطلع على سره فنظر
اليه نظر المستطلع .

غير ان فابيان ابتسم له وجعل يحدثه بجميع أخبار هذيانه بسلامة لا يداخلها
شيء من الشك .

فارتاح بال روكامبول وأيقن أنه لم يبح بشيء ثم تشدد ونهض من سريره فسأله
فابيان ، كيف أنت الآن ؟
— على أحسن حال .

— إذن ، أتستطيع مواصلة السفر الى الاورانجيري ، والمبيت فيها
هذه الليلة ؟

— دون شك ، وها أنا سألبس ملايسي فلتسافر بعد العشاء .

وعند ذاك خرج فابيان وأمر باعداد المركبة للرحيل

ولما خلا المكان بروكامبول جعل يتخاطر في أرض الغرفة ذهاباً وإياباً وهو
يؤنب نفسه لما أبداه من الضعف ويقول : أيغنى علي لأني نظرت رجلاً يشنقونه

كأنني لم أرميتما قبلاً ولم أسفك دماء ، ثم أصاب بالحمى وأهذو بكلامي ، فأذكر مدام فيبار فأنسه ضعف شديد . وإذا جدت بي حادثة أخرى كهذه ، كنت من الهالكين لأنه لو اتفق انه كان لفابيان أقل ريب بي ، وحاول ان يعلم حقيقة أمري ، لما فاتته شيء من أسراري ، ولقضي على تلميذ السير فيليام .

وكأنما أندريا قد تمثل له حين خطر في باله ، فأجفل مرتعداً وقال في نفسه : لقد أخطأت الخطأ الشديد بقتل هذا الرجل ، فإنه كان مرشدي في كل سبيل ومعيني في كل معضلة . أما الآن فقد ندمت لفقده ، وبت أرى المشنقة منصوبة لقتلي ، حتى اني أكاد أسمع صوات مطارق العمال الذين ينصبونها .

ثم سمع وقع أقدام صهره فابيان فانقطع حبل هواجسه وقال في نفسه : ما هذا الجنون ومتى كان روكامبول يخضع للهواجس ويخشى نكبات الأقدار ؟ وأية حاجة لي بهذا الرجل وقد مات ؟ الست المركيز دى شمري وخطيب إبنة الدوق فلأمشي إلى الأمام ولأكن جريئاً مقداماً فقد كان يقول السير فيليام أن الجرأة مفتاح الصعاب ؟

وعند ذلك دخل صهره فابيان وقال له : هلم بنا إلى المائدة فإن الشمس قد غابت ولا بد أن تكون جائعاً
- هو ما تقول لأن شهيتي عظيمة .

ولبس روكامبول ملابسه بسرعة ، ثم خرج الاثنان إلى المائدة . وبعد أن أكلا برحاً ذلك الفندق ، فركبا مركبة وسارت بهما إلى الاورانجيري .

وكان روكامبول يعرف هذه الأرض ومداخل القصر وجميع خدمه فلما بلغ اليه مع صهره أظهر حنيناً عظيماً وجعل يذكر عهد حداثته وجميع ما يعرفه من أحوال تلك الأرض .

ثم أقبل الخدم وجعلوا يقبلون يديه فرحين مسرورين بعودة مولاهم ما خلا

وكيل الأرض أنطوان ، فانه لم يكن موجوداً بينهم ، وقد كانوا يعجبون كيف عرفهم .

ثم انه نادى أحدهم باسمه وهو الذي قال لأنطوان أنت باكارا لم تكن غير امرأة متنكرة بزي الغلمان ، وقال له : أين الوكيل أنطوان ؟ وكيف لا أراه بينكم ؟

— إنه ذهب إلى قرية ج .

— إنني قادم منها فكيف لم أراه فيها ؟ وما دعاه إلى السفر ؟

— انه سافر يا سيدي المركيز في الصباح كي يقدم شكواه للحكومة ، لقد سرقونا في هذه الليلة .

— كيف سرقوكم وما سرقوا ؟

— إسمع هذا الحديث الغريب يا سيدي ، فقد قدمت أمس مركبة وعند مرورها قرب البستان سقطت في حفرة فانكسر دولابها ، وكان فيها ثلاثة سياح ، وهم فتى في مقتبل العمر يقول أنه من أصدقائك ، ومؤدبه وخادمه .

— ما اسم هذا الرجل ؟

— لا أعلم ولكن انطوان قد عرف اسمه .

— أهو هذا الفتى الذي سرق ؟

— نعم .

— وماذا سرق ؟

— سرق صورة مولاي المركيز التي كانت تمثله طفلاً وكانت معلقة ضمن إطار في جدار القاعة الكبرى .

فصاح روكامبول صيحة اندهاش وعادت إليه هواجس الشر .

- ٩ -

وعاد الخادم إلى إتمام حديثه فقال: ومما يدل على ان الفتى كان يعرف سيدي
المركز انه أنبأنا بقدمه .

- بقدمي أنا ؟

- نعم يا سيدي فقد قال لأنطوان انك ستقدم الى أرضك في اليوم التالي
فصدق فيما أخبر .

فحار روكامبول في أمره ، وقال لصهره . أتذكر انك أخبرت أحداً
بسفرة ؟

- لا أعلم فإني لا أذكر شيئاً من ذلك .

فقال الخادم : إن الفتى يا سيدي قال انه رأى في النادي وانك أنت أخبرته
بعزمك على السفر في الغد .

ماذا أسمع ؟ وما هذه الألغاز ؟ فإني منذ ثلاثة أشهر ما ذهبت
الى النادي !

ثم دخلوا جميعاً الى القاعة ، فأراهما الخادم إطار الصورة المسروقة ،
فوقف روكامبول فوق كرسي وجعل يمين النظر في طريقة إخراج الصورة
من إطارها ، فوجف قلبه وعلم ان يبدأ ماهرة نزعها من موضعها ثم التفت الى
الخادم وقال له :

- أذكر لي شكل الفتى .

- إنه ربعة القوام أشقر الشعر مزيل

- أعرف انطوان اسمه كما تقول ؟

- لا بد ان يكون عرفه فانه أعطاه رقعة زيارته واسمع لي يا سيدي ان
أقول ان انطوان طاهر القلب شديد الاخلاص ولكنه متعنت في رأيه لا يسمع
نصيحا ولا يحري إلا ما يخطر في باله .

— كيف ذلك ؟

— ذلك انه ذهب الى تلك القرية كي يعرض شكواه ، وفاته ان من يحضر في
مركبة لسرقة رسم لا يكون من عوام الناس .
— هذا لا ريب فيه ولا شك ان انطوان بسيط القلب .

فتشجع الخادم لما سمعه وقال : أأأذن لي يا مولاي ان أقول كلمة ؟

— قل .

— أظن ان هذا السارق كان له فائدة عظيمة بسرقة الصورة حتى انه قد
يبدل في نيلها كل عزيز .

ثم دنا من روكامبول وقال له بصوت منخفض : إن الفتى لم يكن غير امرأة
متنكرة بثياب الفلمان

وكان فابيان قد سمع ما قاله الخادم فقهقه ضاحكاً وأجاب : لم أكن أتوقع
هذا الختام .

غير ان روكامبول خطرت له في الحال أوصاف ذلك الفتى ، وهي أنه
ربعة القوام هزيل أشقر الشعر لا نبات في عارضيه ، فارتجف ولم يبتسم
لضحك صهره ، بل ان العرق البارد جعل ينصب في جبينه وقال في نفسه :
... باكارا !

فدنا منه فابيان وقال : ماذا فعلت يا البرت ؟ العلك محبوب الى هذا الحد ؟
وكيف تسمح بمثل هذا الغرام وأنت على أهبة الزواج بابنة الدوق ؟

ولم يكذ فابيان يتم كلامه حتى سمعوا وقع حوافر جواد فأطل الخادم من
النافذة وقال : هوذا أنطوان قد رجع .

فقال فابيان : ستعلم الآن كل شيء ، ادخل يا البرت إلى غرفتك لأن المسكين
سيجن سروراً برؤياك وانا سأقابله وأعلم منه كل شيء .

فدخل روكامبول الى غرفة قاده اليها الخادم وهو موجس شراً عظيماً لا
يعلم سره فيتلافاه ، فوقف أمام نافذة الغرفة وجعل ينظر الى انطوان الشيخ

وقد ترجل عن جواده وقال لفابيان وعلائم السرور بادية في ثنايا وجهه :
إن مولاي لا بد أن يكون في القصر . . . وقد عرفت ذلك من القرية
التي كنت فيها ، فقد أعطتني إدارة البريد كتاباً اليه وصله إلى باريس
بعد سفره .

— من أين أتى هذا الكتاب ؟

— من اسبانيا .

فلما سمع روكامبول كلامه فرح فرحاً عظيماً وقال للخادم الذي كان لا يزال
معه : أسرع واحضر لي الرسالة التي أتى بها انطوان

وكان روكامبول قد نسي في تلك الساعة سرقة الصورة وهواجسه ورعبه
وباكارا ، حين سمع بذكر تلك الرسالة . فلم يطل انتظاره حتى عاد بها
الخادم اليه ففحصها وجعل يقرأ فيها بينما كان صهره فابيان يسأل انطوان عن
حادثة الصورة .

أما الرسالة فقد كانت من خطيبته كونسبسيون ابنة الدوق الأسباني وهي
كما يأتي :

« أيها الحبيب

« هوذا ثمانية أيام قد مضت دون أن أكتب لك فيها حرفاً ولا بد أن يحول
في خاطرك إني نسيت عهدك على أنني لا تمر بي دقيقة من دقائق حياتي دون أن
أناجيك فيها ، فان حياتي لك .

« ولقد كتبت اليك آخر كتاب قبل هذا من سالانديرا حيث أقمت فيها
مع والدي ستة أسابيع نبكي على ذلك الوالد الحنون الذي اختطفته يد المنية من
بيننا ليلة زفافنا وندعو له الله في خلواتنا ، وعسى أن يجيب دعواتنا ويحشره في
زمرة الأبرار .

« والآن أيها الحبيب فاني أكتب اليك من جرناديز وهي أرض لنا قضيت
فيها عهد الطفولية وهي واقعة بين قاديس وغرناطة في قلب تلك اللجنة المغربية

التي يدعونها بلاد الأندلس .

« وفي هذه الأرض يتنازع في تخيلتي تذكاران من السعادة والشقاء أحدهما ملذات الطفولية وآخرهما نكد الشباب فان في هذه الأرض سقت تلك النورية التي كانت تهوى الدون جوزيف ، ذلك السم النقيع للدون بادرو فأودت بحياته الطاهرة .

« ولا يخطر في بالك إني أثبت هذه الأرض مندفعة بتلك الذكرى فان قلبي يحملته لك بل اني أثبت اليها مع أمي كي أعجل عقد قراننا .

« وأنت تعلم أن عادات الأسبانيين شديدة في الحداد . ولو قدر الله أن يبقى أبي في قيد الحياة ساعتين لكنت الآن امرأتك أمام الله والناس ، ولكنه أبى علينا هذا النعيم ، ففادرننا باريص نصحب تلك الجثة الباردة الى سالانديررا فاستقبلنا أسقف غرناطة ، وهو من أقارب أمي ، فبقي معنا بعد الاحتفال بدفن الجثة ثمانية أيام كان يمزج دموعه بدموعنا . وقبل ذهابه خلا بأمي وتداول معها في أمر لم أعلمه إلا في هذه الأيام ، وهذه خلاصته أنقلها اليك وهي :

« ان أمي والأسقف تداولوا في شأن وفاة أبي ليلة عرسي ، وبما لقيته من المناء لهذه الاتفاق الغريب ، حتى أنها كنا نخشيان علي عاقبة تلك الأحران ، فبجلا يفكران في طريقة تمجل عقد قراننا تخفيفاً لأحراني فقال الأسقف : إن أصول الكنيسة لا تؤذن بزواج الأبناء بعد موت والديهم قبل مضي شهرين ونصف على الأقل ثم أن هناك مصاعب أخرى وهي العادة عند نبلاء الاسبان باطالة زمن الحداد احتراماً للآباء فلو نقضنا ذاك العهد لقامت علينا قيامة الأشراف وسلقونا بالسنة حداد .

« - إني أعرف جميع ما ذكرت ولذا بت قلقة البال على ابنتي لما أعلمه من شفها بخطيبها .

« - إسمعي لي أن أسألك بعض أسئلة قبل إبداء رأيي فهل عقدت شروط

الزواج بينكم وبين المركيز ؟

» - نعم .

» - وهل أورث صهره اسمه والقابه ؟

» - نعم .

» - إذن فان الأمر سهل . وهو ان الملك في حاجة إلى سفير من النبلاء يرسله إلى البرازيل ، وقد كان عزم على تعيين زوجك الدوق في هذا المنصب ولما عزم على الكتابة اليه واستدعائه فاجأه خبر نعيه ، وهو لا يزال حائراً فيمن يعينه .

» فقالت أمي وأية علاقة لما تقول بتعجيل الزواج ؟

» إسمعي ، فأنت تعلمين ان الملك لا يخيب لي رجاء وسأذهب إلى مدريد والتمس منه تعيين المركيز دى شمري في ذاك المنصب .
» - لم أفهم بعد .

» - إنه لا يعنيه إلا متى صار اسبانياً ، ولا يصير اسبانياً إلا متى تسمى باسم الدوق سالانديررا ، ولا يتسمى بهذا الاسم إلا متى تزوج بابلتك ، فتى عرف الناس ان المملكة تحتاجه الى سفير ترسله في الحال الى البرازيل ، وأن الملك وقع اختياره على صهرك بطل عتبههم ، وعلموا أن إرادة الملك قضت بتعجيل الزواج .

» فصفت أمي سروراً وافترقا فذهب الأسقف الى مدريد بعد ان أوصى بكتان الأمر مني وذهبنا إلى غرناطة .

» وبعد شهر ورد إلى أمي كتاب من الأسقف يقول فيه ان الأمور تجري على ما يريد وأمرها ان تسافر بي إلى هذه الأرض التي أكتب لها منها الآن . »

« وبعد يومين ورد اليها هذا الكتاب الثاني وخلاصته أن الأسقف قد ثباحث مع الملك في هذا الشأن ، فوعده جلالته أنه سيمر في أرضنا اتفاقاً ويعزي أمي لمصائبها ، ثم يعين ابنتها من نساء بلاط المملكة دلالة على احترامه للدوق الفقيد . ولما كانت نساء البلاط ينبغي أن يكن متزوجات ، وقد صدر أمر الملك بتعييني في بلاطه ، فلا بد إذن من زواجي وهو خير واق لتقول الناس .

« فلما اطلعت أمي على هذا الكتاب أخبرتني عند ذلك بكل شيء . فاسمع الآن ما حدث بعد ذلك .

« إننا أصبحنا يوماً وإذا بخادمة غرقت دخلت إلى منذرة وهي تقول : سيدتي إن الملك والمملكة دخلا بموكبهما وهما الآن على الباب .

« فخرجت مضطربة فرأيت أمي قادمة إلي فذهبت بي لاستقبال جلالتهما .

« وجعل الملك والمملكة يعزبان أمي وأقاما في قصرنا ساعتين ثم خلت المملكة بامي وعند انصرافها مع الملك قالت لي : إني عينت بين نساء بلاطي مدام شمري سالانديررا .

« فهزتني هذه الكلمات كما تهز الرياح أوراق الخريف حتى اني تلعثمت فما عرفت كيف أشكرها غير ان أمي تولت عني تلك المهمة .

« وبعد ذهابها بساعتين قدم اليها الأسقف ودعانا الى الذهاب الى قاديس حيث نقيم في منزله مدة إقامة الملك في تلك المدينة ، وسأكتب لك منها بعد ثلاثة أيام .

« هذا ما أكتبه اليك الآن أيها الحبيب وفي كل حال فكن متأهباً للسفر قريباً إلى اسبانيا فان يوم سعادتنا غير بعيد . »

« خطيبتك »

« كونستنسبون »

فتلا روكامبول الكتاب والتأثر باد في رجهه فنسي موقفه الشديد ولم يخطر
في باله غير ان ابنة الدوق تهواه وان ملكة اسبانيا اهتمت في شأنه وان أعدائه
قد هلكوا وانقرضوا ، فقال في نفسه : ممن أخاف ولماذا هذا الاضطراب ؟
القتلي ذاك الرجل الذي يدعي نجم سعادتي ؟ وماذا حدث لي الآن مما يحملني
على الخاوف ؟

ثم ضحك من أوهامه وقال إذا كان لا بد لي الموت فلا أحب أن أموت
إلا سفيراً .

وبعد ذلك خرج كي يرى فابيان الذي ذهب للقاء انطوان .

وكان انطوان أخبر الفيكونت فابيان بجميع الحوادث التي جرت قبل سرقة
الصورة بأدق تفصيل فلما فرغ من تفاصيله سأله فابيان ماذا يدعى الشاب الذي
سرق الصورة ؟

فأخرج أنطوان من جيبه رقعة الزيارة التي تركتها باكارا وأعطاهما
لفابيان . فأخذها منه فابيان وتركه وانصرف ذاهباً إلى قاعة الأكل ودنا
من المصباح الموضوع على المستوقد كي يقرأ الاسم على نوره ، وكان انطون قد
تبعمه اليها .

وفي ذلك الحين ظهر روكامبول على باب القاعة ، وسمع فابيان يقرأ
هذا الاسم :

« المركيز دون النجو دي لوس مونتس » .

فلما طرق الاسم مسمعه تراجع الى الوراء منزعجاً لأن الاسم لم يكن غير
الاسم الذي اختلقه له أندريا حين عهد اليه إغواء امرأة أخيه الكونتس دي كركاز
كما تقدم في رواية التوبة الكاذبة .

ولحسن حظه ان فابيان وانطوان كان ظهراهما من جهة الباب فلم يريا ما
أصابه من الرعب والاصفرار حين تلاوة الاسم .

أما فابيان فإنه قلب الرقعة بيده وقال: إني لا أعرف صاحب هذا الاسم

ثم التفت فرأى روكامبول واقفاً في الباب فقال له: أتعرف المركيز دون أنجو
دى لوس مونتس ؟
وكان روكامبول قد ضبط نفسه في هذه الفترة وعاد اليه سكونه فأجاب
صهريه ببرود قائلاً : كلا .

أما الوكيل انطوان فانه أسرع الى روكامبول وهو يحسب انه مولاه المركيز
فصاح صيحة فرح وقال : مولاي المركيز أهذا أنت ؟
وكانه أراد ان يعانقه ولكنه وقف متهيئاً فقال له روكامبول : لا بأس ايها
الشيخ تقدم وعانقني .

فهم عليه انطوان عند ذلك وعانقه عناقاً طويلاً ثم قال له : تعال معي إلى
نور المصباح كي أرى ما بقي في وجهك من آثار الطفولية .

وبعد أن حديق به انفك راجعاً وهو يقول : عجباً إنه لا يوجد في
وجهك أقل أثر من ملاحك القديمة ولو رأيتك خارج القصر لاستحال علي
أن أعرفك .

فقال روكامبول : أما أنا فقد عرفتك ، أتعلم انك لا تزال كما كنت في
عهد الشباب ؟

— ومع ذلك فاني قد تجاوزت السبعين من عمري .
وكان لا يزال يحديق به فقال : من الغريب انك لا تشبه نفسك في شيء حين
كنت في عهد الحداثة .

فخفق فؤاد روكامبول وقال في نفسه : أيجسر هذا الأبله على فضيحتي .
وعند ذلك قطع فابيان كلام انطوان وقال لروكامبول : إذن فلا تعرف
صاحب هذه الرقعة .

— كلا .

— غير ان الخادم يوسف يقول إن هذا الفق كان امرأة متنكرة بشباب
الغلمان .

إني لا أعلم شيئاً من تلك الألغاز وفي كل حال فقد أحسن انطوان بتقديم شكواه الى الحكومة .
- وأنا من رأيك .

ثم أعطاه رقعة الزيارة التي تركتها باكارا ، فلما وقع نظره عليها علم في الحال انها الرقعة التي كان يستعملها حين كان يدعى باسم ذلك المركز البرازيلي وان أشائر المركيزية نفسها وقطع الرقعة والحروف المطبوعة عليها ولون الورق كل ذلك واحد
بعد ذلك بساعتين كان روكامبول في غرفته يمشي فيها ذهاباً وإياباً بخطوات غير موزونة ..

وكان يقول في نفسه : لم يعد لدي شك الآن بأن ذاك الفتى الأشقر الذي جاء الى القصر وتسمى بالاسم الذي كنت أدعى به من قبل ، وسرق رسم المركيز دي شمري القديم لم يكن من الفتیان بل كان امرأة وان تلك المرأة لم تكن إلا باكارا .
وعندما خطر في باله ذلك الحاطر وقف خائفاً وداخل فؤاده شك هائل فقال :
لماذا سرقت صورة المركيز ؟

وفي الحال إنتقل بتصوره الى المركيز دي شمري الحقيقي الذي تركه ملفى في الحفرة في الجزيرة ، ينتظر أن ينتشل منها ، وكان يعتقد أنها ستكون قبراً له لصعوبة خروجه منها فقال في نفسه وهو يرتعش : أيمكن أن يكون ذلك المركيز قد نجا من الموت وعاد الى باريس ؟ وإلا فما قصد باكارا من سرقة الصورة ؟

وعند ذلك طرق باب غرفته وكان الطارق انطوان فأذن له روكامبول بالدخول فدخل وكانت وكانت الساعة قد آذنت بانتصاف الليل .
فقال الوكيل : أرجوك يا مولاي معذرة لدخولي إليك في تلك الساعة المتأخرة ، ولكنني أسمع خطواتك من ساعتين ، فعشيت أن تكون محتاجاً

الى شيء .

فابتسم له روكامبول وقال له : لست بحاجة إلى شيء الآن .
فحاول ان يخرج غير ان روكامبول أوقفه وقال له : اجلس أمامي
لنتحدث .

فجلس انطوان وعاد إلى التحديق بروكامبول وقال : عجباً ما هذا
التغيير الذي طرأ عليك فان المرء مهما تغيرت ملامحه فلا بد أن يبقى له شيء
من الملامح القديمة .

فجعل روكامبول يحدق بذلك الشيخ بدوره وقال : وأنا لم يبق لي شيء من
تلك الملامح .

— كلا فاني لا أجد منها أثراً لا في ابتسامتك ولا في نظراتك حتى ان لون
عينيك قد تغير وهو من الغرابة بكان فان لون العين لا يستحيل كأنما قد غيورك
في الهند كما يبدلون الأحداث في مهورهم .

فضحك روكامبول ضحك الساخر وقال له : لا شك إنك مجنون !
ثم انه جلس على كرسي وقال له : أعني على خلع حذائي ودعني بعد ذلك
وشأني فاني أريد ان أنام .

ومد له رجله اليمنى فركع انطوان وعالج الجزمة التي كان يلبسها روكامبول
فأخرجها من رجله وانكشف من تحتها بطة ساقه .

وكان على المستوقد مصباحان ينبعث منها نور متألق ، فجعل انطوان
يعن النظر في ساق روكامبول ثم خرجت من فمه صيحة تشير الى الدهشة
العظيمة والإنكار .

فسأله روكامبول : ماذا أصابك ؟

— تقول ماذا أصابني . اليس هذا ساقك الأيمن ؟

— دون شك .

— إنه كان يوجد على هذا الساق بين البطة والركبة اثر لا يمحي ولا يزول .

— لا شك إنك مجنون قم وامض عني .
 — كلا لست بمجنون فأين ذاك الأثر ؟
 — إنه قد زال مع مرور الأيام الا تعلم ان آثار الندوب والجروح تزول من
 الأجسام بتوالي الزمن عليها ؟

فلم يبق ريب عند ذلك لدى ابطوان ، فوقف وقال له : لقد كذبت
 فان ذاك الأثر لم يكن جرحاً او ندبة ، بل كان بقعة حمراء خلية في ساقك
 لا يمكن زوالها .

فهاج غضب روكامبول وقال : ويحك ايها الشقي أتجسر على تكذبي ؟
 فصرخ الشيخ يقول : إنك لست بمولاي وما انت المركيز دي شمري .
 فانقض كلامه على روكامبول إنقضاض الصاعقة وخشي الفضيحة ، ولكنه
 تجلد وقال له ليس ما يعني ايها الوقح ان أرمي بك النافذة لولا حي لك ولو
 لم يكن لك علي حق التربية .
 غير ان ابطوان قد تغلبت عليه عواطف العدوان فقال له : إذا كنت المركيز
 دي شمري كما تقول فاكشف عن صدرك امامي .
 — لماذا ؟

— اكشف عن صدرك .
 — أتأمرني امرأ ايها الوقح .
 — أعلم يا سيدي انه إذا اتضح اني كاذب فلك ان تعاقبني بما شئت ، وإذا
 ابيت ان تكشف عن صدرك امامي ناديت جميع من في القصر وقلت امامهم انك
 لست بالمركيز .

فكان لذاك الانذار تأثير شديد على روكامبول فلم ير إلا الامتنال للشيخ ،
 ففتح صدره وفك ازرار قميصه ثم كشف عن صدره فأخذ ابطوان المصباح
 بيده وجعل يتمعن في ذلك الصدر المكشوف حتى اذا اتم فحصه ارجع المصباح
 الى موضعه وقال له متهمكاً إنك لو كنت المركيز دي شمري حقيقة لوجب

أن يكون لك ثلاث شامات تحت ثديك الأيسر فما أنت غير مزور محتال ولا بد أن تكون فتكت بالركيز أيها القاتل السفاك .

وعند ذلك ابتعد عنه وحاول أن يصيح مستغيثاً فأنقض عليه روكامبول وقبض على عنقه وجعل يقول له : اصمت واسمع ما أقول .

- ١١ -

غير ان الشيخ كان يحاول الافلات منه ويصيح بصوت المختنق لشدة الضغط عليه فيخرج متقطعاً كالأنين ، فلما رأى ذلك منه روكامبول خلع عنه رداء المركيزية وعاد لصبا سفاطاً ، فضغط على عنق الشيخ ضغطاً شديداً حتى جعل الزبد يخرج من فمه وجحظت عيناه ولكنه مع ذلك كان يدافع دفاعاً شديداً بالرغم عما يتطلبه منه من الضعف غير ان أيدي روكامبول كانتا قد نشبتا في عنقه كما تلتشب الكلاب فلم يستطع صراخاً ولكنه لبث يشن

وعند ذلك دقت الساعة مشيرة إلى انتصاف الليل وكان جميع من في القصر نياماً فقال له روكامبول كفاك تمناً أو أقتلك ، وإذا قتلتك فلا يشعر بي أحد لأن الجميع نيام .

غير ان الشيخ لم ينقطع عن الدفاع ومحاولة الاستغاثة فجذبته روكامبول والقاء على الأرض ، ثم وضع ركبته فوق صدره ويداه لا تزالان على عنقه وقال له : إنك ترى نفسك تحت رحمة يدي فإذا لم تنقطع عن الصراخ خنقتك دون إشفاق .

فلم يستطع الشيخ أن يجيبه ولكنه نظر اليه بعينيه الجاحظتين نظرة ملؤها الاحتقار وحاول أن يتخلص ايضاً .

وحاول روكامبول أن يجرب معه التمليق فقال اني أجعلك غنياً فأعطيك

مائة الف فرنك وأهبك المنزل الذي في آخر البستان إذا طاوعتني فيما أريد فإن
المركز مولاك قد مات ، وأنا هو المركز الحقيقي لدى جميع الناس ومهما
تقل فلا تجد من يصدق أقوالك ... قل الآن أترضى بما وعدتك به وتكتم
هذا السر ؟

ثم أفرج قليلاً عن عنقه كي يسمع جوابه فلم يجبه بغير هذا القول : إلى
الوراء أيها القاتل السفاك إلى الوراء .
فقال له روكامبول : إذن فلم يعد بد من قتلك فاستعد للموت ثم ضغط على
عنقه ضغطاً شديداً وهو لا يستطيع حراكاً لأن ركبته ذلك اللص كانت فوق
صدره ولكنه لم يخنقه .

وكان جميع من في القصر نياماً كما قدمنا ولما كان هذا الشيخ المسكين لا
يستطيع حراكاً ولا صراخاً كان الوقت فسيحاً لروكامبول للامعان فيما هو فيه
فذهبت عنه آثار الرعب وعادت اليه سكينته المعتادة فقال للشيخ :

- اني في شرح الشباب وأنا قوي الساعد متين العضل كما ترى فلا رجاء لك
بالخلاص مني لأنك عارف بسرري ولا يجب أن يعرفه أحد سواي ، إذن فلا بد
من قتلك وسأفكر بطريقة موتك :

وعند ذلك جعل روكامبول يقول في نفسه : إنني إذا قتلته بالخنجر أو
خنقته بيدي فلا بد أن يروا في الغد أثر الخنجر في صدره أو أثر اليدين
في عنقه .

وفيا هو يفكر شعر ان دبوس رباط رقبته قد برز منه صعداً ولمس عنقه .
وكان هذا الدبوس قد أوحى اليه فكرة هائلة فابتسم ابتسام الظافر لفكره
الجهنمي وقال له ستموت أيها الأبله من يدي وسيحسب الناس انك مت
بالسكتة الدماغية .

وفي الحال أدار ذلك الشيخ المسكين الذي انتهكت قواه فقلبه على بطنه
وركع على ظهره وكان بالقرب منه نخدة السرير فوضعها تحت فمه كي يمنع عن

الصباح ، ثم قبض على عنقه من القفا بيده اليسرى وأخذ بيده اليمنى الدبوس من صدره فشكه في نحه .

فانتفض الشيخ انتفاضاً هائلاً ألقي روكامبول طريحاً على الأرض ونهض لحظة ثم انقلب صريعاً لا حراك به فان الدبوس اخترق نخاعه وأماته في الحال . اما روكامبول فانه أسرع اليه والرعب ملء قلبه لخوفه من صياحه فوجده لا حراك به ، وعند ذلك اطمأن باله فأخذ المصباح بيده واجتذب الدبوس من منح ذلك الخادم الأمين .

وكان الدبوس قد ثقب في نحه ثقباً رقيقاً بقدر جرمه ، لا يبدو أثره للعين ، ولم يسلم غير نقطة صغيرة من دمه البريء فمسحها ذلك السفاك بيده وأعاد ترقيب شعور الشيخ البيضاء إلى ما كانت عليه فاخفت أثر الدبوس أتم الاختفاء .

ثم قال في نفسه : إن سر هذا الموت لا يدركه غير حكيم ماهر وهوسيخفى على طبيب هذه القرية الحقيرة لأنه دون شك دجال فاذا قلنا أمامه أنه مات بالسكتة الدماغية وافق على قولنا أتم الموافقة .

وبعد أن مسح دبوسه وأرجعه إلى مكانه اقبل يفحص عنق الشيخ وقبضتيه فما وجد فيها أقل أثر يكشف حقيقة ما كان بينهما فوقف ينظر إلى وجهه المصفر وقوف الظافر المطمئن ، ثم ابتسم ابتسام الأبالسة وقال : لقد أخطأ من يقول إن حسن الذاكرة من نعم الله ، فان هذا الأبله لم يقتله غير ذاكرته إذ انه لو لم يذكر ذلك الأثر في سائر المركيز وتلك الشامات في صدره لما قضي عليه بالموت ولأبقيته حياً يتمتع بالوكالة عني في أملاكي

ولما أنتهى من تأبينه حمله إلى زاوية الغرفة وغطاه ثم قال لنبحث الآن في هذه الحادثة الحاضرة فانه يجب قبل كل شيء أن أضع هذا الرجل في غرفته وعلى فراشه إذ يجب أن يجدوه ميتاً فيها ، ولكن أين هي غرفته فاني لا أعرف شيئاً من أحوال هذا القصر فلنبحث .

وخرج من غرفته وبيده المصباح فأقفل بابها وأخذ مفتاحها من قبيل الحذر وجعل يمشي في الرواق مشي اللص الخائف .
وكان روكامبول قد تنكر منذ عامين بزي الشهاد وأتى الى القصر مستطعماً أحواله فعرف كل شيء من أمره ولكنه لم يخطر في باله انه سيضطر إلى قتل وكيله فلم يهتم بمعرفة المكان الذي ينام فيه هذا الوكيل المنكود .

وكان يعلم ان الخدم ينامون في الدور الثاني ولكنه كان يرجح ان انطوان بصفته وكيلًا في القصر يميز نفسه عن الخدم وينام في الدور الأول لاسيا بعد غياب مواليه عن القصر أعواماً طويلة .

فلما بلغ إلى منتصف الرواق وقف وبيده المصباح وقال في نفسه : إن هذا الأبله قد طرق باب غرفتي ودخل عليّ وقال : انه كان يسمع صوت خطواتي فلا بد إذن من ان تكون غرفته ملاصقة لغرفتي وإلا فلا سبيل له إلى سماع صوت .

فدنا من الغرفة المجاورة فرأى فيها نوراً ضعيفاً فأطفأ مصباحه واقترب من الباب فوضع عينه على ثقب القفل وجعل ينظر من خلاله موجودات الغرفة فكان أول ما رآه طاولة كان عليها مصباح ورأى بجانب المصباح علبة للتبغ ذكر انه رآها بيد الشيخ في أول الليل .

ثم نظر إلى الجدار فرأى معلقاً عليه أسلحة وملابس ورداء طويلاً كان رأى الشيخ مرتدياً به فلم يبق لديه شك ان الغرفة غرفة القتل .

فأصغى أتم الاصغاء كي يعلم إذا كان يوجد أحد في الغرفة ولما وثق من خلوها دفع الباب ودخل ففحص الغرفة فحسباً مدققاً ووجد على الطاولة جريدة ملفوفة بقطعة من الورق مطبوع عليها هذا العنوان : إلى الموسيو انطوان وكيل قصر الاورنجري « فلم يبق لديه شيء من الشك ، فأثار مصباحه وخرج إلى غرفته فحمل القنيل على كتفه وجاء به إلى الغرفة فجرده من ثيابه والبسه ملابس النوم ووضعه في سريره وفتح الجريدة فقلب صفحاتها ثم القاها الى الأرض كي

يقال انه كان يقرأ قبل ان يموت هذا الموت الفجائي .

ولم يبق عليه الا صعوبة واحدة وهي إقفال الغرفة من الداخل والخروج منها كي لا يبقى مجال للشك انه مات حتف انفه وبعد الامعان رأى فوق الطاولة التي بازاء السرير نافذة واحدة فصعد إلى الطاولة وفحصها فوجد أنها تشرف على الرواق ففرح فرحاً وحشياً ونزل فأقفل باب الغرفة من الخارج ثم عاد الى الطاولة فصعد منها الى النافذة وسقط الى الرواق .

فلما وصل الى حجرته اطمأن خاطره وتهدأ تنهد المنفرج بعد ضيق شديد وقال ليس من يشك في الغد ان هذا الشيخ قد مات بالسكتة الدماغية ثم عاد الي كتاب خطيبته ابنة الدوق يتعزل بمانيه ويعمل النفس بما سيناله من الوجاهة في البلاط الاسباني وبتلك السعادة التي سينالها كأن يسده الأثيمة لم تسلطخ بدم ذلك القليل المنكود .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي دخل روكامبول الى غرفة صهره وهو باسم الثغر وعلية ملامح السعادة والهناء فدفع كتاب خطيبته الى صهره وقال له : ما رأيك في هذا الكتاب ؟

فأخذه فابيان وجعل يقرأه بامعان وهو يتبسّم فلما أتم قراءته قال له : أرى انه يجب أن تغدو اسبانياً في أقرب حين .
وفيا هما يتباحثان إذ أقبل عليهما خادم وعلية ملامح الذعر فاخبرهما بوفاة انطوان .

فأجفل روكامبول وقال له : ويحك كيف مات هذا الخادم الأمين ؟
- اننا وجدناه يا سيدي ميتاً في غرفته وهو في فراشه .

فقال روكامبول وقد أخذ الكدر منه كل مأخذ ، مسكين فلقد مات مسروراً بي وما قتله إلا الفرّح

ولنعد الآن الى اسبانيا حيث تركنا فرناند روشي مع امرأته هرمين في قاديس بعد أن علما من قومندان الميناء ما ذكرناه بشأن المركيز دي شمري الحقيقي فنقول :

أنه بعد مضي خمسة عشر يوماً على ما تقدم كانت سراي الحكومة في قاديس مزينة أجمل الزينة ، والشعب الاسباني تتقاطر جماهيره في الشارع المؤدي الى السراي .

وذلك لأن الملكة كانت تقيم في ذلك الشهر منذ خمسة عشر يوماً للاستحمام بمياه البحر وكانت قد وعدت المجلس البلدي بحضور حفلة أعدها لمساعدة فقراء المدينة .

فبدأت المركبات تتوارد الى السراي منذ الساعة التاسعة صباحاً فتنزل من فيها من الزائرين والزائرات ثم تعود فتقف في مواضعها المعينة .

وكانت الحفلة حفلة رقص اختلفت فيها أزياء المدعوين وقلدت فيها ملابس جميع العصور والشعوب بحيث بائت مناظر تلك الأزياء الغريبة مما تدهش الأبصار .

وكان نظام تلك الحفلة ان الرقص يبدأ الساعة التاسعة ويسوغ للراقصين والراقصات ان يلبثوا متنكرين الى منتصف الليل وعند ذلك تحضر الملكة فتسفر البراقع عن جميع الوجوه احتراماً لجلالتها إذ لا يسوغ ان يقف أحد من رعيته امامها موقف التنكر

فلما دقت الساعة التاسعة أقبلت مركبة يظهر من شكلها انها فرنسية الى السراي وخرج منها رجلان وامرأة فكان أحد الرجلين متنكراً بملابس رجال البلاد في عهد لويس الخامس عشر وكانت المرأة لابسة لباس المركيزات وهي متأبطة ذراعه .

وكان كلامهما سافر الوجه فلما رأهما المتفرجون ذكروا انها رأوهما مرات كثيرة في الملاعب وفي شاطئ البحر والمنتزهات العمومية ، إذ انها كانا فرناند روشي وامراته هرمين .

أما الرجل الآخر الذي كان يصحبهما فقد كان متنكراً بزي حرسى من الحرس الامبراطوري الروسي ، وهو شاب جميل الطلعة لم ينبت الشعر في خديه ، أشقر الشعر ، حاد النظر ، تدل هيئته على الثبات وقوة الارادة ، وكان أيضاً كرفيعة مسفر الوجه .

فلما دخل إلى القاعة الاولى بعد فرناند وامراته ، أهدقت به الأبصار لجماله ، وقال اسباني من المدعوين الى الحفلة لرفيق له :

- من هذا الفقى المرتدى بلباس الحرس الروسي ؟

فأجابه رفيقه : انه روسى حقيقة .

- ماذا يدعى ؟

- انك تسأل سؤالاً يصعب الجواب عليه فإن اسمه ينتهى بلفظة « سكي » أو « أوف » كثير الحروف ، بحيث يستحيل التلفظ به إلا بعد حفظه مرات كثيرة .

- ومضى قدم إلى قاديس ؟

- منذ ثلاثة أيام ..

- وأين يقيم ؟

- فى فندق استيري ولا تسألنى غير ذلك فإن هذا كل ما أعلمه .

- الحق انه بارع الحسنى يفضل بجمالها النساء .

وبينما كان الاسبانيان يتحدثان بشأن هذا الحرسى كان ذاك الفقى الجميل يطوف فى قاعات السراي مع فرناند وامراته وهم يبحثون عن قومندان الميناء العسكري .

فلما عثروا به تبادلوا اللحية ، ثم أخذ الروسي القومندان وسار به إلى

حديقة السراي، وجلسا في محل منفرد لم يكن فيه أحد ، ودار بينهما الحديث
الآتي فقال الروسي :

- أنجحت في مهمتك ؟

- نعم يا سيدتي .

- لا تنادني بألقاب النساء ، ثم لنتكلم باللغة الفرنسية مبالغة في الحذر .

. ليكن ما تريد .. عفواً فقد غلطت وليكن ما تريد ..

- قل الآن ما فعلت .

- ذهبت في هذا الصباح ، إلى القصر الذي تقيم فيه الملكة والملك
فالتهمست من جلالاته ، أن لا يسألني عن السبب ، ونلت منه حرية الاجراء ،
وذلك بعد أن قلت له ان شرف أسرة من أعرق أسرات البلاد الاسبانية
نسبياً يتعلق على تصرفي هذا ، فاسمعي الآن بيان الخطة التي عزمت على
أن أتبعها .

- قل لنرى .

- انه سيحضر الآن فيتجول بين الراقصين والراقصات وهو مقنع الوجه
إلى أن ينتصف الليل فيترك الحفلة وينصرف .
- وبعد ذلك .

- يعود إلى الحفلة بعد انصراف الملكة ..

- ويزيح القناع عن وجهه ؟

- كلا إذ لا يوجد كثير من الناس .

- إذا كان الأمر كذلك فلماذا تريد أن يبرح الحفلة عند حضورها ويعود
بعد انصرافها ؟

- ذلك لأنه مهيا كانت براءته تامة جليلة في أعيننا فانه لم يتبرأ بعد تبرئة
رسمية ، وإذ كان لا يزال من المجرمين في عين القضاء فلا يحمل حضوره حفلة
تحضرها الملكة فإن ذلك يحسب إهانة لها وللقضاء .

- لقد أصبت ، وأما هي فماذا يكون من شأنها ؟
 — إنها تبقى في الحفلة بعد ذهاب الملكة .
 — أنحضر حفلات الرقص بالرغم عن واجب الحداد ؟
 — نعم ولا جناح عليها في شيء فان جلالة الملكة قد عيبتها بين نساء بلاطها
 وحيث تكون الملكة يجب عليها ان تكون واما بقاءها في الحفلة بعد ذهاب
 الملكة فستأمرها الملكة بالبقاء دون ان توضح لها الأسباب .
 — ألم تسألك الملكة شيئاً ؟
 — كلا فلاني جشوت أمامها وقلت لها ان ما التمسه من جلالتهك سيدنقذ من العار
 أنبل أسرة اسبانية فاكثفت بذلك ولم تسألني شيئاً .
 فقال الروسي إن الأمور تجري في خير المناهج
 ثم أخذ برقعاً مخملياً من جيبه ووضعه على وجهه الجميل وقال للقومندان :
 دعني أفسارك الآن فاني ذاهبة لمراقبة ذاك الرجل الذي تحميه إنما
 قل لي : أنت واثق من ان الفتاة لابسة ثوباً أسود وعلى كتفها
 شريطة حمراء ؟
 — كل الثقة .
 — وهو ماذا يلبس ؟
 — إنه يبقى بثوبه العادي ولما كان البرقع يستر وجهه فلا يعرف أحد حقيقة
 أمره ويحسبون انه متنكر بلباس المجرمين .
 ثم دخل الاثنان إلى قاعات الرقص وهناك افترقا ، فذهب القومندان
 يبحث عن فرناند روشي وامراته ، وذهب الروسي الى القاعة الأولى التي لا بد
 لكل مدعو من المرور بها حين قدومه وجعل يراقب عند بابها وهو مقنع الوجه
 لا يعرفه أحد .
 وأقام عدة دقائق يراقب في هذا الموقف ، إلى ان دخل رجل استلفت
 أنظار الحضور بلباسه الغريب ، وجعلوا يتحدثون بأمره وكلهم ينظر اليه

ضاحكاً ممجياً .

وكان ذاك الرجل ربعة القوام تدل خطواته وثبات أقدامه وسرعة انتقاله على انه لم يتجاوز عهد الشباب ، وهو مقنع بقناع كثيف يحجب وجهه عن العيون .

على ان جميع حركاته وشكل سلامه كانت تدل على انه من كبار النبلاء .

أما الذي كان يدعو الناس إلى العجب منه فانه كان مرتدياً بلباس المجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة

فكان أحد الحاضرين يقول : ما هذا الثوب الخفيف ؟ ويقول آخر : لا شك انه إنكليزي إذ لا تخطر هذه الغرابة إلا في خواطر الانكليز .

واتفق في ذلك الحين مرور القومندان فقالت له إحدى السيدات على

سبيل المزاح : الملك يا حضرة القومندان دعوت محابيسك لحضور الحفلة ؟

نعم ولكن اطمئي يا سيدي لأني ما دعوت إلا أعقلهم ولا تخشي هذا المجرم لأنه من الأشراف .

ثم تركها القومندان وانصرف ومشى المجرم أيضاً فصار بأفرو الروسي حق

إذا بلغ القاعة الثالثة وضع الروسي يده على كتف المجرم وقال له :

— أتلعب لعبة الباكرا يا سيدي ؟

فارتعش المجرم وأجابه بصوت منخفض : نعم يا سيدي .

— إذن ، اتبعني .

ثم تأبط ذراعه وسار به الى قاعة لم يكن فيها رقص وكان فيها بعض المدعوين

يتكلمون بأصوات منخفضة .

وكان بينهم امرأة لابسة لباساً أسود وعلى كتفها شريطة حمراء ولكنها

جالسة بمنعزل عن الحاضرين لا تكلم أحداً فدل الروسي المجرم عليها وقال له :

تمال معي اليها .

وكانت هذه الفتاة غائصة في بحار من التأملات العميقة فلما شعرت بدنو

الرجلين منها ، ورأت ملابس ذلك المجرم ذعرت لمراه ، وبدت عليها
علائم الخوف .

فقال لها الروسي : لا تخافي يا سيدتي فان المجرمين الذين يحضرون مثل هذه
المراقص لا خطر منهم .

فاطمأنت الفتاة وابتسمت معجبة بهذا اللباس وجلس الروسي بازائها فقال
لها : إنك أتيت يا سيدتي من فرنسا قريباً اليس كذلك ؟

فانذهلت الفتاة لأنها كانت متذكّرة أشد التذكّر ، وقالت له : العلك
تمرفني ؟

- نعم وإذا كنت تريدني فأني أذكر لك اسمك
ثم دنا منها وقال لها همساً : إنك تدعين يا سيدتي كونسبسيون دي سالانديريرا
ولم أتجاسر على الدنو منك إلا لأنك قادمة من فرنسا .

فجملت، ابنة الدوق تنظر اليه متمعنة وقد خيل لها انها سمعت هذا الصوت
من قبل ثم قالت العلك فرنسي ؟

- إني روسي كما ترين من ملابسني التي البسها ، وأما صديقي هذا ...
ثم أخذ بيد المجرم وقدمه لابنة الدوق سالانديريرا قائلاً : إن هذا المجرم من
أشرف العائلات .

فانحنى المجرم أمامها باحترام شديد أزال ما بقي في فؤادها من آثار الرعب
لمنظره فردت تحيته ودعته إلى الجلوس بجانبها .

فنهض الروسي عند ذلك وانحنى أمام المجرم وهمس باذنه قائلاً : إياك على
الأخص ان تذكر أمامها اسمك . ثم تركها ومضى

فلما خلا المكان بالمجرم وابنة الدوق دار بينهما الحديث الآتي ، فقالت الفتاة :
- إذن ، أنت فرنسي ؟

- نعم يا سيدتي .

- وأنت قادم من باريس دون شك ؟

- إني لم أر بلادي يا سيدتي منذ عشرين عاماً وأأسفاه !
- إذا كان ذلك فكم يكون عمرك ؟
- سأبلغ الثلاثين بعد بضعة أشهر .
- إذن فقد غادرت بلادك وأنت في العاشرة من عمرك ؟
- وأأسفاه هي الحقيقة ما تقولين .
- وسكنت في اسبانيا بعد ذلك ؟

فارتعش الجرم وقال : إني لم أعرف اسبانيا إلا منذ إحدى عشر شهراً وأنا في قاديس غير اني قبل ذلك ... ثم وقف متردداً .

- قل يا سيدي اني مصفية اليك .

فقال بصوت فيه لهجة الكتابة أثر على ابنة الدوق تأثيراً عظيماً : إنسه قد يتفق يا سيدي وجسود امرأة تحضر حفلة راقصة وهي بلباس الحداد ، كما تفعلين ويتفق أيضاً وجود رجل في هذه الحفلة لا يحق له لبس الحداد كما اتفق لي

.. ماذا تعني بذلك ؟

- أريد يا سيدي ان حزني شديد يخترق أعماق القلب ولا يدري به أحد .
- إذن فقد تعذبت كثيراً ؟
- ولا أزال أتعذب .

وقد قال تلك الكلمات الأخيرة بلمهجة حزينة اضطرب لها قلب الفتاة ، ولكنه أسرع بعد أن تنهد الى الحديث فقال : لقد التمسيت يا سيدي أن أقدم اليك فانك قادمة من العاصمة التي طالما حن قلبي اليها ، ولا أحب إلي من الكلام عن ذاك الموطن العزيز الذي تركت فيه من أحب فلقد ذكر عن لطفك ما دفعني الى أن أقدم اليك دون ان أتردد او أخشى الخيبة .

وسكت الاثنان بعد ذلك سكوناً قصيراً ، فان ابنة الدوق تضايقت في أمرها حين رأت نفسها منفردة بهذا الرجل الذي اختارها كاتمة لأسراره دون

أن يعرفها ثم كأنما الرغبة الفطرية بالنساء للوقوف على الأسرار دفعتهما إلى الاطلاع على أمره فذهب ما عندها من الوجوم وقالت له: العلي أستطيع خدمتك في شيء يا سيدي ؟

فقال المحرم بلهف : حدثيني يا سيدتي بأحاديث باريس فان اسم هذه العاصمة حبيب الى قلبي .

ولبت الاثنان ساعتين يتحدثان في تلك القاعة الخالية من الراقصين فتحدثا عن باريس وفرنسا وأخلاق الباريسيين ، فان كل كلمة كان يسمعها ذلك المنفي الذي فارق الوطن منذ عشرين عاماً تدعوه إلى العجب والاندھال وتدفعه الى الأسئلة والاستفهام ، فانه كان باريسياً ولكنه لا يعرف باريس ، وكانت فرنسياً ولكنه لا يعرف فرنسا إلا كما يعرفها من يقرأ رواياتها من الغرباء عنها .

غير انه كان حنون الصوت عذب الكلام رشيق التعبير ، فكانت الفتاة تصفي لأقواله وهي تشعر انها منجذبة اليه يجاذب سري .
وعند ذلك دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فارتجف المحرم ونهض مسرعاً .

- ١٣ -

فنظرت ابنة الدوق الى اضطرابه منذهلة . أما المحرم فانه قال لها : عفوك يا سيدتي فاني مضطر الى الذهاب .
- والى اين أنت ذاهب ؟

فوضع إصبعه على فمه وقال : انت هذا سر من الأسرار .
ثم أخذ يدها ، وتجاسر على تقبيلها وقال : إنك لا تبرحين المرقص قبل

الساعة الثالثة

.. لماذا ؟

- لأنني في الساعة الثالثة أكون قد عدت اليه .
ثم الخفى أمامها مسلماً باحترام شديد وانصرف .

فجعلت ابنة الدوق تراقب خطواته الى ان غاب عن أبصارها ، فجعلت تقول في نفسها : ما هذا الرجل وما هذا النظام السري الذي تخضع له القلوب هذا الخضوع فاني ما رأيت وجه هذا الرجل ولا عاشرته من قبل ولا عرفت شيئاً من أمره ، ولكن لهجة صوته الحزينة تميل اليه القلوب ، ولا بد أن يكون قد أصيب بنكبة شديدة أورثته هذه الكتابة الحنونة ، وهو يبالغ في كتمان أمره .

ثم نظرت الى ما حولها فرأت انها وحدها في القاعة فقامت تحاول الاختلاط بالناس . ولكنها ما لبثت ان رأت الفتي الروسي قد دخل وهو لا يزال مقنعاً فدنا منها وقال .

- ماذا فعلت بصديقي ؟

- إنه تركني فجأة حين دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل .

- إني أعلم سر انصرافه في هذه الساعة ، ولكن هذا السر غير مختص بي ولا يسميني إفشاؤه . على انك لو سألتني يا سيدي إفشاء اسراري الخاصة لما تمتعت عن الإباحة لك بها .

- أنت محاط بالأسرار أيضاً ؟

- هي اسرار غريبة يا سيدي .

- وما يهمني اذا كان لا علاقة لي بها .

- لا شيء ولكنها على عكس ما تظنين .

- وأية علاقة لي بأسرارك يا سيدي ، إني لا أفهم ما تقول ؟ ولا أعرف

من أنت ؟

- هذا أكيد ولكننا قد التقينا مرات عديدة في مجالس باريس وأنا أعرف كثيرين من معارفك حتى اني أعرف المخلصين لك أيضاً .

فارتعشت ابنة الدوق وقالت : أصبح ما تقول ؟

- لا ريب فيما أقوله ودليل ذلك اني أقص عليك شيئاً من تاريخ حياتك اذا أحببت .

فقالت له بقلبي : من أنت ؟

- انك ترين أيتها السيدة الحسنة أننا في حفلة رقص يحوز فيها التنكر .

- إذن فلا تقول لي من أنت ؟

- كلا ولكني مقابل هذا الكتان أخـبرك بأمر لا تعلمينها بعد أن تتذكرني كثيراً مما تعلمينه ، مثال ذلك اني أعلم كيف مات الدون جوزيف خطيبك الثاني .

فاضطربت الفتاة واصفر وجهها تحت البرقع وعاد الروسي إلى الحديث فقال :

- وأعلم أيضاً كيف مات الدوق دي مايلي .

وكان روكامبول كتم عنها موت الدوق ، فصرخت قائلة : كيف ذلك أمات الدوق ؟

- إنه مات يا سيدتي في ذات اليوم الذي ذهبت فيه من باريس مع أبويك إلى أرض الفيكونت فابيان لشرائها .

فذهرت الفتاة وقالت : من أنت أيها الرجل العارف بجميع تلك الأمور ؟

- لأنك ترين أيتها الحسنة اني من حرس جلالة إمبراطور روسيا .

- ولكن ذلك لا يدل على اسمك .

- اني أدعى أرتوف .

- أرتوف ؟

- نعم يا سيدتي . فإنك تعرفين هذا الاسم ، وأنا قريب الكونت أرتوف ذلك الشمس المنكود الذي خدعته إمرأته كما يقال . وقد عرفت حكايته دون

شك فإنه ذهب عقله وهو يحاول مبارزة رولاند دي كابلت .
 - لقد سمعت بهذه الحادثة يا سيدي فقد تماقلتها الأفواه .
 ثم قالت بلمهجة الساخر : أما أنت فلا بد أن تكون عرفت تفاصيلها من
 الكونتس أرتوف نفسها ؟

ورأى الروسي ان اسم الكونتس أرتوف قد أثر تأثيراً سيئاً على الفتاة فقال
 لها : إنك إذا أذنت لي يا سيدتي أخبرتك بأمر تجهلينه .
 فقامت له مظهرة عدم الاكتراث : إني أأذن لك فقل ما تشاء .
 أتأذنين لي أيضاً يا سيدتي أن أذهب بك إلى الحديقة ؟
 - لماذا ؟

- لأريك شخصاً تعرفينه ولا يخطر في بالك أنه في قاديس .
 - الحق يا سيدي انك مكتنف بالأسرار والألغاز .
 .. ألم أقل لك يا سيدتي إني أعرف شيئاً من أسرارك ؟

فأظهرت إشارة دلت بها على ربيبها فقال لها الروسي :
 - مثال ذلك إنك كتبت أمس إلى خطيبك المركيز دي شمري .

فخفق فؤاد إبنة الدوق وجعل ذراعها يرتجف تحت ذراع الروسي ولكنها
 كانت تسير معه إلى الحديقة مندفعة بحب الوقوف على هذا السر وكي ترى ذلك
 الرجل الذي قال لها الروسي انها تعرفه وقد خطر لها ان هذا الرجل يمكن ان
 يكون « هو » المركيز دي شمري

وكان الروسي يسير بها إلى الحديقة وفيما هو نازل وإياها على سلم القصر قال
 لها : لا تحسبي أيتها السيدة الحسنة إني أبالغ في ما تريه من التحوط والكتمان
 إلا لأمر خطير .

فضاق ذرع الفتاة وقالت له بلمهجة الجازع : أوضح لي يا سيدي إذنت
 هذه الألغاز .

... ستعلمين كل شيء فاتبعيني .

ثم سار الاثنان في رواق طويل تكتنفه الأشجار من الجانبين ولم يكن يمر به غير بعض المتنزهين .

وكان يوجد في آخر الرواق غرفة أو كوخ من الخشب تغطيه الخضرة ولم يكن فيها غير مصباح واحد معلق في وسط سقفها .

ففتح الروسي باب الكوخ ودخل فتبعته ابنة الدوق فرأت فتاة جالسة على مقعد وهي مقنعة بقناع كثيف ومتنكرة بلباس النور .

وكانت هذه الفتاة تلتظر قدومها دون شك ، كما ظهر من نهوضها

الدوق لأنها لم تكن ترى في تلك الليلة غير أسرار يشكل
، فأغلق الروسي عند ذلك باب الكوخ وقال لابنة الدوق :
إسا الان وحدنا ، وسأريك هذا الشخص الذي قلت لك أنك تعرفينه ،
وفاء للوعد .

ثم أشار الى المتنكرة النورية ، فأراحت البرقع عن وجهها ، ووقفت
بقرب المصباح .

فصاحت ابنة الدوق صيحة اندهال وقالت : من أرى .. الكونتس أرتوف؟

فجعل الفق الروسي يضحك ضحكاً عالياً ثم وقف بازاء تلك التي دعته
بالكونتس أرتوف فأزاح القناع عن وجهه وقال : أنظري إلي أيضاً يا سيدتي
فان في منظري ما يدهشك

فلما رآته ابنة الدوق صاحت صيحة أخرى وجعلت تجيل نظرها بينهما
وقد بدت عليها علائم الاندهال الشديد والحيرة الغريبة ذلك لأنها كانت ترى
أمامها امرأتين كلتاها الكونتس أرتوف وكلتاها باكارا ، ولم تفرقاً بينهما
إلا باللباس ، فإن إحداها كانت متنكرة بلباس النوريات والأخرى بلباس
حرسى روسي .

فقال لها حينئذ باكارا وكانت هي المتنكرة بلباس الفتيان : أتعلمين ياسيديتي

أينما الكونتس أرثوف ؟

- إني أحسبني حاملة فلا أفقه شيئاً من هذه الألغاز .

- كلا بل أنت في اليقظة

- إذن فقد ذهب عقلي الآن وما أنا إلا من المجانين وإلا فما معنى ما أراه ؟

- أنظري يا سيدتي الى هذه الفتاة فلإنها أختي وهي تدعي ريبيكا ولكنها أختي من أبي فان أمها يهودية .

فنظرت إبنة الدوق عند ذلك الى الفتى الروسي وقالت : إذن انت الكونتس أرثوف بالحقيقة .

وشفعت كلامها بابتسام دل على الاحتقار . فمظم ذلك عند باكارا وعلمت أنها أرادت احتقارها لاشتهار حادثة في باريس فقالت لها : سلي هذه السيدة حق تحببنيك أنها هي التي أحبها رولاند كايلت وكان يحسبها الكونتس أرثوف وليس أنا .

فقالت ريبيكا : نعم أنا هي وقد دفعت الى تمثيل هذا الدور الشائن .

فصاحت إبنة الدوق صيحة جديدة ولكنها لم تكن صيحة اندهاش ذلك أنها رأت بعد ما علمته ان حجاباً كثيفاً قد انجلى عن بعض الحوادث الغامضة لديها غير انها لم تعلم كل شيء بل إنها أوشكت ان تعلم .

ولما كانت هذه الفتاة من نبل الأسرات الاسبانية فقد وبخها ضميرها لاتهامها باكارا بالخيانة فهدت يدها اليها وقالت لها مستغفرة : أسألك العفو يا سيدتي فقد تجاسرت على اتهامك بما أنت بريئة منه .

فابتسمت باكارا ابتسامة حزينة وقالت : لست أنت وحدك يا سيدتي التي تفردت باتهامي بل ان جميع أسرات باريس قد حكمت علي حكماً صارماً لا يطاق

- ولكنها سترجع إلى ما هي مدينة لك به من الاحترام كما رجعت أنا حين تشتهر الحقيقة .

- كلا فلم يحن الوقت بعد .

- لماذا ؟

- لأن لدي مهمة خطيرة يجب أن أهتم بها قبل الاهتمام بنفسي .

ولما رأت باكارا ان انذهال إبنة الدوق قد بلغ أقصاه ، قالت لها :
لا تنذهلي يا سيدتي ، فستعلمين كل شيء وستحمديني لاهتمامي بشؤون
غيري قبل الاهتمام بشؤون نفسي . والآن فاسمحي لي أن أسألك الست
مقيمة مع سيدتي الدوقة والدتك في قاديس ، في منزل قريبك أسقف
غرناطة ؟

- نعم .

- اليس هذا المنزل خارج المدينة وهو على شاطئ البحر تتكسر الأمواج
على جدرانها ؟

- نعم .

- إذن أرجوك ان تكوني على سطح المنزل غداً في مثل هذه الساعة أي بعد
منتصف الليل .

- ولكن ألا تقولين لي ...

- لا أستطيع أن أقول شيئاً الآن يا سيدتي سوى أن أخبرك بانك معرضة
لخطر هائل .

- رباه ماذا أسمع إنك تخيفيني .

- لا بأس فاسمحي لي بالذهاب .

ثم أخذت البرقع وتقمعت به ، فقالت لها الفتاة : ألا أراك بعد
هذه الليلة ؟

- ربما ولكن لا تنسي ان الساعة قد بلغت بعد منتصف الليل .

فارتعشت الفتاة وقالت : ماذا تعنين بذلك ؟

-- أعني ان الرجل المتنكر بملابس المجرمين قد وعدك ان يعود إلى المرقص

في هذه الساعة ويجب أن تقابليه .

— وأية علاقة بيني وبين ذلك الرجل ؟

— ذلك ما لا أستطيع أن أقوله أيضاً إنما حين ترينيه قولي له « إني رأيت الكونتس وانها تأذن لك بأن تقص علي قصاً من حكايتك » .

ثم أشارت باكارا الى اختها ريبيكا ان تتبعها ، فوضعت برقعها على وجهها وعند ذلك حيت باكارا ابنة الدوق وقالت لها . إبقيني في مكانك هذا فسأرسله اليك .

وعند ذلك خرجت الاختان وبقيت ابنة الدوق في موضعها وكانت قد تلاشت قواها لفرط ما سمعت من الفرائب ، لا سيما حين علمت انها معرضة لخطر هائل . فجلست على مقعد في ذلك الكوخ ووضعت رأسها بين يديها وقالت : رباه ! ما هذه الأسرار ؟

وأقامت وحدها عدة دقائق فكانت الأنغام الموسيقية يحملها نسيم الليل فيجتاز بها أشجار تلك الحديقة الغناء فتبلغ إلى مسامعها رخيمة شجية لا يراحمها غير حفيف الاوراق . ولكنها كانت بعيدة عن الإصغاء اليها لانصراف بالها الى حديث باكارا وما أورثتها من المشاغل ، حتى انها أرادت ان تفتكر بمن تهواه نفسها أي بخطيبها المركيز دي شمري فلا تجدد للافتكار به سبيلاً لشدة اضطرابها .

ولم يكن يصغي قلبها إلا لذلك الصوت السري الذي كانت تخرج ذبذباته الحنونة من فم ذلك الرجل الذي تزا بزى المجرمين وهو أشد وداعة من الحمام كما يستدل من لطف حركاته ومن صوته الحنون الرخيم فكان يشغلها من أمر هذا الرجل شاغلان أحدهما ما وجدت في نفسها من الارتياح اليه والآخر شدة توقعها الى الوقوف على حكايته .

وفيا هي غائصة في بحار تأملاتها إذا سمعت وقع أقدام فرفعت رأسها ورأت رجلاً واقفاً على باب الكوخ وكان هذا الرجل هو بعينه أي ذلك المجرم الذي

شغلها هذا الانشغال

غير انه لم يكن مقنعاً كما رأته قبل منتصف الليل ، بل كان حاسر الوجه
فأثرت هيئته على ابنة الدوق تأثيراً عظيماً

وكان هذا المحرم يناهز الثلاثين من العمر وهو أشقر الاحمية أزرق العينين
ينبعث منها أشعة. تمتاز بين الكتابة ومظاهر الذكاء وبجمل هيئته يدل على
السلامة والدعة .

فدنا منها وقبل يدها باحترام وقال لها : ان الكونتس أرتوف يا سيدتي قد
أخبرتني الآن انك في هذا المكان من- الحديقة و ..

ثم تقف ، مه دداً ع. الكلاء فشجعت ابنة الدوق بإبتسامة فقال باضطراب :

ب الكونتس وما قلته لي أنت

بها وقالت له : إن الكونتس

وكان يحاول دون شك ان يبدأ بقص
، حتى رأى ان باب الكوخ قد فتح
، روق عند رؤياه .

ألوانها وشكلها على انه من حراس

ن اضطراب ابنة الدوق بل انه نظر
نمرة ٣٠ لأن كل سجين يستبدل اسمه

ب ان تعود في الساعة الرابعة وان الساعة

الآن الثالثة ونصف فلم يبق لك من الحرية غير نصف ساعة ايها الماركيز .
ولما قال هذا القول بلمهجة الأمر تركه وانصرف فلما رأت ابنة الدوق انه
خرج نظرت الى هذا الشاب الذي دعاه حارس السجن بنمرة ٣٠ ثم دعاه
بالمركيز وقالت له والرعب ملء فؤادها: من هذا الرجل وماذا يريد وماذا ينبغي
من قدومه الى هنا ؟

فأجابها بلطف إنه أتى يا سيدتي يبحث عني
— يبحث عنك أنت ؟

فلم يجيبها الفتى ولكنه رفع الوشاح الذي كان يغطي ساقه وقال لها أنظري
يا سيدتي .

فذهرت ابنة الدوق ذعراً شديداً لأنها رأت سلسلة من الحديد مربوطة في
ساقه وهي قيد المجرمين في السجون وتراجعت الى الوراء .

فقال لها 'بكآبة ولكن دون خجل : إن هذا الرجل يا سيدتي هو
حارسي ، وإن الثوب الذي لبسه لا أريد به التنكر في هذه الحفلة الراقصة
بل اني مجرم حقيقي أكرهت على لبس هذا الثوب واستبدلت اسمي بنمرة فهم
يدعونني نمرة ٣٠ .

-- ١٤ --

ولقد يتوقع القاريء ان يغمى على ابنة الدوق من الذعر ، أو انها
تخاف مما رآته فتصبح وتستغيث وتفر هاربة من هذا المجرم غير انها لم تفعل
شيئاً من ذلك .

وذلك ان هذا الرجل كان مجرمًا حقيقيًا ولم يعد لديها ريب في أمره بعد
ان رأت في رجله القيد .

غير ان لهجته كانت لهجة النبلاء ورواء عينييه يدل على السلامة والخلوص حتى انه عندما أكد لها أنه من المجرمين كان يكلمها بكسابة ونبل تظهر ان شدة بعده عن مواقف الذنوب فهدأ تأثير روعها وقالت : لا بد ان يكون هذا المسكين ضحية أغلاط القضاء وإن له حكاية غريبة فلم يجد سبيلا الى إظهار براءته بما هو متهم به .

وقد استحال نفورها منه وانذعارها من قيده الى استئناس به وارتياح اليه فقالت له : لقد رأيت قيدك يا سيدي ولكنني واثقة من براءتك فبأية جريمة قد اتهموك . ثم مدت اليه يدها إشارة الى ارتياحها .

فأخذ يدها وبرقت عيناه من السرور والامتنان وقال : أشكرك يا سيدتي الف شكر لما تفضلت به علي من حسن الظن ولأنك لم تصدقي اني من المجرمين .

— لا يمكن ان أحسبك مجرماً إذ ليس في نظراتك ما يدل على الذنوب أما وقد ثبت لي انك بريء فأرجوك يا سيدي ان تقص علي أمرك بتفاصيله ، بل يجب ان تحكي لي جميع حكايتك فإن لي شفاعة لدى الملكة وسأذهب اليها وأنطرح على قدميها فلا تخيب رجائي .

فابتسم الشاب وقال : أشكرك يا سيدتي فان الوقت لم يحن بعد وفوق ذلك فإن إطلاق سراحي وتبرئتي لا يتعلقان بالملكة .

— رباه ما هذه الالغاز وبمن إذن يتعلقان ؟

— ربما كانا يتعلقان بك دون سواك .

فزاد انذهال ابنة الدوق حتى لم تعد تصدق ما تسمع وقالت له : بي أنا وكيف ذلك ؟ إنني لا أفهم شيئاً مما تقول .

— قلت لك يا سيدتي ربما كان أمري متعلقاً بك وفي كل حال فان الوقت

لم يحن بعد لكشف هذه الغوامض المشككة عليك

— ولكنني أرجوك أن توضح لي شيئاً من هذا فاني أحسب نفسي حاملة أو

أصبحت في عداد المجانين .

- وأسفاه يا سيدتي اني لا أستطيع .
- إذن قل لي على الأقل منذ أي حين أنت في ..
- وتوقفت عن لفظة السجن إذ لم تجسر على قولها .
- فشكرها بالنظر وقال : اني في سجن قاديس منذ أحد عشر شهراً وقد حكم علي بالتكبير بالقيود خمسة أعوام .
- وبأي ذنب أنت متهم ؟
- بالنخاسة يا سيدتي ، وقد كنت في ذلك العهد دون شك في باريس ، ولكن لا بد أن تكوني قرأت في الجرائد أن دارعة اسبانية أسرت سفينة أسوجية شراعية ..
- نعم ، نعم .. أذكر ذلك !
- وكانت هذه السفينة تشتري العبيد فتخبئهم في عنابرهم وتبيعهم ببيع السلع المرغوبين فيهم .
- لقد ذكرت جيداً الآن فإن أبي قرأ لنا هذه الحادثة .
- وقد حكم على ربانها ونائبه وتسعة من بحارتها بالسجن وكنت أنا نائب ذلك الربان .
- أنت .. أنت تحترف هذه المهنة ؟
- فنظر الشاب إليها نظرة ملؤها السوء وقال لها : انك ترين يا سيدتي اني أصبحت مضطراً إلى أن أحكي لك شيئاً من حكايتي .
- ولماذا لا تحكيها بجملتها ؟
- لأنه غير مأذون لي أن أذكر اسمي أو اسم عائلتي ، ولا أن أقول الآن أين صرفت عشرين عاماً خارج موطني .
- إذن قل لي ما تستطيع قوله .
- كنت يا سيدتي منذ عامين مسافراً على سفينة من انكلترا إلى فرنسا وكنت بمنطقاً بحزام علقت فيه حقيبة وضعت فيها اوراق ولادتي وشهادة خدمتي بصفة

ضابط في البحرية الانكليزية فتارت عاصفة شديدة أغرقت السفينة ومن فيها -
ولكنني نجوت من الغرق سباحة وأنقذت معي شاباً كان رفيقاً لي في هذا
السفر وعمره لا يزيد عن عمري ولا ينقص .

وهنا أخبرها بجميع ما جرى له في تلك الجزيرة المقفرة بما عرفه القراء
غير أنه عمل بما أوصته بأكارا فلم يذكر اسمه ولم يشر إلى سرقة أوراقه ، ثم
ذكر لها كيف وجدته البحارة مغمياً عليه وهو بحالة تقرب من النزع لما تولاها
من الضعف من الجوع والعطش ، فأخذوه إلى سفينتهم وعالجوه حتى شفي
فأكرهوه على الخدمة في السفينة بصفة بحار ، ولما رأوا أنه ماهر في المهنة جعلوه
رباناً ثانياً للسفينة .

فحالت له ابنة الدوق وكانت تسمع حديثه باصغاء تام : لماذا لم تقص أمرك
بتفاصيله حين قبضوا عليك ؟

- لقد حكيت كل أمري ولكنهم لم يصدقوني في شيء .
- ألم تقل أنه كان لديك أوراق تثبت مولدك وحقيقة حالك ؟
- نعم .. ولكنني عندما استفتت من اغمائي في السفينة لم أجد تلك
الأوراق معي وهي لا بد والأسفاه أن تكون باقية في تلك الجزيرة .

- أليس لك عائلة في باريس ؟
- نعم أم وأخت ..
- لماذا لم تلجئ إليهما ؟
- لقد التجأت إلى قومندان الميناء وحكيت له جميع أمري فصدق حديثي
وكتب إلى باريس فأجابوه في مناقق مخادع وإن الرجل الذي اتخذ اسمه
موجود في باريس يراه سكانها كل يوم .
- ماذا أسمع .. إن هذا مستحيل .
- ولكنها الحقيقة يا سيدتي .
- ولكن كيف تقول أن ..

وقبل أن تتم كلامها ففتح الباب فجأة وظهر الحارس فننادى نمرته وقال :
هلم بنا فقد بلغت الساعة الرابعة . .
فمنهض الفتى منذعراً فودع ابنة الدوق وشكرها لرفقها به واعتنائها بأمره .
— كيف ذلك ، أتصرف الآن ؟

فقال : لأنه لا بد لي من الانصراف فانهم لم يسمحوا لي بالخروج من السجن
إلا من قبيل المجاملة التي لا يطمع بها أحد المسجونين وقد حان الوقت فلا بد
من الانصراف .

— إذن فسأذهب بنفسى وأرى قومندان الميناء فإنه كان صديقاً حميماً لأبى
التمس منك يا سيدتى ان لا تفعلنى شيئاً من هذا فانهم يسمعون أحمل سمى
فى سبيل انقاذى وكل مداخلة جديدة تسد على منافذ الخلاص .
— لىكن ما تريد ، أفلا أراك بعد الآن ؟
— ربما يا سيدتى وهذا غاية ما أرجوه .

ثم تركها وانصرف مع حارسه وغادر تلك الفتاة قائمة حائرة لا تعلم أفى
يقظة هى ام فى منام .

وقد حملت رأسها بين يديها وجعلت تعيد فى خيلتها جميع ما مر بها من
الحوادث الغريبة وبعد ان امعنت فى التفكير جعلت تسائل نفسها فتقول :

كيف اتفق للكونتس ارتوف ان تعلم امر هذا الرجل وهو قد عاش عشرين
عاماً خارج بلاده ، بل كيف اتفق ان يكون لي دخل فى جميع هذه الحوادث
فقد قال ان تهرئته وحريره يتعلقان بي دون الملكة ، فما المراد بهذه الأقوال
وما معنى هذه الأسرار .

واقامت تمنع الفكرة هنية فلما لم تهتد إلى حل هذه المعميات نهضت
ففادرت ذلك المكوخ وذهبت إلى قاعات الرقص .

وكانت الحفلة قد قاربت النهاية فإن قاعات كثيرة فرغت من الراقصين
وقصرت الشموع حتى أن بعضها ذاب وانطفأ فلم يضعوا بدلاً منه وسكتت

١ - ١ - ١ بقى .

الدوق عند ذلك انها جاءت الى هذه الحفلة بأمر خاص من
ما لها قريبة لها تدعى المربية دورنا جوزيفين
اللعبة في بدء الحفلة ثم انشغلت بباكارا
عادت إلى الحفلة ورأت نفسها وحيدة
عنها فذهبت في البدء الى القاعة التي تركتها

في القاعات إذ نظرت خادماً يطفيء الشموع في
الحال وقالت منذهلة . زامبا
و بعينه هو هذا امامها باحترام وهو يظهر اندهاله ايضاً .
: كيف انت هنا ؟

-- اني خادم غرفة رئيس المجلس البلدي يا سيدتي . .
-- متى دخلت في خدمته ومتى رجعت من باريس ؟
-- منذ وفاة الدوق دي ماييلي . .
فأثر هذا الاسم تأثيراً جديداً على ابنة الدوق فقد ذكر امامها مرتين في
تلك الليلة وفي المرتين ذكر بمناسبة موته .
فنظرت إلى زامبا وهي ترتعش وقالت له : إذن فقد مات حقيقة هذا
الدوق ؟

-- منذ شهرين يا سيدتي .
فنظرت الفتاة الى ما حولها ورأت إن القاعات خالية من الناس فجلست
على كرسي وقالت لزامبا : اخبرني كيف كانت وفاة هذا المنكود .
فابتسم زامبا ابتساماً معنوياً وقال ان الجرائد يا سيدتي نشرت انه
مات بالجمرة الفارسية .
-- ما هو هذا الداء فاني لم اسمع به ؟

- انه مرض يصيب الخيل فيقتلها ..
- وكيف اتصل بالدوق ؟
- قالت الجرائد يا سيدتي ..
- فقاطعته ابنة الدوق وقد طوت مروحتها بسأم وقالت : لا أسألك عن آراء الجرائد بل أسألك عما علمته أنت من أمر موته فانك كنت خادم غرفته .
- هذا أكيد يا سيدتي .
- إذن فأنت تعرف أكثر من الجرائد كيف مات ؟
- هذا أكيد أيضاً ، ولكن لا بد لي أن أذكر لسيدتي ما قيل ا
- قل ماذا يقولون .
- إن الدوق كان عنده جواد مولع به ولعاً شديداً وقد أصيب هذا الجواد بداء الجحمة . وكان الدوق مفرطاً في حبه فكان يعتني به اعتناؤه بنفسه دون ان يحذر ، فاتصل به المرض بالعدوى فمات وهذا ما كانت ترويهِ الجرائد ويتناقله عنها الناس ..
- .. أليست هي الحقيقة أم ان الدوق مات بغير هذا المرض الغريب ؟
- هي الحقيقة بعينها يا سيدتي غير ان العدوى ما سرت اليه من الجواد ..
- أوضح يا زامبا فاني لا أفهم ما تقول ..
- ان الدوق يا سيدتي قد مات بالجحمة كما مات الجواد الا أن كلا من الدوق والجواد أصيبا بالمرض كل على حدة دون أن يعدي أحدهما الآخر وان يكونا قد ماتا بمرض واحد
- كيف ذلك ؟
- لأن الجواد قد شك بطنه بدبوس طويل يحمل مكروب هذا الداء من بطن جواد ميت كان مصاباً فيه .
- والدوق ؟
- أما الدوق فلمنه كان في اليوم نفسه جالسا على مائدته يكتب رسائله ،

فلما فرغ من الكتابة وحاول النهوض استند بيديه على الكرسي الذي كان جالساً عليه وصاح صيحة ألم سمعتها لأنني كنت في الغرفة المجاورة فأسرعت إليه ووجدت أن الدم يسيل من إحدى يديه .

وتوقف زامبا عند ذلك وجعل ينظر إلى ابنة الدوق فعلم أنها لم تفهم شيئاً فاستطرد حديثه قائلاً : وقد سال الدم من يده يا سيدتي لأنها أصابت دبابيس كانت مشكوكاً بسادة الكرسي وكانت الدبابيس تحمل أيضاً ذات المكروب الذي أصيب به الجواد .

— عجباً ومن الذي شك الدبابيس في كرسيه ؟

— أنا .

— أنت .. كيف أنت .. إذن فلا بد أن تكون وضعتها خطأ .

— كلا يا سيدتي بل قصداً ..

— ماذا تقول أيها الشقي ..

— لقد فعلت ما فعلت يا سيدتي لأنني كنت أكره الدوق كرهاً شديداً بعد

ما علمت أنك لا تحمينه .

فصاحت ابنة الدوق صيحة رعب وإنكار وقد هالها أمر الجريمة لاعتقادها أن هذا الخادم لم يدفعه إليها غير حبه القديم للدون جوزيف وقالت له ويحك أيها الشقي أنت تسرني بقولك أنك ارتكبت مثل هذه الجريمة من أجلي وتظن أنني سأتركك من دون عقاب ، لقد ساء فألك وسرني ما يكون .

فأجابها زامبا بملء السكينة قائلاً : كلا يا سيدتي فاني ما شككت الدبابيس في وسادة الكرسي بغية لإرضائك .

— إذن فلأي غرض شككتها أيها الشقي الحائن العمل الدون جوزيف أوصاك بارتكاب هذه الجريمة قبل موته ؟

— لا هذا ولا ذاك يا سيدتي ..

فسكتت الفتاة سكوتاً قصيراً ثم قالت : إذن فلأي سبب قتلتك العلك

تحمل عليه حقداً خصيصاً ؟

- كلا فإن الدوق كان من نبلاء القوم فلا متسع لأن يحقد عليه حقير مثلي وفوق ذلك فقد كان شريف المبدأ لا يميز بين الخدم والسياد لاعتقاده ان الجميع واحد في الانسانية فكان من المحسنين الي ..

إذا كان ما تقوله صدقاً فما حملك على قتله ؟

- الخوف .

فبهتت ابنة الدوق وقالت له : أي خوف تعني ومن كنت تخاف ؟

- يوجد رجل يا سيدتي يعرف أموراً لم يكن يعرفها غير الله والدون جوزيف وأنا وقد كان هذا الرجل يعرف اني محكوم علي بالاعدام في اسبانيا فكان قادراً بكلمة تخرج من فمه ان يسلمني إلى الجلاد فينزع رأسي .

. ما هذه الأمور الهائلة التي اسمعها ؟

. إن هذا الرجل يا سيدتي امرني ان اقتل الدوق فلم اجد بداً من الامتنال

- من هو هذا الرجل ؟

- لم أكن أعرف اسمه من قبل وقد عرفته في هذه الأيام الا انه لم يؤذن لي أن اصرح به .

- اتكتم اسمه عني ايها الشقي ؟

- إنني اضطر إلى كتمانها مكرهاً الا ان سيدتي إذا شاءت ان تعلم اكثر

مما علمت مني عن وفاة الدوق وكثيراً غير تلك من أمور تجهلها ويهملها ان تعرفها فلتسأل الكونتس أرثوف .

ثم انحنى مسلماً باحترام واحتجب عن الأبصار .

- ١٥ -

وكانت ابنة الدوق قد نهضت عن كرسيها وحاولت القبض على زامبا وإكراهه على الكلام ولكنه افلت قبل ان تتمكن من القبض عليه فسقطت على كرسيها لفرط ما تولاهما من الشواغل بعد تلك المعميات .
وقد كانت اتت إلى هذه الحفلة وهي منقبضة الصدر لوفاة أبيها ولكن قلبها مملوء بالأمل بالمستقبل .

ثم رأت نفسها انها ستخرج من الحفلة والهواجس ملء فؤادها والرعب يفعل في قلبها حتى أوشكت ان تصاب بالحمى وخالت انها حاملة وان جميع ما مر بها من تلك الحوادث الهائلة لم يكن سوى أضغاث أحلام .

وكانت تدور في خيلتها تذكارات ذلك المجرم وتسمع صوته الرخيم يرن في أذنيها فينقبض صدرها إشفافاً لمصابه وحنواً على نكبتة ثم يخطر في بالها أحاديث الكونتس ارتوف ورواية زامبا فتضطرب حواسها وتصاب بذهول عظيم .
إلا انه لحسن حظها قدمت اليها في هذه الساعة المركيزة جوزفين قريبتها بعد ان بحثت عنها في جميع القاعات وفي جميع أنحاء الحديقة وأروقتها فلما رأتها سرت سروراً عظيماً كأنها قد قنطت من لقاءها وقالت اين كنت ايتها الحبيبة ؟

فاظهرت ابنة الدوق مثل اندهالها وقالت لها : إنما كنت ابحث عنك .
- وانا ايضاً لم أدع مكاناً في القصر حتى بحثت فيه اتعلمين ان الفجر قد انبثق ونحن لا نزال في المرقص .

- إذن فلنذهب ..

فنظرت اليها المركيزة على نور مصباح قريب فدعرت لمنظرها وقالت لها :
رباه ماذا اصابك وما علة هذا الاصفرار في وجهك ؟

- اني رأيت احد المدعويين إلى الحفلة بلباس المجرمين

-- وانا رأيته ايضاً فإن زيه من اغرب الأزياء العلك خفت منه ؟
 - لقد خفت خوفاً شديداً لأنني لقيته في الحديقة وكنت اتنزه فيها وحدي
 وقد تخلصت ابنة الدوق بهذه الكذبة من إلحاح قريبتها بالسؤال .
 وكانت مركبتهم تنتظر على الباب فودعنا رئيس المجلس البلدي وخرجنا
 الى المركبة فذهبت بها الى القصر الذي تقيم فيه ابنة الدوق وامها خارج المدينة
 على شاطئ البحر فلما بلغتا اليه ودعت ابنة الدوق قريبتها ودخلت الى
 المنزل اما المركبة فانها عادت بالمركبة الى منزلها في داخل المدينة .
 فلما دخلت ابنة الدوق الى غرفتها رأت خادمتها تنتظرها فيها فأعطتها
 غلافاً فيه كثير من الأوراق .
 فتعجبت الفتاة وقالت . من اين هذا الغلاف ؟
 - لا أعرف يا سيدتي الذي احضرها ولكنها لك .
 - الذي احضرها لي ؟
 -- في الساعة التي ذهبت فيها سيدتي الى الحفلة الراقصة فقد احضرها رجل
 يظهر من ملابسه انه من الخدم فقال لي يجب ان تقرأ سيدتك هذه الأوراق حين
 رجوعها وقد سألته عن مرسلها فلم يجبني وانصرف .
 قالت : دعيني الآن وحدي .
 ثم دنت من المصباح ونظرت الى الغلاف فقرأت عليه بحيرة كبيرة .
 « تاريخ الكونت ارمان دي كركاز واخيه السير فيليام وتلميذ هذا
 الأخير روكامبول » .
 فقالت في نفسها ما عسى ان يكون هذا التاريخ ومن هو السير فيليام
 وروكامبول ؟ فاني ما سمعت بهذين الاسمين ، اما الكونت دي كركاز فلم
 اره الا مرة واحدة فأية علاقة لي بهذا التاريخ وما هذه الغرائب التي تتوارد
 امامي من اول هذا الليل .

ثم فتحت الغلاف فرأت فيه دفترأ ضخماً ورأت ورقة منفصلة عنه مكتوباً فيها ما يأتي :

« عندما يقع هذا الدفتر بيد المدموازيل سالانديرا تكون قد عادت من المرقص ، الذي لا يسد ان تكون وقفت فيه على كشير من الغرائب ، ومرسل هذا الدفتر يلمس منها أن تقرأ جميع صفحاته لخطارتها ولتعلقها بمصلحة مقدسة » .

فقاات في نفسها : انرى ما في هذا الدفتر ا

وكانت تحسب انها ستقرأ فيه حكاية ذلك المجرم الذي رأته في المرقص ، ففتحته وجعلت تقرأ ما فيه بامعان شديد .

وكان هذا الدفتر قد كتبته يحملته يد باكارا ، وهو يتضمن خلاصة تلك القصة التي عرفها القراء منذ قتل والد ارمان الكونت دي كركاز الى ذكر العقاب الهائل الذي عاقبت به باكارا أندريا على السفينة فويلر .

على ان باكارا لم تشر أقل إشارة إلى عودة روكامبول وقد اختفت آثاره في الدفتر حين سفره الى انكلترا

ولبشت إينة الدوق تقرأ حتى الساعة العاشرة من الصباح وهي تغلب النعاس منتصرة عليه بوقائع الرواية الهائلة فما تركت الدفتر إلا بعد ان أتت على آخره وقرأت آخر كلمة منه .

فلما فرغت منه وهي لم تكن تعرف بين جميع أشخاص هذه الرواية غير الكونتيس أرتوف تولاهما الانذهال وجعلت تقول في نفسها : أية علاقة لي بهذه الحكاية ؟ ولماذا أرسلتها لي الكونتيس ؟ إذ لا شك أنها هي التي أرسلتها .

ولم يكن يخطر في بال هذه الفتاة المذراء ان ذاك المركيز الجليل دي شمري التي تبدلت في حبه وأصبحت خطيبته ، كان ذلك اللص السفاك الذي نشأ في خماره مدام فييار ، إذ لا يخطر لأحد سواها ان روكامبول والمركيز دي شمري واحد .

ثم انها لم تجد في تلك الحكاية أقسل أثر لذلك المحرم الذي لقيته في المرقص
فبحارت في أمر هذا الدفتر وضائق صدرها لهذه الغوامض ، وانكشفت نفسها
لكثرة ما قرأت من الجرائم الهائلة فخرجت من غرفتها الى الرواق المطل على
البحر كي تجلي عن نفسها بمنظره الفسيحة صدأ هذه الهموم واستندت على رخام
الرواق وجعلت تسرح أنظارها في تلك المياه الزرقاء .

فكانت مياهه ساكنة هادئة والنسيم بليلا يداعب هذه المياه ، فيعقد فوقها
زرذا ينبعث منظره الصدور والجبال مشرفة عليه تكتنفه من يمينه وشماله مفروشة
ببسط العشب الخضراء والشمس تتوهج وتتوقد فوق المياه فترقص أشعتها الذهبية
لهيمنة النسيم .

وكان فؤاد ابنة الدوق قد ارتاح لهذه المناظر البهية فلنسيته حديث الدفتر
ورجعت بتصورها الى الماضي فانصرفت بأفكارها الى من تحبه وجعلت تعد على
أصابعها الأيام التي مضت على إرسالها اليه كتابها الأخير وتقول لا بد أن
يكون وصل كتابي اليه يوم الثلاثاء ونحن الآن في يوم الجمعة فإذا أجابني عليه حين
وصوله فلا بد ان يرد إلي اليوم كتابه العزيز .

وكانت تناجي نفسها بهذه الأماني وهي تسرح نظرها في عرض البحر المحيط
وتلتبع بأبصارها سفينة شراعية كانت تجول وتحاول الدنو من الشاطئ .

وكانت السفينة جميلة الرواء سريعة الحركات تجري في تلك المياه بخفة الأسماك
فراقها منظرها ودخلت الى غرفتها فأحضرت منها نظارة مكبرة وعادت إلى
الرواق فما أوشكت ان توجهها إلى السفينة وتضعها على عينيها حتى ذعرت
وأصيبت باضطراب شديد .

ذلك ان هذه السفينة كانت لقومندان الميناء وان ابنة الدوق رأت بنظارتها
البحارة فعلمت من ثيابهم الحمراء انهم من المجرمين .

وكانت السفينة تدخل إلى الشاطئ بسرعة والشاطئ يبعد عن مدخل القصر
الذي كانت فيه ابنة الدوق ٣٠ ذراعاً .

وكان المنظار لا يزال بيد إبنة الدوق فلما رأت ان السفينة تدنو اضطرب قلبها ، لأنها رأت جميع من كان في السفينة فلم تعرف منهم غير اثنين وهما قومندان الميناء وهو ، أي ذاك المجرم الذي رآته في المرقص ، فحاولت ان ترجع إلى غرفتها ، غير ان قوة عظيمة تغلبت على إرادتها فلبثت في موضعها طائفة مكرهة .

ولم تعد في حاجة الى المنظار ، فان السفينة اقتربت منها حتى باتت تميز أشخاصها بالنظر المجرد ورأت ان ذلك المجرم كان يتولى قيادة السفينة ورأت انه قد رفع نظره اليها وابتسم فزاد اضطرابها ولم تعد تعلم ماذا تصنع لا سيما بعد أن رأت القومندان يسلم عليها بالاشارة وان السفينة قادمة إلى موقفها خاصة كأنما القومندان يريد زيارتها .

ثم طويت قلوبها وجعل بحارتها يحسدون حتى بلغوا بها الى الشاطئ ، فنزل القومندان وحسب إبنة الدوق بالاشارة ثم صعد اليها ، فلبثت في موقفها تنظر إلى السفينة والى ذلك المجرم فيها ، غير انه كان مطأطأ الرأس كأنه يخشى ان ينظر اليها .

وأقام القومندان معها هنيهة يتحادثان عن المرقص ثم عاد الى سفيلته فأقلعت به . غير ان إبنة الدوق لبثت في مكانها تنظر إلى ذلك المجرم وهي تشعر بعاطفة سرية تجذبها اليه .

وعند ذلك دخلت خادمة غرفتها اليها وأعطتها كتاباً قائلة لها : إنه من فرنسا .

فصاحت إبنة الدوق صيحة فرح ونسيت ذلك المجرم ثم فضت ختام الكتاب مسرعة وهي عالمة انه من روكامبول .

ولندع الآن قاديس عائدين الى روكامبول حيث تركناه وقد فتك بذلك الشيخ المنكود دون ان يعلم بحريته غير الله .
فإن سكان الأورنجري رأوا ذلك الشيخ ميتاً في غرفته فحكوا انه مات فجائياً ودفنوه آسفين عليه وبعد ذلك بأسبوع سافر قاتله المركيز فرديريك ألبرت أولوريه دي شمري إلى باريس .

وقد نهض يوماً مبكراً فجلس على كرسي أمام نافذة تشرف على حديقة القصر وجعل يسرح نظره في مناظرها الجميلة غير ان علائم القلق الشديد كانت بادية في وجهه ثم وضع رأسه بين يديه كأن هذه المناظر الخضراء لم ترقه وجعل يناجي نفسه فيقول .

إنهم سرقوا الصورة وتركوا لي رقعة زيارة طبع عليها اسم كنت أسمى به من قبل في عهد اندريا وارمان وقال الخادم ان الشاب الذي سرق الصورة كان امرأة متنكرة بزى الفلمان ومن عسى تكون هذه المرأة غير باكرا ، وما هذه المعميات العليا واقفة على أسراري ؟

إنها ما عرفتني إلا باسم المركيز دي شمري فهل رأيتني غير مرة بزى آخر فعلت اني روكامبول ؟ وأين ذلك ومتى ؟ فإنها لم ترني غير مرة واحدة وذلك في منزلها وأذكر انها نظرت إلي عرضاً نظرة لم تظهر فيها شيئاً من الاهتمام وهي لو كانت عرفتني فيها لعلمت ذلك من اضطرابها او اندهالها ولكنها لم يبد منها شيء لأنني كنت محققاً بها أراقبها أشد مراقبة فأين إذن رأيتني ؟

ثم إننا لو افترضنا انها عرفتني وانها إذا طاردت المركيز دي شمري فهي تطارد روكامبول ، فلماذا سرق صورة المركيز الحقيقي ؟ العمل هذا المركيز في قيد الحياة ؟

لما بلغ بتصوره الى هذا الحد دعر وجعل قلبه يخفق خفوقاً شديداً ثم قال :

لم يبق لدي ريب انه اذا كان المركيز حياً فقد قضي علي قضاء مبرماً وبت من الهالكين وخير ما ينبغي إجراؤه في هذا الموقف الحرج ان أسرع بمغادرة باريس والسفر الى اسبانيا فأتزوج ابنة الدوق .

وإني أرى كل شيء قد جرى في خير المناهج فان جميع الذين كانوا واقفين على سري وهم فانتير وأندريا وزاهبا ومدام فيبار والشيخ انطوان قد هلكوا وانقضوا وجميع نبلاء باريس يشهدون عند الاقتضاء بأنني هو أنا المركيز الحقيقي ذلك فضلاً عن الأوراق التي تؤكد حقي .

غير انه إذا كان المركيز الحقيقي الذي أحسبه ميتاً قد نفّض غبار الموت ، وإذا كانت باكرا قد اتصلت به فان جميع هذه الحسابات ضائعة .

وعند ذلك سمع ان باب غرفته يطرق فقام الى الباب وفتحه وكان القادم اليه صهره فابيان فقال له :

— يسرني أيها العزيز ان أراك نهضت من الرقاد .

— لماذا ؟

— إذ يجب علينا أن نخرج في الحال .

— إلى أين ؟

— إلى السفارة الاسبانية فقد أعددت كل شيء لتغيير تبعتك ولم يبق إلا ان توقع على الأوراق التي ستعرض عليك .

— لقد عجلت في قضاء هذه المهمة فألف شكر لك .

— ذلك لأنني أحب السعادة ولأنه ينبغي ان تسافر مساء غد الى اسبانيا

— سأذهب دون شك ولكني لا أزال قلقاً على كثرة سعادتي .

— من أي شيء ؟

— من الصورة فان سرقتها لا تزال تقلقني .

— لا أخالفك هذا القلق فان سرقتها تشغل البال .

— إنني أخاف ان تكون إحدى المومسات قد سرقتها وذهبت بها إلى ابنة

الدوق لشأن سافل لان أمثال هؤلاء النساء يقدمن على كل شيء .
 - لا تخشى شيئاً من ابنة الدوق فان قلبها قد ختم على حبك .
 - لا ريب عندي في حبها .
 - حتى انهم لو برهنوا لها غداً ، انك مجرم تستحق السجن ، لما رجعت
 عن حبك .

فضبط روكامبول نفسه عند ذكر السجن وقال : هذا لا ريب فيه .
 وكان روكامبول قد أتم لبس ثيابه عند ذلك فخرج الاثنان الى السفارة
 ووقع روكامبول على جميع الأوراق التي عرضت عليه .
 وقد لقيا في السفارة ذلك الجنرال الاسباني ابن عم قومندان الميناء في قاديس
 وهو ذلك الجنرال الذي قتل الدون جوزيف في منزله في الليلة الراقصة فسلم
 روكامبول عليه وعندما أتم التوقيع على الأوراق قال له :

-- إنني مسافر الى اسبانيا فهل أستطيع خدمتك فيها بشيء ؟
 فابتسم الجنرال إبتسام الحزين وقال له : إنني منفي متطوع لا يريد أن يسمع
 كلمة عن وطنه . ثم قال له : متى عزمتم على السفر يا حضرة الماركيز ؟
 - غداً مساء

- والى أين تذهب ؟

- الى قاديس .

فابتسم ايضاً وقال لفابيان اني أعلم السبب في ذهابه فانه قد عرف الطريق
 الى قلب ابنة الدوق .

- نعم ولكنه يحبها حباً شديداً .

- إذا أردت ايها الماركيز أن أعطيك كتاباً الى ابن عمي قومندان الميناء
 فعلت بارتياح .

- أقبل كتابك بشكر وغبطة .

- ولا أجد بداً ايضاً من أن أحملك كتاباً اليه فقد كتب لي عن حكاية عجيبة

لم أكن لأطلعك عليها لو لم تقل لي انك ذاهب الى قاديس .

— ما هي هذه الحكاية العجيبة ؟

— إنك خدمت مدة طويلة في الهند اليس كذلك ؟

— مدة طويلة لا تنقص عن ١٨ عاماً .

— أكان يوجد تحت إمرتك لوتي فرنسي ؟

— ربما كان ذلك ولكني لا أتذكر ، فقد كان تحت أمري كثيرون من البحارة . ثم تطلع الى الجنرال تطلع المستطلع وقال له : ولماذا تسألني هذا السؤال ؟

— ستعلم السبب . فاسمع انه يوجد بحار لم تعلم تبعته بعد ، ولكنه يقول انه فرنسي ، ويبدو ان هذا البحار خدم في الهند بقيادتك لانه يعلم جميع عاداتك وعلائقك وأخلاقك وذوقك وكل علائقك مع عائلتك .

فارتعش روكامبول وقال له : كيف ذلك ؟

— ان هذا الرجل قبض عليه مع رفقاء له في سفينة قرصان ، وحكم عليه بالسجن .

— وبعد ذلك ؟

— أنعم كيف تجاسر هذا الرجل ان يدافع عن نفسه ؟

— كيف أستطيع أن أعلم ؟

فضحك الجنرال الاسباني ضحكاً عالياً وقال : انه ادعى بأنه المركيز دي شمري .

ولو سمع هذه المبالغته من الجنرال غير روكامبول ، لكان اصفر لونه واضطربت أعضاؤه لان حياته موقوفة على هذا المركيز . وقد قيل له فجأة انه لا يزال حياً يرزق ينذر بالفضيحة والسجن بل بالموت موت المجرمين السفاكين غير ان تلميذ أندريا تمالك نفسه فلم يبد عليه شيء من ملامح اضطرابه الداخلي ، بل انه ابتسم بسكينة طالما أنقذته من أصعب المواقف حين كان رئيساً للجمعية

السرية في عهد أستاذه وقال بلهجة المتعجب : ان هذا التزوير عظيم لا يقدم عليه غير الاشداء .

— وأنا من رأيك فاصنع الى تنمة حديثي .

- قل يا سيدي الجنرال فقد شغلتنى هذه الحكاية لغرابتها .

إن هذا المزور تمكن من إقناع ابن عمي قومندان المرفأ في قاديس على انه هو المركيز دي شمري .

- لا عجب في ذلك فان ابن عمك لا يعرف عائلتي ، ولا يعلم اني مقيم في باريس .

— فلما وثق ابن عمي من حكايته الملفقة كتب إلي منذ بضعة أشهر يخبرني بحكاية هذا الرجل ، ويسألني إرسال التفاصيل عن عائلة دي شمري الى غير ذلك من هذه الأبحاث .

فقال روكامبول ضاحكاً : وماذا أجبت يا سيدي الجنرال ؟

- أجبت ابن عمي ان هذا الذي يدعي انه المركيز دي شمري كاذب منافق لان المركيز دي شمري من أصحابي وكان أمس من المدعوين الى حفلة راقصة أعدتها في منزلي في باريس .

— ما هذه الفرائب إن جسارة هذا الرجل لم نقرأها حق في القصص .

— ولكنك ذاهب الى قاديس فسترى فيها دون شك الرجل .

— ذاك لا ريب فيه ، ولقد خطر لي خاطر يا حضرة الجنرال فاكتب لي كتاباً الى ابن عمك .

. إني عرضت عليك هذا الكتاب .

- نعم ولكنني أحب أن تقدمني الى ابن عمك باسم غير اسمي الحقيقي .

. لأي قصد ؟

— لأنني أحب ان أقيم في قاديس ثمانية أيام متنكراً بحيث أستطيع ان أرى هذا الرجل كما أريد وأسمع حكايته المعجبة من فمه .

- ليكن ما تريد . وسأرسل لك في هذا المساء كتاباً بعنوان ابن عمي القومندان بيدرو أوصيه بك خير وصاية فبأي اسم تريد ان أقدمك اليه ؟
- باسم الكوندت بولاسكي وتخبره اني من أعيان بولونيا .

فابتسم الجنرال وأجاب : سأرسل لك الكتاب في المساء .
ثم ودعه وافترقا .

وكان الكوندت فابيان يتحدث في ذلك الحين ، مع السفير الأسباني ، في الطرف الآخر من القاعة ، فلم يسمع كلمة واحدة مما دار بين الجنرال الأسباني وروكامبول .

فدنا منه روكامبول وقال له : هلم بنا الآن إلى دائرة البوليس لنأخذ الجواز

بعد ذلك ببضع دقائق بينما كان فابيان وروكامبول ذاهبين بركبتهما إلى دائرة البوليس مرت بهما مركبة كان فيها صديق لفابيان فأشار كل منهما إلى مركبته بالوقوف وحسب الثاني .

وكان الرجل يدعى سيرفيل وهو شاب من رجال القضاء درس الحقوق مع فابيان في مدرسة واحدة وتعين حديثاً قاضياً للتحقيق .

فقال له فابيان : من اين آت ؟

- من منزلي في سانت لويس .

- وإلى اين أنت ذاهب ؟

- إلى المجلس .

فابتسم فابيان وقال له : إنك من حين تعيينت قاضياً للتحقيق لم يعد أحد يراك .

- لا تذكرني بمنصبي أيها الصديق فانك تهيج أحزاني .

- لماذا وأي حزن يعتريك من مثل ذاك المنصب الرفيع ؟

- ذلك لأن أول عمل عهد إلي التحقيق فيه كان أعقد من ذنب الضب ، ولا

أزال ثأماً في ظلماته .

— في أي تحقيق ؟

— في مقتل مدام فيبيار والحادثة التي حصلت في غرفتها .

فارتعش روكامبول ارتعاشاً شديداً حين سماع القاضي ولكنهما لم ينتبها الى اضطرابه لانه كان داخل المركبة .

فسأله فابيان . إني لم أسمع بهذا القتل فكيف اتفق ؟

— إنها مشكلة من أصعب المشاكل أيها الصديق فقد وجدوا منذ شهرين في غرفة تلك العجوز المياه قد فاضت في قعر تحت غرفتها ووجدوا جثتين طافيتين فوق المياه إحداهما جثة العجوز صاحبة الغرفة وهي مخنوقة والثانية جثة رجل مطعون بخنجر ولقد تبين انه من مشاهير المجرمين .

— ما هذه الحادثة الهائلة ؟

— ثم رأوا رجلاً جالساً في زاوية من الغرفة .

فارتعد روكامبول ارتعاداً عظيماً لأنه علم الآن ان زامبا لم يمت .

فقال فابيان : إنه كان القاتل دون شك

— كلا أيها الصديق فقد كان هو أيضاً مجروحاً بظهره وثيابه مبتلة مما يدل

على أنه كان في المياه ونجا منها .

— لا بد أن تكون سألته عن هذه الجناية .

— لم أستطع أن أسأله شيئاً لأنه كان مجنوناً .

وهنا تنفس روكامبول الصعداء وبقي له شيء من الأمل .

فقال القاضي . إن ذاك المجنون لم يكن يتكلم غير الاسبانية والبرتغالية وقد سلم الى طبيب حاذق يتولى معالجته حتى اذا شفي نستطيع أن نعرف الحقيقة .

— من هو هذا الطبيب ؟

— إنه الطبيب المشهور صموئيل .

فالتفت فابيان الى روكامبول وقال له : إنه طبيبك الخاص
وبعد ساعة عادا الى القصر بعد ان أخذ روكامبول جواز السفر إلى اسبانيا
فما صدق روكامبول ان افترق عن صهره فابيان حق دخل إلى غرفته وأوصد
بابها وارتمى على مقعد وهو يوشك أن يحن من اليأس فقال : إن المركيز
الحقيقي في قيد الحياة ، وزامبا لم يمت . . لقد فقدت كل شيء ، وما أنا إلا
من الهالكين .

غير ان اليأس لا يتمكن في صدر روكامبول ولا يلبث أن يحل محله الرجاء
فإنه عندما رأى ان الأخطار تحيط به من كل جانب ، وأمعن في موقفه
الحرج الشديد ، هبت اليه جرأته النادرة فاثقت عيناه ببارق من الأمل ،
وزال عن قلبه كل خوف ، وقال في نفسه : أنا الغريق وماخوفي من
البلبل . وسأمثل الدور الأخير من الرواية ، فإما أن أفقد كل شيء أو أنال
كل شيء .

- ١٧ -

وفي صباح اليوم التالي خرج روكامبول من منزله ماشياً على الأقدام بعد ان
أمر خادم غرفته بأعداد مهمات سفره وخرج شارع فرنيل ذاهباً إلى شارع سيرنس
حيث جعل فيه منزله السري .

وكان خادم ذلك المنزل لم يره منذ شهرين غير ان روكامبول قد عوده على
مثل هذا الغياب بحيث لم يحسر الخادم أن يسأله كلمة عن غيابه .

فدخل روكامبول الى تلك الغرفة العجيبة التي كان يعدها لتغيير سجنه
وأزيائه عندما يريد التنكر لغرض من أغراضه الجهنمية ، فأخذ من الملابس
والبراقع والمواد الكيماوية ما وقع اختياره منها وهي مواد يستطيع بها تغيير

لوت جلده كما يشاء .

ثم وضع جميع هذه الأشياء في صندوق وأقفله بقفل سري وحمله بنفسه الى المكان الذي يقيم فيه البواب وطلب ان يحضر له حمالاً .

فامتثل البواب وهو مندهش مما يراه ، وعاد بعد حين بحمال لقيه في الشارع ، فأعطاه روكامبول الصندوق وأمره أن يتوجه به إلى منزله في شارع فرنييل .

ثم انه بدلاً من أن يسير في أثر الحمال تركه يسير في شأنه بعد أن دله على منزله وذهب الى شارع سانت اونوريه حيث يقيم الدكتور صموئيل اليوت .

ولم يجد حاجة الى التنكر في هذه المرة ، لأنه لم يخطر له في بال ان هذا الطبيب متفق مع باكارا على إهلاكه ، ثم أنه وجد حجة معقولة في زيارته لذلك الطبيب ومعرفة ما حدث لزامبا عنده ، وهي انه مسافر وانه يريد ان يقابل هذا الطبيب فيقول له : إني سأبحر باريس في هذا المساء الى اسبانيا لأتزوج فيها ابنة الدوق سالانديرا ، وسأسافر في اليوم التالي لزواجي إلى البلاد الاميركية ، فأنا آت لاودعك قبل هذا السفر الطويل ، ولاسألك أن تعطيني كتب توصية إلى أصحابك في تلك البلاد ، لانك من أبنائها وقد نشأت فيها .

وقد وجد روكامبول أن هذه الحجة مقبولة فقال في نفسه : إني لا أبرح منزله حتى أعلم حقيقة شأن زامبا ومبلغ جنونه .

غير انه دهش دهشة عظيمة حين بلغ إلى ذلك المنزل وأخبره بوابه بسفر الطبيب فسأله : كيف يستطيع طبيب أن يغادر زبائنه على كثرتهم في باريس ؟ إن هذا محال !

.. ولكنها الحقيقة يا سيدي .

- متى ذهب ؟

- منذ ثمانية أيام .

ـ والى أين ذهب ؟

ـ لا أعلم ولكنك اذا سألت في شارع بيبينيار يخبروك
فارتعد روكامبول لاسم الشارع الذي تقيم فيه باكارا وسأله : العله يقيم في
ذلك الشارع ؟

ـ كلا ولكنه يعالج فيه عظيمًا من عظماء الروسيين أصيب بالجنون .
فاستند روكامبول على الباب وقد كاد يضيع صوابه ولكنه ضبط نفسه
بسرعة وقال : لقد علمت الآن فانه يعالج روسياً يدعى الكونت أرتوف .
ـ هو ما تقول يا سيدي فقد ذكرت اسمه الآن .
فتركه روكامبول وذهب فلما وصل الى الشارع تراكت عليه الموم فاشتدت
هواجسه ووهنت قواه حتى أوشك أن يسقط .

واتفق مرور مركبة في ذلك الحين ، فركب بها وأمر السائق أن
يذهب به الى شارع سيرسنس ، فسارت به الى حيث يريد وهو ضائع الرشد
مشتت الحواس .

غير أن مدة يأسه لم تطل فلم تسر به المركبة مسافة قصيرة حتى ثاب اليه
رُشده وتثلث له تلك الاخطار المحيطة به فقال في نفسه : لقد أصاب أندريا فيما
أنذرني به من أقول نجم سعدي حين يموت .

والآن فان الكونت أرتوف الذي سقيته ذلك السم فذهب بعقله ، يعالجه
الطبيب صمويل الذي سرقت منه ذلك السم وعلى ذلك فلا بد لهذا الطبيب أن
يعلم كيف أصيب الكونت بالجنون . ومن يدري فقد يعلم اني أناالذي سرقت
منه السم .

ثم ان الطبيب الذي يعالج زوج باكارا قد يكون علم منها جميع تاريخي
واتفق معها على هلاكي .

وعندما خطر له هذا الخاطر الخفيف جمد الدم في عروقه من الرعب ونادى
السائق فقال له توجه بي الى منزل الكونت أرتوف في شارع بيبينيار .

وقد خطر له ما يخطر للقائطين في موقف الخطر الاكيد فقال في نفسه ،
سأذهب إلى باكارا فأقرأ ما في نفسها من عينيها ، وأعلم كيف يجب أن أنهج
في القتال ، وأتخذ حجة في ذهابي اليها إنني آت من قبل صهري صديق الكونت
أرتوف للسؤال عن صحة زوجها والاطمئنان عنه .

وعند ذلك دخلت المركبة إلى ساحة منزل الكونت أرتوف ، فحكم
روكامبول لأول وهلة ان أصحابه غائبون عنه لانه رأى النوافذ في الدور الاول
مقفلة جميعها .

ولما وقفت المركبة نزل منها روكامبول وتقدم الى الباب ، فدنا منه
البواب وقال له :

— بماذا يأمر مولاي ؟

— إنني أرى النوافذ مقفلة فهل أسيادك غائبون عن المنزل ؟

— نعم يا سيدي .

-- متى برحوه ؟

فبدت ملامح التردد على البواب غير ان روكامبول تكلف من هيئة النبيل
جهد ما استطاع وقال له . إنني أدعى البارون دي كيروف وأنا ضابط روسي
أتيت من بطرسبرج الى باريس لأرى فيها خالي الكونت أرتوف .

فوقف البواب موقف الاحترام حين علم أنه قريب مولاه وأجاب : إذن
فان سيدي يعلم المصيبة التي فاجأت سيدي الكونت .

— نعم علمت انه أصيب في عقله ، ولكنهم يرجون له الشفاء العاجل ،
كذلك فقد كتبت لي الكونتس ان الذي يتولى علاجه هو الدكتور
صموئيل اليوت

-- نعم يا سيدي وهو من أشهر الأطباء .

-- وأسيادك غائبون كما تقول ؟

— إن سيدي أمرني بالكتمان ، ولكني لا أظنها تريد كتمان هذا

الامر عنك .

- ذلك لا ريب فيه وهي تعلم اني آت خاصة من بطرسبرج لارام .

- إرب سيدي الكونت مقيم الآن في أرض له في فونتيناى .

- مع الطبيب صموئيل ؟

- كلا ، بل صحبه أحد تلامذة هذا الطبيب الذي عهد اليه العناية به مدة غيابه .

- اذن فلان الطبيب غائب ؟

- نعم يا سيدي فقد سافر مع الكونتس منذ ١٠ أيام .

- الى أين ذهب ؟

- لا أعلم وليس من يعلم وجهتها فلانها لم يخبرا أحداً .

- سأعلم ذلك في فونتيناى .

ثم ترك البواب وركب مركبته وانصرف .

ولم يذهب روكامبول الى فونتيناى كما قال فان ما قاله له البواب وهو ان الطبيب سافر مع باكارا منذ عشرة أيام قد أرشده إلى معرفة شيء من هذه الحقيقة الهائلة وذكره بما قال له خادمه في الاورنجراى ، وهو أن الفتى الذي اتهم بسرقة الصورة لم يكن غلاماً بل كان امرأة متنكرة بزي الفلمان ، ثم انه كان يصحبه رجل بصفة مؤدب ، ذكر له من أوصافه ما ينطبق على أوصاف الطبيب صموئيل ، وخادم تشبه أوصافه أوصاف زامبا ، فلما انتهى روكامبول بذكره إلى هذا الحد قال في نفسه : لم يبق ريب الآن ان الدكتور صموئيل وزامبا كانا يصحبان باكارا وانهم قد اشتركوا في سرقة الصورة ..

وبعد حين وصلت المركبة به إلى منزله في شارع فرنيل فدخل إلى غرفته وكتب إلى خطيبته ابنة الدوق الكتاب الآتي :

« خطيبتي العزيزة .. »

« لم أر ولم أقرأ غير شيء واحد في كتابك وهو ان ساعة السعادة قد دنت
ولست أبالي بالدوقية ولا يسرنني أن أكون من عظماء الاسبان وسفيراً لاسبانيا
إذ لا مطعم لي بسواك ، وإذ كنت لا أستطيع ان أنالك إلا بعد نيسل هذه
الألقاب فأنا أقبلها امتثالاً لك . »

« توسمي في لومي أيتها الحبيبة كما تشائين فإن كتابك الي وصل باريس
منذ خمسة أيام ولكنني لم أفتحه إلا في صباح اليوم واليك بيان السبب :
« اني كنت غائباً عن باريس فقد ذهبت مع صهري فابيان لزيارة أرض
لنا في التورين لإقامة عشرة أيام في قصر الأورانجوري والعودة إلى باريس وقد
فاتني أن أمر بارسال رسائلي إلى الأورانجوري . »

« فأقمنا في ذلك القصر ثمانية أيام بين اضطرابات شديده ، وذلك اننا حين
وصولنا وجدنا خدام القصر مضطربين مسلحين تأهباً للطوارئ ، وعلما ان
وكيل القصر قد سافر مسرعاً إلى المدينة المجاورة . »

« وذلك لأن القصر قد سرق ، ولكنها سرقة غريبة لا تخطر في بال ،
والحكاية ان مركبة بريد سقطت في حفرة قرب باب بستان القصر فكسر
دولابها ، وكان فيها شاب طلب الضيافة إلى أن يتم اصلاح مركبته فأضافه
الخدم لقوله انه من أصحابي ، وفي الصباح أصلحت مركبته فسافر ، ولكن
أعلمين ماذا سرق ؟ »

« ان ذلك لا يخطر لي في بال فإنه سرق صورة تمثلني حين كان لي من العمر
تسعة أعوام وكانت هذه الصورة معلقة في جوار القاعة الكبرى . »

« أما السبب في سرقة هذه الصورة فلم أقف عليه إلا حين عودتي إلى
باريس ، ويمكنك أن تعرفيه بالتلميح عنه والرجوع إلى حياتي السابقة في زمن
لم أكن أحلم فيه بسعادتي المستقبلية ، أيام كانت يدفني غرور العصبى وخسرو
الفؤاد من الحب الطاهر الشريف إلى الاندفاع في حلبة الملاهي . »

« وما زالت على هذا الطيش إلى أن لقيتكم في غابات بولونيا ، فعلمت كيف يكون الحب الصحيح ، ولكنني كنت قد غادرت امرأة شقراء ، وتخلفت عنها دون أن تتخلف عني .

« وقد سألتني هذه المرأة أن أهبطاً تذكاراً مني فكنت أرفض طلبها ، إلى أن أعيأها الأمر فسرقت رسمي كما علمت الآن .

« وفي هذا المقام التمس منك العذر أيتها الحبيبة لجسارتي لهذا الاقرار ، ولكنني لم أجد بداً منه إذ يجب أن أحذرك كي لا تستطيع تلك المرأة أن تتخذ تلك الصورة سلاحاً تحاربني به أمامك فاني أحبك ولا أريد أن يدخل إلى قلبك شيء من الشك بصدق حبي .

« والان فاسمعي ما جرت هذه السرقة من المصائب ، فان وكيلي في قصر الأنجري ، وهو شيخ عجوز كان يخلص لي أشد الاخلاص هالته سرقة الصورة وأثرت عليه تأثيراً عظيماً فمات رحمه الله موتاً فجائياً ، فأسفت لموته أسفاً شديداً ، لأنه مات بسببي ، وبقيت مع صهري في القصر إلى أن شيعت الجنازة ووري هذا الخادم الأمين في التراب .

« هذه هي الأسباب التي منعتني أيتها الحبيبة عن الاطلاع على كتابك قبل صباح اليوم .

« ولمثل تلك الأسباب سيطول زمن سفري إلى أربعة او خمسة ايام إلى أن أتمكن من الحصول على جوازات السفر والتجسس بالجنسية الاسبانية وانهاء جميع شؤوني الخاصة وفي كل حال فساكون بعد ثمانية ايام جائياً على قدميك ،

محبتك

« البرت »

وكان يردي بهذا الكتاب إلى غرضين ، أحدهما أن يهيئ ابنة الدوق لما ستجريه باكاراً بشأن الصورة فيضعف تأثيرها ، والثاني أن تمكنه من السفر إلى قاديس والاقامة فيها متنكراً أربعة أو خمسة ايام لأن ابنة الدوق لا

تنتظر قدميه بعد ذلك الكتاب إلا بعد ثمانية أيام على الأقل
وقد قال في نفسه : اني قد قتلت الدوق دي مايلى ، والدون حوزيف ،
وأندريا وجميع الذين كانت وجودهم مثقلا علي ، ولكني إذا لم اقتل السجين
في سجن قاديس فلا اكون قد فعلت شيئا وأغدو من الهالكين .
ثم انه لما شعر بحرج موقفه وما يحيط به من الأخطار هبت اليه قوة عظيمة
ورجعت له جراته النادرة واقدامه الغريب وفضاعته الوحشية وتلك السكينة
الفطرية فيه الدالة على مبلغ قوته .

وقضى بقية ذلك اليوم بين صهره فابيان واخته بلانش إلى أن حان موعد
السفر ، فركب المركبة وشيعة اليها صهره النبيل فصافحه مصافحة الاخوان
وتلك المرأة الطاهرة فقبلته قبلة صادقة وهي تحسبه أخاها فقبلها روكامبول
وقد أحس بدموعها تنفجر على خده فتأثر لحنوها وقال في نفسه ، لا شك اني
خلقت لأكون نبيلاً إذا لا أجد أشهى الي من العواطف الصادقة .

ولكنه ما لبث أن اندفعت به المركبة وبعد عن ذلك الموقف حتى ابتسم
تلك الابتسامة الجهنمية التي تعلمها من استاذة القديم وقال : لقد سرت في طريق
القتال فاما الفوز وإما الموت ، وإما أن أكون دوقاً اسبانياً أو ازج في ظلمات
سجن قاديس .

- ١٨ -

في اليوم التالي لتلك الحفلة الراقصة التي احياها المجلس البلدي وجرت فيها
تلك الحوادث التي يعلمها القراء كانت مركبة يريد يجرها أربعة بغال تدخل في
الساعة الثامنة من المساء إلى ساحة فندق السحرة .

وهو الفندق الذي يقيم فيه فرناند روشي وزوجته

ولم يكن في هذه المركبة سوى سيد واحد عليه مظاهر النبلاء وبين يديه أربعة من الخدم كانوا في المركبة بين جالس أمامه وبين جالس في مؤخر المركبة وبين جالس بجانب السائق .

فنزل هذا السيد من المركبة وأسرع اليه الخدم فجعلوا يشون أمامه إلى الفندق بين صفوف مستخدميه الذين كانوا واقفين بملء الاحترام لما رأوه من ملامح ضيفهم الدالة على العظمة .

وهو رجل يظهر من وجهه انه في الخمسين من سنه ربعة القوام هزيل أصفر الوجه مجمد الجبين ، وكان لابساً ثوباً طويلاً فوق ثيابه مبطناً بالفرو الأشقر وله حية شقراء تشبه بلونها لون ذلك الفرو .

أما عيناه فكانتا تتقدان وترسلان أشعة تدل على ما في نفس صاحبهما من الهمة والاقدام .

وكان أحد خدامه يتكلم جميع اللغات الحية ، خلافاً للثلاثة الآخرين ، فإن كلا منهم لم يكن يتكلم غير لغة واحدة ، ومجموع لغاتهم الثلاث الروسية والبولونية والالمانية ، ولذلك كان الأول عليهم وقد تشرف بمهمة الترجمة لمولاه ، لأنه لم يكن يعرف اللغة الاسبانية ، فأخبر صاحب الفندق وزوجته ان مولاه عظيم من عظماء بولونيا ، يدعى البارون ونسلاس بولاسكي ، وهو من الأغنياء العظام ، فقد زوجته دون أن يلد له منها بنون ، وقد فقدوها منذ عشرين عاماً ولكنه لا يزال يشدها وهو يسيح في جميع انحاء الأرض بهيمة نسيانها .

فبينما كان صاحب الفندق يسمع حديث هذا الترجمان معجباً به كانت زوجته قد سمعت بعضه فأسرعت إلى ذلك السيد البولوني وذهبت به إلى خير محل في الفندق .

وكان فندق السعرة هذا قائماً في محل مجاور للميناء ، فسأعطته صاحبهته محلاً فيه يطل على البحر كي يسر بمنسأظره الجميلة ، ثم تركته وانصرفت ،

وصعد الخدم يحملون اليه أمتعته .

أما البارون فلم يكثر بهم بل انه خرج إلى المشرف وجعل ينظر منه الى ما حول الفندق نظر الباحث المستطلع .

وكانت اشعة الشفق لا تزال تملأ الكون نوراً وتصبغ السماء بأنوارها الذهبية فأشار البارون الى احد خدمه وامره ان يفتح احد الصناديق واخرج منه نظارة مكبرة وعاد إلى موقفه في المشرف فجعل ينظر في المنظار الى ما حوله وهو يعرف قاديس قبل اليوم .

فكان أول ما أصاب نظره بناية ضخمة فعلم انها سراي الحكومة ثم حول منظاره إلى مكان آخر فرأى بناية أضخم من الأولى جدرانها مائلة إلى السواد فاستلفت أنظاره وتأملها طويلاً وقد كانت هذه البناية دار السجن .

ثم أدار منظاره الى الجهة اليمنى كأنما منظر السجن قد أثقل عليه فرأى قصرأ جميلاً مبنيًا فوق قمة على شاطئ البحر المتوسط يحيط به بستان كبير مزروع بأشجار الليمون والرمال فاستوقف منظر هذا القصر الجميل انتباهه ففحصه فحصاً ملياً ثم نظر إلى ترجمانه وكلمه باللغة الانكليزية .

فخرج ترجمانه وعاد بعد حين وجيز مع صاحب الفندق ، فقال الترجمان : ان مولاي البارون يريد ان يعرف صاحب هذا القصر الجميل المبني فوق هذه القمة على شاطئ البحر ، فأجابه صاحب الفندق انه لأسقف غرناطة غير أن الأسقف لا يقيم فيه الآن فقد تخلى عنه للدوقة سالانديررا وابنتها وهما تقيان فيه الآن .

إنحني البارون احتراماً لها وكان هذا جميع ما يريد ان يعرفه ، ثم أخذ من جيبه محفظة فأخرج منها رقعة زيارة عليها اسمه وقاج البارونية فكتب عليها بقلم من الرصاص اسم الفندق النازل فيه وبعد ذلك أخرج من جيب آخر محفظة كبرى ففتحتها بحيث ظهرت فيها الأوراق المالية مكدسة ثم أخرج منها كتاباً كان عليه عنوان السنيور بادرو قومندان الميناء في قاديس فوضع الكتاب ورقعة

الزيارة على الطاولة وأشار لصاحب الفندق بيده اليها .
 فأخبره الترجمان ان مولاه يريد ايصال هذا الكتاب إلى قومندان الموقع
 فانه مرسل من ابن عمه الجنرال وهذه الرقعة من البارون .
 فالتحقى صاحب الفندق ببله الاحترام ثم أخذ الرقعة والكتاب ومضى .
 وعند ذلك أشعل البارون سيجاراً وجعل يتفقد الفندق وصعد يطوف في
 رواقاته بحجة الرياضة والتنزه إلى ان يتسبب طعام العشاء .
 وفيما هو يجتاز رواقاً قرب غرفته رأى امرأة تتأبط ذراع رجل فأجفل
 لمنظرهما ولكنه لم يستطع ان يتحقق أمرهما لعدم وجود نور في تلك الرواق
 أما الرجل والمرأة فانهما استمرا في سيرهما دون أن ينتبها الى هذا البارون
 البولوني .

فنزل البارون من الباب الخارجي وبعد نصف ساعة صعد الى غرفته وتناول
 طعام العشاء فيها وأكل بشهية فائقة .

ولما انفرغ من الطعام دخل اليه صاحب الفندق يحمل دفترأ ضخماً وهو
 سجل يقيد فيه اسماء النازلين في فندقه فيكتب كل مسافر فيه اسمه بخطه
 ويذكر تحت اسمه نوع اعماله وتبعته والبلد التي جاء منها .

فنظر البارون الى هذا الدفتر بيد صاحب الفندق وظهر عليه انه لم يفهم
 المراد منه فوضع صاحب الفندق الدفتر على الطاولة وقال للترجمان بعض كلمات
 ترجمها للبارون فهز رأسه اشارة الى المصادقة وأخذ الدفتر فجعل يقلب
 صفحاته ويقرأ الاسماء المكتوبة فيه منتظراً ان يأتيه صاحب الفندق بأدوات
 الكتابة .

وفيما هو يقلب الصفحات إذ قرأ اسماً ارتجف له وذكر في الحال الرجل
 والمرأة اللذين رأهما في الرواق قبل العشاء لأن هذا الرجل البولوني كان يعرفهما
 كما يظهر أما الاسم الذي قرأه فهو فرناند روشي من باريس
 وكان هذا الشريف البولوني قد اضطرب اضطراباً شديداً حين قرأ هذا

الاسم غير انه تمالك نفسه فلم يظهر عليه شيء من ملامح اضطرابه الداخلي وكتب اسمه في السجل بأتم البرود والسكينة .

وبعد ذلك خرج الجميع فلم يبق في الغرفة غير هذا الشريف البولوني فجلس على كرسي طويل وجعل يناجي نفسه بهذا الحديث ويقول :

أي روكامبول انك في موقف شديد فأما أن تكون بلغت منك البساطة حد البلاهة او انه يجب ان تعلم أموراً كثيرة من وجود فرنانسد وامرأته في قاديس فانها لا بد ان يكون لهما علاقة بالدون بادرو قومندان الموقع ولا بد لهذا القومندان ان يكون أخبرهما بأمر السجن الذي يسدعي انه الماركيز دي شمري الحقيقي ، ولا بد أيضاً أن يكونا قد كتبنا إلى باريس ، وارجح انهما كتبنا إلى الكونتس أرثوف ، فاذا لم تكن باكارا في قاديس ، فهي ستحضر اليها دون شك .

وفما كان البولوني يناجي نفسه بهذه الاحاديث اذ سمع انهم يطرقون باب غرفته بلطف فاذن للطارق بالدخول .

وكان روكامبول عند ذلك جالسا على كرسي طويل وراء الطاولة التي أكل عليها وفوقها المصباح بحيث ان الداخل عليه لا يرى وجهه من الباب لعدم وقوع نور المصباح على وجهه خلافاً للداخل فان وجهه يكون معرضاً لهذه الاشعة بحيث اذا التفت روكامبول يراه .

فدخل الترجمان وكان هو الطارق فقال : ان خادم غرفة قومندان الميناء في الباب .

وكان هذا القومندان قد تلقى كتاب روكامبول فأسرع الى اجابته انه ينتظر زيارته في الغد وعهد بارسال الجواب الى رجل ادخلته باكارا في خدمته في الليلة التالية لتلك الحفلة الراقصة .

فلما اخبر الترجمان روكامبول ان الخادم واقف بالباب التفت اليه ، ثم حول وجهه عنه بسرعة وقد ذعر ذعراً شديداً لأنه علم ان هذا الخادم

كان زامبا .

ومن غريب الاتفاق ، ان اللباس الذي كان متنكراً به روكامبول في قاديس ، كان نفس اللباس الذي كان يتنكر به حين كان يقابل زامبا في باريس .

ولكن لحسن حظه لم ير زامبا وجهه لأنه كان في الظل كما قدمنا ، اما روكامبول فانه اشار في الحال اشارة خفية للترجمان فخرج وبعد خروجه دخل زامبا فأخذ منه الكتاب دون اكتراث ، وهو واضح منديله على وجهه كي يستره ووضعه على الطاولة ثم رجع خطوتين إلى الورا ودخل إلى غرفة صغيرة كانت ضمن الغرفة الكبيرة ، وبعد أن لبث فيها برهة قصيرة خرج منها وعرض وجهه للنور أمام زامبا ، فتراجع منذعراً إلى الورا وقد عرف انه الرجل الذي كان يستعبده في باريس .

وكان روكامبول يحمل بيده مسدساً فصوبه إلى قلب زامبا ووضع اصبعه على شفتيه إشارة إلى الصمت وقال له باللغة الفرنسية الفصحى وليس باللغة الانكليزية كما كان يكلمه من قبل : يظهر أننا صديقان من عهد بعيد

فاضطرب زامبا من المسدس وقال : نعم فقد عرفتلك من عهد بعيد ..

— إذن فاصغ الي وأجلس أمامي لنتحدث إذ لدينا كثير من المهمات التي يجب النظر فيها ..

فجعل زامبا يرتجف ارتجافاً شديداً حتى كاد يقع وقال له : ليكن ما تريد

— اجلس وسكن روعك فاني أراك ترتعش ارتعاش النساء ثم شفع قوله بضحكة عالية ، وأسرع إلى الباب فأقفله من الداخل وعاد إلى زامبا وجلس أمامه فجعل يضحك ويلعب بالمسدس وهو يصوبه اليه .

- ١٩ -

لقد تركنا ابنة الدوق سالانديررا تفض أختام الكتاب الذي ورد اليها من باريس وقد عرفت له الحال من خطه انه من خطيبها ومثل هذا الكتاب يرد اليها من خطيب تهواه يشغلها بالطبع عن سواء ويطرده من مخيلتها تلك المؤثرات التي شغلته في الحفلة الراقصة ولو إلى حين . فقرأت الكتاب وأعادت تلاوته ثلاث مرات ، فكان المراكز دي شمري يتمثل لها في خلال السطور .

أما الكتاب فهو الذي كتبه روكامبول يوم سفره إلى ابنة الدوق فأخبرها فيه عن سرقة الصورة بالشكل الذي أراده ثم أخبرها انه لا يستطيع مبارحة باريس قبل ثمانية أيام لاعداد مهماته .

ولكنه سافر في اليوم نفسه مع ذلك الكتاب متنكراً باسم البارون ونسلان كما علمناه ، ونزل في الفندق الذي كان ينزل فيه فرناند روشي وزوجته .

فلما شفت ابنة الدوق غلها من تلاوة كتاب خطيبها دفعته إلى أمها فقرأته وقالت معجبة : لا أدري كيف يقول انه لا يحضر قبل ثمانية أيام ، ألا يعلم ان جلالة الملكة لا تقيم الى الأبد في قاديس وانها قد تهرحها قبل مجيئه وانه لا بد أن يقدم لها والملك بصفة رسمية .

فتمت الفتاة تقول ثمانية أيام . . إنها دهر طويل فما أصعب الانتظار . فابتسمت الدوقة وقالت : إذن أنت تحببته حباً شديداً يا ابنتي . فمبى خداهما بالاحمرار وأطرقت بنظرها مستحبة فكان استحياهما أبلغ جواب .

ثم عادت إلى التأمل ببناء البحر فكانت فرحة القلب بما كانت ترجوه من قرب حضور المركز ، ولكنها ما لبثت ان عادت الى الحوادث التي مرت بها في الليلة الراقصة حتى تولاهم الانقباض وبدأت على وجهها الجميل ملامح الكآبة والانكماش .

وكانت كلما أرادت طرد هذه الأفكار من مخيلتها بالأفكار بركامبول غالبتها تلك الحوادث ، وتمثل لها ذلك السجين بمظاهر رجس شريف نكبه القضاء وحاربه الأقدار فحنت لمصابه ورثت لبلاؤه الى ان أعياها أمره ولم تجد سبيلا لإبعاده عن تصورهما ، فقالت في نفسها هب ان الرجل كان صادقا فيما يقول ، فأني دخلت في شأنه ؟ اليس من الحق والشين ان أفكر به أكثر مما أفكر بخطيبي وما هذا السر بخيني اليه ؟

ثم وضعت يدها على جبينها تحاول طرد ذاك الفكر كأنها لم تتجاسر على إتمامه .

وانقضى النهار ، فذكرت ابنة الدوق الموعد الذي اتفقت عليه مع الكونتس أرثوف ، فكانت كلما قربت ساعة الموعد يزيد سأمها ويفرغ صبرها فقد كان يتنازعها عاملان من شوق الى معرفة تلك المعميات ، ومن رعب كان مستوليا عليها وهي لا تعلم السبب فيه .

غير انها حملته على ما جاء في رسالة باكارا التي كتبته اليه في مقدمة الدفتر ، من أنها لها دخل في حوادث تلك الرواية الهائلة التي قرأتها ، ولكن الذي كان يدهشها انها لم تكن تعرف أحداً من الأشخاص الذين ورد ذكرهم فيها .

فصرفت جانباً من الليل مع أمها الى أن تركتها الدوقة ودخلت إلى غرفتها لتنام . فعادت الفتاة الى موقفها السابق في الرواق المشرف على البحر ، وذلك لأن باكارا قالت لها في الحفلة . قفي على الرواق عند انتصاف الليل وانتظري .

وكان جميع من في القصر نياماً ولم يبق للموعد المضروب غير نصف ساعة فوقفت ابنة الدوق في ذلك الرواق مسندة كوعها الى الرخام وجعلت تنتظر وتتأمل ذلك الفضاء الواسع فلا ترى غير النجوم لاشتداد الظلام ، فجذعت وجعلت تعد الدقائق كما تعد الساعات وتصفي الى كل حركة تسمعها من البحر ، لعلها ان الكونتس ستعصر في سفينة ولكنها على جزعها وخوفها لم تتالك عن الافتكار بذلك المجرم السجين .

ثم خيل لها انها تسمع صوت حركات متشابهة ، فعلمت أنها أصوات المجاذيف ، وجعل قلبها ينبض نبضاً شديداً فأطلت الى الجهة التي خرج منها الصوت فشاهدت شبحاً يدنو مسرعاً الى جهة القصر ، فما شكت انها سفينة الكونتس أرتوف التي قنظرها على أحر من الجمر .

ووصلت السفينة الى الشاطئ فخرج أحد بحارتها فربطها بجبل الى حلقة من الحديد في الشاطئ ثم خرجت امرأة من السفينة وصعدت سلم الرواق الذي كانت تقيم فيه ابنة الدوق ، فتراجعت الفتاة الى آخر الرواق كأنها خشيت ان تستقبل تلك الزائرة .

فأسرعت اليها باكارا وقالت لها بعد التحية :

- العلك وحدك ؟

- نعم فإن أمي قد نامت .

- وأنا أيضاً قد أتيت وحدي .

فارتعشت ابنة الدوق وسألت : من الرجل الباقي في السفينة ؟

- بحري من بحارة الميناء .

فبدت على ابنة الدوق ملامح الاكتئاب كأنها كانت تتوقع ان يكون هذا الرجل المجرم الذي لم يكن يبرح من بالها فأخذت باكارا بيدها وقالت لها : إني كنت عازمة على إحضار زامبا معي .

- العلك تعرفينه ؟

- كيف لا أعرفه ، وقد اتفقت وإياه على ان يأتي الى الليلة ؟
ولكنني انتظرتة الى الساعة الحادية عشرة فلم يأت ، فاضطرت الى
الحضور وحدي .

- الملك كنت محتاجة إلى زامبا ؟
- نعم وذلك لأنه يعرف كثيراً من الأمور التي يهمل شأنها وهو يستطيع
أن ينقلها اليك أحسن مما أنقلها أنا .

فارتعشت الفتاة وأجابت : الملك تريدان مباحثتي أيضاً بشأن الدوق
دي مايلي ؟

- ربما .

- أأأذن لي يا سيدتي بكلمة ؟

- تفضلي .

- يظهر ان الدوق دي مايلي قد مات مسموماً ، وأنا مشفقة عليه
غاية الإشفاق . غير أنني لا أراي مضطرة أن أسكب الدموع الغزيرة
عليه ، بعد أن كاد المكائد في سبيل الحصول على رضى أبي ،
لتزويجه بي .

-- العفو يا سيدتي فاني ما أردت أن اصحب معي زامبا اليك إلا لجلاء
الغامض من هذه المكائد فإن ذلك الرجل قد خدم الدوق جوزيف والدوق
دي مايلي وهو يعرف كل شيء

فذكرت ابنة الدوق أن الكونتس أرتوف كانت تذكر الدوق دي مايلي
بالخير أمام أبيها .

فقلت : اني أعلم يا سيدتي أن الدوق كان من أصحابك وكنت تحاولين
مرات كثيرة أن تبرهني عن فضله أمام المرحوم أبي .

- اني لم أكن أبرهن إلا عن الحقيقة .

- أية حقيقة تعنين يا سيدتي ؟

- هي ان الدوق دي ماييلي كان من أسرة سالانديريرا .
- ان هذا ما كان يدعيه وليس هو من الحقيقة في شيء .
- بل هو الحقيقة بعينها فاصفي الي يا سيدتي كي أكشف لك النقاب عما تجهلين ان هذا الكولونيل الروسي الذي هو من أسرة دي ماييلي لا يزال حياً موجوداً في أودسا ، وكان لديه أوراق حقيقية لا ريب فيها تثبت ان الدوق دي ماييلي من أسرة سالانديريرا .
- إذا كان ذلك أكيداً فلماذا لم يظهر هذه الأوراق ؟
- انه أرسلها إلى قريبة الدوق .
- وهي لم تصل اليه ؟
- كلا فإن الرسول الذي كان يحملها قتل في غابات فنسان .
- وسرقت منه الأوراق اليس كذلك ؟
- نعم يا سيدتي .
- إن هجنتك يا سيدتي تدل على انك واثقة كل الوثوق من صدق هذه الأقوال ولكنني أؤكد أنهم خدعوك كما خدعوني .
- ومن تظنين انه خدعني ؟
- الدوق دي ماييلي .
- فهزت باكارا رأسها وقالت : كلا يا سيدتي بل إنهم خدعوك بشكل هائل ولا يزالون يخدعوك إلى الآن .
- أنتظنين ان الأوراق كانت موجودة ؟
- بل أؤكد وهذا لا ريب فيه عندي .
- إذن فكيف اتفق ان الدوق دي ماييلي قد خلا بي مرة واعترف لي ولا أنكر انه لم يعترف اعترافاً جلياً ولكنني علمت منه كل شيء .
- ماذا علمت يا سيدتي وبماذا اعترف لك ؟
- بأن الأوراق لا أثر لها .

- إني أعلم ان الدوق قد تتم بعض الكلمات حين اضطررته إلى الإجابة .
 - كيف تعرفين ذلك وقد كنت وإياه دون ثالث بيننا ؟
 - كلا يا سيدتي ، فقد كان أبوك في غرفة مجاورة يراكا ويسمع كل ما
 تقولين

- غير أن الدوق كان يحسب أنه منفرد بي .
 - إنك منخدعة أيضا يا سيدتي فقد وصل اليه كتاب منك في ذلك الصباح
 وكان في الكتاب أنه سيوجد في خلوتكما من يسمع حديثكما .
 - كلا إن هذا محال لا صحة له في شيء .
 - إن كتابك لا يزال موجوداً .
 - لا صحة لذلك فإني لم اكتب شيئاً من هذا .
 - إن الكتاب عندي فادخلي معي يا سيدتي إلى غرفتك .
 - لماذا ؟

- كي أريك الكتاب إذ لا يوجد نور في هذا المشرف .
 - هلم بنا يا سيدتي وأظن أن واحدة منا قد فقدت صوابها .
 ثم أخذتها بيدها وقالت لها . هلمي معي . إنما أرجوك أن تخفضي
 الصوت ما استطعت كي لا تستيقظ أمي ، إذ لا أحب أن تعلم شيئاً من هذه
 الأحاديث .

ودخلت الاثنتان إلى الغرفة ، فأثارت إبنة الدوق مصباحاً ، وعند ذلك
 أخرجت باكاراً من صدرها ملفاً من الورق مربوطاً بخيط من الحرير وقالت لها :
 خذي هذه هي رسائلك إلى الدوق دي ملبلي .
 - رسائل إلى الدوق ؟ إذن فأنت التي فقدت صوابها يا سيدتي لأنني لم أكتب
 إلى الدوق غير رسالة واحدة في حياتي .

ثم نظرت نظرت الفاسح إلى تلك الرسائل ، فما تبينت الخط حق
 صاحبت مجفلة منذرة . إن الخط خطي لا سبيل إلى إنساره ، ولكني لم

أرسل الدوق .

وقد أصابها في هذه الحادثة نفس ما أصاب باكارا منذ بضعة أشهر حين عرض عليها زوجها الكونت أرتوف تلك الكتابة التي كانت تشبه خطها أتم الشبه انها نفسها خدعت بها ولم تجد سبيلا لإنكاره .

وعند ذلك أسرع ابنة الدوق الى فض الرسائل ودنت من المصباح ، فلما تلتها صاحبت قائلة : لا شك إني مجنونة او قد مثل لي حلم رهيب .
إنك غير حاملة يا سيدتي بل إنك تسمعين الحقيقة كما هي دون زيادة ولا نقصان .

-- إذن فقد كتبت أنا هذه الرسائل ؟

-- كلا ولكنهم قلدو خطك أتم تقليد .

فوضعت الفتاة يدها على جبينها وقالت : أوصلت جميع هذه الرسائل الى الدوق ؟
-- كلها .

-- وكان يظن انها مني ؟

-- بل كان واثقا يا سيدتي وقد نزل معه هذا الاعتقاد الى القبر .

-- رباه إن هذا تزوير هائل !

-- لا أنكر عليك ما تجدينه بمن فظاعة هذا التزوير ، فاقراي يا سيدتي إلى النهاية .

فامتثلت الفتاة وجعلت تقرأ تلك الرسائل التي خطتها يد روكامبول وكان يرسلها بواسطة زامبا الى الدوق مايلي كما عرف القراء في رواية الغادة الأسبانية أي الجزء الثالث من هذه القصة .

فلما توغلت في قراءتها قالت : رباه ! ماذا أرى ؟ لقد المجلت الغمامة عن عيني وفهمت الآن .
-- تقولين انك فهمت ؟

- نعم فان الدوق كان يحسب أني أحبه .
- ذلك لا ريب فيه .
- وإنه كان يحسب أنه يوجد عدو له يحول دون زواجنا .
- كان يظن ان ذاك العدو هو أمك فإنه مات وهو يعتقد ان أمك كانت الحائز الوحيد دون زواجك به .
- ومن كان يحمل اليه تلك الرسائل ؟
- زامبا .
- تباً له من شقي خائن .
- ولكنّه لم يكن غير آلة بيد سواه .
- اليس هو الذي كان يقلد خطي ؟
- كلا .
- من عسى أن يكون هذا المزور الجريء ؟
- سيقول لك زامبا عن اسمه .
- ولكن زامبا يقول انه هو الذي سمم الدوق .
- هذا أكيد أيضاً ، غير أنه لم يكن غير آلة كما قلت لك . ويجب البعث عن الدافع له الى هذه الجناية الخفية .
- فجعل العرق البارد ينصب من جبين ابنة الدوق لما تولاهما من الذعر وقالت :
رباه ! ما هذه الألفاظ ألا تكشفين لي الحجاب عنها ؟
- لا أستطيع الآن وسأجلو لك كل شيء فيما بعد . وفي كل حال فلا بد من وجود زامبا لأنه هو وحده يستطيع أن يقول كل شيء .
- أيقول لي اسم الشخص الذي دفعه الى قتل الدوق دي مايبي ؟
- نعم ، أما هذا الشخص فهو كهل ذو لحية شقراء وشعر أحمر ،
وقد كان واقفاً على أسرار زامبا ، وهو يستطيع في كل حين أن يرسله الى المشنقة .

- العمل زامبا فعل ما فعله خوفاً منه ؟
 - إنه ارتكب الجريمة خوفاً ولأمله بالمكافأة .
 - ألا تقولين لي على الأقل السبب الذي قتل من أجله الدوق ؟
 - إن الذي قتله كان يخشى أن يتزوج بك .
 - إذن فان خصمه كان راغباً بزواجي ؟
 - هي الحقيقة التي خرجت من فمك .
 - إحدري يا سيدتي فقد قلت كلمة كبيرة لأنه لا يوجد غير اثنين طلبا
- الزواج بي .

- أعلم ذلك حق العلم .
- وان أحد الخطيبين هو الدون جوزيف .
- لقد مات قبل موت الدوق .
- وان الثاني يدعى ...
- إني لا أشكو أحداً .

فقال الفتاة بكبرياء : إن الثاني يا حضرة الكونتس يدعى المركيز دي شمري وكلامك يدل ...

- قلت لك يا سيدتي إني لا أشكو أحداً ، وفوق ذلك فلإن المركيز دي شمري لا يزال في عهد الشباب ، ولقد قلت لك ان الشخص الذي دفع زامبا الى قتل الدوق تجاوز حد الصبى ثم أخبرتك ان هذا الشخص أشقر اللحية أحمر الشعر وليس للمركيز شيء من هذه الأوصاف .

فتنهدت ابنة الدوق تنهد المنفرح ، لأن كلام باكارا الأخير نفى التهمة عن خطيبها المركيز ، وقالت لها . غير إني أرى أنه لا يزال يوجد من يحبني حباً خفياً ؟

- ربما .

- ومن هو هذا الحب الخفي ؟

- ألم تقرأ أي الدفتر الذي أرسلته اليك ؟
- قرأته كله .
- ولكنك لم تفهمي شيئاً ؟
- إن الذي أشكل علي فهمه في هذه الحكاية هو أنني لم أعلم أية علاقة بيني وبين أشخاصها الذين لا أعرف منهم أحداً .
- ذلك لأن الحكاية لم تتم بعد .
- ماذا تعنين بذلك ؟
- أعني انها لا تزال في حاجة الى الخاتمة .
- وأية خاتمة تعنين فقد قرأت فيها ان السير فيليام شقيق الكونت أرمان دي كركاز قد مات .
- كلا فإنه لم يمّت إلا منذ أربعة أشهر .
- مها يكن من أمره فهو بعيد عن أوروبا .
- إنه عاد إلى باريس منذ عام .
- وكانت باكارا قد مثلت أندريا في تلك الحكاية أفضع تمثيل بحيث لم تتمالك ابنة الدوق عن إظهار رعبها عندما سمعت باكارا تخبرها بعودته ، فلما رأت بانكارا أنها دعوت أسرع إلى تطمينها فقالت لها : لا تخافي فقد مات موتاً حقيقياً منذ أربعة أشهر دون ان يسر قلبه بنجاح المكيدة الهائلة التي خطتها قريحتيه الجهنمية .
- ما هي هذه المكيدة ؟
- كان الغرض منها زواجك .
- فصاحت الفتاة صيحة رعب منكرة وقالت : تزويجي أنا ... أكان يريد أن يتزوجني .
- كلا ، لم يكن يريد أن يجعلك زوجته ، بل كان يحاول أن يزوجهك
- تلميذه

- ومن هو قلميذه هذا ؟
- إنه شاب شديد المكر يدعونه روكامبول .
- روكامبول ؟ ليس هو هذا اللص الذي كان يحاول إغراء الكونتس دي كركاز ؟
- هو بعينه .
- وهذا اللص كان يريد أن يتزوج بي ؟
- نعم يا سيدتي .
- رماه ماذا أسمع ؟
- إنه كان يريد أن يتزوج بك وقد ضمن له استأذه أندريا الفوز .
- فعملت ابنة الدوق تضطرب وتقول : ما هذه الحسارة النادرة ؟
- ولكن روكامبول كان ناكراً لجميل استأذه فإنه قتل السير فيليام وخسر بموته كل أمل من الفوز .

ولما اتضح ذلك لابنة الدوق لبثت حيناً واجهة منصعقة بما سمعته من تلك الأخبار الهائلة وقد ثارت في هذا البدء عاصفة كبريائها حين علمت أن لصاً سفاكاً مثل روكامبول تجاسر على الطمع بزواجها ، ثم تلا هذه العاصفة سكون حزن وبلاهة يصعب وصفها ، إلى أن ثابت من المؤثرات فنظرت إلى باكارا وقالت لها بكبرياء :

- إن جميع ما تقولينه لي يا سيدتي هائل وحشي ولا شك اني قد أصبت بعقلي فسمعت الحديث الى آخره ، بل لا شك اني قد أصبت بالبلاهة لما بدا علي من ظواهر تصديق الحديث .

- سيدتي ؟

- ولكنني أفترض أن ما تقولينه أكيد وتفترض أيضاً انه اتفق وجود لص في باريس يدعى السير فيليام وشقي يدعى روكامبول. وإن هذين الاثنين قد اتفقا وتجاسرا على تزويجي باحدهما

- هذه هي الحقيقة بعينها ولا ريب فيها .
- قلت لك اني أفترض ومع ذلك فلو سلمت بهذه الحقيقة وأنتى روكامبول يخطبني .
- تريد أن تقولي إنك ترفضينه .
- فلم تنازل ابنة الدوق الى إجابتها .
- أما باكارا فلإنها لم تتكدر لكبرياء الفتاة ، وما بدا عليها من مظاهر الاستهزاء والاستخفاف بل قالت لها : لقد سبق وعدك لي يا سيدتي أن تصغي لحديثي الى النهاية .
- وسأحافظ على هذا الوعد فقولي ما تشائين .
- انه منذ عهد بعيد يا سيدتي أي منذ ثلاثين عاماً حين عودة الملكية الى فرنسا قدم رجل الى باريس ودعى نفسه الكونت سانت هيلانة وقد عينه الملك كولونيل في الجيش ففتحت له قاعات باريس الكبرى أبوابها وكان الأعيان يستقبلونه باجلال يوافق مقامه .
- فبينما كان ذاك الكولونيل عائداً يوماً من حفلة استعراض الجيش وهو في ملابسه الرسمية الباهرة اصطدم كتف بكتف شحاذ متسول كان واقفاً مع المتفرجين ، فقد هذا الشحاذ يده اليه يضافحه وناداه باسم بسيط خلو من كل لقب او رتبة ، فصده الكولونيل ودفعه باشمزاز وانفة ، فارتفع صوت الشحاذ وكثر اللفظ وكان بين الاثنين خصام شديد حكم فيه المجلس بعد بضعة أشهر .
- لقد عرفت هذه الحكاية ولكني لا أجد لها علاقة بما أنا فيه .
- ذلك لأنك لا تعلمين يا سيدتي ، أن أندريا قد هذب تلميذه روكامبول أتم تهذيب والبسه خير لباس يتمكن من أن يجعله زوجك .
- فابتسمت الفتاة وقاطعتها فقالت : إن من كانت مثلي لا تمنخدع بمن يقلد الأعيان تقليداً وهو ليس منهم .

فأجابتها بأكارا بتهكم : أتحسبين يا سيدتي انك لا تتخذهين ؟
- بل أؤكد ، حتى ولو قدموا لي المسيو روكامبول باسم جنرال ، فلا
أنخدع به .

- ليكون ما تريدين . والآن فاسمحي لي قبل أن أندفع إلى الحد الذي
رسمته لنفسى ، أن أكلحك عن رجل أظن انه استلقت بعض انتباهك في
الليلة الماضية .

فصبيغ الدم وجنتيها وقالت وهي ترتعش : العلك تريدين أن تحدثني بشأن
هذا الشاب الذي كان مرتدياً بلباس المجرمين ؟
- هو ما تقولين يا سيدتي .

فزادت دقات قلبها وقالت العلك تريدين أن تقولي لي أيضاً أن له
علاقة بي .

- نعم يا سيدتي .

- كيف ذلك ؟

- ذلك ان الكونت سانت هيلانة الذي اختصم مع الشحاذ كان مجرمًا سفاكًا
فقتل الكونت الحقيقي وتسمى باسمه .

- وبعد ذلك ؟

- وأن روكامبول تلميذ أندريا قد اقتدى بذلك السفاك كي يكون له مقام
في الهيئة يتمكن به من البلوغ إلى العائلات الكبرى .
- ماذا تقولين ؟

- أقول أن روكامبول كان يحسب أنه قتل ذلك الرجل الذي رأيته أمس
في الحفلة الراقصة وكان بلباس المجرمين ولكن هذا المسكين لم يمت كما يظن بل
احتجب عنه لوجوده في السجن .

- الرجل الذي رأيته أمس ؟

- هو بعينه ! ألم يقل لك في الليلة الماضية ان العاصفة أغرقت السفينة

التي كان فيها فالتجأ إلى جزيرة صغيرة وأغمي عليه فلم يجد نفسه إلا في سفينة عبيد أسوجية ؟

- نعم أخبرني كل هذا .

- ثم أنه أخبرك بكل ما جرى له بعد ذلك ، ولكنه لم يقل لك انه حين نجا وسبح إلى الجزيرة كان يصحبه رجل آخر نجا مثله بالسباحة .

- وماذا فعل به هذا الرجل ؟

- تركه ملقى في الحفرة وهو واثق من انه سيموت فيها إلى أن أنقذه رجال السفينة الأسوجية .

- وما كان غرض هذا الرجل ولماذا تخلى عنه بالحفرة ؟

فهزت باكارا كتفيها وأجابت : إن الرجل تخلى عنه لأنه كان يدعى روكامبول ، وقد تركه بعد ان استولى على أوراقه وجوازه وملابسه .

- لقد فهمت الآن اليس ان روكامبول قد تسمى باسم هذا المنكود حين كان يريد أن يخطبني ؟

- هو ما تقولين . فإنه لم يتداخل مع العائلات إلا بعد تنكره بهذا الاسم وقد استولى بهذا التنكر الغريب على جميع ثروة ذلك المسكين وصار من الأغنياء المشرفاء حتى انه بات يؤمل ان يتزوج بك .

- إن ما أسمعته غريب يا سيدتي فلاني عاشرت جميع الأعيان في باريس ، وعرفت معظم أسرارها ورأيت كثيرين من شبانها فلم أجد بينهم من يحمل هيبته وأحاديثه على شيء من الريب

- تذكرني جيداً يا سيدتي .

- لماذا تريد أن أجهد نفسي بالتذكر وأنت تستطيعين بكلمة واحدة إماطة الحجاب فتذكرين اسم المجرم الذي يدعى روكامبول وقد سرق اسم هذا البحار المنكود وثروته والقباه .

وكانت باكارا تكلمها إلى ذلك العهد ببساطة ، كمن يقص حكايته في مجلس

ولكنها عندما رأت ان ابنة الدوق تلح عليها بمعرفة الاسم الذي ادعاه روكامبول ، ارتسمت على وجهها علائم الجذ والكآبة وقالت : إنك يا سيدتي من أشرف العائلات الاسبانية ، وتحول في عروقتك أطر الدماء ، فأنت بمقام أسرتك العظيمة تشبهين تلك الشجرة الضخمة التي تهزها الرياح الشديدة ولكنها لا تقتلعها . ولهذا تجاسرت وأتيت اليك وأنا أعلم بأن الحقيقة سيكون وقعها شديداً هائلاً عليك وعزائي بإبلاغك هذا الخطب الشديد انك ستكونين بعد ملاقاته آمنة من كل طارئ .

فوقفت ابنة الدوق مضطربة مصفرة الوجه وقالت : أنا مهددة بهذا الخطر .
رباه ! ماذا حدث وما عسى ان يكون أصابني ؟
- إني أتيت لإنقاذك أيتها الفتاة المنكودة .

-- ماذا اسمع ... تكلمي . أوضحني ما تقولين ، فإنني لم أعد أطيق الصبر
تكلمي . .

فترددت باكارا هنيئة ثم قالت إن الرجل الذي رأيته بملاسن المجرمين في الحفلة الراقصة هذا الرجل الذي سرقوا اسمه ولقبه وروته أتعلمين ماذا يدعى ؟ إنه يدعى المركيز فريدريك البرت ألوريه دي شمري وهو المركيز الحقيقي أما أنت فإنك ما أحببت إلا روكامبول . .

أما ابنة الدوق فانها لم تصح صيحة ولم تقل كلمة ولكنها تراجعت خطوتين إلى الوراء ثم انقلبت على ظهرها مغمياً عليها .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخلت منه الدوقة فلما رأت ابنتها دون حراك وباكارا يجانبتها صاحت : أواه لقد قتلت ابنتي فاني سمعت كل شيء .

٢٠ -

مر على هذا المشهد المتقدم بضع ثوان كانت المرأة تخالها دهراً ، ولكنها بعد ان جعلت كل واحدة منهما تنظر الى الأخرى هنيهة ، وأسرعنا بعدها الى الفتاة المنطرحة أمامهما ، فحملتاها ووضعتاها على السرير الذي كان في الغرفة .

ثم دنت باكارا من جرس موضوع على المائدة وحاولت ان تفرعه كي تستدعي الخدم غير ان الدوقة منعتها وقالت لها : لا تفعلين فلا أحب ان يعلم الخدم شيئاً من هذا .

وأسرعت الى غرفة فأحضرت زجاجة رائحة منعشة وزجاجة خل فوضعت الرائحة قرب أنفها وجعلت تفرك صدغيها بالخل فلم يمر ربع ساعة حتى استفاقت من إغمائها وفتحت عينيها .

وقد نظرت أولاً الى أمها ثم الى باكارا وهي مندهشة لاتفاق وجودهما معاً ، ثم ضربت جبهتها بيدها بفتة وقالت بلمهجة غريبة : لقد تذكرت أيتها الكونتس .

ولم تكذبتم كلامها حتى وثبت من سريره و دنت من باكارا التي تراجعت خطوتين كي تدع الدوقة تدنو من ابنتها فقالت بسكينة تامة خشيت المرأة ان تكون مقدمة الجنون . سيدتي انظري إلي جيداً ، فاني أدعى كونسبسيون دي سالانديررا .

فعلت أمها انه سيجري بين ابنتها وبين باكارا أمور هائلة غير أنها لم تجسر على المداخلة بل لبثت بعيدة عنهما ساكنة تنظر الى ابنتها نظرات الخوف والاشفاق .

فقالت لها باكارا . إني أعلم يا سيدتي اسمك . وقد اضطرب صوتها لأنها أدركت صعوبة موقفها .

- إنك متى عرفت إسمي يا سيدتي تعرفين أيضاً اني اسبانية أي اني أعرف ان اكوه وان احب إلى أبعد مدى الحب والكراهة . ولما كنت آخر من بقي من أسرة سالانديرا فاني أشعر ان دماء آبائي تجتمع كلها في عروقي .

وبرقت عينها على أثر كلامها ثم تابعت : إنني قد أغمي علي لأول وهلة ولكنني أذكر الآن كل ما تقدم حادثة إغمائي وإن جميع كلامك قد طبع في ذاكرتي بحروف ذهبية لا تمحى .

وقد أرادت باكارا ان تجيبها غير انها قاطعتها بإشارة ملئها الكبرياء وتابعت : إنك اخبرتي قبل إغمائي ان الرجل الذي أحببته وكاد يكون زوجي لم يكن المركيز دي شمري اليس كذلك ؟

فأحنت رأسها بكسابة إشارة الى الايجاب .

- وانت تقولين ان المركيز دي شمري الحقيقي هو في سجن قاديس .

- نعم يا سيدتي .

- وان الرجل الذي تسمى باسمه في باريس هو لص سفاك وقد كتبت

حكايته خاصة كي تطلعيني عليها .

- نعم وهذا اللص هو روكامبول .

- انظري يا سيدتي الى سريري ألا تجددين قرب صليباً ؟

- نعم ..

- إذن فاسمعي يمين اسبانية من أسرة سالانديرا التي يتصل شرف نسبها منذ الف عام ، اني اقسم لك بهذا الصليب المقدس انه اذا كان ما تقولينه اكيداً ، وكان هذا الرجل الذي أحببته اللص روكامبول فانه سيعاقب ، وان جبي له يستحيل الى كره عجيب ينطبق على جسارته النادرة برفع نظاره الى ولمس يده ليدي فأعذبه عذاباً لا يخطر في بال احد من اهل هذا الجيل ولم يحدث مثله الا في القرون الوسطى المظلمة .

وكانت ابنة الدوق تتكلم بصوت منخفض وبلهجة شديدة تدل على مبلغ

انفعلوا لها فان عينيها كانتا تتقدان وتنفذ منهما الأشعة كوميض البرق وقد اصفر
جبينها وبدت بأعظم مظاهر الجلال والعظمة والكبرياء فكان يظهر ان دماء
جميع اجدادها قد تسربت يميلتها الى عروقه
ثم توقفت هنيئة عن الكلام ونظرت الى امها فرأت عينيها تغرورقان بالدموع
والى الكونتين ارتوف فرأتها مطرقة بنظرها الى الأرض تفكر بنكبتها فعدت
الى الكلام ووجهته الى باكارا فقالت :

وما اذا كنت كاذبة فيما تقولين او كنت منخدعة او كان جميع ما بدر
منك زوراً وبهتاناً وكان هذا الرجل الذي احببته اهلاً لحبي فاني اقسم بشرف
اجدادي اني لا اشكوك الى المحاكم انتقاماً منك بل اني انتقم لنفسي ثم
اخذت بيدها خنجراً كان على الطاولة وتابعت : اذا كنت كاذبة فلا تتوتين إلا
من يدي بهذا الخنجر .

فرفعت باكارا رأسها واجابت ببرود : لعلمي يا سيدتي اني لم انهج هذا
النهج ولم اخبرك بهذا الخطر الهائل الذي كان يندرك إلا وتوقعت ان اسمع منك
ما سمعت ولو لم تكن لدي البراهين الكافية المسببة لما قلته لك لما تجاسرت على
إبراز هذه الحقيقة لعلمي بمقدار تأثيرها عليك . اما وقد تحملت هذه النكبة
التي لا يقوى عليها سواك بمثل ما بدا منك من الأنفة فلا اجد الآن ما يمنعني عن
قائمة الحديث فاصفي إلي .

إنه منذ عامين توفيت المركيزة دي شمري في قصرها في سانت جرمين
، وكانت آخر لفظة خرجت من فمها اسم ولدها .

وكان بالقرب من سريرها عند نزاعها فتاة وفتى وهما راكمان يبكيان فدخل
رجل لا يلقب له فأخذ الشاب بيده وطرده من المنزل وعاد الى الفتاة فقال لها :
لا تبالين اني اخوك . ثم ركع امام سرير المركيزة وهي جثة باردة وجعل يبكي
بكاء شديداً كأنما هو ابن المركيزة الحقيقي وقد فجع بفقدها .

وفي اليوم التالي تبارز مع ذلك الرجل انتقاماً لأمه فارتفع شأنه في العائلات
وأيقن الناس انه المركيز دي شمري لا ريب فيه .

فقال الفتاة الى أين تريدن البلوغ بحديثك وأنا أنتظر البراهين .
 - سأظهر لك يا سيدتي إنما يجب قبل ذلك أن تعلمي كيف كنت وكيف
 كان مركزي حين كشفت سر هذا المسافر وعلمت أنه روكامبول يتنكر
 باسم المركيز .
 - كلا اني أريد البرهان

. ما هذا الاحاح والنقاطع هوذا الأبواب أمامك فأفعلها إذا كنت
 تخشين أن أهرب ، فانك أنذرتيني بالقتل إذا كنت كاذبة ، وأنا افتح صدري
 لختجرك متى يشئت من اقناعك غير أن لا بد لك من الاصفاء الي .
 فشمرت ابنة الدوق أنها مخطئة بالحاحها وقالت لها تكلمي يا سيدتي وها
 أنا مصفية اليك .

- ان ذلك اليوم الذي هتكت فيه أسرار ذلك الماكر كنت أرى فيه
 فتاتين أمامي ، إحداهما يا سيدتي أنت ، فقد كنت معرضة لخطر الزواج
 بهذا السافل ، ولكن الخطر كان يمكن ملافاته ، والثانية يا سيدتي هي
 تلك المرأة التي قضى عليها نكد الطالع أن تكون أقل حظاً منك فانها منذ
 عهد بعيد تسادي ذلك السفك بأخيها فتصافحه وتماققه وتجنه كما تحب
 الأخت أخاها وهي لا تعلم أن يدها كانت تصافح ذلك اليد الملطخة بدم
 أخيها الحقيقي .
 - يا للهول .

- وقد علمت يا سيدتي انك شديدة صبورة فاذا أخبرتك بالحقيقة
 تستطيعين الصبر عليها خلافاً لبلانش دي اسمول فانها إذا علمت بها مني تموت
 لا محالة .

- ماذا تعنين أيتها الكونتيس ، الملك تريدن أن أقول أنا أخبرها
 بالحقيقة ؟

- كلا . . فان السر سيبقى مكتوماً عنها ، أما البوهان الذي تطلبينه

بالحاح فهو الصورة التي تمثل المركز الحقيقي ، فإن الرجل المقيم الآن في السجن يشبهه شبحاً غريباً حين كان في عهد الطفولة ، ولما كنت قد رأيته أمس وعرفت هيئته فانك تعلمين انه هو المركز الحقيقي حين تنظرين إلى صورته وهو صغير .

ثم عرضت عليها الصورة فما لبثت ابنة الدوق ان تأملتها حتى صاحت صيحة دهش لأنها رأت ان الصورة تشبه السجن بالعينين والفم والابتسام وتلك الهيئة الدالة على التفكير وقالت كيف عثرت على هذا الصورة ؟
- ان زامبا سرقها .

- من اين ؟

- من قصر الأورانجوري في التورين .

فذكرت ابنة الدوق للحال ذلك الكتاب الذي ورد اليها من روكامبول وما كتبه لها عن الصورة ، فدنّت من باكارا فمزتها بعنف وقالت : أعطني برهاناً واحداً يدل على أن الصورة هي صورة المركز دي شمري وأنها أخذت من قصر الأورانجوري أصدق كل شيء .

فوضعت باكارا أصبعها في آخر الصورة وقالت لها انك خبيثة يا سيدتي في فن التصوير فاقري هذه الكلمات المكتوبة ، المخطوطة بالدهان الأحمر تعلمي من ذلك اللون انها بعيدة العهد .

فقرأت ابنة الدوق تلك الكلمات وهي توقيع المصور واسم المركز واسم القصر ، وفحصت ذلك الدهان فعلمت انه قديم منذ عشرين عاماً على الأقل وذكرت أن روكامبول كتب لها أن الصورة سرقت من قصر الأورانجوري ، ورأت أن الرسم يشابه السجن أتم مشابهة فلم يبق لديها ريب بصدق أقوال باكارا فدنّت لها يدها تصافحها وقالت : أرجوك الصفح أيتها الكونتس فقد أسأت بك الظن .

ثم تلاشت قواها بعد ان ثبتت لديها تلك الحقيقة الهائلة فسقطت على

كرسي طويل وهي تقول : رباه ما أشهى الموت .
فأسرعت إليها باكارا والدوقة وجعلتا تعزيانها .
بعد ذلك بساعة كان الفجر قد بدأ ينبثق فبرحت باكارا القصر ونزلت
من المشرف إلى السفينة فذهبت بها إلى الميناء .
وكان فرناند روشي ينتظرها فقال لها وهو منشغل البال :
- ما وراءك ؟
- لقد قضي الأمر ..
- أعلمت كل شيء ؟
- كما أعلم أنا وانت بحيث لم يعد يفوتها شيء ؟
- ألم تمت لذلك الخبر الشديد ؟
- لقد تركتها بين يدي والدتها وهي مصابة بحمى شديدة ولكنها باقت
آمنة من كل خطر .
- أتخسبين انه لم يبق خوف عليها ؟
- هذا لا ريب فيه فان تنازع الحب والكراه سينقذها ..
- ما تعنين ؟
- أريد أنها أحبت ذلك اللص السفاك روكامبول حباً شديداً ولا بد
لذلك الحب ان يتحول إلى بغض أشد .
- هذا لا ريب فيه ، ولكن أي حب سيتنازع مع البغض ؟
فابتسمت باكارا وقالت : انها لا يمر بها اسبوع حتى تتولع بحبه المركز
دي شمري الحقيقي .
فارتعش فرناند وقال : إذا حدث ذلك فما نصنع ؟
- كن مطمئناً فان لدي خطة لا أستطيع اظهارها لك الآن .
ثم تأبطت ذراعه وقالت له . سر بي الآن إلى الفندق ثم اذهب إلى قومندان
الميناء واسأل عن زامبا فاني انتظرتة أكثر من ساعة فلم يحضر وقد بت منشغلة

البال في امره فاني لا أزال أخشى الخيانة .
وسار الاثنان فأوصلها فرناند إلى الفندق الذي كانت مقيمة فيه مع
خادماتها والطبيب صموئيل في شارع معتزل بعيد عن الفندق الذي يقيم فيه
فرناند وروكامبول .
ولما وصلت إلى باب الفندق رأت رجلاً مقيماً على بابه فاندحشت اندهاشاً
عظيماً حين رآته ، لأنه كان زامبا .

٢١

ولنعد الآن إلى البارون بولاسكي ، أي روكامبول الذي تركناه مشهوراً
مسدسه على زامبا ، الذي كاد يجن من رعبه ، فانه لم ينس بعد هول هذا
الرجل وسلطانه السابق عليه .

ولم يكن يخطر له في بال انه سيلقى هذا الداهية ، ولذلك أتى برسالة
قومندان الميناء آمناً مطمئناً ، وهو موطد النفس بعد ايصال الرسالة على
الذهاب الى باكارا التي كانت عازمة على ان تصحبه معها الى ابنة الدوق كي
يخبرها بحقيقة امر روكامبول .

فلما رأى ان البارون الالماني لم يكن غير روكامبول ، وان هذا الشيطان
المريد يشهر عليه المسدس علم انه لم يبق حائلاً بينه وبين الموت فتراجع
الى الوراء ، والذعر ملء قلبه ، وقال له ببساطة الأطفال : العلك تريد
قتلي مرة ثانية ؟

فضحك روكامبول ضحكاً عالياً وقال له : ان من لا ينجح في المرة الأولى
فلا بد له من أن ينجح في الثانية غير اني لا أريد قتلك اليوم بل قد سررت
جداً ببقياك .

وكان زامبا قد عادت اليه جرأته لما رآه من بشاشة روكامبول فقال له :
ولكني انا لم اسر بهذا اللقاء .

فجلس روكامبول على كرسي وصوب المسدس الى زامبا وقال له : ان
الأبالسة لم تنقذك من الموت في المرة الأولى الا خدمة لي لأنها علمت بسأني لا
ازال محتاجاً اليك ..

- ربما تكون الأبالسة قد اصابك غير اني اخشى ان ينطلق المسدس
فتخسر انتفاعك بي .

- كلا .. فاصفي الي الآن .. اني قد تسرعت بارادة قتلك في ذلك القبو
غير انك لو كنت في موقفني لفعلت فعلي دون شك فاني سمعت حركة من
خارج الغرفة فاضطرت إلى قتلك واقفال القبو .

- ليس هذا يا سيدي ، ولكنك كنت واثقاً من اني علمت اسمك الحقيقي
ونحن في تلك الغرفة فلم تجد بداً من قتلي ..

فارتعش روكامبول وقال : كيف عرفت اسمي ؟

- لأن مدام فيبار دعتك امامي باسم روكامبول .

- انه اسم مخفك اربد به التمكنر .

- ولكنه اسم مشهور كما يظهر ، كما اني اعلم ايضاً اسمك الآخر ..

- اي اسم تعني ؟

- الاسم الذي تسمى به امام العائلات .

فاصفر وجه روكامبول اصفراراً خفيفاً لم يخف عن زامبا مما زاد في جرئته
فقال : ارجوك العفو يا سيدي فقد رأيت اني اسأت اليك بهذه الأخبار حق
بت اخشى ان ينطلق المسدس الذي بيدك .

- أهذا الذي يخيفك ؟

- لا أنكر عليك الحقيقة يا سيدي غير اني لا اخاف على نفسي بل
عليك ..

— كيف ذلك ؟

— ذلك انه إذا خرجت الرصاصة من المسدس خرج معها دوي شديد فيسرع اليك رجال الفندق وينزعون عن وجهك هذه اللحية الحمراء ، وعن رأسك الشعر المستعار ، وعن خديك ذلك اللون الأصفر ، وعن جبينك تلك الغضون المصنوعة ، فتبرز للعيون شاباً من مشاهير باريس ، وعضواً في اعظم منتدياتها .

— اسكت ايها الوقح ..

— إذن فقد رجعت عن قتلي اليوم لأنني عارف حقيقة امرك يا حضرة المركيز دي شمري ؟

— اتعلم اسمي الحقيقي ايضاً ؟

— اعلم اكثر من هذا فدع المسدس إذا اردت ان تعلم الحقيقة .
وقد تغير موقف اللصين بعد هذا الاقرار ، فبعد ان كان روكامبول صاحب السلطة والسيادة على زامبا ، اصبحت تلك السيادة لزامبا بعد ان برهن له انه يعرف اسراره .

فقال له روكامبول بصوت يتهدج من الاضطراب : اذن فأنت تعلم اسمي ؟

— بل اعلم ايضاً انك عازم على الاقتران بابنة الدوق سالانديريرا .
فصوب روكامبول مسدسه إلى زامبا وقال له : وبعد ذلك .
— انك تستطيع قتلي يا سيدي المركيز غير انك اذا علمت كل ما اعلمه ، وعلمت بأنني قادر على نفعلك لرجعت عن هذا القصد السيء .

— ليكن ما تريد فقد عفوت عنك فقل الان ما تعلم .
فابتسم زامبا ابتسام الساخر واجاب : انك كريم الأخلاق يا سيدي المركيز ولكني لا اريد ان ابيعك اسراري بحياتي بل بثروتك
فراخ روكامبول ما رآه من سكينه زامبا واجابه : حسناً فسأعطيك من

- هذه الثروة ما يكفيك .
- اني لا أقنع بالقليل
- سأعطيك ما تشاء بعد ان اتزوج بابنة الدوق .
- فضحك زابا بدوره ضحكة تقطع لها فؤاد روكامبول من الغيظ ثم اجابه
- لقد كان من حسن طالعك انك أتيت في هذا المساء .
- لماذا ؟
- لأنك لو أتيت في الغد لغات الألوان دون شك .
- كيف يفوت الألوان وماذا تعني ؟
- أعني انك لو لم تأت في هذا المساء لكانت علمت ابنة الدوق غداً كل شيء
- اي انها علمت انك أنت روكامبول وإن المريكز دي شمري الحقيقي .. ثم
- توقف عن الكلام وتراجع خطوة إلى الوراء .
- فقال له روكامبول : يا ويحك أتعرف هذا ايضاً ؟
- أعرف ان المريكز دي شمري في سجن قاديس .
- فنظر اليه روكامبول نظرة من أصيب بالبله لما كان من شدة وقع هذا
- الكلام عليه غير ان زامبا لم يعد يحفل به فقال له . أتري كيف أصبحنا
- صديقين وكيف أصبحت في مأمن منك ؟
- قل ماذا تعلم ايضاً ..
- أجلس أمامي ولنتحدث فاني واثق من إننا سنتفق .
- وانا واثق كل الثقة .
- ان الذين يحترفون حرفتنا يتفاهمون بالاشارة ، فإذا شئت أن نتفق
- فدع الآن مريكزيتك ودعني اكلمك بغير إضافة القاب السيادة التي لا فائدة
- منها غير تطويل الجمل .
- فأذن روكامبول من غيظه وقال : تكلم كيف شئت : وقل ما تعلم .
- إذن فأعلم أنه يوجد امرأة تقتفي آثارك ، وقد عهدت الي أن

أبحث عنك .

- ما اسمها ؟

- الكونتس ارتوف .

- اني أعرف ذلك .

- وقد سرقوا صورة من قصرِكَ في الارانجيري .

- من الذي سرقها ؟

- أنا .

- أنت ؟ وماذا صنعت بها .

- أعطيتها للكونتس ارتوف .

- تبا لك من خائن .

- كيف تعد ذلك خيانة ، فاني خدمتك فجازيتني بالقتل ، وخدمتها

فجازتني خير جزاء وهي تعلم حقيقة أمري كما تعلمه أنت .

- وأين هي الآن هذه الكونتس ؟

- هنا في كاديس .

- يا للشقاء

- ومعها الصورة وهي ستعرضها على خطيبتك العزيزة ثم تقدم لها المريكز

دي شمري أي المريكز الحقيقي وليس أنت .

- إذن لقد دنت ساعتي وخسرت كل شيء .

- إلا إذا تدأخلت أنا في أمرك .

- كيف تتدأخل في أمري وماذا تستطيع أن تفعل .

- اني أستطيع أن أزوجه ابنة الدوق وأعيت بها كارا وأغرق المريكز

الحقيقي وأصيرك دوقاً من عظماء الاسبان إذا أردت .

وكان زامبا يتكلم بلمهجة الواثق من الفوز فيما يقول فجعل روكامبول ينظر

اليه وقد علق به كل رجائه .

ساد السكوت مدة بين هذين اللصين غير ان عيونهما كانت تتكلم بأفصح لسان وقد خفض جانب روكامبول وذل بعد عزته وأطرق برأسه إطرارق المغلوب الخامس ثم أيقن ان زامبا يصلح أن يكون شريكه في آرائه فأعاد النظر اليه وسأله :

— إذن فأنت تريد المساومة ؟

— ربما .

— ما هي شروطك ؟

— إن شروطي مسهبة كثيرة التفاصيل أيها الصديق العزيز .
قال هذا وجلس على الكرسي الذي تركه روكامبول .

وكان روكامبول قد وضع مسدسه على الطاولة حين أيقن انه لا فائدة له من قتل زامبا ، أو انذاره فمد زامبا يده بسكينه وأخذ المسدس .

فلما رآه روكامبول ذعر ذعراً شديداً وأسرع إلى زامبا كي يقتصب منه المسدس غير ان زامبا صوبه إلى رأسه وقال له :

— خير لك أن تبقى مكانك مطمئناً فإني أعرف أن أدير المسدس كما تعرف أن تديره أنت ، ويكفي أقل كلمة منك لقتلك فقد ينطلق من يدي إذا بدر أقل بادرة منك فلا يكون حظك غير الموت العاجل .

ولما رأى زامبا ان كلامه قد أثر على روكامبول أمره بالجلوس فامتلل فقال له متهاكماً :

— أي يا حضرة المركيز ... أكننت تعاملني في باريس حين كنت صاحب السلطان المطلق خيراً مما أعاملك الآن ، بعد أن خلعت عنك تلك السلطة ؟

— وبعد .. ماذا تريد ؟

- أريد أن أعرض عليك شروطي .

- وأنا مستعد لسماعها ..
- أولاً اني أريد أن اكون وكيل قصر ك وأملكك بعد أن تصير زوج ابنة الدوق سالانديريرا كما كان اتفاقنا من قبل ..
- لقد قبلت ..
- ثم اني أرجو مولاي الدوق سالانديريرا شمري أن يعقد معي اتفاقاً ..
- على أي شيء ؟
- لا تخف فسأعطي عليك صورة الاتفاق ولكني لا بد لي قبل ذلك أن أشرح لك الحالة بتفاصيلها .
- تكلم .
- إن الكونتس أرتوف في قاديس .
- لقد قلت لي ذلك ..
- ولديها صورة المريكز الحقيقي وهي عازمة على أن تعرضها على ابنة الدوق ثم تقدم لها المريكز .
- فقال له روكامبول وقد تمكن منه الرعب : اسكت .
- كلا لا يجب الصمت يا سيدي ، فاني إذا لزمتم الصمت فلا تعلم شيئاً ، اعلم الآن انه يوجد أمر لا ينبغي أن تنسى خطارته .
- ما هو ؟
- هو انه إذا اجتمعت الكونتس أرتوف بابنة الدوق تقضي باهلاكك وتخسر كل شيء .
- ولكن باكارا ليس لديها برهان .
- ان لديها الصورة وفوق ذلك أخبرتها بكل شيء .
- وكان روكامبول قد نسي انه أصبح في قبضة زامبا وقف وصاح به وهو يزد من الغيظ : ويحك أيها الشقي الخائن كيف اطلعتها على كل شيء .

غير ان زامبا لم يحفل بغضبه فاكتفى بتصويب المسدس اليه وقال له بلاء
السكينة : اني لم اكتب بأني حكيت لها كل شيء بالتفصيل منذ موت الدوق
جوزيف إلى موت الدوق دي مايلي بل وعدتها أن أبوح بكل شيء أيضاً إلى
ابنة الدوق سالانديررا وان أعطيها تلك الرسائل التي كنتم سيادتكم توقعون
عليها باسمها بعد تزوير خطها وكنت أنا احملها إلى الدوق دي مايلي فأخبره انها
من ابنة الدوق .

- كيف وصلت اليك هذه الرسائل .
- انها لم تصل إلي ولكني أنا وصلت اليها وذلك اني سرقتها من خزانة
الدوق المرحوم بعد وفاته .
- وسأراها ابنة الدوق ؟

- لا يمكن أن تراها إذا تم اتفاقنا وإذا لم يحدث بيننا مصاعب في هذا
الاتفاق فاني أخدع الكونتس أرتوف وأحضر لك صورة المراكز الحقيقية
فتتلفها ثم تفتك بهذا المراكز المسجون في سجن قاديس فتلبث ابنة الدوق مقيمة
على هواك وتقترب بها بعد أسبوعين .

فارتعش فؤاد روكامبول وبرقت عيناه بأشعة الأمل فقال له : قل إذن ما
هذا الاتفاق الذي تريد أن نتعاقد عليه ؟
- انه لا يزيد عن أربعة سطور .
.. وما هو ؟

- اجلس على هذا الكرسي أمام مائدة الكتابة فأملئ عليك ما يجب ان
تكتبه .

وكان زامبا يلقي اليه هذه الأوامر وهو يلعب بالمسدس ارباباً لروكامبول
وتقليداً له فيما كان يفعله من قبل فعلم روكامبول انه بات يحملته في قبضة هذا
الرجل يعبت به كما يريد فلم يسمعه إلا الامتنال وجلس على مائدة الكتابة ثم
أخذ القلم بيده وجعل ينتظر ، فأملئ عليه زامبا ما يأتي :

في اليوم الواقع في ... كنت في قاديس في فندق السحرة وحدي مع زامبا
خادم غرفة الدوق دي مايلي سابقاً وخادم غرفة السنيور بادرو قومندان ميناء
قاديس الآن فصرحت لزامبا المتقدم ذكره بما يأتي :

« اني لست المركيز البرت فرديريك أولوريه دي شمري كما يظن النعاس
بل أني أدعى روكامبول ، وقد سرقت أوراق المركيز دي شمري
الحقيقي » .

وهنا توقف زامبا عن الاملاء لأن روكامبول توقف بعد أن كسر القلم
مغضباً وقال : اذا كان يخطر في بالك أني أعترف كتابة مثل هذا الاعتراف فلا
شك انك أصبحت من المجانين .

— ربما كان ذلك غير ان امضاءك على ما كتبتة الآن لا بد منه .

— لا أمضي ولو فقدت يميني .

— إذن فانك لا تتزوج ابنة الدوق وتذهب إلى سجن قاديس مؤقتاً إلى أن
ترسل إلى سجون فرنسا .

فاهتز روكامبول اهتزازاً عصبياً وأحمرت حدقتاه من الغيظ وأوشك ان
يبيض بزامبا ولكنه تراجع عن هذا القصد لخوفه من المسدس والحذره من
عاقبة الطيش .

- ٢٢ -

وساد السكوت هنيهة بين الاثنين اللذين بات أحدهما محكوماً من الآخر بعد ان كان الحاكم المطلق عليه ، ثم ضرب روكامبول الأرض برجله وقال : إذن فأنت تريد اعدامي أيها الشقي ؟

فضحك زامبا ضحك التهمك واجاب : اية فائدة لي من اعدامك فلو كنت أريد ذلك لما احتجت إلى ان استكتبك هذه السطور ، بل كنت أطلق عليك المسدس وأبلغ هذا المراد ، غير انه لا فائدة لي من قتلك ، ومق أخبرتك بالسبب الذي دفعني إلى حملك على كتابة هذا التقرير تدعن لي وتنقطع عن المقاومة .

فنظر اليه روكامبول نظراته السابقة كأنه يأمره بالايضاح . فقال زامبا : اني خدمتك بضعة اشهر باكثر مما كنت تطمع به من الاخلاص فاذا كنت أخلصت لك لحيوتي منك فقد كان معظم إخلاصي لما وعدتني به من الوعود الصالحة .

— ولا أزال مستعداً للوفاء بهذه الوعود .

— انك أكدت لي مثل هذا التأكيد قبل ان تلقيني في القبو وتطعنني تلك الطعنة النجلاء .

— هذا اكيد وأنا اقر بخطئي .

— اما انا فقد استكتبتك هذه السطور لأنني اخاف ان يحاول لك هذا الخطأ مرة ثانية فتعود اليه .

— وماذا تريد ان تصنع بهذه السطور ؟

— اني اضعها في غلاف واختمه بالشمع ثم اذهب به إلى احد رجال القضاء

فادفعه اليه واقول له : هذه وصيتي قد اودعتها هذا الغلاف وسأزورك في كل شهر ، فاذا مر شهر ولم ترني فافترض انني مت وافتح الغلاف فتجد الوصية افهمت الان يا حضرة المركيز ؟

فهرز روكامبول رأسه إشارة إلى المصادقة وهو مشتت البال .
فقال زامبا : إن هذه السطور ستضمن لي طول البقاء يا سيدي روكامبول ،
ليس كذلك ؟ كفاك ذهولا .. تشجع ووقع عليها فتزوج ابنة الدوق .

غير ان روكامبول بالرغم عن الاسم الذي كان يجذب فؤاده بقي يتردد
وهو ينظر محذرا الى زامبا كأنه يريد ان يخترق حجاب نفسه ويعلم ما في
اعماقها من الاسرار ثم سأله :

- اهذا كل ما تطلبه ..

- نعم .. وليس لي مأرب آخر .

- اصحيح ما تقول ؟

- اني اعجب كيف ترتب بصحة قولي واية فائدة لي من خدمة المركيز
الحقيقي العله يعينني وكيلا لأملك سالانديرا ؟

- اذا كان حقا ما تقول فانك لا ترفض ان تكتب بضعة سطور كالسطور
التي كتبتها انا فخذ القلم كي املي عليك ..
ثم املي عليه ما يأتي ..

« إنهم يدعونني زامبا ولكن اسمي الحقيقي هو « جان الكائشا » وانا
بورغالي وقد حكم علي بالاعدام لارتكابي جريمة القتل في . الخ »
فقال له زامبا : إذا كان هذا كل ما تبغيه فهو سهل ميسور .

ثم كتب جميع ما املاه عليه بوضوح وجاء ووقع على ما كتبه باسمه
الحقيقي اي جان الكائشا .

وعندها مد روكامبول يده يريد اخذ الورقة فأسرع زامبا إلى تصويب
المسدس وقال له : اني لا اسلمك الورقة الا متى كتبت انت ايضا ما امليته

- عليك ووقعت عليها باسمك الصحيح فنتبادل الورقتين .
- ليكن ما تريد .
- ثم اخذ القلم فوقع على السطور التي كان زامبا املاها عليه من قبل واخذ كل منهما ورقة الاخر فوضعها بجيبه .
- وبعد ذلك نهض زامبا وقال : اني ذاهب الان .
- إلى اين ؟
- للاهتمام بأشغالك فانك ستنال الصورة غداً .
- قبل ان تراها ابنة الدوق ؟
- دون شك .
- وسجين قاديس ؟
- نقتله ..
- متى ؟
- غداً مساء . غير اني ارجوك ان تجيبني إلى سؤال وهو انك اتيت إلى قاديس كي تتزوج فإذا كان هذا قصدك فلماذا اتيت متنكراً باسم البارون بولاسكي ؟
- ذلك لأنني اردت ان ارى المريكز .
- المريكز الحقيقي .
- نعم ..
- اذن كنت عارفاً بأمره من قبل .
- بجميع تفاصيله .
- ان تنكرتك لا يفيدك بشيء وكان من حسن حظك انك لقيتني فلا ينفعك غير خدمتي في هذه المهمة ، والان فاقراء هذا الكتاب الذي جئتك به من عند القومندان فقد شغلت عنه بي .

ففض روكامبول الكتاب وقرأه ، فلما أتم تلاوته قال له زامبا : لقد فاتني أن أقول ان سيدي القومندان يدعوك غداً إلى العشاء وستجد عنده دون شك المركيز دي شمري .

فانتهره روكامبول وأجاب: أسكت ايها الوقح أوجد غيري من يسمى باسم المركيز دي شمري ؟

— لم يحن الوقت بعد إنما غداً تتاح منه الراحة الأخيرة . ثم وضع المسدس في جيبه .

— لماذا أخذت المسدس ؟

— لأنني أحتاج اليه وسأرده اليك في الغد .

ثم ودعه وانصرف دون ان يزيد كلمة على ما قال فلما انتهى الى الشارع قال في نفسه . إن الكونتس أرتوف تنتظرني منذ ساعة في الميناء وهي لا بد أن تكون اتهمتني بالخيانة لتأخري عن موافاتها .

وعندما لفظ لفظة الخيانة توقف وجعل يقول في نفسه . إن الانتقام مسرة الآلهة كما يقال ، وأنا أراه مسرة الانسان أيضاً فأني عندما يخطر لي خاطر الانتقام من روكامبول ، الذي أراد قتلي ، أشعر بارتياح عظيم ، ولكن العاقل من يرجو الفائدة بالانتقام . وأية فائدة لي إذا خنت روكامبول ؟

ولا تزال الوسائط ميسورة لعمله دوقاً اسبانياً وتزويجه بابنة الدوق الاسباني ، فاذا فعلت ذلك فاني أأال منه ثروة أصبح بعدها من الأغنياء وأكون في مأمن من غدره بفضل هذا الاقرار الذي استكتبته إياه ، وكنت قبل خروجي من غرفته أهزأ به وأضمر له كل شر . أما الآن فلا بد لي من الانتباه بيشه وبين أعدائه وبين انتقامي وفائدتي . فماذا أصنع ؟ وإلى أي الأمرين أميل ؟

اني إذا أنقذت روكامبول من موقفه الشديد أكون خادعاً لنفسي خادماً لرجل

لا أرجو له غير الشر مخالفاً لمواظف انتقامي .
غير أني إذا أنقذته أصبح من الأغنياء ولا أتوقع بعد مثل تلك الفرصة بعد
بلوغي حد الشيب اذن فإن إنقاذه أفضل لي من إعدامه .
ولأبحث الآن لأرى إذا كان إنقاذه ممكناً ، فان ابنة الدوق خطيبته
لا تعلم إلى الآن شيئاً من حقيقة أمره . فاني قد اتفقت مع باكارا على أن
لا تعلم هذه الحقيقة إلا مني . وهذه الكونتس تنتظرني الآن في الميناء كي
نذهب معاً الى ابنة الدوق ، فاذا ذهبت وإياها في قارب صغير ، فلا أسهل
علي من إغراقها في الطريق ، وهو خير ما يجب ان أعول عليه .
ثم ابتسم ابتسام الرضى لرجائه بالفوز في هذه الخطوة الهائلة واندفع يسرع
الخطى إلى الميناء كي يلتقي بباكارا حيث كانت تنتظره .



وكانت الساعة قدق عندما وصل الى الميناء مؤذنة بانتصاف الليل فلم يجد
باكارا ولكنه سمع أصوات المجاذيف ورأى خيال قارب صغير يبتعد فغشي ان
تكون باكارا سبقتة .
ورأى قارباً صغيراً راسياً في الميناء وفيه بحار يدخن بغليونه وهو يتأمل
النجوم قدفاً وسأله : أتعلم أيها الصديق من الذي يسير الى الصيد عند انتصاف
الليل في هذا القارب ؟
وأشار الى الجهة التي سمع منها صوت المجاذيف .
فأجابته النوتي : ليس الذي ذهب فيه بصياد .
— من هو إذن ؟
— سيدة تريد التنزه مفتنمة سكون البحر .
فامتقع وجه زامبا وقال في نفسه : لقد فسد كل حساب ، فإن هذه

المرأة هي الكونتس أرثوف ، وهي ذاهبة دون شك الى ابنة الدوق لترهبها الصورة وتطلعها على كل شيء . إذن فان روكامبول سيء الطالع ولا بد لي من التخلي عنه .

ثم ترك الصياد وجعل يطوف في شوارع المدينة الى الساعة الثالثة وتوجه الى الفندق المقيمة فيه باكارا وجلس على بابه ينتظر عودتها .

فلما عادت باكارا عند بزوغ الفجر رآته جالسا على باب الفندق كما تقدم ، فأسرع زامبا اليها وحياها ببلء الاحترام . فقالت لقد دعوتني إلى انتظارك ساعة فما معنى هذا الابطاء ؟

فاشار زامبا بيده إلى فرناند وأجاب : متى خلوت بك يا سيدي أخبرتك بكل شيء .

— تكلم أمامه

— أرجوك المذرة يا سيدي وأسأل سيدي الصفح فان ما أريد ان أقوله لك سر عظيم لا يقال أمام اثنين .
— لا بأس ، إتبعني .

ثم ودعت فرناند وصعدت إلى الغرفة المعدة لها في الفندق فتبعها زامبا حتى اذا خلاهما المكان دار بينهما الحديث الآتي ، فقالت باكارا :

— إنني أرى على وجهك ملامح الجد والاهتمام .

— ذلك لأن الأمر خطير .

— لماذا ؟

— لأنه يتعلق بروكامبول .

فارتعشت باكارا وقالت : ما ورايك من أخباره ؟

— كل أمر خطير فقد لقيته الليلة .

— ماذا تقول القيت روكامبول العمله هنا ؟

— نعم فهو في قاديس .

- متى أتى إليها ؟
- منذ بضع ساعات وقد جاءها متنكراً باسم البارون بولاسكي .
- لا شك أنك مجنون .
- كلا يا سيدتي بل إن ما قلته هو الحقيقة .
- رأيته بعينك ؟
- بل كلمته أيضاً وهو الذي دعاني إلى التأخر عن موافقتك في الوقت المعين فقد كنت عنده .
- ولكن أية غاية له بالقدوم إلى قاديس متنكراً ؟
- إنه أتى لتغيير الهواء فيها أولاً ثم لقتل المركيز دي شمري .
- كيف عرف أن المركيز حي ؟
- إنه يعرف كل شيء فقد عرف نصف هذه الخفايا في باريس .
- والنصف الآخر ؟
- عرفه مني .
- إذن فلم يعد بد له من الفرار وسينجو من قبضتنا .
- كلا ، فإنه ينام الآن آمناً مطمئناً ، وهو يحلم دون شك بزواجه بإبنة الدوق .
- قل إذن ما حدث بالتفصيل .
- ليكن ما تريد يا سيدتي .
- ثم أخبرها بجميع ما كان بينه وبين روكامبول وأراها الورقة التي خط عليها اعترافه بخطة وتوقيعه باسمه الصحيح ثم قال لها : أظن أننا نستطيع بهذا الاقرار أن نفعل به ما نشاء .
- نعم فلا بد من إرساله إلى السجن المؤبد أو إلى ساحة الإعدام .
- وأقامت باكارا مع زامبا نحو ساعة يتحادثان . فلم يعد يعلم أحد ما جرى بينهما . ولكنه عندما خرج زامبا ذهب إلى فندق السحرة حيث

يقيم روكامبول ، ودخل اليه فقال له : هذه هي صورة المركيز التي وعدتك
باحضارها .

ثم فتحها وأراه البقعة الظاهرة بها .

فأخذها روكامبول بيد مرتجفة وقال : ما أصنع بها ؟

قال زامبا . أحرقها ، فإنه إذا ذهبت آثارها زالت الموانع بينك وبين
ابنة الدوق .

وكان زامبا يقول هذا القول بلهجة المتهم غير ان روكامبول لم ينتبه اليه
لانشغاله بالصورة ولأن السير فيليام قد مات .

- ٢٣ -

بعد يومين مرا على اجتماع زامبا وروكامبول كانت مركبة خارجة في
الليل من قاديس متوجهة الى قصر أسقف غرناطة الذي تقيم فيه الدوقة
سالانديرا وابنتها .

وكان يوجد في هذه المركبة رجل وامرأة . أما الرجل فكان فرناند
روشي ، وأما المرأة فكانت باكارا ، ولكنها متنكرة بلباس الرجال كما
أتت من باريس .

فكان فرناند يقول لها : ألم يحن الوقت بعد لاطلاعي على هذه الأسرار
الغامضة ؟

فابتسمت له باكارا وقالت : نعم فسأوقفك على بعضها فسألني أجبك ، أو
أنا أبدأ بسؤالك فانك قد اشكل عليك دون شك كيف اني أريد أن تحب
ابنة الدوق المركيز دي شمري الحقيقي ؟

— نعم ولكنك قلت لي انك لا تريد أن تسوقي روكامبول إلى المحاكمة .

لأن مدام دي اسمول تعتقد انه اخوها وقد أحبته حباً أخوياً .

— هذا اكيد .

— غير . ان الذي لم أفهمه هو انه لو تحققت امانيك واحبت ابنة الدوق
المركيز الحقيقي ، ثم تزوجت به بدلاً من هذا الجسور روكامبول ، الا تخشى
ابنة الدوق ان تظهر الحقيقة في مستقبل الأيام ؟

— لا أظن .

— ألا تعلم الفيكوننتس . دي اسمول هذه الحقيقة ؟

— كلا .

— غير اني لا أرى ما تريه أو اني لا أفهم ما تقصدين .

— إذن فاصنع الي فاني سأطلعك على خطتي بتفاصيلها ، فاعلم ان المركيز
دي شمري قد أثر بلطفه وكأبته تأثيراً شديداً على ابنة الدوق التي لم تكفرت
له في بدء الأمر لتعلقها بحب روكامبول فلم تفهم سر ذلك التأثير ، ولكنها
ستفهمه الآن

— وبعد ذلك ؟

— سأبذل الجهد بادخال الحب إلى هذين القلبين ، فإذا نجحت فيما
أقصده وأنا واثقة من النجاح فلا أسهل من أن يحل المركيز في محل المركيز
الكاذب

— أظنن ؟

— بل أؤكد فانهم ينتظرون في باريس الذي يحسبون انه المركيز الحقيقي
وكل شيء مهياً لعقد الزواج الذي سيكون قراناً بسيطاً في كنيسة قصر
سالانديريرا ، لا يحضره أحد بسبب الحداد وبعد عقد القران يسافر العروسان
إلى مدريد ، وهناك يأخذ المركيز أوراق تعيينه من جلالة الملك سفيراً لدى
البرازيل ويسافر مع زوجته في اليوم نفسه .

- إلى البرازيل ؟
- دون شك .
- لم أفهم بعد ..
- هب ان هذه الاستحالة قد تمت وان المركيز دي شمري قال ما كانت
يطمح بنيله روكامبول فتزيج ابنة الدوق وعين سفيراً في البرازيل فانه سيقم
في تلك البلاد عشرة أعوام .
- لقد بدأت افهم .
- وان روكامبول يشبه المركيز بقوامه أتم الشبه ، ويشبه ذلك اللص في
ملاحه بعض الشبه ، فاذا مضت عشرة أعوام فان تلك الملامح تتغير ، فاذا
رأته اخته الفيكونتس دي أسمول بعد ذلك العهد الطويل في باريس فلا تشك
بانها ترى أخاها .
- لقد فهمت الآن كل شيء غير ان الذي أراه انه يوجد كثير من المصاعب
في سبيل هذه الأمنية .
- لاشك اننا سنلقى مصاعب لا تقاوم غير اننا نسعى من وراء هذا
القصص ويد الله من ورائنا .
- وبعد ذلك فماذا تصنعين بهذا اللص روكامبول ؟
فبرقت عينها وقالت : سأؤدب به رجال الشر وسترى .
- بقي امر لا يزال مشكلاً علي فهمه وهو انه ما زال روكامبول موجوداً
هنا متنكر فلماذا لا تقبضين عليه .
- اني سأكتم عنك هذا السر ثلاثة أيام ثم اخبرك بكل شيء .
وعند ذلك وصلت المركبة إلى قصر الأسقف فنزلت باكارا وفرناند
ودخلا ، فكان أول من قابلهاا الدوقة ، فانها حين رأت باكارا أسرعت
اليها وصافحتها بلهف ، كأنها كانت تنتظر قدومها ، فسألتها باكارا عن
ابنتها ، فأخبرتها انها بكث بكاء شديداً غير انها عادت بعد ذاك البكاء

اني أشعر اني أحقر ذاك الشقي احتقاراً شديداً حق انني اخشى أن ارجع
عن انتقامي منه لأنه غير أهل لانتقامي .

- سيدتي انه غير أهل لانتقامك ، ولكنك إذا كنت تستنكفين الانتقام
من ذاك اللص ، فانه يحق لك معاقبته ، والمعاقبة غير الانتقام ، حق انني
أتجاسر وأقول انه لا يحق لك أن تصفحي عنه ، فان ذلك الرجل قتل
وارتكب جميع الموبقات ، أفلا يجب أن يسحق كما تسحق الحية القاتلة ؟

- إذن اكشفي أمره وسلميه للشرع .

- كلا .. فلم يحن الوقت بعد .

- ماذا تريدان أن تصنعي قبل تسليمه ؟

- يجب أن نفتكر قبل عقاب هذا اللص

-- لقد علمت ما تقصدين فاني كنت افكر طول ليلي هذا الفكر إذ

يجب قبل كل شيء أن يخرج المركيز دي . شمري .. من السجن .

- نعم .. لقد أصبت .

- سأكتب للملكة وإذا دعت الأحوال ذهبت اليها .

فأوقفتها باكارا عن الحديث وقالت : انني أريد قبل أن اسدي اليك

نصيحة ان الشمس منك امراً

- تفضلي يا سيدتي وسلي ما تشائين .

- أسألك ان تأذني للمركيز دي شمري بمقابلة .

فاصفر وجه ابنة الدوق وكادت تسقط على الأرض ، غير ان باكارا

أسرعت اليها فأخذتها بيدها وقالت لها : هلم بنا إلى الرواق المشرف
على البحر .

وكان القمر ساطعاً ترقص أشعته على الأمواج ، وتظهر القوارب فيه كما

تظهر في ضوء النهار ، فأشارت باكارا بيدها إلى جهة الميناء وقالت لها :

أنظري ألا ترين قارباً صغيراً يدنو من القصر ، الا ترين فيه رجلين ؟ ان أحدهما هو المركيز .

فاتسكات ابنة الدوق على كتف باكارا وجعل فؤادها يخفق خفوقاً شديداً فلم تعد تشكك باكارا انها تهواه .

وجعلت كلتاهما تنظر إلى ذلك القارب يدنو من القصر وكل منهما تفكر في شأن ، إلى أن دنا منها فرأت ابنة الدوق فيه رجلين احدهما كان منحنياً على المجاذيف ، والآخر واقفاً في مؤخر القارب ، فما أوشكت ان ترى ذلك الرجل الواقف حتى توردت وجنتاهما لما تولاهما من التأثير .

ثم وصل القارب إلى الشاطئ فألقى المرسى ونزل منه ذلك الشاب الذي كان واقفاً فيه إلى الرصيف وجعل يصعد السلم المؤدي إلى الرواق .

وكان هذا الرجل المركيز دي شمري الحقيقي ، غير انه لم يكن بلباس المجرمين كما رآته ابنة الدوق في الحفلة الراقصة بل كان مرتدياً بلباس ضابط في البحرية فزادت تلك الملابس ثقة ابنة الدوق به حتى يبق لديها أقل شك فيه وجعلت تسائل نفسها بعد ان رآته في تلك الملابس كيف انها فضلت تلميذ السير فيليام على هذا الشاب الجميل النبيل .

على أن المركيز دي شمري لم يكن أقل اضطراباً منها ولذلك حين سلم عليها مقبلاً يدها لم يكن يعرف كيف يكلمها لتعلمهم لسانه واضطرابه .

أما ابنة الدوق فانها ابتسمت له ألطف ابتسام ثم دنت من باكارا وقالت لها همساً : أرجوك يا سيدتي ان تذهبي إلى القاعة حيث تجدين أمي وان تدعيني هنيهة مع المركيز .

فضغطت باكارا على يدها اشارة إلى انها عالمة بما سيجري بينهما وخرجت دون أن تجيب بكلمة .

فلما خلا المكان بالمركيز وابنة الدوق ولم يكن يحيط بهما غير سكون الليل

الهادىء وتحت أقدامها مياه البحر وفوق رأسيهما تلك القبة الزرقاء المرصعة
بالنجوم جعل كل منهما ينظر إلى الآخر بضع دقائق فلا هو يحسر على أن يسأل
كيف أنها طلبت أن تنفرد به ولا هي تجسر على مفاتحته بالحديث إلى أن تغلبت
على نفسها ونظرت إليه نظرة الحزين المكتئب وقالت له : لقد عرفت الآن
يا سيدي اسمك وتأريخك وعلمت انهم سرقوا أوراقك كما انك قد علمت انت أيضاً
أن الذي تجاسر على سرقتها . .

فقاطعها المركز وقال لها : اني أعلم يا سيدتي انك من أشرف النساء
وأسوأهن حظاً

— كلا يا سيدي اني لا أريد ان اكلمك عن نفسي بل عن سواي فان رجلاً
لصاً سفاكاً تنكر باسم رجل شريف وتعرض لي وقد تجاسر ذاك الشقي أن
يرفع نظره إلي فخذعت باسمه الذي اختلسه حق أحسب انني أحببته وأنا مستعدة
ان أحمل كل عقاب وان أسمع الناس يقولون من حولي أن ابنة الدوق سالاندريرا
أوشكت ان تتزوج برجل سفاك . غير انه يا سيدي يوجد بالقرب مني ومنك
سيدتان شريفتان قد تتحملان مثل عقابي وهما امي واختك

— لقد فهمت يا سيدتي ما تريدني فاني اذا أظهرت نفسي ظهر مكر ذلك
السفاك فكانت تلك اللفضيحة داعية إلى قتل امك وقتل اخي ومعاذ الله أن
أدعما يتحملان أقل سوء من أجلي ، فأجلي يا سيدتي زواجك بهذا الشقي إلى
أجل غير محدود وأنا أتنازل عن اسمي وعن ثروتي ثم أقتل ذاك الرجل
فتتظاهرين أنت بالبكاء على خطيبك وتبكي اخي ذلك الذي كانت تحسبه أخاها
فيسلم شرفنا جميعنا من الأذى ولا يقول أحد ان لصاً أثيماً تجاسر على أن يسرق
اسمي وان يلمس يد أشرف فتاة واني اكتفي أن تنقذيني من السجن فلعلني أرى
ولو مرة في حياتي تلك الأخت العزيزة .

وكان المركز يتكلم بلهجة المكتئب وقد هاجت عواطف حنوه فسقطت

دمعة من عينه على خده ثم انسكبت على يد ابنة الدوق التي كانت بين يديه
فأثرت بها تأثيراً شديداً وقالت له : لقد كنت يا سيدي منخدعة ولكن بين
جنبي قلباً نبيلاً لا يعرف البهتان فأنا أنفق حياتي كلها على قدمي ذلك الرجل
الذي يمد إلي يده في حين الشدة .

فلم يحسر المركيز على أن يتظاهر بأدراك قصدها فقال : ماذا تقولين
يا سيدتي ؟

— أقول يا سيدي المركيز انك رجل كريم نبيل ، فهل تريد أن تخلصني
من العار وتنجي امي من القنوط وتنقذ اخنك التي تحبها حب العبادة ؟
- مري يا سيدتي أطع .

فقالبت بصوت ثابت أجش : اريد يا سيدي المركيز ان تتزوجني ؟

فصاح المركيز صيحة فرح وركع امامها وهو يقول :

- نعم .. نعم .. لأنني أحبك .

فأجابته الفتاة بصوت يتهدج من التأثير :

— وأنا ايضاً فاني أشعر بأنني سأحبك .

- ٢٤ -

بينما كان فرناند روشي وباكارا ذاهبين إلى القصر الذي تقيم فيه الدوقة وابنتها كان البارون بولاسكي ، أي روكامبول يسير في مركبته إلى قصر قومندان الميناء .

وذلك ان القومندان زار روكامبول في الفندق النازل فيه فدعاه إلى مناولة الطعام عنده في المساء .

فلما كان المساء ذهب روكامبول في الموعد المعين فاستقبله القومندان باحتفال عظيم على الباب الخارجي ودخل به إلى القاعة الكبرى فأقام معه هنيئة ، ثم اعتذر منه فخرج إلى غرفة ثانية لقضاء بعض الشؤون .

وعند ذلك دخل زامبا وهو خادم القومندان كما يذكر القراء ، فدنا من روكامبول باحتراس وبعد ان التفت حوالبه التفات المتعذر قال له : ان لي كلمتين أقولهما لك ثم امضي ، فقل لي اوصلتك رسائلي ؟

- نعم فقد قلت لي فيها ان أبقى في الفندق طول النهار .

- ألم تخرج منه أبداً ؟

- كلا .

- إذن فكل شيء يجري على ما تريد .

- ماذا تعني بهذا القول ؟

- أريد ان احدثك بأمر كثيرة غير ان الوقت لا يسمح لي الان فاعلم

ان الأمر سيتم في هذا المساء .

- اي أمر ؟

- قتل المركيز دي شمري فقد دبرت كل شيء ، وفي هذه الليلة لا يبقى في

الوجود غير مركيز واحد .

فاضطرب روكامبول وقال : أحقاً ما تقول ؟

— كل الحق فاسمع الآن ، انك بعد العشاء يجب ان تظهر أمام القومندان انك ترغب التنزه في البحر لصفاء الجو وسكون البحر أو غير ذلك من الحجج .

سأجد حجة لهذه النزهة وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك يضع القومندان في خدمتك قارباً صغيراً يقوده خادمه وأحد المجرمين .

— ومن يكون هذا المجرم ؟

— المركيز دي شمري .

— أتظن انه يرسل معي المركيز ؟

— بل انني واثق .

— والخادم ؟

— اصمت فسأخبرك بكل شيء إذ لا بد لي الآن من الذهاب .

وبعد ما خرج زامبا دخل القومندان ومعه امرأته فعرفه بها وأقاموا في تلك القاعة هنيئة ، ثم فتح باب قاعة الطعام وأقبل زامبا يدعوم إلى المائدة ، فخرجوا جميعهم من قاعة الاستقبال إلى قاعة الطعام وجعل روكامبول يتحفهم بخير أحاديث الموائد مما تعلمه من استاذة اندريا ومن الفته لعمرة الأعيان والظرفاء .

وقد فرغوا من الطعام في الساعة الثامنة ونصف فدعا القومندان ضيفه إلى شرب القهوة في الرواق المشرف على البحر فجعل روكامبول يتغزل بالنجوم السابحة في الفضاء ، وبصفاء السماء تغزل الشاعر حتى استطرد في أوصافه البحر وأشار إلى رعبته بالتنزه فيه ، فأسرع القومندان ونادى زامبا فقال له : قل لأحد المجرمين ليعد قارباً لنزهة البارون واذهب أنت مع المجرم في خدمته . فامتلل زامبا وخرج .

أما روكامبول فإنه تظاهر بالانقباض حين ذكر المجرم وكان القومندان قد شعر بمخاوفه فقال له : لا تخشى فإن المجرم الذي سنرسله معك من أفضل الذين لدي من المجرمين ، وفوق ذلك فسأرسل معه خادماً غرقياً الخاص وبعد ذلك قدم زامبا وأخبر مولاه أن القارب قد أعد لركوب الباروت فودع روكامبول القومندان وسار مع زامبا إلى البحر .

فقال له زامبا على الطريق : اننا نستطيع الآن أن نتكلم فاصنع إلي ، اننا سنذهب ومعنا المركيز إلى عرض البحر ونخرج من الميناء فنحتجب وراء صخورها عن الأنظار .

— وأية فائدة من هذا الحذر والظلام كاف لسترنا عن العميون ؟

.. لست من رأيك فإن إطلاق النار على الرجل كاف لفضيحتنا .

— إذن نقتله بالخنجر فهو أقرب إلى الغاية .

— كلا .. لأن الطعن بالخنجر لا يضمن الموت السريع ، ولا بد أن

تذكر ذلك

— كفى ما مضى ولا تعد إلى مثل هذا التلميح .

— كما تريد ، ان رصاصة المسدس تضمن هذا القتل ، وهما أنا الآن أرد

إليك مسدسك فخذاه واقتله به على غرة فإنه قوي نشيط ، فإذا علم بقصدك

تضطر معه إلى عراك عنيف

فأخذ روكامبول المسدس ووضعه في جيبه .

وسار الاثنان حتى بلغا إلى الشاطئ الراسي فيه القارب وكان فيه المركيز

دي شمري بلباس المجرمين .

فدنا زامبا من روكامبول وقال له همساً : لا تقتله إلا حين أقول لك كلمة

خاصة تكون الإشارة بيننا إلى وجوب قتله .

— وهذه الكلمة ؟

— هي أن أقول حين بلوغنا عرض البحر « أيها المركيز أخبرنا بقصتك

فانك مركيز حقيقي كما يقال » .

— وعند ذلك أطلق عليه ؟

— نعم فانه يوجد في مسدسك ست رصاصات فاذا اضطرت فاطلقها عليه كلها إلى أن يموت .

— كن واثقاً فسأقتله برصاصة واحدة .

ثم نزل إلى القارب فارتعش روكامبول حين رأى ذلك المركيز بملابس المجرمين ، وقد كان رآه في تلك الباخرة قبيل غرقها منذ عامين بملابس الضباط ولا يمكن اللص أن يرى الرجل الذي سلبه إلا أن يصاب بمثل هذا الاضطراب ، غير ان اضطراب روكامبول كان شديداً حتى انه اوشك أن يسمع دقات قلبه ، ثم اصفر وجهه كأنه قد نسي انه متنكر فلا خوف من ان يعرفه المركيز .

ولكن هذا الاضطراب لا يطول في قلب مثل قلب روكامبول فما لبث ان عاد إلى السكينة وذهب فجلس في مؤخر القارب وادار ظهره للمركيز فجعل هذا السجين يحذف وانطلقت السفينة .

وكان زامبا جالساً أمام روكامبول فقال له بصوتٍ منخفض : ان المركيز يعرف الانسكازية فكلّمه بها .

فهمز روكامبول يده مشيراً إشارة نفى ثم قال له همساً : انه قد يعرفني من صوتي .

وعند ذلك دنا زامبا فجلس بقرب المركيز وأخذ مجذافاً فساعدته بالتجذيف حتى خرج بهم القارب فقال له المركيز : اننا نستطيع الان نشر الشراع .

فأجابه زامبا : كما تشاء يا حضرة المركيز .

ثم نهض المركيز فنشر الشراع ولما أتم مهمته سأل زامبا قائلاً : الى اين تريد أن نسير .

— إلى عرض البحر .

— وبعد ذلك ؟

— تسير بالقارب إلى ذلك الصخر البعيد الذي يبدو لنا بشكل نقطة سوداء .

فامثل المركيز ودفع القارب إلى حيث أمره .

وعند ذلك دنا زامبا من روكامبول وقال له : اليس من الغريب أن أصدر أوامري للمركيز دي شمري وان أقف أمامك في مواقف الاحترام . فضغط روكامبول عليه ضغطاً شديداً وقال له همساً : كفى فلا تعد إلى هذه الأبحاث .

أما ذلك المركيز الحقيقي ، الذي مدت إليه ابنة سالانديريرا يدها تسأله الزواج ، فانه كان يصدع بأوامر زامبا ويسير بالسفينة كما يريد دون أن يظهر عليه شيء من الاكتراث بما كان يتحدث به زامبا وروكامبول بأصوات منخفضة .

وكانت السفينة تسير بسرعة عظيمة إلى أن بلغت القصر الذي تقيم فيه الدوقة سالانديريرا وابنتها فقال زامبا بلمحة المتهمك المسجين : أتعرف يا حضرة المركيز صاحب هذا القصر ؟

— نعم فهو لأسقف غرناطة ..

— أهنا تقيم خطيبة سميك ؟

فأجابه المركيز بعظمة : ليس لي سمي .

فالتفت زامبا إلى روكامبول وقال له بصوت منخفض : انتبه فقد آت الأوان .

وكان القارب قد اجتاز أسوار القصر فبات خارجاً عن الميناء والمركيز جالس فيه أمام مصباح خلافاً لزامبا وروكامبول فقد كانا مقيمين في مؤخر القارب لا تصل اليهما أشعة ذلك النور . فعاد زامبا إلى محادثته فقال له :

- كيف تقول انه ليس لك سمي .
 - ذلك لأنني أقول الحقيقة .
 - ومن هو المركيز دي شمري ؟
 - هو أنا .
 - والذي يقيم في باريس ؟
 - هو مزور محتال .
- وكان روكامبول في ذلك الحين أخرج المسدس من جيبه وحمله بيده متأهباً للاطلاق حين صدور الإشارة المتفق عليها .
- أما زامبا فانه قال للمركيز : إذن فأنت مركيز حقيقي فاذا كان ذلك فقص علينا حكايته فلا بد أن تكون غريبة .
- غير ان المركيز لم يجد مجالاً للجواب فان روكامبول أطلق عليه المسدس فانقلب المركيز في السفينة وصاح صيحة شديدة فأطلق روكامبول عليه ثلاث رصاصات من مسدسه فصاح المركيز صيحاً مؤلماً وحاول أن ينقض على روكامبول غير انه انقلب على ظهره وسقط في البحر فوارته الأمواج عن الأبصار .
- وعند ذلك أسرع زامبا إلى تولي أمر الشراع وهو يقول لروكامبول :
أهنتك الان فقد أصبحت مركيزاً حقيقياً لا ريب فيه .

- ٢٥ -

وقد فرح روكامبول في بدء الأمر فرحاً وحشياً لا يوصف لتخلصه من هذا المركيز وأطل من القارب كي يرى جثة المركيز المقتول فلم ير لها أثراً وأيقن ان الأمواج قد ابتلعته

وساد السكون هنيئة بين هذين اللصين ثم قال زامبا لروكامبول : تولى أنت أمر الدفة وأنا أقول أمر الشراع إذ لا بد أن تكون خبيراً في هذه المهنة - نعم فلقد كنت في حوادثي بحاراً في بوجيفال .

- إذن سر بنا .

- الى أين ؟

- الى حيث ننام .

- أعود الى قاديس ؟

- الى أين إذن تريد أن تعود إذا لم نعد اليها ؟

- والقتيل ؟

-- انه مات .

- أعرف انه مات ، ولكن كيف نوضح سبب اختفائه .

- ان أمره منوط بي فلا تخف لأني سأقول للقومندان انك قتلتهم .

- ويحك اجننت ؟

- كلا . فان القومندان سيذكرك لقتله اجمل الشكر .

وكان زامبا قد نال السيادة المطلقة على روكامبول في هذين اليومين فلم يسع روكامبول غير الامتنال له لأنه بات واثقاً به أتم ثقة وسار بالسفينة عائداً الى قاديس .

فلما سارت السفينة في الخطة التي رسمها قال له زامبا : والان يا حضرة الدوق دي شمري سالاندريرا ؟ والنبييل المختلط اسمح لي ان اوقفك على حقيقة حالتنا فلقد قلت لك اني سأخبرك بأمر كثيرة .

- قل فاني مصغ اليك .
- لقد قلت لك قبلا انه لم يعد سبيل للخوف من الكونتس أرتوف .
- .. أتظن ؟
- بل أؤكد فانها برحت قاديس في هذا المساء .
- لماذا ؟
- كي تعود إلى زوجها فانه بات في حالة النزاع .
- وابنة الدوق ؟
- لم تر الصورة وقد سافرت باكارا وهي تعتقد ان ابنة الدوق عالمة بكل شيء وانها لم تعد تخفى عليها خافية من حقيقة أمرك .
- كيف ذلك فاني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .
- ذلك لأنني خدعت الجميع من أجلك فاسمع : انت باكارا خافت في بدء الأمر أن تفاجيء ابنة الدوق بالحقيقة حذراً عليها من سوء العاقبة فأرادت ان تتلطف باطلاعها على الحقيقة بالتدريج ، فبدأت بأن قدمت لها المركيز دي شمري .

. ماذا تقول ؟

- لا تخف فان المركيز قد حكى حكايته لابنة الدوق ، ولكن باكارا منعتهم عن ان يبوح باسمه إلى ان يحين الوقت اللازم وقد عهدت الي باكارا ان أقدم الصورة لابنة الدوق وان انبهاها إلى اسم المكتوب فيها كي ترى بعد ذلك الشبه بينهما وبين المركيز ، وتعلم من تاريخها انها قديمة لا ريب فيها وانك خداع محتمل .

ثم انه ورد إلى باكارا تلغراف يفيد ان زوجها بعد أن تماثل إلى الشفاء

- أصيب فجأة بالفالج وانهم ينتظرون موته في القريب العاجل فلم تجد بداً من الرحيل إلى زوجها فعهد إلى بقضاء المهمة وأعطتني الصورة فأعطيتك أياها .
- دون ان تراها ابنة الدوق ؟
- هذا لا ريب فيه
- وهي لا تعلم ان هذا السجين الذي رأيته المركيز الحقيقي ؟
- انها لا تعلم شيئاً على الإطلاق فاني ذهبت اليها بحجة تقديم احترامى لها والتاسي منها أن تدخلني في خدمتها .
- وماذا أجابتك ؟
- أجابتنى انه يجب ان التمس منك هذا الالتباس بعد بضعة أيام أي بعد عقد الزواج فان كل شيء قد أعد لحفلة القران .
- فبرقت أسرة روكمبول وقال : أقالته حقيقة هذا القول ؟
- فابتسم زامبا ابتسامة هرة لم يرها روكمبول لإشتداد الظلام وقال : لماذا تعجب من قولها ألا تعلم انها تحبك ؟ ثم انها واثقة من انك لا تزال في باريس ودليل ذلك انها أعطتني كتاباً لك كي أضعه في البوستر .
- كتاباً لي ؟
- نعم وهو معنون باسمك في شارع فرنييل في باريس .
- وهل وضعته في البوستر ؟
- ما هذا القول أتحسبني أبله إلى هذا الحد .
- اذاً ماذا صنعت به .
- انه معي ، ثم مد يده إلى جيبه وأخرج الكتاب ودفعه اليه .
- ماذا أرى أفتحتته أيها الذمير ؟
- كيف لا أفتحه ألسنا الآن شريكين ويجب ان أعلم من امورك ما تعلمه .
- لا أعلم الآن ما يصدني عن أن اسيل دماغك فانه لا يزال بمسدسي رصاصتان .

ينمك عن قتلي الحكمة .

لماذا ؟

— لأنك إذا قتلني يفتضح امرك أملك نسيت ذلك الأقرار الذي كتبتة بخطك .

— وماذا صنعت به ؟

— اني اودعته امس عند أحد القضاة مختماً وقلت له اذا مضى اسبوع دون ان تراني فافتحه .

— يسرني انك أهل لي وانني أهل لك وسنتفق إلى آخر العمر ، والآن خذ عني هذه الدقة ودعني اقرأ كتاب ابنة الدوق .

فامتثل زامبا وادنى روكامبول المصباح منه ففتح الكتاب وقرأ ما يلي :

« أيها الحبيب

« سأبرح مع امي مدينة قاديس صباح غد وقد تعجب لهذا السفر غير أن سبباً لا بد من ذكره لك وهو ان الملكة غادرت قاديس بعد ان قالت لي « الوداع أيتها المريضة انني انتظرك مع زوجك في مدريد بعد خمسة عشر يوماً وأريد ان تصيري دوقية فابرجي قاديس الآن إذ يجب ان يعقد قرانك في سالانديررا كما يقتضيه واجب الحداد »

« هذا هو السبب الذي دعانا إلى السفر ونحن ننتظرك في قصر سالانديررا وسيعقد قراننا قريبي اسقف غرناطة فنك تعلم ان الزواج المدني غير موجود في اسبانيا وليس فيها غير الزواج الديني

« ثم لا اكتمك انني اخبرت قريبي الأسقف بجميع ما كان بيني وبينك من حين تصادفنا إلى حين الخطبة وما كتمت عنه غير مسألة الدون جوزيف فلامني أشد اللوم لأندفاعي معك وقال لي انه لا يجب ان تنظري المريضة قبل الزواج فليحضر الى سالانديررا متى شاء غير انه لا يحق له ان يراك إلا في ساعة عقد القران ولا يحق لك ان تخرجي من غرفتك قبل ذلك العهد »

« وهذا آخر ما سأحتمله من الظلم أيها الحبيب ولكن لا سبيل إلى مخالفة هذا القريب فإنه شيخ شديد المحافظة على التقاليد القديمة التي كانت سائدة في اسبانيا منذ قرنين وهي ان الخطيب لا يحق له ان يرى خطيبته إلا في الكنيسة حين عقد القران فيدخل كل منهما من باب ويلتقيان امام الهيكل .
« فلنمتثل له إذ لا سبيل لمخالفته وعلى ذلك فأننى انتظرك في سالانديررا بعد ثمانية ايام لأن زواجنا سيعقد في ١٤ من الشهر الجاري وهو تاريخ تتفاءل به عائلتنا خيراً فأحضر في ١٣ او في صباح ١٤ الجاري فاذا حضرت في ١٢ فلا تصعد الى القصر ارضاءً للأسقف بل أقم في منزل الصيد وقد صدر الأمر الى وكيل هذا القصر لأستقبالك

« الى اللقاء أيها الحبيب فاصبر على التقاليد القديمة التي لا بد من رعايتها فان ساعة الهناء آتية وكل آت قريب »
(كولسبسيون)
« خطيبتك »

وقد تلاكروا كمبول الكتاب بامعان شديد فلما أتم تلاوته قال لزامبا : انك فتحت الكتاب فلا بد ان تكون قرأته ؟
- قرأته دون شك .
- ما رأيك فيه ..
- ارى اننا في اليوم السابع من الشهر وفي اليوم الرابع عشر منه تصبح زوجاً لأبنة الدوق .
- لا انكر ذلك ولكنني اسألك عن رأيك في هذا الزواج الغريب .
- وما وجه الغرابة فيه ؟
- انني لا استطيع ان ارى خطيبتي إلا ساعة عقد الزفاف .

فابتسم زامبا وقال يظهر انك لا تعرف اسقف غرناطة فإنه رجل بسيط القلب الى حد البله شديد التمسك بالتقاليد حتى انه يحسب في كل احواله انه لا يزال في عهد شارلمان .

- أنتعرف أنت سالانديريرا ؟
- نعم فقد أقيمت فيها ثلاثة أشهر مع الدون جوزيف .
- صف لي منزل الصيد الذي ذكرته لي ابنة الدوق في كتابها .
- انه منزل جميل ستكون فيه على ما تريد .
- وما رأيك الآن ؟
- أرى انه يجب أن تبقى في قاديس متذكراً بزيك هذا خمسة أيام .
- وبعد ذلك ؟
- نذهب كلانا إلى سالانديرير وفي الطريق تغير زيك وتستبدل البارون بولاسكي بالمركيز دي شمري الكاذب .
- قل الحقيقة أيها الوقح إذ لا يوجد الآن مركيزان
- لا تؤاخذني فقد نسيت انك قتلته . ثم جعل يضحك ضحكاً شديداً لم يحمله روكامبول على شيء من محامل الريب .
- وبعد ذلك بعدة دقائق دخل القارب إلى الميناء فطوى زامبا الشراع وجعل يجذف حتى وصل إلى الشاطئ المبنى عليه منزل القومندان
- وكان القومندان يتنزه في الرواق فقال روكامبول لزامبا .
- ماذا عزمتم ان تصنع بشأن المركيز ؟
- كن مطمئناً ودعني اكلم .
- ثم نزل زامبا إلى الشاطئ فتنبه روكامبول حتى وصلا إلى القومندان ، فقال القومندان لزامبا باللغة الاسبانية :
- لماذا أسرعتم بالرجوع ، ألعل حضرة البارون أصيب بالدوار ؟
- كلا يا سيدي بل ان المركيز أصيب به .
- أى مركيز تعني ؟
- المجرم السجين .
- فانذهل القومندان وقال له : أين هو الآن ؟

-- لقد مات يا سيدي فان البارون قتله .
 وكان روكامبول يتظاهر أنه لا يفهم شيئاً من هذا الحديث لأنه اخبر
 القومندان أنه لا يعرف اللغة الاسبانية .
 أما القومندان فانه انذهل انذهالاً عظيماً لما حدث به زامبا وقال له :
 ويحك العلك تمزح فيما تقول ؟

-- كلا يا سيدي فان هذا الذي كان يدعو نفسه مركيزاً كان يظهر بأنه
 يحاول الفرار منذ عهد بعيد وذلك انه حين بلغ بنا إلى عرض البحر قال لنا :
 « انكما تعرفان ان تديرا القارب أما انا فاني أعرف أن اسبح » ثم ترك الدفة
 وألقى نفسه في البحر وعند ذلك عامله البارون معاملة بولونية .
 -- كيف ذلك ؟

-- ذلك انه كان معه مسدس فأخرجه من جيبه وأطلقه على الهارب
 بسكينة الانكليز فقتله للحال
 فأسرع القومندان إلى روكامبول وقال له بالانكليزية لقد أحسنت، يا
 سيدي غاية الاحسان بما فعلت فان قتل الهاربين من السجون مأثرة عندنا
 تستحق كل ثناء

فقال له روكامبول : إني عملت ما يجب علي إذ لم أطق ان تتحمل من أجلي
 تبعة فرار هذا المجرم الذي أرسلته لخدمتي .
 وفي اليوم التالي جاء زامبا إلى الفندق المقيم فيه روكامبول وأعطاه نسخة
 من جريدة تطبيع في مدريد فقرأ فيها حكاية قتل المجرم السجين مشفوعة بالثناء
 العظيم على قاتله البارون بولاسكي ، فقرأها روكامبول وهو يضحك من تغفل
 القومندان .

- ٢٦ -

مضى على هذه الحادثة خمسة أيام كان روكامبول يزور في خلالها القومندان وقد أعد لضيافته حفلة راقصة حضرها روكامبول بزي البارون بولاسكي ، فكانت الفتيات يتهافتن على مراقبته لاشتهاره بقتل السجين الذي كان يحاول الهرب ، على ما كان عليه من القبح بزيه الذي كان متنكراً فيه ، فإن للشهرة لدى أكثر النساء مقاماً فوق مقام الجمال .

وكان زامبا يأتي اليه في كل يوم وقد أخبره بأن باكارا قد سافرت إلى باريس وان الدوقة وابنتها قد سافرتا إلى سالانديريرا فصرف روكامبول تلك الأيام الخمسة بالتنزه في حدائق تلك المدينة ومينائها .

وفي اليوم الخامس جاء زامبا وقال له :

- لقد حان زمن الرحيل الى سالانديريرا

فقال روكامبول اني متأهب للسفر فقد سئمت الانتظار ، ألا ترافقني في

هذه السفرة ؟

- كيف لا أصبحبك ألا يجب ان أحضر قران أسيايدي ؟

.. ماذا تعني بأسيادك ؟

- العلك نسيت انك عيلتني وكيلا لثروتك بعد الزواج ؟

- لقد أصبحت فلنساافر .

وذهب روكامبول إلى منزل القومندان فودعه مدعياً انه وردت اليه أنباء

خطيرة تدعوه إلى سرعة العودة إلى بلاده وعاد إلى زامبا فركب وياه مركبة

وانطلقت بهما إلى برسلونه .

وقد برح قاديس وهو متنكر بزي البارون ، فلما وصل إلى برسلونه ذهب

الى أحد فنادقها للاستراحة فاخترت مع زامبا في غرفة وهناك خلع رداء التنكر وعاد الى الشكل الذي عرف به في باريس وهو شكل المركيز دي شمري .

وفي المساء برحا برسلونه وسافرا الى بيلين فاقاما فيها وذهب زامبا يبحث عن جوادين للسفر عليهما إلى سالاندريرا ، لأن الطريق اليها لا تصلح لسير المركبات ، ثم عاد بعد أن قضى هذه المهمة وجلسا حول مائدة معزلة في الفندق يتعشيان

فلما فرغا من العشاء اقترح زامبا على روكامبول ان يشرب زجاجة من الخمر . فقال له روكامبول : ألم تشرب على المائدة ؟

- نعم ، ولكنني ظمآن وقد اعجبني خمر هذا الفندق ، ثم اني اريد أن أشرب أيضاً لقصد آخر وهو اننا سنجتاز مسافة طويلة لا بد لنا فيها من المسامرة على الطريق وقد تعودت ان لا ينطلق لساني إلا متى ارتويت من الشراب ، ولذلك فسأكون لك خير نديم ينسبك مشاق السفر الطويل .

ثم تركه منبهة كي يضع العلف للجوادين وعاد يطلب زجاجة فجعل يكرع منها الكأس في اثر الكأس حتى فرغت ، فطلب زجاجة أخرى وصب منها كأساً فشربه وقال : إن الشرب يفرح قلبي ومتى كنت فرحاً أحب جميع الناس .

فكان روكامبول يضحك منه ، ولكنه كان يخشى عاقبة شربه لأنه رأى ان أعطافه تترنح من السكر .

ثم جعل لسانه ينعقد واصبحت حركاته بطيئة فزاد خسوف روكامبول غير انه لم يجد بداً من مسالمة فصب له كأساً فشربها زامبا وقال : الحق انك تهجيني يا سيدي الدوق وغداً سيكون فرحي عظيماً لا يوصف .

— لماذا ؟

— لأنك ستتزوج غداً ابنة الدوق ، وثق يا سيدي انني لا افرح من اجل

- تعييني وكيلا لأملكك بل اني احبك .
- إذن فلا يهمك ان تكون وكيلي .
- لا أحب هذا المنصب إلا لأني سأكون دائما بقربك ، ألحسب ان
الصدقة لا تكون إلا حيث تكون الفائدة ؟
- إذن فأنت صديقي ؟
- إلى آخر العمر .
- أتبرهن لي عن هذه الصدقة ؟
- عندما تريد .
- احب ان اعرف ما يكون برهانك .
- لقد طراء لي خاطر بديع .
- ما هو هذا الخاطر ؟
- أتقول يا سيدي الدوق إنني لست صديق ؟
- انا لم أقل ذلك ولكني أقول ان الذي دعاك إلى هذه الصدقة هو انك
ستغدو وكيلا و ..
فضحك زامبا ضحكا عالياً وقال : انك تريد ان تشير إلى هذه الورقة
التي استكتبتك إياها ؟
- نعم .
- أملكك خائف منها ؟
- كلا .. ولكنها لو لم تكن موجودة لما أخللت بوعدتي وسيان كانت
لديك او فقدتها فانك ستكون وكيلي وصديقي في حين واحد .
- أحق ما تقول ؟
- أقسم لك خير الأقسام انني لا أنكث بوعدتي لك وأية فائدة لي من الغدر
بك فإذا لم أعينك وكيلا فلا بد من تعيين سواك .
- إذا كانت هذه الورقة تسينك .

فقاطعه روكامبول وقال ليس انها تسيثني فقط ، بل انها تنغص عيشي ، وأنا أعلم علم اليقين انك لا تستخدمها ما زلت حياً ، إذ لا فائدة لك من فضيحي ، ولكن اليس الانسان معرضاً للموت الفجائي ، فإذا أصبت لاسمح الله بهذا المكروه ، أفلا يفتح القاضي الغلاف الموجود فيه لإقراري كما أوصيتك ويطلع على كل شيء ؟

فقهقه زامبا ضاحكاً وقال : العلك صدقتني ؟

— بماذا ؟

— بأنني أودعت اقرارك عند أحد القضاة إلى آخر ما لففته من هذا الحديث .

— الحق انني صدقتك ، ولا انكر عليك فماذا صنعت به ؟

— انني أودعته جيبي وهو معي الآن .

— انك تمزح دون شك .

— كلا . . وسأطعمك عليه .

ثم مديده إلى جيبه وأخرج منه تلك الورقة التي استكتبها روكامبول ، فلما رآها روكامبول اضطرب اضطراباً شديداً ونظر إلى المائدة فرأى سكيناً فهم ان يقبض عليه ويطعن زامبا التماساً لهذه الورقة ، غير ان زامبا لم يمهله فانه قال : انك تريد برهاناً عن صداقتي فانظر الى هذا البرهان .

ثم اخذ الورقة فأدناها من المصباح وجعل يحرقها الى ان أصبحت رماداً .

فجن روكامبول من فرجه وقال : ماذا تصنع ؟

— انني احرق ما كتبته لثقتي بك فاني ضامن انك لا تخدعني وانك ستفي

بما وعدت .

فسر روكامبول سروراً عظيماً وقام الى زامبا فضمه الى صدره وقال له : ستكون خير صديق لي ما حميت فلا يفرق بيننا جاء وتبان ثروة ومقام .

وكان يظهر من زامبا انه قد ضاع رشده من السكر غير انه ما لبث ان
نهض وقال : هلم بنا الى السفر فإن ركوب الجياد وصفاء الهواء يذهبان عني
ثقل هذه النشأة

غير انه بقي يتراخى فقال له روكامبول : توكلأ علي ..
ففعل وخرج الاثنان من الفندق فأسرجا الجوادين .
ثم دنا زامبا من جواد روكامبول ففحص سرجه وقال له : لقد وضعت
لك في عيني السرج مسدسين محشوين فان الطريق التي سنجتازها مقفرة وعرة
حتى لقد يقتل السالك فيها دون ان يعلم أحد بخبره .
فاختلج فؤاد روكامبول وقال في نفسه : لقد اخطأت ايمـا الصديق
باحراقك الورقة فانها كانت خير واق لك من الموت .

٢٧ -

وركب الاثنان جواديهما فكانت اعراض السكر لا تزال بادية على زامبا
غير انه جعل يشتد بالتدريج . فلما بعدا عن المدينة قال له روكامبول :
سر امامي كي تهديني إلى الطريق .
فأبى وقال له : إن الطريق لا تزال متسعة بحيث نستطيع أن نسير فيها
جنباً إلى جنب .

ثم دنا منه وجعل يتحدثان .
وكان الطقس صافياً والهواء بليلاً ، ونور القمر ساطعاً ، فما زالا يسيران
حتى ظهرت أمامهما سلسلة جبال فانعطف زامبا في منعرج وسار في طريق
تلك الجبال وهو يقول : هذه هي الطريق إلى سالانديرا .
فلحق به روكامبول وسار بجانبه فدار بينهما الحديث الآتي فقال زامبا :
- إننا سنخترق هذه الجبال وأنا واثق من اننا لا نلقى في طريقنا أحداً
من الناس إلا بعض اللصوص الذين يكمنون للمسافرين .

- ألك خائف منهم ؟
- كلا فان الذئاب لا تأكل بعضها بعضاً ثم أننا بعد أن نخترق هذه الجبال
سنمر بطريق ضيقة تشرف على هوة سحيقة لا حد لعمقها كما يقال .
- وماذا نهمنا هذه الهوة ؟
- لا نهمنا أمرها ولكنني أحببت أن أبين لك الطريق التي نسلكها .
- وأين هي هذه الهوة العليا بعيدة من هنا ؟
- كلا.. فانها قريبة جداً وقد ذكرتها لك لأنه ما مر أحد بها إلا انكمش
قلبه وتولاه الخوف والذعر .
- لماذا ؟

— لأن اللصوص يكتنون بالقرب منها فان قتلوا من يقع بأيديهم من المسافرين القوه فيها إخفاء لأثره حتى باتت تلقب بمقبرة المسافرين ، ومن أخطارها ضيق الطريق المشرفة عليها ، فلا يستطيع فارسان أن يرا بها جنباً إلى جنب الضيقها بل يضطر أحدهما أن يسير أمام الآخر فإذا بوغت المسافر سقط بجواده إلى الهوة فلا يعلم به غير الله .

— أحقية ما تقول عن عمق هذه الهوة ؟

— لقد رأيته بعيني في رائحة النهار لما استطعت أن أرى عمقها حتى انك إذا القيت فيها حجراً ضخماً لم تسمع صوت هبوطه ، إذ يستقر في غور بعيد من ذلك ما أرويه لك عن حادثة جرت أمامي حين كنت في خدمة الدون جوزيف وهي انه خرج يوماً من سالانديريرا لصيد الذئب فجعلنا نطارده ذئباً حتى بلغ إلى تلك الطريق الضيقة فأطلق عليه الدون جوزيف رصاصة أصابت منه مقتلاً فسقط يهوي إلى تلك الهوة السحيقة . فأسرعنا لنرى أين سقط فلم نله أثراً .

— ألعل فهم الهوة متسع ؟

— يبلغ اتساعه نحو مترين بحيث يسقط فيها الفرس والفارس .

فارتعش روكامبول وقال : ألا تزال بعيدة عنا ؟

— كلا . فقد قربنا منها جداً ، وما نحن قد دخلنا في الوادي فلا يمر بنا ربع ساعة حتى نبليغ اليها ولكنك لا تستطيع أن تراها لنكد الاطلاع فان القمر قد احتجب عن الأفق وبتنا في ظلام دامس .

— لا بأس فسنأتي اليها مرة في النهار ، ثم لكز بطن جواده فصار حثيثاً يتبعه زامبا وكان روكامبول يفتقد المسدسين من حين إلى حين .

ثم وصلا إلى الطريق الضيقة ، فتقدم زامبا من روكامبول كي يرشده إلى الطريق وجعل يسير أمامه ساكناً وهو غارق في لجج التصورات فلم يزعبه روكامبول وجعل هو أيضاً يفتكر ويتمعن في خطة رسمها لنفسه . وبعد ربع ساعة صحا زامبا من ذهوله وقال لروكامبول : هوذا الهوة فقد

بلغنا اليها .

— اني لا أرى شيئاً فإن الظلام دامس .

فترجل زامبا عن جواده وقال له . اصبر فسترى .

ثم أخذ حجراً ودنا من الهوة فألقاه فيها وقال له بعد حين أسمعت صوت سقوطه ؟

— كلا ولا بد أن تكون شديدة العمق فلاني سمعت صوت احتكاك الحجر بالعشب على جدرانها ولكني لم أسمع صوت بلوغه إلى الأرض .
— انها أعمق مما تظن .

ثم بحث عن حجر أضخم من الأول فحمله بيديه وحاول أن يلقيه في الهوة غير انه قبل أن يتمكن من القائه أخرج روكامبول المسدس وأطلق عليه النار .

فصاح زامبا صيحة هائلة وانقلب إلى الأرض ثم هوى إلى الهوة دون ان يسمع روكامبول صوت سقوطه فضحك ضحك المنتصر وقال : لا شك ان الأبالسة أخذت بناصري فلقد تخلصت من اشد عدوي .

وعندما بزغ الصباح وصل بالمركيز فرديريك السهرت دي شمري الذي لم يبق سواه يسمى بهذا الاسم الى قرية صغيرة فكان أول كلمة قالها سؤال أحد القرويين عن قصر سالانديريرا فارشده الى الطريق وأخبروه انها تبعد خمس ساعات عن هذه القرية فذهب الى أحد الفنادق فأكل ثم نام فيه الى غروب الشمس فركب جواده وسار الى سالانديريرا وهو ينادي نفسه بأسماني السعادة ويبني القصور في اسبانيا .

وفي الساعة العاشرة وصل فدأل عن قصر الصيد كما أمرقه إبنة الدوق
وذهب اليه فاستقبله الوكيل استقبالا حافلا وأعد له مائدة فاخرة .

فأكل روكامبول بشهية عظيمة وقد وجد على المائدة زجاجة من الخمر أيقن
أن إبنة الدوق أرسلتها اليه خاصة من القصر فشربها يجملتها ووجد بها لذة
عظيمة ولكنه بعد فراغه من الطعام شعر بأن الخمر أثر عليه تأثيراً عظيماً على
فرط ادمانه على شرب الخمر فحسب ان الغرفة تدور ولم يعد يستطيع القيام .

فأسرع اليه وكيل القصر وقال : لا بد ان يكون اثر عليك هذا الخمر لأنه
عتيق فتوكأ علي كي أوصلك الى الغرفة التي تنام فيها .

فأتكأ روكامبول عليه وسار معه حتى اوصله الى غرفة مفروشة بأفخر
الرياش فقال في نفسه : لا بد أن تكون كونسبسيون قد أمرت بإعداد هذه
الغرفة والمبالغة بانقاس فرشها فاني أجد ما فيها يدل على حسن الذوق .

ولكنه ما لبث ان صعد الى السرير حتى أطبق عينيه ونام نوماً عميقاً ثمثلت
له السعادة في أحلامه بأبدع مظاهرها فرأى نفسه دوقاً اسبانياً وزوجاً لأشرف
وأغنى فتاة ، ثم انتقل بأحلامه الى البرازيل حيث عين سفيراً اسبانياً لدى
امبراطورها وما زال يتنقل فوق قنن هذه الأماني الجميلة الى ان بلغت الثامنة
من الصباح فشعر ان بدأ تهزه ففتح عينيه منزعجاً وهو يود أن تبقى له تلك
الأحلام فرأى وكيل القصر واقفاً أمامه وقفة الاحترام وقد حمل قبعته بيده
وقال : ليعذرني مولاي إذا تجاسرت على ايقاظه فقد بلغت الساعة الثامنة
وازف الوقت .

ففرك روكامبول عينيه ووضع يده على جبينه كمن يتذكر وقال : لقد أصبت
فان موعد الزفاف في الساعة التاسعة .

ثم وثب عن سريره الى الأرض وهو يقول : أليس من العار أن أنام يوم

- زفاني الى مثل هذه الساعة المتأخرة .
- فقال له الوكيل : ليأذن لي مولاي المريكز ان أخبره ببعض التفاصيل .
- عن أي شيء ؟
- عن حفلة الزفاف .
- فنظر اليه روكامبول دون ان يفهم ما يريد وقال له : قل ما تشاء .
- انه في اسبانيا يجب على كل نبيل ان يتزوج حسب التقاليد التي كانت جارية في القرون الوسطى .
- العلمهم يريدون ان ألبس خوذة ودرعاً ؟
- كلا . ولكنهم سيلبسونك قبعة تستر جميع وجهك ويكون معسك فريق من الرهبان .
- ما شأن هؤلاء الرهبان ؟
- انهم يقبضون عليك وتكون خاضعاً لأوامرهم .
- الى متى ؟
- الى حين انتهاء حفلة القداس
- أهذا كل ما يطلبونه مني ؟
- نعم وقد حضر الرهبان وهم هنا الآن .
- ماذا يريدون ؟
- يريدون أخذ سيادتكم الى الكنيسة .
- فأطل روكامبول من نافذة الغرفة المقيم فيها فرأى الكنيسة تحيط بها اشجار باسقة ولم ير احداً من الناس وكل شيء حولها يدل على الكآبة فانقبض صدره وقال في نفسه ، ما هذا العرس الذي يشبه الجنازة .
- اما الوكيل فانه عاد الى حديثه فقال ان الرهبان ينتظرونكم يا مولاي .
- لماذا ينتظرونني فهذه الكنيسة امامي وانا اعرف الطريق وحدي .
- انك لا تدخل اليها من هذا الباب الذي تراه يا سيدي بل من باب آخر

عينه أسقف غرناطة .

— ان هذا الأسقف مجنون كما يظهر .

— أنه شديد التمسك بالتقاليد يا سيدي وهو يريد أن يشبه زواجك بابنة الدوق بزواج المدموازيل كينا جوند دي سالانديريرا الذي جرى منذ أربعمئة عام مع السنيور لورازو دي الفيار في ملك فرديناند الكاثوليكي .

— كيف جرى ذلك الزواج ؟

— ان هذا القصر الذي نحن فيه الآن كان كنيسة في ذلك العهد فقدم اليها الزوج ليلة زفافه كما قدمت أنت ، وبقي فيها طول ليلته منعكفاً على الصلاة ثم جاء اليه أربعة من الرهبان فمعصبوا عينييه والبسوه مسلابس العرس ، وهي قميص بسيط من الكتان يلبس فوقها ثوب راهب .

فقاطعه روكامبول وقال : ان هذه التقاليد لا تطاق ولم يعد لدي شك ان اسقف غرناطة من أعظم المجانين .

— وأنا من رأيكم يا سيدي ، وأظن أن المدموازيل كنسبسيون تشترك معنا بهذا الحكم فاني سمعتها أمس تقول لهذا الأسقف : « أن هذه التقاليد لا تحمل في عصرنا الحاضر » .

— وماذا أجابها الأسقف ؟

— قطب حاجبيه وسكت فلم تجد ابنة الدوق بداً من السكوت لأن هذا الأسقف شيخ عجوز وثروته تعد بالملايين وهو لا وارث له سواها .
فهان عند روكامبول ما يلقاه من الضجر عند ذكر الملايين فقال له الوكيل :
وفوق ذلك فان سيدي قد اعطاني كتاباً كي أسلمه لكم وهذا هو .

فأخذ روكامبول الكتاب وفضه مسرعاً فوجده خالياً من التوقيع ولكنه عرف أنه خط خطيبته ولم يكن يتضمن غير هذين السطرين :
« صبراً أيها الحبيب فلم يبق غير بضع ساعات لي يغدو المكين دي شمري زوجاً لكونسبسيون دي سالانديريرا » .

فلما أتم تلاوته قال في نفسه . سأصبر كما تشاء فإن كل عذاب يعرف أجله يخف وقعه .

ثم قال الوكيل : إذن فانهم سيعصبون عيني ؟
- نعم ، إذ لا بد من ذلك .

- وفي أية طريق يسرون بي إلى الكنيسة ؟
- بهليلز تحت الأرض يصل بين هذا القصر وبين الكنيسة
- وأسير به معصوب العينين ؟
- ويحيط بك الرهبان .

- ما أشبه هذا الزواج بزواج العميان ، أريدون ان أتزوج وأنا معصوب العينين ؟

- كلا .. فانهم يزحجون العصا عن عينيك في الكنيسة .
وعند ذلك طرق الباب فقال الوكيل : هوذا الرهبان قد حضروا .

ثم ذهب ففتح لهم الباب .
ودخل الرهبان الأربعة فذعروا كامبول لمراهم وخرج الوكيل بعد أن انحنى أمامهم باحترام .
فدنا أحدهم من روكامبول وقال له باللغة الاسبانية : هل أنت مستعد ايها الأخ ؟

فقال روكامبول في نفسه ماذا أرى ألعلمهم يحتفلون بادخالي في الماسونية .
ثم ضحك وقال : نعم اني مستعد .

فاقترب أحدهم وعصب عينيه بعصابة سوداء فلم يعد يرى بعد ذلك شيئاً ، ولكنه بقي له حاستا السمع والاحساس فسمع أولئك الرهبان يتلون صلاة لانيزية ارتعشت أعضاؤه حين سماعها فانها كانت صلاة العصر التي قتلى عن نفوس الأموات وأحس ان أحدهم دنا منه وجعل ينزع عنه ثيابه ثم ألبسه بعد ذلك ثوباً لم يستطع ان يعرف لونه .

ولكنه عندما لمس علم انه ذلك الكتاني الذي اخبره عنه الوكيل ثم شعر انهم البسوه فوق القميص ثوباً أثقل منه فعلم انه ثوب الرهبان الذي أخبره عنه الوكيل ايضاً

وبعد ذلك تأبط أحدهم وقال له : هلم بنا . فسار معهم وهو لا يعلم أين يسير . ولكنه ما لبث أن مشى حتى عاد الرهبان إلى الصلاة اللاتينية فعاد صدره الى الانقباض .

وأحس روكامبول في البدء أنهم ينزلون به درجات سلم ، ثم انتهت تلك الدرجات فسار في طريق مبلطة بضع دقائق ، ف شعر ان الهواء قد زادت رطوبته ، وعلم انه يخترق ذلك الدهليز تحت الأرض الذي أخبره عنه الوكيل .

وبعد حين قال له أحد الرهبان : إرفع رجلك واصعد .

فامتثل روكامبول وجعل يمشي معهم مدة ساعة لم تكن تنقطع فيها صلاة الرهبان الخاصة بالأموات .

ثم شعر فجأة ان الهواء قد تغير وتبدلت رطوبته بحرارة ، فعلم انه ترك الدهليز .

ثم سمع أصوات أبواب تفتح وتغلق فما زالوا يمشون به حتى شعر أنه يمشي على بلاط من الرخام ، فأوقفوه وقال له أحد الرهبان إرفع العصا عن عينيك .

فما صدق روكامبول أن سمع هذه الكلمة حتى أزاح العصا وجعل ينظر إلى ما حوله نظراً مضطرباً فرأى انه واقف في مكان يبلغ عرضه ستة أقدام تحت قبة مرتفعة مثل قباب الكنائس ورأى أمامه صورة كبيرة تمثل المسيح وعلى يساره صورة كبيرة تمثل زواج إحدى بنات سالانديررا مع الدون الفاميير وعلى يمينه صورة أخرى كبيرة استلقت أنظاره ، وهي تمثل العقابات الفظيعة المختلفة التي كانت تجري في العصور الوسطى ، وقد كتب تحتها تاريخ هذه

العقابات وأسبابها .

غير ان روكامبول اضطرب لمنظرها ولم يستطع ان يقرأ الكتابة فأدار نظره إلى الرهبان الذين كانوا يصحبونه فوجد ان ثلاثة منهم قد احتجبوا ولم يبق غير واحد كان واقفا وراءه ساكتا لا يتكلم .

وفيا هو ينظر حوله مندهشا مما يراه فتح أمامه ستار ظهر من ورائه اولئك الرهبان الثلاثة الذين كانوا يرافقونه وهو معصوب العينين وكان أمامهم أتون كبير تتأجج فيه النار الموقدة وفي وسط النار حلقة من الحديد .

فدعروكامبول لمراى النار وما كان يحيط بها من الكلابات والمطارق على أن جميع ذلك مر أمام عينيه بسرعة ثم نزل الستار

وعقب نزول هذا الستار فتح ستار آخر أمام صورة المسيح ظهر من ورائه هيكل تتقد فيه آلاف من الشموع وفيه كاهن يصلي ، فردت إلى روكامبول روحه ، وقال في نفسه . لا شك ان هذا الكاهن ينتظر قدوم الخطيبين

ثم نزل الستار وفتح ستار ثالث وكان قلب روكامبول يدق دقات شديدة فرأى امرأة مرتدية بلباس بيضاء تنقدم وهي ماسكة بيد فتاة أخرى متشحة بلباس السواد .

فعرف روكامبول للحال ان تلك الفتاة هي خطيبته ابنة الدوق ، غير انه بينما كانت المرأة تنقدمان إلى الهيكل نزل الستار فاحتجبا عن نظره ، واحتجب الهيكل وشموعه ، ولم يجد روكامبول أماله غير ذلك الراهب الذي بقي معه فنظر اليه كأنه يستطيع كنه هذه الأسرار ولكنه ما لبث ان نظر اليه حتى نزع الراهب القبعة عن رأسه فصاح روكامبول صيحة منكرة وتراجع منذعرا إلى الوراء .

إن هذا الراهب الذي دعر منه روكامبول وخافه هذا الخوف كان زامبا
بعمينه الذي رآه روكامبول يسقط أمامه في تلك الهوة الهائلة وكان يحسب منذ
لحظة انه من الأموات .

فلم يصدق عينيه حين رآه وحسب ان خياله قد تمثل له ثم ما لبث ان ثبقت
منه حتى أخذ يتراجع الى الوراء وقد جحطت عيناه من الرعب وأخذ يبحث عن
منفذ يهرب منه ولكن الأبواب كانت مقفلة جميعها فأسند ظهره الى الحائط وعيناه
محدقتان بزامبا .

أما زامبا فانه كان ينظر الى روكامبول نظر الساخر حين تراجع ، ثم ضحك
ضحكاً شديداً وقال : كيف رأيت الآن يا حضرة المريكز ألا أجيد الاحتمال
كما تجيده أنت ؟

فلم يجب روكامبول وظل ينظر اليه مرعوباً

فقال زامبا : لقد حسبتني أيها الأبله ميتاً من السكر فظننت اني احترقت
اعترافك لجرد إرضائك

ثم جعل يضحك ضحكاً عالياً هازئاً به . أما روكامبول فلبث جامداً لا
يتحرك كالأصنام .

وعاد زامبا إلى حديثه فقال لقد علمت منك انك لست لصاً صادقاً ، فان
للصوص حسب مبادئهم لا يخون بعضهم بعضاً ولكنك سافل دنيء لا تجازي من
يخدمك بغير القتل . فلقد حاولت المرة الأولى ان تقتلني في باريس فطعنتني من
الوراء شأن الخائنين الجبناء ، ثم حسبت بعد ذلك اني أصفح عن خيانتك ،
وأسى لذة الانتقام . ثم لما رأيت انك أصبحت في قبضتي عرضت علي
المال الوفير وأنت تحسبني راضياً بتلك الوعود ، ولكنك أخطأت يا حضرة
الدوق ، فلو عرض علي تاج اسبانيا ومملكة الهند لما تخليت عن الانتقام من عدو

يخونني أعلمت الآن ؟

ثم قل لي بعيشك فقد عهدتك خبيراً بأساليب الاحتيال . ألم يكن حديث الهوة التي لفتته لك متقناً لا شك فيه ؟ وكيف يخطر لك في بال ان عمق هذه الهوة لا يبلغ عدة أقدام وان أرضها مفروشة بالعشب الأخضر كي لا يسمع صوت الحجر الذي إذا القى فيها فتحسبها عميقة وكي لا يرض جسمي إذا سقطت فيها؟ ثم كيف يخطر في بالك ان المسدس لم يكن محشواً بالرصاص بل بالبارود وحده وقد وضع في سرج جوادك بعد نزع الرصاص ؟

ولكنني أعذرك لاختداعك فقد أطلقت علي مسدسك فتظاهرت ان الرصاصة وقعت في صدري وصحت صياح المتألمين وسقطت في الهوة . ألم أمثل دوري خير تمثيل أيها الماركيز ؟

ثم جعل يضحك غير ان روكامبول ثاب من دهشته ، وذكر انه رأى خطيبته ، وانه لا يفصل بينه وبينها غير ستار رقيق ، فوضع إصبعه على فمه وقال : أسكت أو اخفض صوتك . . . إنني سأعطيك جميع ما تطلبه . . . قل أتريد ثروتي يجمعتها ؟

- لماذا تريد أن أخفض صوتي ؟

- لأن خطيبتي وراء الستار تنتظرني .

- أظن انها تنتظرك ؟

فجعل العرق البارد ينصب من جبين روكامبول وقال : أما هي الآن وراء الستار أمام الهيكل ؟

- نعم إنها هناك ولكنني نسيت انك ستتزوج وإنهم قد البسوك ملابس العرس . أتعلم يا حضرة الماركيز ما هو هذا القميص الذي البسك إياه أسقف غرناطة تحت ملابس الرهبان ؟

ثم دنا منه ونزع عنه ثوب الراهب بحيث ظهر القميص لروكامبول فما لبث أن رآه حتى صاح صيحة منكرة لأنه كان ذلك القميص الأحمر الذي يلبسه

المجرمون في السجون

وعند ذلك دنا زامبا من الجدار وأدار لولباً فيه فارتفع ستار آخر وظهرت كنيسة غاصة بالناس فرأى روكامبول رجلاً جاثياً أمام الهيكل ويجانبه كونسبسيون والأسقف أمامهما يعقد عقد القران .

أما الرجل فكان المريكز دي شمري الحقيقي الذي حسب روكامبول انه قتله وجعله طمعاً للأسماك .

وفي الحال أدار اللولب ثانية فنزل الستار ودنا من روكامبول الذي كان مستنداً الى الجدار حذراً من أن يقع وقال له : لا يخلق بنا ان نكدر على المحتفلين حفلتهم واصغ إلى الآن فقد تعلمت بما كنت أراه في مسارح النمثيل أنه لا بد لكل رواية من ظهور خفاياها في آخر فصل منها .

وإذ قد بلغنا إلى الفصل الأخير من روايتنا فلا بد لي من إظهار غوامضها كي لا يفوتك شيء من أسرارها . فاعلم الآن ان المريكز دي شمري الحقيقي وليس أنت ، أي المريكز الذي تعقد الآن حفلة زواجه بابنة الدوق سالانديريرا لم يمت كما توهمت ولم يفعل به رصاص مسدسك إلا كما فعل بي ، وذلك اني نزعيت الرصاص من المسدس ، ولم يبق فيه غير البارود ، فلما أطلقت مسدسك عليه تظاهر أنه أصيب برصاصة ، والقى نفسه في البحر كما القيت نفسي في الهوة فغاص تحت المياه ، وكان الظلام شديداً فلم تره حين بلغ الشاطئ تحت منزل إبنة الدوق .

ثم أخبرك أنه عندما تهان إبنة نبيلة كإبنة سالانديريرا من مجرم سفاك مثلك فهي تنتزع من قلبها كل رحمة وإتفاق في سبيل الانتقام ، ولذلك فاني عندما سألتها أن تكتب اليك ذلك الكتاب الذي القاك في الفخ لم تتأخر هنيئة عن الكتابة .

فعلم روكامبول عند ذلك كل شيء وأيقن انه لم يخسر إبنة سالانديريرا ودوقيتها وملايينها ومركيزيته ومقامه والأموال التي اغتصبها بل انه قد

خسر أيضاً حياته لأنه رأى نفسه محاطاً بأعدائه من كل جانب .
وكأنما هذا الموقف الشديد الذي بات فيه قد زاده جرأة لما تولاه من القنوط
فلم يحفل بما قاله زامبا وابتسم له إبتسام الهـازيء المستخف بالموت ،
فأجابه زامبا بأن ضغط على زر آخر ، ففتح ستار ظهر من ورائه أولئك
الرهبان الثلاثة يوقدون النار التي تقدم لنا وصفها فأيقن روكامبول أنهم
الجلاد ومساعداه .

ثم رأى وراءهم شخصاً رابعاً فملع قلبه لمنظره وذكر ذلك الشعر الذي قاله
داني أب الشعراء الإيطالي وهو (هنا يقطع كل رجاء) .
أما هذا الشخص فكان امرأة لابسة ملابس سوداء كما يلبس القضاة وكانت
هذه المرأة باكارا ...

كثيراً ما يتفق المجرمين ان تخور قواهم ويغمى عليهم في مقاعدهم حين
يسمعون صدور الأحكام من أفواه القضاة ، غير أن روكامبول لم يكن من
أولئك المجرمين ، فإنه كلما زاد موقفه حرجاً زاد جرأة بقدر ازدياد قنوطه
يزيد إقدامه .

غير أنه لم يجد سبيلاً للإقدام في تلك الساعة الرهيبة ، فاكتمى بالجرأة
وعدم المبالاة بالموت ، وجعل ينظر إلى باكارا نظرات الاحتقار كمن يريد
أن يموت موت الأبطال ، ثم قال لها بلمهة المتهمك لقد عرفت أنك
كنت تسيرين من وراء زامبا وتقدمينه إلى ما فعل ، فإن هذا الأبله ليس
من رجالي .

فقالت له باكارا ببطة : لا تشتم ولا تتهم فان ساعتك قد دنت .

فشتمها شتماً قبيحاً وقال لها إني أهزأ بك وبكل ما فعلتبه ، ونعم
إنك تستطعين قتلي ، غير أني لا أكثرث للموت ، لأنني لم أكن مركزياً
ولكن ابنة أعظم عائلة في اسبانيا أحببتي ، والكونتس دي اسمول
دعني أخاها

ثم ضحك ضحك الهازي، وقال . ثم اني هتكت عرضك وجعلتك مضغة
في الأفواه بعد ان أصبحت مثال التوبة الصادقة وذهبت بعقل زوجك فاقتليني الآن
كما تشائين فقد انتقمتم لموتي قبل ان أموت .

ثم برقت عيناه بهريق من الانذار الجهنمي كأنما روح أستاذه السير فيليام قد
مرت بعينيه .

غير أن باكارا قالت له بهدوء : إنك منخسعد يا روكامبول ، فأننا لا
نريد قتلك !

- إذن فماذا تريد مني ؟

- أنظر إلى ثوبك فانه من ملابس المجرمين ، وانظر إلى هذه الحلقة التي
تحمي في النار المتأججة فانها ستطوق ساقك ويربط بها قيدك ، فانت من
كان مثلك لا يكفيه عقاب الموت لأنه راحة لك ، بل أن عقابك ينبغي ان
يكون بالسجن المؤبد، حيث يندفع السجناء بالسياط على كتفك ولا تلقى أثناء
الليل وأطراف النهار غير الذل والشقاء والقنوط وذكرى أيامك السابقة في باريس
اليس هذا العقاب أشد من الموت ؟

ثم أشارت إلى الرهبان فهجموا عليه والقوه على الأرض وهو يصيح ويقاوم
دون جدوى ، فلما تمكنوا منه رفع الجلاد ساقه إلى السندان وأخرج آخر تلك
الحلقة الحمية من النار فأطفأها بالماء ووضعها على ساقه والدخان يتصاعد منها ثم
طواها وطرق بها الساق .

ولما انتهوا من وضعها تركوه ملقى على الأرض وهو لا يستطيع حراكا لما
ناله من الألم .

ودنت منه باكارا فقالت له : إنك أرسلت المريكز دي شمري إلى
السجن . فمن العدل ان تحل محله فيه ، وأردت أن تتزوج ابنة الدوق باسمه
فمن العدل أن يحل محلك منها . وإنما عاملناك دون إشفاق لأنك لم تشفق
على أحد .

فصاح روكامبول يقول: لقد ساء فألك فاني سأنتظلم أمام القضاة وسأخبرهم بأنكم كنتم قضااتي ، فلا أريد أن يحكم علي إلا في المحاكم .

- إنك منخدع أبصاً ، فان الحكم عليك قانوني وقد وقع عليه في المراجع العالية ، فاذا كان قد نفذ فيك العقاب داخل هذا الدير دون أن يقف على أمرك أحد ، فما ذلك إلا صيانة لشرف أسرتين نبيلتين وسيبقى سرهما مكتوماً بالرغم عنك في سجن قاديس إلى الأبد ، فانك ستكون فيه باسم ذلك الرجل الذي كان يدعي انه المركيز دي شمري فلا يصدقه أحد أفهمت الآن ؟

- لا ! فان هذا المركيز لا يشبهني بشيء وسيرى السجنانون والمسجونون أنني غير ذلك المركيز .

- إنك لا تزال منخدعاً فاعلم انه قد يتسنى لبعض المسجونين أنهم يحاولون الفرار فيشوهون وجوههم كي لا يعرفهم أحد متى باتوا خارج السجن ويأمنون مطاردة الجنود .

فصاح روكامبول صيحة رعب لأنه علم كل شيء ولكن الصيحة كانت آخر ما قاله ، فان بدأ شديدة ضغطت على عنقه ، وربض آخر على صدره كي يمنعه من الحركة ، ثم أخذ راهب ثالث زجاجة وصب ما فيها بانهاء ، بل به خرقة من الكتان ، ثم وضعها على وجهه من الأنف إلى الذقن .

فأحس روكامبول بألم شديد لا يطاق ، ولم يستطع أن يصيح أو يتخلص .

وقد فعلوا ذلك به بسرعة زائدة ثم رفعوا عن وجهه الخرقة ودفا زامبا منه فأخرج مرآة من جيبه وقال له أنظر إلى وجهك .

فنظر روكامبول إلى تلك المرأة وأن أنيناً شديداً ، لأنه رأى أن وجهه قد تشوه أتم تشويه ، بحيث لم يعد يعرف نفسه لأنهم شوهوا وجهه بسائل الزاج

وفي ذلك الوقت كانت أجراس كنيسة سالانديريرا تقرر وكان المراكز
دي شمري خارجاً مع إمرأته ابنة الدوق سالانديريرا .

- ٣٠ -

بعد ذلك بخمسة أيام كان الفيكونت فابيان دي اسمول جالساً مع إمرأته
وهي ظاهرة عليها علائم الانقباض ، تشكو إلى زوجها انقطاع أخبار أخيها
(روكامبول) عنها منذ سفره إلى اسبانيا ، وهو يلاطفها ويمزوا هذا
الانقطاع إلى انهاكه في شؤون زواجه .
وفيما هما على ذلك دخل خادم يحمل رسالة من اسبانيا فأمرع الاثنان اليها
وقضها فابيان فقرأ ما يأتي .

« شقيقي العزيزة بلانش

« إنني أكتب اليك وزوجي العزيز مقيم بجاني في مدريد ينظر ما أكتب
ولاني أحب ان أكتب اليك كثيراً من الأمور فلا أعرف كيف أبدأ ولكن لا
بد لي من القول قبل كل شيء ان أخاك أصبح زوجي ولاني بهذا الزواج من
أسعد النساء

« إن عقد زواجنا قد تم أمس ، وقد عقده لنا أسقف غرناطة في قصرنا في
سالانديريرا بحضور أمي والموظفين عندنا .

« وكان ينتظرنا على باب الكنيسة مركبة للسفر ، وفيها أحد أركان حرب
جلالة الملك فسافرت فيها مع البرت إلى مدريد وقدمت زوجي بنفسه إلى الملكة
فاستقبلته خير استقبال وقالت له :

« إنني يا حضرة الدوق دي شمري سالانديريرا قد وقعت اليوم على
الأوراق القاضية بنقل جميع القاب الدوق دي سالانديريرا اليك ، وكنت

عزمت من قبل على تعيينك سفيراً لملكتي في البرازيل . غير أنني خشيت عليك وعلى إمرأتك مناخ تلك البلاد فعيّنتك لمثل هذا المنصب في الصين حيث تغيب عن أوروبا أربعة أعوام على الأقل . وأنا أعلم بأن هذه المهمة شاقة صعبة عليك ، ولكنني أوّمل أن يخفف عنك حبك لامرأتك أثقالها .

« ولما فرغت من اللقاء أوامرها قدمت له يدها فقبلتها ثم دعّتنا إلى العشاء على مائدتها الخاصة .

« ويسوءني أيتها الحبيبة إننا سنفترق عنك أربعة أعوام . غير أن عزائي أن البرت قد دخل في سلك السياسة ، فبدأ بالمنصب الذي يلتمهي إليه أمل الطامعين أي أنه بدأ بمنصب سفير وهو خير ما يطمع به رجال السياسة بمعد الصبر الطويل .

« والآن فأننا سنسافر بعد يومين وسلبقى أُمّي في اسبانيا ولكنها ستحضر إلى باريس في الشتاء القادم فتحدثنيها عنها بما تشتهين .

« إن البرت يحب أن يكتب لكم بالرغم عما هو فيه ولا يزعجك هذا القول فإنه بينما كان يفتح أمس زجاجة كسرت ودخلت قطعة من زجاجة في سبابة يده اليمنى فجرحتها بحيث لا يستطيع الكتابة بيده اليمنى عدة أيام ولذلك فهو يكتب لك باليد اليسرى .

« الوداع أيتها الحبيبة وعسى أن نلتقي في باريس قريباً باذن الله . والسلام عليك وعلى زوجك العزيز فابيان »

(كونسبسيون)

وقد أضاف المركيز دي شمري الحقيقي بضعة أسطر على هذا الكتاب بيده اليسرى ، وإنما اختلقوا حكاية جرح يده كي لا تلتبه الفيكونتس دي اسمول إلى تغير الخط لأنها تعرف خط روكامبول .

وبعد أن اطمان خاطر الفيكونتس على أخيها تركها زوجها فابيان وذهب

إلى النادي فوجد فيه العديد من أصحابه وأصحاب روكامبول ، ولم يكن حديثهم غير زواج المركيز دي شمري بابنة الدوق وليس بينهم من يعرف شيئاً من حقيقة حال روكامبول

وبينما فابيان جالس بينهم إذ دخل رولاند دي كايك فمحب أعضاء النادي لقدومه بعد طول احتجابه عنهم وكان معظم عجبهم مما رأوه من دلائل الرزاة بعد ما عهدوا به من الطيش والنزق .

غير ان رولاند لم يحفل بمحبهم فحياتهم بوقار إلى أن وصل إلى فابيان وسلم عليه وقال له : أتأذن لي يا سيدي الفيكونت بمقابلة قاني قادم من منزلك ولم أرك .

فمحب فابيان وقال له : إن العلائق مقطوعة بيننا ، فما يدعوك إلى هذه المقابلة ؟

وكان فابيان يكلمه بلهجة تشف عن الاحتقار فلم يحفل به رولاند وقال له : لا أنكر عليك حقك بهذا الاحتقار غير أني التمس منك أن تأذن لي بهذه المقابلة

— وماذا تريد مني ؟

— لا أطلب اليك أن تراجع عن اعتقادك السابق بي ولكنني أسألك ان تورني هذا المساء في منزلي .

— لأي قصد ؟

— لا أستطيع ان أقول لك شيئاً الآن غير اني التمس منك مقابلة باسم الصداقة القديمة المؤسسة بين عائلتيينا .

— حسناً فسأذهب ففي أية ساعة تريد ان يكون اللقاء ؟

— في الساعة التاسعة من المساء .

- ٣١ -

قبل أن نتبع الفيكونت دي اسمول الى منزل رولاند نذهب بالقارى إلى قصر الكونت أرمان دي كركاز فنقول :

كان هذا الكونت جالساً في غرفته قبل هذه الحادثة المتقدمة ببضع ساعات وكان يقرأ في جريدة اسبانية حادثة فرار المركيز دي شمري من سجن قاديس وتشويه وجهه والقبض عليه على ما مثلته باكارا وهو لا يفهم شيئاً من هذه الألغاز .

وبينما هو مضطرب في أمره إذ دخل عليه فرناند روشي فسر بلبياى سروراً عظيماً وبعد ان جلس أمامه أخبره الكونت بخلاصة ما قرأه في الجريدة وأنه لم يعلم شيئاً من هذه المعميات فقال له فرناند . إنني أتيت الآن من اسبانيا وسأخبرك بكل شيء .

- قل إذن ماذا حدث ؟

- تم كل شيء .

- كيف ذلك ؟

- تزوج المركيز بابنة الدوق .

- أي مركيز ؟

- المركيز الحقيقي الذي كان في سجن قاديس .

- إذن فما هذه الجريدة وأي مركيز تعني بتفاصيلها ؟

فابتسم فرناند وقال : ذلك من صنع باكارا ، فانها أخرجت من السجن المركيز الحقيقي ووضعت بدلاً منه روكامبول باسم ذلك المركيز ،

يعد أن شوهت وجهه أبشع تشويه ، كي لا يعرف السجان والمسجونين وجهه

ثم أخبره بجميع تلك الحيلة بالتفصيل كما قدمناه .

فأعجب الكونت أرمان بدهاء باكارا وقال له : أين هي الآن تلك الكونتس العزيزة

— لقد تقدمتني بساعة ولا بد ان تكون الآن في باريس .

وبينا الاثنان يتحدثان بحديثهما إذ دخل خادم يحمل إلى الكونت رسالة منها فعضها وقرأ فيها ما يأتي :

« أيها الكونت العزيز

« لقد عهدت إلى فرناند أن يخبرك بكل ما جرى ، وأنا أكتب اليك الآن على عجل كي أخبرك أن عدونا العام قد قص جناحاه ولم يبق علينا غير الاهتمام بتبرئتي من تلك الوصمة الشائنة التي وصمني بها قبل الانتقام منه . ولذلك فاني أنتظر قدومك إلي في هذا المساء في منزل الميسو رولاند دي كايلىت » .

« الكونتس أرتوف »

أما باكارا فانها وصلت إلى باريس قبل ان يصل اليها فرناند بساعة ، فذهبت توأ إلى أختها سريرز وسألتها عن زوجها الكونت فأخبرتها انه بخير ، وان حالته قد تحسنت تحسناً عظيماً ، بحيث عاد اليه بعض صوابه وصار يعرف أنه الكونت أرتوف وليس رولاند دي كايلىت كما كان يعتقد في بدء جنونه .

فسرت باكارا سروراً لا يوصف لأنها عدت ذلك خير مقدمة لشفائه ، ثم
ذهبت باختها سرين إلى اختها ريبيكا
فسارت الأخوات الثلاث إلى منزل باكارا فوجدت فيه رسالة من رولاند
ففضتها بلهف وقرأت فيها ما يأتي :
« وصلتني رسالتك من مدريد أول أمس وأنا في كايلت فامتثلت لأمرك
وأسرعت إلى باريس وها أنا الآن فيها أنتظر أوامرك » .
فأخذت باكارا ورقة في الحال وأجابته قائلة :
« إني مرسلتك إليك اختي ريبيكا فهي تخبرك بما أريده منك ، والآن اسرع إلى
الفيكونت دي أسمول واطلب إليه ان يكون في منزلك في الساعة التاسعة
وسأكون أنا أيضاً فيه في تلك الساعة » .
ثم كتبت إلى أرمان دي كركاز الرسالة التي تقدم شرحها ، وبعد ان
أرسلت ريبيكا إلى رولاند قالت لأختها سرين : هلم بنا الآن إلى حيث يقيم
زوجي ، فقد سبقني الطبيب صموئيل إليه ليعلم إذا كانت حالته العقلية تسمح
له أن يراني .

- ٣٢ -

في الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه جاء الفيكونت فابيان إلى منزل رولاند حسب الاتفاق فوجد رولاند بانتظاره وبعد أن احتفل به خير احتفال دار بينهما الحديث الآتي فقال فابيان :

- أ رأيت كيف اني كنت حريصاً على اللقاء على ما بيننا من النفور، وإنما أتيت لأنك طلبت إلي هذا اللقاء باسم عائلتنا ولأرى شؤونك الخطيرة التي دعوتني اليها .

- إني قادم يا سيدي من قرية فرانش كوتته ، حيث كنت فيمها لتسوية إرث عمي .
- لقد عرفت هذا .

- وقد كنت أنت أيضاً في تلك الجهة في قصر هوتبا ، حين توفي الدوق دي سالانديريرا فجأة ، وكنت أود مقابلتك هناك ، فها تيسرت لي المقابلة . والآن فاني ما طلبت اليك هذا اللقاء إلا لأطلب منك الايضاح عن الخطة التي ننتجها معي .

- إني كنت صديقك بل إني كنت أعد نفسي بمثابة أخيك الكبير فانظر اليك بعين الإخاء وأقوم ما اعوج من مناهجك وأصلح ما فسد من أمورك بيد الاخلاص إلى أن علمت يوماً ..

فقاطعه رولاند وقال : إني أعلم ما تريد ان تقوله لي : فانك تريد أن تقول بأنني تجاسرت يوماً على إهانة امرأة ووصمتها بوحمة عار لا تمحى فلم تجد بداً من احتقاري لأنني ما جريت مجرى النبلاء اليس هذا الذي تريد أن تقوله لي يا سيدي ؟

فسكت فابيان وكان سكوته أبلغ جواب .
غير ان رولاند لم يحفل بهذا السكوت ومضى في حديثه فقال : إني لم
التمس منك يا سيدي هذه المقابلة كي أرجعك عن سابق اعتقادك بي وأنا احتمل
احتقارك لي لأن مهمة اجتماعي بك غير خاصة بي .
- بمن ؟

- بتلك المرأة الطاهرة التي دنست سمعتها أي الكونتس أرتوف .
فابتسم فابيان ابتسامة هزة وقال له : العلك تريد أن ترجع لها شرفها
المفقود ؟

- ذلك لا ريب فيه .
- أمام من ؟
- أمامك قبل كل الناس .

فاستاء فابيان وقال : إنك تعلم بأننا لم يعد بيننا ذلك الوداد القديم الذي
يؤذن لك بمنازحتي إلى هذا الحد .
- إني لا أمزح بل أقول الجد .
- أي جد هذا العلك نسيت أي رأيته من ثقب باب غرفتك في تلك الغرفة
وسمعت ما كان يدور بينكما من الحديث ؟

- يحق لك يا سيدي أنت تقول لي جميع هذا القول ، ويسوءني أي
لا أستطيع أن أجيبك الآن ، ولكنني سأبرهن لك بعد بضعة دقائق بأصدق
البراهين .

فجعل ينظر اليه نظر الفاحص وهو يحسب انه فقد صوابه ثم قال له :
أنتتظر قدوم زائر ؟

وعند ذلك طرق الباب فتركه رولاند وذهب ففتح ودخل يصحبه الكونت
أرمان دي كركاز .

فزاد عجب فابيان لأنه كان يعلم ان رولاند لا علاقة له مع ارمان ، وبعد

أن عرّف رولاند كلا من زائريه بالآخر قال له فابيان : أملك كنت تنتظر

حضرة الكونت ؟

نعم . . ولكني أنتظر شخصاً ثالثاً ايضاً وهو الكونتس ارتوف .

— أفي عزم الكونتس ان تحضر الى هنا ؟

فلم يجبه رولاند لأنه سمع طرق الباب وخرج ليفتح .

وفي خلال ذلك دار الحديث الآتي بين فابيان وأرمان فقال له ارمان :

— أتعرف يا سيدي الفيكونت الكونتس ارتوف حق المعرفة ؟

— نعم فان زوجها كان من أخلص اخواني .

— اتظن انها مذنبه كما يقولون ؟

— وأأسفاه يا سيدي اني واثق كل الثقة لأن لدي برهاناً لا يدحض .

— أما أنا فاني أعتقد انها بريئة خلافاً لما يعتقداه الناس

فابتسم فابيان ابتسام الحزين وقال : يظهر يا سيدي الكونت انك دعيت

إلى هذا المنزل لنفس السبب الذي دعيت أنا من اجله ؟

— ربما كان ذلك كما تقول .

— ان المسيو دي كايلى كان من اصدقائي ، ثم قطعت بيننا العلائق لسوء

سلوكه مع الكونتس ، ولكنه اقبل يسألني ان أوافيه اليوم في الساعة التاسعة

إلى منزله .

— وانا وردني كتاب من الكونتس بهذا المعنى .

— ولست اعلم كيف يستطيع رولاند او الكونتس ان يبرهنا لنا عن خطأ

الناس فيما يعتقدون .

— اما انا فان ثقتي شديدة .

— إذن فانك لا تعلم ما اعلمه فاني كنت ليلة مختبئاً في هذا البيت

ورأيتها فيه .

— رأيت من ؟

— الكونتس ارتوف وقد رأيت رولاند على ركبتيها وسمعت حديث الغرام بينهما .

فقاطعه ارمان وقال : أرايتها بعينك ؟ أنت واثق بما تقول ؟

— وأسفاه نعم يا سيدي وليس لدي بتهتكها اقل شك .

وقد حاول ارمان ان يحيب ولكنه لم يجد سبيلا فان الباب فتح عند ذلك ودخلت منه امرأة فأزاحت البرقع عن وجهها وسلمت على ارمان وفابيان فانحنيا أمامها بجلء الاحترام فانها كانت باكارا

غير انه في الوقت نفسه فتح باب مشرف على القاعة ودخلت منه امرأة فما اوشكت ان تزيح قناعها حق تراجع ارمان وفابيان منذعرين ذلك انها رأيا ان تلك الداخلة كانت باكارا نفسها وقد وجدا في تلك القاعة اثنتين لم يعلما ايتهما الكونتس ارتوف من شدة ما كان بينهما من الشبه .

رساد السكوت بين الأشخاص الخمسة الذين ضمتهم تلك الغرفة فكان فابيان يقلب طرفه بين تينك الامراتين ، وهو لا يعلم ايتهما الكونتس ارتوف الحقيقية .

اما ارمان دي كركاز فلم يطل تردده ونظر الى الاثنتين نظر الفاحص ثم دنا من باكارا فوضع يده بيدها وقال . انت هي الكونتس .

اما فابيان فقد ظهرت بين ثناياه علائم البله وجعل يقول : لا شك اني حالم .
خير ان ارمان قال له : كلا يا سيدي فانني قد علمت كل شيء وان تلك المرأة التي رأيتها ..

وعند ذلك دنت ريبيكا من فابيان وقالت له : اني انا تلك المرأة التي رأيتها في هذا المنزل يا رولاند .

وكانت باكارا تنظر إلى هذا المشهد وتبتسم ابتسام الحزين ثم قالت مخاطبة ارمان وفابيان : اسألكما العفو يا سيدي ، فاني ما دعوتكما إلى هذا المنزل إلا لأجبري نفسي من تلك الوصمة التي وصمني بها رجال المكر والدهاء فلاقوا جزاء

ما كانوا يصنعونه ولا بد لي ان ابرأ امامكم يا ابرأ امام جميع الناس .
فقال فابيان مشيراً بيده إلى ريبكا اليهودية التي كانت مطرقة بنظرهما
استحياء الى الأرض : من هي هذه المرأة ؟
فأجابته باكارا : انها اخي من امي وقد كانت تكرهني كرهًا شديدًا
فسول لها هذا الكره ان تكون آلة صماء بيد عدو لي هائل .
فأجفل فابيان لذكر العدو وقد حسب ان باكارا تعني به رولاند فنظر اليه
نظرة احتقار شديد .

غير ان باكارا علمت ما كان يحول بنفسه فقالت له ، لقد اخطأت يا سيدي
فليس رولاند ذلك العدو بل انه نفسه كان آلة صماء .

ثم مدت يدها إلى رولاند وقالت له لقد دفعك نزع الشباب إلى فعل ما
فعلت وها انا صافحة عنك بل اني سأبرهن للفيكونت انك اهل لصداقتي .
وعند ذلك قصت باكارا على الحاضرين جميع تلك الحكاية التي ذكرناها
دون ان تذكر اسم روكامبول .

فقال ارمان : عرفت الآن ذلك العدو .
أما فابيان فانه لم يعلم شيئاً وقال : من عسى يكون هذا الرجل الجهنمي
الذي يحسر على ارتكاب مثل هذه الذنوب الهائلة ؟

فقالت باكارا : عفوك يا سيدي أئذن لي كتمان اسمه فان امره سيبدى
مكتوماً إلى الأبد ولكني لا اكتملك انه نال فوق ما يستحق .

فقال الفيكونت أعله عوقب ؟

-- نعم انه زج في السجن وسيموت فيه .

بعد ذلك بساعتين دخل الفيكونت فابيان ورولاند دي كايلى إلى النادي
الذي أهين فيه اسم الكونت ارتوف منذ بضعة أشهر وبات أعضاؤه واثقين من
ان الكونتس كانت تحب رولاند وقد خانت زوجها من أجل هواه .
وكان جميع الأعضاء مجتمعين في تلك الساعة يتقائمرون على طاولة واحدة .

فوقف فابيان بينهم وقال لهم بصوت جهوري : اسألكم أيها السادة ان تدعوا اللعب هنيهة فاني محدثكم بشأن خطير .
ولما رأى فابيان ان الأنظار اتجهت اليه قال لهم : اني ادعوكم جميعاً إلى الأوبرا يوم الجمعة القادم .
فقال بعضهم أعلهم سيمثلون رواية جديدة ؟
- كلا بل اني ادعوكم لتنظروا فيها امرأة لفحتها نار النميعة وهي الكونتس ارتوف وتروا بجانبها امرأة اخرى تشبهها شهماً غريباً بحيث يستحيل على الناظر اليها ان يعلم ايتهما الكونتس واني أقسم لكم بالشرف المقدس أن صديقي رولاند قد خدعته تلك المرأة التي تشبه الكونتس ، وان الكونتس ارتوف من أظهر الذساء .
فذهل الجميع لهذا النبأ الخطير غير انهم وثقوا كل الثقة من كلام فابيان وزالت عن باكارا وصمة العار .

- ٣٣ -

ولنعد الآن إلى باكارا فانها ذهبت مع اختها سريز إلى حيث يقيم زوجها والطبيب صموئيل ، فلما وصلت إلى المنزل فتح لها الباب الطبيب نفسه فنظرت باكارا اليه محدقة تستطلع من هيئته ما تريد معرفته عن صحة زوجها فأخذ يدها وقال : اطمأني يا سيدتي فان أمل الشفاء قريب .
ثم أخذ بيدها وصعد تتبعه سريز إلى القصر واقامها في غرفة خاصة غير أن باكارا فرغ صبرها وقالت له : اني اريد ان اراه .
كلا يا سيدتي فلم يحن الوقت بعد غير اني أعود إلى تطمينتك فان كل خطر زال عنه .
- إذن فلماذا تمنعني عن رؤياه أعمل يوجد ما يحول دون هذا اللقاء ؟

— كلا يا سيدتي انما اطلب منك ان تسمح لي ان اسألك سؤالاً واحداً ؟
— تكلم واسرع .

- إذا خيروك بين أن تنظري زوجك في الحال فتؤخري شفاؤه وبين أن لا تنظريه إلا بعد بضع ساعات ويكون شفاؤه قريباً فأأي الأمرين تختارين ؟
— أوضح يا سيدي الطبيب ما تقول فلقد شغلت بالي .

— إذا فاصغ إلي ان الدواء الذي عاجلت به الكونت قد فعل به فعلاً شديداً وسار به سيراً سريعاً الى الشفاء وهو لا يزال مجنوناً غير ان شكل جنونه قد تغير فهو يعرف الآن انه الكونت ارتوف ولم يعد ينكر نفسه كما كان يفعل من قبل ولهذا يا سيدتي أخشى اذا اذنت له برؤياك ان يفتكس .
— لماذا ؟

— لأنه اذا رآك تعود اليه الذكرى القديمة .
فأطرقت باكارا برأسها وقالت : اشفه يا سيدي فاني اؤثر شفاؤه ولو قضى علي أن لا أراه إلى الأبد .
— كلا يا سيدتي انك تبالغين في مخاوفك فاني لا أسألك أن تحتجبي عنه غير بضع ساعات فقط .

وما زال بها حق اطمأنت لوعوده فقال لها : عودي الآن إلى المنزل واجتهدي ان ترسلي الي الفيكونت فابيان في صباح الغد .
فخرجت باكارا والدموع ملء عينيها وعادت مع اختها سريز وهي لا تعلم شيئاً من مقاصد الطبيب ، فاجتمعت بالفيكونت فابيان وأخبرته بما يطلب اليه الطبيب

وفي اليوم التالي ذهب فابيان الى القرية التي يقيم فيها الكونت ارتوف فاستقبله الطبيب صموئيل وخلا به مدة طويلة علمه خلالها ما يجب أن يصنع .
وبعد ان فرغ من حديثه تركه ودخل إلى غرفة الكونت ارتوف وكان لا يزال قائماً فان الطبيب كان خدره تلك الليلة وعالجه المعالجة الأخيرة فاستيقظ

الكونت وجعل يدير في الغرفة نظراً مضطرباً حتى استقر نظره على الطبيب
فقلب طرفه فيه مراراً وقال له : من أنت ؟

فقال الطبيب : أنا طبيبك يا سيدي

- وما شأن الطبيب عندي هل أنا مريض ؟

- لقد كنت مريضاً يا سيدي الكونت واليوم شفيت بإذن الله .

- أطالت مدة مرضي ؟

- ثلاثة أشهر .

- ما هذا النبأ الغريب ، اني لا أذكر شيئاً من هذا وأين أنا الآن ؟

- انك في منزلك في قرية فونتينا .

- العلك تهزأ بي فاني لا أذكر ان لي قصوراً في هذه القرية .

- كلا يا سيدي وسأقدم لك صديقاً إذا نظرتة تذكر كل شيء ثم صفق

بيديه ففتح الباب ودخل فايمان .

فلما رآه الكونت ضرب جبينه بيده وصاح صيحة يأس وهو يقول : لقد

ذكرت كل شيء . ثم تراجع إلى الوراء حتى لصق بالجدار وهو ينظر إلى

فايمان نظرة المنذع . أنا في يقظة ام انا في حلم .. كلا ، بل انا في يقظة

فاني نمت في منزل ليلة المباراة .. ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟

فدنا منه فايمان وقال له : اني سأخبرك بكل شيء .

وعند ذلك خرج الطبيب من الغرفة وبقي الكونت وفايمان منفردين .

- ٣٤ -

وأخذ فابيان يد الكونت وقال له : سكن روعك واجلس بجانبى فسأخبرك بكل شيء كما وعدتك .

- قل فاني مصنع اليك .

- إنك كنت مجنوناً أيها الصديق

- ذلك أكيد كما يظهر لي لأنني لا أعلم كيف أتيت إلى هذا المنزل .

- إنك هنا منذ شهر ولكنك قبل أن تأتي إلى هذه القرية كنت في نيس .

- ما هذه الغرائب التي لم أسمعهما فاني لا أذكر شيئاً منها ، وقبل ذلك

أين كنت ؟

- كنت في منزلك في باريس حيث كانوا يمالجونك فيه .

- ومن أي حين ذهب عقلي ؟

- منذ ثلاثة شهور .

فوضع الكونت يده على جبينه كي يتذكر ثم قال بعد هنيهة : كيف كان

جنوني وفي أي حين ؟

- في حين كنت عازماً على مبارزة خصمك رولاند دي كايلى وقد ذهب

صوابك في ساحة المبارزة فبحسب أمام خصمك ، ثم اختلط عقلك فحسبت

خصمك الكونت أرتوف ، وحسبت نفسك رولاند دي كايلى .

- رباة ماذا أسمع أصحيح ما تقول ؟

- أقسم لك بالشرف .

- وبعد ذلك ماذا جرى ؟

- ذهب الشهود بك إلى منزلك .

- إلى منزلي أنا في شارع بيبينار ؟
- نعم أيها الصديق .
- ولكنني أرجو أنها كانت غائبة على الأقل .
- وقد اضمر عن زوجته باكارا لأنه لم يحسر على أن يذكر اسمها .
- بل كانت فيه .
- وقد رأيتني ؟
- نعم ، وهي التي كانت تتولى العناية بك وهي التي ذهبت بك إلى نيس .
- أواه إنها خيانة لا تغتفر ولا بد لي من الانتقام .
- اني أتيت لأقترح عليك هذا الانتقام إذ يجب قتل رولاند والمرأة التي أحبه فأنها لم تقف بخيانتها عند حد وقد اغتنمت فرصة جنونك للتجدي في غيابها !
- فاصفر وجه الكونت من الغيظ وقال : ان دور الجنون قد انقضى وقد بدأ دور الانتقام الرهيب وسيري الخائن كيف تكون عواقب الاثم .
- فأخذ فابيان رسالة من جيبه وقال له : خذ واقرأ أيها الصديق .
- ثم أعطاه رسالة لا توقيع فيها ولكن خطها يماثل خط باكارا .
- وكانت هذه الرسالة إحدى الرسائل التي كانت ترسلها ريبيكا إلى رولاند فيقلد فيها روكامبول خط باكارا تقليداً عجيباً بحيث لا يشك عارف خطها انها هي التي كتبتة .
- فأخذها الكونت أرتوف وقرأها ولم تكن تتضمن غير هذا السطر وهو :
- « انتظرك في الساعة الحادية عشرة في المنزل الصغير » .
- فلما قرأها الكونت قال له فابيان : رأيت كيف انها تنتظره ؟
- فاضطرب الكونت أرتوف وقال له أين هو هذا المنزل ؟
- في باسي وقد استأجرته خاصة لهذا الغرض .
- ومق يجتمعان ؟

- اليوم ..
- أتعرف المنزل ؟
- نعم ..
- إذن هلم بنا فإن صدري يكاد ينفجر
- فوافق فابيان ونادى الكونت خادم غرفته فالبسه ملابسه بسرعة عظيمة
- وخرج الاثنان من القاعة ومرا بالحديقة فجعل الكونت ينظر إلى ما يحيط به
- نظرة المنذهل ثم قال لفابيان :
- تقول اني هنا منذ شهر .
- نعم أيها الصديق .
- أكنت أنزله تحت هذه الأشجار ؟
- كل يوم
- اني لا أذكر شيئاً من هذا ولا بد ان تكون رؤياك التي شفتني من جنوني
- كلا ، بل ان الذي شفاك دواء هندي عاجلك به الطبيب صموئيل الذي
- رأيت في منزلك الآن .
- كل ما سمعته غريب .
- إنك ستري أغرب من جميع هذا عند رجوعك من باسي
- لماذا لا تقول لي الآن عن هذه الفرائب القادمة ؟
- كلا لا أقول شيئاً إلا بعد أن تشفي غليلك من الانتقام .
- ثم أخرج من جيبه الداخلي خنجرأ فأعطاه للكونت وقال له : انتقم بهذا
- الخنجر فهو أسرع في قضاء الحاجات .
- فأخذ الكونت وقال له كن واثقاً فإن يدي لا تضطرب .
- وبلغ الاثنان وهما يتحادثان إلى باب الحديقة وكانت مركبة فابيان تنتظر
- فركباها وأمر فابيان السائق ان يسير إلى شارع باسي وعين له نمرة المنزل ،
- فسارت المركبة سراً حثيثاً حتى بلغت إلى المنزل المعين فوقفت ونزل منها

الاثنان فقال الكونت ارتوف . انظر الى الا ترى وجهي مصفراً ؟

— نعم ا.

— إن هذا الاصفرار دليل الغضب عندنا نحن الروسين أهل الشمال فان كل روسي ، إذا أهين تذهب منه عواطف الاشفاق ويذكر انه تترى من أصل جنكيزخان .

فلم يحبه فابيان ودنا من باب ذلك المنزل الذي كانت ريبيكا تستقبل فيه رولاند وطرقه ففتحت له خادمة ، ولما رأت هذين الرجلين تظاهرت بالاضطراب وقالت لهما : إن سيدتي ليست بالمنزل .

فقال فابيان : كلا بل أنها في منزلها ولا تجزعي منا فنحن أصدقاء رولاند ثم دخل وتبعه الكونت قبل ان يدع لها وقتاً للاعتراض فمشى أمام رفيقه حتى اجتاز الدور الأول فنظر إلى الكونت فرآه يمشي باقدام ثابتة غير ان اصفرار وجهه كان يشبه اصفرار الأموات ، وكانت عيناه تتقدان ويتطاير منها اللهب .

فوضع فابيان إذنه على أحد الأبواب وقال للكونت : تعال واسمع فاني اسمع صوتيهما فأتى الكونت ووقف يصغي إلى تلك الأصوات فاضطرب وهاج هياجاً شديداً لأنه سمع صوتاً يعرف صاحبه .

ثم نظر من ثقب قفل ذلك الباب فرأى الكونتس أرتوف جالسة على مقعد ويحانها رولاند ماسكاً يديها وهي تنظر اليه نظرات العشاق وتقول له بغنج ودلال : إذن فانك لا تزال تهواني .

فقال لها رولاند : أحبك حباً لا يقني و . . .

ولكن الكونت لم يدعه يتم حديثه فانه دفع الباب برجله فانكسر ودخل وهو يزأر زئير الأسود والخنجر مشرب بيده .

وفي الوقت نفسه وبسرعة البرق فتح باب آخر مقابل للباب الذي كسره ودخلت امرأة فحالت بين الكونت وبين العاشقين فما أوشك الكونت ان ينظر

اليها حتى وقف وقفة الأبله وسقط الخنجر من يده فان تلك المرأة التي دخلت كانت الكونتس ارتوف ايضاً ، ولكنها كانت اكثر جمالا وانضر شباباً من الكونتس أرتوف الأخرى

فلما رأت ما كان من سقوط الخنجر من يد الكونت وانذهاله دنت منه بمظاهر الكبرياء ووضعت يدها على كتفه وقالت : اية هاتين المرأتين الكونتس ارتوف ايها الزوج العزيز ؟

فصاح الكونت صيحة فرح وقد عرف كل شيء ، ثم جثا أمام باكارا يلتمس منها العفو فلم يستطع ان يقول كلمة وسقط مغمياً عليه .
وعند ذلك دخل الطبيب وقال لباكارا : اطمأني يا سيدتي فان هذه الحادثة الأخيرة انقذته .

وفي المساء كان الكونت ارتوف لا يزال منمحط القوى اثر اغمائه وكان جالسا على كرسي كبير في منزل باسي وأمامه باكارا والطبيب صموئيل ورولاندي كايلت الذي صافحه الكونت مصافحة الاخوان فزال ما بينهما من الأحقاد لأنه أخبره بجميع ما حدث له من مكاييد وروكامبول وبعد حين انصرف الجميع ولم يبق أمامه غير باكارا فطوقت عنقه بذراعها وجعلت تمسكه ودموع الفرح تنهل من عينيها وهي تقول : لقد زال الآن كل خطر فانت اندريا هوى إلى ظلمات الأبد وروكامبول زج في أعماق السجون فلأنس شقائي بقربك إذ ليس ما يمنعني الان ان اعيش لك وبك .

ودارت قبلات الحنو بين الزوجين فلم يقطعها غير كلمة « أحبك » .
أما روكامبول فانه بقي في سجن اسبانيا نحو عسام ثم ارسل الى سجن طولون في فرنسا .

وقد اتفق انه بعد خمسة أعوام مرت بهذه الحوادث كان الفيسكونت فابيان وامراته بلانش في طولون فخطر لهما ان يزورا سجنها الرهيب ، وفيما هما يطوفان فيه ومعهما رئيس ذاك السجن إذ رأيا احد اولئك المجرمين المنكودين بمدداً على

الأرض كأنما التعب اضنى جسمه فلم يستطع حراكاً فلما رأى هذا المجرم الرئيس هم ان يقف كي يحياه ، ولكنه ما لبث ان وقف حتى سقط لضعفه وان انين المتألم .

فأشفقت عليه بلانش وقالت للرئيس : ما شأن هذا المسكين ؟
- انه مركيز يا سيدتي وقد صدعت رجله في هذا الصباح وسينقل الى المستشفى في المساء .

فمعبت بلانش لكلامه وقالت كيف يكون مركيزاً ويكون في السجن ؟
- انه مركيز وغاية ما أعلمه من امره انه حاول الفرار منذ خمسة أعوام فشوه وجهه كي لا يعرفه من يطارده ولكنه قبض عليه ورد إلى مكانه في السجن وعند ذلك صرخ هذا المركيز متألماً فدننت منه بلانش وزوجها وهي راثية لحاله فلما رأما روكامبول صاح صبيحة منكورة فحسبت بلانش انه يصيح من الألم فتوجعت لمصابه واخذت من جيبها عدة فرنسكات فأعطته اياها وقالت له : استعن بهذه الفرنسكات على حالك ولا تقنط من رحمة الله .

ثم احتجبت عنه مع زوجها دون ان تعرفه لتشوه وجهه غير ان روكامبول عرفها وتمثلت له باريس وزخارفها وسابق أيامه فيها فأن ذاك الأنين ثم سقطت دمعتان على خديه وقال : كل ما لقيته من العذاب لم يكن شيئاً مذكوراً ، والان قد بدأ العذاب الصحيح .

انتهت رواية ~~الخماس~~ ~~الخامس~~ باكارا »

ويليها المجرم الخامس من روكامبول « سجن طولون »

وبه يبدأ المجلد الثاني

RIWAYAT RUCAMBUL

AL-MAKTABA AL-THAKAFIYAT